

العماد الأديب وفردية

رسالة علمية • أدبية • اجتماعية

قدمها الباحث

فتوارة حسن حسين أبو الهيجاء

لنيل درجة العالمية .. الدكتوراه في الأديب والنقد

من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر

بإشراف الأستاذ

الدكتور / سليمان حسن ربيع

٢٠٠٢ / ٢٠٠٢
٧٥٥



٣١٩٧٧ / ١٣٩٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الرسالة :

~~~~~

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم . . . والصلاة والسلام على  
النبي الأكرم والرسول الأعظم - الذي أنزل الله عليه القرآن ، هدى للناس وبينات من  
الهدى والفرقان ، . . . فكان أفصح من ناض بالحجة والبرهان ، وأبلغ من أسال بالبيان  
أسئلة اللسان . . . علوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأحبابه - الذين  
آووا ونصروا ، وأيدوا وآزروا ، ورابطوا وصابروا . . . حتى نادوا وراودوا وتملكوا وسادوا ،  
ونسروا كلمة الله ، فذكية الأرج ، ندية السبق . . . على أعلى التجود في ميدان الخلود .

وسد . . . فها أنذا أفى بما وعدت ، وأصدق ما عاهدت ، وأقدم هذا البحث  
لدى القطف وليس السطف ، في دقة حسن ، ورقة مس - ليكون أهلاً للشئون بين يدي  
أساتذتي الجهابذة أنصار لجنة الحكم الذين أرجو أن يأذن الله له بالقبول لديهم ،  
وإنال الرضا منهم ، وتتحقق الآمال المرتتبة والأمانى المرجاه .

ولقد أخذ عماد الدين الأصغراني يداعبني ويغاكهني عند ما قرأت له وفيه أثناء  
تأليف رسالة التخصص " الماجستير " التي حصلت عليها من كلية اللغة العربية بجامعة  
الأزهر الشريف بتقدير " جيد جداً " سنة ١٩٧٤ فقد أقبلت كثيراً عليه ، ووقفت أياماً  
لديه يهزني الطرب لبلاغته ، ويحركني العجب من فصاحته ، ويأسرنى وفاءه الكريم لرعيهين  
من أكرم زعماء المسلمين ، وتائدين من أجمع وأشجع من عرنت الدنيا شجاعة وبراعة . . .  
وذا ان هما نور الدين زنگي ، وصالح الدين الأيوبي . . . اللذين عمل معهما وأخلص لهما ،  
وكتب عنهما ، وامتزج بهما وأساان شعره ونثره باسميهما مشيداً مادحاً ، وجدلاً فرحاً . . .  
حين ينتصران ، بائساً ألماً وحزيناً ترحماً حين ينهزمان .

ومن هنا فرض على نفسه ، وتقدم إلى حسه - مصبوا في كلمات ، مفرغاً في عبارات -  
تختال في برود الشعر ، أو تميز في ثياب النثر . . . حيث يتألاً بيانه ، ويتفجر وجدانه ،  
ويلج إحسانه في آفاق الأدب السامر ، والأسلوب الشاعر ، والتركيب الناثر - الذي أمسك  
مفني بالجيد ، واستعزى على المتأيد ، حتى رأيتني مشدوداً إليه منجذباً نحوه ، راغباً  
في دراسته ، مولعاً بالبحث فيه .

وزادنى به اعجابيا ، وله حبا أنه كان رجل عمل لتحقيق أمل ، وكان دائب السعى ،  
دائم السير فى فجاج الحياة - وكان كالثائر المرء ، يتنقل بين الأفنان والأغصان ،  
منشدا مفردا ، صائحا صادحا ، محبرا محررا ، دون كلل أو ملل أو ضعف أو خلل . .  
حتى لقي الله بعد أن نال رضاه .

ولهذا أثرته بهذا البحث ، وتوجهت نحوه بكل ما أملك من قوة وعزم ، وإن كان  
ذلك قد كلفنى الكثير الكثير . . لأنى درستُه بطلا مجدا مجاهدا ، وكاتبا شاعرا رائدا ،  
ومؤرخا مترجما ناقدا . . يزينه الوفاء والاخلاص ، وترفعه النزاهة والعدالة ، وتزغى به  
العلوم والمعارف وتتدرع به الفصاحة والبلغة أينما وجد وحيشا كان .  
هذا الى سياسة وكياسة ، وانطباع وسلاسة ، وقدرة ودراية ، واستقامة وهداية ،  
ودربة ومراثة وحنكة وأمانة ، وقدم سبائة ، وطاقة خالقة فى جميع العيادين .

نعم . . كان العماد شابا قوى البناء ، متوقد الذكاء ، ثم صار شيخا مشتملا  
الضياء شديد السن والسنا . . . كان مؤرخا عادقا فقرأت كتبه التاريخية لدراسة  
أحوال عصره السياسية والحزبية والعلمية ، وكان شاعرا مغلقا فلزمت أسفاره كي أستكنه  
أشعاره ، وأستنطق آثاره وأكون أخباره .

وكان نائرا متفوقا ، فلزمت رسائله لأتعرف دخائله ، وترسمت كتابته لاستخرج  
حليته وكان أديبا لييبا ، وناقدا عجيبا فاستعرضت كتوزه ، وتتبعته ذخائره سواء فى  
الخريدة ، أو فى كل فريدة - كي أفيض على بحثى من مادته ، وأوفر له جمال بزمته  
ولقد كنت جد سعيد أن توليت هذه المهمة ، وسألت الله أن يمنحني **الفتاء** ، ويرزقني  
**اليفاع** ويبسط لى أسباب العمل كي أحقق هذا الأمل . . وأنفص عن هذا الكاتب الشاعر  
الفذ غبار ثمانية قرون توالى بعد أن توسد التراب ، وهو رجل حرى بأن يظهر وجهه  
المشرق لأبناء **عمورنا** ، ونجلى حياته الوطنية المضيئة أمام العيون الباحثين والدارسين .

ولقد كان أوفر مصادر هذه الدراسة ، وأوفى كتبه التى اعتمدت عليها بشأنها  
هو الذخائر العلمية التى تركها ، والكنوز الأدبية التى خلفها . . وأغصها " الخريدة "  
و " الفتح " و " البرق " و " نصره الثقرة " وبعض كتب ذلك العصر . . كالروضتين  
ومفرق الكروب وغير هذا وذات .

على أن السقبة الكأداء التى صادتني كانت صعوبة الحصول على أجزاء الخريدة

المطبوعة كلها ، وتصوير الأجزاء المخطوطة التي لم تطبع منها ، . . . فقد طبع من الخريدة أجزاء في السراق ، وأخرى في الشام ، وثالثة في مصر ، ورابعة في تونس ، وبعضها طبع في أوائل الخمسينات وأصبح في حكم النادر أو المحال أن نعث على شيء منها ، . . . غير أني بذلت بسخاء ، وضاعفت في الأثمان العطاء ، فجددت لي السوق السوداء بما أملت ، وحققت ما ربت ، وإن كانت كلفتني أضعافا مضاعفة في الأثمان ، . . . ولقد كان الحصول على القسم الشامي صعب المنال . . . غير أن قيادته لان ، وشموسه خف عند ما مرت أخلاف المال ، وأسلت حوافظ المنار ، وأملت الباعة أقلى نوال . . . وإن كان الحصول على القسم السراقى - مع ما فعلت - من الصسوبة بمكان .

ولقد قمت بتصوير جزء من من القسم السراقى ، وآخرين من قسم بلاد المعجم - الذى كان ينقص عدة أوراق - ، وبهذا أكملت أجزاء الخريدة عندي ، وأصبحت تحسب كتنفى ورهن قراءتى وإطلاعى ، ثم أمدنى الله بعونه ففقت بعدة رحلات في البلاد السرية واستطعت بعد لآى أن أوفر المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها واعتضدت بهما ، واستندت إليها .

والمعروف أن الكتب التي تبحث في هذا العصر - أعنى القرن السادس - إما قديمة نادرة كالروغيتين وتاريخ آل سلجوق ، وإما جديدة ظهرت حديثا ومعظمها ظهر في السنوات الأخيرة ، والمكتبات العامة لم تحصل عليها بعد ، والمكتبات التجارية تصدق عن شرائها لقله الإقبال عليها .

ولقد شوه كثير من الأدباء السابقين صورة هذا العصر ، ولطخوا رسوم أدبه بالسواد مع أنه عصر مشرق بحضارته ومعارفه ، مضيئ بأشعاره وآدابه ، وضيع بانتصارات قادته وزعمائه على ألد خصومنا في ذلك الزمن ، ونعم السليبيون وأذنايبهم ، . . . وكان الاستعمار الغربي أراد إخفاء هذا التاريخ الناصع البياض عن أبناء العرب والمسلمين ، فمنع دراسته على الوجه الصحيح ، وأوجز أخباره على القارئ ، وعرضه عرضا مزريا لا يسمن ولا يفنى من جوع ، فاصدا أن يقطع ما بيننا وبين تلك الفتوحات والبطولات النادرة الوجود الآن .

ومن أعظم الأسباب التي دفعتنى إلى الحديث عن السواد والبحث في تاريخه - عملا وأدبا - أن ما كتب عنه حتى الآن لا يمكن أن يعد دراسة علمية وافية بحقه مسورة لتاريخه وأدبه كما ينبغي أن يكون ، وقد أشار الدكتور شكرى فيصل إلى دراسة عن السواد قام بها الأستاذ مظفر سلطان بعنوان " السواد الأعفهانى . . . حياته وشعره " فكتبت

إليه مستفسرا عن مكان هذا الكتاب فرد على مشكورا بأنه في حكم المفقود ، واضطرت السي  
السفر للبحث عنه في دمشق وحاولت الحصول عليه فلم أستطع ، ثم ذهبت مرة أخرى السي  
المكتبة الظاهرية بدمشق سنة ١٩٧٤ وكان من حسن حظي عشوري على نسخة منه فيها ،  
فقرأتها في ثلاثة أيام ، ونقلت منها ما وجدته ضروريا للبحث ، ولما أنهيت قراءته والنقل  
منه أحسست احساسا عميقا بأن المؤلف لم يحط العماد حظه من الدراسة الكافية ،  
وكان اعتماده على اثنين وثلاثين مرجعا ومصدرا ، ولهذا جاءت معلوماته مبتورة ، وتموجاته  
الباحثة ناقصة نقضا شديدا - فضلا عما يبذره للعيان من أول وهلة - في موقفه من العماد  
الذي اتخذه عدواً لدوداً ، وقصد عامداً إلى تحطيمه وتدميره وتشويه صورته الناصفة  
البياض ، فاتهمه في نفسه ، وشوهه من أخلاقه ، وطحن في سلوكه ونهنه من غيره وقيل  
من حده وثلم من شباه ، وحقر من شعره ، وسخر من نثره ، ووضع من مكانته .

ومن الغريب أنه لم يدرسه مؤرخا ، ولم يكتب عن نثره ، ولم يبحثه ناقدا ، وقسوق  
عذا وذاك أنه يوم طبع بحثه سنة ١٩٤٨ لم تكن الخريدة قد طبعت بالصورة التي هي  
عليها الآن .

ولما <sup>حصلت</sup> ظهر الجزء الأول من القسم العراقي للخريدة ترأت فيه ترجمة جيدة للعماد  
كتبها الأستاذ الكبير بهجة الأثرى نائب رئيس المجمع العلمي العراقي ، وقد أفادت  
كثيرا من منهجها وما جاء فيها ، غير أنني خالفت في أمور مخالفة أرجو أن يتقبلها  
برحابة صدر العالم الذي يقدر البحوث ويقدم الآراء خاصة اذا قامت على أساس علمي  
مكين متين .

وجل ما قرأته عن العماد بعد ذلك لا يتمدى الصفحة أو السفحتين أو الصفحات  
المعدودة التي لا تعطى انطباعة كاملة عن هذا الرجل العظيم الذي وهب نفسه للعلم  
والأدب والجهاد والعمل والرحلة في سبيل دينه ووطنه ، والتضحية من أجلها بكل  
مرتخص وغان .

ومن حق أن أقرر هنا أن الشور على المصادر والمراجع الخاصة بالعماد كان  
من أشق الأمور التي واجهتني في فسوة وعنف ، ومن أجل الحصول عليها سلكت  
طريقتين .

أولاهما : السفر - من الكويت محتل عملي وسكني - إلى دمشق برا مارا ببغداد  
في صيف سنتي ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ م حيث حصلت على عدد كبير منها ، وفي تلك

الحاضرة أفدت كثيرا من كتوز الأدب في المكتبة الظاهرية .

وفي شتاء سنتي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ - كذلك - سافرت الى البصرة مرتين في كل عام حيث حصلت على مصادر ومراجع عديدة .

وثانيهما : مراسلة المكتبات خاصة مكتبة المثني ببغداد ، وقد تفضل صاحبها -

مشكوراً - تزويدي بعدة كتب ضرورية لبحثي ، أهمها : القسم الشامي من الخزينة ، والجزء الأول من " الروضتين " والجزء الثاني من " فخر الكروب " وغيرها ، كذلك راسلت معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية ، ومكتبة بودليان بأكسفورد في لندن .

وقد استفدت - كذلك - من معارض الكتب التي أقيمت في عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ في الكويت ، وأهمها أربعة معارض هي : معرض الكتاب التونسي ، والكتاب العراقي ، والكتاب الاسلامي ، ومعرض الكتاب العربي ، وهو آخرها وأهمها جميعا وأكثرها كتابا وقد شاركت فيه معظم دور النشر في البلاد العربية من المحيط الى الخليج وأستطيع أن أؤكد أن أهم مصادر هذا البحث هي :-

١- كتب المصادر المطبوعة وهي : " الخريدة " و " الفتح القسي " ومختصر كتابه

" سنا السبرق " .

٢- تاريخ دولة آل سلاجوق <sup>مختصر كتاب</sup> للمؤلف <sup>مختصر كتاب</sup> نصرمة الفترة

٣- كتاب " الروضتين " لأبي شامة المقدسي - وهو كتاب لا غنى عنه لباحث يدرس هذا القرن ، وفي هذا الكتاب اختيارات شديدة لكتب المصادر السابقة .

٤- كتاب " فخر الكروب " في أخبار بني أيوب لابن واصل .

٥- كتاب " وفيات الأعيان " لابن خلكان .

٦- معجم الأدباء لياقوت الحموي .

٧- الوافي بالوفيات للسعدي ، والتكملة لوفيات النقلة للمندري ، والجامع المختصر لابن الساعي وغيرها .

ومن المراجع الحديثة استفدت كثيرا من كتب الأدب في بلاد الشام للدكتور عمر موسى باشا و " الأدب في عصر صلاح الدين " للدكتور محمد زغلول سالم ، و " الحياه الأدبية في عصر الحروب الصليبية " للدكتور احمد احمد بدوي ، و " عصر سلاطين المماليك " للدكتور محمود رزق سليم رحمه الله .

كذلك رجعت الى بعض الكتب الأجنبية فوجدت أن الغربيين قد اهتموا اهتماما بالغا بالعماد المؤرخ - لأنه كان المؤرخ الوحيد الذي شاهد الأحداث عن كثب وكسب عن رؤية خاصة في معركة " حطين " وسقوط " القدس " والمدن المحتلة الأخرى .

ومن أهم الأجنب الذين أهدت من آرائهم : سيرها ملتون جب في عدة كتب له ، وروكلمان ورو نسيان ، وأليسييف - وغيرهم .

هذا هو البحث الذي أضنيت نفسي فيه وشغلت حسي به وعشت معه الأيام والليالي في نصب ووصب مستلذا المتاعب ، مستعذبا الآلام . . . لأنها وصلت بي الى النهاية التي كنت أؤملها ، والنهاية التي كنت أرتجيبها في الكتابة عن هذا الأديب العملاق الذي كان جذوة مشتملة ، وطاقه متوقدة ونجما لامعا في كل سما . . . في زمان كان ينضج بالكفاح ، ويسئز بالحروب ، ويسيل بالصراع بين قوى الخير والشر على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية التي تفجرت في الشرق الاسلامي روحا من الزمان .

ولقد أشعر من الأعماق أن هذا البحث على سمته وامتداد أفقه ودقة سيله وكثرة جوانبه غير كاف في الكتابة عن هذا الكاتب المعجزة الذي ظهرت بصماته المشرقة في ميدان الشعر والأدب والسياسة والاجتماع ، وتلاآت آثاره وآياته في رحاب الحرب والسلم وبين قمعة السلاح وتخاطف الأرواح ، وعلى سيف الرسائل الأخوية ، والمشاعر الذووية التي قدم منها الكثير . . . فوقف على القمة وخطا خطواته الحيوية فوق منساط السحاب .

ولن أنسى ما حيينت قصة الاشراف على هذه الرسالة ، ولا الأطوار التي مرت بهما في أجواز الفضاء ، فقد سعدت أيما سعادة حينما توجهت الى الأستاذ الفذ والعالم الجليل الدكتور عبد السلام ابي النجا سرخان عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق الآن - والأستاذ السابق بكلية اللغة في القاهرة - راجيا إليه في الإحاح والحفاف أن يتفضل مشكورا بقبول الاشراف على هذه الرسالة التي اخترت موضوعها ووضعت منهجها معه - بعد أن رشفت من رحيق السلم على يديه ، واشتفت من أفابيق الأدب في ساحته وتذوقت حلاب المعرفة من كتبه . وتشمخت بحلاب الفهم في ثنايا دراسته ، وبمسد أن تلتفت عنه سنتين متواليتين في قسم التخصص " الماجستير " - فلم يخيب رجائي ولم يرفض طلبي ، وقبل الاشراف في اشراق وحسن تلاق ، وأخذ يمهده لي السبل ، ويعبده الطرق ، ويديني النائي ويقرب البعيد . . . ثم سافرت الى مقر عملي في الكويت - مزودا بنصائح مزدا نا بتوجيهاته ، وأخذت أكتب على هدى إرشاده ، وأسطر على صوت وجاه ،

واستمرت الصلات الطيبة بيني وبينه لا يمتورها وهن ولا يصيبها ضعف بل كانت تقوى  
على الأيام وتسير قدما إلى الأمام ، ثم علمت بعد أكثر من عام ، أن عوامل إدارة  
وتنظيمية قد حرمتني هذا الإشراف الرسمى ووضعتنى بين يدي أخيه وزميله الأستاذ  
الدكتور سليمان حسن ربيع ، فشغى ذلك من نفسى ووازن بين أحاسيسى وعرفست  
اننى سأعترف من البحرين وأفيد من الأستاذين وأقتطف من ثمرات هذا وذاك .

وما أثار إعجابى وملا نفسى تقديرا وإجلالا أن الأستاذ الدكتور سرحان  
لم يأل جهدا عن مد يد المعاونة لى ووضع كل جهوده بين يدي وعاطفى معاملة  
اشتفت منها روح المحبة والأخاء بينه وبين الأستاذ الدكتور سليمان ربيع - ومن أجمل  
ما شغف اذنى من عباراته قوله : " ان سرحان وسليمان أخوان وهن وان وكل منهما  
يمثل الآخر فى جميع جوانبه وصوره فى كل نواحيه .

ومن هنا أفدت من الأستاذين الكبيرين وضعت بإرشادتهما ونصحت بتوجيهاتهما  
ولم يسمنى الا ان أصدع لما يأمران وأنفذ ما يوصيان به حتى كانت النهاية والوصول الى  
الغاية التى تمثلت فى اخراج هذه الرسالة على هذا النمط الذى <sup>أهو</sup> يراه الناس  
جميلا ، وعلى ذلك الطرز الذى <sup>أتمنى</sup> يظهره كاملاً وإن كان الكمال لله وحده ، والامر  
بيده سبحانه .

وقد آليت ان أذكر هذا الجانب المشرق المضيء ليتبين الناس أقدار العلماء  
وتعرفوا إلى الاخلاق الطيبة والأدب الكريمة والملاقات الصافية التى جمعت بين  
الأستاذين الأخوين ، فكانت صورة نقية لأكرم إخاء ولا يسمنى إلا أن أسأل الله  
للأستاذين الكبيرين دوام صفائهما واستمرار إخائهما وأن يقيهما للأدب ذخرا ،  
وللعلم فخرا ، وجزئهما عنى أعظم الجزاء ، إنه أكرم من سئل وخير من أجاب .

المباحث

فؤاد حسن حسين أبو الهيثجاء

صباح السبت ١٤ من ذى القعدة سنة ١٣٩٦ هـ

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٦ م





ينهران الطغيان اللافتحة في رسوم حالكة السواد .

### ١- الحياة السياسية :

في مطلع هذا القرن كان الإمام المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله شـهـبه سجين على كرسى الخلافة في بغداد ، ولم يكن له من السطوة أو السيطرة على أمور البلاد شيء ما في قليل أو كثير . . لأن بلاد فارس وخراسان والسراق كانت تحت حكم السلاجقة الأتراك المتناحرين على النفوذ والسلطان ، وكانت بلاد الشام تعاني من بطش معتد أثيم وتشكو من حكم طاغية بغيض . إذ كان ساحلها قد سقط في يـد الاحتلال الصليبي ، وكان وسطها وداخلها يعانيان من الأثابكة الذين لم يكن لهم هم ، إلا إرضاء النزوات وأشباع النزعات ، وتحقيق الرغبات والكرع من حياض الشهوات والملذات وكانت مصر - كذلك - تكن من حكم الفاطميين الذين فقدوا هيبة السلطان وتحكم فيهم وزراءهم - حبا وقتلا وحجرا وتشريداً .

نعم كان هذا القرن في بدايته مؤذنا بالفناء ، وكان سكانه يجالدون سكرات الموت ، وكان من المعجزات أن مد المولى تبارك وتعالى يد الرحمة لعباده - فإذا الأمور تتغير والأحوال تتبدل ، والمحاسن تزيج للمساوي ، والقوة تذيب الضعف ، والوحدة تحرق إغاب التمزيق والتخرق والتشوق ، وإذا بالانتصارات المتتابعة تمسح عـنـار الانهزامات المتكررة ، وإذا الخوف يتبدل أمنا ، وبالاضطراب يحور هدوا ، وبالظلم ينقلب عدلا ، وبالرعب ينهار تحت سنابك جيوش الأطمئنان .

فلقد آلت السلطة في خراسان إلى سنجر بن ملكشاه ، وكان أبناء أخيه محمد - وشم محمود وسعود وطغرل وسليمان - يناصبونه العدا . فحاربهم ، وهزم ابن أخيه محمود بن محمد بن ملكشاه هزيمة منكرة على حدود العراق (١) ثم تم الصلح بين الطرفين - بوساطة تدخل العقلاء - بين المتحاربين - وأصبحت الدولة مقسمة بين خمسة من السلاطين ، هم سنجر وأبناء أخيه الأربعة - ولعل من النكات التي أطلقت يوم أن اجتمعوا في خيمة واحدة - ما فعله نديم ساخر من أعداء سنجر - حيث وقف وصلى ركعتين ، ورفع يديه إلى السماء داعيا متضرعا - فاستدعاه سنجر ساغلا عن هذه الصلاة وذلك الدعا ، فقال الرجل : " ناجيت الله تعالى وقتلت : هؤلاء العصبة

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ( ١١٦/١١٥ )

الذين اجتمعوا في هذه " الخركاه " هم أصول الفتن ، وفروع المحن ، فاحسب بهم  
هذه البقعة ، وانتقص عنهم هذه الرقعة . . حتى يسلم خلقك ، ويسلم حقك " . . . . .  
فصحك منه سنجر . ( ١ )

ان هذه القصة سواء اكانت صحيحة ، أم كانت فرية من القرى - تدل دلالة  
قاطمة على أن الأمة كانت قد ضجرت من حكمها ، وضاعت ذرعا ، لأنهم استعبدوا ،  
وقتلوا رجولتها وأفتوا أبناءها في الدفاع عن عروشهم - اذ كانوا قد نسوا الله فأنساهم  
أنفسهم ، وكان قد امهلهم فلم يرتدعوا فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقبضهم اليه فأقبلوا  
عليه بصحائف سود على أطباهم ممنوعة من صفائح القتال والعمام .

ولقد تركهم السلطان محمود عائدا الى بغداد ، ولأمر ما شرع يضايق الشعب ،  
وبدا تضيق الخناتى على كثيرين إلى حد القتل وإزهاق الأرواح وإسالة الدماء . . .  
لكنه مات سنة ٥٢٦ ( ٢ ) ودب الخلاف بين سنجر وطغرل من جهة وسعود من جهة  
أخرى ، وجرت بين الفريقين معركة شرسة أسرف فيها مسعود ، ولكن أخويه منحه عسوا  
شاملا ، وأعاداه الى ملكه .

ثم دب الخلاف بين داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه ، وبين عمه طغرل ،  
وتحرك مسعود الى بغداد فدخلها ، وخطب له على منابرها ، وكان هم كل سلطان  
سلجوقي أن تكون له الخطبة على منابر المساجد في بغداد ، وكان الخطيب يدعو  
للخليفة ثم للقائد المنتصر . ( ٣ )

ولقد حاول الخليفة المسترشد أن يثور على هذا الوضع فجرت بينه وبين السلطان  
محمود معركة أسرف فيها الخليفة ، ثم أطلق سراحه بتدخل من السلطان سنجر ، ولكن  
الباطنية قتلتة في طريق العودة سنة ٥٢٩ هـ ( ٤ )

وولى بعده ابنه الراشد الذي حاول استرداد بنية الخلافة فانضم اليه أتايك  
زنكي صاحب الموصل ، ثم تخلى عنه نظرا لاتفاقه مع مسعود ، . . وقد حاول الخليفة  
أن يحتل أصفهان ولكن الباطنية قتلتة - أيضا - سنة ٥٢٢ هـ . ( ٥ )

( ١ ) تاريخ دولة آل سلجوق ص ( ١١٥ / ١١٦ )

( ٢ ) تاريخ دولة آل سلجوق ص ( ١٤٠ / ١٤١ )

( ٣ ) المصدر السابق ص ( ١٤٣ ) وما بعدها

( ٤ ) الخريدة - القسم العراقى ١ / ٢٢ - ٢١

( ٥ ) الروضتين ح ١ ( انيل ) ص ٢١

وخلفه المقتدى بن المستظهر ، ولكن الأمور لم تهدأ ، وازدادت الحال سوءاً ، وغنف الصراع بين السلاطين ، وحاول سنجر اصلاح ذات البين بين أولاد أخيه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ذا بال - حتى قال عنه العماد : " فما أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر ، ولا أبدل شكوى بشكر ، ولا كشف ظلامه ، ولا كف قلامه ، ولكنه ودع ابن أخيه - يعنى مسعوداً - وعاد ، ومات مسعود سنة ٥٤٦ هـ (١) ، وخلفه ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، ولكنه لم يعمد للصراع ، ولم يقو على النزاع ، فهرب بعد عدة أشهر ، وخلفه محمد بن محمود بن ملكشاه سنة ٥٤٧ هـ (٢) .

ويظهر أن المقتدى - بعد وفاة مسعود - شحذ عزمه ، وأبدى حزمه ، وعمم على أن يتخلص من شر سنجر ، وأولئك - ملك السراى من أقصى الكوفة الى مدينة حلوان (٣) ، ولن تكريت الى عبادان (٤) ورفع الخطبة لمحمد بن محمود سنة ٥٥١ هـ . فجهاه محاربا مقاتلاً ، واستطاع الخليفة أن يهزمه هزيمة منكرة عند بجمزاً - على بعد مرحلتين من بغداد . (٥)

ثم جرت بعد ذلك حوادث كثيرة ، وظهرت خلافات كثيرة بين السلاطين السلاجقة والخليفة ، ولكن أحدا منهم لم يستطع بعدها اقتحام بغداد ، وغدا للخلفاء العباسيين سلطان على العراق كله ، وأصبح لهم احترام كامل عند آل زنكى والأيوبيين من بعدهم .

ثم ولى بعده المستنجد سنة ٥٥٥ هـ ، والمستضيئ سنة ٥٦٠ هـ ، والناصر سنة ٥٧٥ هـ ، وفى عهده مات العماد ، وقد حكم الناصر سبعة وأربعين سنة - حتى قال فيه السيوطى - نقلاً عن الذهبي - : ولم تنزل مدة حياته فى عز وجلالة ، وقمع للأعداء ، واستظهار على الملوك ، ولم يجد ضيماً ، ولا خرج عليه خارجى الا قبيحاً ، ولا مخالف الا دفعه ، وكان من أصغر له سوءاً رماه الله بالخذلان ، وقد وصفه بأنه كان شديد الاحتمام بمصالح الملك ، ولم يخف عليه شئ من أحوال رعيته كبارهم وانصغار ، كما نقل عن الموفق عبد اللطيف البغدادى - أن الناصر كان قد ملأ القلوب غيبة وخيبة فكان أهل الهند ومصر وبغداد يرهّبونه ، فأحيا بهيبته الخلافة التى كانت قد ماتت بموت المعتصم ، ثم مات مرة أخرى بموته . (٦) وفى عهده انتهت الدولة السلجوقية سنة ٥٩٠ هـ

(١) تاريخ دولة آل سلجوقى ( ٢٠٦ / ٢٠٧ )

(٢) انصدر نفسه ص ٢١٠

(٣) حلوان مدينة فى شمال فارس والعراق

(٤) تاريخ دولة آل سلجوقى ٢١٤ وعبادان مدينة فى منطقة عرستان الواقعة على الخليج

السرى شرقاً والتى احتلتها إيران فى الفترة الاخيرة .

(٥) تاريخ دولة آل سلجوقى ( ٢١٧ / ٢١٨ )

(٦) تاريخ الخلفاء للسيوطى ( ٤٤٨ / ٤٥٠ )

حلوان فى عت مواضع : حلوان المعروف ، وهى فى أقصى حدود السواد ما إلى الجبل من بغداد وحلوان مصر وحلوان بدير بقرستان بدير نيسابور

وكان آخر ملوكها طغرل بك شاه بن أرسلان بن طغرل بك بن محمد بن ملكشاه . (١)

أما في الشام فقد كان الصليبيون - في مطلع هذا القرن - قد احتلوا كثيرا من مدنه . . أمثال الرها ، وأنطاكية ، والقده ، والكرك ، وثابلس ، وصور ، ويافا ، وعكبا ، والساحل كله حتى وصلوا غزة وعسقلان ، وذلك لهم دمشق وسفر مدن الشام بدفع الضرائب (٢) . وعم الخيفه منهم جميع الأرجاء .

وفي الموصل كان قسيم الدولة آق سنقر - جد نور الدين - قد ملك أربعا من قبل ملكشاه الملك السلجوقي سنة ٤٧٧ هـ ، وقد شارك في حروب كثيرة انتهت بمقتله بسد أسره (٣) وكان له ولد صغير اسمه زنكي لم يبلغ من العمر سوى عشر سنين ، فكلسه أحد أعداء أبيه ورباه وعنى به ولكن هذا الصديقي قتل سنة ٥٠٠ هـ بعد أن ظهرت على زنكي علامات القوة وسمات الشجاعة ، وتم الاتصال بينه وبين صاحب الموصل الأمير مودود وحارب معه ضد الفرنجة ، وأبدى بسالة فائقة لفتت الأنظار إليه ، وجمعت القلوب حواليه ، وظل إلى جانب الملك مسعود السلجوقي حتى سنة ٥٢٤ - فسلا قدره وارتفع ذكره ، وأبعد عيته . وارغب عوته ، وتقلب بعد عا في المناصب بين الموصل والجزيرة والبصرة إلى أن انتهى به المطاف في الموصل (٤) حيث شارك في أعمال كثيرة .

والذي يهمننا من حياته جهاده للفرنج عندما خرج ملك الروم إلى شيرز ومعه جند كثير وحاربها فاستعان مسعود بزنكي الذي وقف قبالة الفرنجة حتى ارتحلوا عن البلدة ، وفي سنة ٥٣١ احتل حصن بارين (٥) ، وفتح الرها سنة ٥٣٩ (٦) ، ومن قبلها فتح شهر زور وحاول فتح دمشق فلم يستطع ، (٧) ثم احتل آمد ، ورأس عين ، والرقبة ، ونصيبين وغيرها (٨) ، ثم قتله جماعة من مماليكه (٩) وغوي يحاصر قلعة جسر سنة ٥٤١ فانقسمت مملكته إلى قسمين بعده - هما :- الموصل التي ورثها ابنه سيف الدين غمازي ، وجلب التي كانت نصيب ابنه نور الدين محمود . ثم استطاع الأخوان الماقلان الرزيمان أن يتفقا ويتركا التنازع والحسد ، فتفرغ نور الدين - المولود سنة ٥١١ - للجهاد بعد ذلك . (١٠)

- 
- |                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) المرجع السابق (٤٥٤)       | (٢) الروضتين ج ١ ص ٩٤ (النيل) |
| (٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦ (النيل) | (٤) الروضتين ٢٩/١ - ٣٠        |
| (٥) انصدر نفسه (٢٤/١)         | (٦) المصدر نفسه (٢٦/١)        |
| (٨) المصدر السابق (٢٦/١)      | (٧) المصدر السابق (٢٢)        |
| (٩) المصدر السابق (٤٢/١)      | (١٠) المصدر السابق (٢٨/١)     |

وكانت أولى الصعوبات التي واجهت نور الدين على عصيان الرها ٠٠ التي كانت  
 جوسلين الصليبي أهلها من الأرمن ، وحشهم على الثورة فأجابهم إلى ذلك ، فلما بلغ  
 أمرها نور الدين عجمها بجيشه فهرب جوسلين ودخلها نور الدين وسبى أهلها وأخذ  
 أموالها ٠٠ فثارت شاعرة ابن القيسراني بقوله :-

أَمَا أَنْ أَنْ يَزْعُقَ الْبَاطِلُ ؟      وَأَنْ يَنْجِزَ الْمَدَّةَ الْمَاطِلُ ؟  
 فَإِنْ يَكْ فَتَحَ الرَّهَى الْجَبَّةَ      فَسَاحِلَهَا الْقُدْسَ وَالسَّاحِلَ هـ  
 فَهَلْ عَلِمَتْ - عَلِمَتْكَ الدِّيَا      ر - أَنْ الْقِيمَ بِهَا رَاحِلَ (٢)

وجن جنون أوربة - فخرجت بجيوشها وعساكرها سنة ٥٤٢ هـ بقيادة كونراد الثالث ملك  
 ألمانية ولويس السابع ملك فرنسا ، وحاصروا دمشق فاستعان صاحبها بسيف الدين  
 غازي صاحب الموصل ولم يستمن بنور الدين خوفا منه - أن يدخلها فلا يخرج ، ففشلت  
 الحملة الصليبية ، وتابع نور الدين جهاده الرائع - فاحتل عدة حصون .

وفي سنة ٥٤٢ هـ سار إلى بصرى وانتصر على الإفرنج ، وعززهم بها هزيمة فكريا  
 فقال ابن القيسراني :-

فَكَيْفَ لَا تُشْنَى عَلَيَّ عَيْشَنَا الْـ      مُحَمَّدٌ وَالسُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ  
 فَلَيْشْكُرِ النَّاسُ ظِلَالُ الْمُسْنَى      إِنْ رَوَاكَ الْعَدُوَّ مَسْدُودٌ (٣)

وقد حقق انتصارات عظيمة سنة ٥٤٤ هـ على الفرنجة - أعظمها معركة " أناب " <sup>(٤)</sup>  
 التي قتل فيها الإبرنس صاحب أنطاكية ، وإجلاء جوسلين عن حصون كثيرة منها حصن  
 دلسوك .

ومن أهم الحوادث الحاسمة التي حدثت : احتلال دمشق سنة ٥٤٩ هـ ، وحصار <sup>(٥)</sup>  
 سنة ٥٥١ هـ - وهو حصن قريب من أنطاكية - وبذا أصبح نور الدين صاحب دولة كبرى  
 مهيبة الجانب مرفوعة اللواء فاستطاع أن يقف أمام الفرنجة وجها لوجه فهاجوه ورعبوه رعبية  
 شديدة .

(١) كذا في الروضتين ( ٤٦/١ ) والخريدة بداية فسم الشام ( ١١٠/١ ) ولعلها  
 فساحتها .  
 (٢) الروضتين ( ٤٦/١ ) (١) المصدر السابق ( ٥٥/١ )  
 (٤) المصدر السابق ( ٩٤/١ - ٩٥ )  
 (٥) المصدر السابق ( ٩٤/١ - ٩٥ ) والكامل ٧٤/١١  
 (٦) الروضتين ( ١٠٠/١ )

ومنذ ذلك الوقت عمل نور الدين على توحيد بلاده ، وضم الكثير من المدن ،  
وأصبحت دولته تشمل حلب وحمص ، وحمص ، وحمص ، وسليبيك ، ودمشق ، والرها ، ونبج  
وغيرها .

وفي نهاية سنة ٥٦٢ هـ قدم العماد الى دمشق وانضم إلى ديوان نور الدين  
بعد ذلك بوقت قصير ، وشهد معه الأحداث الداخلية ، وكذلك حروب الجهاد ، وظل  
صاحبه ورفيقه حتى يوم وفاته سنة ٥٦٩ هـ ، ولهذا سنتوقف عن السرد التاريخي هنا لنعود  
إليه مبسوطا في حديثنا عن عمل العماد مع نور الدين إن شاء الله تعالى .

ولم تكن الأحوال في مصر خيرا منها في العراق وفارس والشام ، إذ كان الخلفاء  
الفاطيون قد ضعفوا واستبد بهم الوزراء ، ثم اشتد الصراع بين هؤلاء الوزراء فقتل  
بعضهم بعضا ، وطمع كل منهم على صاحبه اشد الطاميان .

ويكفي أن نقل بعض السور المربعة التي تدل على سوء الحال ، وسواد المسال  
في دولة الفواطم .

فقد ذكر صاحب الروضتين أن نصر بن عباس - نجل أحد كبار الأعيان - قتل  
الخليفة الفاطمي " الظاهر " وأخفى جثته ، وذلك سنة ٥٤٩ هـ .

ولعل ما ذكره أبو شامة في وصف ذلك اليوم المشؤم ما تفشعر له الأبدان ،  
وتصطبك منه الأسنان وترتعد معه الفرائص ، فالقتل أصبح أهون الأمور ، ووالد القاتل  
أصبح الأمر بيده ، وتلقب بالأقضل ركن الدين ، ولهذا استفاد أهل القصر  
بالمملك الصالح طلائع بن رزيك ، الذي استطاع أن يطرد عباسا هذا ويولي الخلافة  
ولدا صغيرا سمي بالفائز ، واستقل بالأمور طوال مدة خلافته ( ٥٥٥ / ٥٤٩ ) هـ .  
واستمرت وزارته بعد تولى العاضد للخلافة ، وقد اشتهر بقتاله الافرنج وانتصاره  
عليهم سنة ٥٥٢ هـ ، ثم استيلائه على عدة مراكب لهم ، وكان سبب قتله : أن عمته  
العاضد استطاعت تدبير أمر اغتياله لأنها كرمته ، وقد ترجم له العماد ، وأطرى  
فضله ، وأشاد بشعره ومروته ، وأورد له الكثير من الأشعار . ( ٤ )

( ١ ) الروضتين ( ٩٨ / ١ )

( ٢ ) الروضتين ( ١١٥ / ١ )

( ٣ ) المصدر السابق ( ١٢٤ / ١ )

( ٤ ) الخريدة - قسم مصر ( ١٧٢ / ١ )

وقد تولى الوزارة بعده شاور ، ولكن الصراع لم ينته . . . إذ خرج عليه أمير آخر يدعى **ضرفام** ابن سواد ، فطرده من القاهرة ، والتجأ شاور لنور الدين ، مستنجداً به ، واعداء إياه بالوقوف إلى جانبه في حروبه مع الفرنج ، وأن يدفع له قدرأ ثابتاً من المال ، فانتدب نور الدين شيركوه وصلاح الدين لتنفيذ هذه المهمة ، ونجحوا في إعادته للوزارة وقتل غريمه ، فلما شعر بالقوة رفض تنفيذ وعوده المالية والحربية ، (١) فاحتل شيركوه بلبيس ، واستنجد شاور بالفرنج وتوالت أحداث أرغمت شيركوه على الرجوع إلى مصر (٢) مرتين آخرين رافقه فيهما صلاح الدين وانتهى الأمر بقتل شاور ، وتولى شيركوه الوزارة الفاطمية - ولكنه مات بعد شهرين فوليها صلاح الدين ، الذي أنهى الخلافة الفاطمية ، ودعا للعباسيين سنة ٥٦٧ هـ ، ومات المناضد بعد عطا أيام قلائل . (٣)

وهنا نتوقف - أيضاً - عن الخوض في تفاصيل الأحداث - لأنها سنذكرها في ثنايا حديثنا عن عمل العماد مع صلاح الدين ان شاء الله تعالى . . . وممروفاً أن حياة العماد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بأحداث عصره السياسية والحربية . . . حيث شارك بالرأى والعقل والكلمة منظومة ومنشورة .

#### ٢- صورة المجتمع :

لقد عانى المجتمع الإسلامي في الشرقي الأوسط من مشاكل كثيرة في هذا العصر ، وشاعدها اضطرابات مختلفة الصور والرسوم ، وأعظمها بأحداث متوالية . . . أفقدته الحياة الهادئة التي ألفها ، والمعيشة الكريمة التي عرفها ، والهدوء النفسى الساكن الذى كان يحياها .

لقد ساد نظام الاقطاع الفارسى في هذا القرن ، وكانت الدولة تتكون من ولايات و " أتابيكات " يقوم على حكمها ، والسيطرة عليها أتابكة وأمرأه ونواب لهم الكلمة الأولى والأخيرة في شؤون الاقطاعات ، ولم يكن للشعب صوت مسموع ، ولا كلمة نافذة ، وكان لكل كبير فيهم أجناده وحراسه المخلصون له ، والمدافعون عنه ، المكافحون عن ظلمه وجبروته حيثما كان ، يسرعون كيف شاء . . . ويأمرهم بما يريد . . . فأصبح الشعب كله

(١) الروضتين ( ١٢٠/١ - ١٢١ )

(٢) المصدر السابق ( ١٣١/١ )

(٣) المصدر السابق ( ١٩٣/١ )

(٤) راجع الروضتين ( ٤٤/١ ) لقراءة حياة أتابك زنكى ومغامراته حتى وصل إلى السلطة .



يكدر ويكد ، ويتسبب وينصب - لارضاه عولا . السادة المغامرين ، وقد انتشرت المظالم بسبب هذا النظام ولم يسلم الملوك والنوراء والقادة والأمرء من التمرس للبطش والتنكيل في كثير من الأحيان . . فكانت أموالهم تستلب ، وحقوقهم تنتهب ، بل ويلقى بهم من أعلى النجاد الى أدنى الوهاد ، وقد روى العماد كثيرا من الأحداث الظالمة التي حلت بهم ولا . ومن ذلك ما فعل بتراث السلطان محمد بن ملكشاه حين توفي . . فقد ذكر أنهم تصرفوا في أثاثه ، وتقاسموا أمواله ، وأفرغوا خزائنه من ذهبها وفضتها ، ونهبوا الحلى والمصوغات والجواهر ، وباعوا خيله الكراب ، وما كان يملك من الأنعام (١) .

وكانت الهيئة الاجتماعية تتكون من العرب والفرس والترك - فضلا عن الروم والأرمن والافرنج ، وكان المجتمع ينقسم الى طبقات عديدة على رأسها الخلفاء والنوراء فالسادة ، وفي مرتبتهم سلاطين الدولة وأتابكة الولايات ، وأصحاب الاقطاع والتجار والصناع ، ثم المزارعين والخدم والرقيق والجواري والمطربات ، وكان لبعض الجواري والمغنيات مراكز تتبع مراكز السادة والمعجبين ، وكمن بجارية غدت من سيدات القصور وأمهات الأمراء وأولياء اليهود .

أما الخلفاء فقد بلغ بهم الضعف ما بلغ ، وأما السلاطين فأضحوا بغاة فساد وطفاة عناد وأما الشعب كله فكان يتراقص على أنعام التآكل والمغنى والانحلال (٢) .

وكانت الخيرات تتوزع حسب الدرجات والمكانات ، ويبقى للشعب النفايات ، وكانت الحروب الداخلية سببا رئيسا في انهك قوى الأمة ، وضعف ماله من بنيان ، غير أن الأمر لما استتب لنور الدين تحسنت الأحوال ، وخفت صرايب الخشب والأنبيان (٣) ، ونظم ابن عساكر قصيدة يمدح بها نور الدين لهذا الألقاء فقال :-

لَمَّا سَمَّحَتْ لِأَقْبَلِ الشَّامِ بِالْخَشَبِ      عَوَّضَتْ مَسْرِمًا فِيهَا مِنَ النَّشَبِ  
وَإِنْ بَدَّلْتَ لِفَتْحِ الْقُدْسِ مَحْتَسِبًا      لِلْأَجْرِ جُوزِيَتْ أَجْرًا غَيْرَ مَحْتَسِبِ (٣)

وقد استطاع نور الدين تأمين البلاد من اللصوص وقطاع الطرق ، ويرجع للأمة كرامتها المفقودة ، ويقودنا الى حرب مشرفة يدل ذلك التطاحن والتصارع الذي كان

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٢

(٢) الروضتين ( ٢١٤ / ١ ) النيل

(٣) الروضتين ( ١٦٠ / ١ )

من أجل الحكم والسلطان •

وعلى الطريق نفسه سار صلاح الدين الذي شغل الناس بالجهاد عشرين عاماً متوالية كثرت فيها الفخام وتحسنت لأحوال العامة •• وان كان نظام الاقطاع ظل سائداً بصفحاته السود التي كانت قذى في عهد حكمهما الأبيض الناصح البياض •

وعلى الرغم من أن نور الدين كان تركياً وصلاح الدين كان كردياً رأينا العرب يعملون تحت ظلالهما محاربين مجاهدين مجالدين في سبيل الله ، كآل فضل ، وآل مصر ، وآل عقبة (١) ، ولم يكن المجتمع آنذاك يعترف بشير القومية الاسلامية التي تجمع كل هذه الأجناس تحت اشرف لواء ، وهو لواء الاسلام •

وكما كان هناك امارات غير عربية كان هناك أخرى يرأسها أمراء من العرب كامارة المزيديين في الحلة ، والعقيلييين في الموصل • (٢) وقد ترجم العماد لأبطالهم الأشاوسى وذكر أخبار الصراع بين ديبس الأسدي والخليفة •• الذي دام سنوات طوال •

وكان للصوفية آنذاك سهولة ودولة ، وكان نور الدين يحبهم ويرعاهم ويسطف عليهم ويسترضيهم (٣) وقد كثرت الزلازل في هذه القرن وكان من أشدها فتكاً بالناس وتخريباً للعمران زلزال سنة ٥٥٢ الهجرية ليلة ١٩ من صفر تبعه عدة زلازل في الأيام التالية دمرت كثيرا وأبادت كثيرا وتركت البلاد بعده في أسوأ حال - وفي ذلك يقول الشعراء :-

|                                         |                                            |
|-----------------------------------------|--------------------------------------------|
| رَوَّهْنَا زَلَّازِلَ حَادِثَاتٍ        | بِقَضَاءِ قَضَائِهِ رَبُّ السَّمَاءِ       |
| عَدَدَتْ حَسَنَ شَيْرِزٍ وَحِمَاةِ      | أَعْلَكَتْ أَسْلُهُ سُوءَ الْقَضَاءِ       |
| وَبِلَادًا كَثِيرَةً وَحُمُومًا         | وَتَشْوِيرًا مَوْثِقَاتِ الْبِنَاءِ        |
| وَإِذَا مَا رَنَّتْ عَيْنٌ إِلَيْهَا    | أَجْرَتْ الدَّمْعَ عِنْدَهَا بِالْدَّمَاءِ |
| وَإِذَا مَا قَضَى مِنَ اللَّهِ أَنْزَرَ | سَائِرِي فِي عِبَادِهِ بِالْمَصْنَاءِ (٤)  |
| حَارَ قَلْبُ اللَّيْبِ فِيهِ وَمَنْ كَا | نَ لَهُ نِطْنَةٌ وَحَسَنٌ ذَكَاءِ          |

ولقد تركت تلك المجاعات والقاتلة آثارا مهيبة ومعالم شهوداً على صفحات الحياة

(١) الأدب في بلاد الشام د. محمد موسى باشا ص ( ٧٢ / ٧١ )

(٢) الخريدة بالقسم العراقي ج ٤ : القسم الأول

(٣) الروضتين ج ١ ص ٦ ، ٩ قال أبو شامة : كان يحضر مشايخهم عنده ، ويقربهم ويدنيههم ويسطهم ••••

(٤) الروضتين ٢٤١

وكان من أشد ما تلك المجاعة التي حدثت في مصر سنة ٥٩٧ هـ حيث اشتد الفناء ، وشحت الأغذية فضعف القوى ، وغزل السمين ٠٠ ومات الأقوياء فضلا عن الضعفاء ، وتفرق الناس في الأمصار وتمكن الفرنج من أسرهم وأخذهم رقيقا يرسلونه إلى بلادهم . (١)

### ٣- الحياة العقلية والثقافية :

عرف هذا القرن بتشجيع السلم وتكريم العلماء ، وإحاطتهم بسياج من الاجلال والاكبار في كل مسار ٠٠٠ وقد بيد و هناك تعارض بين هذا الذي تقرره الآن وما قررنه من قبل عن سوء الحياتين السياسية والاجتماعية فيه ، ولكن الواقع أن العلماء المتخصصين في هذا القرن كانوا كثرة كاثرة ، وكذلك دور السلم والمعرفة التي انتشرت في كل مكان - زيادة عن المساجد والمعابد التي بقيت مضيئة بالعلم والايمان - فضلا عن المكتبات العامة والخاصة التي كانت مزارا للاشعاع الدائم في كل مكان .

ولقد كان جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية من أكبر المساجد في ذلك الزمن ، وكان الطلاب يفدون اليه من كل حدب وصوب ٠٠ وذلك فضلا عن الجامع الأزهر (٢) الذي أنشأه جوهر الصقلي بأمر المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين في مصر .

ولقد كان هذا المسجد جامعة اسلامية كبرى في مصر ، وكان يدرس فيها الفقه الشيعي ، ولكن الأمر انعكس حين انتهى علاج الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية ، ونقل الخطبة من الأزهر إلى جامع الحاكم بحجة أنه أوسع ، ولكن السبب الحقيقي أنه كان مركز الشيعة الأول فأعمل أمره ليعتمد الناس عنه ٠٠ ولكن على الرغم من ذلك ظل الأزهر قبلة جامعة وتقى بعض علماءه يحملون مسابيح العلم والتدريس في أفيائه . وكان منهم عبد اللطيف البغدادي . (٣)

وكانت هناك مدارس في جوامع الحاكم والأمر والقطارين تنوعت فيها الدراسات وتفرجت منها ينابيع تسييل منها مياه الثقافة ، وتجري سيول المعرفة .

وكان المسجد الأموي في دمشق عامراً إلى أقصى مدى ، وقد وصف ابن جرير

(١) الروضتين ( ٢٤٤ / ٢ )

(٢) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية هـ أحمد . أحمد بدوي ص ١٤

(٣) المرجع السابق ص ١٥ / ١٤

١٥٥



مساجد دمشق وتديرها للعلم والعلماء فقال : " ومرافق الغريب بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ولا سيما لحفاظ القرآن الكريم " (١) كذلك وعف جامعتها والحلقات التي كانت تقام به ، وكانت حلب مركزا آخر من مراكز العلم ، وكان جامعتها مدرسة لطلابه ، ومن رجالها كمال الدين الشهرزوري ، وكان ابن عمرو من أساتذتها الذين درسوا فيها ، وفي بغداد كانت المساجد دورا للعلم تقام فيها المناظرات وتلقى المحاضرات ، وقد شهد العماد بعضها هناك .

أما المدارس الأخرى فقد اعتم الخلفاء والسلاطين والسلاط بينائها ، فكان في بغداد مئات المدارس ، وعلى رأسها نظامية بغداد التي كانت الجامعة الإسلامية الأولى التي تخرج كبار العلماء .

وفي أعفهان ومرو وغيرهما بنيت نظميات أخرى ذكرها العماد في الخريدة وكانت واسط والبصرة مركزين من مراكز السلم والمعرفة ، وإن كان صوتاها قد خفتا قليلا عما كانت عليه في القرون الماضية ، وقد ترجم العماد لكثير من علماءها وشعرائها ، وذكر العديد من أخبارهم العلمية والثقافية . (٢)

أما في الشام فقد اشتهرت مدارس كثيرة كالنورية الكبرى والنورية الصغرى والعمادية والمصرونية والخاتونية الجوانية وغيرها ، وقد تحدث صاحب "الدارس" وابن جبير عن المدرسة الأولى حديث الرضا والاعجاب وقال الأول إن الذي بناها هو نور الدين . (٣)

وكان الحافظ ابن عساكر يتولى تدريس الحديث فيها ، وأما الثانية فقد خصصت للأحناف ، (٤) والثالثة كان العماد أول المعلمين فيها ، ويستطيع المستزيد أن يرجع إلى كتاب "الدارس" للنعماني ، أو "الأعلاق الخطيرة" لابن شداد ليتعرف إلى انتشار المدارس وكثرة أعدادها في ذلك العصر . (٥)

وقد بنى صلاح الدين كثيرا من المدارس في مصر ، وكان أهمها وأشهرها ، الناعرية ، والصلاحية للشافعية والقشحية للمالكية ، والسوقية للأحناف . (٦)

(١) رحلة ابن جبير ( ٢٢٤ / ٢٣٥ )

(٢) الخريدة في الجزئين المخطوطين الرابع والخامس

(٣) الدارس للنعماني ( ٤٠١ / ٤٠٢ ) وغيره

(٤) رحلة ابن جبير ( ٣٢٢ ) (٥) الدارس ( ٦٤٨ / ١ )

(٦) في الدارس ترجمته لكثير من المدارس وتاريخ بنائها وتخصصها وكذلك في الأعلاق الخطيرة لابن شداد .

(٧) راجع كذلك المدارس والأعلاق الخطيرة في معظم أجزائها .

لقد تنافس نور الدين وصلاح الدين من بعده في دفع الحركة العلمية ، وتنشيط الاتجاهات الثقافية وأكرم كل منهم العلماء والأدباء والشعراء ، ورفع شأن كل من عرفه من عرّلاء وأولئذ - حتى استطاع ابن شداد أن يشارك القاضي الفاضل والعماد ، ويزاحمهما بمنكب ضخ سمين .

(١)  
وعلى نمط صلاح الدين سار خلفاؤه وأنشئوا كثيرا من المدارس ، والعمادة العادية التي هي الآن مركز المجمع العلمي العربي بدمشق : من بناء الملك العادل أخى السلطان صلاح الدين .

وقد شارك العلماء - أيضا - في إنشاء المدارس كالقاضي الفاضل وصفي الدين بن شكر وزير العادل والشهاب القوي تلميذ العماد الذي وقف داره لتكون مدرسة للحديث . (٢)

وقد كثرت المكتبات العامة والخاصة ، ومن أشهرها المكتبة النظامية في بغداد ، ومكتبة أصفهان .

ومن المكتبات المشهورة أيضا مكتبة الفاطميين التي باعها رجال صلاح الدين الأيوبي بأبخس الأثمان - في سوق الدلالة ، وهي عملية من أخطائه التي لا تفتقر . (٣)

ولقد كانت هناك مكتبات خاصة كمكتبات القاضي الفاضل والعماد وابن الخشاب شيخه الذي وقف كتبه على طلبية السلم بعد وفاته ، واهتم بعض الملوك بإحراق مكتبات خاصة بدارسهم كالكمال الذي ألحق بمدرسه مكتبة عظيمة (٤) ، ولقد كان في مصر والشام أسواق خاصة تباع فيها الكتب للراغبين ، وقد اهتم الناس بكل العلوم المحروقة كعلوم القرآن والحديث والفقه والخلاف والجدد والنحو والمروءة والقوافي واللغة والبلاغة والنقد والتاريخ والجغرافية والطب والفلسفة ، وعلوم الرياضيات والكيمياء ، والفلك والموسيقى فضلا عن اللغات ، خاصة الفارسية منها ، (٥) وقد ظهر في كل علم علماء مشهورون : في القرآن الكريم ألف سليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ مجلدا كبيرا في تفسير القرآن ، وصيف ابن ظفر المتوفى سنة ٥٦٥ كتابين " ينبوع الحياة " و " التفسير الكبير " . (٦)

(١) المدارس ( ٢٥٩/١ )

(٢) سوت نترجم للشهاب القوي ضمن تلمذة العماد .

(٣) وصفها العماد في أخبار سنة ٥٧٢ حين زار مصر بصحبة صلاح الدين واشترى كثيرا من كتبها - مراجع الورغتين ( ٢٦٨/١ )

(٤) راجع ما كتبه الدكتور أحمد بدوي في الحياة العقلية ( ٥٦ )

(٥) كتب الدكتور أحمد بدوي مفصلا ذلك في الحياة العقلية .

(٦) الأدب في بلاد الشام ( ١٢٢/١٢١ )

وفى علوم الحديث اشتهر السلفى وابن عساكر وأبو طاهر بن عوف ، ومحمد بن ناصب ،  
والأصبغى ، وعبد الرحيم بن الأخوة شهرة عظيمة ٥٥٥ . وفى علوم الفقه ظهر كمال الدين  
الشهرزورى ، وسها ، الدين بن شداد ، وابن عسرون (٢) ٥٥٥ . وغيرهم كثير من شيوخ العماد  
الذين سنترجم لهم إن شاء الله ٥٥٥ . ويكفى أن ندلل على كثرة علماء تفسير القرآن  
الكريم والفقه والحديث بأن ابن عساكر روى عن ثمانين امرأة ، وأن شيوخه زادوا على  
الألف بكثير ٥ - ومن النحاة ظهر عدد كبير أوردهم السيوطى فى بحية الوعاة ٥ - ومن  
أشهرهم "ملك النحاة الحسن بن صافى المتوفى سنة ٥٦٨ هـ ، وتاج الدين الكندي  
البيضاى الذى صاحب العماد ٥ وكان له ذكر فى الخريدة مرات ٥ والجواليقى ٥ ومحمد  
بن إبراهيم أبو الفتح القوسى (٦) ٥ ومحمد بن أحمد بن حمزة الحلبي الملقب بشرف  
الكتاب (٧) ٥ وأبو المظفر الأبيوردى ٥ وكثير غير هؤلاء ممن عاش فى الولايات الاسلامية  
قاعها ودانيتها .

ولعل علم التاريخ من أهم العلوم التى نالت حظوة العلماء فبرز فيه كثير من  
المشهورين على رأسهم ابن عساكر صاحب "تاريخ دمشق" وابن الأثير الجزرى صاحب  
"الكامل" وابن شداد صاحب "سيرة صلاح الدين" والعماد الأصفهاني صاحب  
"الفتح القسى" و "البرق الشامى" ٥ وابن ابن طى صاحب "السيرة الصلاحية"  
والقاضى الفاضل صاحب "اليوميات" المشهورة (٨) وأسامة بن منقذ صاحب  
"الاعتبار" وابن الجزرى صاحب "المنتظم" .

وتعد كتب هؤلاء الأفاضل المصادر الأصلية لدراية تاريخ ذلك القرن .

ومن مشهورى علماء البلاغة والنقد ظهر ضياء الدين بن الأثير علما راسخا فى هذا  
المجال ، وكتابه "المثل المسائر" سورة مشرقة فى ميدان النقد الأدبى الدقيق ،  
كذلك ظهر أسامة بن منقذ فى كتابه "البديع" وابن أبى أصيبعة فى كتابه "تحرير  
التجسير" .

- 
- (١) سنترجم لهم جميعا ضمن شيوخ العماد  
(٢) كمال الدين : حديق العماد وزميله وقاضى نور الدين بن زكى وسها الدين  
سنترجم له فى حديثنا عن العماد المؤرخ ، وابن عسرون ضمن شيوخ العماد .  
(٣) بحية الوعاة (١/٥٠٤-٥٠٥) (٤) المرجع نفسه (١/٥٧٠-٥٧٢)  
(٥) سنترجم له ضمن شيوخ العماد (٦) بحية الوعاة (١/١٥)  
(٧) المرجع السابق (١/٢٢)  
(٨) سنترجم لهؤلاء جميعا فيما بعد : ابن عساكر ضمن شيوخ العماد ، وابن الأثير الجزرى  
فى فصل العماد المؤرخ وابن ابن طى مؤرخ مشهور كتب تاريخه فى اخبار الدولة  
الصلاحية .

وفي هذا القرن لم يعد كبير من الشعراء ، ويكفي أن نشير إلى أن عدة مؤلفات ظهرت تحاوان حصرهم في إطار معروف كما " لغريدة " للسماد ، " وزينة الدعوى " للكثيري الوراق المتوفى سنة ٥٦٨ هـ ، و " الوشاح " للبيهقي ٠٠ الذي جعل كتابه ذيلاً لـ " دمية القصر " و " معجم الأدباء " لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . وفي الجغرافية ظهر كتاب ياقوت الحموي " معجم البلدان " وهو كتاب كامل رائع لاغنى عنه لدارسهما أوتي من علم ومعرفة ، و (١) وفي الفلسفة ظهر ابن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، وابن رشد المتوفى سنة ٥١٥ هـ ، وهما من أعلامها البارزة ، ولكن هذه المادة لم تزدهر بمصر والشام بسبب كراهية نور الدين وعلاج الدين لأصحابها .

وليس من غايتنا أن نطيل هنا ٠٠ لأن هدفتنا في الواقع أن يعلم القارئ الكريم بأن هذا العصر كان من عصور النور والاشعاع ، وأن مراكز العلم التي كانت في الشام هي التي أصابت ظلام القرون الطويلة في أوربة - فعن طريق هذه المراكز تعلم الصليبيون واطلعوا على علوم لم يروها وثقافات لم يعرفوها ، واكتشافات لم يألفوها ٠٠ فترجموا كتبها إلى لغاتهم ، ونقلوا معارفنا إلى مواطنيهم خاصة في مواد الطب والهندسة والكيمياء والرياضيات ، ودرسوها في جامعاتهم ونوا عليها نهضتهم العلمية الحديثة ٠٠ ولم ينمض الزمن جفنه حتى أصبحوا الأساتذة وعدونا التلامذة ، وإذا بنا نقف أمام حضارتهم موقف المعجب المشدوه - لا موقف المتذكر لأيام الجدود ، وما رفعوا من بنود ، لناخذ من هذه الحضارة ما يفيد ، ونسدد بحزم وعزم عما لا نريد .

### أصبهان جغرافياً وتاريخياً :

أصبهان مدينة فارسية مشهورة منذ زمن قديم ولا تزال قائمة حتى وقتنا هذا . وقد اختلف الجغرافيون في ضبطها ، فبعضهم ضبطها بفتح همزتها وآخرون جعلوها بالكسر . قال صاحب " معجم البلدان " ومنهم من يفتح الهمزة وهم الأكثر ، وكسرهما آخرون منهم السمعاني وأبو عبيد البكري (٢) الأندلسي . وتابعه على ذلك صاحب " مرآة الاطلاع " وابن الاثير في " اللباب " (٣) أما صاحب " معجم ما استمعجم "

(١) الأدب في بلاد الشام ( ١٤٦ )

(٢) معجم البلدان ( ٢٠٧/٢٠٦/١ )

(٣) مرآة الاطلاع ( ٨٧/١ ) واللباب ( ٥٥٧١ )

وذكر أخبار أصبهان \* فقد كسرها ونهر الأول على ذلك فقال : أصبهان بكسر أوله (١)  
أما الثاني فقد ضبطها بالكسر دون نص . (٢)

ولم يتعرض هؤلاء جميعا للحرف الثالث وتبوها بالباء فقالوا : أصبهان ، ولكنها  
وردت في الخريدة وغيرها بالفاء ، ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى كتابتها بحرف  
الباء في اللغة الفارسية ، أي حرف ( P ) باللغة اللاتينية ومن هنا جاء الخلاف  
فبعضهم جعلها ، وآخرون جعلوه فاء ، ولا فرق بين الكتابتين في المدلول .

ونرى بعضهم على سبب تسميتها فقال صاحب " معجم ما استعجم " : وسميت  
بذلك لأن أول من نزلها أصبهان بن فلوج بن يافت ، ونزل أخوه همذان مدينة أخرى  
سميت باسمه وعرفت بـ (٣) همذان " المشهورة ، ثم عاد وذكر رأيا آخر فقال : وقيل  
سميت أصبهان لأن أعبه بلسان الفرس : البلد ، وهان : الفارس ، فمعناه بلد الفرسان  
ولم يكن يحسن لواء الملك منهم إلا من كان من أهل أصبهان لنجدتهم وكانوا معروفين  
بالنجدة والفروسية .

ثم عاد مرة ثالثة ليذكر رأيا ثالثا فقال : " ونقلت من خط أبي الفتح الجرجاني  
أن أعبه بالفارسية : العسكر ، وأن هان معناه : ذاك . فمعنى الاسم ذلك العسكر " (٤)  
واتفق معه صاحب " معجم البلدان " في الرأيين الأول والثاني إلا أنه جعل كلمة أعبه  
التي وردت في الرأي الثاني : " الأصب " ، ثم عاد ليذكر آراء أخرى منها أن الأصب  
بلغة الفرس - هو : الفرس ، وهان : كانه دليل الجمع فمعناه الفرسان والأصبهان :  
الفارس . (٥)

وقد امتدح صاحب " معجم البلدان " جوها وصحة هوائها وخلوها من جميع  
الجهوم ، وبالغ حتى قال ناقلا عن غيره : " ولا تبلى الموتى في تربتها " ، ولا تتغير فيها  
رائحة اللحم ، ولو بقيت القدر بعد أن تطبخ أشهرها " وزاد على ذلك الكثير ، ولكنه عاد  
ليدلي برأيه الشخصي فقال : " وسألت جماعة من علماء أهل أصبهان عما يحكى من بقاء  
جثة الميت بها في مدفنها فذكروا لي أن ذلك بموضع مخصوص وهو في مدفن المسلم لا في

(١) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع للبكري الاندلسي ١٦٢/١

(٢) كتاب ذكر أخبار أصبهان ص ١٤

(٣) همذان بالتحريك والذان المعجمة احتلها المسلمون سنة ٢٢ أو ٢٤ هـ ووصفها

صاحب المعجم بأنها أحسن البلاد وأنزهها وأطيبها وأرفهها (ج ٥/٤١٠) معجم

البلدان . (٤) معجم ما استعجم للبكري الاندلسي (١٦٢/١)

(٥) معجم البلدان (١/١٠٦-٢٠٧)



جميع أرضها . (١)

وأعيهان : اسم للمدينة وللإقليم الذي يشمل عدة مدن أهمها : جسي واليهودية  
 وفسله (٤) وعدة مدن أخرى ، وهي متسعة اتساعا عظيما تفرقتما تمتد على مائة وعشرين  
 فرسخا في مائة وعشرين فرسخا . وحدودها كانت ما بين أطراف خمزان ونهاوند (٥)  
 الى أطراف كرمستان (٦) وما بين أطراف السرى وقومسرى (٧) الى أطراف فارس وخوزستان .  
 وهي تشمل - على ما ذكر صاحب كتاب " ذكر أخبار أعيهان " - خمسة آلاف قرية  
 وسبع مدن ، خربت منها أربع مدن قبل الاسلام وبقيت ثلاث . (٩)

واختلفوا في زمن فتحها فذكر صاحب " فتوح البلدان " أن فتحها بدأ في  
 سنة ٢٣ هجرية وتم في سنة ٢٤ هـ (١٠) ونقل ذلك عنه صاحب " معجم البلدان " (١١)  
 وخالفه صاحب كتاب " ذكر أخبار أعيهان " فقال : كان فتحها آخر سنة ٢٠ هـ . (١٢)

واختلفوا كذلك في فاتحها فصاحب " فتوح البلدان " يذكر أن فاتحها عبد الله  
 بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، (١٣) وذكروا آراء أخرى لا ضرورة لذكرها ، ولكنهم  
 اتفقوا على أن فتحها تم صلحا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأنه لمن أجمل  
 المصادفات أن صاحب " معجم البلدان " حفظ لنا كتاب الصلح الذي تم بشأن فتحها ،  
 والذي يظهر سراحة الإسلام وحبه للسلام وحفاظه على اليهود والنواثيق وهذا نصه :  
 " بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله للقاذستان وأهل أعيهان وما  
 حواليتها ، انكم آمنون ما أدبتم الجزية ، وعليكم من الجزية ما هو على قدر طاقتكم كل سنة  
 تزورونها الى من يلي بلدكم من كل حاكم ، ودلالة المسلم واصلاح طريقه وقراه يومه  
 وليلته ، وحملاان الرجل الى رحله ، لا تسلطوا على مسلم ، وللمسلمين نصركم وأداء ما  
 عليهم ، ولكم الأمان بما فعلتم ، فان غيرتم شيئا أو غيره منكم مغير ، ولم تسلموه فلا أمان

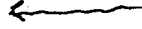
(١) المصدر السابق ( ٢٠٧ / ١ )

(٢) جسي : بالفتح ثم التشديد اسم مدينة ناحية أعيهان القديمة وهي خراب وتسمى عند  
 المعجم شهرستان وعند المحدثين المدينة - معجم البلدان ( ٢٠٢ / ٢ )

(٣) اليهودية : نسبة الى اليهود في موضعين : احد هما محلة بجرجان والآخر  
 بأعيهان سكنها اليهود بعد خروجهم من القدس أيام بخت نصر وأصبحت تابعة  
 لأعيهان معجم البلدان ( ٤٥٢ / ٥ )

(٤) فسله : بالكسر والقصر : قرية عظيمة بين السرى وفزوين ( ٤١٧ / ٤ )

(٥) نهاوند : بفتح النون الأولى وبكسرهما والنون مفتوحة ونون ساكنة ودان مهملة .  
 هي مدينة عظيمة بينها وبين خمزان اربعة عشر فرسخا - معجم البلدان ( ٣١٣ / ٥ )



- (٦) کرمان : بالفتح ثم السكون وآخره نون ، وربما كسرت والفتح أشهر ، ولاية مشهورة  
وناحية كبيرة معمورة وعلى بين فارس ومكران وسجستان وخراسان معجم البلدان  
( ٤٥٤ / ٤ )
- (٧) قومس، بالضم ثم السكون وكسر الميم وسين مهملة . كورة كبيرة واسعة تشتمل على  
مدن وقرى وعلى في ذيل جبال الطبرستان وعلى بين السرى ودينابور - معجم  
أبلدان ( ٤١٤ / ٤ )
- (٨) خوزستان : بضم أوله وبعد الواو الساكنة زاي وسين مهملة . اسم لجميع بلاد  
الخوز - معجم البلدان ( ٤٠٤ / ٢ )
- (٩) كتاب ذكر أخبار أصبهان ( ١٤ )
- (١٠) فتوح البلدان ( ٢٨٢ / ٢ )
- (١١) معجم البلدان ( ٢١٠ / ١ )
- (١٢) كتاب ذكر أخبار أصبهان ( ١٦ )
- (١٣) فتوح البلدان ( ٢٨٢ / ٢ )
- (١٤) فتوح البلدان ومعجم البلدان والصفحات نفسها .

لكم ، ومن سب مسلماً بلغ منه ، فإن ضربه تتلناه ، وكتب : وشهد عبد الله بن قيس وعبد  
الله بن ورقاء وعصمة بن عبد الله . (١)

إن مدينة أصفهان قد اشتهرت بالعلم والمعرفة وخرج من بين ظهرانيها آلاف  
العلماء والأدباء خاصة الشعراء ، ويكفي إلقاء نظرة وتصفح سريع لكتاب " ذكر أخبار  
أصفهان " وقسم " بلاد السجم " المخطوط من الخريدة (٢) لرسم صورة صادقة لما  
قررناه ، فقد ترجم أبو نعيم الأصفهاني والعماد الأصفهاني كذلك لمئات من أهل مسقط  
رأسيهما ، وأسماء السلفى والراغب الأصفهاني والعماد لمعت في سماء العلم والمعرفة  
قروننا منظومات .

---

(١) معجم البلدان ( ٢٠٩/١ )

(٢) قسم بلاد السجم من الخريدة ما زان مخطوطاً وشوفي ثلاثة أجزاء الرابع والخامس  
والسادس ومنه مصورات في معهد المخطوطات العربية في القاهرة والمجمع العلمي  
الدمشق .

# الباب الأول

حياته وآثاره

الفصل الأول : اسمه وشهرته (حياته)

الفصل الثاني : ثقافته وعلومه

الفصل الثالث : تـاجـه الأدي

الباب الأول  
حياته وأثاره  
النص الأول  
~~~~~

اسمه وشهرته :

(١) هو أبو عبد الله (٢) عماد الدين (٣) بن محمد بن أبي الفرج
محمد بن نعيم الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود
(٤) بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج
(٥) بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج
(٦) بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج
(٧) بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج
(٨) بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الفرج
وقد وقف كل الذين ترجموا لحياته عند هذا الحد (٩).

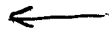
(١) أورد كثير من المصادر القديمة هذه التسمية ، واختلفت في ذكر الألقاب والكسنى
ومعنى جدوده فهو من مرآة الزمان لابن الجوزي (ج ٨ ق ١ ص ٥٠٤) " محمد بن
محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله " بتشديد
اللام .

وعند ابن الساعي في (الجامع المختصر ج ٦١ / ٦) " أبو عبد الله محمد بن
أبي الفرج محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله " .
وورد بهذه الصورة في التكملة لوفيات النخلة (٢٨٦ / ٢)

وفي (وفيات الأعيان ج ٢٢٢ / ٤) " أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبى
الفرج محمد بن نعيم الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود
ابن هبة الله المعروف بأله - وأعطى في الاسم الأخير حيث جعله لقباً مع أنه أب لهبة الله .
وفي (الواقى بالوفيات للسعدى ج ١٣٢ / ١) " محمد بن محمد بن حامد بن
محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله .

(٢) كناه صاحب الروضتين بأبي حامد (ج ١ ق ١ ص ٨) فقال : " العماد الكاتب
أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصهباني " ، وكناه صاحب (بدائع البدائى)
بأبي حامد (١١٥٦١٠٢٥١٠٠) وذكر الأستاذ الأثرى أنه كناه بأبي محمد وأبى
جعفر في موضعين آخرين (ولم نجد ذلك في النسخة المطبوعة) . وكذلك قال صاحب
(مرآة الزمان ج ٢٧٥ / ٨) " أبو حامد بن محمد الأصهباني " ثم عاد فقال : وكنيته
أبو عبد الله (٥٠٤ / ٨) وكناه ابن القسطنطينى في كتابه الوفيات " بأبي القاسم"
ص ١٩٩ .

- (٢) هذا هو لقبه المشهور الذي به عرف واشتهر حتى غلب على اسمه الأصين ، وقد وهم مترجمو كتاب بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية من ٢٥٨) فقالوا : " ابن العماد الكاتب " وقد أورد^{كروط}م صحيحا في كتابه تاريخ الأدب العربي بالألمانية ١ / ٥٨٤ . وهم فيه كذلك الدكتور أحمد شلبي في كتابه التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ص ١٦٥ فقال : " ومنهم الكاتب الشهير ابن العماد الأعفهانى " ولعله ناقل عنهم .
- (٤) أخطأ أبو الفداء في ايراد اسمه فقال : " محمد بن عبد الله بن حامد " (المختصر ٣ / ٤٥) وتابعه في ذلك ابن الوردي في (تمة المختصر) فقال : " محمد بن عبد الله بن حامد الأعفهانى " ١٧٥ / ٢ .
- (٥) زاد صاحب الدارس في تاريخ المدارس نقلا عن الأسدى بعد هذا الاسم كلمة " عبد الله " ولم يوردها غيره (١ / ٤٠٨) .
- (٦) قال صاحب وفيات الأعيان ج ٤ / ٢٣٢ " ابن هبة انه المعروف بأله كما ذكرنا أعلاه . وقال صاحب طبقات الشافعية الكبرى ٤ / ٩٧ (٠٠ المعروف بابن أله) وهو وهم إلا اذا عني العماد نفسه .
- (٧) اختلفت المصادر في ضبطه فقال ابن الأثير في الكامل (ابن اله أو أله باللام المشددة ولم يضبط الحروف (طبعة بيروت ١٢ / ١٢١) وفي طبعة المكتبة التجارية مصر ج ٩ / ٢٥٥ فقال : باللام المشددة المضمومة . أما صاحب مرآة الزمان فقال : أله بتشديد اللام وهو اسم فارسي ومعناه بالعربية العقاب . ولم يضبط بقية الحروف (ج ٨ ص ١٥٤) . وقال صاحب البداية والنهاية : (ابن اله بتشديد اللام وضمها) (٢٠ / ١٣) وقال السبكي في الطبقات : المعروف بابن أله بضم الهمزة واللام (٩٧ / ٤) . وبه قال الصفدي في الوافي ١ / ١٣٢ وقال في معناه وهو العقاب بالمعنى ومثله ضبطت في مجمع الآداب " لابن الفوطى (ج ٤ ص ٢ ص ٨٤٥) . وتابعهم كذلك النعماني في الدارس في الضبط وشرح المعنى ١ / ٤٠٨ وابن خلكان في وفيات الأعيان ٤ / ٢٢٢ و ١ / ١٦٠ طبع بيروت واعتمد الاستاذ بهجة الأثرى هذا الضبط فقال في مقدمته للنجم العرفاني من الخريدة : " والصحيح المعتمد من كل ذلك ضبط القاضي ابن خلكان والنعماني " ج ١ ص ٩ وضبطها الدكتور شوقي ضيف بعد الهمزة وضم اللام فكيفها " أله " قسم مصر ج ١ ص ١ من الخريدة . وتأخذ برأى الأثرى البينى على رأى أصحاب البداية والنهاية وطبقات الشافعية والوافي وغيرهم . لسهولة ضبطه .



(٨) وقد تلقب به ذا اللقب غيره من الشعراء والكتاب فوجدنا في كتاب "الذريعة إلى تصنيف الشيعة" شاعراً يسمى : عماد أعفهانى - أورده في ص ٦٨ وترجم له مرة ثانية فقال ديوان عماد كاتب من الخطاطين ^{الذين} ~~أوردوه~~ ^{أوردوه} بدليل قول القلانسيه (٤٠٨ ج ٤

من الخريدة) فقت ابن مقلة في الكتابة مثلما : فاق السحاب منك فيهن بنان (١) والأساتذة وديوان شعره معروف رقم الترجمة ٥١٨٢ وهو تشابه أسماء وألقاب لأن العماد سننى شافعى - كما سنرى - .

(٩) أوردت بعض المصادر والمراجع تراجم له ذاكرة اسمة مختصراً عما أوردها : فهو في الكامل - طبعة التجارية - مصر (١٧١/١٤) كاملاً وفي الطبعة اللبنانية محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن أله ، وفي معجم الأدباء (١١/١٩) محمد ابن محمد بن حامد بن عبد الله بن على أبو عبد الله .

وفي طبقات الشافعية الكبرى (ج ٤/٩٧) " أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج محمد بن حامد)

وفي " النجوم الزاهرة " (١٧٨/٦) محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن أله مسقطاً هبة الله .

وفي " الأنس الجليل " (٤٠٠/١) أبو عبد الله محمد بن عفى الدين الأصفهانى وفي " المختصر ^{للديلمي} ~~للديلمي~~ " (١٢٤/١) محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على .

وفي " المسبر " (٤٠٧/٤) محمد بن محمد بن حامد بن محمد الأصفهانى . وفي " طبقات الشافعية " للأسنوى (٣٥٤/٢) محمد بن أبي الفرج محمد بن حامد الكاتب الأصفهانى .

وفي " مفتاح السعادة " (٢٦٤/١) " أبو عبد الله محمد بن عفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيى الدين أبى الرجاء حامد الملقب بعماد الدين الكاتب الأصفهانى وفي " شذرات الذهب " (٣٣٢/٤) " أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى .

وردت ترجمته في بعض المراجع الحديثة ناقلة عن المصادر السابقة ومنها :

(عديه السارفين) لإسماعيل باشا البغدادى مجلد ١٠٥/٢ و "الحلل السندسية" لشكيب أرسلان ١١٦/٣ و "تاريخ آداب اللغة العربية" لجورجى زيدان ٦٥/٤ و "الأعلام" للزركلى ٢٥٣/٧ و "معجم المؤلفين" لكالة ٢٠٤/١١ و "الأدب فى

(١) ^{أوردوه} ~~أوردوه~~ ^{أوردوه} بدليل قول القلانسيه (٤٠٨ ج ٤ من الخريدة)

وقد عرف العماد بابن أخي العزيز (١) والعزيز - كما سنذكر فيما بعد - لقب
عمه أحمد بن حامد (٢) . وقد ترجمت له بعض الكتب الأجنبية . (٣)

-
- بلاد الشام • للدكتور عمر موسى باشا / ١٧٠ •
والآداب في عصر علاج الدين • ٢٤٠ • ومقدمة القسم العراقي من الخريدة ج ١ ص ٩
ومقدمة القسم المغربي ج ١ ص ١٠ • ومقدمة سنا البرق الشامي ٧/١
ومعجم المخطوطات المصورة • ولطفي عبد البديع ١٢٣/٢
ومعجم المطبوعات العربية ١٢٧٥/٢
وفي فهرس الخزانة التيمورية ٢١٤/٣ • وغير ذلك مما سنشير إليه أثناء دراستنا هذه •
(١) نسبة الى عمه العزيز كل من المصادر الآتية : "وفيات الأعيان ٢٣٢/٤
ومرآة الزمان ج ٨ ص ١٠٤ • وطبقات الشافعية الكبرى ٩٧/٤
والعبر ٤٠٧/٤ • والبداية والنهاية ٣٠/١٣
والوفاة بالوفيات ١٢٢/١ • والنجوم والزاهرة ١٧٨/٦ وشذرات الذهب
٢٣٢/٤

(٢) يقول الشيخ عباس القلي في كتابه المنكى والألقاب في ترجمته للعماد : "المعروف
بابن أخي العزيز صاحب تكريت ج ٢ / ٤٤٨-٤٤٩ • وكما هو مشهور في كتب التراجم
أن العزيز كان مسجوناً في تكريت ولم يكن صاحبها في أي يوم من الأيام •

(٣) 1- Nur ad-Din . by Nikita El isseeff. Pl.30 3) ٢

(١) نور الدين • نيكيتا اليسيف ج ١ ص ٢٠

2- Arabic Literature. by Gibb P. 131

(٢) الأدب العربي • ج ١ ص ١٤١
3- A History of Arabic Literature by : Clément Hurt
P. 190-191

(٣) تاريخ الأدب العربي لكلنت هورت ص ١٩٠-١٩١

4- The Life of Saladin from the worhs of Imad Ad-Din
and Baha-Ad-Din . by. Gibb .

(٤) حياة صلاح الدين من كتابات عماد الدين وسهاء الدين • لجب ، صفحات

كبيرة •
5- A History of the Crusadexs Volume 11 the Kingdom
of Jern salem. by Steven Runciman. P.62,127

عماد الدين الكاتب الأعفهانى (١)

وأطلق ابن الفرات عليه لقب القاضى أثناء نقله عن مؤلفاته (٢).

ووردت له صفات عظيمة وألقاب جليلة فى نهاية القسم المغربى من الخريدة يبدو
 أن الناسخ أو أحد ممتلكي ذلك القسم قد أضافها وهى : هذا آخر ما أورده من كتاب
 خريدة القصر وجريدة العصر الأمام العالم الأوحى صاحب الصدر ذو الرياستين (٣)
 جمال الحضرتين ، أكفى الكفاة ، أفصح البلاء ، أبلغ الفصحاء ، شرف الكتاب ، أمين
 الملك ، عمدة الملوك والسلاطين . . . عماد الدين ، عزيز الإسلام ، فقى الفرق ، ذو
 البلاغتين ، رئيس الأعصاب - أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأعفهانى
 الكاتب الملكى الناصرى . . . (٤)

وللسامد لقب آخر أطلقه عليه الخليفة المستنجد هو : عزيز الدين ، وهو لقب
 عمه أحمد ويبدو لنا أن العماد لم يتمسك به ، وقد مدحه بعض الشعراء وأطلقوا عليه
 هذا اللقب ومن هؤلاء أبو شجاع محمد بن الفلانسى الذى قال :

سَمِعاً عَزِيزَ الدِّينِ ، أَنْكَ وَاحِدٌ عَدِمَ النَّظِيرَ لَهُ ، وَعَزَّ الشَّانِى (٥)
 أَعْرَضَ عَنِ فِعْلِ الدُّنْيَا ، وَشَمَلَا لَمْ يَلْقُ فَضْلَكَ فِي الزَّمَانِ مُدَانِى

ويبدو لنا أن العماد قد أهمل هذا اللقب لأنه . . . رغب فى أن يكون له لقب جديد
 واكتفى بنعمت وحيد صار علما عليه ، ومشيئاً إليه . . . وقد أصبح لقبه - العماد - علماً عليه
 وحده . . .

فهو إذن القاضى عماد الدين الكاتب الوزير العالم الصالمة الشاعر المنشئ ذو البلاغتين
 ونحن لانشك ولا نعترض على ما لقب به من ألقاب ، فهو رجل كفا ، لكننا لا نرى أنه لقب
 بالوزير فى أية فترة من فترات حياته ، على الرغم من أن منزلته رقت وسمت الى منزلة
 السوزراء والعظماء ، وقد كان الرجل الأول فى أواخر حياة نور الدين ، والرجل الثانى
 فى ديوان صلاح الدين بعد القاضى الفاضل . . .

وقد وقع الأستاذ مظفر سلطان فى الخطأ حين قرر أن السيد يوسف الياس سركيس

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣ وسنا البرق الشامى ج ١ / ٥٠٧

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ١ ق ٤ ص ١٤٤

(٣) فى الأعرس : الرئاستين وهو خطأ شائع

(٤) الخريدة القسم المغربى ج ١ / ٥٨٩ آخر صفحة فى المتن

(٥) الخريدة - القسم العراقى ج ٤ ق ١ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩

صاحب مجمع المطبوعات العربية - وهو أول من منحه لقب الوزير تجوزاً أو سخاء حسين ترجم له فقال : " الوزير أبو عبد الله محمد بن صفى الدين . . . " ولعله قد أخذ هذا الخطأ عن السيد ملا كاتب جليلي صاحب كشف الظنون - حين عرف بأحد كتب العماد فقال خريدة القصر وجريدة أهل العصر مجلدات لعماد الدين الوزير العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد . . . (١)

ومن المؤكد أن الأستاذ لم يطلع على كتب العبر " و الذهب " و " الدارس " (٢)

التي منحت لقب " الوزير " قبل يوسف سركيس ومن المتفق عليه أن العماد لم يحصل على لقب الوزير في حياته .

نَسَبُهُ :

العماد من بيت فارسي ، كانت له السيادة والعزة في أصفهان برهة من الزمن ، واستطاع أعمامه خاصة " عزيز الدين " أن يصلوا إلى مراكز مرموقة في دولة السلاجقة .

وقد نسب العماد إلى مسقط رأسه فقيل : العَمَادُ الأصفهاني ، وكل الذين ترجموا لحياته نسبوه إلى هذه المدينة ، وشذ عنهم جميعاً ابن الفوطى الذى رَجَعَ أصله البعيد إلى قرين فأضاف كلمة القرشي إلى نسبه ، وتابعه في قوله هذا الأستاذ بهجته الأثرى الذى رأى في هذه الإضافة حقيقة مسلماً بها وقال في دفاعه عن رأيه : " بيشد أنى وجدت مؤرخاً واحدا ممن وفتت على آثارهم من المؤرخين ، وهو ابن الفوطى فقد شذ عن هؤلاء جميعاً ، فمن في ترجمته للعماد في كتابه " مجمع الآداب " على تعيين أصله فنسبه إلى قرين ثم إلى أصفهان ، وابن الفوطى من أوثق المؤرخين الذين ترجموا للعماد ولرجل بيته علة بأحوال فارس ، ومن أكثرهم معرفة بدقائق أمورنا ، ولطول مقامة فيها ، فإذا صح ما ذكره - ولا إخاله إلا صحيحاً - كان هذا البيت في التسميم من النسب العربى " (٤)

ومع ثقتنا الكاملة في الأستاذ المحقق ، ومع ثقة تدعونا لأن نؤاتقه ولا نناقشه -

نرانا مضطرين لعدم الأخذ بهذا الرأي لأسباب :-

(١) العماد الاصفهاني - حياته وشعره - مظفر سلطان (٩٦/٩٥)
(٢) حين كان الاستاذ الكريم يعد بحثه كان كتابا العبر والدارس مخطوطين ومع انسه - رجع الى شذرات الذهب إلا أنه لم يلاحظ كلمة الوزير على ما يبدو .

(٣) تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى ج ٤ و ٢ ص ٨٤٥

(٤) مقدمة القسم العراقي من الخريدة للاستاذ الأثرى (١٠)

أولها : أن العماد نفسه لم يشر من قريب أو بعيد لهذا النسب ، ولو صحت فرشيته لتباعى بها وتناخر ، وكثير من الناس ادعوا هذا النسب . . . تزيداً في الجاه ، وتمادياً في الفخر ومنهم الأيوبيون في اليمن الذين ادعوا أنهم أمويون (١)

وثانيها : اسم الجد " أله " فالعرب منذ القديم كانوا يأنفون من هذه الأسماء الأعجمية ، ويرفضون تسمية أبنائهم بها ، ولعل " أله " هذا أراد التخلص من الأسماء الأعجمية نسي ولده هبة الله ، ولعل أبنائه وأحفاده ساروا على هذا النهج ، وبذلك تخلصوا من تلك الأسماء الفارسية التي كانت تذكرهم بما قبل الإسلام ، وربما كان ذلك تقرباً من العرب الحاكمين ، كما حدث في التاريخ من أن رجالاً بدلوا أسماءهم بعد إسلامهم .

وثالثهما : أن رأى مؤرخ واحد ينسبه إلى قريش لا يكفي للوقوف في وجه شهادات مجموعة من المؤرخين حتى لو كان ثقة عدلاً .

ورابعها : أن الأستاذ الأثرى لم يكن متأكداً من هذا النسب حيث قال : " فاذا صح ما ذكره ، ولا أخاله إلا صحيحاً ، كان هذا البيت في الصميم من النسب السري .
أسرته :

نحن لا نعرف الكثير عن أسرته اللهم إلا تلك الأخبار القصيرة التي وردت متناثرة في كتب العماد عن والده وعمه العزيز وبقية أعمامه وعشيرته نبأ قصير عن جده حامد .
أما قبل هذا الجد فنحن لا نعلم عن هذه الأسرة شيئاً .

وقد سكت كتب التراجم عن ذكر والد العماد ، ولكننا استطعنا أن نكون فكرة دقيقة عنه حينما اطلعنا على الشذرات المتفرقة التي وردت في تاريخ دولة آل سلجوق والخريدة . حيث أفادنا العماد أن مولد والده كان في خلافة المقتدي بأمر الله ، ووفاته المقتدي كانت في يوم السبت الرابع عشر من المحرم سنة ٤٨٧ هـ . (٢)

ومن هنا نصل إلى أن والد العماد ولد بين سنتي ٤٦٧ هـ - سنة تولي المقتدي للخلافة - سنة ٤٨٧ هـ سنة وفاته .

(١) ترويح القلوب - للزبيدي ص ٢٧ وشذرات الذهب ٤ / ٣٣٤ والسلوك للمقريزي (١٤٠ / ١)

(٢) الخريدة - القسم السراقى ج ١ ص ٢٤ / ٢٥

ونحن نجهد كذلک سنة وفاته ولكن العماد ذکر أن والده عاش بعد أخيه العزيز نيفاً وثلاثين سنة ، فإذا عرفنا أن وفاة العزيز كانت في سنة ٥٢٧ هـ استطعنا أن نقول :
ان والد العماد توفي في حدود سنة ٥٦٠ هـ .

ومن تلك الأخبار المتفرقة نستطيع القول بأنه كان مثقفاً ، فقد نقل العماد عنه الكثير من الروايات في كتاب " نصره الفجرة " وفي القسم المسمى من الخريدة ، وكان هذا الوالد يعد العماد بتأليف كتاب يجمع فيه قصائد أصفهاني ولكنه لم يستطع مع الأسف الشديد .

وحين وقعت نكبة العزيز عم العماد سنة ٥٢٥ هـ وحبس في تکریت اعتقل والد العماد ونهبت أمواله وسلبت وظل في الاعتقال الى سنة ٥٢٧ هـ ، فأطلق سراحه وأرسله طغبرل الى بهروز الخادم ليطلق سراح العزيز ولكنه وجد المقدر قد نفذ وقتل العزيز .

ويبدو أن الأمر قد ساء ثانية وأن والده توجه مرة أخرى فخرج سنة ٥٣٤ هـ بأهله من أصفهان الى بغداد طالبا الأمن والهدوء والسلامة . وظل بعد ذلك ينتقل بين بغداد وأصفهان فسافر من بغداد الى أصفهان سنة ٥٤٩ هـ ثم عاد الى بغداد سنة ٥٥١ هـ . وخلال وجوده في بغداد عرض عليه الخليفة الراشد الوزارة فأبأها ورفضها لأنه كان قد قطع عهداً على نفسه ألا يخدم بعد العزيز سلطاناً .

أما جدُّه أبو الرجاء حامد بن محمد فقد ذكره العماد في القسم المخطوط من الخريدة ونقل ذلك صاحب " مرآة الزمان " فقال " وذكر جدُّه أبا الرجاء حامد أبين محمد " فقال : وكان يحفظ شعر البحري ودواوين العرب ، ومن شعره هذه الأبيات :

تولى الجهل وأنقطع العتابُ ولاح الشيبُ وانتضخ الخضابُ
لقد أبغضت نفسي في مشيبي فكيف تجبني الخود الكعابُ

قال العماد : وتوفي جدي سنة نيف وتسعين وأربعمائة (٨)

- (١) راجع قسم بلاد العجم من الخريدة الورقات ١٨٥ أ ب ، ١٢٤ أ وغيرهما .
- (٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦٩
- (٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٦
- (٤) الخريدة - القسم السراقى ج ١ / ٢ ص ٥٦
- (٥) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٢٣
- (٦) مرآة الزمان ج ٨ ق ١ ص ٥٠٤
- (٧) تاريخ دولة آل سلجوق ١٦٣ والخريدة القسم السراقى ج ١ ص ٢٤
- (٨) مرآة الزمان ج ٨ ق ١ ص ٥٠٥ وقد كتب سبط ابن الجوزي كلمة عمى بدلا من جدي يعني جد العماد وهو خطأ إما من النسخ أو المحقق .

وفد ذكر العماد من أعمامه ثلاثة وهم : عزيز الدين أحمد بن حامد وضياء الدين محمود وسهاء الدين (٢) وأشهرهم وأعلامهم شمة وأبعد علم صيتاً عنه أبو نصر أحمد بن حامد المستوفى المعروف بالعزيز وسيرته هي التي دفعت العماد إلى تأليف "خريدته" كما نرى على ذلك في مقدمته للقسم العراقي (٣) وسبب شهرته بهذه وكرمه الزائد نُسب العماد إليه فقيل : ابن أخي العزيز وهذا يدل دلالة قاطعة على علو منزلته ، ورفعة شأنه .

وقد ترجم العماد لاسمه العزيز في صدر قسم المعجم من "الخريدة" فقال :
أبدأ بذكر المولى المسم الصدر الشهيد عزيز الدين (٤) . . . وقد ذكر أخباره مفرقة وكثيرة في "نصرة الفترة" .

ولقد ولد العزيز بأصفهان سنة ٤٧٢ هـ وعمل مستوفياً في ديوان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه والسلجوقي ودير قوانين الدولة فأحسن تدبيرها ، وسار سيرة حسنة حتى نال ثقة السلطان ، وأحبه الناس وامتدحه الشعراء ، ولكن الأمر أخذ يسوء بعد تولى أبي القاسم الدرگزيني الأنسابادي للوزارة . وكان السلطان قد عرض الوزارة على العزيز فأبأها ولكن السلطان ألزمه بها مؤقتاً ، فلما عاد الدرگزيني من سفره قال العزيز للسلطان "قد وصل من يكفل الأمر ويكفي في الحل والمقد فأنهضه للوزارة فأني غيرنا بعضاً وزارعاً" ونسى الدرگزيني فضل العزيز ، فأخذ يكيد له فكفر في طريقة للخلاص من تلك المكائد ، فاستأذن في الحج فسار في سنة ٥١٧ هـ سنة ٥١٨ هـ وكان حاج تلك السنة بأجمعهم في ضيافته وكرامته "كما ذكر العماد" . ولذلك مدحه الشاعر الرئيس أبو الحارث البغدادي قائلاً :

يا كعبة الإسلام مالي أرى إليك تسعي كعبة الجود
تقصدني العلم وهذا الفن لم يلف يوماً غير مقصود (٩)

وحين رجع العزيز من الحج كان قد عقد أمر "الاستعفاء" من منصب الاستيفاء ولكن السلطان رفض مطالبه أول الأمر فلما رأى إصراره قبل إعفائه ولكن ألزمه بالأشراف على

(١) يسميه ابن خلدون عزيز الدولة ٥ هـ ١ ص ١٢١

(٢) لا نعرف بقية اسمه (٣) القسم العراقي من الخريدة ج ١ ص ٧

(٤) الخريدة - قسم المعجم مخطوط ج ٤ ورقة ٢٠ ب

(٥) مرآة الزمان ج ٨ ص ١٤١/١ وفي قسم المعجم خطأ الناسخ فجعل ميلاده ٥٢٢

(٦) نحو قوام الدين ناصر بن محمد الدرگزيني الأنسابادي قتله طغرل سنة ٥٢٧ هـ له ترجمة عراقية في تاريخ دولة آل سلجوقي في صفحات متعددة .

(٧) في تاريخ دولة آل سلجوقي في صفحات متعددة ١١٨ ١٢٤ ١٢٩

(٨) تاريخ دولة آل سلجوقي ص ١٣٤ (٩) تاريخ دولة آل سلجوقي ١٣٤

(١) خزائنه وأولاده ولم يررض الوزير بما آل إليه أمر العزيز فصار يسعى لدى السلطان - غير يائس - ويحصل على التخلص منه ، فلما لم يجد فائدة ترجى لجأ إلى اغراء المال وبريق الذهب فوعده السلطان بأن : يطلق له من ماله ثلاثمائة ألف دينار إذا حبسه فقبض عليه سنة ٥٢٥ هـ وأرسله مع بهروز الخادم شيخنة بغداد إلى تكريت وفيها نجم الدين أيوب واليا عليها (٢) وظل العزيز في محبسه سنتين ، حاول السلطان مسعود السلجوقي خلالها أن يطلقه من محبسه ففشل (٤) ، فقرر بعدها الدر كزيني التخلص منه نهائيا بإزغاق روحه فأمر بهروز الخادم بقتله ، ففعله شيركوه أخو نجم الدين أيوب في المزة الأولى . ولكنه عاد فقتله وعوقبهم يعلو - على ما ذكر العماد (٥) - وكان ذلك في سنة ٥٢٧ هـ وعمره خمس وخمسون سنة . وقد أورد العماد لعمه شعرا ومن ذلك : ما كتبه إلى بعض أصدقائه :

<p>يَا أَبَا الْفَضْلِ لِمَ تَأَخَّرْتَ عَنَّا كَمْ تَمَنَيْتُ لِي صَدِيقًا صَدَقْنَا فِيهِمْ صَنِ السَّيِّئَاتِ لَمَّا تَشَكَّنِي كُنْ جَوَابِي إِذَا قُرَأَتْ كَمَا بِي</p>	<p>فَأَسَانًا بِحُسْنِ عَهْدِكَ ظَنَنَّا فَإِذَا أَنْتَ ذَلِكِ الْاِمْتَمَنِي وَبِعَهْدِ الصَّبَا وَإِنْ بَانَ عَنَّا لَا تَقُلْ لِلرَّسُولِ كَانَ وَكُنَّا (٦)</p>
---	---

وقد مدحه كثير من الشعراء ، ومنهم ابن حكينا الشاعر البغدادي السدي يقول فيه :

<p>أَهْلُوا بِنَا نَحْوَ السَّرَاقِ رِكَابِكُمْ كذلك الشاعر المشهور الحيمي بيض (٨)</p>	<p>لَنَسْأَلَ مِنْ مَالِ الْعَزِيزِ بِصَاحِهِ (٧) الذي مدحه بعد غيبته عنه فقال :</p>
<p>أَلَا مَنْ مَبْلُغَ عَنِّي هَمَامَا يُبَارِي بِاللُّدَى وَالْبَأْسِ سَيْحَ الْا إِذَا مَا حَلَّ أَرْضًا ذَاتُ مَحَلِّ أَلُوكة سَادَتِي الدَّعْوَى أَمِينِ</p>	<p>أَشْمُ كَذَرَّةِ الطَّوْرِ الرَّفِيعِ غِيَامٍ وَهَبَةِ السَّيْفِ الْقَطُوعِ أَعَادَ الْمَحَلَّ خُصْبًا مِنْ رِيحِ بَرِيٍّ مِنْ نَفَاقٍ فِي خُصُوعِ (٩)</p>

١) المصدر نفسه ١٣٤ وما بعده
٢) المصدر نفسه ص ١٢٩
٣) المصدر نفسه ص ١٢٩
٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ وفي سنا البرق الشامي ج ١ / ٥٦ - ٥٧ وفي قسم المعجم المخطوط ج ٤ الورقة ٢ ب .
٥) الخريدة - قسم المعجم المخطوط ج ٤ الورقة ٢ ب ومرآة الزمان ج ٨ ص ١٤١ / ١
٦) ونبات الأعيان ج ١ / ١٨٩ طبعة بيروت
٧) الأمير شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن الصفي التميمي من ولد الكرم ابن عيسى توفي ببغداد سنة ٥٧٤ هـ وترجم له العماد في الخريدة - القسم السراق ج ١ ص ٢٠٢ وله ديوان كبير مطبوع من ثلاثة أجزاء كبار .
٨) الألوكة : الرسالة والابيات في الخريدة ج ١ / ٧٧٦ من القسم العراقي .

أما عمه الثاني فهو ضياء الدين محمود بن حامد : الذي لا نعرف عنه إلا ما ذكره العماد من أنه تعرض للاختقال مع أخيه والد العماد ، وأفرج عنه معه .

وعمه الثالث بهاء الدين (٢) الذي لا نعرف اسمه الكامل إلا أنه عمل في منصب الاستيفاء بعد مقتل أخيه السزيز في ديوان السلطان طغرل السلجوقي ، ويبدو أن الخليفة الراشد أعجب به فعينه ، في ديوانه مستوفيا فلما جاء إلى أصفهان وحاصرها سنة ٥٢٢ هـ كان بهاء الدين معه في هذا المنصب .

وللعماد أخوان أولهما عثمان الذي توفي في سنة ٥٤٦ هـ أثناء تأدية السواد لفريضة الحج فلما علم رثاه قائلا :

سقى الله انسانا لعيني دفتته
على رغم أنني جاعلا قبره قلبي
فلا تحسبوا أن التراب نريحه
فمنزله بين التراب لا التراب (٣)

وثانيهما تاج الدين حامد بن محمد - الذي لا نعرف الكثير عنه ، فتاريخ ميلاده وسنة وفاته مجهولان لنا ، وقد ذكره العماد في "نصرة الشجرة" ، وعرفنا منه أنه كان معه في المدرسة المجدية بقاشان (٤) وانتقل مع أبيه وأخيه إلى بغداد سنة ٥٢٤ هـ والراجح أنه دخل مع السواد المدرسة الشفوية . ثم النظامية بعد ذلك .

ويستت العماد بعد ذلك فلا يذكره في كتبه الا مرتين : الأولى منهما : حسين أرسل العماد إحدى قصائده في مدح - الخليفة المستضيء يهنئه بالخلافة - مع ابن عسرون شيخه ورسول نور الدين ، وحسين رجع حمل له من الخليفة ومن أخيه تاج الدين الهدايا . (٦)

والثانية : ذكره حين اختيار تاج الدين ليكون سفير الخليفة إلى صلاح الدين في شوال سنة ٥٨٣ هـ إثر الوشايات التي نقلت على لسان صلاح الدين بقصد الايقاع بينهما ، وكان اختياره بسبب وجود العماد في ديوان السلطان ، وجاء تاج الدين واجتمع مع صلاح الدين بحضور العماد ، واستطاع العماد بذكائه تخفيف وقع الرسالة على السلطان ،

(١) الخريدة - قسم الشام ج ٢ / ٢٥٠

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٠ (٣) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام ٢١٧

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦٥ (٥) سنا البرق الشامي ج ١ / ١٠٣

(٦) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ١٤٥

وانجاء تاج الدين في تهديئة الحال وإعادة الوثام ٥٥٥ ثم ودع السلطان في طريقه
الى القدس لزيارة الأماكن المقدسة ٥ وعاد بعدها إلى بغداد ٥ ثم لم نعرف بعد
ذلك عنه شيئاً ٥٥٥ ولكننا وجدنا له ترجمة في " التكملة لوفيات النقلة " عرفنا منها
أن مولده كان سنة ٥٢٢^{هـ} وأنه سمع من شيخ أخيه أبي زرعة طاهر بن محمد المقدسي
وغيره وأنه كذلك حدث في بغداد ٥ وتوفي بها ليلة الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٥٩٨^{هـ}
ودفن في تربة لعمه السريز هناك (٢) .

حياة العماد :

رأى العماد نور الحياة في أصفهان ونشأ عبيها الفواح في تلك المدينة
الفارسية الجميلة ٥ وفيها تشبعت عقليته ونما ذكاؤه ٥ وظهر نبوغه وبرز حبه للعلم والدرس
ولكنه ما كاد يصل إلى الثامنة من عمره حتى حلت بأهله النكبة ٥ فقتل عمه السريز وحبس
أبوه وعمه ضياء الدين وعودت أموالهم ٥ ولم تستقر حياتهم بعد ذلك على الرغم من
صدور العفو عن أبيه وعمه ٥ وما هي إلا سنوات قلائل حتى وجدنا والده ينبو به الوطن ٥
فيحمل أثقال الارتحال هاربا من ظلم الزمن وأهله ٥ ويلقى عصا التسيار في بغداد
العاصمة الروحية والسياسية والعلمية للدولة الإسلامية آنذاك - وهناك - في بلد
الرشيد - أخذ ينهل من العلم ويرشف من موارد ويستغ من رحيقه ٥ وينال من أفانيقه
على أيدي شيوخه المشهورين في ذلك الزمن ٥ وظل يأخذ من كل علم نصيبا حتى علا
قدره وشاع ذكره وانتشر خبره واشتغل مع الوزير ابن هبيرة ٥ فاستقرت حياته سنين
طوالا ٥ إلا أن الزمن كان لها المرصاد وحرص على أن يضعه في إصا فانتقل ابن هبيرة
إلى بارئه ٥ وسجن العماد مع من سجن من أصحاب ابن هبيرة ٥ وما أن خرج من
ظلام السجن وتبوده حتى حمل عصاه ولم يجد طريقا مفتوحا أمامه إلا إلى بلاد الشام
حيث اتصل هناك بنور الدين ثم بصالح الدين من بعده ٥ وبأولاده وخلفائه ٥ وظل
يكافح ويجاهد ويعمل ٥ ويكتب ويؤلف ويجمع حتى انطفأ مشعل حياته ٥ وصعدت
روحه إلى بارئها بعد أن عمر سنين طوالا .

وللحديث الدقيق عن حياته نستطيع بعد هذه المقدمة أن نقسمها إلى قسمين

(١) الفتح القسي - قصة طويلة ص ١٨٣ - ١٨٨

(٢) التكملة لوفيات النقلة للمعزري ٣٦٧/٢

ظاهرين بارزين :

- القسم الأول منها : حياته في أصفهان وبغداد .
- والقسم الثاني : حياته في الشام ومصر .

١- حياته في أصفهان وبغداد : - (الطفولة والتلمذة)

أ- في أصفهان :

ولد العماد في أصفهان يوم الإثنين الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة هجرية كما ورد في رواية عن العماد نفسه نقلها ابن الساعي عن القاضي القرشي أحد تلامذة العماد . (١)

وبه قال ياقوت في معجم أدبائه (٢) والسبكي في طبقاته الكبرى (٣) ، أما بقية الذين ترجموا لحياته فقد سكتوا عن ذكر اليوم والشهر وحددوا سنة الميلاد فقط ، واتفق أكثرهم على أنها سنة هجرية التي توافق عام ١١٢٥ ميلادية . (٥)

وقد شذ عنهم جميعا مجير الدين الحنبلي - صاحب " الأنس الجليل " - الذي ذكر أن وفاة العماد كانت سنة ٥٩٧ من الهجرة ، وله نحو تسعين سنة " أي أن ميلاد العماد كان في سنة ٥٠٧ هجرية وهو بلا شك كلام يخالف كل ما نقل عن المؤرخين الذين ترجموا للعماد ، كما أنه يخالف ما ذكره للعماد نفسه في الخريدة من أن عمره حين نقله والده إلى بغداد سنة ٥٢٤ كان " خمسون سنة " - وهذا ^{نظرا} أصح في أن مولده كان سنة ٥١٩ هـ .

وقد ذكر الأستاذ مظفر سلطان في كتابه عن العماد سنة ميلاده المذكورة ، ولم يستطع تعيين اليوم والشهر - لكنه قال : " غير أنني رأيت في أول كتاب " خريدة " القصر وجريدة العصر " للعماد الأصفهاني ترجمة له بخط الناسخ - والنسخة المصورة

(١) الجامع المختصر لابن الساعي ج ١/٦٦

(٢) معجم الأدباء ١١/١٩ (٣) الطبقات الكبرى ٩٧/٤ وبه قال صاحب

(٤) منهم أصحاب النوافي بالوفيات مفتاح السعادة ٢٦٥/١

١١٢/١ والدارس ٤٠٨/١ وبراءة الزمان ج ٨ ص ٥٠٤/٦ والعبير ٤٠٧/٤

والبداية ٢٠/١٢ والنجوم الزاهرة ١٧٨/٦ وتاريخ ابن الوردي ١٤٥/١ وتتمته

لابي الفداء ١٢٥/٢

(٥) معجم المؤلفين ٢٠٤/١١ والاعلام ٢٥٢/٧ وفهرست المكتبة الأزهرية ٥٠٤٦٥

(٦) الأنس الجليل ٤٠٠/١ (٧) الخريدة للقسم العراقي ٥٢/٢

بمدار الكتب المصرية رقم ٤٢٥٥ - ذكر في آخرها أنه ولد سنة ٥١٠ هجرية . وجاء أيضا في الفهرس الأدبي لدار الكتب المصرية عند التعريف بالعماد أنه ولد سنة ٥١٠ وقال : وليس هذا صحيحا " وكفى ما نقلناه عن العماد والكتب السابقة في بعض هذين القولين . ونحن على كل حال ، لا نعرف عن طفولة العماد شيئا ذا بال ، ولكننا نعرف أن أسرته مرت بأزمة عنيدة عانى منها العماد بلا شك في صغره ، وقد كانت هذه الفترة عصيبة على الأمة الاسلامية كلها إذ كان السلاجقة قد تحكروا في البلاد وسيطروا على الخلفاء ، وأذلواهم ، وانتشر الباطنية - جماعة حسن السباح - يثيرون الرعب والفرع في كل مصر من الأمصار الاسلامية .

ويصف علينا العماد بعض ذكرياته الحزينة في طفولته بهذه فيقول : " أذكر ونحن أطفال وقد خرجنا من البلد " أصفهان " (٢) وأقمنا بالربط المبنية عند المصلى بالقرب من زند رود ، والمسكن قريب منا ، فسمعنا أصواتا هائلة وقت القائلة من نهار يوم الثلاثاء السادس والعشرين من رمضان سنة ٥٣٢ هـ ، وقيل لنا إن الخليفة قد فتكت به الملاحدة خذلهم الله وخرج أهل أصفهان حافين حاسرين ، وشيعوا جنازته ودفنوه رضى الله عنه بالجامع (٣) .

وعنك في أصفهان بدأ العماد يتلقى دروسه العلمية ، وعلى عادة أهل ذلك الزمان أخذ يدرس القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، . . . ويحتمد الأستاذ بهجة الأثرى أن دراسته للحديث بدأت على شيخه أبي عبد الله الفسراوى وأبى القاسم بن الحسين حين كان في السادسة من عمره ، ويعتق على رأيه قائلا : " وقد يلوح هذا شيئا غريبا في أيامنا ، ولكن سماع الصغار كان مألوفا في العصور القديمة ، فقد سمع الحافظ ابن عساكر الدمشقى وابن الجوزى البغدادى وهما في السادسة من عمرهما . . . " ثم يورد أسماء بعض العلماء الذين سمعوا ونظم صغار السن .

وقد ذكرها ابن السبكي (٤) وعدهما من شيوخ العماد ، ولكنه لم يحدد مكان الاجازة أكان ذلك في أصفهان أم في بغداد .

(١) العماد الأصفهاني - مظفر سلطان (٢١) (٣) كذا في التريدة وصواب العبارة أن (٤) مقدمة القسم العراقي للأثرى ج ١ ص ٦٦ يقال : "أنا سمعنا " لأن العبارة (٥) طبقات الشافعية الكبرى ٩٧/٤ ضعيفة النسخ .

(١) وبه قال النعمي كذلك في غير تحديد ومع هذا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الرأي لأن العماد خرج الى بغداد وسنة خمس عشرة سنة ٥ وهذا يؤكد أنه حين غادر أصفهان كان يافماً .

ولا شك أنه كان على علم بالعربية ، وأنه بدأ يتعلمها هناك في أصفهان ، ذلك أنه لم يجد صعوبة في دخول المدرسة النظامية في بغداد حين وصل إليها ، والنظامية كانت تدرس العلوم باللغة العربية .

وظل العماد في أصفهان الى سنة ٥٣٢ من الهجرة ، حين اضطر والده الذي اسفر مع السلطان داود السلجوقي إلى السرى^(٢) فنقله مع أخيه أبي بكر حامد إلى قاشان^(٣) وسلمهما الى صديق له فيها ، وهناك ترددوا على المدرسة المجدية ، وتعلما فيها القرآن ، وأقاما فيها سنة عادا بعدها إلى أصفهان^(٤) ومنها ثانية الى بغداد .

ب- في بغداد :

حين خرج والد العماد من سجنه أقام سنين في أصفهان ، واضطر بعدها الى الرحيل الى بغداد ، وذلك في سنة ٥٣٤ هـ حيث كان عمر العماد خمس عشرة سنة ، ومع أن هذا التحديد قد ورد في " الخريدة " أثناء الترجمة لابن أفلح الشاعر ، لم يستطع جميع من ترجموا له من القديما وبعض المحدثين تحديد هذه السنة ، فالصفي ذكر أنه وردها وهو ابن عشرين سنة ، وكذلك النعمي . أما ابن الساعي فكان : " قدم بغداد في صباه " وقال عياض " مفتاح السعادة " : " وقدم بغداد في حدثه " وبه قال جورجى زيدان في تاريخه والزركلى في " الأعلام " . أما الأستاذ

- (١) الدارس ٤٠٨/١ وبه كذلك قال صاحب شذرات الذهب ٣٣٢/٤
- (٢) السرى : مدينة مشهورة ببلاد فارس وكانت أكبر من أصفهان وقد ضرت في أوائل القرن السابع واحتلها المسلمون سنة ١٦ أو ٢٠ من الهجرة معجم البلدان م ١١٦/١ وما بعدها .
- (٣) قاشان : مدينة قرب أصفهان بفارس بينهما ثلاث فراسخ . معجم البلدان م ٢٦٦/٤ - ٢٦٧ .
- (٤) خريدة القصر - قسم شعراء العجم الورقة ج ٤ ٣ أ وتاريخ دولة آل سلجوق ١٦٥ مع خلاف في ألفاظ النسيين .
- (٥) الخريدة / العراق ٤/٢ / المعجم المخطوط الورقة ٢ أ
- (٦) الوافي بالوفيات ١٢٢/١ (٧) الدارس ٤٠٨/١
- (٨) الجامع المختصر لابن الساعي ٦١/٩
- (٩) مفتاح السعادة ٢٦٤/١ (١٠) تاريخ الأدب العربي لزيدان ٦٥/٣
- (١١) الأعلام للزركلى ٢٥٦/٧

مظفر سلطان فقد اعترف صراحة بأنه لا يستطيع تحديد هذه السنة ، ولا الظروف الداعية إلى هذه الهجرة ولجأ إلى الحدس والتخمين فقال : " لا نستطيع على هدى ما تهيأ لنا من كتب العماد وآثاره ، ومن كتب التاريخ والتراجم التي تحدثت عنه فأوجزت أن نحدد بالدقة تاريخ قدومه بغداد أول مرة ولا الظروف والأحوال التي سببت هذه الرحلة وصحبتها ، فالكتب التي ترجمت له وتحدثت عنه لا تزيد على القول - كما تقدم - بأنه قدم بغداد شاباً ودخل المدرسة النظامية " ثم يبدأ بعد ذلك عملية الحدس فيقول : " على أن العماد نفسه يقول في تاريخ الدولة السلجوقية : " ورحل السلطان مسعود إلى بغداد رحلة الشتاء ، واستصحب جماعة الأحرار " وأنا أذكر وصولهم إلى بغداد سنة ٥٢٦ هـ " ويقول : " وإذا قدرنا أنه قدمها قبل هذا التاريخ بعام أو عامين على الأكثر استطعنا أن نطمئن إلى أن العماد قدم بغداد ليستكمل دراساته العالية في الأدب والفقه والحديث والخلاف " (١) ونحن نعذر الأستاذ الكريم إذ كانت " الخريدة " وخاصة القسم العراقي مخطوطة لم تظهر حين كان يعد رسالته ، ولكننا نود أن نصح حدسه ونرشده إلى قول العماد : فيه : " لما نقلني والدي من أعفهان إلى بغداد حين بنا - بعد النكبة - بنا الوطن وضاق العطن ، ولم نجد الأمن والسلامة واليمن والكرامة إلا في ظل الدار المعززة النبوية الامامية المقتضية فسكننا مدينة السلام واتخذنا دار المقام وذلك في سنة أربع وثلاثين وخمسائة وقد بلغت سني خمس عشرة سنة " (٢)

إذن لم يكن الهدف من هذه الرحلة تحصيل العلم ولم يكن طلبه أساساً لها ولا استكمال دراسة الأدب والفقه وغيرها غاية منها بل كان طلب الأمن والسلامة بعد النكبة التي حلت بهم والتي يبدو أنها لم تنته بمقتل الدرزي (٣)

وبعد وصوله إلى بغداد ألحقه والده بالمدرسة الثقتية الواقعة على شط دجلة بالقرب من دار الخلافة ، وهناك أقام بها ثلاث سنين يتعلم ويتفقه ، يدرس ويتأدب ثم انتقل بعدها إلى المدرسة النظامية - الجامعة الإسلامية الرائعة - التي كانت مركز العلوم القرآنية وتفسيرها والأحاديث النبوية وروايتها والأدب وفروعه والنحو وفوائده ، (٤)

(١) العماد الأصفهاني - مظفر سلطان (٣١) (٢) المرجع نفسه ص ٢١

(٣) الخريدة - القسم العراقي ٥٣/٦

(٤) نسبة إلى واقفها ثقة الدولة بن الدرزي وقد ترجم له العماد في القسم العراقي ج ٢ ص ١٤٤ وما بعده ولم يذكرها أحد من المترجمين ضمن المدارس التي تعلم فيها العماد وتنبه إليها الأستاذ الأثرى بعد انتباههم من ترجمته للعماد في مقدمة القسم العراقي فاستدرك كتبها ج ١ ص ٨١ تحت عنوان مستدركات .

(٥) الخريدة - القسم العراقي ج ١/١٤٥

وفيهما تعلم على أكابر الشيوخ المتخصصين في كل أنواع العلوم والمعرفة ، فدرس القرآن وتفسيره والفقه وأصوله والحديث وصحاحه ، وأتقن الخلاف وفنون الأدب المختلفة وسرع في الإنشاء ، ونظم الشعر ، وما إلى الأدب وأحبه وأجازته العلماء وسمح من الكليبير وتفقه على أبي منصور الرزاز ، وسمع من أبي منصور بن خيرون وعلى بن الصباح ، وأجازته ابن الحصين والفرأوى ، والجواليقي وكثيرون غيرهم ممن ستمر بنا أسماؤهم من خلال ترجمتنا لشيخه .

(١) وفي هذه الفترة اتصل بالشعراء والأدباء كسديد الدولة الأنباري الشاعر المنشي وابن أفلح (٢) الذي كان صديقا لوالده .

ويبدو لنا العماد كان طالبا مجدا ، مكبا على العلم ، محبا لأصحابه ، مصرا على أن ينقل عن هذا وذاك حريصا على أن يتعلم من كل من يستطيع الوصول إليه ، نعم كانت له قريحة متفتحة وذعن عاف ، وعقل متوقد فلم يكتف بالعلوم السابقة بل ما إلى الرياضيات واشتغل كما يقول " بحل إقليدس " .

ظل العلماء ثمان سنوات في بغداد لا يتم له إلا طلب العلم ، ولا بغية له إلا الحصول عليه ، إلى أن أشرفت سنة ٥٤٢ هـ شجرة على الانتهاء فتوجه نحو الموصل وفيها وزيرها جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور ، ومن روايته ووصفه لرحلته هذه تعرف أنه بدأ ينظم الشعر وأنه أصبح ذا مقدرة كبيرة في الفقه ، وعلى دراية واسعة بالمسائل الشرعية .

(٥) وقد نظم العماد في هذه الوزير قصيدة جيدة كانت من بواكير قرعه للشعر .

وقد اختصر العماد وصف رحلته تلك إلى الموصل في كتابه " نصره الفسترة " .

ولكنه ذكر بعض الأبيات التي أنشأها في مدح الوزير - ومنها :

أَظَنَّهُمْ وَقَدْ عَزَمُوا ارْتِحَالَا	تَنَوْنَا عَنَّا جَمَالَا لَا جَمَالَا
سَرَوَا وَالصَّبْحُ مَبِينُ الْحَوَاشِي	فَلَمَّا حَالَ عَهْدُ الْوَيْلِ حَالَا
أَخِلَّاتِي وَهَلْ فِي النَّاسِ خَلُّ	بِهِ أَخِلِّي مِمَّنْ الْأَشْجَانِ بَالَا

(١) المصدر نفسه السراقى ١٤٢/١ (٢) الخريدة - القسم العراقي ج ٢/٥٤

(٣) المصدر نفسه - السراقى ج ١/١٦١

(٤) الخريدة - قسم الشام ج ٢/٢٥٠

(٥) الخريدة - قسم الشام ج ٢/٢٥٠

(٦) تاريخ دولة آل سلجوقى ١٦٤/١٦٣ وأوردنا أبو شامة في الروضتين ج ١/٢٤٥

ومنها :

وقائله : أفي الدنيا كـرِيمٌ سواء ؟ فقلت : لا وأبني العلاء . . لا

ح - في أصفهان وغيرها مرة أخرى :

لم يلبث العماد إلا قليلا في الموصل ثم عاد منها إلى بغداد وبقى إلى أن دخلت سنة ٥٤٣ هـ عجزية ، بعد أن غاب عن مسقط رأسه قرابة تسع سنوات ، ثم رجع إلى أصفهان وقد نال من العلم قسطا كبيرا ، ووثق بنفسه وفهمه ، واعتد بشخصه وذكائه ، وقد ذكر ذلك كله في الخريدة (١) ، كما ذكره النعماني في الدارس أيضا ، وظل في أصفهان يستكمل علومه ، وينمي ثقافته ، ويتزود من الشيوخ الكبار ويجمع مادة الخريدة ، ويترجم كتاب " نصرمة الفترة " ، ويضيف إليه ما يراه مناسبا ، ويستمع إلى الشعراء ، ويقرا الدواوين الشعرية ، ويساعده على ذلك عقل ثاقب ونكر حصيف وملكة في الحفظ قوية ، وحب في المعالي مدنف ، وأمل في أن يصل إلى مركز مرموق عن طريق علمه المتميز ، وثقافته الواسعة .

ويستمر ذلك حتى سنة ٥٤٥ هـ (٤) من الهجرة حيث نراه يزور همدان ، ويرجع منها إلى أصفهان ، ليعود سيرته الأولى في الدرس والبحث ، وتأتي سنة ٥٤٨ هـ لنجدته رفيقا لشيخه جمال الدين الخجندی في طريقه لأداء فريضة الحج ، ويحج العماد ويعود في أوائل سنة ٥٤٩ هـ إلى أصفهان ، ثم يزور في هذه السنة همدان ثانية ، ويلتقي فيها بابن عمه ضياء الدين ، ثم يفاد بها إلى أصفهان لبغداد ويدخلها في ذي القعدة سنة ٥٤٩ هـ (٨) وواضح أن هذا يخالف ما ذكره صاحب " مرآة الزمان " من أنه أقام بها إلى سنة ٥٥١ هـ ، ثم خرج مع والده إلى بغداد في هذه السنة ، ويخالف ما أورده

(١) خريدة - تسم شعراء العجم مخطوط ج ٤ / الورقة ١٣

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٣) الدارس ١ / ٤٠٨ - ٤٠٩ وأورد نسخة عودته صاحب طبقات الشافعية دون ذكر السنة ٩٧ / ٤ وكذلك معجم الأدباء ١١٠ / ١٩

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ٢٠٥

(٥) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٢٢ والخريدة قسم الشام ج ٢ / ٣٣٠

(٦) في ترجمة الشهرزوري وفي الخريدة قسم العجم ترجمة للخجندی ج ٤ ورقة ٢٧ أ وحجه في قسم العجم ج ٤ الورقة ٣ أ

(٦) بداية قسم شعراء الشام من الخريدة ص ٢١٧

(٧) الخريدة قسم شعراء الشام ٢٥١ / ٢

(٨) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٢٢ والخريدة قسم شعراء العجم ج ٤ مخطوط الورقة ١٣ أ

الأستاذ بهجة الأثرى في مقدمة القسم العراقي من "الخريدة" (١) الذي يبدو أنه منقول عن "مرآة الزمان" ويحتمل أن العماد أقام فترة في بغداد ثم عاد إلى أصفهان ، فأقام بها إلى سنة ٥٥١ هـ ، ثم رجع إلى بغداد على نية الإقامة الدائمة والتوطن النهائي .

٢- العماد الساملي في العراق :

أولا : في واسط :

(٢)
في سنة ٥٥٢ هـ من الهجرة انتدبه الوزير عون الدين بن غبيرة ليكون نائبه بواسط وأعمالها ويدير له أمورها ، ويحیی عنه من أهلها خراجها . وقيل أن نستم في السرد نود أن نلفت الأنظار إلى أن كثيرا من المؤرخين القدماء والمحدثين قد وعموا أن العماد ناب عن الوزير في البصرة أولا ثم في واسط تانيا والأحداث والتواريخ التي ذكرها العماد في الخريدة تدحض هذا القول من أساسه - كما سنبين فيما بعد - فياقوت يقول : " فاتصل بالوزير عون الدين يحيى بن غبيرة فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط " (٢) وتابعه في قوله هذا الصفدي في كتابه " الوافي " ، وبه قال النعماني في " الدارس " (٥) والزركلي في " الأعلام " (٦) وجورجي زيدان في " تاريخ آداب اللغة العربية " (٨) وعمر كحالة في " معجم المؤلفين " . أما الذهبي في " العبر " (٩) وابن العماد في " شذرات الذهب " فقالا : " وولاه ابن غبيرة نظر واسط وغيرها ولم يذكر البصرة أما العماد فيقول في حادثة اعتقاله بعد وفاة الوزير : " ولما توفي الوزير ابن غبيرة اعتقلت في الديوان ببغداد بسبب منابتي عنه في واسط والبصرة " وتقديمه لواسط يدل على أن نيابته بدأت بواسط ثم بالبصرة من بعدها والتواريخ التي ذكرها العماد

-
- (١) الخريدة - مقدمة الأثرى ج ١ - القسم العراقي ص ١٩
(٢) الخريدة - قسم السجم الورقة ١٣ وتاريخ دولته آل تغلجوق ص ٢٢٣
(٣) معجم الأدباء ١١/١٩ (٤) الوافي بالوفيات ١٣٢/١
(٥) الدارس ٤٠٨/١ (٦) الأعلام ٢٥٣/٧
(٧) تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان ٦٥/٣
(٨) معجم المؤلفين ٢٠٤/١١ (٩) العبر ٤٠٧/٤ وشذرات الذهب ٣٣٢/٤
(١٠) الخريدة القسم العراقي ٥٦/١

والتي سنذكرها فيما بعد تؤيد قولنا هذا وتثبتته .

(١)
 ونود أن نشير الى أن العماد زار واسط في سنة ٥٤٩ في طريقه الى بغداد
 وعنايت عمل فيها نائبا منذ سنة ٥٥٢ بإخلاص شديد ، وولاه فريد ، خدم به الوزير فأرضاه ،
 وحسنت سيرته عنده فأبقاه ، ومع أن العماد لم يذكر الكثير عن أعماله في واسط وغيرها ،
 ولم يصف لنا متاعبه في الإدارة ، ولا معاناته في الجباية نراه قد ركز على أمرين مهمين :
 أولهما : لقاءه مع الخليفة المقتضى بأمر الله حين زار واسط ، والعماد - كما سنرى كثيرا -
 رجل يحب الخلفاء العباسيين جدا يرجع الى التقديس والتمظيم وأنه ليقول واعفا ذلك
 الحدث العظيم بالنسبة له : " ووصل إلى واسط في أواخر صفر سنة ٥٥٤ وأنا نائب
 الوزير ابن هبيرة بها ، وخرجت في أصحابي للتلقى ، وكنت من زحمة اللقاء على غاية
 التوفى ، فبصرت بموكب الخليفة ، وقد أقبل في أفواجه كأنه البحر في أمواجه ، فنزلت
 وتقدمت إليه ، وقبلت الأرض بين يديه ، ووقف لأركب اشفاقا على من الزحمة ، وكانت
 فطرته مجبولة على الرأفة والرحمة ، وقال له مخلص الدين بن الكيا الهراسي : هذا
 الذي يقول في أمير المؤمنين من قصيدته كأنه يصف هذه الحالة :

لَمَّا شَفَعْتَ الْعِزْمَ وَغَوَّ مَوْبِدَّ	بِالْحِزْمِ أَسْفَرَ بِالْمَنَى مِنْكَ السَّفَرَ
وَبَرَزْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ تَضَرُّقُ لِلوَرَى	وَسَنَاكَ يَحْجُبُ عَنْكَ نَاطِرٌ مِنْ نَظَرِ
بِمِظَلِّ سَوْدَاءٍ تَحْكِي عَالِكَةَ	وَجْهَ الْإِهَامِ يُضِيءُ فِيهَا كَالْقَمَرِ

وقال الوزير : " هذا صاحبى وقد وليته ، وأصحابته وأوليته ، وسهح بخدمتى ونجح ،
 وبنخ بنيابتى ورجح ، نوصي الامام وزيره بى وأعجبه سمى وأسلوبى ، وسار على رسله ،
 ودخل الى دار الديوان " (٢)

ويبدو أنه كان لهذه الحادثة تأثير كبير في نفس صاحبنا ، فقد أعاد ذكرها
 في ترجمته للخليفة المقتضى بأسلوب ينم عن الاعظام والاجلال والتقدير والاحترام .
 وثانى الأمرين اللذين ركز العماد عليهما ونبه إليهما هو ملاقاته للشعراء والأدباء
 وسماعه لأشعارهم وأشعار آبائهم ، وقد أورد في الخريدة الكثير من تلك المدائح التي

(١) الخريدة - السراقى ج ٤ ص ٣٥٥/١ وقد سبق قوله في تاريخ دولة آن سلجوق
 ص ٢١٢ " سرت على طريق خوزستان الى بغداد وجمت الى عسكر مكرم في شوال
 سنة ٥٤٩ " ويبدو أنه مر بواسط أثناء سفره الى بغداد .

(٢) تاريخ دولة آن سلجوق ص ٢٦٥ - ٢٦٦

(٣) الخريدة - السراقى ج ١ ص ٢٦ مع اختلاف في رواية أبيات القصيدة وألفاظها
 ولعلنا نلاحظ اعتزاز العماد بنسبه ولو كان فرشيا لأشار الى هذا النسب السريع
 تقريبا من الخليفة .

مدحه بها الشعراء في واسط والهمامية ، وأظهر حذبه على الشعراء ، وعطفه عليهم ،
ورعايته لهم وتقديره لملازمتهم له ، واعتراشهم بفضله .

ولنذكر على سبيل المثال بعض الشعراء الذين استشهدهم أشعارهم أو أشعار
غيرهم كالرئيس أبي الفرج والشيخ أبي المجد الواعظي وعبد السيد جكر الواسطي وغيرهم ؛
وبالرجوع إلى الجزء الرابع من القسم العراقي للخريدة يتبين أن العماد قضى
في واسط أربع سنوات هي سنوات ٥٢/٥٥ من القرن السادس ، وقضى بعضها في
الهمامية من أعمال واسط . وقد مدحه شعراء واسط وأثنوا عليه ومن هؤلاء الشريف علي بن
أسامة العلوي الحسيني الطبري الذي قال فيه :

قَدِمْتَ يَا مَنْ رَقَاهُ فِي الْعُلَا قَدِمَ
يَا مَعْدِنَ الْحُسَيْنِ وَالْإِحْسَانِ يَا مَلِكًا
يَا عَاقِرَ الْبَدَنِ وَالْأَبْدَانِ دَامَ لَكَ الْإِ
مْحَمْدُ أَنْتَ مَحْمُودُ السَّجِيَةِ ، إِذْ
وَأَنْتَ فِي عَالَمِ الدُّنْيَا ، بِفَضْلِكَ وَالْ
عَذَا الْمَرْيُومِ الَّذِي دَلَّتْ لِعِزَّتِهِ الْ
يَا مَعْزُوبَ الْفُطْرِ ، يَا مَنْ فِي الْوَرَى شَهِدَتْ
وَقَدِمْتَ سَادَهَا التَّأْيِيدُ وَالْقَدِيمُ
يَحْمُ مِنْهُ الْوَرَى الْإِكْرَامُ وَالْكَرِيمُ
إِنْعَامُ فِي الدَّهْرِ ، يَا مَنْ قَوْلُهُ : نَعَمْ
نَفَتْ هَمُومَ الْوَرَى عَنْ عِزِّكَ الْهَمُّ
حِلْمُ الْفَزِيرِ وَإِذْ رَاكَ الْخَلَاءُ عَلَيْكُمْ
عَدَا ، وَعَزَّ الْمَوَالِي فَهِيَ مَحْتَرَمُ (٢)

بِفَضْلِهِ وَعِلَاةُ الْعَرَبِ وَالْمَعْجَمِ (٤)

ثانيا : في البصرة :

ومن واسط والهمامية نقل العماد إلى البصرة ، ولم يذكر هو ولا من ترجموا له
سبباً لهذا النقل المفاجئ ، ولقد يُظنُّ في تحليل هذا أن العماد أثبت جدارة في عمله ،
فوثق فيه الوزير فنقله إلى ولاية أكبر وأعظم ألا وهي البصرة ، ولكن يُعكَّرُ على هذا أن الوزير
أعادته إلى واسط مرة ثانية ، فالواقع أننا لا ندري لذلك سبباً ولا تفسيراً في المرتين .

ويبدو لنا أن الوزير ابن سبيبة طلبه إلى بغداد فقصى فيها شطراً ، ثم أرسله
إلى البصرة لينوب عنه في إدارتها كما كان الحال في واسط . وقد سكت العماد عمن

(١) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ و ٢٦٠/١

(٢) المصدر نفسه ج ٤ و ٤٨٢/٢

(٣) العزيز : لقب العماد أطلقه عليه الخليفة كما أسرنا سابقاً - الخريدة ج ٤ و ١

(٤) الخريدة انفسم العراقي ج ٤ و ٤١٢/٢ - ٤١٣

(٥) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ و ٤٥٧/١

وصف أعماله بالبصرة ومناعبها ، ولكنه أهتم بذكر شؤلاً الأدباء والشعراء الذين عاينهم
وعاد قوه وأحبهم وأجلوه . ومن شؤلاً أبو العباس محمد بن القاسم الملقب بزين الاسلم
الحريري الذي يقول عن زمن لقائه ومكانه " لقيته بالمشان كبير المشان في شهر سنة ٥٥٦
وسمعت عليه من مقامات والده أربعين مقامة وغو لها متقن . . . "

وكان العماد نائبا للوزير في أعمال البصرة وتواجبها ، فهو نائبه بالمشان كما
ذكر - وبالصدريات والزكية . ولكن إقامة العماد في البصرة لم تطل إذ وقع فريسة
للمرض ، فرجع إلى بغداد ليعالج من مرضه ، وهناك قضى بقية سنة ٥٥٦ وشطرا من
سنة ٥٥٧ ، وعاد إلى البصرة في شوال سنة ٥٥٧ وأمضى فيها بقية هذه السنة ثم خرج
منها نهائيا في جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ .

ومن الشعراء الذين لقيهم بالبصرة شهاب الملك أبو البرجس بن الدقوقانسي
البصري والأديب أبو علي بن الأحمر البصري .

ثالثا : في واسط مرة ثانية

ثم تتحدث السنوات التي ذكرها العماد عن وجوده في واسط وأعمالها مرة أخرى ،
ويبدو أنه عاد إلى بغداد وقابل الوزير ابن هبيرة في صفر ٥٥٩ ومدحه ثم ذهب إلى
واسط ، وعاد سيرته الأولى في عمله وقضى جزءا من سنة ٥٦٠ في الهامية وظل إلى
أن توفي ابن هبيرة سنة ٥٦٠ .

-
- (١) المشان : بلدية قرب البصرة كثيرة التمر والرطب والفواكه - معجم البلدان ج ٥ / ١٣١
 - (٢) الخريدة - ج ٤ ن ٢ في ١٧٦ من القسم العراقي .
 - (٣) الصدريات : لم يترجم له كتب البلدان وأشار لها الأثرى باسم صدرية المشان بالبصرة
يعني رانها قرية قريبة منها .
 - (٤) الزكية : قرية جامعة من أعمال البصرة - معجم البلدان ١٤٦ / ٣
 - (٥) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ ق ٢٧٦ / ٢
 - (٦) المصدر نفسه ج ٤ ق ٢٨٢ / ٢
 - (٧) المصدر نفسه ج ٤ ق ٢٢٧ / ٢ وأنشده شعره في صفر ٥٥٨
 - (٨) المصدر السابق ج ٤ ق ٦٦١ / ٢ وأنشده شعره سنة ٥٥٨
 - (٩) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ١٠٩
 - (١٠) المصدر السابق ج ٤ ق ٤١٢ / ١

العماد السجين :

وظل العماد بحياته غانثا ، وعلى عمله منكبا وعن الأدب والشعر باحثا إلى أن
 فجعه الزمن بوفاة عمده وساعده الوزير عون الدين بن شبيبة الذي قصفت غنمه يـــــــد
 المنون فتوفى وفاة عادية وقيل مسموما ليلة الأحد ثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين
 وخمس مائة أثناء وزارته للامام المستنجد . واعتقل المستنجد أبناء الوزير وأصحابه
 وأودعهم السجن - فخرج من خرج ومات من مات وقتل من قتل . ومن هؤلاء الذين
 سجنوا ابن الوزير عز الدين محمد الذي مات خنقا في شهر ربيع الآخر من سنة ٥٦١ هـ من
 الهجرية وابن الوزير الثاني أبي البدر ظفر الذي حبس ثم أطلق سراحه ، ومن
 هؤلاء الذين ضمهم الحبس صاحبنا العماد - الذي يقول في ذلك : " ولما توفى الوزير
 ابن شبيبة اعتقلت في الديوان ببغداد بسبب منابقي عنه في واسط والبصرة فمدحت الخليفة
 بقصيدة استعطفه بها في سبعين سنة ستين - ومنها قولي :-

أَعِيذُكُمْ أَنْ تَغْفُلُوا عَنْ أَمْرِهِ وَأَنْ تَتْرَكُوهُ نَهْبَةً لِمُسِيرِهِ (٥)

وقد أورد العماد القصيدة في الخريدة - وفي طويلة جدا - ومنها في استعطف الخليفة ،

أَرَى اللَّهَ أَعْطَى يَوْسُفًا حَسَنَ يَوْسُفٍ وَمَكَتَهُ فِي الْعَالَمِينَ لِخُسْرِهِ (٦)
 بَرْتَنِي صُرُوفُ الْحَادِثَاتِ فَأَوْنِسِي تَضَعُ مَعِيَ الْإِنْعَامَ عِنْدَ سَكْوَرِهِ

ولكن الخليفة لم يستمع إلى رجائه ، ولم يكن لاستعطفه فأتبعها العماد بقصيدة ثانية
 عليه يعفو عنه ، ويطلق سراحه ، ويعيد إليه حريره ، وقد بدأها متغزلا ، ومنها ما قاله
 في استدرار عطفه :

يَا أَفْضَلَ الْخُلَفَاءِ دُعَاةَ تَانِعٍ بِرِصَالِكَ مَا كَشَفَ الْقَنَاعَ قَنُوعُهُ
 أَيْكُونُ مِثْلِي فِي زَمَانِكَ ضَائِعًا هَيْبَاتِ يَامُولِي لَسْتُ تَضِيْعُهُ
 أَوْدِعْ جَمِيلاً لِي أَدْعُهُ فُخَيْرَ مَنْ أَوْدَعْتَهُ مِنْكَ الْجَمِيلَ مَذِيْعُهُ
 حَسْبُ الْمَوْلَى مِنْجَا فِي قَسْدِهِ أَنْ الرَّجَاءُ إِلَى مَدَاكَ شَفِيْعُهُ (٧)

- (١) الهداية والنهاية ٢٥١/١٢ والمنتظم لابن الجوزي ٢١٧/١٠
- (٢) الخريدة - القسم السراقى ج ١ / ٩٧ (٣) المنتظم ٢١٨/١٠
- (٤) الخريدة - القسم العرفاني ج ١ / ١٠١ - ١٠٢
- (٥) الخريدة - القسم السراقى ج ١ / ٥٦
- (٦) المصدر السابق ج ١ / ٥٩ ويوسف الاول هو اسم الخليفة والثاني اسم النبي الكريم يوسف .
- (٧) الخريدة - السراقى ج ١ / ٦٢ - ٦٣

ولم يستمع الخليفة الى رجاء العماد ، فظل في السجن ينتظر الفرج ، ومن الطريف أنه لم ينس الشعر حتى أثناء اعتقاله حين كان الهم يكاد يقتله . . . فيها نحن أولاد نجاهه يتناشد الأشعار مع أمير الدين ابن رئيس الرؤساء داخل السجن ، ويقول في ذلك :
 " وأتشدني لنفسه في الديوان عند حضورى معه في الاعتقال في تاسع عشر رجب سنة ستين وخمسمائة " .

ونعود للخليفة المستنجد فنجده لا يستمع الى رجاء السواد ، ولا يلين لاستعطافه بقى في السجن مهموماً مغموماً ، يفكر في من يلجأ ؟ ، ومن يستعين ؟ ، وأخيراً التجأ الى عماد الدين أبي نصر على بن الوزير عماد الدين الذي كان حينئذ أستاذ الدار — فمدحه بقصيدة طنانة رنانة طويلة منها :

(٢)	أنى يحيب وأنت من شفائه	وأشع ليشفع وعده بنجازه
	يقوى أمير المؤمنين برائه	ذكر بحالى الساحب المولى الذي
	بيت الكريم يجد عي أحيائه	وقل : استجار كريم بيت بي ودواه
	ولو أن هذا الدهر من أعدائه	والمستجير بنا مجار لم يزل
(٣)	فأرى شفاهك موجب لشفاه	شافه أمير المؤمنين بحالائه
(٤)	حلى أبوك سبيله بدعائه	أوليس إن حيس القمام وليه

ونجحت الشفاعة وخرج العماد من حبسه ، فعاش في بغداد بقية سنة ٥٦٠ من الهجرة ، وظل ينتظر حظه ، لكن الفرصة الحسنة لم تنهياً له ببغداد ، فعاش منكسداً الميش ، قليل الرزق ، وجعل ينتظر ووال حظه العائر ، وانتهت حياته المتعدية الى سنة ٥٦٢ دون أمل . وأخيراً قرر تغيير الوطن واستبدان المكان فقكر وقدر ، ويبعدو أنه جلس مفكراً يوازن بين حكام المسلمين في الأمصار العربية والاسلامية ، أيذهب الى أصفهان عند السلاجقة المتناحرين على الحكم والسلطنة ، أو الى مصر وفيها الفاطميون الذين يكره مذاهبهم ويعددهم ملاحدة وكفرة — كما يظهر في سجائه لهم حين انتهت خلافتهم — ؟ أو يولى وجهه شطر الشام ، وفيها نور الدين بن زنكى الرجل التقى

(١) الخريدة — القسم السراقى ١٥٤/١

(٢) كذا في نسخة طهران وفي النسخة العادية تشفع وهي تحريف .

(٣) أرت النحل السسل أريا علمته ، وكذلك أريتأرى .

(٤) المصدر نفسه ج ١/١٧٦ والولى المطر ويشير العماد في هذا البيت الى قصة

استسقاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباسيين بين عبد المطالب في عام جندب

(عامت الخريدة ٣٨/١)

ولعل الأرى الوارد في البيت الخامس بمعنى العسل . وقلب الياء ألفا للضرورة .

والمجاهد الصابر ، لم يكن عنده الخيار ، اذن فليذهب إلى الشام .

أ- حياته في الشام ومصر :

لم يعلن لنا مترجمو حياته سبب رحيله إلى الشام ، بل إن بعضهم لم يحدد سنة الانتقال وهذه فصاحب "مرآة الزمان" يتولى : "وقدم دمشق في أيام نور الدين محمود ابن زنكي" ويتابعه في هذا أصحاب "طبقات الشافعية" والبداية والنهاية" و "النجوم الزاهرة" من القدماء ، وينقل عنهم من المحدثين أصحاب "معجم المطبوعات السرية" و "معجم المؤلفين" و "الاعلام" أما صاحب "السيرة" و "شذرات الذهب" (٤) فذكر أنه انتقل بعد سنة ستين وخمسمائة ، ولم يحددوا السنة تحديدا دقيقا .

غير أن صاحب "الروضتين" ^{بدر} عيّن هذه السنة وشهرها دون أن يذكر السبب فقال : "وفي شعبان من هذه السنة - يعني سنة ٥٦٦ - قدم دمشق عماد الدين الكاتب" ويتابعه في ذلك صاحب "معجم الأدباء" (٦) أما أصحاب "الوافي" و "الدارس" وتاريخ آداب اللغة السرية" فحددوا السنة دون الشهر ولم يذكرها السبب .

أما العماد فقد حدد لنا تاريخ وصوله في كتابه "البرق الشامي" حيث قال في مقدمته "وعلت اليها في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة العادل نور الدين محمود بن زنكي" (٨)

أما سبب رحيله إلى الشام فقد أسهب فيه القول وعقد لذلك فصلا في كتابه "البرق الشامي" ثم تحدث عن عمله مع ابن هبيرة ونيايته في واسط والبصرة واعتقاله (٩)

-
- (١) مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٠٤/١
 (٢) طبقات الشافعية الكبرى ٩٧/٤ والبداية والنهاية ٢٠/١٣ والنجوم الزاهرة ١٧٨/٦
 (٣) معجم المطبوعات السرية ج ٢/١١٧٥ و معجم المؤلفين ٢٠٤/١١ والاعلام ٢٥٣/٧
 (٤) السيرة للذعبي ٤٠٧/٤ وشذرات الذهب / ابن العماد ج ٤/٣٣٢
 (٥) الروضتين ج ١ ص ٢٦٨
 (٦) معجم الأدباء ١٢/١٦ (٧) الوافي ج ١/١٣٢ وتاريخ آداب اللغة العربية ٦٥/٢ والدارس ج ١/٤٠٨
 (٨) سنا البرق الشامي ج ١/٥٢
 (٩) سنا البرق الشامي ج ١/٥٧

ثم اطلاقه وبعد ذلك ذكر لنا سبب هذا الرحيل ثم قال : " فلما توفي في سنة ستين
أقيمت بيغداد بعده وأنا إلى الفقهاء منقطع وبالمناظرة والمباحثة معهم
منقطع وفيهم فقيه من أهل دمشق سيف طيب رياستها وسهجة جواهرها وأعراضها ، وصحة
غوائها وقلة أمراضها ، ثراقتي معرفته ، وشاقتني صفته ، فقلت : " أجعلها سنة فرجة
وأسافر لا سفار صبحي بسرى دلجة وأقصد ايناس قلبي وتنفيس كربى ، ووافقني وما فارقني
حتى وصل إلى قرب دمشق ، فانقطع عني وساء بعد الإحسان به ظني ، فلم أدركني
أى مطار طار . ولا إلى أى صير صار ، فبقيت غربياً وحيداً ، ولقيت من استباحشني
عماً شديداً . (١)

اتنا لا نعتقد أن العماد أرادها سنة بهجة وتنفيس كرب وازالة هم وايناس قلب
فمن الحق أنه كان مهموماً مكروباً لأنه كان عاطلاً عن العمل ، ولعل يرضى الرجل الطموح
أن يجلس في بيته لينال آخر كل شهر راتباً يقتات به ؟ ، هل يرضى رجل واثق بعلمه
ونفسه ، ومعتد بشخصه وأهله أن يقعد بلا مركز مرموق ؟؟ ان العماد خرج إلى دمشق
وعو يعلم أن عا حبيها من خيرة الرجال ، فضلاً عن أنه يعرف تمام المعرفة أن هناك
مجموعة ممن يعرفونه أو يعرفون بعض أهله . خرج إلى الشام وعو يعلم أن قاضيها هو
عاجبه وزميله في النظامية كمال الدين بن الشهرزورى ، خرج إلى الشام وهو يعلم
أن فيها نجم الدين أيوب وأخاه شيركوه ، وعذان القائدان يعرفان حق المعرفة
منزلة عمه العزيز ومكانة أبيه وأعمامه . وفيما ذكره العماد في وعفه ليوم ووهله ما يسند
قولنا هذا وشبثيه ، بقصيدة طويلة أولها :

يَوْمُ النَّوَى لَيْسَ مِنْ عُمَرَى بِمَحْسُوبٍ وَلَا الْفِرَائِي إِلَى عَيْشِي بِمَنْسُوبٍ (٤)

وترك القاضي الشهرزورى للعماد حرية اختيار المكان المناسب لإقامته ، فأختار المدرسة
النورية الشافعية عند حمام القصر (٥) والتي نسبت فيما بعد إليه .

(١) المصدر نفسه ج ١ / ٥٨

(٢) يقول العماد عن علاقته بكمال الدين الشهرزورى كانت معرفتي به في أيام التفقه
بيغداد في النظامية سنة ٥٤٥ والدرس شيخنا معين الدين سعيد بن الرزاز
الروضتين ج ١ ق ١ / ٤٧٠

(٣) سنا البرق الشامي ج ١ / ٥٨-٥٩

(٤) المصدر نفسه ج ١ / ٥٩١ والروضتين ج ١ ق ٢ / ٢٦٩

(٥) الروضتين ج ١ ق ١ / ٢٦٩ وكذلك في مرآة الزمان ج ٨ / ١ / ٥٠٤ وقال باب القصر
بدلاً من حمام القصر (٦) سنا البرق الشامي ج ١ / ٥٩

وحين وصل الى دمشق كان سيركوه وعلاج الدين في مصر ولكنهما عادا اليها في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٥٦٢ هـ فذهب العماد الى منزل سيركوه للسلام عليه ، ولغو يعلم تمام العلم علاقته الوطيدة بالعزيز وحبه وتقديره له حتى قال العماد " وَأَكْثَرُ حَدِيثَهُ - بِصَفَى سِيرَكُوهِ - مَعَى فِي تَقْرِيطِ عَنِ الْعَزِيزِ " وَعَطَفًا سِيرَكُوهِ عَلَيْهِ ، وَوَصَلَّهُ بِخَيْرِهِ وَمَعْرُوفِهِ ، وَخَصَّهُ بِبِرِّهِ وَحُبِّهِ - فَمَدَّحَهُ الْعَمَادُ بِقَصِيدَةِ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ٦٢٠ أُولَاهَا :

بَلَّغْتَ بِالْمَجْدِ مَا لَا تَبْلُغُ الْبَشَرُ وَنَلْتَ مَا عَجَزَتْ عَنْ نَيْلِهِ الْقَدَرُ (٢)
 اسْتَدْرُ ذَكَرُوا أَحْبَارَ حِكْمَتِهِ وَنَحْنُ فِيكَ رَأَيْنَا كَرَّمًا ذَكَرُوا
 وَرَسَمَ دُخْرُونًا عَنْ شَجَاعَتِهِ وَعَارَ فِيكَ عَيَانًا ذَلِكَ الْخَبْرُ (٤)

والتقى كذلك بصلاح الدين وتامت بينهما علاقة مودة ومحبة ، وعار علاج الدين يستهديه نظمه ونثره ، ومدحه السامد بقصيدة منها :

كَيْفَ قُلْتُمْ بِمَقَلَّتَيْهِ فَتُورُ وَأَرَأَيْتُمْ بِلَا فَتُورٍ فَجُورُ (٥)

١- عمله مع نور الدين :

لم يطل انتظار العماد ، فمعارفه وأصحابه لم ينسوه ، فنجم الدين يحبسه وشيركوه يعززه وصلاح الدين يهواه ، والقاضي الشهرزوري يسعى جادا للاحاقه بخدمة نور الدين ، الذي رحب به وتقبل مديحه فكان من ذلك قوله :

لَوْ حَفِظْتَ يَوْمَ انْتَوَى عَهْدُهُ هَا مَا مَطَلْتُ بِوَعْدِكُمْ وَعُودُهُ
 مَاذَا جَنَّتْ قُلُوبُنَا حَتَّى غَدَا فِي النَّارِ مِنْ شَوْقِكُمْ حُلُودُهُ (٥)

قال السامد : " فَمَرَّ بِنِي فِي دِيْوَانِهِ مَنْشَأً وَذَلِكَ لِاسْتِقْبَالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ " (٦)

ويبدو أن الظرف كان قد ساعده والحظ قد واتاه إذ سرعان ما استعفى القاضي

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٧٠/٢ (٢) الفهرست جميع فـدرة

(٣) سنا البرق الشامي ج ١ ص ٦٥/١ والروضتين ج ١ ص ٢٧٠/٢

(٤) سنا البرق الشامي ج ١ ص ٦٦/١ والروضتين ج ١ ص ٢٧٢/٢

(٥) سنا البرق ج ١ ص ٦٧/١ والروضتين ج ١ ص ٢٧٧/٢ (٦) بصيرته الصغرى والصفحة ٢ نقل

(٦) القاضي أبو اليسر شاكربن عبد الله : ترجم له العماد بن الخريدة - القسم الشامي ج ٢ ص ٢٥١ فقال : شيخ منقش ، كان منقش الملك السامد نور الدين ، فلما استعفى تولى العماد مكانه ، فكان صاحب لسان التخرى ٥٠٦ هـ ولد بشيرز سنية وتعلم في حماه وسمع الحديث والعلوم المختلفة وتوفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٥٨١ هـ له ترجمة في معجم الأدباء ١٦/٢ وتاريخ مهرة للنعيمان لمحمد سليم البندى . (٧) الخريدة القسم الشامي ج ٢ ص ٢٥١/٢

(١) أبو اليسر شاذان بن عبد الله من ديوان الإنشاء ففهم نور الدين السواد منشأ مكانه (٢) .
 ويعترف السواد صراحة بأنه رأى نفسه غير أهل للقيام بهذا العمل ، واعتقاده بصعوبته ولكنه سرعان ما قرأ المراسلات السابقة فوجد ما — كما يقول — ركيكة ، وأحسن في نفسه القدرة على إنشاء خير منها .
 ومنذ تسلمه عمله هذا أصبح نعم التابع لنور الدين فكان أينما يحل حل ، وأينما يرتحل ارتحل ، وقلما كان يشكو أو يتوجع .
 أصبح السواد يسجل المراسلات والوثائق الرسمية والرسائل الحكومية نيابة عن ~~عنه~~ السلطان نور الدين باللغة العربية غالباً وبالفارسية إذا لزم الأمر .
 وفي سنة ٥٦٢ رحل نور الدين إلى ~~رحم~~ فقام بها أياماً ، ثم انتقل إلى حماة فأنزل شيركوه العماد في خيمة بقره ، فلما رحل شيركوه قبل نور الدين بأيام إلى حلب أوصى صلاح الدين به وترك له الخيمة بما فيها فلما رحل نور الدين إلى حلب رحل معه ونزل في مدرسة ابن العجمي .

وفي حلب توطدت علاقته بصلاح الدين لصاروا لعماد يتردد عليه وصلاح الدين يستنشده شعره بل يطلب منه نظم شعر في الشوق يرضع بها كته إلى أهله وأصحابه .
 ثم رحل نور الدين إلى منبج ^(٦) فهدب أحوالها وسار العماد معه إلى قلعة ^(٧) ^(٨) نجم ، ثم عبر الفرات إلى الرها وعاد إلى حلب في شهر رجب .

-
- (١) القاضي أبو اليسر شاذان بن عبد الله : ترجم له السواد في الخريدة — القسم الشمالي ج ١٥/٢ فقال : شيخ منسوخ ، كان منشأ الملك السواد نور الدين ، لما استمقى تولى السواد مكانه . وكان صاحب الانصاف والتحرى ٥٠٢ ولد بشيخز سنة ٤٩٦ وتعلم في حماه وسمع الحديث والعلوم المختلفة وتوفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٥٨١ بدمشق له ترجمة في معجم الأدباء ١١٦/٣ وتاريخ حمرة النعمان لمحمد سليم الجندى .
- (٢) الخريدة القسم الثاني ج ١٥/٢
- (٣) سنا البرق الثاني ج ٦٦/١ وما بعدها والروستين ج ١ ق ٢٧٨/٢
- (٤) في المدرسة الزجاجية بناها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي في سوق الزجاجيين (نور الدين ٩١٥)
- (٥) سنا البرق الثاني ج ٦٨/١
- (٦) منبج : بالفتح ثم السكون وباء مكسورة . مدينة شامية بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ . معجم البلدان ٥/٢٠٦
- (٧) قلعة نجم : قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل تحتها ريف عامر . معجم البلدان ٥/٢٠٦
- (٨) الرها : بضم أوله ، ويجوز لتصر مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام معجم البلدان ١٠٦/٣

وفي سنة ٥٦٤ سار نور الدين بجيشه والعماد في خدمته إلى قلعة جعبر (١) فوصلنا في يوم الخميس العشرين من محرم تم عادا إلى دمشق فدخلها في التاسع والعشرين من صفر ٥ ثم خرجا إلى الفوار لتوديع شيركوه الذاهب إلى مصر ٥ وهذه هي الحملة الثالثة التي انتهت بتقليد العاضد الفاطمي لشيركوه وزارة الفاطميين .

وفي سنة ٥٦٥ نزل الفرنج علي دميياط (٤) ولكنهم أعيبوا بالخذلان والخسران فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول وأرسل نور الدين نجدة من عنده وصلت بعد رحيل الفرنج ٥ فكتب العماد كتابا إلى العاضد من نور الدين يهنئه فينه بهذا النصر العظيم (٥) .

(٦)
العماد رسول إلى خلاط :

في سنة ٥٦٥ أرسل السلطان نور الدين العماد رسولا إلى خلاط عاصمة أرمينية الوسطى ٥ ولم يذكر العماد سبب الوفاة ٥ ولا عمله فيها ٥ ولا نتيجتها ٥ ولكنه أتبع كلامه عنها بحملة غامضة هي قوله : "وكانت سفرتي في الرسالة ممزوجة لم يف بشكايتها شكرها (٧) ولكننا وجدنا ابن الفرات يشير في حديثه عن هذه الوفاة إلى أن نور الدين العماد أرسله طالبا للنجدة للقاء الفرنج فأجابه إلى ذلك (٨) .

برفقة نور الدين :

في مستهل شبان من سنة ٥٦٥ توجه نور الدين والعماد بصحبه إلى الكرك (٩) وفي الطريق مر بمحمان وأقام على الكرك أربعة أيام ٥ ولكن الخبر وصل بأن الفرنج

- (١) قلعة جعبر : بالفتح تم السكن قلعة على الفرات بين الرقة والسرقوب ضفين . معجم البلدان ج ١٤٢ / ٢
- (٢) الفوار : قرية شامية قريبة من حوران أو فيها ذكرها العماد في أخبار سنة ٥٦٨ حين عد نور الدين هجمات الفرنج وانتصر عليهم في المخاضة . بداية قسم شعراء الشام / ٥٢
- (٣) أخبار مختصرة في سنا البرق الشامي ج ١ / ٧٥-٧٦ والروضتين ٢٨١-٢٨٢
- (٤) دمياط : مدينة قديمة في مهر تق على مناطق البحر الأبيض أو ما يسميه ياقوت بحر الروم ياقوت معجم البلدان ٤٧٢ / ٢
- (٥) سنا البرق الشامي ج ١ / ٨٦-٨٧ والروضتين ج ١ في ٥٦٦ / ٢
- (٦) خلاط : بكسر أوله قسبة أرمينية الوسطى وعندها بحيرة / معجم البلدان ج ٢ / ٢٨٠
- (٧) سنا البرق ج ١ / ٨٨ وذكرها صاحب الروضتين باختصار شديد ج ١ / ١٨٢ (النيل)
- (٨) تاريخ ابن الفرات ج ١ / ٤ أخبار سنة ٥٦٥
- (٩) الكرك : يفتح أوله وتانيه ٥ اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء معجم البلدان ٤٥٢ / ٤ وعلى مدينة أردنية في الوقت الحاضر .
- (١٠) عمان : بالفتح ثم التشديد بلد في طرف الشام وكانت قسبة أرض البلقاء . معجم البلدان ١٥١ / ٤ وعلى عاصمة الأردن في وقتنا هذا .

(١) قد اجتمعوا على ما عيين^(٢) ، فسار نور الدين إليهم فولوا هاريين قبل لقائه ، فاتجه إلى حوران ، وخيم بعشتر^(٣) . وفي تلك الأثناء حدثت زلزلة عظيمة ثم رحل إلى بعلبك فإلى حمص وبعري^(٤) ثم إلى حلب . وفيها وصل إليه خبر وفاة أخيه قطب الدين مودود بن زنكي بالموصل ، فسار نور الدين إليها ، وفي طريقه نزل على الرقة . ومنها انتدب نور الدين العماد ليكون رسوله إلى بغداد .

العماد رسول إلى بغداد سنة ٥٦٦ :

في بداية سنة ٥٦٦ كلفه نور الدين بحمل رسالة عنه إلى الخليفة المستنجد بالله لينال موافقته ورعاها في دخول الموصل - بلد آباءه ، وكلف محمد بن ناصر الدين شيركوه بحمايته حتى يقطع مسافة طويلة ، وقد تحدث العماد في كتابه " البرق الشامي " عن هذه الوفادة ووصف طريق الرحلة ، والاستقبال الحافل الذي تلقاه به رجـال الخليفة .^(٥)

ويبدو أن شهرته كانت قد وصلت إلى بغداد ، وأن الخليفة - بتأشير من وزيره شرف الدين بن البلدي - عديق العماد وزميله في واسط - أجابه إلى مطلبه ووافقه على تنفيذ نور الدين لأماره ، وحاو أن يستبقه في بغداد ، ويسند إليه منصب الإنشاء ونيابة الديوان ، والظاهر أن العماد قد وافقه ما عرض عليه ، فأقام في بغداد شهرين ، ولكن مرض المستنجد جعله يشير ما عزم عليه ، فطلب الإذن بالعودة إلى نور الدين للدين ، والتقى به وغو على حصار سنجار وشهد معه دخولها ، ومن ثم عبروا الفرات

-
- (١) ما عيين : بلدة اردنية وفيها حمامات مشهورة تسمى حمامات ما عيين .
 - (٢) عشتر : موضع بحوران من أعمال دمشق . مصحح البلدان ١٢٥/٤
 - (٣) بعري : بليد بين حمص والساحل . وكذلك تلفظ به السامة وهو خطأ وإنما هو بارين / مصحح البلدان ٤٥٢/١
 - (٤) سنا البرق الشامي ج ١ ص ٩٤ والروصتين ج ١ ص ٤٧٨/٢
 - (٥) المصدر السابق ج ١ ص ٩٥
 - (٦) شرف الدين بن البلدي : أبو جعفر محمد بن أبي الفتح ابن البلدي استتوزره المستنجد سنة ٥٦١ ، وضرت عنقه في اليوم الثاني من مبايعة المستنجد وألقى في دجلة سنة ٥٦٦ . المنتظم ١٠٢٢٦/١ ، ٢٢٢٣ و مرآة الزمان (٢٧١/٨) والبداية والنهاية (٢٥٤/١٢)
 - (٧) سنا البرق الشامي ج ١ ص ١٥٤-٩٦
 - (٨) سنجار : بكسر أوله وسكون ثانيه عند پنة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وسين الموصل ثلاثة أيام . مصحح البلدان ٢٦٢/٣

(١) الى الموصل فدخلوها .

وتوفي المستنجد ، وتولى من بعده الامام المستنصر ، وبويع يوم السبت ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسائة ، وأراد نور الدين إرسال السواد للتهنئة ، ولكن الشيخ شرف الدين بن أبي عسرون اعترض ، وقال : " أنا أولى بالقيام بالرسالة وإقامة الدلالة والنصرة والادالة وجملاء الجلالة " ورضى العماد ولم يعترض ، وأرسل معه أبياتا في مسودح المستنصر منها :

قَدْ أَصَاءَ الزَّمَانُ بِالْمُسْتَضْرِعِ	وَارِثِ الْبُرْدِ وَابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ
جَاءَ بِالْعَدْلِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْحُكْمِ	بِقِي فِيَا مَرْحَبًا بِهَذَا الْمَجْبُورِ (٤)
فَهَيِّنَا لِأَعْمَلِ بَعْدَ إِدْفَاذِ نَازِلِ	بَعْدَ بُؤْسِ بَيْتِكُمْ عَيْشِ هِنِي

فأرسل له أخوه تاج الدين أبو بكر حامد بن محمد تشريفا ومبلغا من المال وكذلك فعل الخليفة الذي أجازته وأكرمه وجعل تشريفه إدارا سنويا ، وظل هذا الأمر من بداية سنة ٥٦٦ حتى توفي المستنصر وتولى الخليفة الناصر لدين الله الذي أبقى التشریف على حاله .

العماد مدرس في العمادية وناظرها :

في رجب من سنة ٥٦٧ أسند نور الدين اليه التدريس في العمادية ، وقد عهد البنداري مختصر كتاب " البرق الشامي " فصلا بعنوان " ذكر تفويض الدراسة للعماد في المدرسة النورية " ولخص قصة تعيين العماد في هذه المدرسة مدرسا وناظرا لها ومشرفا على أوقافها . وقد عرفت المدرسة بعد ذلك باسمه .

العماد مشرف الديوان الي جانب رئاسة القضاء :

يبدو لنا مما كتبه للعماد عن نفسه أنه كان جادا في عمله ، مخلصا لرب نعمته وعبدا لسلطانه ، وهذه السمات والصفات أثارت إعجاب زملائه في ديوان السلطان ، فكسر عهده

- (١) سنا البرق الشامي ٩٦١/١ - ٩٧٠/١ والروضتين ج١ ٤٧٦/٢ - ٤٧٧
- (٢) سنا البرق ١٠٠٠/١ والروضتين ج١ ٤٨٤/٢ (٣) سنا البرق ١٠٢/١
- (٤) سنا البرق ١٠٣/١ والروضتين ١ ق ٤٨٥/٢ والخريدة القسم العراق ج١ ١٢/١ - ١٣
- (٦) سنا البرق ١٠٣/١

وقاموه وحاولوا الخائفة والتخلص منه ، ولكن نور الدين جريه فعرف حقيقته واختبره فراه
أغلا لثقتة ، وعجم عوده فوجدته أعجب مكسرا ، وقد روى العماد ذلك كله في كتابه
" البرق الشامى " وذكر كيف عامله رفاقه في السجن والسلوك الذى مشى عليه حتى
استطاع أن يسيطر على الأوضاع ، ويمسك بالزمام . لقد وصف العماد لنا حده فى
العمل ، ومدامته على الجلوس فى الديوان حتى لقد كان الديوان يخلو من الجميع
سواه ، فإذا اطلب نور الدين أحدا لم يجد غيره يقوم له بعمله ، إلى أن جاء خازن
نور الدين يوما يبلغه بأمر تعيينه مشركا على المملكة ، ويزعم العماد أنه رجاه
أن يعفيه لأنه وحيد غريب ، ولأنه عديم الدائرة فى هذا العمل ويخشى سيطرة رجاء
الديوان على الأمور . ولم يكن العماد صادقا فيما قال ، ولا مؤمنا بما كتب .

أما كونه غريبا فقد جاء الى دمشق وعمل فى منصب الإنشاء ، بل وسعى حتى
وصل اليه وثبت فيه وأما عدم الخبرة فقد قدم لنا فى وصفه أنه كان مجدا فى عمله ، يطيل
الجلوس فى الديوان حتى بعد نهاب النواب وانصرافهم ، بل وكان نور الدين يكلفه
ببعض الأعمال ، وأما الثالث فقد أفادنا قبل ذكره أن رجال الديوان كانوا يسيئون فى
كثير من أعمالهم ، وكان نور الدين يصرخ ويصرخ من يرى عدم صلاحيته .

ويكمل العماد قصته فيخرج الخازن ليقول له على لسان نور الدين " اتبع أوامرنا
وأنت على السواب " .

وهكذا جمع العماد بين منصبى الإنشاء والإشراف ، فهو ينشئ الرسائل والمناشير
ويثبت رواتب الجنده وأسماءهم وأعمالهم ، ويؤدى جميع الترازم فى هذا الميدان .
وهكذا بدأ العماد عمله هذا بجد وكده ، فهو دائم العمل كثيره ، وهو الذى
جانب ذلك كان يحاول ترويض أولئك النواب الذين وقفوا فى وجهه محاولين إضعافه ،
ولكن ظيهمات أن ينصف ويكسل أو يمل ويتعصب .

(١) سنا البرق ج ١ / ١٢١ وفى الروضتين وردت مختصرة ج ١ و ٢ / ٥٢٤

(٢) سنا البرق ج ١ / ١٢١ - ١٢٢

(٣) المصدر السابق ج ١ / ١٢٠

(٤) سنا البرق الشامى ج ١ / ١٢٢

(٥) المصدر السابق والصفحة نفسها .

العماد مستوفى المملكة :

كان نور الدين يأمل من صلاح الدين أن يرسل له من مال مصر ما يعينه على
الجهاد ويدفعه إلى الجهاد، لكن صلاح الدين لم يكن - على ما يبدو - عند حسن
ظن نور الدين، فأرسل الموفق خالداً القيسراني مستوفى مملكته ليقوم الحساب ويتسلم
المان، وأراد الموفق أن يستنيب عنه أحد إخوته، ولكن نور الدين رفض وسلم المنصب
للعقاد، فأصبح يشرف على ثلاثة دواوين كبار هي : ديوان الإنشاء وديوان الأشرف
و ديوان الاستيفاء .

وقد حاول فخر الدين الزنجراني أحد كبار أمراء نور الدين أن يعين من طرفه
أحد أصحابه وهو رضى الدين يعقوب رئيس سنجار بدل العماد . على أن يدفع
للخزينة عشرة آلاف دينار في منصب الاستيفاء وخمسة في منصب الإنشاء ووافق نور الدين
على تعيين رضى الدين يعقوب في منصب الاستيفاء فقط إلى أن تكشفت له حقيقة فطرده
وصرفه عن العمل الذي أسند إليه وأعاد منصب الاستيفاء للعماد . ولعل هذه الحادثة
تثبت أطمنة العماد وتفانيه في العمل وإن كنا لانستطيع الدفاع عن هذه الهبة التي وقع
فيها نور الدين، فكيف يوافق على تعيين رجل يشتري المنصب بالمان، إن أمثال
هذا الرجل في كل زمان ومكان يعملون على نهب خيرات الأمة وسرقتها ويلجئون في سبيل
تحقيق ذلك إلى أدنى السبل وأحطها .

العماد موضع تقدير نور الدين وثقته :

أما أن العماد كان موضع تقدير نور الدين فهذا ما سنجدده في قصة وصول عماد الدين
إلى عين شمس من دار الخلافة . والاستقبال الذي أعد للفائه . يقول العماد
" وعسى يوم يحضر فيه الرسول، ونسوا على من يحضر في مجلس نور الدين عند اجتياحه
تشریف الإبلنج، وأغلوا ذكرى قصداً منهم لا غماض، فلما حضرت الرسل طلبني
نور الدين، فلم يرني، فنفذ ورائي، واستحضرني وقام لقيام الرسل واقفاً حتى حضرت،
وكان مقصوده أن يعرفهم منزلي واختصاصي عنده " (٤)

- (١) ديوان الاستيفاء : رئيسه يسمى المستوفى وهو المسئول عن بيع الاموال وتسجيلها
يفهم ذلك بما في تاريخ آل سلجوق في الصفحات ١٠٢، ١١٨، ١١٥، ١١٥
(٢) سنا البرق ج ١ ص ١١٢ (٢) سنا البرق ج ١ ص ١٢٢
(٤) سنا البرق السامي ج ١ ص ١١٦ والروضتين ج ١ ص ٥٥٥/٢

لقد كان العماد يسعى دائماً لكسب ثقة نور الدين واحترامه ، وتممه القصة تعطى دليلاً على قولنا هذا ، يقول العماد : " فناولني الكتاب الشريف لأتلوه فتناولوه مني الموفق القيسراني خالد ، وكان عنده في مقام الوزير وله انبساط زائد ، فداريته ومما مارته ، وتركته يقرأ وأنا أرد عليه ، وأرشدته في التلاوة إلى ما لا يهتدي إليه حتى أنه ^(١) " . فإن صحت الرواية ولا نخالها إلا صحيحة - لو ثوقنا بأمانته ، أمكن القول بأن نور الدين كان يثق في العماد وعلمه وأن القيسراني ورجاله كانوا يكيدون له نظراً لقربه من قلب نور الدين وحبه الزائد له .

وهناك قصة ثانية تدل على ثقة نور الدين في العماد ، وعلى أن نور الدين حين سلمه الإشراف على ديوان الاستيفاء منحه ثقته الكاملة ، ومنح الثقة الكاملة قل أن يعطى في الأمور المالية ، لأن النفس مجبولة على الطمع ، والرجل المؤمن والموظف الأمين يستطيع أن يسيطر على طمع نفسه ويوقفها عند حدها ، ودعماً لهذه الثقة أمر نور الدين بأن يسلم كل من عليه مال للديوان للعماد بعد أن كان يسلم للقيسراني ، وكان العماد - توطيذاً لهذه الثقة وقطعاً لدابر الأفساد بينهما - يبلغ نور الدين بما يصله من عدايا .

اذن لم يكن نور الدين ذلك الحام الساذج الذي يطلق يد مخدومه دون اختبار ولكنه كان ذكياً المعياً وثق في العماد بعد تجارب طويلة ، وكان العماد فطناً حين كان يبلغ نور الدين بكل أمر حتى عداياه الخاسرة كان يطلعه عليها وبذلك فوت الفرصة على أولئك الذين كانوا يطمعون في منصبه ، ويسعون بلا كلل ولا ملل لطرده من مركزه ، ويودون أن يرتكب العماد ما يشين وعندنا يسهون عليهم طرده وفصله .

وأخيراً سلم نور الدين إليه أموره ، وقد روى العماد أن نور الدين اعتمد عليه اعتماداً كلياً ، وأخذ منه صاحباً وعديقاً .

وفي القصة الآتية ما يفيد تقدير نور الدين للعماد وحبه له ، فقد كان يـرزور مدرسته العمادية ، ويتقبل منه الهدية ، يقول العماد : " وفي يوم الاثنين الرابع من شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ . ركب نور الدين على العادة ، وجلسنا نحن في إيوانه ، وكل منا متفرع لشغله ، أخذ في شأنه ، فجاءني من أخبرني أن نور الدين نزل إلى المدرسة التي أتولاها ، وبسط سجاده في قبلتها لسنة الضحى وعلاها " وقام العماد مسرعاً

سنة البربر والبرص

(١) في المصدر السابقين والصفحتين نفسيهما .

فالتقى بنور الدين وغوى الدهليز خارجاً فسلم عليه وحيّاه وعرض عليه ما أصاب المدرسة من تشقق بسبب الزلزلة ، وفي الحال أمر نور الدين بالإسراع في عمارتها ، ثم حمل اليه العماد بغذية من ثياب وطيب وغبر وكتب معها هذه الأبيات :

عند سليمان على قدره لا تقصير المملوك عن نملة وفي لمولانا ومليكي لسه	عندية بالنميلة مقبولة عندك والرحمة مأمولة وذمتني بالشكر مشكولة (١)
---	--

العماد رقيق نور الدين في جهاده وحرابه :

وكما كان العماد نعم الرفيق لنور الدين في أوقات السلم ، كان له نعم المصاحب في أوقات الحرب ، فلم يتخلف عنه في غزوة ، بل ظل يرحل برحيله ، ويقعد بقعوده حتى وافى الأجل نور الدين سنة ٥٦٦ هـ وكنا قد ذكرنا ملازمته لنور الدين في السنوات ٥٦٣ وما بعدها إلى سنة ٥٦٦ هـ أثناء حروبه الداخلية ، فقد وجدناه مرافقاً له في غزوته للكرك والشويك سنة ٥٦٧ هـ (٢) حين تواعد نور الدين وسلاج الدين على الالتقاء حول أسوارها ، وكان كذلك عنده في سنة ٥٦٨ هـ حين خرج لصد الروم عن زرا في حوران ، وكان رفيقه حين لحق بهم إلى الفوار والشلالة ، وشهد معه معركة المخاضة ، ومن الطريف أنه كان مرة يقف إلى جانب نور الدين نقال له : " كيف تصف نهوضنا إلى الجهاد وسواد وجوبهم بدخولهم في السواد ؟ " وغويبتسم ، وقد تقدم أمراؤه إلى المعركة ، ثم قال : " أراك قوى القلب " . وأقول : " كيف لا يقوى قلبي بخدمتك وأنا في عصمتك ؟ " ثم عملت هذه القصيدة في وصف الحسان :

عقدت عصفت بنصرك راية الأيمان وودت لنصرك أية الإحسان (٤)	وعلى طويلة ووردت في الروضتين وغيره .
---	--------------------------------------

وفي سنة ٥٦٨ هـ عزم نور الدين على قتل قليج أرسلان لاعتدائه على بلاد ابن قرا أرسلان فسار نحو مرعش واحتلها في ذي القعدة من هذه السنة ومنها كتب العماد

- (١) الروضتين ج ١ / ٢١٨ وسنا البرق ١ / ١٤٥ ولبعة الروضتين الجديدة ج ١ ق ٥٥٧ / ٢
- (٢) المصدر السابق ١ / ٢٠٦ وسنا البرق ١ / ١١٧ - ١١٨
- (٣) المصدر السابق ١ / ٢١٤ وسنا البرق ١ / ١١٩ وما بعدها
- (٤) وزرا بلد في حوران وتدعى زرج - معجم البلدان ٣ / ١٣٥ وكذلك الشلالة والفوار
- (٥) سنا البرق الشامي ج ١ / ١٣٠ والروضتين ١ / ٢٠٧
- (٥) مرعش: بالفتح ثم السكون والعين مشروحة : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ووسطها حصن عليه سور / معجم البلدان ٥ / ١٠٧

الى صديق له متشوقاً :

كِتَابِي فَدَيْتُكَ مِنْ مَرَعَشٍ وَخَوَّبْتُ نَوَائِبَهَا مَرَعَشٍ (١)

وانتقل مع السلطان الى بهمنج ، ودخلها معه بعد أن طلب أهلها الأمان ،
إن حلت سنة ٥٦٦ حتى كان قد دخل أرنيش وكيسون من قلاع الروم ، وعاد معه الى
دمشق حين حل الشتاء وبدأ الزمهير ، ولكن الأجل كان لنور الدين بالمرصاد فتوفي
بعهد مرض يوم الأربعاء في الحادي عشر من شوال سنة ٥٦٩ عه .

وعندما قضى العماد قرابة ثمانى سنوات في العمل المتواصل والجهاد الدائم ،
والفكاح المستمر ، وكان كلما توطدت علقته بنور الدين ازداد الأخير حبا فيه ، واعتمادا
عليه ، وتكريما له ، وثقة به ، ولكن نور الدين انتقل الى بارثه فكيف عومل العماد من
بعده ؟

٢- العماد في عهد الملك الصالح إسماعيل :

حين ولي الملك الصالح الملك كان صغيراً ، وقد وعفه ابن الأثير في كتابه
التاريخ الباهر بأنه كان لم يبلغ الحكم ولكن الأمراء والمقدمين حلفوا له وأطاعوه
بما فيهم صلاح الدين بصير ، وفصل العماد القول وشرح لنا كيف تم هذا الاتفاق
بتقسيم السلطة بينهم وجعلوا الأمر كله الى عمن الدين محمد بن المقدم .

واتفقوا على أن يجبروا صلاح الدين بصير بالخير الآم والقاججة الكبرى وكلفوا
العماد باشائها ، وأصبح أمر الدولة بين أيدي جماعة ظالمة لا يهمها إلا مصالحها
الشخصية ، والملك الصالح صغير لا يدري ما يدور حوله ، وقد الخلاف بين أولاد الداية
في حلب ولم أقرب التقربين إلى نور الدين وبين الأمراء المحيطين بالملك الصالح في
دمشق .

- (١) الروضتين ١/٢١٢ وسنا البرق ج ١/١١١-١١٤
- (٢) المصدر السابق ١/٢١٤
- (٣) ياقوت من أعمال الجزيرة م ٤٩٧/٤
- (٤) سنا البرق ج ٢/١١٢-١١٧ والروضتين ج ١ ق ٤٤٧ وما بعدها الى ٥٥٠
- (٥) سنا البرق ١/١٥٢ ، والتاريخ الباهر ص ١٦١ والروضتين ج ١ ق ٥٨٠/٢
- (٦) طبعة الثقل ص ٢١٥
- (٧) سنا البرق الثاني ج ١/١٥٤
- (٨) عمن الدين بن المقدم : من أكابر رجال نور الدين ، وقد اتهمه العماد بمخالفة الصليبيين
- (٩) سنا البرق الثاني ج ١/١٥٤-١٥٥

وعار أمر العماد إلى الضعف ، واقتصر عمله على الإنشاء ^(١) وبذا قَلَمَتْ أظاقره ، يكتب ما يأمرونه ، وينشئ ما يطلبونه منه وأخذ منه ديوانا الاستيلاء والإشراف ، فممن ذلك عليه وصمم على العودة إلى السراق ، لا لأنه اشتاق للسراق ومن فيه ، ولكنه - وهو الذكسى الألمى - عرف أن أمره إلى فناء ومركزه إلى زوال بتعاقب الأيام ، فأراد الهروب بحاله قبل أن تمتد إليه أيدي المتنافسين .

عودة إلى الموصل :

وأخيراً اتفق الأمراء على أن ينقلوا الملك الصغير إلى حلب ، فأرسل شمس الدين على بن الداية أخاه رسولا عنه ، ونائباً ليتفق مع أمراء دمشق على ترتيب أمور الانتقال ، وتم الاتفاق وخاف العماد من الكيد والحيلة ، فخرج لوداع ابن الداية ونصحته وحذره ، ولكن ابن الداية لم يحفظ السر فأخبر به بعض أمراء دمشق ، فازدادوا حقدًا على العماد وكرهًا له ^(٢) ، فحاول راب الصدع وإصلاح الأمر ، ولكنه لم يستطع - كما يزعم - فلجأ باعترافه إلى مداراتهم حتى يسلم بحاله وينجو بروحه ، وكان قد صمم على الخروج إلى الموصل . ووصل معهم إلى حلب وأقام مدة في دار محبى الدين الشهرزورى ثم قطع الفرات والجزيرة ونزل في الموصل .

واتهم العماد منافسيه بتدبير محاولة اغتياله مع الباطنية وهو في حلب مما دعاه ^(٤) أن يهرب إلى حران ومن ثم إلى سروج ^(٥) ونسبها سيف الدين غازى صاحب الموصل ^(٦) . ومع ذلك نجد صعوبة بالغة في الاقتناع باللامه .

ذلك لأن هولا كان باستطاعتهم التخلص منه في أية لحظة أو على الأقل مصادرة أمواله وتركه بلا مال أو عزله من منصبه لإنشاء الباقى له وقائه بلا مركز فيضطر إلى المغادرة أو يميل إلى المدارة والمسايرة ، خاصة أنه لم يذكر اسم مبلّغه ، ومن عادة العماد إسناد

(١) المصدر السابق ج ١ / ١٥٦

(٢) سنا البرق الشامى ج ١ / ١٦١

(٣) المصدر السابق ج ١ / ١٦٤

(٤) حران : بتشديد الراء ، هي قسبة ديار مصر بينم وبين الرها يوم والرقعة يومان وهي

على طريق الموصل والشام / معجم البلدان ج ٢ / ٢٣٥

(٥) سروج بفتح أوله . بلدة قريبة من حران من ديار مصر / معجم البلدان ج ٢ / ٢١٦

(٦) سنا البرق ج ١ / ١٦٦

أخباره الى روايتها .

وأنه ألف كتابه " البرق الشامي " بعد ربع قرن من هذا الحدث .
وقد قصد العماد فخر الدين عبد رب المسيح وزير الموصل الذي رغبه في خدمة سيف الدين ، ولكن اليأس - على ما يبدو - كان قد بلغ به درجة كبيرة ، فاعتذر وقزار الرحيل الى بغداد عله يجد الأمن والطمأنينة .

وشاءت الأقدار أن يقع العماد فريسة المرض في الموصل ، فلم يستطع مفادرتها سريعا ، والتقى فيها بكمال الدين ابن عديقه القديم الوزير جمال الدين محمد بن علي ابن أبي منصور .

العودة الى الشام :

قلنا أن العماد وقع فريسة المرض في الموصل منذ شهر ربيع الأول سنة ٥٥٧٠ ، ولكن الأمور كانت تسير مع هواه ، فيها هوذا إصلاح الدين يخرج من مصر بجيشه الكثيف ، وعدته الوافية معلنا أنه ما جاء إلا لحماية ابن مولا نور الدين ، وحفظ أوطانه ، وحماية حقوقه ، ومصائب أولئك الذين تلاعبوا به ، ونالوا منه ، وفي هذه الأثناء كان العماد في الموصل فكتب - عن ذلك - يقول : " فوصل نجاب وذكر أنه فارق صلاح الدين بالكسوة فهاجني الطرب لقصده ، السابق معرفته وقد هم وده وخرجت من الموصل رابع جمادى الأولى وعبرت على الخابور في مخاضة المجدل ، وجئت الى الرقوقود خلت الى دمشق في ثامن جمادى الآخرة وصلاح الدين نازل على حلب ، فنزلت في مدرستي وعدت الى منزلي ، وألقيتها وفيها مدرس يتولاها ، وقالوا : إن العماد خلاها ، فدخلت إليها وأخرجته وأبعدته عن النهج الذي نهجته " اذن لم يكن العماد راغبا في العودة الى بغداد ولا شاقة الشوق إلى أخيه ، ولكن الظروف السيئة التي مر بها جعلته يقتبط ، فيقرر العودة الى بغداد .

-
- (١) سنا البرق ج ١/١٦٦ وقد نقل صاحب الروضتين عن البرق خيرا مفاده أن العماد وافق على خدمة سيف الدين فال : وعزمت على خدمة سيف الدين ، ولعل ذلك من اختصار البنداري ، أو من وهم أبي شامة الروضتين ج ١ في ٥٩٦/٢ - ٥٩٧ .
- (٢) سنا البرق ج ١/١٦٦
- (٣) الخابور : بعد الألف باء موحده . من أعمال الموصل في شرق دجلة . مسجـم البلدان ج ٢/٢٢٥
- (٤) مخاضة المجدل : المجدل بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال . بلد طيب بالخابور من أعمال الموصل / مسجـم البلدان ٥/٥٦
- (٥) سنا البرق ج ١/١٨٤

وقد ظل في دمشق حتى اعتدل مزاجه ، وشفى من مرضه ، ثم لحق بصالح الدين
وعلقو في حمص وقد تسلم قلعتهما في شهر شعبان سنة ٥٧٠ .

وبذا يكون قد أقام في دمشق قرابة شهرين ، ثم عاد ليلتحق بالسلطان ويرحل
برحيله ويقيم بمقامه .

العماد مع صالح الدين :

مَرَّبْنَا أن علاقة العماد بصالح الدين كانت قديمة ، وأن العماد كان يمدحــه ،
ويلازمه كثيراً ، وأنه كان يرعاه ، وأن سيركوه حين فارقتهم في إحدى سفراته أوصى صالح
الدين به خيراً . ولكن هل يبقى الود القديم أم يقصف أو يزول ، سنون كثيرة مرت ،
وحوادث عظيمة حدثت . ورجال جدد أحاطوا بصالح الدين ، ولن يغامر صالح الدين
بطردهم ، واحلال رجل من أعوان مولاة السابق ، بل من أخلص المخلصين له . ويبعدو
أن العماد قد نسي أو تناسى كل هذه الأمور فواصل ملازمته ، أما أن يعطــف
السلطان عليه ، ويلحقه بديوانه ، ويصبح أحد رجاله ، لكن السلطان جفاه ، ولم تُفقد
قصائد العماد في مدحه ، ولم تجهل السلطان يتذكر سابق المودة ، وقديم المحبة ،
فماذا فعل العماد ؟

٣- بداية عمله مع صالح الدين وكيف التحق به :

أول أعماله مع صالح الدين كان تحريره النسخة اليمينية بين صالح الدين وأغسل
حلب ، ولكن هذا هل مؤقت عده العماد رفعا لمقامه ومنزلته في أعين أمراء حلب
الذين غرب منهم إلى الموصل .

أما عمله مع السلطان فقد عقد في كتابه " البرق الشامى " فصلا عنوانه : " ذكر
ما أسفر عنه حالي ومآل آمالي " شرح فيه ظهور حساده في بلاط صالح الدين ، ورغبة
السلطان في إلحاقه بديوانه ، ولكن وجود رجل كالقاضى الفاضل على رأس ديوان
الإنشاء جعل صالح الدين يتردد في ضم العماد حتى لا يخضب الفاضل ، الرجل الذى

(١) المصدر السابق ج ١ / ١٨٤ - ٢٨٥

(٢) سنا البرق ج ١ / ١٨٥ وفي الروضتين ج ١ / ٢٣٣ وفيهما فقرات توضح أن عُزوف
السلطان عن إلحاق العماد بديوانه كان خوفا من غضب الفاضل .

(٣) سنا البرق ج ١ / ١٩١

(٤) سنترجم للفاضل في الباب الثانى أثناء دراستنا لنثر العماد .

كان السلطان يؤثره ويكنّ له المودة والمحبة ، وساعد على ذلك التردد وجود رجال - كما
زعم العماد - نهبوا السلطان إلى هذا الأمر ، لأن الكتابة الإنشائية من عمل الفاضل
يستنوب فيه من يراه أعلا لها .

عند ذلك عرف العماد أن عليه اللجوء إلى الفاضل ، فلبأ إلى وسيط تربطه
بالباضل عداقة حميمة هو نجم الدين بن مصال وهو من كبار الأمراء المصريين ، وقد
مدحه العماد ورجاه أن يتوسط له لدى الفاضل عسى أن يضمه إلى ديوان الكتابة
قال :

لعلَّ نجمَ الدين ذا الفضل	يُذكرُ الفاضل في شغلي
إنَّ أجلَّ النَّاسِ قدراً فتى	بفضله يتعب من أجلى
ومثله من يعتنى بالعماد	ويستدِّمُ الحمد من مثلي (١)

وقد عدى ظن العماد ، وأصاب الطريق السوى ، فعرفه ابن مصال بالفاضل فمدح
الأخير بقصيدة حين لقيه بضم في شعبان سنة منها :

عَايَنْتُ طُودَ سَكِينَةٍ وَرَأَيْتُ شَمًّا	سِرْفَتِيلَةٍ ، وَوَرَدَتْ بَحْرَ فَوَاضِلِ
وَرَأَيْتُ سَحْبَانَ الْبَلَاغَةِ سَاحِبًا	بِبَيَانِهِ ذَيْلَ الْفَخَارِ لِسَوَائِلِ
أَبْصَرْتُ نَسَاءً فِي الْفَصَاحَةِ مُعْجِزًا	فَعَرَفْتُ أَنِّي فِي فَهَامَةِ بَاقِلِ
حَلَفَ الْحِصَافَةِ وَالْفَصَاحَةِ ، وَالسَّمَاءِ	حِةَ وَالْحَمَاسَةِ وَالتَّقَى ، وَالنَّائِلِ
بَحْرًا مِنَ الْفَضْلِ الْفُزَيْرِ ، وَخِصْمِهِ	طَامَى الْعُبَابِ وَمَالِهِ مِنْ سَاحِلِ (٢)

لقد لبأ العماد إلى المدارة ، ومن هنا رضى الفاضل عن العماد ، ووثق فيسه ،
ولاشك أنه كان قد سمع به ، والعماد أكبر سنًا منه ، فدخل إلى السلطان ، وطلب منه
تولية العماد منصب الإنشاء ، معللاً طلبه بمعرفة العماد بالفارسية التي لا يتقنها رجل
مثله . (٤)

(١) نجم الدين بن مصال : ترجم له العماد في ابهرى ونقل صاحب الروضتين ما كتبه عنه
فقال : وكان أبوه وزير للحافظ "أحد الخلفاء الناطميين" في آخر عهده متفردا
بسروده ووجدته ، وكان من أهل السنة والتقى والورع . . . وله يد عند السلطان في
النوب التي قصد وعه شيركوه مصر وبخاصة حين كان السلطان محصورا في
الاسكندرية وتوفي في سنة الروضتين ج ١ ق ٢ / ٦٤١ وطبعة النيل ج ٢ / ٥

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ / ٦٤١ وقد أهملها البندارى مختصرا البرق الشامي .
(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ / ٦٤١ - ٦٤٢ وعلى غير موجودة في سنا البرق فقد أسقطها
البندارى . (٤) الروضتين ج ١ ق ٢ / ٦٤٢ وسنا البرق ج ١ / ١٩٤

ومنذ تلك اللحظة أصبح العماد رفيق السلطان ومناجبه ، وظله في الحرب والسلم لا يفارقه إلا قليلاً ، بسبب مرض أو علة ، وكان إلى جانبه في كل غزواته ومعاركه ما عدا غزوة الرملة التي ستحدث عنها فيما بعد ، وبعض معارك أخرى قليلة لم يستطع العماد المشاركة فيها بسبب المرض .

أصبح العماد كاتب إنشائه ، وأمين سره ، ومستشاره في الأمور الحربية والعسكرية والحوادث الداخلية ، وغدا مؤرخ السلطان يسجل عنه كل أفعاله وأعماله ما دحاً وما حثاً لا كاتباً موظفاً .

العماد المجاهد الرحالة الى جانب صلاح الدين :

كان العماد يحارب في ساحتين : أولاها ساحة حلب والموصل ، وثانيتها : ساحة الفرنج في الشام ومصر ، ونستطيع أن نستقصى كل الممارك التي شهدها وأدار رحاها ، ولكن هذا العمل يعني أننا سننظر إلى كتابة تاريخ صلاح الدين كله ، ولذلك سنكتب الحوادث المهمة والحروب البارزة التي شهدنا العماد لتعرف منها مدى ما عاناه هذا الأديب الأريب في شيخوخته ، خاصة أنه حين انضم إلى ركب صلاح الدين سنة ٥٧٠ هـ كان قد جاوز الخمسين عاماً ، ومع هذا كان مكتمل الحيوية الجسمية والروحية فلم يشك مرة ولم يتدمر .

وقد انضم إلى السلطان حين كانت معاركة مع أهل حلب والموصل على أشدها ، ففي سنة ٥٧١ هـ كان إلى جانب السلطان في معركته الثانية مع غولا وأولئك ، وفي الثالث من ذي القعدة نزل على عزاز ود خلاها سوياء يوم الإثنين الحادي عشر من ذي الحجة كما يشير قوله من قصيدة له فيها . . .

تَهَنَّأَ مِنْ فَتْحِ عَزَّازٍ نَصْرَةً أَوْقَعَتِ الْعُدَاةُ فِي اعْتِزَّازِنَا
وَالْيَوْمِ ذَلَّتْ حَلَبٌ بِإِنْتِهَانِنَا كَانَتْ تَنَاوُلُ الْعِزَّازِ مِنْ عَزَّازِنَا (٣)

ونزل معه على حلب في منتصف ذي الحجة سنة ٥٧١ هـ وشهد معه الصلح بل كان

(١) سنا البرق الشامي ج ٢٠١/١ والروضتين ج ٢٥٥/٤
(٢) سنا البرق الشامي ج ٢٥٩/١ والروضتين ج ٢٦١/٢ وعزاز حصن تريب من حلب
(٣) الروضتين ج ٢٥٢/٢ وهي غير موجودة في سنا البرق

مندوبه فيه ، وحين دخلها لقي العماد عنتا وضيقاً من حساده السابقين وزملائه القدامى ،
الذين تأمروا عليه وعلى زميله شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء ، فاعتقلوهما ، وياتسا
جائعين منسجدين حتى تبسم لهما الفجر وظهر أمامهما الصباح ، فأخذوا إلى ديوان
الملك الصالح وحلف لهما على نسخة اليمين التي أعدتها أصحابه وأطلق سراحهما وخرجا
إلى معسكر صلاح الدين (١) .

وفي أمر عذا الاعتقال يقول ابن الساعاتي :

قالوا الإمام عماد الدين معتقلاً فقلت لاشك أن الرمح يمتقل
ساجي اللواحي في هيمانه قلبى عاج من الحبيب أعطانه ملل
ودب فوق الماء نثر شاره فد أن رضاءاً تحته عسل (٢)

وقد تم الصلح وخلا الجو لصلاح الدين كي ينتقم من الباطنية الذين حاولوا قتله
على أبواب عزاز في أواخر سنة ٥٧١ هـ ، فنزل العماد معه على مصيف مركزهم الحصين ،
ورحل بعد أن تدخل خان السلطان شهاب الدين الحارثي صاحب حماة ، وعاد إلى
دمشق والعماد بصحبته (٤) .

وفي ارباع عشر من ربيع الأول سنة ٥٧٢ هـ خرج صلاح الدين والعماد معه
قاصدين إلى مصر فد خلاها يوم السبت السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٧٢ هـ وأقاما
بها - في القاهرة والاسكندرية وغيرها - إلى أن خرجا منها يوم السبت السادس
والعشرين من شعبان سنة ٥٧٢ هـ ووصلا إلى دمشق يوم السبت الرابع والعشرين من
شوال (٥) .

وما دنا فبحث في موضع العماد للجاسد نجد لزاماً علينا أن نُفصل القول
في معركة الرملة تلك المعركة التي تخلف العماد فيها عن الجهاد ، ونبحث هل كان
العماد جباناً فرعب الخروج ؟ أو بخيلاً ماحب المال حين غلت الأسعار وارتفعت
الأثمان ؟ .

وخلصة القصة أن صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الجمعة الثالث من جمادى

(١) سنا البرق الشامي ج ١ / ١١٦ والروضتين ج ٤ / ٦٦٢

(٢) ديوان ابن الساعاتي ج ١ / ١٤٦

(٣) مصيف : حصن حصين مشهور للباطنية بالساحل الشامي قرب طرابلس وقد ترجم

لها ياقوت باسم مصيف وقال : بعضهم يقول مصيف م ١٤٤ / ٥

(٤) سنا البرق الشامي ج ١ / ١١٨ - ٢١٩

(٥) سنا البرق ج ١ / ٢١٢ وما بعدها والروضتين ج ٤ / ٦٧٦ وما بعدها .

الأولى سنة ٥٧٢ وخيم بظاهر بلبيس^{٥٦}، وطلب من الجند التزود بطعام عشرة أيام ، ولكن العماد أمر غلامه حين غلت الأسعار ببيع ما معه ، وعلى سبب تخلقه فائلاً : " أننا صاحب قلم لا صاحب علم ٠٠٠٠ " وعنده نوبة السيوف لا نوبة الأتلام^(١) ونحن لا نجد فيما ذكر من العلل سبباً واحداً مقنعاً لأنه حضر العديد من الممارك مع نور الدين وصلاح الدين ، ولم تؤثر الطريق على خروجه سهلية كانت أو جبلية ، وقد كان حياته صاحب قلم ، ومع ذلك شارك في الحروب السابقة ، ولم تهمة سلامته حين كان يخرج لها ، إذن فما السبب الحقيقي ؟ هل كان - كما وسماه الأستاذ مظفر سلطان - حريصاً على المال - يحبه حباً وثوقه على كثير من عرته^(٢) " اننا لا نعتقد لهذا مع جواز عقلياً ، إذ لو كان البخل هو السبب الرئيسي ، لتخلف عن كثير من الفزوات ، وفي رأينا أن السبب الحقيقي يرجع الى أمرين ، أولهما : اعتزازه النفسى الذى جعله يشجر بالتزود وعدم الرغبة فى المشاركة ، وثانيهما : رؤيته لرجال الديوان يتقاعسون ولا يخرجون ، فرأى أن يجرب حظه فلا يخرج ، وربما شجعه سبب ثالث هو سروره وابتهاجه بمفانى مصر ونيلها وحدائقها وأشهرامها بعد أن أمضى فترة طويلة من العمل المتواصل والجهد الفاهر وعانى من المرض الطويل ، فرأى أن يستمتع بمباحج مصر لفترة من الزمان تعيد اليه بعض حيويته .

وحين عاد السلطان الى دمشق - كما مر آنفاً - والعماد بصحبه قضى سنة ٥٧٤ فى تنظيم الأمور الداخلية وحاول ضم مملكتها الى دولته فلم يستطع ، وكان يكلف من قاداته من يصد هجمات الفرنج كما حدث فى ذى القعدة من سنة ٥٧٤ حين كلف ابن أخيه عز الدين فرخشاه بقتال الفرنج فأستطاع القائد الانتصار عليهم ، وجرح ملكهم عنقري جرحاً أودى بحياته بعد أيام .

وبدأت سنة ٥٧٥ والسلطان والعماد معه نازل بالقرب من بانياس وهناك حقق نصراً عظيماً على الفرنج ، ووقع منهم فى الأسر عدد كبير استعرضهم العماد وسجل

- (١) سنا البرق الشامى ج ١ / ٢٥٢ والروضتين ج ١ / ٢٦٧
- (٢) السباد الأصفهاني حياته وشعره / مظفر سلطان ص ١١٠
- (٣) سنا البرق الشامى ج ١ ص ٢٥٢ والروضتين ج ١ / ٢٦٧
- (٤) سنا البرق ج ١ ص ٢٠٩
- (٥) سنا البرق الشامى ج ١ / ٣١٧ والروضتين / طبع النيل ج ٢ / ٦

(١) أسماهم .

وفي شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ كان رفیق السلطان حين نزل على حصن الأحزان ، ودخل العماد مع الداخلين (٢) .

وفي سنة ٥٧٦ هـ كان مع السلطان حين توجه إلى بلاد الروم والأرمن وعاد معه إلى حماة ثم إلى حمص وأنام في المعسكر الذي أقام بالقرب منها وذلك بعد أن أذعن صاحب بلاد الروم والأرمن للسلطان ورضخ لأمره (٤) .

وفي يوم الإثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة ٥٧٦ هـ توجه مع السلطان إلى مصر للمرة الثانية ، فوصلها في الثالث عشر من شعبان فأقام في القاهرة فترة وفي الإسكندرية زماناً ثم رجع إلى دمشق فوصلها في السابع عشر من صفر سنة ٥٧٧ هـ (٥) (٦) .

وما كادا يصلان إلى دمشق حتى أغار صلاح الدين على بلاد طبرية وبيسان (٧) (٨) والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب ، ورجع السلطان والعماد معه ظانرا منصورا .

وعاد السلطان من هذا النصر وتنقل والعماد رفيقه في كثير من المدن فتوجه إلى بعلبك ومر بالبقاع وحاصر بروت ثم تركها ورحل إلى حماة وعبّر الفرات وأخذ الرها والرقبة ونصيبين وسروج والخابور وقصد سنجار فأذعن له صاحبها عماد الدين زكي ودخل قلعتهما ، وبذلك أمضى سنة ٥٧٨ هـ في الانتقال من بلد إلى بلد .

-
- (١) سنا البرق ج ١/٢٢٨ والروضتين (النيل) ج ٢/٨
 - (٢) حصن بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل وكان الفرنج قد عمروه ونوا بسوا حصنا حصينا وخره لناصر صلاح الدين سنة ٥٧٥ هـ معجم البلدان ١/١٩١ هـ
 - (٣) سنا البرق ج ٤/٣٣٣-٣٣٧
 - (٤) سنا البرق ج ١/٣٤٤ (٥) الروضتين ج ٢/١٩١
 - (٦) المصدر السابق ج ٢/٢٧-٢٨
 - (٧) طبرية : مدينة من أعمال الأردن مطلة على بحيرة طبرية في طرف النور معجم البلدان ج ٤/١٧٤ وهي مدينة فلسطينية مشهورة محتلة .
 - (٨) بيسان : بالفتح ثم السكون : مدينة بين حوران وفلسطين / معجم البلدان ٤/٤٩٤ وهي مدينة فلسطينية مشهورة محتلة .
 - (٩) كوكب : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية - معجم البلدان ٤/٤٩٤ وهي الآن قرية فلسطينية محتلة .
 - (١٠) الروضتين ج ٢/٣١

وفي بداية سنة ٥٧٦ فتح آمد بعد أن استأذن الخليفة في فتحها ثم عماد وحاصر حلب وفيها صاحب سنجار عماد الدين زنكي ودخلها في السابع عشر من صفر سنة ٥٧٩ بعد أن تمت المصالحة بينهما على أن يعود زنكي إلى سنجار وترد عليه بلادها .

عاد السلطان والعماد معه بعدها إلى دمشق فوصلها في الثالث من جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ فعبأ جيشه ونظمه وخرج إلى بلاد الفرنج مجاعداً صابراً وقائداً مغاملاً ، والعماد رفيقه وساعده الأيمن وصاحب مشورته فدخل بيسان ثم سار إلى عسین جالسوت فحقق على الفرنج انتصاراً مؤزرًا ، وأحدث بينهم مقتله عظيمة حتى اضطروهم إلى الهرب ناجين بأنفسهم ، وضرب عدة حصون وقلاع ، وعاد إلى دمشق فأقام فيها إلى الثالث من رجب سنة ٥٧٩ هـ فارتاح فيها مدة ثم خرج إلى الكرك فوجدها حصينة منيعة فتركها عائداً إلى دمشق ثانية ، ولكنه لم يطق القعود طويلاً والكرك رابضة فعاد إليها وحاصرها فلما عرف أن حصارها محتاج إلى زمن طويل تركها وأرسل بعض جيشه فهجم على نابلس ونهبها واحتل جنين وعاد إلى دمشق يوم السبت السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ .

وفي سنة ٥٨١ عاد إلى الموصل والعماد معه محاولاً إخضاعها ، وفي طريقه دخل حران وحاول احتلال خلاط (١٠) فلم يستطع فانتقل إلى ميافارقين ثم عاد إلى الموصل واضطراً أغلبها إلى عقد صلح معه ثم عاد بعد ذلك إلى حلب فوصلها في الرابع عشر من محرم سنة ٥٨٢ هـ .

-
- (١) الروضتين ج ٢ / ٣٨-٣٩ (النيل)
 (٢) الروضتين ج ٢ / ٤٢-٤٣ (٢) النواهد السلطانية ابن شداد ص ٦١
 (٤) المصدر السابق ص ٦١ (٥) المصدر السابق ص ٦١
 (٦) المصدر السابق ص ١٢ / ١٢ (٧) المصدر السابق ص ٦٣
 (٨) المصدر السابق ص ٦٦ / ٦٧
 (٩) الروضتين ج ٢ (النيل) ص ٦٥
 (١٠) حران : مرت ترجمتها
 (١١) خلاط : مرت ترجمتها
 (١٢) ميافارقين : بفتح أوله وتشديد يائه : أشهر مدينة بديار بكر / مجع البلدان ٢٣٥/٥
 (١٤) الروضتين ج ٢ (النيل) ص ٦٥

وفي محرم سنة ٥٨٢ عاد إلى الكرك محاولاً فتحها ، ونزل بأرضها إلى أن أمن طريق الحجاج من شر أميرها الفرنجى .

وكانت سنة ٥٨٢ سنة مباركة على الإسلام والمسلمين ، كانت غرة في جبين القائد العظيم صلاح الدين إذ كانت فخر كل مجاهد ، وعز كل مسلم ورع ، ومومن عميق الإيمان ، ففيها شت أوار معركة حطين وذلك في يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٢ (١) وكان العماد المؤرخ السرى الصادق الذي شهد الأحداث فوصفها بصدق وأمانة شهد له بهما كل المؤرخين المسلمين والمستشرقين - كما سنبين في حديثنا عنه من حيث كونه مؤرخاً .

وتقدم صلاح الدين - معه العماد - فاحتل حصن طبرية ، وفتح عكا والناصرية (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) وعفورية وقيسارية ونابلس والقلعة وتبنين وعيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وفسزة (١٠) والداروم وكثيراً من المحافل والحصون ، ولكن العماد مرض أثناء حصار بيروت فعاد إلى دمشق وأقام فيها حتى شفى وعادت إليه صحته . (١١)

أما السلطان فقد رحل إلى بيت المقدس والبلد الذي كانت قلوب المسلمين تهفو إليه منذ قرن مضى ، البلد الذي ظلت أرواح سبعين ألف من المسلمين استشهدوا فيه تطالب بالثأر والانتقام ، ورد انكرامة ووقع للمقام فلم يستطع أحد من ملوك المسلمين فسى ذلك الزمن الاقتراب منه ، وظل أمنية هزينة على نفس نور الدين الشهيد ، وبعد حصار وتداول دخله صلاح الدين علحاً في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ (١٢) .

كان العماد قد انفصل عن السلطان في بيروت فلما علم بالنصر المؤزر والفتح المبين

-
- (١) الروصتين ج ٢ (النيل) ص ٦٥ (٢) عفورية : مدينة محتلة في فلسطين
 - (٣) قيسارية : مدينة فلسطينية محتلة (٤) نابلس : من المدن الشهيرة في فلسطين
 - (٥) القولة : قرية فلسطينية قريبة من الناصرة .
 - (٦) تبنين : بكسر التاء وتسكن الباء وكسر النون بلدة في جبال بني عامر المطللة على بلد بانياس بين دمشق وصور / معجم البلدان ١٤ / ٢
 - (٧) جبيل : مدينة لبنانية (٨) عسقلان : مدينة فلسطينية مشهورة
 - (٩) غزة : هي كذلك مدينة فلسطينية مشهورة
 - (١٠) الداروم : قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر هربها صلاح الدين سنة ٥٨٤ / معجم البلدان ٤٢٤ / ٢
 - (١١) كل هذه الأخبار مفصلة في الفتح القدسي وهو الكتاب الذي خصصه العماد لفتح القدس وما بعده . من فتوحات في زمن صلاح الدين .
 - (١٢) الفتح القدسي ص ١٢٨

عادت اليه عافيته ولم يطق الفراق وعاجه الشوق فولى وجهه شطربيت المقدس فوصله ثلثي أيام الفتح ، تفرح السلطان بوصوله ، وقد وصف العماد حسن استقبال السلطان فقال : " فوصلني السلطان عند وصولي بأجلى بشاشة وأحلى عشاشة وسرى عنه وسر وأبر وسر وقال : أين كنت ولما أبطأت " وكلفه لساعته بإنشاء رسائل البشري إلى بغداد والأمصار ويبدو من كلام العماد أن بعض الكتاب طلبوا من السلطان الأذن بكتابة رسائل البشارات فكتبونها جميعها إلا كتاب الخليفة الذي أخره السلطان وأمر العماد بإنشاء وأرسله مع ضياء الدين الشهرزوري إلى بغداد .

وقد حاول السلطان بعدها احتلال عور فلم يستطع ، فعاد إلى عكا وأقام خارجها ثم تركها وحاصر كوكب في سنة ٥٨٤م ثم تركها وعاد إلى دمشق فمكث فترة من الزمن ثم تقدم إلى أنطربوس في السادس من جمادى الأولى فاحتلها ثم إلى جبلة وجبيل واللاذقية وحصن عسهيون وكامر والشعر وبرزيش ودرسياك وغراس فاحتلها جميعا ، وعقد صلحا مع انطاكية ، ثم عاد إلى دمشق والعماد بصحبه مارين بحلب وحماة وغيرهما . وفي نهاية سنة ٥٨٤ فتح الكرك وحصونها وعقد وما حولها وحاصر كوكب ودخلها .

وفي سنة ٥٨٥ خن واحتل حصن شقيف أرنون ، واضطر بعدها إلى الرجيل باتجاه عكا بعد أن علم أن الفرنج خرجوا وقد عقدوا العزم على استرجاعها ، وعند أسوار عكا شهد العماد مع سلطانه معارك كثيرة دامية ، وكان له فيها رأى بل آراء ، وشهد المصيبة حين حلت بها ودخلها الفرنج في السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وعلى الرغم من المصاب الآثم والجرح التسميق اللذين أصابا فؤاد العماد حاول التخفيف عن السلطان ، وتغزيتته .

أمضى السلطان السنتين الباقيتين من حياته ، وهو يحاول تثبيت أقدام المسلمين في البلاد التي تم فتحها ، وأهم الأحداث التي قام بها فتح يافا في الثامن عشر من رجب سنة ٥٨٨ ، وشهد المناورات التي امتدت فترة طويلة مع الفرنج والتي انتهت بالصلح

(١) المصدر السابق ص ١٢٢ (الفتح لعمى)

(٢) ضياء الدين الشهرزوري القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم . كان فقيها

فاضلا وأديبا شاعرا توفي سنة ٥٩٦ له ترجمة في الخريدة (الشام) ج ٢/٢٤٢ وفي طبقات الشافعية للسبكي ٢٦٨/٤ والنجوم الزاهرة ٥٩٩/٦

(٣) الفتح القسى ص ١٤٧ (٤) الفتح القسى صفحات كثيرة بعد ١٥٠-٢٠٠

(٥) الفتح القسى راجع صفحات كثيرة في أخبار عكا وحصارها وسقوطها ومظهر فيها

مدى أمانة العماد العلمية من ١١٦-١١٦

(٦) الفتح القسى عن ٥٩٨ والنوادر السلطانية ص ٢٢٤

في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شبان سنة ٥٨٨ هـ وكتب العماد نص الهدية
(١) بانشاءه .

٤- العماد في عهد خلفاء صلاح الدين :

بعد أن انتقل صلاح الدين إلى بارئه توزعت الدولة إلى أشلاء بين أبناءه المتناحرين على السلطة وبين عمه العادل الطامع في خلافة أخيه ، وقد عقد صاحب "مفرج الكروب" فصلاً بين نية الدويلات التي قامت بعد وفاة صلاح الدين فجعلها في أربع عشرة ولاية ومملكة أهمها : دمشق وفيها الملك الأفضل علي ومصراً وفيها الملك العزيز عثمان ، وحلب وفيها الملك الظاهر غياث الدين غازي ، واليمن وفيها عمه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب والترك والشوك والبلاد الشرقية وفيها الملك المعادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، وغيرهم من أبناء السلطان وولاته القدامى . (٢)

وموت السلطان نسب الخلاف حاداً وخطيراً بين الملك الأفضل والملك العزيز عثمان . وما أذكر أوار هذا الخلاف استعمالاً استوزار الأفضل لضياء الدين نصر الله ابن محمد بن الأثير الجزري وقد وصفه صاحب المقنن بقوله " وكان ضياء الدين المذكور لما اتصل بخدمة الملك الأفضل شاباً غيلاً ، فحسن للملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه ، وأن يستجد أمراء أصحاباً غيرهم " ومن هؤلاء الذين تركوه غير آسفين ودخلوا إلى مصر حيث العزيز القاضي الفاضل ، وقد عاتبه العماد على تركه له فقال : " فقلت للملك الأفضل : " لم تركت القاضي الفاضل يرحل والملك يتحوله يتحول ؟ فقال : وما الذي كنت أعمله ونحو لا يقبل مني ؟ " فقلت : ينبغي أن تركب إلى داره وتفعل كل ما يؤثره ، فكنت تملك به أمره ، وتأمين به في ملكك " قال : فعرفت الصواب ، ولم يرد الجواب . (٣)

(١) الفتح القسي ص ٦٠٥

(٢) مفرج الكروب ج ٢/٣ - ٤ وراجع الفتح القسي في الصفحات ٦٢٩ - ٦٢٦

(٣) ضياء الدين بن الأثير : ولد سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣) بجزيرة ابن عمر قرب الموصل وتعلم في الموصل واتقن الكثير من علوم عصره ، عمل وزيراً للأفضل بن صلاح الدين وسنذكر الكثير عنه في حديثنا عن العماد بعد وفاة صلاح الدين . توفي سنة ٦٢٧ هـ له ترجمة في النجوم الزاهرة ج ٦/١٢٠ وما بعد ما وشذرات الذهب ج (٥ : ١٨٢) وبغية الوعاة ج ٢/١١٥ والحياة النقلية للدكتور بدوي ٢٤٥ (٤) مفرج الكروب ج ١٠/١٠٠ (٥) المصدر السابق ج ١٢٨٣

أما صاحبنا العماد فقد ظل في البداية يلازم ديوان الأفضل ، ويكتب له ما يريد من الرسائل والكتب ولكن الأمور أخذت تتبدل بتأثير ابن الأثير ، فأصاب العماد ما أصاب غيره من العنت والمضايقة . ولكن العماد لم يستطع مغادرة دمشق لكثرة أملاكه ، وشو أمر نظام صرح به دون مواربة ، ونحن نذكر أن العماد حين اشتد عليه الأمر بعد وفاة نور الدين ترك الشام إلى العراق غير آبه لقله أملاكه يوم ذاك ولأنه على الأرجح لم يكن متزوجاً أما في هذا الزمن فكان له أهل وأملاك فوكل أمره إلى الله جل وعلا .

ويبدو لنا أن الأفضل قد استمع إلى وزيره وأعميل العماد ، حتى اضطر إلى الانقطاع عن ديوانه مدة ليست بالقصيرة ، ثم عاود الأفضل الحنين إليه فاستدعاه وعاتبه لتركه له ، ويزعم العماد أن الأفضل استرضاه وسجله وقربه فعاد إلى سيرته الأولى من العمل في الديوان .

وظلت علاقة العماد بالعزيز في مصر علاقة مودة وأبقى العزيز على أملاكه في مصر ، فاستغل ابن الأثير وأصحابه هذا الموقف ليتموه عند الأفضل بمالأة العزيز وميله إليه ، وشهد العماد الخلاف بين الأفضل والعزيز ، ورأى سيطرة الجزري على الأفضل وضعف الأخير فخار على المصلحة العامة ، واقترح على الأفضل أن يسمح له بالتدخل والتوسط في أمور المصلح ، ولكن أصحاب الأفضل تدخلوا ومنعوه من السماح له بذلك واتهموه بميله للعزيز والعمل لمصلحته .

وبلغ الأمر مداه حين خرج الأفضل بمساركه سنة ٥٩٠ يقصد العزيز بمصر ، وقد حدثت بعد ذلك أمور كثيرة أهمها اتفاق العماد مع العزيز وشفاعته للأفضل وعقد الصلح وكتابه يمين طلب من العماد أن يكون شاهداً .

وكتب العماد فصلاً كثيرة نقل بعضها صاحب "مفرج الكروب" وقد تحدث فيها عن دوره في الصلح ومحاولته القضاء على التثنية واستتب الأمن وعم الهدوء . وكلف فير

-
- (١) الروضتين ج (٢/٢٢٥) (٢) مفرج الكروب (٣/١٣) (٣) مفرج الكروب (٣/١٣) (٤) المصدر السابق ٢ (١٣/١٤) (٥) المصدر السابق (٣/٢٨) (٦) المصدر السابق (٣/٣٢)

العماد ليكون كاتب اليمين الذي حلف عليه الملوك الأيوبيون فأثار هذا العمل حفيظة
العماد فقال " ولو أنهم توافقوا لوفقوا ولم يقهروا في المرء فيما وقعوا ، ولأعطوا القوس
باريها ، وجرت الفضية أحسن مجاريها وكتت حررت نسخة يمين يحجر نسخها ، ويمسك
بعد لزوم عقدنا نسخها ، ولكنهم اختلفوا ولم يتفقوا وولدوا من ذلك الاختلاف وفاقا
وعيبات أن يتفق الضدان .^(١)

وحين تفررت عودة العزيز خرج الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة لوداعه ، وخرج
العماد مع الهلك العادل ، فأشار عليه الملك الظاهر بمسايرته ، وحين التقي بالعزيز ،
وقف العزيز له ، فماذا فعل العماد ؟ يقول : فلقيت الملك العزيز وقد ركب لتلقى أخيه ،
فوقف لي وأبدى لي وجه البشاشة ، وهمت بالنزول فأبى ، ولبيت أقبل يده فجذبها ،
وما أحلى مساءلته ومسايرته وأعدبها وعدت معه وأنا صاحبه ومجاوره ومحادثة^(٢) .

ومع إعجابنا بهمة العماد ونشاطه وإخلاصه نرى أنه أساء إلى نفسه حين أراد تقبيل
يد العزيز وخاصة إذا علمنا أن العزيز كان قد زاد على العشرين قليلاً ، وأن العماد قد
قطع السبعين ، شيخ نال من الدنيا ونالت منه يهوى على يد شاب عر ليقبلها ، إننا
نرى غضاضة في ذلك ، ولنا إلى هذه الحادثة رجعة .

وعاد العماد بعدها إلى الديوان والأفضل يستشير به ورجعت إلى الأفضل سجيته
الأعيلة وظهر عنده حسن النوايا ، وعادت إليه إنسانيته السهلة ، فنظم قصيدة فسى
استعطف أخيه وأظهر مودته وحبه له ، وعرضها على العماد الذي شجعه وأثنى عليه ،
ولكن أصحابه ظلوا يشهرونه على أخيه ، ويفسدون قلبه عليه وعلى بقية أمراء أبيه حتى رحل
عنه البقية الباقية .^(٣)

وفي سنة ٥٩١ هـ خرج العزيز إلى دمشق فذعر الأفضل من ذلك أشد الذعر ، وسار
يطلب النجدة من عمه علاه ينجده ، واقترح العماد عليه أن يستعطف أخاه ويرضيه لکن
الوزير ضياء الدين بن الجزري شجعه على الاستعانة بعمه . وحدثت بعد ذلك أمور
كثيرة لتلاعب العادل ومحاولته إضعاف بني أخيه حتى يتسنى له السيطرة على البلاد

(١) المصدر السابق ج ٣ / ٣٥ (٢) مفرج الكروب (٢ : ٣٦)
(٢) المصدر السابق (٣ : ٣٩) (٤) مفرج الكروب (٣ : ٤٢)

(١) جميعها ، وعاد العزيز ولحقه الأفضل والعماد وهناك تم الصلح .

في هذه الفترة سنة ٥٩٢ سافر العماد إلى مصر للمرة الثالثة في حياته وقد حصل معه رسالة من الأفضل إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العماد فلم يتمكن من الرجوع إلا معهما حين خرجنا بالمسافر إلى دمشق مصممين على أخذها - بعد ما ذكره أبو شامة صاحب الروستين أو ابن واصل فذكر أنه سافر لأمر تتعلق به . (٢) . وهناك التقى بصديقه الفاضل فلازمه .

وتحركت جيوش العماد والعزيز إلى الشام فأرسل الأفضل فلك الدين أخا العماد لأمه رسولاً إليهما وتم الاتفاق ولكن الأفضل حين عاد إليه رسوله رفض الصلح وشهد العماد تلك الحوادث والأمر . (٣)

وعلم العماد أن ضياء الدين يريد اغتصاب ماله وأملكه فاستأذن العزيز فمضى الدخول إلى دمشق فأذن له ، وحين دخلها حاول إبرام الصلح مع الأفضل لكن الأخير رفض ، فدخلت الجيوش إلى دمشق في نحرى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب سنة ٥٩٢ وتقرر أن تكون صرخد وأعمالها للأفضل وأن يعود العزيز إلى مصر وأن تسلم دمشق إلى العماد . (٤)

ولا نعرف عن العماد الكثير في سنوات (٥٩٣-٥٩٥) من الهجرة والراجح أنه قضى في الكتابة والتأليف ، لأننا وجدنا كتاباً من الفاضل إليه يستعجله إنها كتابه البرق الشامي . (٥)

أما في سنة ٥٩٦ فقد وجدنا العماد يشد الرحال إلى مصر رفيقاً للملك الكامل بن العماد . (٦)

-
- (١) مفرق الكروب (٥٣/١) (٢) الروضتين (٢٣١/)
(٣) مفرق الكروب (٥٧/٤) (٤) المصدر السابق (٦١ /٣)
(٥) المصدر السابق (٦١ /٢ - ٦٢)
(٦) المصدر السابق (٢٣٤/٢)
(٧) الروضتين (٢٣٤ /٢)
(٨) الروضتين (٢٣٨/٢)

وكانت هذه في رحلته الرابعة والأخيرة إلى مصر ، وبقى فيها مدة لانعرف ماذا فعل أثناءها وربما كان في عمل خاص يشرف فيه على أملاكه بمصر ، ونحن نعلم أنه ظل فيها حتى يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة كما ذكر في "الروضتين" (١) ولكننا لا نعرف حتى عاد إلى دمشق ويبدو أنه رجع إليها في أوائل سنة ٥٩٧ هـ من الهجرة .

مرضه ووفاته :

في أوائل سنة ٥٩٧ هـ حدثت في بلاد المسلمين نكبات كثيرة ومصائب ماثرة ففي مصر شبط النيل عن مستواه عيوطاً لم يعهد مثله فاشتد الفلاء في مصر ، وعمت المجاعات حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، ويبدو لنا أن الصنادق فرارياً إلى الشام ، وما كاد يصلها بعد العناء الذي حلّ به في طريق العودة والمخاطر التي شهدتها بسبب مضايقة الفرنج للمهاجرين إلى الشام واختلافهم لهم ، حتى روعت العالم الإسلامي زلزلة عظيمة امتدت في ساعة من الزمان من صعيد مصر إلى أذربيجان فخسفت مدن كثيرة وهلك الآلاف المؤلفة من الناس . (٢)

لم يستطع العماد الشيخ أن يهتم بما رآه فوقع فريسة المرض والخوف ويروي ابن خلكان أن بعض الرؤساء كان يلأزمه مدة مرضه وكان السواد ينشده :

أَنَا ضَيْفٌ بِرَيْعِكُمْ أَيْنَ أَيْنَ الْمُنْزِيِّ سَفْ ؟
أَنْكَرْتَنِي مَسَارِفِي مَا تَمَنْ كُنْتُ أَعْرَفِي (٣)
(٤)

وكان أجله وفارقت الروح في دمشق يوم الاثنين أول أيام رمضان سنة ٥٩٧ هـ جريسة بعد حياة كفاح وعمل ونشاط ودرس وتأليف ، وقد اتفق جميع من ترجموا له على سنة وفاته

(١) الروضتين (٢٤٠ / ٢) (٢) راجع ما كتبه صاحب مرآة الزمان في اخبار سنة ٥٩٧ هـ (٣) الوافي بالوفيات (١ : ١٣٩)

(٤) الروضتين ٢٤٥ / ٢ وذييل الروضتين ص ٢٧ والوافي (١٣٢ / ١) والمختصر الساعي (٦٤ / ٩) وطبقات الشافعية للسبكي ٤ (٩٨ - ٩٩) والبداية والنهاية (١٣ : ٣١) والنجوم الزاهرة (٦ : ١٧٨) وشذرات الذهب (٤ : ٣٣٢) ومفتاح السمامة (١ : ٢٦٤) والكامل لابن الأثير (طبع بيروت) (١٢ : ١٧١) والمختصر لابي الفداء (٣ : ٤٥) ومفرج الكرب (٣ : ١٢٧) والمخلل الحلال الهندسية لارسلان (٣ : ١١٦) والأعلام للزركلي (٧ : ٢٥٤) وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان (٣ : ٦٥) والتاعر صلاح الدين للدكتور عبد المنعم ماجد ع ١٤٠ هـ وعقدية السارفين (٢ : ١٠٥)

عذره ، ولكن بعضهم لم يذكر الشهر واليوم (١) . وشذ عن هؤلاء جميعاً صاحب " الانس الجليل " الذي جعل وفاته في الثاني من جمادى الآخرة مرة وفي شعبان مرة ثانية . وذكر أن عمره كان تسعين سنة وقد أخطأ كذلك في ميلاده كما نبهنا سابقاً . وشذ عنهم كذلك بروكلمان الذي جعل وفاته في الخامس من رمضان مرة وفي الخامس عشر منه مرة ثانية (٢) ، وكذلك صاحب " معجم المؤلفين " الذي جعل وفاته في العاشر من رمضان . وقد دفن العماد بدمشق في مقابر الصوفية بالشرف القبلي كما ذكر صاحب الروضتين وأكمل صاحب النجوم الزاهرة فقال : " عند المنبيح " (٣)

وقد لفت نظرنا ما كتبه العلامة الشيخ عبد القادر بدران المتوفى بدمشق سنة ١٢٤٦ من أن العماد الكاتب أنشأ تربة (مقبرة) شمالي تربة جركس بجبل قاسيون يقول الشيخ : " التربة العمادية شمالي تربة جركس بنفاسيون ، أنشأها العماد الكاتب المشهور وهي أول تربة بنيت بالجبل ، واسمه مكتوب على بابها " ونحن نتساءل إذا كان العماد قد أنشأ مقبرة فلماذا لم يوار جدته فيها ؟ ثم لانجد لذلك تفسيراً . ولذلك نرجح أن أحد أبناء العماد أو أحفاده ربما كان هو الذي أنشأ هذه التربة وأطلق اسم العماد عليها لشهرته العلمية والاجتماعية وحفاظاً على ذكره ، وما يسند قولنا هذا ما كتبه النعماني عن حفيد العماد شرف الدين أبي عبد الله الحسين . . . " من أنه دفن بقاسيون " (٤)

(١) الكامل لابن الأثير (طبع بيروت (١٢:١٧١) والمختصر لابي الفداء (٣:٤٥) وتتممة المختصر لابن الوردي (٢:١٧٥) وفتح الكروب (٣:١٢٧) والحليل المنفسية لارسلان (٣:١١٦) والاعلام للزوكلي (٧:٢٥٤) وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (٣:١٥) وهدية السائرين (٢:١٠٥) والناصر صلاح الدين للدكتور عبد المنعم ماجد ٩٤

(٢) الأنس الجليل ج ١/٤٠١ (٢) تاريخ الأدب العربي بروكلمان الملحق ١/٥٤٨ بالألمانية (٤) المرجع السابق ١/٣١٤ بالألمانية (٥) معجم المؤلفين لكحالة ١١/٢٠٤ (٦) الروضتين ج ٢/٢٤٥ والنجوم الزاهرة ٦/١٧٨ والعبر (٦/١٧٨) والوافسي ١: ١٣٣ والبداية والنهاية ١٣: ٣١ (٧) الروضتين ٢٤٥٧٢ (٨) النجوم الزاهرة (٦: ١٧٨) (٩) منادمة الاطلاع وساهرة الخيال ص ٣٤٩ (١٠) الدارس للنعماني ١: ٣٣٦

ولا نحرف من الشعراء من رثاه سوى ابن الساعاتي الذي كان يمصر عند وفاته

حيث نظم قصيدة طويلة بلغت ثمانية وثمانين بيتا حين علم بوفاته وأولها :

لا تلمني فلات حين ملام	أخرس الوجد السن الأمام
ظالما أسمحت بنات القواني	فألمر منيت بالاقحام
مات من جاء سابقا حين صلي	أخز الناس وغوا أي إمام
عظمت عمة المنايا وقد طالمت	إليه وجن سقدر الحمام

وقال في تعداد علومه وأوصافه وشجاعته :

ظفرت كهيها من الأصفر انسي	عشيا بأوفر الأقسام
يابن سود الوغي من النقع والنق	س ويبض السيوف والأقسام
فارس المنبر المخوف وذو القوس	لقة فصلا بني الحفص يوم الخصام
صاحب النثر أعجز الناس والنظر	سم حخته لآلي في نظام
شاع حتى كادت تناشده السبي	س ويشد وبه الدجى والروام

وقال في بكائه ذاكرا خريدته وذيلها :

آه ما أقصر الرجاء وما أطول هم	سي على الجواد الهمام
أي بيتي فصل وفصل أقام	بين خرم عراهما وأخترام
لست أنساه وغو خاطب فضلي	بحقام يفوق كل مقام
ومباه به الرجال وقد حبل	ل مكان الفخار في الأفلام
وشح الذيل والخريدة منه	بفريد مثل اسمه وتوام
فهي أشهى من الوصال إلى الصب	وأحلى في مقلة من منام

ومصرح فيها بسبب بكائه فيقول :

أي فرح أبقاه في كبد الم	نلك وسقم في مهجة الإسم
طويت بعد موته بهجة الدنيا	يا وولك بشاشة الأيام
من أناس علم أحلامهم	ببين كهلي مسود وعلم

ويقول في نهايتها باكيا :

ولئن عشت ثم زرت سر	الفض أفرحت السن اللوام
ونحرت الدمع غديا كما	يوجب حق الساسم والإسم

والأسى ما بذلت فيه كنوز الدَّمْعِ أَوْ مَا صَنَعَتْ نُزُوطَ الْمَلِكِ (١)

أسرته :

لم يتعرض أحد من مترجمي حياته القدامى منهم والمحدثين لزواج العماد من قريب أو بعيد ، فقد سكتوا عن هذا الأمر سكوتاً غريباً وعجيباً ، والوحيد الذي تعرض له هو مظفر سلطان في كتابه عنه فقال : " والمقطوع به أن العماد قد تزوج ونسل والراجع أنه قد تزوج من سيدة فارسية الأصل بعد أن أطمأنت به الدار في خدمة صلاح الدين لأننا لا نرى فيما بين أيدينا من كتبه والكتب التي تحدثت عنه أية إيماة تشير إلى أنه قد تزوج حينما كان في بغداد ثم فمى واسط . أما في دمشق وفي عهد صلاح الدين فقد سمعناه بصرح أكثر من مرة بجزعه لبراق أهله حينما كان يصحب السلطان في رحلاته وغزواته (١) "

ونحن نوافق الأستاذ على ما ذكره ، ولكننا لا نستطيع أن نرجح أنه تزوج من أسرة فارسية أو من غيرها فقد سكت العماد عن ذكر زواجه كما سكت عن ذكر أولاده ، ولكننا وجدنا خبراً مبهماً أورده العماد في ترجمته لابن الفراهي ، لم تستطع الحكم الجازم في توضيح معناه والنص هو : " وَقُلْتُ : " يعني ابن الفراهي " لما ولي الملك السعيد رضى الله عنه لسيدنا الأجل عماد الدين أبي حامد محمد بن محمد ابن أخي العزيز الإشراف على ديوانه وسائر مملكته مضافاً إلى ما كان يتولاه من ديوان الإنشاء ، وكان قد ولد له ولد بعقب ذلك ، ولم يتفق انفاذها إليه في ذلك الوقت بسبب رحيل اتفق للملك السعيد ورحلنا معه في سنة ثمان وستين ، وعلى محتاجة الى تنقيح " ثم يورد القصيدة والشعائر فيها مبهمه لم نستطع إسنادها إلى نور الدين أو الى العماد ، وحاولنا الرجوع الى سيرة نور الدين علنا نجد أن الله رزقه بمولود سنة ٥٦٨ فلم نجد ، وعلى هذا نستطيع القول بأنه ربما كان هذا المولود للعماد ومما يقوى هذا الظن عندى بعض أبيات هذه القصيدة التي يقول فيها : "

تَفَقَّتْ مَلَابِيسُ النَّفْرِ _____
وَسُورُ أَهْلِ الْفَضْلِ كَأَسَدِ _____

- (١) ديوان ابن الساعاتي ج ٢ ص ٣٦٠-٣٦٤ ويعني البيت الأخير أن الحزن الحقيقي هو ما أجرى الدموع ولم يقبل فيه ملام اللاتيمين .
- (٢) العماد الاصفهاني - مظفر سلطان ص ١١٣
- (٣) ابن الفراهي : شمس الدين محمد بن محمد بن موسى : من أهل دمشق كان قاضي المسكر في آخر عهد نور الدين وولاه السلطان أمانة خزائنه وقضاء عسكره ، ترجم له العماد في الخريدة - قسم الشام ١ / ٢٨٩ وكان عديقه .
- (٤) الملك السعيد : نور الدين محمود زكي (٥) الخريدة الشام (ج ١ : ٢٩٥)

رُفِعَتْ دَ وَأَوِينِ الْكُفَا	ةٌ وَخَلِجَتْ مِنْهَا الْقَوَاعِدُ
وَاسْتَبَهَمَتْ حَتَّى لَقِدْ	أَهْلَ الْمَمَلِكِ وَالسَّوَادِ
فَنَهَضَتْ فِيهَا قَائِمًا	بِسَدَادِهَا وَالْفَيْرُ قَاعِدُ
فَصَحَتْ وَصَحَّ سَمَانُهُ	مَنْ ذَا يَخْشَى وَأَنْتَ نَاقِدُ
وَمَلَأَتْ أَسْمَاعَ الرِّوَاةِ	ةً مِنَ الْقَوَائِدِ وَالْفَرَائِدِ
وَحَفِظَتْ عَقْدَ مَوَدَّتِي	فَنَشَرْتُ أَلْوِيَةَ الْمَحَامِدِ (١)

فحدثني في هذه الابيات عن أهل النفاق والحساد ، وعن منزلة أهل الفضل والكلام - على ما نعتقد موجه للعماد الذي كان الحساد في ذلك الوقت يحاولون زلزلة قواعده والإطاحة بمكانه ، فإن صح كلامنا فيكون العماد قد تزوج في أواخر عهد نور الدين وإن كنا قد وهما فيكون زواجه قد تم في بداية عهد صلاح الدين سنة ٥٧٠ هـ وما بعدها بتقليل لأننا سنجد أن أحد أبنائه الملقب بعز الدين أو عزيز الدين قد خلف والده العماد في المدرسة العمادية ويستطيع الابن الصغير أن يخلف أباه في عرف الحكام في أمور الممالك أما في المكانة العلمية فهذا الأمر لا يرثه إلا العلماء الواقفون بعلمهم .
أولاده وأحفاده :

تحدثنا فيما سبق عن كنيته واختلاف المترجمين فيها لبعضهم كما ذكرنا لقبه بأبي عبد الله وآخرون بأبي حامد وغيرهم بأبي محمد وأبي جعفر وأبي القاسم ، أما العماد فلم يتحدث عن أولاده وأول الأخبار التي وصلتنا ما كتبه سبط ابن الجوزي صاحب "مرآة الزمان" في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ففي أخبار سنة ٦٤٥ قال :
" وفيها قدم تاج الدين بن مهاجر من مصر إلى دمشق ومعه مبارز نسيبه ومعهما تذكرة فيها أسامي جماعة من الدماشقة بأن يحملوا إليهم فحملوا وهم : القاضي محيي الدين بن الزكي وابن الخضير وابن العماد الكاتب ولم يذكر اسمه ولا ندرى إن كان هو محمد بن العماد الذي خلفه حفيد بن كما سنبين بعد قليل - أم هو عز الدين الذي ذكره النعماني والذي خلف والده في المدرسة العمادية في دمشق ؟ أم أن عز الدين هو لقب محمد بن العماد "

- (١) الخريدة - قسم الشام (ج١ : ٢٩٦)
 (٢) مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي (٨ : ٧٦١) وكذا ورد في النجوم الزاهرة (٦ : ٣٥٨)
 (٣) لاحظ ترجمة ولديه الحسن والحسين بعد قليل .

لم نستطع الجزم بذلك غير أن ابن حجر المسقلاني يزهد هذا اللبس ^{وزاد العرض} ~~والله اعلم~~ ليبين لنا أن عز الدين أو عزيز الدين هو لقب محمد بن العماد . ومن ترجمته لأحفاد العماد عرفنا أن لمحمد غذا ولدًا اسمه علي ، وأن لعلو غذا ولدين هما الحسن والحسين .

الحسن بن علي بن محمد بن العماد :

لم نجد أحدًا ترجم له الا ابن حجر المسقلاني ، ولهذا سننقل ما كتبه عنه كاملاً قال : الحسن بن علي بن محمد بن العماد محمد بن محمد بن محمد . . . ابن أله الأصمبها نسي الأصل عز الدين ابن أشرف الدين ابن عز الدين ابن العماد الكاتب أبو محمد وأبو علي . ولد في ذي الحجة سنة ٥٣ (يعني ٦٥٣) وقال ابن رافع بعد أن جزم بالأول تبعاً للبرزالي : رأيت بخط ثقة عنه أنه قال : مولدي سنة ٥٥ - انتهى - " وخدم بالكتابة وكان مشكور السيرة وولى عمالة الخزانة ثم استيفاءها ، وكان كثير التلاوة ، وله سماع من كثير من الشيوخ زادوا عن الخمسين وأجازه عدد من الشيوخ وامتحده وأثنى على كريم صفاته ، وجبه للخير والمعروف وذكر أنه جاور بمكة سنة ٧٢٧ ومات سنة ٧٢٧ وأوصى أن يفرق على من حضر جنازته حلوى صابونية على برزق نفعل ذلك وأكل منها الأغنياء والفقراء .

الحسين بن علي بن محمد بن العماد :

أشار إليه الذهبي في " العبر " فقال : في سنة ٧٣٩ مات شيخنا المعمر الصالح شرف الدين الحسين بن علي بن محمد العماد الكاتب عن ثمانين سنة وأشهر ودرس بالعمادية وحدث عن أبي اليسر وأبن الأوحدي وجماعة .

وذكره النعماني في " الدارين " في تعريفه للمدرسة الطبرية فقال : المدرسة الطبرية بباب البريد درس بها الامام العالم الأصيل شرف الدين أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله . . . المعروف بابن الشرف حسين . . . ميلاده في المحرم سنة ٦٥٧ وسمع جماعة واشتغل وأفتى وكتب بخطه الحسن

- (١) الحلوى الصابونية على برزق : حلوى مطبوخة بالجبن .
- (٢) الدرر الكامنة لابن حجر المسقلاني (ج ٢ / ١٠١ - ١١١)
- (٣) العبر للذهبي وفيات ٧٣٩

(١) كثيرا من الكتب ، وقد حذف بعض الأسماء واضطربت عنده التسمية اضطرابا كبيرا .
أما صاحب " شذرات الذهب " فقد نقل ما كتبه الذهبي في " العبر " دون
زيادة ولا نقصان .^(٢) والعلامة العلامة ابن أبي عمير محمد بن العمامة نقلاً عن ابن أبي عمير
الحسين بن علي بن محمد بن العمامة والكاتب فيكون الحسين نقلاً عن الحسين بن علي بن محمد بن
محمد .

وجاء ابن حجر العسقلاني ^{وترجم} في " تهذيب التهذيب " وترجم لولد ين من أبناء علي بن محمد
بن العمامة غيا الحسن والحسين ، وقد ترجم للحسين ترجمة جمعت كل ما كتب في
التراجم السابقة وذكر أن وفاته كانت في جمادى الآخرة سنة ٧٣٩ ثم عاد البيروني رواية
أخرى نقلاً عن أبي الحسين بن أبيك في أنه مات في ليلة السادس من رجب .

ومن الأمور المهمة التي أشار إليها أن الحسين نقلاً هو جد ابن قاضي شهبة
لأمه . فيكون ابن قاضي شهبة حفيد العمامة من جهة أمه .

إبراهيم بن حسين بن علي بن محمد بن العمامة الكاتب :

ولد سنة ٦٨٩ وتوفي سنة ٧٤٩ أي : بعد وفاة والده الحسين بن علي
السابق الذكر بعشر سنوات ، ولم يتزوج له أحد سوى الحافظ أبي المحاسن الحسيني
الدمشقي في " ذيل تذكرة الحفاظ " الذي أورد في وفيات سنة ٧٤٩ خبراً قصيراً فيه :
" ثم في هذه السنة كان الطاعون العام في عدة بلدان ، وقع في أثناء صفر وامتد إلى
أواخر المحرم من العام القابل ، فمات فيه أم لا يحصيهم إلا الله عز وجل . ومات ^(٣)
المشهورين بدمشق إبراهيم بن حسين بن علي بن محمد بن العمامة الكاتب .

(١) الدارس (١ : ٣٣٦)
(٢) شذرات الذهب (١٢٠ / ٦)
(٣) ذيل تذكرة الحفاظ - الحافظ أبي المحاسن الحسيني وفيات سنة ٧٤٩ .

الفصل الثاني

ثقافته وعلومه وشيوخه وتلامذته وأخلاقه

أ - ثقافته وعلومه :

بدأ العماد علومه منذ نعومة أظفاره في أعينها ن حيث دخل المكتب فأخذ قسطاً وافراً من علوم القرآن والحديث واللغة العربية ، ثم انتقل إلى قاشان فنان قسطاً آخر منها وحين حلت بهم النكبة وانتقل به والده إلى بغداد دخل المدرسة الثقتية فأقام بها ثلاث سنين ، ثم انتقل إلى النظامية حيث التسليم العالي . . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقسم زمن تعليمه إلى قسمين :

الأول منها : أيام الدراسة الابتدائية الأولى في مدارس أصفهان وقاشان والثقتية في بغداد .

والثاني منها : أيام الدراسة العالية في النظامية التي كانت جامعة كبيرة يدرس فيها الطلاب مختلف العلوم السائدة في ذلك الوقت . وتشمل كذلك علومه في أصفهان بعد عودته إليها سنة ٤٤٣ هـ وحتى سنة ٥٤٩ هـ ، كما تشمل ما أخذه عن العلماء الذين التقى بهم في البصرة وواسط ومصر وغيرها .

وقد ساعده على تكوين ثقافته العالية أمور كثيرة أهمها :

١- اتصاله بالوراقين - كالحظيرى في بغداد وغيره - وحضوره مجالس العلماء والفقهاء وغيرهم .

٢- التقائه بكثير من شعراء وكتاب أهل زمانه في بغداد وواسط والبصرة وأصفهان ودمشق ومصر .

٣- توفر الكتب واقتناؤه لها وشراؤه للكثير منها ، كما فعل حين اشترى أعداداً وافرة من كتب المكتبة الفاطمية .

٤- مراسلاته المتعددة مع حكام عصره أثناء عمله مع نور الدين وعلاج الدين وخلفائه .

٥- دواوين الشعراء التي كان العماد يحصل عليها بسهولة من أصحابها أو من ورثتهم حين كانوا يعلمون أنه سيخلد هم في كتاب يقوم بجمع مادته وتأليفه .

٦- تنقله ورحلاته بين أقطار العالم الاسلامي فمن فارس إلى العراق إلى الشام والحجاز ومصر وغيرها .

وعذه الرحلات تعطى لكل إنسان يقوم بها ثقافة عالية ، هي ثقافة الحياة ، وقد أفاد منها الكثير من المشاهدات الجغرافية والاجتماعية والسكانية فدرس بذلك واقع الحياة مرتباً وحلوياً .

ولنتفق بعد ذلك من الإيجاز إلى التيسيل لنوضح ما سبق فنقول :-

١- المرحلة الابتدائية :

وقد بدأها في مستط رأسه أعفها ن حيث دخل المكتب وبدأ دراسة علوم القرآن والحديث ، ويعتقد الأستاذ الأثرى أن العماد درس الحديث في هذه المرحلة على الرغم من عمر سنة على يد شيخه أبي عبد الله الفراوي النيسابوري وأبي القاسم ابن الحصين ، وقد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن طفولة العماد ، وفيها كذلك بدأت دراسته للغة العربية ، ذلك أنه لو لم يكن على علم بها واتقان لها لوجد صعوبة بالغة في الدراسة بالنظامية ، وقد ذكر العماد أنه كان يحضر مجالس شيخه جمال الدين ابن الأخوة الشيباني ويستمع إلى ما يرويه من أشعار ثم تنقله والده إلى قاشان وتركه عمو وأخاه تاج الدين أبا بكر حامداً عند صديق له عند خلا المدرسة المجديّة فيها ، ويبداً أن العماد أكمل فيها دراسته للقرآن والحديث واللغة العربية فضلاً عن اللغة الفارسية لغته الأعلى .

وانتقل به والده بعد ذلك إلى بغداد ، وألحقه بالمدرسة الثقتية الواقعة على شط وجلة بالقرب من دار الخلافة ، فتعلم فيها ثلاث سنوات أكمل خلالها دراساته السابقة وأتقنها .

٢- المرحلة العاليية :

وقد تلقى علومها في النظامية الجامعة الإسلامية وكان قد بلغ سن الشباب قد درس فيها الفقه والحديث والخلاف والأصول والنحو والأدب وعلم الكلام وعلم إقليدس وأجازه العلماء حين ظهر لهم نبوغه ، وحين تخرج منها كان على مقدرة كبيرة في العلوم

(١) الخريدة - المقدمة قسم العراق ج ١ ص ١٦

(٢) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ١٢٦

(٣) الخريدة قسم شعراء المعجم ج ٥ الورقة ٤١ ذكر ذلك في ترجمته لضياء الدين

الراوندي . (٤) الخريدة القسم العراقي ج ١ ص ١٤٤-١٤٥

(٥) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ١٦١

السابقة ، كما كان على دراية بانظم والنثر والتاريخ . وقد أورد كثير من مترجميه أسماء شيوخه في النظامية والعلوم التي تعلمها فيها وسوف نترجم لشيوخه - فيما بعد - ومن هؤلاء ياقوت الحموي الذي يقول :

" وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية فتفقه بها على أبي منصور سعيد بن محمد الرزاز وسمع منه ومن أبي بكر الأشقر وأبي الحسن علي بن عبد السلام ، وأبي القاسم علي بن الصباغ وأبي منصور ابن خيرون وأبي المكارم المبارك بن علي الصدقي وجماعة وأجاز له أبو عبد الله الفراءي وأبو القاسم بن الحصين (١) . . . فيكون العماد بذلك قد نال قسطاً وافراً من علمين نهما الفقه والحديث .

وتابعه في قوله هذا سبط ابن الجوزي في " مرآة الزمان " (٢) أما صاحب طبقات الشافعية الكبرى فيقول : " فتفقه على أبي منصور الرزاز وأتقن الخلاف والنحو والأدب وسمع من ويقول صاحب " العبر " : " وتفقه ببغداد على ابن الرزاز ، واتقن الفقه والخلاف والعربية وسمع من علي بن الصباغ وطبقته وأجاز له ابن الحصين ثم تكلف الكتابة والترسل والنظم وفارق الأقران (٤)

أما ابن الساعي فبعد أن يذكر معرفته وتعلمه للحديث والفقه على أيدي شيوخ النظامية يقول : كان فاضلاً عالماً له معرفة حسنة بالفقه والأدب والشعر (٥) ويذكر ابن الساعي أن العماد كان راوية للحديث وأورد حديثاً لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه رواه العماد بسنده قال : " وذكره القاضي عمر القرشي في مشايخه الذين روى عنهم وأثنى عليه بالفضل والبلاغة والمعرفة . . . أخبرنا عنه العدل ابن سعيد الشاهد بقراءتي عليه قلت له :

أنيك أبو عبد الله محمد بن محمد بن أخن العزيز قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن عبد الواحد بن الأشقر الدلال قراءة عليه وأنا أسمع ببغداد قال : أخبرنا القاضي أبو الحسين محمد بن علي بن المهدي بالله قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن عمر بن

(١) معجم الأدباء (١٦ : ١)

(٢) مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٠٤/١

(٣) طبقات الشافعية للسبكي (٩٧ : ٤) (٤) العبر للذهبي (٤٠٧ / ٤)

(٥) الجامع المختصر (٦١ : ٩)

محمد السكري قال : حدثنا أبو علي الحسن بن محمد بن عبيد الوشاء قال : حدثنا محمد بن عباد المكي . قال : حدثنا خاتم بن إسماعيل عن محمد بن علان عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أتى الجمعة فليغتسل " (١)

وكان العماد على معرفة تامة باللغة الفارسية يظهر ذلك من حديث الفاضل مع صلاح الدين حين دخل عليه ليقتنعه بأن يستعمل العماد قال له : " غدا يأتيك الأعاجم وما يحلها مثل العماد الكاتب " (٢)

وخلاصة القول أن العماد أتقن في النظامية الفقه وعلوم القرآن والمسائل الشرعية خاصة ، كما برع في الخلاف والأدب والنحو والحديث الشريف إلى جانب اللغة الفارسية لغته الأولى وحساب إقليدس .

ب - مصادر ثقافته خارج المدرسة والجامعة :

أولا : اتصاله بدكاكين الوراقين وحضوره مجالس العقهاء والعلماء وغيرهم :

ومن عبده الدكاكين التي كان يجتمع فيها العديد من الشعراء وعشاق الأدب وكان الحظيري الوراق يقول العماد في ذلك : " ولم يزل مجمع الفضل مكانه ، ومنبع الفضل مكانه وكنت أحضر عنده وأتدح واستنشق بآنه ورنده ، وهو ينشدني ما ينشده ، ويسرح خاطري فيما يؤشده " (٣)

ومن المجالس التي حضرها وأخذت بلبه ، ونالت إعجابه مجالس الأمير قطب الدين أبي منصور المنظف ابن أردشير الببادي الواعظ المشهور المتوفى سنة ٥٤٧ هـ ، وكان هذا الواعظ قد قدم إلى بغداد سنة ٥٤١ رسولا من السلطان السلجوقي سنجر إلى الخليفة ، ووعظ ببغداد بجامع القصر ودار السلطان ، حتى استطاع أن يأخذ بلب السلطان وينال إعجاب العامة فيتسابقوا إليه ، وقد شهد العماد هذا المجلس ورأى الخليفة المقتدى يقبل على الببادي ، ويرفع من مقامه ومغزلته ويأمره أن يجلس في جامع القصر حتى يستطيع الخليفة أن يراه من منظرته ، وكان العماد به معجبا فصار

(١) الجامع المختصر لابن الساعي (٦١ : ٦٢)

(٢) سنا البرق السامي (١ : ١٩٤) والذويعتين (ج ١ : ٢ : ٦٤٢)

(٣) الخريدة - القسم السراقي (ج ٤ : ٢٢ / ١ - ٢٣)

(١)

يترصد هذه المجالس ويكتبها بلفظ صاحبها يتعلم من أسلوبها وجمال ألفاظها .

ومن هذه المناظرات وتلك المجالس ما شهده في الموصل سنة ٥٤٢ هـ ، وقد تحدث في موضعين من كتبه " عنها فقال : " وكان جمال الدين (وزير الموصل) يبجلني مع صغر سني ويقدمني في موضعني على الأكاابر أتكلم في المسائل الشرعية ، وأباحث العلماء بين يديه في الفواضل الفقهية " (٦)

ثانيا : التقاؤه بعدد وآخر من شعراء وكتاب عصره واستنشاد علم شعرهم وأشعار معارفهم :

وإذا المصدر يعد من أهم مصادر ثقافته الأدبية التي أمكنته من تنمية ثروته اللغوية ، وزادت حفظه للشعر والنثر ، وجعلته يرقى بأسلوبه ، ويمسك بزمام اللغة وأساليبها قديمها وحديثها .

والمتصفح للخريدة بأجزائها يجد عدداً وافراً من الشعراء ورواة الشعر يستشهد علم الصناد فينشده ، وهو يسمع ويكتب ويملئ ويجمع ولنضرب لذلك أمثلة ونترك الباقي إلى حين دراستنا للخريدة ومصادرها .

يقول في ترجمته للأديب أبي الحسن علي بن الحسن الصنهاجى البصرى : كان خدام بينداد سنة ٥٥٧ هـ فلما انحدرت في نيابة الوزير إلى البصرة في شوال من السنة رافقني إليها وكنا نتناشد الأشعار وتذاكر طرف الأخبار ومدة مفاىء بالبصرة إلى أن خرجت منها في جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ ما كان يخل بها غرتي " (٦)

ومن الأمثلة على سماعه لأشعار شعراء لم يلتق بهم ما ذكره في ترجمته للقيسراني في قسم الشام حيث يتول : " وأنشدني النقيه على الخيمي الواسطي بها سنة ٥٥٢ هـ قال : أنشدني القيصراني لنفسه بحلب " (٤)

ومما زاد من كثرة سماعه للشعر والأدب عمله مع نور الدين وصالح الدين وغيرهما فقد كان الشعراء يحضرون إلى مجالسهم يمدحونهم على بطولتهم وانتصاراتهم على معاركهم مع الفرنج وكان الصناد بسبب عمله في الديوان يحضر هذه المجالس الشعرية

(١) تاريخ دولة آل سلجوقى ع ١٩٦ :

(٢) الخريدة - قسم الشام ج ٢ ص ٢٥٠ وتاريخ دولة آل سلجوقى ع ١٩٣ والروشتين ج ١ ص ١٤٥/٢

(٣) الخريدة - قسم العراق (ج ٤ ص ٢ : ٦٨٣)

(٤) قسم الشام (ج ١ ص ٩٧)

والأدبية فيسجل منها الكثير ويحفظ منها ما يستطيع حفظه . ولو استقصينا الشعراء والرواة الذين سبغ العماد منهم لهددنا عن الهدف ونأينا عن الغرض ، وحسبنا ما أوردناه من أمثلة .

ثالثا : توفر الكتب واقتنائها لها وشراؤها للكثير منها :

فقد حصل العماد على مئات الكتب التي ترجمت للشعراء والكتاب الذين سبقوا عصره قليلا ، ومنها كتب ضاعت وفقدت ولم يبق لنا سوى أسماؤها ومنها كتاب " الجنان " لابن الزبير و " الحديقة " لأبي الملت وكتاب " الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم " لابن فارقس ومذيل السماني ، وكتاب " المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر " لابن بشر وغيرها كثير مما ورد في الخريدة .

ومنها تلك الكتب التسعة التي أهداها له القاضي الناضل والتي كانت مصدرا رئيسا من مصادر التفسيرين المصري والمصري .
(١)

ومنها تلك الكتب الكثيرة التي اشتراها من المكتبة الفاطمية بعد أن بيعت بالمزاد السلبي وقد أعناه السلطان من دفع ثمنها وقدمها له هدية تكريما له وحباً فيه . ويقول العماد فيها : كان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان ، وفي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة " ويصف كذلك كيف تسلمها من لا يفهم في السلم وقيمة أهله فبيعت بعد أن مكس الدالون أسعارها وخرموها واستطاع العماد أن يشتري منها الكثير وأنه ليقول : " قلما رأيت الأمر حضرت إلى التفسير واشترت كما اشتهروا ومررت الألباء كما مرروا واستكثرت من المتاع المبتاع وحويت ثقات من الأنواع ، ولما عرف السلطان ما ابتغته وكان بمشئين أنعم علي بها وأبرأ ذمتي من ذهبها ، ثم وعب لي من خزانة القصر ما عيشت عينه من كتبها ، ودخلت عليه يوما وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها وأبسط يدي لقبضها ، قال : وكنت ظلمت كتبنا عيشتها فهل في هذه منها شيء ؟ فقلت : كلها وما أستغني عنها ، فأخرجتها من عنده بحمال ، وكان غذا منه بالإصافة إلى سماحة أهل نواحل .
(٢)

رابعا : مراسلاته المتعددة : التي كان يكتبها أثناء عمله مع نور الدين وصالح الدين وغيرهما ، فقد نرى هذه المراسلات على كيفية كتابة الرسائل التي ترعى أدواي الملوك والسلاطين والحكام والولاة الذين كان يكتب لهم ، وقد استناد كثيرا من قراءته لأجوبة هذه الرسائل فكان على اطلاع دائم بما يدور في جميع البلاد الإسلامية من أحداث داخلية وخارجية عرف عن طريقها أساليب كتاب عصره في جميع الأصناف ، وحاول أن يستفيد منها ويتفوق بأسلوبه عليها ، وفي النتج القسي و " البهرق الشامي " و " الروضتين " ومفرج الكرب ، رسائل منها وردود عليها .

كيف كتبه
مصدره لتقافية

خامساً : دواوين الشعراء : اتى وصلت يده إليها ، والمجاميع الشعرية التي نقل عنها ، وأشار إليها في خريدته وعلى وأثره السدد وسوف نفضل القول فيها حيث هي مصدر من مصادر خريدته . والأمثلة عليها كثيرة : ومنها مطالعته لديوان ابن أفلح ، يقول :
 وطالمت ما جمع من شعره وغوثليل ^(١) ومنها ديوان الشريف أبي جعفر محمد بن محمد ^(٢)
 العلوي الحسيني الذي أهدها إليه القاضي الفاضل ^(٣) وديوان السيد أبي الحسن الربيعي ^(٤)
 وديوان أبي محمد هبة الله بن علي بن عرام السديدي ، وديوان القيسراني ، وديوان ^(٥)
 عرفلة الكلبي وابن قسيم الحموي . هذا بالإضافة الى تلك المجاميع الشعرية التي كان
 أصدقائه وأصحابه يقدمونها إليه من شعرهم كانت أو من شعر غيرهم ، ومن هذه المجاميع ^(٦)
 كان يختار ما يشاء ويحب ليورده في الخريدة ، ومنها مجموع فيه شعر لابن حمديس ^(٧)
 ومجموع القصائد التي مدح بها الشعراء عميد الدولة بن جبير ومجموع لأبي الفضل ^(٨)
 ابن الخازن . وهذه الأمثلة قلة من كثرة قرأها العماد .

ولاشك أنه كان لهذه الدواوين والمجاميع الشعرية أثر كبير في اطلاعه على
 أدب زمانه شعراً ونثراً . فكانت إلى جانب الدواوين القديمة - كدواوين المتنبي والبحتري
 وأبي تمام وغيرهم مصدراً من مصادر ثقافته التي صقلت شاعريته وأفادت ترسله ، وأغنت
 لفته ووسعت خياله ، وجعلته لذلك ينظم الشعر شأباً لم يتجاوز الثالثة والعشرين
 من عمره .

سادساً : تنقله ومشاهداته ورحلاته بين الأقطار الإسلامية :

نقد شاء له القدر أن يعيش حياته متنقلاً منذ صغره فلم يكد يبلغ السابعة من عمره
 أو ما يزيد قليلاً حتى أرسله والده إلى تاشان ومن ثم إلى بغداد وإلى أصفهان مرة
 ثانية ، وأقام بواسط والبصرة والموصل وزار الحجاز ليؤدي الفريضة ، وأقام بالشام
 متنقلاً مع نور الدين وصالح الدين وزار بغداد رسولاً من قبل نور الدين كما زار خِلاط
 رسولاً منه أيضاً ، وزار مصر أربع مرات وتمتع بمفانيها ومناظرها وشهد الحروب ، واثلجت
 صدره الانتصارات والفتوحات ، كما أحزنته الهزائم القليلة التي شهدتها .

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| (١) الخريدة - العراقي ج ٢ / ٥٤ | (٢) القسم المصري (١ : ١٢١) |
| (٣) القسم المصري (٢ : ١٦٥) | (٤) القسم المصطفي (٢ : ١٨٦) |
| (٥) القسم الشامي (١ : ١٢٦) | (٦) القسم الشامي (١ : ١٢٩) |
| (٧) القسم الشامي (١ : ٤٦٤) | (٨) قسم شعراء المغرب (٢ : ١٩٥) |
| (٩) قسم شعراء المغرب (١ : ٢٦٦) | (١٠) قسم الشام (٢ : ٢٧٢) |

نعم كانت حياة العماد حياة نشاط وعمل وكفاح وجلاء ، ولم تمكن له قدم والآخمين أقدمه المرض وجاءه الأجل المحتوم . ولا شك أن لهذه الحياة أثراً كبيراً جداً في توسيع مداركه ، فهو إلى جانب أنه رأى بلاداً جديدة وأقواماً جُدداً ، وأمماً مختلفة وأنهاراً جارية وبحاراً واسعة ، قابل كبار الرجال في عصره وعظماهم ، كما أن رحلاته عنده جعلته يلتقى بالعلماء من كل حدب وصوب وفي كل جهة وصقع ، ويكفي أن نذكر أنه حين كان بمصر سمع الحديث من السلفي في الاستدريّة وسمع موطأ مالك من الشيخ أبي طاهر بن عوف وكان شيخاً قد أناف على الخامسة والخمسين . وفي رحلته الثانية لمصر دخلت سنة ٥٢٧ هـ وهو في القاهرة وصلاح الدين فيها ، ولم يكن له من عمل الاستماع والأحاديث الشريفة ، ورحلته هذه تركت له فراغاً ليرجم كتاب كيميا السعادة تصنيف أبي حامد الفزالي في مجلدين وقد فاز من تعريية والعم بما فيه بسعادتين كما يقول . وسنجد في دراستنا لشيخه أنهم متعددو الأقطار مختلفو البلاد فمنهم من كان يقيم في فارس ومنهم من كان يسكن في بغداد وآخرون كانوا في الشام وغيرهم كانوا في مصر ، ورحلاته عنده جعلته يتصل بهم ويأخذ عنهم فتنوعت مصادر ثقافته بتنوع شيخه ، ولهذا أصبح العماد موسوعة علمية اجتمع فيها معرفته بالفقه والأصول والخلاف والأدب والنحو والشعر والنثر والترسل والتاريخ والحساب واتقان اللغتين العربية والفارسية فضلاً عن اتقانه معايشة الملوك ومعرفة طبائسهم ، والتعرف على طبائع البشر وسلوكهم ، كل هذا جعله يرتفع الى مستوى الناظر أو يدانية .

ج - شيخه :

كان للعماد عدد كبير من الشيوخ ، أخذ عنهم خلال تنقله في البلاد ، وذلك بسبب حرصه الشديد على تحصيل العلم أينما وجد ، ولم يمنعه من ذلك مركز ولا سن ، فظل يتعلم ويتلقى العلم حتى في شيخوخته ، وساعده على ذلك عقل متفتح وقريحة وقادة ، وحب في الملا وسهر في سبيل الوصول إليها ، ولقد أوردت كتب الذين ترجموا لحياته أسماء بعض شيوخه متفقين أو مختلفين وسوف نعمل على حصرهم والتعريف بهم ، ولسنا ندعي أننا أول من قام بذلك فلقد سبقنا إلى ذلك رجلان كريمان أولهما

(١) الروضتين (ج ١ : ٢٦٨ - ٢٦٩)

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤

(٣) المصدر السابق (٢ : ٢١)

الأستاذ مظفر سلطان وقد أورد له أسماء ثمانية من شيوخه وهم أبو منصور الرزاز ، وأبو بكر أحمد بن علي الأشقر وأبو الحسن علي بن عبة الله بن عبد السلام وأبو منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن محمد بن خيرون وأبو القاسم علي بن الصباح وصدر الدين أبو بكر الخجندی والورثاني ولكنه لم يُعرف بهم ، ولم يكتب عنهم سوى صفحة واحدة ، فأخذ بالهدف الذي يعرف بهم من أجله ، ذلك أن الهدف من التعريف بهم هو التعرف على نوع ثقافتهم وعلومهم وبالتالي نستطيع أن نتثبت من ثقافة التلميذ ونوعها وعمقها .
وثانيهما الأستاذ بهجة الأثرى في مقدمته للقسم العراقي من الخريدة وقد أجاد وأبدع في التعريف بهم وحصرهم ، وتعد دراسته هذه أول دراسة مفيدة عن شيوخ العماد وقد حصرهم الأستاذ الكريم وجعلهم تسعة وعشرين شيخاً وعرف بكل واحدٍ منهم ، ولكننا وجدنا أن للعماد شيوخاً آخر ، لم يعرف منهم الأستاذ الكريم علماً بأنه لم يدع حصرهم ، واعترف بذلك بتواضع العلماء قائلاً : " هؤلاء هم شيوخ العماد الكاتب بأصبعهم وبفداد والبصرة وعسكر مكرم ودمشق ومصر استقصيتهم في مختلف المظان بقدر الطاقة ولن تجدهم مذكورين في غير هذه الدراسة على هذا النحو من الجمع والحصر ، ولا أدعي أنني استوفيتهم جميعاً " واعترف الأستاذ الكريم بأنه في التعريف بهم أوجز قدر جهده مشيراً إلى أظهر خصائصهم .

وقبل أن نبدأ التعريف بهم نود أن نشير إلى أن معظمهم كانوا من كبار الشيوخ في ذلك الزمن بل إن كثيراً منهم ظلت أخبارهم وأعمالهم ومؤلفاتهم مشعلاً ينير لنا الطريق ويربط حاضرنا بماضيها ومن منا لم يسمع بابن عسائر صاحب تاريخ دمشق ؟ ومن منا لا يفتخر بابن الخشاب النحوي والسلفي المحدث وابن الرزاز الفقيه للبغدادي وغيرهم ؟
واليك نبدأ موجوةً عن هؤلاء الأساتذة الجهابذة وهم :

(١) أبو عبد الله الفُراوى : (٤)

كان المدين أبو عبد الله محمد بن أبي مسعود الفضل بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن أبي العباس النيسابوري الفُراوى بضم الفاء الملقب بـ"فقيه الحرم" ومسنده خراسان

(١) العماد الأصفهاني - لمظفر سلطان بن ١٢٥

(٢) الخريدة - العراقي ج ١ : ٢٤ (٦) الخريدة - العراقي ١ : ٢١

(٤) له ترجمة في تلخيص معجم الألقاب ج ٤ ص ٤٨٤/٤ والبداية والنهاية ١٢ : ٢١١

وشذرات الذهب ٤ : ٦٦ واللباب ٢٠٠/٢ وطبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٩٢

والصبر ٤ : ٨٢ والكامل ١١ : ٤٦ والمنتظم ٦٥١٩

ولد سنة ٤٤١ بنيسابور ، وينسب الى فراوة بلدة قرب خوارزم^(١) ، كان والده فيها ثم رحل الى نيسابور فولد بها محمد هذا ، قال ابن السمام الحنيلي : كان شافهيا مفتيكا مناظرا صاحب امام الحرمين مدة وعلش تسعين سنة ، وينقل عن ابن شهبة قوله : يعرف بفقيه الحرم لأنه أقام بالخرميين مدة طويلة ينشر السلم ويسمع الحديث ويحفظ الناس ويذكرهم ، وينقل ابن العماد والسبكي وابن الفوطي عن ابن السمعاني قوله فيه : هو امام ثبت مناظر واعظ حسن الأخلاق والمعاشرة جواد مكرم للفرباء ما رأيت في شيوخنا مثله^(٢)

وقد روى عن الكثير وأملى كثيرا من المجالس حتى قال صاحب " البداية " : انه أملى أكثر من ألف مجلس ، ورحل إليه الطلبة من الآفاق حتى قيل : " للفرأوى ألف راوى " وقيل إن هذه العبارة كانت مكتوبة في خاتمة وقد قرأ صحيح مسلم على الناس قريبا من عشرين مرة^(٣)

وتوفي ضحوة يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر شوال سنة ٥٢٠ وقد ذكره في شيوخ العماد مؤلفو " معجم الأدباء " و " طبقات الشافعية " و " العبر " و " الدارس " وشذرات الذئب .

(٢) ابن الرزاز :

أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر بن منصور المعروف بابن الرزاز الفقيه البغدادي المولود سنة ٤٦٢ والمتوفى سنة ٥٢٩ وكان شيخ الشافعية في بغداد ومدرس النظامية فيها تفقه على الفزالي وأحمد الميهني والكنيا الهراسي وأبي بكر الشاسي وغيرهم ، ودفع في علمه حتى صارت إليه رئاسة المذهب كما يقول ابن العماد ، وقد روى عنه جماعة

- (١) اللباب ٢٠٠/٢ (٢) شذرات الذئب ٤ : ٩٦
(٣) طبقات الشافعية للسبكي (٩٢ : ٤) وشذرات الذئب (٩٦ : ٤) وتلخيص معجم الألقاب (ج٤ : ١ : ٤٨٤) (٤) البداية والنهاية (٢١١ : ١٢)
(٥) معجم الأدباء (١٢ : ١١) وطبقات الشافعية الكبرى (٩٧ : ٤) والعبير (٤٠٧/٤) والدارس (٤٠٨ : ١) شذرات الذئب (٢٢٢ : ٤)
(٦) لابن الرزاز ترجمة في البداية والنهاية (٢١٦ : ١٢) وشذرات الذئب (١٢٢/٤) وطبقات الشافعية للسبكي (٢٢١ : ٤) والنامل (١٠٦ : ١١) والعبير (١٠٧ : ٤) والمنتظم (١١٢ : ٩) (٧) شذرات الذئب (١٢٢ : ٤)
(٨) طبقات الشافعية للسبكي (٢٢١ : ٤) والنامل ١٠٦ : ١١ والعبير (١٠٧/٤) والمنتظم (١١٢ : ٩)

(١) وولى التدريس في النظامية ببغداد مدة ثم عزل .

وقد ذكره العماد كثيراً في الخريدة خلال ترجمته لكمال الدين الشهرزوري قاضي دمشق أيام نور الدين (٢)

ونود أن ننبه إلى أن ابنه محمداً كان ذا شهرة واسعة في بغداد كما كان ذا منزلة عمالية عند الخليفة وكان يلقب أبا منصور أيضاً كوالده .

وابن الرزاز الوالد - علي مايبندو - أعم شيوخ العماد فقد ذكره ضمن شيوخه كل الذين ترجموا للعماد كمولف "معجم الأدباء" و "طبقات الشافعية" والوافي بالوفيات" و "الجامع المختصر" و "العبر" و "البداية والنهاية" و "الدارس" و "شذرات الذهب" و "مرآة الزمان" و "حسن المحاضرة" و "المختصر المحتاج إليه" (٤)

(٣) ابن خيرون : محمد بن عبد الملك بن الحسن بن إبراهيم بن خيرون أبو منصور المقرئ ببغداد . وله كتاب "مصنف المفتاح والموضح في القراءات" وقد ولد في رجب سنة ٤٥٤ وكان ثقة في الرواية وسمع من عدد كبير من الشيوخ وتوفي في السادس عشر من رجب سنة ٥٢٩ وله خمس وثمانون سنة .

وقد ذكره ضمن شيوخ العماد أصحاب "الجامع المختصر" و "الوافي بالوفيات" و "معجم الأدباء" و "طبقات الشافعية" و "الدارس" .

-
- (١) الروضتين (٤: ١٠٧) والمستظم (٩: ١١٤)
 - (٢) الجامع المختصر لابن الساعي ٩ : ١٤٤ حوادث ٦٠٢
 - (٣) العبر (٥ : ٦١)
 - (٤) طبقات الشافعية للسبكي ج ٤ : ٢٢١ والبداية والنهاية (١٢ : ٢١٩) وفيهما ان وفاته في ذي القعدة . أما في شذرات الذهب وفيات ٥٢٩ فجعل وفاته في شهر ذي الحجة .
 - (٥) معجم الأدباء (١٩ : ١١) وطبقات الشافعية الكبرى (٤ : ٩٧) والوافي بالوفيات (١ : ١٢٢) والجامع المختصر (٩ : ٦١) والعبر (٤ : ٤٠٧) والمختصر المحتاج إليه لابن الديلمي (١ / ١٢١) والبداية والنهاية (١٤ : ٢٠)
 - والدارس (١ : ٤٠٨) وشذرات الذهب ٤ : ٢٢٢ ومرآة الزمان (ج ١ / ٥٠٤) وحسن المحاضرة (١ : ٥٦٤)
 - (٦) له ترجمة في المنتظم (٩ / ١١٥) والعبر (٤ : ١٠٩) وانكامل (١١ / ١٠٢)
 - وشذرات الذهب (٤ : ١٢٥) والمختصر المحتاج إليه ١ / ١٢١
 - (٧) العبر (٤ : ١٠٩) ونقل عنه صاحب الشذرات نقلاً حرفياً
 - (٨) المنتظم (٩ : ١١٥) (٩) المصدر السابق (٩ / ١١٥)

(٤) علي بن هبة الله : بن عبد السلام أبو الحسن الكاتب البغدادي المولود سنة ٤٥٢^(١) وقد سمع من ابن النثور والصيرثيني وأبي القاسم الطبري وغيرهم ، وحُدِّثَ بواسطه وبغداده وتوفى يوم الثلاثاء السادس من رجب سنة ٥٢٦ .

وقد ذكره ضمن شيوخ العماد أصحاب " الوافي بالوفيات " وطبقات الشافعية و " الدارس " .^(٢)

(٥) ابن الخشاب : عبد الله بن أحمد بن أحمد بن الخشاب أبو محمد النحوي البغدادي المولود سنة ٤٦٢^(٤)

كان من فضلاء العلماء والحفاظ وذا معرفة جيدة بعلم العربية والشريعة والرياضة والحديث الشريف ، وقد ترجم له العماد في الخريد تومده وأشاد بفضائله وعلمه وأستاذيته له في كثير من العلوم خاصة فنون الأدب والنحو حتى انتهت إليه الرئاسة فيه . ومع فضله الكثير وعلمه الفزير آخذه النقاد بكثرة مزاجه وتندرته ورثائه ثيابا - وعدم اهتمامه بمنظره .^(٥)

وقد ذكر المترجمون لحياته أنه ألف عدة كتب منها : شرح الجمل للحجر جاني وشرح الملح لابن جنى ولم يتمه والرد على ابن بايشاذ في شرح الجمل وغيرها . وقد طبع له في وقتنا هذا كتاب " المرتجل " بتحقيق علي حيدر .

ومن ذكره في شيوخ العماد صاحب " مرآة الزمان " وتوفى عشية الجمعة الثالث من رمضان سنة ٥٦٧ ووقف كتبه على أهل العلم .^(٦)

(١) له ترجمة في المنتظم ٩: ١١٥ والعبر (٤: ١٠٨) والشذرات ٤: ١٢٢ نقلا حرفيا عن السبر والمختصر المحتاج إليه ١/ ١٢١ .

(٢) المنتظم (٩: ١١٥) (٦) الوافي بالوفيات (١: ١٣٢) طبقات الشافعية الكبرى (٤: ٩٧) والدارس (١: ٤٠٨)

(٤) له ترجمة في الخريدة - القسم العراقي المخطوط بورقة ج ٨/٧ وانباه السرواه (٢: ٩٩) والعبر ٤: ١٩٧ وبنية الوعاة (ج ٢: ٢٩) والمنتظم (٩: ٢٣٨)

وتاريخ ابن الفرات ج ١/٤ - ١٨٦ - ٢٠٦ والفلاحة والمفلوكون ص ١٠٤ وشذرات الذهب (٤: ٢٢٠) ومقدمة المرتجل ص ٥ والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ص ٢٠٥ ومختصر الديبشي (١٢٧/١٢٩)

(٥) انباه الرواة للقطبي (٢: ٩٩) والعبر (٤: ١٩٧) والخريدة العراقي ٢٥ -

مخطوط بورقة ٨
(٦) البرونشمس (٢: ٢٨) والعبر (٥: ١٩٧) وانباه الرواة (٢: ٩٩)

(٧) بنية الوعاة (٢: ٢٠) ومقدمة المرتجل ص ٢٥

(٨) المرتجل لابن الخشاب تحقيق علي حيدر أمين مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق

(٩) مرآة الزمان ج ١ ص ٥٠٤

(٦) ابن الحريري : أبو السبا بن محمد بن القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري من أهل البصرة الملقب بزین الاسلام الحريري ، لقيه العماد بالمشاف من أعمال البصرة أثناء نيابته عن الوزير ابن شبيبة ودرس عليه أربعين مقامة من مقامات والده ، وكرر ذكر دراسته للمقامات على يده مرتين . . الأولى في ترجمته للحريري الوالد ، والثانية في ترجمته لزین الإسلام نفسه ، وفيها يصف كيف احتال العماد عليه حتى أوصله الى ديوانه ثم أعفاه من الخراج والمقرر عليه ، وتعلم المقامات على يديه .

وقد كتب زین الإسلام الى العماد رسائل شعرية ونثرية ورد عليه العماد إجابات عن هذه الرسائل وسجل العماد بعضها في الخريدة في ترجمته لزین الإسلام هذا ، وقد توفي في سنة ٥٥٦ بعد أن ترك العماد البصرة لمرض ألم به الى بغداد .

(٧) ابن الحكيم : زين الدين أبو المظفر محمد بن أسعد بن محمد بن نصر العراقي المعروف بابن الحكيم البغدادي كان من أهل بغداد . ورحل الى دمشق وأقام فيها حتى توفي سنة ٥٦٦ ودفن بباب الصغير أحد أبوابها .

ولم يذكره أحد من مترجمي حياة السامد ضمن شيوخه ولكن العماد ذكره في ترجمة للحريري صاحب المقامات وقال : " وسمعت المقامات على ابن الحكيم عن الحريري وترجم له في القسم العراقي من الخريدة ولم يذكر مشيخته له ، وإنما روى عنه أشعاره ومن ذلك قوله :

يَا غافلاً لَيْسَ بِدَرِي مَتَى يَمُوتُ وَيَقْبُرُ
لَا تَفْعَلَنَّ فَإِنَّ النَّـ حَيَاةً مِنْ ذَاكَ أَقْصَرُ

- (١) ترجم العماد له ولوالده الحريري في الخريدة القسم العراقي والده ج٤ في ٥٩٩/٢ وترجمته في الجزء نفسه ص ٦٧٦
- (٢) الخريدة - القسم العراقي ج٤ في ٢ ص ٦٠٢
- (٣) المصدر نفسه ٤٧٧ - ٦٧٨ (٤) المصدر السابق ص ٦٧٦
- (٥) له ترجمة في القسم العراقي ص ٢٤ الجزء الثاني المخطوط . وله ترجمة في الوافي (٢ : ٢٠٢) والسبر (٤ / ١١٦) والجواهر المضيئة (٢ : ٢٢) وشذرات الذئب ٤ : ٢١٨ واللباب لابن الأثير (١ : ٢١٢)
- (٦) الخريدة - القسم العراقي ج٢ المخطوط الورقة ٢٤ - ٢٥
- (٧) الخريدة - القسم العراقي ج٤ في ٢ ص ٦٠٢

(٨) ابو علي الأحمر البصري : أبو علي الحسين بن أبي منصور بن حامد بن أبي علي

(١)

ابن مقلدي بن الأحمر التميمي ، وقد ترجم له العماد في القسم العراقي من الخريدة
وامتدحه وأشاده بفضل وأدبه ، وقد درس على يديه كتاب مجمل اللغة لابن فارس ، وكتب
له بعضاً من شعره الذي سمعه منه في سنة ٥٥٨ أثناء نيابته في البصرة .

(٩) الوركاني : الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن وثاب

(٢)

الوركاني من وركان - بفتح الواو كما نعت على ذلك السبكي - ونقل عن ابن السمعاني
قوله " وكان إماماً فاضلاً مناظراً أصولياً عارفاً بالأدب لأن أباه كان أديباً " (٣)

وقد ترجم له العماد وعلامة إمام أصفهان وسيد علماء الزمان ، وقد رزق من المعلم
أغزره ودرس في نظامية أصفهان وسجل له بعضاً من شعره ومنه :

أَحْيَانَنَا أَمَا حَيَاتِي بَعْدَ كُمْ فَمَوْتٌ وَأَمَا مَشْرِي فَمَنْفَعِي
وَأَسْنَدٌ شَيْءٌ نَفْسِي تَلْبِي لِأَنْفَسِهِ لَدَيْكُمْ وَجَسْمِي بِالْبِعَادِ مَخْصَعِي
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَقْتَضِيَ اجْتِمَاعًا مَعْجَلًا يَرُدُّ جُنَاحَ الْبَيْنِ وَهُوَ مَقْصَعِي (٤)

(٥)

وقد ذكره مؤلفون "معجم الأدباء" و "طبقات الشافعية" و "الدارس" ضمن

شيوخ العماد في أصفهان الذين أجازوه في الحديث الشريف وتولى الوركاني سنة ٥٥٩ (٦)

(١٠) يوسف الدمشقي : يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي . ذكره العماد

ضمن شيوخه أثناء حديثه عن ثقة الدولة بن البرقي .

(١) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ و ٦٩١/٢

(٢) له ترجمة في الخريدة قسم شعراء المعجم / المخطوط الورقة ٢٨ وفي طبقات

الشافعية الكبرى (٤ : ٢١٢) وتلخيص مجمع الآداب ج ٤ في ١٤٨/٣

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٤ : ٢١٢)

(٤) القسم المعجم - المخطوط ج ٤ الورقة ٢٨

(٥) معجم الأدباء (١٩ : ١١) وطبقات الشافعية (٤ : ٩٧) والدارس (١ : ٤٠٨)

(٦) طبقات الشافعية الكبرى (٤ : ٩٧)

(٧) الخريدة - القسم العراقي ج ١ / ١٤٤ - ١٤٥

ويبدو من حديث ابن الأثير عنه أنه تولى التدريس في النظامية أكثر من مرة إذ يروى في أخبار سنة ٥٤٥هـ أن يوسف الدمشقي جلس مدرساً في النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير أمر الخليفة ، فمضى يوم الجمعة من دخول الجامع فصلى في جامع السلطان ومنع من التدريس ثم يعود مرة ثانية ليخبرنا في حوادث سنة ٥٥٧هـ أنه في رجب من هذه السنة درس شرف الدين يوسف الدمشقي في المدرسة النظامية ببغداد وتوفي سنة ٥٦٢هـ وهو في طريقه إلى خوزستان رسولاً إلى شملة التركمان .^(٤)

(١١) محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر السلامي : لم يذكره أحد ضمن شيوخ العماد ، ولكن العماد ذكره في أكثر من موضع في القسم العراقي من الخريدة ، ومن ذلك ما قاله عنه في ترجمة أبي القاسم الباجسري :

قال محمد بن ناصر الحافظ البغدادي ، ولي منه اجازة بجميع رواياته وسمعت عليه الحديث أيضاً ، وقد روى عنه الكثير من الأشعار . وترجم له ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة فقال بعد ذكر اسمه " الفارسي الأصل ثم البغدادي الأديب اللغوي الحافظ . . . " وكان في البداية يميل إلى الأدب ولكنه تحول إلى الحديث وكان ابن الجواليقي أميل إلى الحديث حتى قال بضم النام : يخرج ابن ناصر لغوي ببغداد وابن الجواليقي محدثها ، فانعكس الأمر فصار ابن ناصر محدث ببغداد وابن الجواليقي لغويها .^(٧)

كان ابن ناصر شافعي المذهب حافظاً متقناً ثم تحول فأصبح حنبلياً مغالياً^(٩)

-
- (١) الكامل ١٥٢/١١ (٢) الكامل ٢٨٩/١١ (٣) الكامل ٣٣٣/١١
(٤) شملة التركمان : ملك بلاد فارس وحارب الملوك ونهب المسلمين ، والتقى بالبهلولان ومعه عسكر من التركمان لهم ثار على شملة فانهزم جيش شملة وأصابه سهم فأسر ومات سنة ٥٧٠هـ وكان ظالماً جباراً . العبر ٢١١/٤ والكامل ٤٢٢/١١ .
(٥) ذكره العماد في مواضع مختلفة منها ١٢٤ ، ٢٨٣ ، ٢١٥ ، ٣٤٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ من الجزء الرابع العراقي وله ترجمة في التمام (٦ : ٤٧) والذيل على طبقات الحنابلة (١/٢٢٥-٢٢٨) وتذكره الحافظ لندهبي ١٢٨٩/٢ فيها تشابه كبير مع الذيل . والتاج المكلل ص ١٩٩
(٦) الخريدة القسم العراقي ج ٤ ق ١/٢٢٣ وهو من حقوقا بلده من أعمال بغداد
(٧) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ ق ١/١٢٤
(٨) الذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٢٦
(٩) الكامل ج ٩/٤٧

حسب رواية ابن الأثير .

أما ابن رجب فيروى أنه تحول بسبب منام رآه . وامتدحه الصفدي في " تذكرة الحفاظ " وأثنى عليه وعلى علمه الفزير وجعله إلى جانب كونه محدثاً - أدبياً ولفظياً كبيراً .

وقد ولد ابن ناصر ليلة السبت نصف شعبان سنة ٤٦٢ وتوفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر من شعبان سنة ٥٥٠ وصلى عليه قريباً من جامع القصر ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد .

(١٢) أبو عبد الله بن البناء البغدادي : يحيى بن الحسن بن أحمد بن عبد اللطيف بن البناء أبو عبد الله ، ولد يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٥٣ . وترجم له ابن رجب فقال : ويكرهه أبوه في السماع " وذكر عدة من شيوخه الذين سمع منهم وتعلم على أيديهم حتى وعى الكثير ، وأصبح مقدماً لطلاب الحديث ، وروى عنه جماعة من الحفاظ وغيرهم منهم ابن عساكر وابن الجوزي وابن السمعاني صاحب " الذيل على تاريخ بغداد " وقد امتدحه ابن السمعاني وأثنى عليه كثيراً لحسن سيرته واتساع روايته وتواضعه وبره ولطفه وعطفه على الطلبة وحده عليهم .

وتوفي الشيخ ليلة الجمعة الثامن من شهر ربيع الأول سنة ٥٣١ .

وقد ذكره ضمن شيوخ العماد البغدادي صاحب " التكملة " الوفيات النقلة " ولم يذكره أحد غيره ، ونحن نشك في هذا الأمر لأن العماد لم يدخل ببغداد إلا في سنة ٥٣٤ إلا إذا كان ابن البناء قد دخل أصفهان أو قاشان قبل وفاته .

(١٣) علي محمود اليزدي : وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسين بن أحمد ابن الحسين بن محمود المقرئ الفقيه وفي " النجوم الزاهرة " الشافعي المصري

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢٢٦ : ١)
 (٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٢٩٠ / ٤)
 (٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢٢٥ - ٢٢٨) والكامل (٤٧ : ٩)
 (٤) له ترجمة في الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١٨٩ / ١) وشذرات الذهب (٤ : ٩٨) (٥) الذيل على طبقات الحنابلة ١٨٩ / ١
 (٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها
 (٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها
 (٨) التكملة لوفيات النقلة ج ٢ ص ٢٢٨
 (٩) النجوم الزاهرة ٢٢٤ / ٥ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧١ / ٤ وشذرات الذهب ١٥٩ / ٤
 (١٠) النجوم الزاهرة ٢٢٤ / ٥

ولم يذكره أحد ضمن شيوخ العماد ، ولكن العماد ذكره في ترجمته معدان بن كـ...
البالسى في الخريدة ^(١) قال بعد أن كتب للمذكور قصيدة " ورواية هذه القصيدة على
محمويه اليزدي شيخى سمعت عليه الحديث ولى منه إجازة فيجوز أن أرويهما عنه إجازة ^(٢)
وترجم له صاحب " طبقات الشافعية الكبرى " و"عدد لنا الكثير من شيوخه وقال / سافر
إلى واسط وصنف الكثير حديثاً ونقهاً وزهداً وكان من الفقهاء المتعبدين وكان له عمامة
وقميص مشتركان بينه وبين أخيه إذا خرج ذلك فقد هذا في البيت والنكس ، ودخل
إليه زائر فوجده عريانا عقان : نحن كما قال القاضى أبو الطيب الطبرى :

قوم إذا غسلوا ثياب جملهم لبسوا البيوت إلى فراغ الفاسل ^(٣)

وتوفى في أول رجب سنة ٥٥١ هـ ويروى السبكي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم

في المنام وهو يقول له :

" يا على صم رجلاً عندنا " فمات ليلة أول رجب سنة ٥٥١ هـ والله أعلم . ^(٤)

(١٤) الشيخ أبو النجيب السهروردى محمد بن محمويه بن عبد الله بن سعد بن الحسن
بن القاسم بن علقمة بن النصر بن صناد بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر
الصدىقى . ترجم له العماد في الخريدة وأثنى على علمه وفضله وعلو شأنه وقوة برهانه
وشدة زنده . فعلى الرغم من غناه الذى مكّنه من بناء مدرسة ورباط أسكن فيه الفقهاء
كان يلبس الخرقة ويحمل قربة الماء على كتفه . وتعلم على يديه عدد كبير من التلامذة ،
وقد حضر العماد مجالسه في بغداد ، وشهد مجالس مناظراته ، وتكلم أمامه واستفاد منه
واستمع إلى مجالس عظاته ، وأخذ عنه الكثير وسمع الحديث وظل يداوم على هذا الأمر
حتى غادر العراق إلى الشام سنة ٥٦٢ هـ وتوفى الشيخ بعد هذه السنة بسنتين أو ثلاث
حسب رواية العماد وأجازته في جميع مسموعات ومقولاته .

(١) الخريدة - القسم الثامن (٢٢٦/٢٥)

(٢) المصدر السابق ج ٢/٢٦٦

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٢٧١/٤

(٤) النجوم الزائرة وثبات ٥٥١ (ج ٥/٢٢٤) وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧١/٤

(٥) ترجم له العماد في الجزء الخامس من الخريدة وهو قسم شعراء فارس المخطوط

الورقفة ٥٣

(١٥) أبو الفتوح الأسفراييني : محمد بن الفضل بن محمد بن المعتد الشيخ الامام (١)
أبو الفتوح الإسفراييني نسبة إلى اسفرايين ، ولد بها سنة ٤٧٤ وتقل في البلاد يطلب العلم فسمع بنو ساجور وعمدان وسمع من عدد كبير من الشيوخ وروى عنه الكثيرون أمثال ابن عساكر وابن السمعاني وقد امتدحه ابن عساكر لفصاحة لسانه ومدى بهته وصحة عقيدته وأثنى عليه ابن الأثير فقال : كان إماماً فاضلاً صالحاً (٤) ، وقد توفي سنة ٥٣٨ وهو خازن من بغداد إلى خراسان ودفن ببسطام . (٥)

(١٦) محمد بن عبد اللطيف الخجندی : محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت أبو بكر الخجندی ، وقد أرجع السبكي نسبه إلى الصهلب بن أبي صفرة وينسب إلى صهلب خجندة وهي بلدة في فارس وكان أبو بكر هذا مقدم أصفهان بلد العماد ورئيسها ومدرس النظامية فيها ، امتدحه العماد وأثنى على علمه وعلو منزلته ووصف علاقته المتينة به (٨) ، وامتدحه ابن السمعاني قائلاً : " وكان إماماً فاضلاً مناظراً فحلاً واعظاً مليح الوعظ سخي النفس جواداً ، وقال : " وكان بالوزراء أشبه منه بالعلماء وقال : " وكان يروى الحديث على رأس المنبر من حفظه " ووصفه السبكي بحسن المناظرة وتحريص العبارة فهماً ، وكان يمشى وحوله السيوف . خرج إلى أصفهان من بغداد فنزل بسين همذان والكرخ ونام في عافية وأصبح ميتاً في الثاني والعشرين من شوال سنة ٥٥٢ . (٩)

وقد ذكره أصحاب " معجم الأدباء " و " طبقات الشافعية " و " السداس " ضمن شيوخ العماد وعلوه العماد ضمن شيوخه الذين أخذ عنهم واستفاد من علمهم ، (١١)

-
- (١) له ترجمة في الكامل (٩٦/١١) والمنتظم (١١٠/٩-١١١) وطبقات الشافعية للسبكي (٩٤/٤-٩٦) والعبر (١٠٥/٤)
 - (٢) وردت عند ابن الأثير اسفرايين وعند ابن الجوزي اسفرائين واختلفوا في لقبه فهو الاسفراييني في الطبقات والاسفراييني في الكامل والاسفرائيني في المنتظم .
 - (٣) طبقات الشافعية للسبكي (٩٤/٤) (٤) الكامل (٩٦/١١)
 - (٥) في السداس السابقة والعبر (١٠٥/٤)
 - (٦) له ترجمة في المنتظم (١٧٦:٩) وطبقات الشافعية للسبكي (٨٠/٤) والبداية والنهاية (٢٢٧:١٢) والمكامل (٢٢٨:١١)
 - (٧) طبقات الشافعية للسبكي (٨٠/٤)
 - (٨) الخريدة - قسم بلاد المعجم المخطوط ج ٤ الورقة ٢٧
 - (٩) طبقات الشافعية ٨٠/٤ (١٠) المصدر السابق والصفحة نفسها .
 - (١١) معجم الأدباء ١١/١٩ وطبقات الشافعية ٩٧/٤ والدارس ٤٠٨/١

وحج العماد برفقة أخيه جمان الدين محمود سنة ٥٤٨ هـ وعاد معه سنة ٥٤٩ هـ (١)

(١٧) ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن بن سببة الله بن عبد الله بن الحسين الحسين المعروف بثقة الله دمشق الشافعي الحافظ . ترجم له العماد في القسم الشامي من الخريدة وأشاد بفضلته ووزارة علمه وسماعه عليه .
لقيه في دمشق بعد رحيله إليها في سنة ٥٦٢ هـ فصار يتردد عليه ورآه وقد ألف تاريخه المشهور بتاريخ ابن عساكر في سبعمائة كراسة كل كراسة عشرون ورقة وسمع بعضه منه كما سمع بعض أشعاره .

وقد ترجم له السبكي في طبقاته وأثنى عليه وقال في تنقله ورحيله في طلب العلم وسمع خلايق وعدة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ومن النساء بضع وثمانون امرأة وارتحل إلى العراق ومكة والمدينة وبلاد السجم فسمع بأصفهان ونيسابور ومرو وتبريز وغيرها .
ومن القصائد التي أملاها ابن عساكر على العماد قصيدة كتبها يهنئ فيها نسور الدين باستيلاء شيركوه على مصر ويشكره على إعفائه أهل دمشق من المطالبة بالخشبة ومنها :

(٤)	لما سمحت لأهل الشام بالخشب
عوضت مصر بما فيها من النشب	وإن بذلت لفتح القدس محتسباً
بلاجر جوزيت خيراً غير محتسب	والأجر في ذاك عند الله مرتقب
فيما يشيب عليه خير مرتسب	والذكر بالخير بين الناس تكسبه
(٥)	خير من القضة البيناء والذهب

- (١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٢٢ ونود أن ننوه إلى أن له حفيداً بينهما تشابه في الأسماء . وترجم له طبقات الشافعية ٨٠/٤ واسمه محمد بن عبد اللطيف النخجندی
(٢) له ترجمة في الخريدة - القسم الشامي (ج١ / ٢٧٤ - ٢٨٠) والعبير (٢١٢ / ٤)
وطبقات الشافعية للسبكي (٢٧٢ / ٤) وتذكرة الحافظ (١٢٢٨ / ٤) ومقدمة تاريخ مدينة دمشق الجزء الاون والنجم الزاهرة (٧٧ / ٦) والمنتظم (٢٦١ / ٩)
والتاج المكلل ص ٨٤
(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٢٧٢ / ٤) ولعل في هذا الخبر عن الأستاذات من النساء ما يدحض فرى الجاهلين بالإسلام في تقديره للمرأة وعلمها .
(٤) النشب : المسان (٥) الخريدة القسم الشامي ج١ / ٢٧٧ والروضتين ١٦٠ / ١

وانتقل ابن عساكر إلى باريه كما يقول العماد - بين العشاشرين ليلة الأحد
الحادي عشر من رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ودفن بمقبرة الصغير صلى عليه
الملك الناصر صلاح الدين (١)
(١٨) ابن أبي عصرون : شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي السري محمد بن
شعبة الله بن مطهر بن علي ابن أبي عصرون بن أبي السري التميمي الحديثي ثم الموصلی ٥٠٠
ترجم له العماد وامتدحه قائلاً : " حجة الإسلام ، مفتي العراق والشام وهو شيخ المعلم
العلامة ، وفتياه توطدت للشرح الدعامة " .

وكان مفتياً على مذهب الشافعي ، وامتدحه ابن خلكان لاتقانه المذنب الشافعي .
(٤)
وكان مولده يوم الإثنين الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٤٩٢ بالموصل
وتلقى العلم والفقه على أيدي كبار شيوخ عصره ، وارتحل في طلبه إلى بغداد وعاد إلى
الموصل فدرس بها ثم رحل إلى سنجان وأقام بها مدة ثم تركها إلى حلب سنة ٥٤٥ ، ومنها
إلى دمشق سنة ٥٤٦ ، وفيها ملكها نور الدين زنكي ودرس في مدارسها وعمل قاضياً
في عدة بلاد . ثم عس مع صلاح الدين الذي ولاه رئاسة القضاء في البلاد الشامية
سنة ٥٧٢ . وتوفي ليلة الثلاثاء الحادي عشر من رمضان سنة ٥٨٥ بمدينة دمشق .
ودفن في المدرسة التي سميت باسمه " السمرونية " .

ولم يذكره أحد ضمن شيوخ العماد ، ولكن العماد ترجم له وصرح أنه قرأ عليه
بعض مصنفاته في المذهب الشافعي .

وله عدة مؤلفات منها : " صغوة المذنب من نهاية المطلب " في سبع مجلدات ،
وكتاب " الانتصار " في أربع مجلدات وكتاب " المرشد " في مجلدين وغيرها .

-
- (١) الخريدة - القسم الثاني (٢٧٧/١) وكذلك ذكر تاريخ وفاته في العبر (٢١٣/٤)
والنجوم الزاهرة (٧٧/٦) وطبقات الشافعية للسبكي (١٧٣/٤)
- (٢) له ترجمة في الخريدة - القسم الثاني (ج ٢٥١/٢) والكامل التجارية منبر (٢٠٥/٩)
ووفيات الأعيان (٥٢/٢) وطبقات الشافعية للسبكي (٢٣٧:٤) والنجوم الزاهرة
(١٠٩:٦) وطبقات الشافعية للحسيني ص ٨٠ ومختصر البيهقي ص ١٥٨
- (٣) وفيات الأعيان (٥٣:٣) والحديثي نسبة إلى حديثي الموصل بفتح الواو وكسر الـ دال
وهي بليدة على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى (وفيات الأعيان ٢:٥٣)
- (٤) المصدر السابق وكذلك الروضتين ١٥٠/٢
- (٥) الخريدة ج ٢٥١/٢ (القسم الثاني) ووفيات الأعيان (٥٤:٣)
- (٦) الروضتين (١٥٠/٢) ووفيات الأعيان (٥٥:٤) والبداية والنهاية ١٢:٣٣٣
- (٧) الخريدة - القسم الثاني (٢:٣٥٤)
- (٨) وفيات الأعيان (٥٤:٣) وطبقات الشافعية للسبكي (٢٣٨/٤)

(١٩) السلفي : الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأعمش، اختلفوا في لقبه السلفي فقال ابن خلكان : " أحمد . . . ابن إبراهيم سلفه - بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفي آخرها الهاء - نسبته إلى جده إبراهيم سلفه " وجعله السبكي إسماً لوالد جده إبراهيم فقال : إبراهيم بن سلفه . ولكنه شك فقال وسلفه كما ذكر شيخنا الذهبي لقب أحمد وفيما كنت أحفظ اسم الوالد إبراهيم " واختلفوا كذلك في سنة ولادته فجعلها ابن خلكان سنة ٤٧٢ ولكنه عماد مرة ثانية لينقل خبراً طويلاً عن أحد تلامذة السلفي الثقات - أن مولده حسب قول السلفي نفسه " مولدي بالتخمين لا باليقين سنة ثمان وسبعين " ويرجع ابن خلكان بعد إيراد هذه لعدة أخبار مولده في تلك السنة .

وقد امتدحه كل الذين ترجموا لحياته فقال ابن خلكان " أحد الحفاظ المكثرين " وأثنى عليه السبكي وابن الأثير والديلمي والصفدي وابن عساكر وابن العماد اللخمي وكثير غيرهم من المترجمين . قال السيوطي في " حسن المحاضرة " : كان إماماً متقناً ، ناعداً ثباتاً ، ديناً ، خيراً ، انتهت إليه علوم الإسناد " وقال أيضاً " كان أوحده زمانه في علم الحديث " .

وقد ذكر العماد أن السلطان علاء الدين تردد عليه في الإسكندرية سنة ٥٧٢ سنة ثلاثة أيام والعماد بصحبته .

(١) له ترجمة في الخريدة قسم شعراء المعجم ج ٤ البرقة ٣٢ ووفيات الأعيان (١٠٥/١) وطبقات الشافعية للسبكي (٤٣:٤) والكامل (٣١٠/١١) والبداية والنهاية (٣٠٧:١٢) والمعجم في أصحاب القاضي الامام ابن علي الصفدي - ابن الأبار ص ٤٨ وتذكرة الحفاظ (١٢٩٨/٤) وحسن المحاضرة (٣٥٤/١) وذكره أبو شامة في الروضتين في وفيات (٥٧٦) ج ٢/١٦ وكذلك في مختصر الديلمي ص ٢٠٦ وتهذيب ابن عساكر (٤٤٩/١) وأزهار الرياض في أخبار عياض (٢٨٣٥١٦٧/٣) وشذرات الذهب (٢٥٥/٤) والتاج المكلل ص ٣٤ واللباب ٥٥١/١ .

(٢) وفيات الأعيان ١٠٧/١ (٢) طبقات الشافعية للسبكي ٤٣/٤
 (٤) وفيات الأعيان ج ١/١٠٦ - ١٠٧ (٥) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها
 (٦) المصادر السابقة المذكورة في بند (١)
 (٧) حسن المحاضرة - السيوطي ٣٥٤/١
 (٨) سنا البرق - السامري ج ١/٢٤٢

- وقد ذكره ضمن شيخو العماد الصفدي في "الوائى بالوفيات" والسبكي في "طبقاته" والنعماني في "الدارس" (١) وتوفى السلفي في الخامس من شهر ربيع -
الأول من سنة ٥٧٦ بالإسكندرية ودفن فيها ٥ وقد لفت نظرنا جملة وردت في الخريدة
في نهاية ترجمة السلفي تعيد أن وفاته كانت سنة ٥٧٥ وهي لاشك من إضافة الناسخ .
(٢٠) ابن الصبَّاغ : علي بن عبد السيد ابو القاسم ابن العلامة أبي نصر بن
الصبَّاغ الشاهد ٥ سمع من الصريفي كتاب "السبحة" لابن مجاهد وعدة أجزاء ٥ وكان
عالماً حسن الطريقة ٥ وتوفى في جمادى الأولى من سنة ٥٤٢ .
وقد ذكره ضمن شيخو العماد في بغداد أصحاب "معجم الأدباء" و "مرآة
الزمان" و "طبقات الشافعية" و "الدارس" و "شذرات الذهب" .
(٢١) أبو طاهر بن عوف الزهري : صدر الإسلام أبو طاهر إسماعيل بن مكي بن إسماعيل
ابن عيسى بن عوف الزهري الإسكندراني المالكي . سمع من عدد من كبار شيخو عصره
حتى أصبح علماً ٥ قصده السلطان والعماد بسحبته وسمما منه موطأ مالك وتم السماع في
شوال سنة ٥٧٧ وذلك في مدينة الإسكندرية .
وقد ذكره إلى جانب العماد ضمن شيخو المنذري في "التكلمة" ولم يذكره
أحد سواه وتوفى الشيخ سنة ٥٨١ بجزيرة .
(٢٢) الحيصي بيبي الأمير شهاب الدين أبو الفوارس : سعد بن محمد بن سعد أبى -
عيسى التميمي الشاعر المشهور وينتهي نسبه إلى أكرم بن عيسى حكيم الصرب المعروف في
العصر الجاهلي ٥ ترجم له ابن خلكان وأمدحه وأشاد بفضله وعلمه ٥ وذكر الملهم
(١) الوائى بالوفيات (١٣٢/١) وطبقات الشافعية (٩٧/٤) والدارس ٤٠٨/١
(٢) الوائى بالوفيات ١٠٦/١ والروستين ج ١٦/٢ والكامل ٤٦٩/١١
(٣) الخريدة - قسم المعجم المخطوط ج ٤ ورقة ٣٤
(٤) له ترجمة في العبر ١١٥/٤ ونقل صاحب الشذرات عنه حرفياً ١٣١/٤
(٥) العبر ١١٥/٤
(٦) معجم الأدباء (١١/١٩) ومرآة الزمان (ج ٨ ق ١/٥٠٤) وطبقات الشافعية
الكبرى (٩٧/٤) والدارس (٤٠٨/١) وشذرات الذهب ٣٣٢/٤
(٧) له ترجمة في العبر (٢٤٢/٤) وشذرات الذهب (٢٨٦:٤)
(٨) الترجمة من العبر (٢٤٢/٤) (٩) التكلمة لوفيات النقلة ٢٨٨/٢
(١٠) العبر (٢٤٢:٤) وفيات سنة ٥٨١
(١١) له ترجمة في الوفيات ٢٦٢/٢ والمنقظم ١٤٧/١٠ وطبقات الشافعية للسبكي
٢٤٧/٤ وأبداية وانهاية (٢٠١/١٢) وشذرات الذهب ٢٤٧/٤
والنجوم الزائرة ٨٣/٦ ومقدمة ديوانه (الجزء الأول) والخريدة - القسم
العراقي ٢٠٢/١ (١٢) وفيات الايمان ٣٦٢/٢ - ٣٦٣

التي أتقنها ومنها المسائل الشرعية والمذهب الشافعي ومسائل الخلاف والأدب ونظم الشعر . وترجم له العماد مبدعه وأثنى على جزالة ألفاظه وعمق معانيها .

وقد ولد الشاعر سنة ٤٩٢ - كما توصل إليه محققا ديوانه - نقلًا عن ابن جماعة الكتاني في كتابه "معجم الأدباء" (١) ودرس في النظامية على جمع من الشيوخ ورحل إلى واسط وأخذ الحديث وسمعه ثم شدَّ رحاله إلى السَّريِّ ثم عاد إلى بغداد وجالس العلماء والفقهاء وناظر في الخلاف والفقه الشافعي ، وأخذ الطلاب عنه ودرسوا على يديه ، ومنهم القاضي أبو اليسر صاحب ديوان الإنشاء في زمن نور الدين والسماعاني ، وقبراً العماد عليه ديوان شعره ورسائله إلا أن العماد في ترجمته له ذكر دراسته لديوانه فقط ، ولكنه أثبت له الكثير من الشعر والنثر في القسم العراقي من الخريدة . وتمسك ترجمته أطول ترجمة لأي شاعر من شعراء الخريدة على الإطلاق . (٢)

وقد شرح ابن خلكان سبب تسميته بالحيص بيص فقال : " وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد فقال : " ما للناس في حيص بيص ببقى عليه هذا اللقب ومعنى عاتين الكلمتين الشدة والاختلاط " (٣) ويبدو أن الشاعر الأملر كان يميل إلى رصانة اللغة والخلق ، فحاول بعض الشعراء إيذاه ، فلم يتصدد لهم لأن أخلاقه منعمته وورعه حال دون ذلك " فأحتم بسبب ووجد إيذاء المؤذيين وسخرية الساخرين " وفي مقدمته لديوانه التي كتبها نحو نفسه ما يدل على سمو أخلاقه ورفعتها ، وعلو نفسه وإبائها . (٤)

وتوفي الأملر الشاعر العربي النجار ليلة الأربعاء السادس من شعبان سنة ٥٧٤ هـ في بغداد ودفن بالجانب الغربي في مقابر قرشي . (٥)

-
- (١) الخريدة - القسم العراقي (١ : ٢٠٢)
 - (٢) الديوان ج ١ / ٢٧ ونحو غير كتاب ياقوت المشهور
 - (٣) الديوان ١ / ٨ - ٢٩ (٤) الخريدة - الجزء الأول العراقي ص ٢٠٢
 - (٥) امتدت ترجمته في الجزء الأول السرائي من ٢٠٢ - ٢٦٦
 - (٦) وفيات الأعيان ج ٢ / ٣٦٥
 - (٧) ديوان الحيص بيص ج ١ / ٣٩ مقدمة المحققين
 - (٨) ديوان الحيص بيص ج ١ ص ٢٠ - ٧١ وعلى تعليم الشاعر ، وأورد العماد بعضها في الخريدة .
 - (٩) وفيات الأعيان ٢ / ٣٦٥ ومقدمة ديوانه ١ / ٤٨

ولم يذكره أحد ضمن شيوخ العماد ، ولكن السجاد - كما ذكرنا - قرأ عليه ديوانه أثناء وجوده في بغداد .

(٢٤) أبو القاسم بن الحسين : هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد أبى - العباس بن الحسين أبو القاسم الشيباني الكاتب . يُكْرَبُه أبوه في السماع فسمع من عدد من الشيوخ الكبار في عصره .

وقد ولد أبو القاسم سنة ٤٣٣ هـ وهو طويل حتى عار سيد أهل عصره نرحل إليه الطلبة وازدحموا عليه وأثنى عليه كل الذين ترجموا لحياته فقال ابن الجوزي " كان ثقة صحيح السماع " وقال ابن كثير : " وكان ثقة ثبتاً صحيح السماع " وتبعهما في ذلك الذعبي وابن العماد . وكان ابن الجوزي أحد تلامذته وقد سمع منه مسند الإمام أحمد جميعه ، وسمع منه بعض كتبه الأخر بقراءة الشيخ محمد بن ناصر السلمي السابق الترجمة وقد كتب ابن الجوزي ما سمعه .

وقد توفي بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال سنة ٥٢٥ هـ وترك إلى يوم الجمعة هـ وعمره ثلاث وتسعون سنة .

وقد ذكره ضمن شيوخ السجاد ياقوت والذهبي والصفدي والمنذرى والسبكي والنعمي وابن العماد الخبلي .

وإذا علمنا أن سن السجاد لم تكن تتعدى السادسة حين توفي ابن الحسين أصبح من واجبنا أن نشك في هذه المشيخة - إلا إذا أخذنا برأى الأستاذ الأثرى من أن سماع الصفار ثان وأردنا في ذلك الصبر بل ما لَوْفًا .

-
- (١) الجزء الأول العراقي ص ٢٠٢ كما مر سابقا
 - (٢) له ترجمته في المنتظم (٢٤/١٠) وأبداية والنهاية (٢٠٤/١٢) والمسير (٦٦/٤) وشذرات الذهب ٧٧/٤
 - (٣) المنتظم ٢٤/١٠ (٤) المصدر السابق والصفحة نفسها
 - (٥) المصدر السابق والصفحة نفسها .
 - (٦) أبداية والنهاية (٢٠٢/١٢) (٧) المنتظم لابن الجوزي ٢٤/١٠
 - (٨) المنتظم (٢٤/١٠) وشذرات الذهب (٧٧/٤)
 - (٩) أبداية والنهاية ٢٠٢/١٢
 - (١٠) معجم الأدباء (١١/١٩) والعبر (٤٠٧/٤) والنوافي (١٢٢/١) والتكملة لوفيات النقلة (٢٨٨/٢) وطبقات الشافعية للسبكي (٩٧/٤) والدارس ٤٠٨/١ وشذرات الذهب ٢٢٢/٤ (١١) مقدمة الشريدة - العراقي ج ١/١٦٦

(٢٤) أبو بكر بن الأشقر : أحمد بن علي بن عبد الواحد الدلال المعروف بابن الأشقر ، ولد سنة ٤٥٧ هـ ، وسمع من أبي محمد الصريفيني وغيره وحدث عنه ، وأثنى عليه ابن الجوزي والذهبي وابن العماد ، وتوفي يوم الأربعاء الثامن من شهر سنة ٥٤٦ هـ ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد (٣)

وقد ذكره ضمن شيوخ العماد ببغداد الكثير ممن ترجعوا له ، ومنهم ياقوت والصفدي وابن الديبشي والسبكي والمنذري . (٤)

(٢٥) أبو البركات النيسابوري : إسماعيل بن أحمد بن محمود بن دوست أبو البركات ابن أبي سعد الصوفي المعروف بشيخ الشيوخ و " كان أبوه من أهل نيسابور فاستوطن ببغداد فأولد بها أبو البركات " الذي ولد سنة ٤٦٥ هـ وسمع الحديث من عدد من الشيوخ حتى أتقنه فحدث ودرس إلى حين وفاته في جمادى الأولى سنة ٥٤١ هـ ، ويروي ابن الجوزي أنه حين وفاته عمل له عرس كما تقول الصوفية في السامر من جمادى الآخرة واجتمع مشايخ الربط وأرباب الدولة والعلماء فاعترموا على طاقيل - على المأكول والمشروب والحلوى ثلاثمائة دينار " (٧)

(٨)

ولم يذكره أحد ضمن شيوخ العماد سوى المنذري .

(٢٦) أبو المكارم السهمي : المبارك بن علي بن عبد العزيز السهمي والملقب بأبي المكارم الخباز البغدادي . ولد سنة ٤٥١ هـ وسمع من الصريفيني وغيره وكان سماعه صحيحاً - كما يقول ابن الجوزي - توفي في يوم عاشوراء من سنة ٥٣٩ هـ . (٩)

- (١) له ترجمة في السير (١١٥/٤) والمنتظم (١٢٦/١٠) وشذرات الذهب (١٤١/٤)
- (٢) المنتظم ١٢٦/١٠ والسير ١١٥/٤ وشذرات الذهب ١٢١/٤
- (٣) المنتظم ١٢١/١٠ (٤) معجم الأدباء ١١/١٩ والنوادي ١٣٢/١ ومختصر ابن الديبشي ١٢٦/١ وطبقات الطائفة للسبكي ٩٧/٤ والتكملة لوفيات النقلة ٢٨٨/٢
- (٥) له ترجمة في المنتظم (١٢١/٤٠) ومرآة الزمان ج ٨ وفيات سنة ٥٤١ وشذرات الذهب ١٢٨/٤ (٦) المنتظم ١٢١/١٠
- (٧) المصدر السابق والصفحة نفسها (٨) التكملة لوفيات النقلة ٢٨٨/٢
- (٩) له ترجمة في المنتظم ١١٨/١٠ وشذرات الذهب ١٢٥/٤ والسمد : بتشديد السين والهم وكسرهما هو الخبز الأبيض يعمل للخواص كلمة أعجمية وهي معجم ياقوت السمرقندي ونقلها الأستاذ مطغور على ما يبدو وله دون تصحيح ص ١٢٥ واللباب ٥٦١/١ (١٠) المنتظم ١١٨/١٠
- (١١) المصدر السابق والصفحة نفسها .

وذكره ضمن شيخو العماد ياقوت وابن الديبتي والسفدي والسبكي والمنذري حين
جاء العماد إلى بغداد .

(٢٧) أبو زرعة المقدسي : ^(٢) ظاهر بن محمد بن ظاهر المعروف بأبي زرعة المقدسي
الأصل الرازي المولد الهمداني الدار . ولد سنة ٤٨١ بالسري ورحل إلى عدة بلدان
منها عمدان والكرخ وسمع من شيوخها وروى عنهم وأقام بهمذان يدرس ، وكان يروى مسند
الشافعي ، وتوفي بهمذان يوم الأربعاء السابع من ربيع الآخر سنة ٥٦٦ وقد قارب
التسعين .

قال الذهبي عنه " إنه كان رجلاً عربياً من العلوم " ^(٤) وقد نقل هذا الكلام عنه
ابن العماد الحنبلي ، وهو كلام لا ينطبق مع واقع ما كتب عنه فالذي يرحل إلى عدة
بلدان والذي يروى مسند الشافعي لا يكون بعاب عربياً من العلوم .
وقد ذكره المنذري ضمن شيخو العماد ولم يذكره أحد سواه .

(٢٨) العبادي : المظفر بن أردشير أبو منصور العبادي المولود سنة ٤٩١ وقد
سمع من عدد كبير من الشيوخ حتى أتقن جوانب من العلم والمعرفة وأصبح ذا قدرة
فائقة في الحديث والوعظ ، واختلف مترجمو حياته في أمره فمنهم من امتدحه ورفعوه ومنهم
من نال منه وخط من منزلته بل واتهمه في خلقه ودينه ، ومن الفريق الأول ابن الجوزي
الذي قال فيه : " ودخل بغداد فأملى الحديث ووعظ بالجامع والنظامية وكانت له
فصاحة وحسن عبارة " ^(٨) ومن الفريق الثاني ابن خلكان نقلاً عن ابن السمعاني الذي
اتهمه في دينه وإباحته شرب الخمر .
^(٩)

(١) محجم الأدباء ١١/١٩ مختصر ابن الديبتي ١٢٣/١ والوافي ١٣٢/١ وطبقات
الشافعية للسبكي ٩٧/٤ والتكملة لوفيات النقلة ٢٨٨/٢

(٢) له ترجمة في البداية والنهاية ٢٦٤/١٢ والعبر ١٩٢/٤ وشذرات الذهب
٢١٢/٤

(٣) البداية والنهاية ٢٦٤/١٢ والعبر ١٩٣/٤ وشذرات الذهب ٢١٢/٤

(٤) العبر (٤) ١٦٤/٤ (٥) التكملة لوفيات النقلة ٢٨٨/٢

(٦) له ترجمة في الكامل ١١٩/١١ والمنتظم ١٥٠/٩ ووفيات الأعيان ٢١٢/٥

واختلفوا في سبط العبادي فضبها الكامل بكسر العين ، وضبطها ابن خلكان
بفتح السين المهملة وتشديد الباء وقال : هذه النسبة إلى شيخ عباد وهي من

قرى مرو (٧) المنتظم ١٥٠/٩ (٨) المنتظم ١٥١/٩

(٩) وفيات الأعيان - نقلاً عن ابن السمعاني ٢١٢/٥

ولم يذكره أحد ضمن شيوخ العماد ، ولكن العماد نفسه ذكر في "نصرة الفترة" قصة مجيئ العماد إلى بغداد سنة ٥٤١ هـ وحضوره لمجالسه وسماعه العلم عنه وكتابتيه لكن مجالسه التي ألقاها في بغداد . وذكر ابن الأثير أن قدومه إلى بغداد كان بسبب سفارة من السلطان سنجر إلى الخليفة المقتدى .

وقد توفي العماد في بمصر مكرم في ربيع الآخر من سنة ٥٤٧ هـ بعد أن أصليح بين ملك شاه بن محمود بن محمد وبين بدر الخويزي من ملوك ذلك الزمان ، ونقل جثمانه إلى بغداد ودفن فيها .

(٢٩) ناصر الدين الأرجاني : أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني الملقب ناصر الدين ، وكان قاضي تستر وعسكر مكرم ، اشتغل في شبابه مدرسا في نظامية أصبهان ، وشغل بالأدب والشعر ، وله ديوان مطبوع .

وقد ولد ناصر الدين سنة ٤٦٠ هـ من الهجرة ، وتوفي بتستر في ربيع الأول سنة ٥٤٤ هـ - وترجم له العماد في قسم العجم من "الخريدة" وذكره في "نصرة الفترة" وقد امتدحه كثيرا فقال في الخريدة "عروا إن كان في العجم مولده فمن الصرب محتده ، وسلفه القديم من الأنبار ، ولم يسمح بنظيره سالف الأعصار ، أوسى الأسي خزرجه ، فسى النطق إباديه فارسي القلم فارس ميدانوسلمان برهانته" .

لم يذكره أحد ضمن شيوخ العماد سوى الأسنوي في ترجمته للأرجاني نفسه حيث يقول : واشتغل بالأدب فبلغ فيه المبلغ المشهور ، وبه تخرج العماد الكاتب .

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٦ (٢) الكامل ١٩/١١
 (٣) المنتظم ٥١/٦ ووفيات الأعيان ٢١٢/٥ وأما ابن الأثير في الكامل فجعل وفاته سنة ٥٤٦ هـ (٤) له ترجمة في الخريدة الجزء الخامس المخطوط الورقة ٢ وبعض أخباره في تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٢٤ وكذلك في وفيات الأعيان ١٥١/١ وطبقات الشافعية للأسنوي ١١٠/١ والعبر ١٢١/٤ وشذرات الذئب ١٣٧/٤
 (٥) وأرجان : بتشديد الراء وتخفيفها مع فتح الهمة وهي كور من الأهواز من بلاد خوزستان / الوفيات ١٥٤/١
 (٦) تستر : بالضم ثم السكون وفتح التاء الأخرى وأعظم مدينة بخوزستان وعو تعريب شوشتر - عجم البلدان ٢٩/٢ (٦) وفيات الأعيان ١٥٤/١
 (٧) قسم شعراء العجم الجزء الخامس المخطوط الورقة ٢
 (٨) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٢٤ (٩) قسم شعراء العجم الجزء الخامس المخطوط
 (١٠) طبقات الشافعية للأسنوي ٢٥٤/٢ الورقة ٢

وإن من الضروري أن ننبه إلى أن الأستاذ الأثرى ترجم لابنه رثيم الدين على أنه شيخ من شيوخ العماد معتمداً في ذلك على خبر فراه في كتاب "بدائع البدائيه" (١) لعل بن ظافر الأزدي الذي زامن من العماد مؤداه أن العماد أخبره أنه سمع جميع شعر القاضي أبي بكر على ابنه "ورجعتنا إلى ترجمة العماد للأرجاني الوالد فلم نجده يذكر مشيخته عليه وإنما ذكر أنه أخذ مسودات شعر الوالد من الولد واختار منها ما أعجب به وما طرب له" ونحن نرجح أن يكون الأب شيخاً للعماد وذلك لأسباب ثلاثة :- أولهما : أن الأب قد درس في نظامية أصفهان والعماد ظل في أصفهان إلى سنة ٥٤٤هـ .

وثانيهما : أن هذا النص الذي ذكره الأسنوي نص صريح في تخرج العماد على الأب .
وثالثهما : أن نص العماد صريح - أيضاً - في أخذه المسودات دون الدراسة وعدم استكمال اختياراته منها في عسكر مكرم .

٣٠) كثير بن سباطين : لم نجد له ترجمة ليما وصلت إليه أيدينا من مصادر ، وقد ذكره العماد في ترجمته لأحد شعراء السراي . حيث قال ما نصه : "وأخبرني الشيخ كثير بن سباطين إجازة ثم يعقب بعد ذلك قائلاً : "وأنا لي إجازة من كثير وسمعت عليه الحديث أيضاً" .

٢١) عبد الله بن علي المقرئ الحنبلي : أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد بن عبد الله المقرئ الحنبلي سبط أبي منصور الزاهد ، وقد ولد ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٤٦٤ هجرية ، وتلقن القرآن من عدة شيوخ وسمع الحديث من شيوخ آخر ، وقرأ القراءات على جده وغيره ، وقرأ الأدب وسمع أصحاب الكتب الكبار ، وصنف كتباً في القراءات ونظم الأشعار ، وأم في المسجد منذ سنة ٤٨٧ هـ إلى أن توفي ، وقرأ عليه خلق كثير .

يقول ابن الجوزي : " وكان أكابر العلماء يتصدونه ، وقرأت عليه القراءات والحديث الكثير وكان لطيف الأخلاق ظاهر الكياسة والظرافة وتوفي بكرة الاثنين الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ في غرفته ودفن في مقبرة الإمام أحمد بن حنبل .

(١) بدائع البدائيه ونص الخبر : وقد أخبرني العماد أبو حامد أنه سمع جميع شعر القاضي أبي بكر على ابنه عنه وطلب مني قراءته عليه فلم أتفرغ له وأجازني في جملة ما أجازني روايته عنه . ابدائع ص ٣٨٨ .
(٢) ابدائع ص ٣٨٨ (٢) الجزء الخامس من قسم العجم المخطوط الورقة ٢ والنص صريح يقول العماد رحلت وما استملت جميع أشعاره وجمي أثماره .
(٣) الخريدة القسم العراقي بشي ٢٢٣/١
(٤) له ترجمة في المنتظم ١٢٢/١٠ والخريدة القسم العراقي المخطوط الجزء الثاني ورقة ٨ وشذرات الذهب ١٢٩/٤ وترجمة له الأستاذ الأثرى باسم /أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد (٦) الخريدة القسم العراقي المخطوط ج ٢ الورقة ٨
(٧) المنتظم ١٤٢/١٠

ومن شعره قوله :

يا من تمسك بالدينا ولذتها	وجد في جملتها بالكذ والتب
علا عهت لدار سوف تسكنها	دار القرار وفيها مكنون الطلب
فمن قليل تراها وهي دائره	وقد تمزق ما جمعت من نساب (١)

ولم يذكره أحد ضمن شيوخ العماد ، ولكن العماد ذكره وترجم له وقال في مشيخته له : " ترددت إليه في حان التفقه والصبا ، وسمعت عليه الحديث ، وفزت بإجازته في جميع مسوعاته ومنفاته ، وتوفي وأنا ببغداد يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة " وأورد له بعض الأشعار والمقطوعات .

(٢٢) شمس الدين ذو البراعتين : تاج أصفهان أبو الفتح محمد بن علي بن محمد النطنزي (٣) سبط الأديب النطنزي : ترجم له العماد في قسم شعراء العجم فقال : بعد أن أورد اسمه كاملاً - " كان نبيل القدر ، نبيه الذكر ، رفيع المرتبة ، شريف المنقبة ، قسرب بنفسه من السلاطين وكانت نطنز من جملة إقطاعه وقد سمع العماد منه شعر الأبيوردي أثناء وجوده في أصفهان .

(٢٣) علي بن محمد بن الهيثم : ذكره سبط ابن الجوزي وعده من شيوخ العماد في (٤) أصفهان ولم نجد له ترجمة . وذكر العماد في قسم بلاد العجم أنه سمع شعر أبي (٦) اسماعيل الطفرائي من الامام محمد بن الهيثم ولا ندرى أيهما أصح .

(٢٤) أحمد الحريري : ذكر العماد أنه شيخه أثناء ترجمته لأبي الوفاء علي بن عيسى الحنبلي ، وأورده الأستاذ الأثري ضمن شيوخ العماد بهذا الاسم نقلاً عن مصورة (٨) طهران للخريدة ، إلا أننا وجدنا اسمه في مصورة نور عثمانية " أحمد الحريري " وربما كان ذلك من خطأ الناسخ ، ولم نغف له على ترجمته .

- (١) شذرات الذهب ١٢١/٤
- (٢) الخريدة القسم العراقي المخطوط الجزء الثاني الورقة ٨
- (٣) ترجمة له في الخريدة قسم العجم ج ٤ المخطوط الورقة ٤٤ وقد ترجم الأستاذ الأثري له ويبدو أن النسخ التي اتمت عليها لم تكن واضحة فأورد اسمه ناقصاً " ابن ذي البراعتين تاج أصفهان أبو الشيخ بن محمد النطنزي " مقدمة الخريدة القسم العراقي ٢٠/١
- (٤) نطنز بلد بين قسم وأصفهان
- (٥) مرآة الزمان سبط ابن الجوزي ج ٨ ن ٥٠٥/١
- (٦) في الخريدة قسم بلاد العجم الورقة ٧ من الجزء الرابع .
- (٧) الخريدة - مقدمة القسم العراقي ج ٢٧/١
- (٨) الخريدة - القسم المخطوط العراقي ج ٢ الورقة ٨

(١٥) جمال الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد بن الأخوة الشيباني :

ترجم له العماد في القسم العراقي من الخريدة وقال في اسمه وألقابه الأجل
الإمام الأجد جمال الدين فضل الإسلام أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد بن محمد بن
إبراهيم بن الأخوة الشيباني أحد الدهر ، وأفضل العصر ، خصه الله بالفضل الوافر ،
والعلم الكامل والأدب الشامل وهو أعجوبة العراق ، وجوابة الآفاق . . . ضنّت بمثلـه
الأعمار ، وطمّنت بذكره الأمصار ، وفرائده فرائد حسنات الزمان ^(١) وأكثر في مديحه
والثناء على علمه ومعرفته ، وقد درس العماد على يديه في أصفهان واستعاد منه الكثير ،
وهو من أكثر رواة حفظاً للأشعار والذين أخذ عنهم في جمعه للخريدة .

(٢٦) أسعد الميهني : أسعد بن محمد بن أبي مهسر أبو الفتح الميهني : بكسر الميم
وسكون الياء . . . نسبة إلى ميسنة قرية بين سرخس وأبيورد ، عالم كبير مشهور ، ذاع صيته
وانتشر ، وعلا مقامه ورقى ، وسمت منزلته وارتقت ، ودرّس بالانظامية في بغداد حين قدم
إليها سنة ٥١٧ هـ . وناظر فيها ، وانتشر ذكره في الأقطار ورحل إليه طلبة العلم .

وقد عدّه النعماني في "الدارس" ضمن شيوخ العماد ، ونفى الأستاذ الأخرى ^(٣)
أن يكون الميهني من شيوخ العماد ، وعلم ذلك بأسباب معقولة مقبولة وقال فيها :
"لأنه ورد إلى بغداد ، وخرج منها قبل مولد العماد بأصفهان ، ثم توفي سنة ٥٢٣
والعماد بأصفهان ابن خمس سنوات ، وقيل توفي في سنة ٥٢٧ ، ولم يدخل العماد
بغداد إلا في سنة ٥٢٤ ، ونحن نميل إلى هذا الرأي ونأخذ به .

(٣٧) أبو الفضل محمد بن عمر الأرموي :

وقد ذكره العماد أثناء ترجمته لأبي إسحاق الفيروزآبادي وصرّح بأنه رآه ببغداد
وتكلم معه في المسائل وسمع عليه الحديث وله منه إجازة ^(٥) .
مؤلاً . علم شيوخ العماد في فارس والعراق والشام ومصر ، وحاولنا استقصاءهم
في مختلف المصادر التي ترجمت للعماد أو في كتب العماد نفسه ، ولا ندعي أننا

- (١) الخريدة - القسم العراقي المخطوط ج ٦ / الورقة ١٣
(٢) له ترجمة في طبقات الشافعية للمبكي ٢٠٢ / ٤ والمنتظم ١٤٦ / ٩ وشذرات الذهب
٨٠ / ٤ والبداية والنهاية ٢٠٥ / ١١
(٣) الدارس ٤٠٨ / ١ (٤) مقدمة الخريدة الجزء العراقي الاول ٣٥ / ٣٤
(٥) ذكره العماد في الخريدة قسم بلاد العجم الجزء الخامس المخطوط الورقة ٣٥

استوفيناهم ، لأن العماد تنقل كثيراً واكتفى بالعديد من العلماء المتخصصين في أنواع المعارف والعلوم في زمنه ، فأخذ عنهم ما استطاع ، وساعده على ذلك حب في العلم وسعى في الحصول عليه وتواضع في طلبه . ونعتقد أن للعماد شيوخاً آخرين ، فقد درس الرياضيات ولم يشر إلى شيوخه في ذلك سوى إشارة صغيرة إلى محمد بن عيسى اليماني الذي عُرف بالرياضيات وحاول العماد الوصول إليه ، ونجح بعد لأي ولكنّه وجدّه نافر الطبع فتركه بعد أن حلّ عليه بعض المسائل .

قال في القسم المصري ما يأتي : وهو أستاذ في علم الهندسة (٢)

وأشار العماد إلى شيخ آخر ربما كان أحد شيوخه في النظامية وهو الصفوة البالسي ففي ترجمته للفقير أبي المجد محمد بن ابالسي قال : " وأنشدني سيّدنا الصفوة البالسي معيدنا " وقال مرة ثانية : حكى لي سيدنا الصفوة البالسي المعيد بالنظامية ببغداد (٣)

ودليلنا على أن العماد كان له شيوخ آخر ما ذكره في ترجمته للشيخ أبي العز القانسي المقرئ - حيث قال : " وقد لقيت بواسط من مشايخ القراء من قرأ عليه " ثم قال : " ولى إجازة من مشايخ رروا عنه " (٤)

هذا وقد حاولنا استقصاء شيوخه قد راستطاعتنا - مشيرين من خلال ترجمة كل منهم إلى أهم علومه وأسمى صفاته ، وأظهر خصائصه وأوصافه ، وأبين منازعه - رغبة في التعرف إلى ثقافة السواد بمعرفة ثقافات شيوخه ، وأثر كل واحد منهم فيه ، وحباً في الوقوف على أخلاقه وسلوكه لنخرج في النهاية بأن جميع شيوخه كانوا من عليّ القوم وأعلم العلماء وأشهر الأدياء ، وأبلغ الشعراء ، وأئقّ الفقهاء ، ولذا فصّحت هذه الثقافات في عقل العماد وتفكيره فانكبّ على العمل الجاد ، رحلةً وجهاداً ، وعلماً وتالياً ودرساً وجملاً ، حتى أصبح علماً كبيراً ، وأديباً خطيراً طوى جناحيه على معارف عصره وعلومه ، ولا يعني ذلك أنه كان بعيداً عن المناقض فالكامن في الدنيا الغانية غير موجود ، ولكنّه كان من خيرة الناس عملاً وعلماً .

(١) الخريدة - قسم الشام ج ٣ ص ١١٠

(٢) الخريدة - القسم المصري ٢٠١/١

(٣) الخريدة - القسم الثاني ج ٢/٢٢٦ ويلاحظ أن كلمة " سيّد " الموجودة في عيّنات التدرّيس بالجامعات الآن كانت معروفة من حوالي ألف سنة بين المسلمين .

(٤) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ ص ٢٥٣/١

ولقد لفت نظرنا أن كثيراً من شيوخ العماد الذين كانوا يسكنون في فارس وخراسان والشام ومصر يرجعون في أصولهم إلى العرب الأتقح من قريش وتيم والأوس وشيبان أمثال : أبي النجيب السهروردي وابن عمرو والحسين بن يحيى وأبي علي الأعمى وجمال الدين بن الأختوة ، ومحمد بن عبد اللطيف الشجندي وأبي طاهر بن عوف الزنفرى وغيرهم ، وجميع هؤلاء ذكرهم العماد في كتبه وترجم لهم ونسبهم إلى أصولهم العربية الأولى . وقسى هذا ما يدحض كلام المستشرقين وأتباعهم من المتفرنجين الذين دأبوا على خلع كل فضيلة عن العرب وإيلاسهم كل رذيلة ، وزعموا أن العلماء المشهورين كانوا من الأم الداخلة في الإسلام ، وليس في العرب من يذكر أو يقدر من العلماء .

٤- تاليفه :

حين دخل العماد دمشق سنة ٥٦٢ واستقبله نواب قاضيها ومديرها كمال الدين الشهرزورى زميل العماد في النظامية ، اتخذ من المدرسة النورية مكاناً لمسكنه ، وظل فيها يلتقى بعض الدروم في الفقه والحديث إلى سنة ٥٦٧ حين ولاه نور الدين أمر التدريس فيها ، فأصبح مدرسها وشيخها ، وقد ذكرنا قصة زيارتها التي قام بها نور الدين ، والهدية التي قدّمها العماد لنور الدين ، ومنذ أن وليها أصبحت تسمى باسمه ، وأطلق عليها العمادية .

تقع المدرسة العمادية - كما يقول صاحب "الدارس" - داخل بابي الفسرج والفراديس ، وقد اختلف في سبب تسميتها .
فقال ابن شداد في "الأعلاق الخظيرة" : "بانيها عماد الدين إسماعيل بن نور الدين ، والواقف عليها صلاح الدين ، وأول من درس بها عماد الدين الكاتب ثم من بعده عزيز الدين ولده" .

وينقل النعماني هذا القول ثم ينفقه قائلاً : "وإنما بناها نور الدين محمود بن زنكسى الشهيد رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات الخضر بن شبل" .

وقد ذكر العماد في "البرق الشامي" أمر العمادية وتدرسه فيها فقال :
في رجب من هذه السنة ٥٦٧ هـ فوّض إلي أمر المدرسة التي بحضرة حكّام القصر وعمّول

(١) الدارس ١/٤٠٦

(٢) الأعلاق الخظيرة - تاريخ مدينة دمشق ص ٢٣٧ ونظمتها عن النعماني في الدارس

١/٤٠٧ وكذلك نقلها عن الشيخ عبد القادر بدران في كتابه مناداة الاطلال

ومسامرة البخيار ص ١٣٦ (٣) سنا البرق الشامي ١/١١٦

على في التدريس بها والنظر في أوقافها^(١)

في هذه المدرسة كان العماد يلقى دروسه في الفقه والحديث والخلاف والمسائل الشرعية والأدب وغيرها . وتلقى على يديه الكثير من التلامذة ولكننا نود أن نلفت الأنظار إلى أن العماد كان يتغيب عن المدرسة شهراً طويلاً في كل سنة لمرافقة نور الدين - صلاح الدين من بعده في حروبهما مع الفرنج وجهادهما لهم . وظل الحال على هذه الصورة إلى ما بعد وفاة صلاح الدين بقليل ، حيث فقد العماد مركزه ، فهاد إلى مدرسته يلقى فيها دروسه ويؤلف فيها كتبه ، وكان قد بلغ من العمر سن الشيخوخة ، ومع ذلك لم تهدأ له قدم ، فقد وجدناه يسافر إلى مصر مرتين ، بعد وفاة صلاح الدين ، ونفى دمشق اختلف إليه طلبة العلم ، وقد سكت معظم كتب التراجم عن ذكر تلاميذه ، ولكن نجد إلا بضعة منهم ذكرهم ابن الساعي والسبكي وابن الدبيثي والنعمي .

أط ابن الساعي فقد ذكر من تلامذته القاضي عمر القرشي والمدل ابن سميد^(٢) الشاهد . وذكر ابن الدبيثي عمر القرشي ، وأورد السبكي أسماء خمسة منهم : ابن خليل ، والشهاب القوسى والعزم عبد العزيز بن عثمان الإربلى والشرف محمد بن إبراهيم ابن على الأنصارى والتاج القرطبى^(٣) ، وذكر النعمي ناقلاً عن الأسدى ثلاثة ممن وردوا عند السبكي هم : ابن خليل والشهاب القوسى وشرف الدين محمد بن إبراهيم .

وقد ذكر أبو شامة في " الروضتين " نقلاً عن العماد أنه خرج في الكتابة على يديه نسيبه جمال الدين أبا الفتح إسماعيل بن محمد بن عبيد بن كويه .

وهذا يكون مجموع تلامذته المذكورين ثمانية فقط ، وأجاز كتابة لثنين هما ابن الدبيثي وسبط ابن الجوزى ولم يتطرق لموضوع تلاميذه من المحدثين سوى الأستاذ مظفر سلطان الذى رجح أن له تلاميذ معروفين ولكنه لم يستطع معرفة أسمائهم ، ولم يجد ممن تلامذته إلا نسيبه جمال الدين بن كويه^(٤) وعذره أن كتب ابن الساعي وابن الدبيثسى والسبكي والنعمي كانت حين أعد بحثه مخطوطات وربما لم تكن موجودة في البلاد العربية .

(١) سنا البرق الشامى ١١٩/١

(٢) الجايح المختصر ج ٦١/٩ - ٦٢

(٣) المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثى ١٢٣/١

(٤) طبقات الشافعية للسبكي (٦٧/٤ - ٦٨)

(٥) الدارس (٤٠٨/١) (٦) الروضتين ١٩٥/٢

(٧) المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثى ١٢٣/١

(٨) مرآة الزمان ج ٨ و ٨٠٥

(٩) العماد الأصفهاني - مظفر سلطان (١٢٦/١٢٧)

وقد ذكر الأستاذ الأثرى بعضهم في هامش الصفحة ٢١ من ترجمته للعماد ولم

يترجم لهم وهم :

(١) أبو المحاسن القرشي : القاضي الإمام الحافظ عمر بن علي بن الخضر بن عبد الله ابن علي الزبيرى الدمشقى ، الذى ولد بدمشق سنة ٥٢٦ هـ وتعلم فيها وسمع من ياقوت الحموى وغيره ورحل إلى بغداد وصحب أبا النجيب السهروردى شيخ العماد وغيره ، وقد علت منزلته حتى أرسل من الديوان العزيز ببغداد إلى نور الدين زنكى ولم يتصد من العمر ثلاثين عاماً .

وقد سمع منه الكثير من طلاب العلم ، وامتدحه الذين ترجموا لحياته قال ابن الديبى : ثقة حافظ عنى بطلب الحديث والسمع والكتابة وكتب ببلده وحلب وحسبان والموصل والحرمين وبغداد وسمع ورزق الفهم فى الحديث " وقال أيضاً : " وأجاز لى مروياته " . ويبدو أنه اشتغل بالتاريخ وصنف كتاباً لأننا وجدنا فى " مرآة الزمان " فى ترجمة الحظيرى هذه العبارة " وذكره القاضى أبو المحاسن عمر بن علي القرشى فى تاريخه " (٤) وقد توفى فى ذى الحجة سنة ٥٧٥ هـ ، وعده من تلامذة العماد ابن الساعى فى مختصره وابن الديبى فى تاريخه أيضاً : وهو الذى حفظ لنا تاريخ مهلاء العماد الكامل إذ يروى ابن الساعى أن القاضى سأل العماد عن مولده فقال : " فى يوم الاثنين الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥١٩ " وذكر ابن الديبى أن " عمر القرشى سمع من العماد ببغداد " .

(٢) ابن خليل : يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله الدمشقى الأديبى الملقب بالحافظ الإمام الرحان مسند الشام شمس الدين أبو الحجاج محدث حلب .

(١) له ترجمة فى تذكرة الحفاظ للذهبي ١٣٦٥/٤ والمبر ٢٢٤/٤ وذكر فى مرآة

الزمان ٢٩٧/٨ وشذرات الذهب ٢٥٢/٤

(٢) تذكرة الحفاظ ١٣٦٥/٤ (٣) المختصر المحتاج إليه ١٢٤/١

(٤) مرآة الزمان ٢٩٧/٨ (٥) تذكرة الحفاظ ١٣٦٥/٤

(٦) الجامع المختصر / ابن الساعى ٦١/٦

(٧) المختصر المحتاج إليه ١٢٣/١

(٨) له ترجمة فى تذكرة الحفاظ ١٤١٠/٤ وذيل طبقات الحنابلة ٢٢٤/٢ والسير

(٢٠١/٥)

(٩) تذكرة الحفاظ ١٤١٠/٤

وقد ولد بدمشق سنة ٥٥٥ هـ وتماغل بالعمل والكسب وإلى أن بلغ مبلغ الرجال
(١) وصار ابن ثلاثين سنة هـ ثم فتح الله سبحانه قلبه للعلم هـ فأقبل عليه بشرف ورغبة هـ وحبيب
إليه هو طلب الحديث فأنصب إليه بكلية " وسمع بدمشق أولاً ثم رحل إلى بغداد وسمع
بها ثم إلى أصفهان هـ وفي دمشق سمع من كبار علمائها الحافظ عبد الفنى وابن أبى
عصرون وربما سمع في هذه الفترة من صاحبنا العماد هـ ثم رحل بعد ذلك إلى مصر
(٢) فسمع من شيوخها هـ .

توفى ابن خليل في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٦٤٨ في حلب - على ما ذكر
(٣) ابن رجب " .

وقد ذكره ضمن تالفة العماد السبكي والنعمي فقالا : روى عنه ابن خليل (٥) .

(٣) الشهاب القوصي : إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن بن البرجى بن المؤمل بن
محمد بن علي بن إبراهيم بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي
(٦) القوصي الشافعي المشهور بشهاب الدين هـ .

(٨) ولد سنة ٥٧٤ بقوى ورحل إلى القاهرة سنة ٥٩٠ ثم إلى دمشق سنة ٥٩١ وسمع
من كثير من شيوخ عصره هـ . وقد نص صاحب الطالع السعيد " و " لسان الميزان " على أنه
أخذ عن العماد هـ . فقال صاحب " الطالع السعيد " وسمع من أبي عبد الله محمد بن
محمد الأصفهاني الكاتب هـ . وكتب عنه جماعة من طلاب العلم والأدب هـ وجمع
لنفسه مجمعا يشتمل على أربعة مجلدات سماه : " تاج المعاجم " (١٠) .

(١) تذكرة الحفاظ ١٤١٠/٤ وذييل طبقات الحنابلة ٢٤٤/٢

(٢) تذكرة الحفاظ ١٤١٠/٤

(٣) تذكرة الحفاظ ١٤١٠/٤ وذييل طبقات الحنابلة ٢٤٤/٢

(٤) ذييل طبقات الحنابلة ٢٤٤/٢ وتذكرة الحفاظ ١٤١٠/٤

(٥) طبقات الشافعية ٩٧/٤ والدارس ٤٠٨/١

(٦) له ترجمة في الطالع السعيد ص ١٥٧ والعبير ج ٢١٤/٥ والدارس ٤٣٨/١

وحسن المحاضرة ٢٣٢/١ وميزان الاعتدال ١٠٤/٢ والبداية والنهاية ١٨٦/١٣

والنجوم انزاغرة ٣٥/٧ وشذرات الذهب ج ٢٦٠/٥ ولسان الميزان ٣٩٧/١

(٧) الطالع السعيد ص ١٥٧ ولسان الميزان ميلاده سنة ٥٦٤ ج ٣٩٧/١

(٨) الدارس ٤٣٨/١

(٩) الطالع السعيد ص ١٥٧ ولسان الميزان ٣٩٨/١

(١٠) في كشف الظنون يسميه معجم الشيوخ ج ١٧٢٥/٢

ويبدو أن هذا الشيخ لم يكن ثقة في بعض مواضع من كتابه (١) وقد اتفق مترجموه على ذلك أمثال الأديب والذهبي والنسيمي وابن العماد والحنبلي . ومع ذلك امتدحوه وأثنوا على فضله وعلمه في غير هذا المعجم (٢)

وقد عمل في دمشق وكيلًا لبيت المال في زمنه ، وتوفي بها يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٤ ، بعد أن وقف داره لتكون دارًا للحديث . وتسمى دار الحديث القوصية ، وهناك مدرسة أخرى تسمى باسمه وعلى " المدرسة القوصية " ويغلب على ظن المؤرخين أنه هو الذي وقفها .

(٤) جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد بن كويه :

لا نعرف عنه إلا ما ذكره صاحب " الروعيتين " ناقلًا عن العماد . نفى أخبار سنة ٥٨٧ قال أبو شامة :

وفيها توفي نسيب العماد وهو جمال الدين سابع عشر ذي الحجة بدمشق قال العماد : " وكنت أستنيبه في كتابة الإنشاء وخرجه ، وقلبت في مراتب المعالي ودرجته ، واعتمد السلطان عليه في الترس إلى سلاطين المعجم وخواص الأمراء منهم والخدم ، وكان نبيلًا نبيلًا كريمًا وجيهاً .

وقد ورد ذكره في أخبار سنة ٥٨٥ حينما أرسله السلطان رسولاً من قبله للسفارة بين ركن الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل آخر الملوك السلاجقة وبين عمه قسزل أرسلان ، لأن السلطان كان مشغولاً في الحروب الصليبية ، ولم يكن عنده الوقت الكافي لحل المشاكل بين السلاطين المسلمين .

ويعلق أبو شامة على اختيار جمال الدين لهذه السفارة قائلاً : " ولكنه نسيب العماد " (٧) يعني أن الأختيار تم بتأثير من العماد . ولا ندري صلة النسب هذه . وربما كان العماد متزوجاً من ابنته وهو ما يغلب على ظننا ، لأن العماد تزوج وسنه تزويد على الخمسين .

-
- (١) الطالع السعيد ص ١٥٧ والنسب ٢١٤/٥ وميزان الاعتدال ٢٢٥/١
 - (٢) الطالع السعيد ص ١٥٧ والنسب ٢١٤/٥
 - (٣) الطالع السعيد ص ١٥٧ (٤) الدار ١/٩٢٧ و ٤٢٩
 - (٥) الدار ١/٤٣٩ وعلى بالقرب من الرحبة داخل باب شرقي أحد ابواب دمشق .
 - (٦) الروعيتين ج ٢/١٩٥ (النيل)
 - (٧) الروعيتين ٢/١٤٩ (النيل)

- (٥) شرف الدين محمد بن ابراهيم الأنصاري : ذكره السبكي والنعمي ضمن تلاميذ العماد الذين أخذوا عنه العلم ورووا عنه الحديث ولم نعثر له على ترجمة .
- (٦) التاج القرطبي : ذكره السبكي ضمن تلاميذ العماد ولم نعثر له على ترجمة .
- (٧) المز عبد العزيز بن عثمان الإريلى : ذكره كذلك السبكي ضمن تلاميذ العماد ولم نعثر على ترجمته .

هؤلاء هم تلاميذ العماد الذين ذكرهم المؤرخون ، وإن كنا نعتقد أن هناك منهم عددًا أكبر وخاصة في الكتابة ، وتعود قلة عدد علم إلى أن العماد لم يجلس للتدريس في مدرسته العمادية إلا فترات متقطعة على تلك الأوقات التي كان يمور إليها مع نور الدين أو صلاح الدين من الحروب المتتابعة أو في الفترة الأخيرة من حياته ، ويمرود كذلك إلى إسماعيل المؤرخين لذكر تلامذته ، وقد وجدنا سبط ابن الجوزي يمتدح بأنسه أخذ عنه العماد إجازة ^(٤) ومثله فضل ابن الديبشي الذي يقول : وكتب إلينا بالإجازة وهو يدل على مدى علم العماد ومعرفته وثقافته .

ولعل ما كتبناه وجمعناه من أسماء تلامذته فيه الرد الكافي على الأستاذ مظفر سلطان الذي ينكر أن يكون للعماد تلميذ نابهن ولم يذكر منهم سوى نسيبه جمال الدين السابق الذكر ، ولم يستطع أن يعرف أسماء عمر القرشي وابن خليل وهما من الحفاظ المشهورين ، ولم يسمع عن الشهاب القوسي الذي كان محدثًا ووقف داره لتكون دارًا للحديث في دمشق ، ولم يقرأ عن ابن الديبشي وسبط ابن الجوزي اللذين أخذوا العلم عن العماد إجازة وهما مشهوران شهرة فائقة ومن المؤلفين الكبار ، وإن كنا نعتذر للأستاذ بأن معظم الكتب التي أوردت أسماء هؤلاء كانت في الفترة التي كان يعد رسالته فيها مخطوطات لم تظهر إلى عالم الطباعة الحديثة .

-
- (١) طبقات الشافعية للسبكي ٩٧/٤ والدارس ٤٠٨/١
(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٩٧/٤
(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٩٧/٤
(٤) مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي ج ٢ ق ١/٥٠٥
(٥) المختصر المحتاج إليه ١٢٣/١
(٦) العماد الأصفياني - مظهر سلطان ص ١٢٦ - ١٢٧

خامساً : صفاته وأخلاقه ومنزلته :

إنه لمن الصعوبة البالغة بمكان أن نرسم للعماد صورة جسمية واضحة المعالم ظاهرة الميزات ، فكما سكت مترجمو حياته عن كثير من أحداثها سكتوا كذلك عن رسم صورة له ، ولم يستنوا كذلك بذكر شيء من صفاته الخُلقية وسلوكه إلا نادراً .

وأول من حاول أن يرسم له صورة جسمية هو الأستاذ مظفر سلطان ، فقد لجأ إلى شعره ونثره لاستخراج صورة له ، فأتى بثلاثة أمثلة من أجل هذا الهدف : أولهما : قصة إعدائه القفرة للشاعر سبط ابن التعاويذي ، وثانيها : وصفه لحسان أصفهاني وأظلمها ، وثالثها : استعماله دواة من الفضة أمام السلطان صلاح الدين . ثم بعد ذلك رسم له صورة لا نرى أنها تتطابق هذه الأمثلة ، فقال في تصويره له : إذا وقفنا عند هذه القبضة من اللوحات والأخبار وقفة متعمنة جسرنا على بعض القول فسي احترام قولاً يرسم صورة خلقية تقريبية للعماد ترىنا أنه كان مديد القامة فارع العمود ، وأنه كان مليح الصورة ، حسن الخلق أو أنه لم يكن دميم المخلقة قبيح الصورة في أقبل تقدير ، وأنه كان نظيف الثوب ، أنيس الزنى ، معنياً بالزخرف والزينة ، لا يتخرج عن استعمال الفضة والذهب والتخلي بهما بين يدي سلطان متكشف مستمسك بمعالسهم الشريفة أي استمسك (٤) .

والمنطق المعقول قد يقرر أن وصف الجميلات والحسان من قبل الكاتب لا يجعله جميل الصورة ، كما أن وصفه لقفرة يلبسها رجل فارع الطول لا يجعله طويلاً ، واستعماله لدواة من فضة لا يجعله محباً للزخرف والزينة والمسألة مجرد احتمال لا غير .

وقد جاء الأستاذ الأثري من بعده ليرسم لنا صورة تخالف ما رسمه الأستاذ مظفر تمام المخالفة معتمداً على نصين : أولهما : نص وجدته في مجمع الآداب لابن الفوطى يقول فيه : وكان العماد كوسجاً وفي عينه عمش (٥) ، وثانيهما : نص وجدته في الجامع المختصر لابن الساعى " وراة الزمان " يقولان فيه " كان بالعماد فتور إذا نظر إليه ، فإذا أخذ القلم وكتب جاء بالسجائب " ويبدو لنا أن هذا النص مأخوذ من

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٥٣

(٢) العماد الأصفهاني - مظفر سلطان (١٠٨) (٣) المرجع نفسه ١٠٨

(٤) المرجع السابق . مظفر سلطان (١٠٨)

(٥) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ص ٨٤٥/٢

(٦) الجامع المختصر لابن الساعى ٦١/٦ وراة الزمان ٢٢٥/٨ وفي مقدمة العجز:

الاول السراقي ج ١/٢٤

الكروج : الذى لا يشر
على عا ضيه ، والنقى الخطه
من العجز ، والكروج نوح
من الأستاه ، والكروج نوح
من السمك (عنه) تاريخ المروكى

قصة القاضي الفاضل مع جلسائه حين طلب منهم تشبيه العماد بعد خروجه من مجلسه ثم نقله الصدوق في "الوافي" على الصورة الآتية نقل عن شمس الدين محمود المروزي قال: "كنت بحضرة القاضي الفاضل رحمه الله وكان العماد حاضرًا عنده ، فلما انفصل ، قال للجماعة : بم تشبهون العماد ؟ وكان عنده فترة عظيمة وجمود في النظر والكلام ، فإذا أخذ القلم أتى بالنثر والنظم ، فكلمهم تشبيه بشيء فقال : ما أصبتم ، هو كالزمن — ظاهره بارد وباطنه فيه نار" ^(١) ويعلق الأثر بعد إيراده لهذه النصوص قائلاً : "وظاهر من هذا أن مظهر العماد كان لا يروق الناظرين إليه فكانوا يسيئون لذلك تنديره" ^(٢) .

وجاء من بعد عما الدكتور رمضان ششن في مقدمته لكتاب "سنا البرق" لينقل هذه الصفات نفسها عن ابن القوطي وابن الساعي وغيرهما ^(٣) .

لهذا كله يبدو أن العماد كان خفيف سسر العارضين ، ضعيف البصر ، لسان عيان تدمعان ، ومظهر لا يروق الناظرين إليه مما يوحي إلى مشاعديه بصورة غير صحيحة عن مخبره ، ولم يستطع غير الفاضل أن يعرف مخبره الحقيقي ، ولم يأخذ بظاهر شكله أما طوله أو قصره وبياض وجهه أو سواده فلا ندرن عنهما شيئاً . ومن هنا نجد أن الصورة التي تخيلها الأستاذ مظهر بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، لأنه لم يرجع فيها إلى هذه الصور التي ذكرنا القديماً — مع قصرنا — بل رجع إلى وصف العماد للقروة والحسان واستعماله الدواة الفضية .

ومع هذا فالإنسان بخلقه وسلوكه لا يجمان وجهه وملاحظة منظرة .

أما صفاته الخلقية فإننا نستطيع من خلال كتابات العماد نفسها ، ومن شهادات بعض المؤرخين معه أو ضده أن نرسم له صورة خلقية وسلوكية وقيل أن نبدأ نود أن نسأل

أنفسنا بعض الأسئلة ثم نحاول بعد ذلك أن نجيب عليها :

أولاً : هل كان العماد تقياً ورعاً أم مفاقاً فاسقاً ؟

ثانياً : أكان العماد رجلاً متواضعاً أم كان مغروراً متكبراً ؟

ثالثاً : أكان العماد ليناً رحيماً أو صلباً قاسياً ؟

رابعاً : هل كان العماد يجب جمع المال بأي وسيلة أو بالطرق المشروعة في زمنه ؟

(١) الوافي بالوفيات ١٣٩/١

(٢) مقدمة القسم العراقي من الخريدة ٥٥/١

(٣) مقدمة سنا البرق للدكتور رمضان ششن ١٢/١

علم هذا السائل في هفت الأسئلة

- خامساً : هل كان العماد رجلاً شريعاً أو زانياً حقيراً وسكيراً مدمناً ؟
- سادساً : هل كان يحب المصلحة العامة للدولة ، ويسعى بالصلح بين المتخاصمين من قوادها أم كان يحب مصلحته الخاصة ويسعى لتفريق الشمل وبخثرة الجهود ؟
- سابعاً : هل كان وقيماً لمخده ومييه أم مصلحياً مدافعاً ؟
- ثامناً : هل كان نزقاً ميالاً إلى المناقضة والاستعلاء والتسلط أم لا ؟

هذه العبارة كأنه
ينبغي أن تسمى
الأسئلة

لهذه الأسئلة وغيرها ثارت في ذهني طيلة فترة جمعي لمادة لهذا البحث ، وفكرت فيها طويلاً ووجدت من المؤلفين من يمتدحه ويشنى عليه ولا يرى فيه عيباً ، ووجدت غيرهم يتهمون عليه ويظنون في سلوكه وأخلاقه ويرونه انساناً شاذاً أنانياً زانياً مجباً للما كان سفاكاً للدماء .

ومن الذين أثنوا عليه ابن الساعي الذي قال : " كان فاعلاً عالماً ^(١) ومثله قال ابن الديبشي : ومنهم كذلك المنذرى الذي قال مشيداً به : " هو إمام البلخاء وشمس الصحراء وقطب رحى الفضلاء أشرفت أشبه فضائله ، وأتارت ، وأنجذت الركبان بأخباره وأغارت " وقال ابن النجار : ^(٢) كان من محاسن الزمان لم تر الميرون مثله ^(٣) وقال ابن كثير : " هو قهرم القاضي الفاضل ، واشتهر في زمنه ومن اشتهر في زمن الفاضل فهو فاضل " .

ومن القريق الثاني الصندي والأستاذ مظفر سلطان وعارف تامر في رواية له وسوف نناقش اتهاماتهم له أثناء إجابتنا عن الأسئلة السابقة .

(١) مختصر ابن الساعي ج ١ / ٦١

(٢) مختصر ابن الديبشي ١ / ١٢٣

(٣) الدارمي ١ ص ٤١٠

(٤) الدارمي ١ / ٤١٠

(٥) البداية والنهاية ٣٠ / ١٣

(٦) الصندي في الواقي والخفيث المسجوم وتسام المتون ومظفر سلطان في كتابه عسسن العماد وعارف تامر في رواية له .

أولا : تقواه أو فسوقه:

بدأ العماد حياته العملية مع الوزير ابن بليرة ، وابن عبيرة اشتهر بالفنسل والتقوى والورع ، وانتقل بعد وفاته إلى الشام ، وعمل مع نور الدين الذي اشتهر بالتقوى والورع والإيمان العميق والجهاد الدائم وشهرته هذه لا تحتاج إلى مناقشة ، وحين توفي لم يستطع العماد أن يعثر مع مجموعة من القادة والأمراء الطامعين نفارقتهم وتركهم وشده رحاله إلى الموصل فاصداً بنجاح فلما علم بمقدم صلاح الدين السلطان المجاهد كراً عائداً إلى دمشق وعمل معه كاتباً لسرايره كاتباً لأخباره ، مسجلاً لآثاره ، مقيماً معه ، مترجماً به ، وصلاح الدين كما هو معروف ومشهور من المؤمنين القلائد الذين عاشوا في ذلك الزمن وأخباره في " الروضتين " وسيرة ابن شداد وانبهق السامى والفتح القدسى ومفرج الكروب " وغيرها تعطينا صورة صادقة عن تقواه وإيمانه العميق .

من هنا نرى أنه لا يتفق لثلاثة من الأتقياء الورعين أن يقربوا رجلاً منافقاً فاسقاً ولهذا نستطيع القول بأن العماد كان تقياً ، وزيادة في التأكيد نضرب بعض الأمثلة التي ذكرتها عن نفسه في كتبه : " من ذلك أن السلطان صلاح الدين كان يتخذها إماماً في الصلوات إذا تخيب إمام السلطان الخاص . وكان يداوم على الصوم للسنة والفرص حتى في أيام الجهاد يقو في ذلك : " وفتح الله علينا بعد ثامن شوال حين فرغنا من صوم ست منه بعد صوم رمضان ، وجمعنا بين فضيلتي الصوم والجهاد " وربما أنك منكم

وقال : " إن هذه الشهادة وسابقتها من كلام العماد نفسه ، والرجل لا يفضح نفسه قلناه له : وكيف يرافق صلاح الدين ونور الدين من قبله - وعما مؤمنان تقيان ومجاهدان باسلان - ويقبلانه دون صلاة ولا صيام . ثم هذه الحياة الجادة التي عاها متنبلاً واحداً مجاهداً ومدرباً مناقشاً معلماً متعلماً ، هل يرضى بهذه الحياة إلا كل من وطب نفسه لله . إننا لا نعتقد ذلك . وما يزيدنا اطمئناناً إلى ذلك شهادات السابقين له بالفضل والخلق القويم ، فضلاً عن شيوخه الذين تلقى العلم عنهم وجلهم من أصحاب الفضل ، ولا شك أن العماد تأثر بهم لا في علمهم فحسب ولكن في سلوكهم وأخلاقهم .

ثانياً : العماد المتواضع أو المفرور المتكبر :

عاش العماد حياة مديدة وعمراً طويلاً ، قابل خلالها آلاف الناس المؤلفسة ،

(١) الفتح القسى ص ٦٦٠

(٢) الروضتين ج ٢ (النيل) ص ١١٠

وكان له أصدقاؤه كثيرون تجمعهم المودة والمحبة ، وظل على صلة وثيقة بهم يرأسهم ويهدى بهم حتى بعد أن وصل إلى مركزه السامي ومقامه العالي في الدولتين النورية والصلاحية ومن هؤلاء سبط ابن التماويدي والقاضي عبد المنعم الواسطي والكمال بن حراز وغيرهم ، وقد ترجم العماد لهم وأثنى على مودتهم ، وما يدلنا على تواصله أنه ظل وفيًا لكمال الدين بن الشهرزوري والقاضي الفاضل ولأولاد الوزير ابن عبيدة ، وظلت علاقته متينة مع الفاضل بعد وفاة السلطان ولم يوجه أحد النقد له في هذا المجال ، وإنما كان النقد موجهاً إلى غروره في كتابته وقلمه وفخره بنفسه أحياناً .

أما فخره بقلمه وكتابته فذاك أمر وارد فالعماد كان يرى أنه أعظم كتاب زمانه ولا يعترف لأحد بالتفوق عليه سوى الفاضل ، وربما كان هذا الاعتراف مجاملة ووفاء للرجل الذي ظل يعضده ويسنده طيلة حياته ، والأمثلة على ذلك كثيرة وعديدة ومن ذلك فخره بكتابته في مقدمته للفتح القدسي حيث يقول : " هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدياء الذين يتطلعون إلى الضر المنجالية وبين المستخبرين الذين يستشرفون السيرة المستحلية يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والمعقول فإن فيه من الألفاظ ما صار به لساناً من السنة العجائب التي نوردها " . وهو يفتخر بقلمه ويسرى أن أثره في الحروب أشد وأغرى من فعل الجيوش الجرارة حيث يقول : " ولست بيميد في تقييد هذه المفاخر وتشييد هذه المآثر من رجال الطعن والضرب الذين فتحوا بين يديه وأوجبوا الحق عليه ، بل حق من حقوقهم أوجه وأوجب ، وقلبي من ميوفهم أغرى وأضرب " . ومن رماحهم أخطى وأخطب ، ومن سهامهم أنجى وأنجب ، ومن قسيهم أكسى وأكسب " ومن ذلك افتخاره بقلمه في يوم فتح القدس إذ يقول من حديث طويل : " وهو الذي يجمع الجيوش ويرفع العروش ويوحش المستأنس ويؤنس المستوحش " .

وكان يفتخر على كتاب عصره ولا يجد منهم له مشابهاً ولا قريناً يقول في الرسائل التي كتبها كتاب ديوان صالح في فتح القدس : " وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه . . . على إنشاء كتب ما ارتضاها واقتضاب محاربي ما اقتضاها وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز فقال : " لهذا من هو أقوم به وعتاني . . . " فلما جاء العماد وسلم السلطان

(١) مقدمة ديوان سبط ابن التماويدي نقلاً عن ابن خلكان ص ٥٩

(٢) الخريدة القسم العراقي ج ٤ ق ٤٢٥/٢ - ٤٤٨

(٣) الخريدة القسم العراقي ج ٤ ق ٢ ص ٤٥١

(٤) الفتح القدسي ص ٤٢ مقدمة العماد

(٥) يعني أن قلبه أقطع وأشد أثراً

(٦) يعني أن قلمه أجلب للمجد والشرف والنصر في مقدمة العماد ص ٥٥ في الفتح القدسي

عز وفضل

الكتب له وقراءها قال فيها : " فاعتبادنيها فما استجدتها واستلمحتها فما احتلمحتها
وشمتها وبها سهك " (١) وغير هذه الأمثلة كثيرة .

ثالثاً : العماد اللين الرحيم أو الصلب القاسي :

اللين والرحمة صفتان أصيلتان في البشر ، والقسوة والجريمة صفتان يتكسبهما
الإنسان من البيئة ونتيجة مؤثرات الحياة . والعماد والإنسان اتصف باللين والرحمة طيلة
حياته ، حتى عرف بهما . ولم نجد أحداً من المترجمين لحياته يأخذ عليه مأخذاً يبدن
على قسوته وظلمه ، والعماد نفسه ذكر لنا الكثير من القصص التي تدل على شائستين
الصفتين ، وإن قال قائل : إن هذه القصص من نسج خيال العماد قلنا له : انتم هم
برئ حتى تثبت إدانتة سنات دليلاً آخر ينقضه وسوف نسلم لك . وعلى هذا نصرف
أن العماد طيب رحيم وصاحب مروءة وشهامة والقصص الآتية تعطينا دلالة واضحة على
ما قلناه .

ومنها تلك القصة التي أوردها العماد عن تزوير أقدم عليه أحد الأئمة وشفاعته
العماد فيه ، ورجائه للسلطان حتى عفا عنه . (٢) ومنها قصة ذلك الأسير الحلبي الذي كان
الجندي الوحيد الذي وقع بأيدي جنود السلطان ، واتفق الجميع على قتله ، لولا تدخل
العماد وانهاه السلطان أن هذا الأمر يخالف الشريعة ، فأذا بالسلطان المؤمن يعود
إلى الصواب ويعفو عنه . (٣) ومنها كذلك علاقته بابن الأثير الجزري وزير الأفضل الذي بلى
العماد منه الكثير ، ولما تخير الحال وفرّ ابن الأثير غارياً ، لم يحزن العماد لسلامته بل
حمد الله على أن كفاه شره . (٤)

وكانت هذه الصفات تبدو في سلوكه حتى مع أعدائه الفرنج ، فلم يعرف عنه أنه
قتل عدواً لا لجبن فيه ، ولكن لورقة شعره وإحساسه . ففي سنة ٥٧٤ وقع جماعة من
الفرنج أسرى فقرر السلطان أن يقوم أهل النبل بتقليمهم ، وطلب من العماد قتل واحد
منهم مرفوض وأبى ورجاه أن يهبه مملوكاً صغيراً يرعاه . (٥)

ولم نجد أحداً اتهمه بالعنف والشراسة وحب سفك الدماء ، ولكننا وجدنا رواية
تاريخية ألفها قاص اسمه : عارف تامر واسمها : سنان الدين وعلاج الدين وأهداها إلى

الإجماع

شهر النفر

أهذه رحمة
أم ضعف
وأحرف

هذا حكم
الشريعة

ما الذي لا هذا

(١) السهك : الريح الكريهة وانص من الفتح القسي ص ١٣٣
(٢) الروضتين ج ١ ص ٦٥٧
(٣) الروضتين (النيل) ج ١ ص ٥١٢
(٤) مفرق الكرب ٢٤/٣ - ٦٥
(٥) سنا البري الشامي ٣٠٨/١ والروضتين (النيل) ص ٥١٢

زعم الإسماعيلية في سورية الذي مات قبل أن يقرأ الرواية ، وفيها يتحدث عن قتال صلاح الدين للإسماعيلية الباطنية في الشام محاولاً تبرئة ساحتهم والباسهم صفة الشجاعة التي كانت تستعمل ضد أعداء المسلمين مظهرًا أن جميع المؤرخين الذين تناولوا سيرتهم بالتسجيل كانوا من المخطئين الواعدين ، وفيها يجعل من عماد الدين الكاتب الرجل المحرك لصلاح الدين على قتالهم ، وناقلاً للأخبار الكاذبة ضد الإسماعيلية ، لا لأمرهم ، ولكن حباً في التخلص منهم والقضاء عليهم . يقول صلاح الدين في جواب لعماد الدين - في أحداث الرواية - : صدقت يا عماد الدين ، فلقد طفق الكين ونقد الصبر ولم يبق بالإمكان التخاضي عن أعمال هؤلاء المشاكسين الذين عاشوا فساداً في كل مكان (١)

وفي أحداث الرواية نجد القاصي يحاول أن يجعل من الباطنية أصل الخير ، ومن صلاح الدين ذلك السلطان الفبي ومن العماد الرجل الحقود اللئيم الذي يفرح لرؤية الدم ، سالكاً في ذلك طرقاً مختلفة فهو مرة يحاول إقناع السلطان بضعف الباطنية ، وأخرى يعمل على إغرائه عليهم . ويستمر في سرد الأحداث إلى أن نجد صلاح الدين قد استغنى عن عماد الدين وأرسله إلى مصر كي ينظم شؤونها ويدير أمورها . وما إن يغادر الشام حتى تبدأ الأحوال وتم الصلح بين الفريقين . ويجعل من الإسماعيلية الباطنية العامل الأكبر في فتح بيت المقدس .

والرواية بعيدة عن الحقائق التاريخية التي نود أن نوجز أهمها وهي :

- ١- العماد لم يرسل إلى مصر مطلقاً كي ينظم شؤونها وإنما زارها مرافقاً لصلاح الدين .
- ٢- لم يكن صلاح الدين بهذا الضعف الذي صوره الكاتب بحيث جعل من العماد الأمر الناهي ومن صلاح الدين الضعيف المنفذ ، وكلنا نعرف قوة صلاح الدين وشجاعته الفائقة في القتال .
- ٣- العماد لم يزر قلاع الإسماعيلية ولم يقابل سناً زعيمهم .
- ٤- الصفات التي حاول إضفاءها عليهم لم تكن كلها صحيحة كما أنهم لم يشاركوا في فتح بيت المقدس وإن كانوا قد شاركوا فهي مشاركة رمزية غير فعالة .

(١) سنان وصلاح الدين - رواية عارف تامر عن ٤٠

(٢) الرواية ص ٨٩ (٢) الرواية ص ١٠٢

(٤) الرواية ص ١٥٠

رابعاً : العماد محب المال وجماعه :

العماد من بيت فضل وسيادة و غنى ، وقد تتابعت على أهل بيته النكبات - كما مر - واستولى أعداؤه على أموالهم في أعفها ن ، وعلى الرغم من هذا لم يذلوا ولم يهنوا ، وعملوا في دواوين السلاطين والملوك بن وفق قصور الخلفاء ، وكان العماد أحد أفراد هذا البيت الذي تقاذفته المحن ولعب به الزمن ولم يقر له قرار إلا بعد اتصاله بنور الدين ، ولكن حياة نور الدين لم تطل كثيراً بعد اتصال العماد به ، فنكب العماد بوفاته حتى اضطر إلى الهرب بعد أن خاف على نفسه ، ويعترف أنه دأرى الأمراء المتسلطين على ولد نور الدين خوفاً عظيماً على ماله وشروته .

ثم اتصل بصلاح الدين وطالت صحبته له ، وكان عداياه وعظاياه بعضها كان من صلاح الدين نفسه ، وبعضها يطلبها العماد عهد فعمها السلطان راعياً باسماء ، وبعضها يقدمها له الأمراء ، وبعضها من القاضي الفاضل عديقه ، وبهذا أصبح العماد ذا ثروة كبيرة و غنى وافرأ ، أصبح يملك الدور والبساتين ، والمماليك والجواري والجمال والبغال والأمثلة على ذلك عديدة كثيرة ، ولو سجلناها بتفصيلها لخربنا عن الهدف من هذا البحث ، ولكننا سنشير إلى بعضها لتعلمنا فكرة صادقة :

عمر علي المال
بإسك

- (١) عسراؤه لأرض بيستان بقر الوحتر في دمشق .
- (٢) كان له مملوك استشهد في فتح اللاذقية ، ومماليك أخر أحد عم الذي رافقه إلى بغداد حين ذهب إليها رسولاً من نور الدين .
- (٣) اعترافه انه طلب من السلطان دواة فنية مما وجد في خزائن مصر .
- (٤) عديده العبد وهوا من إنعام الفاضل ، حين كان العماد في مصر ، فصلاً عملاً قرر له من راتب شهري أثناء وجوده فيها .
- (٥) إنعام السلطان عليه بالكتب في مصر وإيجازوه من دفع ثمنها .
- (٦) تمويله عن نفقات غرمها العماد في طريقه إلى مصر ومقدارها ثلاثمائة دينار ، طلبها في رقعة كتبها إلى السلطان (٧)

(١) سنا البرق ١٦٤/١ (٢) الترويضين ج ١ في ٢ ص ٦٧٢
 (٣) الفتح القسي ص ٢٤٧ (٤) سنا البرق ١٩٩/١
 (٥) المصدر السابق ٢١٢/١ (٦) المصدر السابق ٢٢٤/١

- (٧) وعليةً بشارية اختارها أثناء وجودهم في مصر وأغلوة من دفع ثمنها (١)
- (٨) اقطاعه بلدة عيذاب على انبحر الأحمر وعلى إتمام من تور انشاه أخى السلطان (٢)
- (٩) ثانت له أملاك في مصر حفظها له الملك العزيز من دون أصحاب أبيه الذين ظلوا في الشام (٣)

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً وتدل على أنه أصبح ذا ثراء وغنى وجميع الأمثلة التي أوردناها جاءت من طريق واضح لا لبس فيه ولا شبهة ، ولكننا نود أن نتساءل هل كان العماد حصل على امان بطريق الرشوة أو كان دفع النفس يتذلل للسلطان وأمرائه حتى حصل على هذه الثروة أو كان بخيلاً محباً لجمع المال وكنته ؟

أما جواب التساؤل الأول فلم نجد أحداً ممن ترجموا لحياته اتهمه بالرشوة مطلقاً ، وأما جواب التساؤل الثاني فقد وجدنا من يتهمه بالدناءة والحرس على الدنيا ومن عزله الأستاذ محمد كرد على والأستاذ مظفر سلطان والدكتور رمضان ششن .

وكان الأستاذ محمد كرد على الكاتب الوحيد الذى وصفه بالدناءة وشدة الحرس على تحصيل الدنيا وضرب استشهائاً على قوله مثالين لا أدري من أين جاء بهما فقال : " وكان عماد الدين محل ثقة القاضي الفاضل آخناً من توثيقه عليه ، ولهذا كان يطصن إليه إذا غاب عن السلطان وكان شديد الحرس على تحصيل الدنيا وكان الفاضل يلومهم ويمتبه وينزله ويؤنبه على ذلك فلا يرعوى . وقد دعشنا من هذا النص أشد الدهشة ، إذ لم نجد أحداً غير الأستاذ الكريم يذكر أن الفاضل عزله ، وربما بنى قوله هذا على قصة ذكرها الصفدى عن شرب العماد للخمر ورؤية الفاضل له وعتابه على ذلك ثم توبية العماد وسوف نذكرها بعد قليل .

ثم ذكر بعد ذلك مثالين أولهما : أن رجلاً جاءه فى حاجة ومعه هدية قيمتها خمسون درهماً فعرض أمره على السلطان مرات فلم يجبه لأنه عرف موضوع الهدية . والثانى أنه كان يأخذ خاتم الذهب الذى يعطون رسائل الملوك الى صلاح الدين ، وفى مرة فتح الرسالة غيره وأخذ الخاتم ، وطالب السلطان العماد بكتابة رد على الرسالة فأبى وقال :

(١) المصدر السابق ٢٤٢/١ (٢) المصدر السابق ٢٥٢/١

(٣) الفتح القسى ص ٦٣١ ومفروح الكروب ٦٨/٣

(٤) كنوز الأجداد ص ٣١٥

(٥) المرجع السابق ص ٣١٥ - ٣١٦

(١)

"يرد عليها من أخذ الخاتم"

وقد رد الاستاذ الأثرى على الأستاذ محمد كرد على رافعاً كلامه ، ناقضاً له ،
 ثائراً عليه ، منكرًا تلك الأقاويل التي نسبها إلى العماد مستبعدًا ما نسب للقاصي
 الفاضل ولصلاح الدين . وواضح أن نظرة الأستاذ الأثرى أبلج وأفلج ، وحديثه أصدق
 وأحق ، وأن كلام الاستاذ كرد على فيه إغانة كبرى لهؤلاء السادة القادة الرادة للأمة
 الإسلامية ، ونحن مع الأستاذ الأثرى في أن هذه القصة وأحداثها موضوعة وضماً لا تحاً
 للعيان . ولا أدري كيف يترجم السيد كرد على لرجل يعتقد أن صفاته بهذا السوء
 في كتاب أسماه : " كنوز الأجداد " ألم يجد كنزاً أغلى ؟

ترفض كلام
 كرد على الأثرى
 على غير ما
 عليه

ومن هؤلاء الذين اتهموه الأستاذ مظفر سلطان الذي يقول بمنف : " والعماد
 إلى غذا حريص على المال يحبه حباً جماً ويؤثره على كثير من عزته ثم يضرب لذلك
 مثلاً هو بيعة لأمتته وأغراضه حين كان المسلمون في مصر يتجهزون للخروج إلى قتال
 الفرنج والذي كان من نتيجته عزيمة الرملة . وقد ورد أكثر من مثال يثبت أن العماد كان
 يحب المال مع الحفاظ على عزته ولو صحَّ المثال الذي أورده الناقد لدل على نوع من
 البخل لا على فقدان الكرامة كما سنرى فيما بعد .

أما الدكتور رمضان ششن فاتهمه بحب المال ولهذا هو رأينا السابق ولكنه أضاف
 له صفات كريمة فقال : " ولكنه كان مؤتمناً رحيماً يحترمه الرجال الذين عاشوا حوله
 ويفضله الكبراء " ونحن نؤيد غذا الرأي ونأخذ به ونجد فيه الكثير من الصحة . ومما
 يزيد في اطمئناننا إلى هذا الأمر أنه كان يطلب أحياناً بعض الهدايا السالفة الذكر ،
 وأنه كان قليل العطاء لأصدقائه من ماله الخاص ، بينما وجدناه حين كان نائباً للوزير
 ابن شيرة يعفي بعض الشعراء والأدباء الذين يمدحونه من الخراج كما فعل مع ابن
 الحريري وغيره .

هل هذا ليس
 هو العماد ؟

وجواب التساؤل الثالث : هل كان العماد بخيلاً ؟ نقول : ربما ، ولكنه بخيل
 بلا تقدير ، لأننا وجدناه يهدى بعض أصدقائه وأصحابه سواء من ماله أو عن طريق
 السعي لدى السلطان لتقديم المطايا والسيوف لهم ، فهو كما نعلم أعدي فروة لسبب

- كنوز الأثرى
- (١) المرجع السابق، ص ٢١٦
 - (٢) مقدمة الخريدة - القسم العراقي ٥٨/١
 - (٣) العماد الاصفهاني - مظفر سلطان ص ١١٠
 - (٤) المرجع السابق ص ١١٠
 - (٥) مقدمة سنا البهري ١٢/١

(١) ابن التمايذي ، وسعى عند خازن بيت المال في عهد صلاح الدين كي يرسل لخمسة
من أصدقاء العماد في بغداد عاليا ، ولو قال قائل إن المال ليس ماله لقلنا : المقتر لا يحب المال
الأنفسي ولا يحب الفنى لأحد سواه ، ويتنى أن يجمع ما في الدنيا في خزانة ماله .

وقصة بيعة متاعه يوم استعداد علم وتجهزهم لحرب الفرنج التي تمت فيها غزيمة
الرملة قد تدل على نوع من الطمع والبخل ، وإن كنا لا نؤمن أن قصة واحدة أو مثالا وحيدا
يكون دليلا قاطعا على صفة ثابتة في حق إنسان ما . لأن العماد شهد الكثير من
الوفائع والحروب وجهد نفسه فيها دون إبطاء أو تأخير ، فإن كان قد قصر في مرة من
المرات ، فربما لأنه كان في حالة نفسية معينة - كما أوضحنا سابقا - ونعتقد أننا
لا نستطيع أن نأخذ من تفسيره فيها مأخذاً عليه لأنها الأولى والأخيرة التي تأخر فيها
عن الجهاد بلا سبب .

خامسا : العماد الشريف أو الزاني الحقير :

لم يتهمه في سلوكه وأخلاقه أحد سوى الصفدي في الوافي بالوفيات ومظفر
سلطان في كتابه عن العماد أما الصفدي فقد اعتاد اتهام العماد بكل سوء ، فلم يترك
فيه صفة بيضا ، إلا حاول تسويدها ولا مشرقة إلا جرب إظلامها : يقول الصفدي : " قال
ابن ظافر في بدائع البدائع أخبرني الشريف فخر الدين أبو البركات العباس بن محمد
الحلبى قال : أخبرني القاضي الأجل عماد الدين أبو حامد الأصفهاني كاتب الملك
الناصر نور الله ضريحه ، وقال : كنت أعشى بالموصل عبيا سراجا وكان يواصلني فكلما
استويت على عرشه قال لي : اكنم علي ولا تنطق بحرف ، ويزيد في ذلك فصنعت في بعض
الأيام بديها :

فديت سراجا إذا لم يكـرُج للموصل عندي أحد راج هو (٤)
يقول لي أركبني ولا تُفـشـرِه يريد الجامي وإسـراجـه

إنَّ هذين البيتين من نظم العماد ، وقد سجلتهما في الخريدة أثناء ترجمته
للفزى الشاعر قال : وسمعت للفزى في غلام سراج بيتين ، لم أسمع بأظرف من معناهما ،
والبيت الأول دخل في شفاة الثاني ثم يكتب البيتين ويتبعهما بقوله : قال مؤلف الكتاب

(١) ديوان سبط ابن التمايذي ص ٤٥٢

(٢) سنا البرق الشامي ٢٨٢/١

(٣) سنا البرق الشامي ٢٥٤/١ وما بعدها

(٤) الوافي بالوفيات ١٣٦/١

" يعني العماد " وسألني بعض أصدقائي ببغداد أن أعمل في مسناه شيئاً فقلت
بديها ثم يذكر بيتين آخرين ويتلوهما بالبيتين السابقين ، ويعلق عليهما
قائلاً : وهذه نظمها بديها ، وفي إثباتها هنا لنا التأكيد لجهايزة الكلام ، والتصدي
للقرائح الصافية بقبح حق المشوية ، وما أوردتها لجودتها ، على أنها ما تقصر عن
دون الغاية بل لمناسبتها وكونها لا ثقة بهذا الموضع .^(١)

وقد ذكر الأستاذ الأثرى ما كتبه الصفدي تلميحاً فقال : " فنقل في أثناء
ترجمته للعماد في كتابه الوافي بالوفيات " عن بدائع البدائع " خيراً رواه علي بن
ظاهر الأزدي عن فخر الدين الحلبي عن العماد نفسه رغم أنه حدثه به ، وما نرى أنه
يحدث بمثله عن نفسه إلا سفيه أو معصوه ، لا فقيه جليل له المكانة الرفيعة في قوم
كالعماد الكاتب ، وقد نعت الخبر العماد بالقاضي الأجل " فلا أدري كيف ينعت
بالأجل من يقترف كبائر ما يشاء عنه دينه ، أو كيف يقترف كبائر ما ينهى عنه الدين رجل
منعوت بهذا النعت الخطير ؟ وما عرف عن العماد أنه كان من القضاة في يوم من أيام
حياته ثم إنه ألصق التهمة به أيام كان في الموصل ، وأنا أعلم أن العماد الكاتب قد أتم
بالموصل مرتين في حياته . مرة في سنة ٥٤٢ هـ وكان في ذلك العهد متفقها ببغداد
فحضر عند وزيرنا جمال الدين وعاد إلى بغداد ، وألم سبها ثانية بعد ولاية الملك
الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهيد فقتل أيامه فيها مريضاً أشد المرض^(٢) " ويكمل
الأستاذ الأثرى حديثه منكراً لما أورد الصفدي ومستنكراً أن يقع من مثله وهو الرجل
الفقيه والعالم الوجيه .

وكان من حسن حظنا أننا وجدنا كتاب " البدائع " مطبوعاً فرجعنا إليه نفتش
عن هذه الرواية ، فلم نجد لابن ظاهر رواية بهذه الصورة أو تورية منها تسمى العماد
وتسمى إليه ، وإنما وجدنا رواية شبيهة لفخر الدين الحلبي عن الشاعر ابن منير وابن
القيسراني يقول فيها : " وأخبرني الشريف فخر الدين أبو البركات العباسي بن عبد الله
العباسي الحلبي قال : اجتمع مهذب الدين أبو الحسين بن منير والشيخ أبو عبد الله
محمد بن صفير القيسراني الشاعران بحلب فمر عليهما شبي سراج يسمى يوسف ، مشهور
بالحسن فسئلا القول فيه فصنما " ثم يذكر أبياتاً لابن منير وأخرى للقيسراني^(٣) .

(١) الحريدة - القسم الشرقي ج ١ / ٢٩ - ٣٠

(٢) مقدمة القسم العراقي من الحريدة ١ / ٥٦ - ٥٧

(٣) بدائع البدائع ص ٢٥٧

لقد أوقمتنا الفصة السابقة في حيرة كبيرة وجعلتنا في ريبة من أمر العماد ، إلى أن وجدنا أن هذه الرواية مفتعلة كاذبة لا أصل لها ولا أساس ، فذهب الشك وعماد اليقين ، وإن كنا فأخذ على العماد أن ينظم مثل هذا الشعر السخيف سواء أكان الهدف تقليد شاعر أو امتحاناً لقريحته ، فالعماد على ما نعتقد كان عالماً ديناً مجدداً مخلصاً ونظمه لأشياء هذين البيتين يعطى لحساده الفرصة السانحة للمهجوم عليه والنيل من سيرته .

ويبدو أن الصفدي أولع باتهام العماد ونسج القصص حوله ، وكان يسجلها في كتبه آملاً أن تنتشر فيسبى إلى الرجل وتسود صحيفته وسيرته ، ومن ذلك ما ذكره في كتابه الفيث المسجّم في شرح لامية المعجم متهمًا العماد بشرب الخمر والاستمتاع بالقيان والفناء قال : رأيت في بعض المجاميع الأدبية أن السلطان صلاح الدين قال يوماً للقاضي الفاضل : لنا مدّة لم نرفيها العماد الكاتب فلعله ضعيف . انتهى إليه وتفقد أحواله ، فلما دخل القاضي الفاضل إلى دار العماد وجد أشياء أنكرها في نفسه مثل آثار مجلس أنس وطيبة ورائحة خمر وآلات طرب فأنشده :

مانا صحتك عننا يا الودّ من رجل ما لم ينك يكره من السدّل
محبتي فيك تأبى أن تسامحنى بأن أراك على شيء من الزلّل

فلما قام من عنده خن العماد عن كل ما فيه ولم يعد إلى ذلك البتة .

ثم يعود مرة ثانية لذكر هذه القصة في كتابه : " تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون " وأوردها بصيغة المبني للمجهول فقال : " حكى أن القاضي الناضل رحمه الله توجه يوماً إلى دار العماد الكاتب فوجد آثاراً أنكرها الفاضل من آلات مجالس الأنس فأنشده " . . . " وذكر البيتين وتوبة العماد وانقطاعه عما كان فيه " .

وقد اشترط الصفدي في كتبه على نفسه - كما يقول الاستاذ الأثرى - تسعة شروط فيما ينقله وما يترجمه من عند نفسه : أحدّها أن يسمى المنقول عنه " وشوهاً عننا " بعيد عن هذا الشرط الاعتيادي فينقل غير متودد عن كجهول ، ولو كان عالماً منهجياً شيئاً لما أدخل بشرط من أهون الشروط التي فرضها على المؤرخين ونسى نفسه .

(١) الفيث المسجّم في شرح لامية المعجم ج ١ ص ١٥٥

(٢) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٤٣

(٣) مقدمة القسم السراقي من الخريدة ج ١ ص ٥٨

ونحن إذا قرأنا النص الأول وجدنا الصفدي ينقل عن مجموع أدبي لم يذكر عنوانه ولا اسم مؤلفه وهو شرط رئيسي حتى يكون الخبر صحيحاً أو قريباً من الصحة وهو قد أخل به إخلالاً بيئناً . وإذا رجعنا إلى النص الثاني في تمام المتن وجدناه وضع بصورة أكثر إثارة للشك فقد صاغه مختصراً وبناء للمجهول وهو أمر مرفوض رفضاً قطعياً عند الثقات من العلماء .

والأمانة العلمية تقتضينا أن ننبه إلى أننا وجدنا الخبر في " ثمرات الأوراق " لابن حجة الحموي منقولاً عن كتاب " المجتنبى " لابن أبي حجلة المصري المتوفى سنة ٧٧٦ ، قال ابن حجة : ومن لطائف " المجتنبى " ما نقل عن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب قيل : إنه قال يوماً للقاضي الفاضل : لنا مدة لم نرفيها العماد الكاتب فلملمه ضعيف . أمضى وتفقد أحواله " ويكمل القصة ويبتى الشعر مع تغيير قليل في الألفاظ . وقد حاولنا أن نرجع إلى وفاة الرجلين الصفدي وابن حجلة فوجدنا أن وفاة الصفدي كانت في سنة ٧٦٤ ووفاته ابن حجلة سنة ٧٧٦ مما يجعلنا نعتقد أن ابن حجلة قد نقل عن الصفدي وابن حجة نقل بدوره عن ابن حجلة .

ولكن ما الذي يجعل الصفدي يتهم العماد ويسجل ذلك في ثلاثة من كتبه . بل إنه يكرر القصة الواحدة في كتابين مختلفين ، لم يتعرض أحد لجواب هذا السؤال سوى الأستاذ الأثرى الذي قال : " وكان الصفدي - فيما يبدو لي - يتعمد إيذاء العماد في دينه وأخلاقه لسبب لم أتبينه بعد " وحاولنا أن نجد سبباً منطقياً فلم نستطع ، ولكن إذا عرفنا أن الصفدي عاش زمن حفيد العماد الحسن والحسين استطعنا أن نخمن أن علاقة الصفدي مع هذين الحفيدين أو مع أحدهما ربما كانت سيئة بسبب تنافس ما شبَّ بينهم فأراد الصفدي أن يحرجهما ويهينهما بالإساءة إلى أحدهما الذي كانا يفخران به ويمتزان بسيرته .

-
- (١) كتاب المجتنبى : مجتنبى الأدباء لابن أبي حجلة المصري المتوفى سنة ٧٧٦ وذكره في صفناطيس الدر النعيس وهو كتاب أدب في معنى ذخيرة ابن بسام يشتمل على فرسان النشار والنظام ، اشتمل على غزل ونسيب وذكرى حبيب ومدح وتأنيب وفوائد ونوادير وهو عند المصريين بالنسبة إلى الذخيرة كالروضة في الجزيرة - كشف الظنون ١٥٩٢/٢
- (٢) ثمرات الأوراق - ابن حجة الحموي ص ١٢
- (٣) تاريخ الأدب - بروكلمان المترجم ج ٧/٥ وانبلادية ١٢٦٣ في حديثه عن الشيث المسجم .
- (٤) كشف الظنون ١٥٩٢/٢ (٥) مقدمة القسم العراقي من الخريدة ٥٧/١

وربما أخذ علينا مأخذ هو أننا نقف إلى جانب العماد ، وفي هذا تحيز واضح ،
ولكننا نرد على الممتزعين قائلين : إن من يتهم الناس في سلوكهم وأخلاقهم يجب
أن يكون من ذوى الأخلاق العالية لا كما يقول الصفدى :

إِنَّ قَدَرَ اللَّهِ لِي بِالْعَمْرِ واجْتَمَعَتْ سَبَّحَ مَا أَنَا فِي اللذاتِ مَفْبُون
قَصِيرٌ وَقَدْرٌ وَقَوَادٍ وَقَحْبَتُهُ وقهوة وفتاديل وقانونون

ولا كما يقول :

ثمانية إن يسمح الدهر لي بها فما لي عليه بعد ذلك مطلوب
مقامٌ ومشروبٌ وفرحٌ ومأكولٌ وملهى ومشمومٌ ومالٌ ومحبوب (١)

أكره مظهر
شعبيا؟
أنت لمحت
أخيرا هذا
في ص ١٣٥

وجاء الأستاذ مظهر سلطان في زمننا هذا ليصب جام غضبه على العماد دون أن
يقرأ للصفدى ما كتبه . ويبدو لنا أن الأستاذ قد وضع نصيب عينيه أن يتهمه بكل الصفات
السيئة وسوف نرى فيما بعد أنه لم يرتض له شعرا ولا نثرا ، وأنه في هذه النقطة
بالذات جعله من أسوأ خلق الله الذين لم يحكمهم دين ولا خلق ، ولم يرد عنهم ضمير
ولا شيخوخة فضلا عن مركز ومقام ، ولو قرأنا ما كتبه عنه لرأينا آثار الحقد الدفين بارزة
ولاقتنعنا بأن وراء هذا الحقد أسبابا عميقة الجذور أدت إلى هذا التصور السيء لهذا
الرجل الذى خلد له التاريخ أنصع الصفحات . مظهر سلطان يرى أن اتصال العماد
بالحظيرى وغيره من أصحاب حوانيت الوراقين جعله يمتحن الخلاعة والمجون ، ويهيم
بالمذكر ، ويلصق به تهمة الحدة الجنسية والشذوذ الجنسي ، ويطلق لخياله العنان
فيتصور أن العماد قد أتى بها من أصفهان وأغرى بها كثيرا في بغداد ويطلق لقلمه
العنان فيكتب صفحات كثيرة في هجومه هذا ، وإن كان بعد ذلك يبرئه من الشذوذ
الجنسى بعد أن كبر واتصل بنور الدين وصالح الدين خاصة ، ويذكر أبياتا قالها العماد
موجهًا نداءه للسلطان كي يهديه جارية جميلة يتمتع بها ، وذلك ليدل على شفاء العماد
من الشذوذ الجنسي ، وحبّه العظيم للمرأة وعلى :

يُؤَلِّدُ الْمَلُوكَ مَلُوكًا تَبْدُلُ الْوَحْشَةَ بِالْأَنْسِ
تُخْرِجُهُ مِنْ لَيْلٍ وَسَوَاسِ بَطْلَانَةٍ تُشِيرُ كَالشَّمْسِ
فَوَحْدَةُ الْفُرْبَةِ قَدْ حَرَكَتْ سَوَاكِنَ الْبَلْبَالِ وَالْمَكْسِ
فَلَا تَدْعُ يَهْدِمُ شَيْطَانُهُ مَا أَحْكَمَ التَّقْوَى مِنَ الْأَسْ

(١) النجوم الزاهرة ٣٥٦/٥

(٢) العماد الاصفهاني - مظهر سلطان ص ٤٨ - ٣٩

(٣) المرجع السابق ص ٢٩ - ٤٠

ويكرر الأستاذ هجماته مثنى وثلاث وكأنا استطاب التهجم على الناس ونهش
أعراضهم تاريخاً لخياله في ذلك الصنان فقان : " أما ما ذعبنا إليه في مستهل هذه
الرسالة من غلبة الحدة الجنسية والشذوذ الجنسي على العماد فما نحسب إلا أنه قد
برئ من الثانية مع الزمن أو أنه قد أسرع في قرارة نفسه بعد أن اتصلت أسبابه بنزور
الدين الورع المتكشف وبصلاح الدين العابد المجاهد في سبيل الله ولعلها نزوة من
نزوات الصبا الأخرى ما لبثت أن فترت بفتره أو اختفت بانقضائه . أما الحدة الجنسية
الغالبة فما نحسب أن العماد قد برئ منها ولا حاول أن يكاتبها بحال بل إننا لسنا
ينتهرز أكثر من مناسبة ليسأل وهو المملوك السلطان وهو المنعم المتفضل أن يهبه جارية
من سبى الأسطون .

ويستشهد مرة أخرى في سبيل الصاق هذه التهمة بالعماد بما كتبه العماد نفسه
في وصفه نساء الفرنج حين تم فتح القدس ثم يذكر النهى ويعلق عليه قائلاً : " وهو في
وصفه هذا وفي أوصاف كثيرة أخرى كالنهر إذا تدفق أو السيل إذا اندفع ، فهل كانت
الدقة التاريخية أم الزينة اللفظية وحدها ، على التي أملت عليه هذه الأوصاف الزاخرة
وجملت قلمه ينثال بالفرزل الطرى في موضع التاريخ الحاف أم أن نوازع النفس الدفينة على
التي سبقت القلم فتنبكت سبيله وانحرفت به عن غايته .

لقد أخذ الأستاذ على عاتقه تفسير الأحداث والأشعار والقصص والوصف تفسيراً
لا ينطبق على واقع الحال ، ولا يمكن أن يكون كل شاعر تفرزل بالأنشأ أو حتى بالذكر
مرتكباً للشذوذ ، منحرفاً عن السبيل أو سالكاً طريقاً معوجاً ، وعلى كل من دخل دكان
ورأى وسمع شعره الفاحش يكون قد تعلم من فحشه ، والعماد كان يجالس الكثير من العلماء
والفقهاء والشعراء ورواة الأدب والشعر وعلماء منهم الصالح والطالح ، وقد كان العماد
مضطراً لمقابلتهم ليسمع منهم ما يحفظونه لأنه كان يجمع مادة خريدته الموسوعة الأدبية
الضخمة ، وقد سجل فيها العماد أشعاراً كثيرة تشتمل على أعراض كثيرة مختلفة .
إن ثقافة العماد الدينية وتربيته الخلفية تمنعانه - على ما نعتقد - من الوقوع في هذه
المفاسد الخلقية والفواحش السلوكية . فضلاً عن أنه لم يطعن في خلقه طاعن سوى
الصفدى ومظفر سلطان .

(١) العماد الأعفهانى - مظفر سلطان ص ١١١

(٢) المرجع السابق ص ١١٢

سادساً : العماد المحب للمصلحة العامة الساعى بالصلح بين المتنازعين :

مما أورده العماد في كتبه نستطيع القول أنه كان يسعى للمحافظة على مصلحة الأمة ، وينبه حين يرى أن خطراً وشيكاً سيقع ولا يتوانى عن أن يكلم السلطان أن رأى أن مال الدولة يبذر بلا هدف وبدون مصلحة . والذي يدعونا إلى الأخذ بكلامه وتصديقه هو أن أحداً ممن جاء بعده وقرأ كلامه لم ينقصه أو ينفيه بل نقلوه دون اعتراض .

والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها تلك القصة التي روى فيها العماد مشورته على السلطان حين سلم حصن بخراس الذي احتله من الفرنج وفيه كمية كبيرة من الخلال التي علم الدين سليمان ، وفي الوقت نفسه كانت أنطاكية قد غلت فيها أسمار الخلال لقتها ، فخاف العماد أن يبيع علم الدين الخلال ثم يستعفى من حفظه ، فلم يسمح السلطان كلامه وصدق حدس العماد وتحقق بعد ذلك .

وقد نبه العماد إلى الخطر الدائم حين رأى أن جماعة الأمراء أشاروا على صلاح الدين بالانسحاب عن أسوار عكا حتى يستطيع الفرنج الانسحاب فقال العماد داقاً نافوس الخطر : " فلم تعجبني هذه الحالة ولم توافقني هذه المقالة ، وقلت : لعمري أتيتم بمصلحة ولكنها غير مترجحة ، فإنَّ الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار ، ولم يحدقوا بجميع الأسوار فإذا رحلنا وتخلينا عنهم أرخينا خناقهم " ونهاية الأمر انسحاب المسلمون فأحاط الفرنج بمكا إحاطة السوار بالمعصم وحفروا الخنادق وأقاموا السدود وكان من نتيجة ذلك سقوط عكا بعد فترة .

وقد نبه السلطان يوم فتح بيت المقدس إلى أن الإفرنج قد خرجوا على شروط الأمان وصاروا يخرجون معهم الأموال الكثيرة والمصوغات الذهبية من الكنائس والاتفاقيات انما هو على اخراج أموالهم الشخصية (٥) .

والأمثلة على ذلك كثيرة ولكن أظهرها محاولاته في إجراء الصلح بين الأفضل والعزيب بعد وفاة السلطان . ومن ذلك ما حدث حين نبهه إلى أن أصحاب أبيه قد تركوه بسبب سوء تصرف وزيره ابن الأثير ومن هؤلاء القاضي الفاضل " وقد حاول كثيراً أن يصلح

(١) بخراس : مدينة بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ على يمين القامح إلى انطاكية من

حلب / معجم البلدان ٤٦٢/١

(٢) علم الدين سليمان بن جندر من أكابر أمراء حلب توفي سنة ٥٨٧ هـ - النجوم الزاهرة .

(٣) الفتح القسي ص ٢٥٩ (٤) الفتح القسي ص ٤٢٣

(٥) المصدر السابق ص ٣٢٣ (٦) مفرج الكروب ١٢/٣

(١) الأمور بينهما ولكنه فشل في ذلك بسبب من يسميهم نصحاء الأفضل وعلى رأسهم وزيره .
سابقاً : العماد الوفاي أو المداشن :

بدأ العماد حياته العملية في بغداد ، فاشتغل نائباً للوزير ابن عبيدة في واسط والبصرة ، ثم انتقل بعد وفاته وعمل مع نور الدين بتأثير من زميله كمال الدين الشهرزوري وعناك أكرمه نجم الدين أيوب وأخوه شيركوه وابنه صلاح الدين ، وبعد وفاته التحق بصلاح الدين بعد توليه السلطنة بتدخل من ابن مصان والقاضي الفاضل ، فماذا كان موقف العماد بعد أن زال حكم كل واحد منهم ، وعمل حفظ له الود وداوم على مدحه وحفظ جميله ؟ ، إن من السهولة بمكان أن تقول إن العماد قد أخلص لهؤلاء جميعاً وظل حافظاً لجميلهم حتى بعد مماتهم ، ذلك أن العماد ترجم لهم جميعاً وذكر أفعالهم الخيرة ، وأرخ كل عمل قدموه له في حله وترحاله .

فالوزير ابن عبيدة ترجم له في القسم السراقى من الخريدة وقال في مدحه : " كان وزير العلم ذا عيبة مفوغة ، مهيباً " وقال : " كان مقرباً لأولى الفضل والدين " وذكر في مواضع شتى بدء اتصاله به وعمله معه ، ونيايقه عنه ، وحبسه بعد وفاته .

واعترف بالفصل لكمال الدين الشهرزوري في " البرق الشامي " و " الخريدة " وفي " البرق الشامي " ذكر يوم وصوله إلى الشام ، واستقبال نواب الشهرزوري له ، وإنزاله في المدرسة العمادية ، كما فصل القول في الجهود التي بذلها الشهرزوري حتى ألحقه بديوان نور الدين ، وحين مات قال فيه العماد : " كان باراً بالأبرار ، مختاراً للأخبار ، وقد قواه نور الدين رحمه الله ، وقلده الحكم في أيامه ، وسدد مرامى مراميه ، وعو الذي سنّ دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان حتى لا يبقى عليه مغموراً ولا مملزماً لذوى الشئان فيما دبره من الشأن " .

وظل يحفظ سيرة نور الدين المجاهد الخالد فردي في " البرق الشامي " تاريخ حياته وأفعاله وجهاده من سنة ٥٦٢ إلى يوم وفاته سنة ٥٦٩ ، وحين توفي نور الدين وثاه باكياً أيامه ، آملاً أن يكون ولده خير خلف له ، ولكن ظنه خاب ، وأمله ساء ، فقد كان الابن صغيراً ، ضعيف الشخصية ، فلم يستطع السداد أن يجارى أعواء الأمراء

(١) المصدر السابق ص ٢٨ وما بعدها

(٢) الخريدة القسم السراقى ٩٧:١ (٣) سنا البرق الشامي ٥٨/١ - ٥٩

(٤) سنا البرق الشامي ٦٦/١ (٥) سنا البرق الشامي ٢٢٤ - ٢٢٤

الطامعين الذين أحاطوا به واستولوا على مقاليد الأمور في دولته ، فهرب إلى الموصل كما مر سابقاً .

وقد أعجب بصلاح الدين إعجاباً ملك عليه ليه وفؤاده ، وخلص سيرته في كتابين كبيرين أولهما " البرق " وثانيهما " الفتح " ولن نطيل الحديث فحبه له ظاهر واضح ، وإعجابه به يبين لائح لكل من يتصفح تعذنين الكتابين .

وأخلص العماد للفاضل حتى بعد وفاة السلطان ، وظل يرأسه ويستشير به ، ويشي على مكانته ، وكان يكنّ له الوداد والإعجاب ، وكان هذا الود متبادلاً فالقاضي الفاضل عرف جوهر العماد الطيب وأصالته العميقة حتى قال فيه " هو كالزناد ظاهره بارد وباطنه نار " (١) .

وكما أخلص لمن سبق ذكرهم أخلص لنجم الدين بن مصالي في حياته وبعد مماته فترجم له في " البرق الشامي " وأثنى على مروءته وعلو علمه وشهامته .

إن جبلة العماد كانت طيبة ، فظل يحفظ الجميل لكل من ساعده ووقف إلى جانبه ، ولم يعمس الأيدي التي امتدت له يخير طيلة حياته شاكرًا مثنيًا ، ومادحًا مطربًا .

ثامنًا : العماد الطائش أو المتواضع العاقل :

كل الذين ترجموا للعماد أثنوا عليه ، ولم يتهموه بالطيش والحمق ، وسرعسة الغضب ، ولكن السيد مظفر سلطان الذي كان للعماد كل تهمة نكراه ، أو صفه سوداء ، وطعنه في أخلاقه ، ولم يكتف بما أورد بل اتهمه كذلك بالحماقة وشدة الغرور ، والميل إلى المنافسة والاستعلاء والتسلط والفرور وشدة الاعتماد بالنفس ، وهو بهذه الصفات السوداء لم يبق للعماد ما يفخر به فهو عنده رجل غلب عليه الشذوذ الجنسي والحدة الجنسية بخين حريص على المان ، يؤثره على كثير من عزته ، يحب اللهو والمرح ، ميان إلى الفكاكة والدعابة . . . فضلًا عن الصفات السابقة . وقد عنّ لنا أن نتساءل عن الأسباب التي تقف وراء هذا التهجم الشنيع الذي لا يقوم في معظمه على أساس فوجدنا للأسف مظهر تعليقًا على بيت شعر للعماد هو قوله :

توفى العاقل الذي فسا يفتح ذو بدعة بمصر فمسا

(٢) سنا البرق الشامي ٣٠٦/١ (١) الجامع المختصر ٦٤/٩ (لابن الساعي)

(٣) العماد الاصفهاني - مظفر سلطان ص ١٠٨ - ١٠٩

(٤) المرجع السابق ١٠٨ - ١١٢

حيث يقول معلقاً عليه : " فالعاصد في شرعه دعي غاصب ، غلبت أسرته على مصر بغيماً واقْتِئاناً ، فلما دان الزمان وأن الأوان ، وانقرضت دولتهم الغاصبة بوفاته شلت الألسنة المتخرصة وسدت الأفواه المتشدقة ، وانحقت الأكاذيب والأضاليل والبدع ومن عجب أن يكون العاصد وهو الذي ورث الملك عن آباءه خلفاً عن سلف حاكماً دعيّاً لبلاد وأن يكون علاج الدين الكردي أو نور الدين التركي حاكماً للبلاد شرعياً " (١)

إنَّ هذا التعليق يعطينا مؤشراً إلى التعصب الديني ، وربما كان شعور الأستاذ مظفر على العماد بسبب خلاف مذهبي ، لا نتيجة الأمانة العلمية والبحث العلمي العميق ، ويبدو أن الخلاف المذهبي هو الذي سيطر على الأستاذ من بداية الرسالة إلى آخرها ، فشنع عليه وأساء إليه ، دون أن يقرأ ما كتبه للصفدي ولا ما سجله الأستاذ محمد كرد علي ولو رجع إليهما لكان له بعض العذر ، ولكنه اعتمد على منطقته فخانه الحظ وأخطأ الطريق السوي ، وجانب الصواب الأ قليلاً .

وعنك أمر لا يخفى على باحث هو أن الذي يقبل ويرضى باستعمال رجل بهذه الصفات من القبح والشذوذ لا بد أن يكون على شاكلته ، وبالتالي فنور الدين وصالح الدين اللذان عمل عندنا ، وسلماً له أمورنا ووثقنا به رجلاً مثله ، ولو قبلنا التهجيم على العماد بهذه الصورة فإننا لن نقبل ولن نرضى أن نسمي إلى رجلين خدما الإسلام والمسلمين في أحلك فترة من تاريخ أمتنا عدا زماننا عدا .

تاسعاً : العماد المرح المحب للنزهة :

التقى العماد خلال عمره المديد بالآلاف المؤلفات من الشعراء والأدباء والكتاب فأخذ عنهم ، وأخذوا عنه . ويبدو لنا أنه كان ظريفاً ، يقبل الناس على سماع حديثه ، ويقبل على سماع كلامهم بشغف ، ويظهر لنا أنه كان يميل للنكتة الظريفة منذ صغره وقد روى عن نفسه حديثاً يعطى فكرة عن ظرفه وفكاهته فقال في حديثه عن الشيخ عبد الرحمن الواعظ المعري الذي كان يتصف بالظرف وحسن الحديث : " وخون أعيان أهل المجلس من ثيابهم إليه ، وخلصونا عليه فقلت : يجب أن نسميه المعري المعري وأنا في حدود خمس عشرة سنة " (٢)

(١) المرجع السابق ص ١٦٦

(٢) الخريدة - القسم الثامن ٩٣/٢

ووصفه لأيامه في مصر واستمتاعه بها ومشاعده لآثارها ومفانيها تدل دلالة كبيرة على حبه للحياة وما فيها من جمال وحسن ، وقد وصف رحلاته لمصر في كتابه " البرق الشامي " ومما قاله : " ولم يبق من الشغل إلا الكتب التي ألقى الشام ، ولم يكن ذلك على الدوام . فإن في كل ديوان كتاباً ، وفي كل عمل نوباً . فتوفرنا على الاجتماع في المفاني لاستماع الأغاني والتنزه في الجزيرة والأماكن الخزيرة ، والاستمتاع بالجواهر والأعراس^(١) " ولا يعني هذا أن المماد قد ترك طلب العلم ، وأرخص لنفسه العنان في الاستمتاع بل كان يداوم على طلب العلم في مصر ، والتباحث في أمور الشرع ، ومقابلته السلطان كل ليلة .

(١) سنا البرق الشامي ٢٣٢/١ والروضتين ٢٦٧/١ (انيل)

الفصل الثالث

تواجه الأدبي

كانت حياة العماد صراعاً دائماً وكفاحاً طويلاً في خدمة الأمة ، وسعيًا في الوصول إلى قمة المجد والخلود ، كانت حياته تنقلًا ورحيلًا ، وعلى الرغم من هذا عنى بالتأليف منذ أن طرَّ شاربه ونما عوده ، ومنذ ذلك الوقت إلى يوم وفاته كان يجمع ويؤلف وينظم ويكتب فترك لنا مجلدات رائعة في كثير من أنواع الأدب والعلوم ، بعضها وصل إلينا ، ولم يتأثر بعوادي الزمن ، وبعضها ضاع مع ما ضاع من تراث أمتنا المجيد . إن بعض كتبه التي سنشير إليها أصبحت مصادر أصيلة لدراسة العصر الذي عاش فيه ، ولا يستغنى عنها مؤلف أو قارئ يود أن يعرف الحقيقة أو قريباً منها دون الرجوع إليها وسوف نقسم كتبه حسب موضوعها وسوف نجعلها في خمسة أقسام على :-

- ١- تعليقاته وعلى كتابان
- ٢- كتب مترجمة وعلى كتابان أيضاً
- ٣- كتب تاريخية أدبية اجتماعية
- ٤- كتب تراجم أدبية
- ٥- كتب نشرية وشعرية

أولاً : التعليقات :

ل للعماد تعليقاتان كتبها أثناء اشتغاله في طلب العلم وشما :-

١- تعليقاته على مجالس شيخه الواعظ قطب الدين أبي منصور المظفر بن أردششير العبادي المتوفى سنة ٥٤٧ هـ وقد ذكرنا العماد في "نصرة الفترة" (١) وقد كتبها في بغداد حين حضر الشيخ العبادي إليها سنة ٥٤١ هـ وكان العماد شاباً لم يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، وهو مفقود .

٢- تعليقاته على مناظرات الإمام أبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي لأبي الحسن علي ابن محمد المعروف بالكسي الهرازي الفقيه الشافعي وعلى مفقود كذلك .

وهذان الكتابان لم يذكرهما أحد من القدماء وذكرهما من المحدثين الأستاذ الأثرى والدكتور رمضان ششن .

كيف عرفنا الكتابين ؟

- (١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٦
- (٢) خريدة القصر - قسم شعراء المجمع المخطوطات ج ٤ في الورقة ٨
- (٣) مقدمة القسم العراقي من الخريدة ج ١ / ٧٠
- (٤) مقدمة سنا البرق للدكتور رمضان ششن ١٤/١

ثانياً : الكتب المترجمة :

٩- ١- ترجمة كتاب "فتور زمان الصدر وصدور زمان الفتور" لأنوشروان بن خالد الوزير من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ، وعلی فی تاریخ دولة السلاجقة من اواسط عهد ملكشاه إلى آخر عهد طغرل بن محمد بن ملكشاه . ومادة هذا الكتاب موجودة في كتاب "العماد" نصرة الفطرة الذي سنذكره فيما بعد في كتب التاريخ .

٢- تعريب كيميا السعادة :

تصنيف أبي حامد الفزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ في مجلدين . ترجمه العماد بأمر من القاضي الفاضل أثناء زيارته الثانية لمصر . وقد أشار العماد إلى ترجمته له في كتابه "البرق الشامي" ويقول عنه صاحب كشف الظنون : "هو في الموعظة والأخلاق مرتب على أربعة عنوانات وأربعة أركان للعوام الملتصمين طريق المعرفة ، وعلى معرفة النفس ومعرفة الرب ومعرفة الدنيا ومعرفة العقبى" . ويقول الدكتور رمضان ششن الأستاذ في جامعة استانبول : "إنه مفقود أيضا" .

ثالثاً : كتب تاريخية أدبية اجتماعية :

ألف العماد ستة كتب جمع فيها بين التاريخ والشعر والرسائل وأخبار الملوك والكبار من أبناء عصره وعلى :

- ١- نصرة الفطرة وعصرة الفطرة
- ٢- البرق الشامي
- ٣- الفتح القسي في الفتح القدسي
- ٤- عتبي الزمان في عتبي الحدثنان
- ٥- نحلة الرحلة
- ٦- خطفة البارقي وعطفة الشارقي

(١) نصرة الفطرة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية :

وهو تاريخ الدولة السلجوقية من بداية حكمهم إلى سنة ٥٧١ هـ من الهجرة في أربع

(١) سنا البرق الشامي ٢٥٨/١ والروصتين ج ٢٠/٢

(٢) كشف الظنون ١٥٢٢/٢

(٣) مقدمة سنا البرق الشامي ١٩/١

مجلدات ، وقد اختلف المترجمون في اسمه اختلافاً كبيراً^(١) وقد جعل العماد أساسه كتاب الوزير أنوشروان الذي ترجمه الى اللغة العربية الموسوم باسم "فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور" وبعد ترجمته قام بتهديئه وألحق في أوله تاريخ السلاجقة قبل ملكشاه ، وزاد في آخره ما جرى في عهده من سلاجقة خراسان والمراق إلى سيره إلى دمشق من العراق^(٢) وبعد ما توقف العماد وقد أنهاه معتذراً عن عدم إكماله بسبب ابتعاده عن العراق وسفروه إلى الشام ، وقلة الأخبار التي تصله .

إن الأسباب التي ذكرها العماد صحيحة إلا أن انشغاله بالجهاد وملازمته للسلطان صلاح الدين أخذاً منه جل وقته ، وسفلاً كل تفكيره حتى لم يبق للسلاجقة وتاريخهم عنده شيء فأنهاه .

ونستطيع القول عن هذا الكتاب إنه الوحيد الذي فصل القول في تاريخ السلاجقة وذكر حروبهم وخلافاتهم ، واعتداءاتهم المتكررة على الخليفة في بغداد . ويرى الدكتور على جواد الطاهر أن الكتاب " لا غنى عنه في دراسة العصر سياسياً واجتماعياً وأدبياً"^(٤) ويقول الدكتور رمضان ششن " وعار مصدراً للكثير من المؤرخين " .

إن هذا الكتاب يتحدث عن الحوادث الحربية والسياسية في عهد السلاجقة ويترجم لبعض أكابر عصره وعلمائه - كما يورد بعض حوادث الباطنية و اغتيالهم للخلفاء والوزراء والقنصاة ، ويفصل القول في الخلافات التي دارت بين السلاطين السلاجقة على الحكم واحتلالهم لبغداد مرات ومرات ، إلى غير ذلك من أمور ترسم صورة صادقة عن هذا العصر الملئ بالمغامرات والحوادث القاتلة التي أضعفت الأمة وتركتها فريسة مبيتة أمام غزو الصليبيين ، وعين الخليفة تنظر وقلبه يتحسر وليس في يده من الأمر شيء .

(١) فهو نصره الفطرة وعصرة الفطرة عند د . نظير سعداوى (المؤرخون المعاصرون ص ١٩) وكذلك عن جورجى زيدان ٦٥/٢ ود . على الطاهر ١٣/١ وهو نصره المعصرة وعصرة الفطرة عند فؤاد سيد - فهرس المخطوطات المصورة ج ٢ في ١٧٧/٣ وهو نصره الفطرة وعصرة الفطرة عند النعيمي ٤١٠/١ وأخبار الدولة السلجوقية عند الزركلى في الأعلام ٢٥٤/٧ وكذلك ذكره المريني في مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٤٠ وسركيس في معجم المطبوعات العربية ١٣٧٥/٢

(٢) مقدمة سنا البرق ١٩٦/١ - ٢٠٠ (٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٧٩

(٤) الشعر العربي في العراق وبلاد المعجم د . الطاهر ج ١ ص ٢٤ - ٢٥

(٥) مقدمة سنا البرق ١٩٦/١ - ٢٠٠

والكتاب موجود حتى هذا الوقت ومنه مخطوطة في المكتبة الوطنية بباريس يقول
الدكتور على جواد الطاهر " لعلها الوحيدة في العالم " ورقمها ٢١٤٦ (١) والدكتور
يملك صورة عنها ، ويقول نيكيتا يوليسيف مؤلف كتاب " نور الدين " - وقد كتبه باللفظة
الفرنسية - إن رقمه في المكتبة الوطنية بباريس ٢١٤٥ (٢) أما الأستاذ الأثرى فيقول :
إن منه نسخة ثانية في بودليان بأكسفورد رقم ١.662 (٣) وذكره بروكلمان في
تاريخه ضمن كتب العماد دون شرح .

وأسلوب العماد فيه لا يختلف عن أسلوبه وطريقته في كتبه جميعها ، فهو قد اتخذ
لنفسه أسلوباً خاصاً يعتمد فيه على السجع والجناس والمحسنات اللفظية والاستعارات
الجزئية المتتابعة والنفس الطويل في الكتابة ، ولعل هذا الأسلوب هو الذي جعل
الدكتور جواد الطاهر يقول فيه : " ومن عيوب النصرة اضطرابها وسوء نظامها أما
أسلوبها وما أثقله من سجع وسناعة فذلك يؤدي إلى صعوبة الفهم وإلى ضياع كثير من
الحقائق التاريخية وإلى حشو الكتاب بألفاظ لا طائل تحتها وجمل غير مفيدة .

وللنصرة مختصران : هما :

(١) زبدة التواريخ (٢) وزبدة النصرة ونخبة العصرة .

أ - زبدة التواريخ :

وقد اختلف في واضعه ، وبروكلمان نسبه مرة إلى صدر الدين أبي الحسن علي
بن السيد الشهيد أبي الفوارس ناصر بن علي كاتب الخليفة الناصر لدين الله
(٥٧٥ - ٦٢٢) وقال : " زبدة التواريخ مقتبس من كتاب عماد الدين الأصبهاني
في تاريخ دولة آل سلجوق إلى وفاة السلطان طغرل سنة ٥٩٠ " وأضاف إليه إضافات
أرخ منها تاريخ الأتابكة إلى سنة ٦٢٠ ومنه نسخة في المتحف البريطاني رقمها في
ملحق الفهرست (٥٥٠) . ونسبة مرة ثانية إلى مجهول ثم رجح أن يكون لابن ظافر .

(١) الشعر العربي في العراق وبلاد المعجم ٢٥/١

(٢) نور الدين - يوليسيف (٢٠/١)

(٣) مقدمة القسم العراقي ٧٤/١ (٤) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان بالالمانية

(٥) الشعر العربي في العراق وبلاد المعجم ٢٥/١ (٥٤٨/١)

(٦) بروكلمان بالالمانية ٢٢١/١ (٧) بروكلمان بالالمانية الملحق ٥٥٥/١

ويذكر الدكتور على جواد الطاهر أن هذا المختصر طبع بلاطور سنة ١٩٢٢ منسوبا
لصدر الدين على بن ناصر الحسيني (١) .
أما جورجى زيدان فقد ذكر هذا المختصر نعتي زبدة التواريخ ملخصا ما كتبه
بروكلمان ونسبه إلى مجهول (٢) .

ب - زبدة النصره ونخبه العصرة :

للفتح بن على البندارى الأصبهاني ، وقد نال هذا المختصر شهرة فائقة وطبع
عدة مرات بأسماء مختلفة ، واستحضر به عن المؤلف الأعلى ، وكتب عنه بيانات قصيرة فى
مقدمة القسم العراقى من الخريدة وغيره : (٣)

وقد اختصره البندارى وقدمه عدية إلى السلطان الملك المعظم أبى الفتح عيسى
ابن الملك العادل . وأشار فى مقدمته إلى أنه أنهى هذا المختصر فى شهر ربيع
الأول سنة ٦٢٢ (٤) .

ويعتقد الدكتور على جواد الطاهر الذى يملك نسخة مصورة عن المخطوط الأعلى
الذى كتبه العماد أن البندارى لم يستطع تحقيق غرضه كاملا ، كما يأخذ على "عوتسما"
ناشر الكتاب (المختصر) قوله أن البندارى قد أدنى مهمته أداء يفوق كل بدع "ويقول
الدكتور : إن البندارى اختصر فيما اختصر كثيرا من الاستشهادات الشعرية التى ذكرها
العماد ، وهو يتكلم على أحداث العصر وأعلامه ، وخسارة مؤرخ الأدب بذلك غير قليلة . (٥)

ونحن نأسف كثيرا لعدم استطاعتنا الحصول على طبعة عوتسما لقدمها ولكن
ما كتبه الدكتور الطاهر وغيره يعطينا فكرة جيدة عن عذفه من طبعها ، يقول الدكتور
الطاهر : " وإعجاب عوتسما بهذا المختصر هو الذى دفعه - كما يفهم من كلامه - إلى
طبعه بليدن عام ١٨٨٩ فى سلسلة تاريخ السلاجقة مستمدا على مخطوطة أكسفورد راجعا
- مادعت الحاجة - إلى مخطوط الزبدة ومخطوطة النصره اللتين تضمنهما مكتبة باريس
فجاءت طبعة على كثير من الاتقان " ويقول الأستاذ سركيس إن الناشر قد زوده بفهارس
بأسماء الرجال والأمم والولايات والمدائن وغيرها ثم أتبعها بمقدمة باللغة الفرنسية . (٦)

-
- (١) الشمر العربى فى العراق وبلاد المعجم ٢٦/١
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية - جورجى زيدان ٦٢/٤
(٣) مقدمة القسم العراقى ٧٥/١ (٤) تاريخ دولة آل سلجوى ص ٤
(٥) الشمر العربى فى العراق وبلاد المعجم ٢٥/١
(٦) الشمر العربى فى العراق وبلاد المعجم ٢٥/١
(٧) المرجع السابق ص ٢٥ (٨) معجم المطبوعات العربية والمعربة / سركيس ١٣٧٥/٢

وقد طبع هذا المختصر سنة ١٩٠٠ بمصر بعنوان تاريخ دولة آل سلجوق ، وهذه الطبعة ينقصها كثير من الفهارس ، وعلى مفقودة في أسوان الكتب^(١) .

وقد وقع حاجي خليفة صاحب كشف الظنون في الوهم حين جعل هذا المختصر مؤلفاً أصيلاً للعماد كما حاكاه في وهمه إسماعيل باشا البغدادي في عديّة المعارف^(٢) .

وقبل أن نختم حديثنا عن هذا الكتاب نود أن نشير إلى أن الصفدي في كتابه " الوافي " قد جعل للعماد كتابين في تاريخ السلاجقة أولهما " نصر العترة " وعصرة الفطرة " في تاريخ اندولة السلجوقية .

وثانيهما : أخبار الملوك السلجوقية^(٣) . ولا نستقد أن الصفدي يقع في خطأ كهذا ولكنه - قطعاً - من عمل النساخ .

وللزبدة مخطوطة مصورة في معهد المخطوطات السربية ، وعلى نسخة بخط جليل جميل كتبت سنة ٦٦٢ في قونية في ١١٤ ورقة ومسطرتها ١٩ سطراً . وبأولها فهرس تفصيلي لمحتويات الكتاب وعدة تملكات للنسخة لبعض العلماء وبآخرها ما نصه : " صحح على من يوشى بتصحيحه نفع الله به " .^(٤)

٢- كتاب " البرق السامى " :

كتاب في التاريخ ، وسجل رائع للحوادث الواقعة في دولة الشهيد نور الدين من شهر شعبان سنة ٥٦٢ هـ وإلى ما بعد وفاة السلطان الكبير صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ . اتفق المؤرخون والمترجمون على نسبته للعماد ، واتفقوا كذلك على تسميته كذلك لم يشذ عنهم أحد .

موضوعه ومنهج تأليفه :

كتاب " البرق " كتاب شامل جمع فيه مؤلفه بين التاريخ والأدب والترجمة الشخصية إلى جانب الرسائل النثرية ، والحوادث الجارية في زمنه ، في مختلف بقاع العالم الإسلامي والتي تتعلق بنور الدين وصلاح الدين ، مهتماً أشد الاهتمام ببيان العلاقة بين السلطانين والخليفة في بغداد ، شارحاً العداقة بينهما وبين السلاطين المتزامنين لهما . وإلى جانب

(١) صحح من نسخة لطيف السلفي .
(٢) كشف الظنون ١٥٤/٢ - ١٩٥٦ (٢) عديّة المعارف ١٠٥/٢

(٣) الوافي بالوفيات ١٤٠/١

(٤) فهرست المخطوطات المصورة ج ٢ ص ١٧٧/٢

عذا كان يترجم لأعيان عصره من شعراء وكتاب ووزراء وأمراء ، وما قدموه من أعمال رائحة
أو أشعار بارعة أو رسائل جامعة .

رتب كل ذلك على السنين التجزية ، ففى كل سنة من هذه السنين كان يذكر
الوقائع الحربية ، وما قيل فيها من أشعار ، وما سجله قلمه فيها من رسائل ، أو ما دبجه
غيره فيها من مراسلات . كما أنه لم ينس ما كان يفعله السلطان فى أيام السلم والهدوء ،
من خرون للميد أو جلوس فى دار العدل ، وهو بعد كل هذا لا ينسى ذكر أخباره
وأعماله ، وقد وجدنا فى كتاب للمستشرق جب المترجم أنموذجين لحوادث وأخبار سنتين
من البرق والشام^(١) نقلهما عن مخطوطة المجلد الثالث الموجودة فى بودليان باكسفورد
رقم ١١ Bruce وفهرس سنة ٥٧٦ كتبه على الصورة الآتية :

الموضوع	الصفحة
سنة ٥٧٣ تسالى الجيس فى فافوس قبل الاغارة على غزة .	١
ذكر علم الدين الشاتانى .	٦
ذكر بروز صلاح الدين بقصد الفزاة ، قصائد ورسائل خلال المسيرة .	٧
ذكر نوبة الرملة ، مع مطلب خاص يتعلق بتقى الدين	١٣
رسائل الى عناوين مختلفة حول الموضوع	١٦
قصيدة مديح لتقى الدين نظم عماد الدين	٢٠
اجراءات صلاح الدين ، واعادة انشاء الجيس	٢٢
حوادث فى حلب	٢٣
ذكر نزول الفرنج على حماة	٢٥
ذكر وفاة شهاب الدين محمود بن تكد الحارمى خال السلطان وصهره	٢٧
مسيرة صلاح الدين على الشام	٢٨
مراسلة بين المؤلف والقاضى الفاضل ، خبر عن تأليف خريدة القصر وغيره من القطع الأدبية .	٣٠
كتاب من القاضى الفاضل الى صلاح الدين (منتخبات)	٣٧
الوصول الى دمشق	٤٠
رسائل من عماد الدين الى بنسداد	٤١
تهانى القاضى الفاضل لى ولادة ابن صلاح الدين داود . حاشية اضافية عن انباء صلاح الدين .	٤٧
كتاب من الفاضل عن حوادث مختلفة فى مصر	٥٠
جواب صلاح الدين من انشاء عماد الدين	٥٢

(١) صلاح الدين الأيوبي - دراسات فى التاريخ - عاملتون جب / ترجمة يوسف
ايسر عن ٩٨ - ١٠٠

الصفحة	الموضوع
٥٥	أ حفلة سعيد في بلاد الشام
٥٦	ب وفاة وزير الخليفة (عماد الدين)
٥٨	أ ذكر خازن بيت مال الخليفة (ظاهر الدين)
٦٠	أ ملاحظات عن عز الدين أقي بوري وشيخه الدين بن الشهررزوري
٦١	ب ذكر شمس الدين بنى المقدم ورغبة توران شاه في الحصول على بعلبك منه . (١)

ولقد رسم العماد منهجه في مقدمته لكتاب " البرق " فقال : " وأنا أقدم في هذا الكتاب ذكر نبيذ من أحوالي مع السلطان ، ثم ابتدئ بذكر معرفتي به ، وخدمتي له ، وأصف مبادي دولته إلى أن وصل إلى الشام ، وحسرتُ خدمته ، وأصف سيرته كل سنة ، وأتى في شرح حسناته بكل حسنة " .

وبعد اطلاعنا على المختصر المسمى بسنا البرق الشامي ، وجدنا أن العماد بدأ الكتاب بمقدمة ذكر فيها سبب تأليفه للبرق ، وألحقها بعد ذلك بفصل عنونه بقوله : ذكر وصولي إلى الشام في شعبان سنة ٥٦٢ معللاً سبب قدومه ، ثم أتبعه بفصل عن سير شيركوه إلى مصر ملخصاً أخبار بقية سنة ٥٦٢ تلخيصاً سريعاً .

وعنا نجد ملاحظة نرى أنها جديدة بالتسجيل فقد لاحظنا أن العماد اختصر أخبار السنوات الواقعة بين سنة ٥٦٣ و بداية سنة ٥٦٩ كثيراً إذا ما ووزنت بالسنوات التي تلتها في أخبار وحوادث السنوات الست بلذنه نجد ما امتدت خلال ما تيسر وست وأربعين صفحة . ونستطيع القول بعد ذلك أن الكتاب كان مخصصاً لحياة صلاح الدين ، ولكنه كتب أخبار نور الدين لأن صلاح الدين كان أحد قادته ثم واحداً من ولاته على مصر . فلما تولى صلاح الدين أمر السلطنة ازدادت أخباره وكثرت وقائمه ، فاحتاجت هذه السنوات إلى سرد أكثر وأوفى وأشمل ، ويقول الدكتور رمضان ششن محقق سنا البرق : فأما حوادث سنوات (٥٧٠ - ٥٨٢) فقد أوردتها مفصلة مع الوثائق والأشعار التي تتعلق بها . هذه الوثائق مكتوبة بقلم القاضي الفاضل والعماد ، إلا عدة مكاتبات لم

(١) صلاح الدين الايوبي - دراسات في التاريخ - عامتون جب ص ٩٨

(٢) سنا البرق الشامي ج ١ ص ٥٣

(٣) سنا البرق الشامي ٥٥/١ - ٦٠

(٤) راجع فهرست سنا البرق آخر صفحة من الجزء الاول

يذكر كاتبها ، وأما الأشعار فهي للمؤلف والشعراء شتى ذكر أسماءهم قبل كل شعر ونسب كل قصيدة إلى شاعرنا .

أما أخبار السنوات من ٥٨٢ - ٥٨٩ فقد خصص لها كتابة " الفتح القسى " ولهذا أوردنا مختصرة في " البرق الشامى " .
ونحن إذا أمعنا النظر في أخبار سنة ٥٧٢ السابقة الذكر وجدنا أن العماد كان يترجم للمشهورين والمرموقين خلال الحوادث والوقائع ، فإن كان بعضهم من الرجال الأقل شهرة ذكرهم باختصار في نهاية حوادث السنة .

سبب تأليفه :

العماد رجل وفقٍّ مخلص ، محبٍّ ودود أحب كل الذين عمل معهم وأحببهم ، وقد مرت عليه حوادث جمة بعضها سره وبعضها أحزنه ، ولقد ظلت الأيام تتقاذفه حتى انضم إلى صلاح الدين بعد عنته ، ولم يمض وقت طويل حتى ركن إليه السلطان واثمنه على أسرارته وأصبح الرجل الثانى بعد القاضى القاضى ، وأمد الله سبحانه في عمر السلطان وراه العماد ينتقل من معركة إلى معركة ومن نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح ، فأعجب به إعجاب المواطن بالقائد المنفذ والزعيم المكافح فأراد أن يخلده . . . فكتب في سيرته كتابين أولهما " الفتح القسى " وثانيهما " البرق الشامى " ويقول العماد شارحاً سبب التأليف : " وبعد فإن الكريم من عرف حق المنعم عليه ، وشكر فضل المحسن إليه ، وإذا خدم مخدوماً أو وجد كرمه بذكره وإن صار معدوماً ، وعرف من سر عرفه ما كان مكتوماً ، ومن استكفانى للإنشاء لتنفيذ أوامره في حياته أكافيه بالإحياء في إنشاء مفاخره في مماته ، وهو الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله ، فإنسى صحبته فكان خير مصحوب ، وخطبت وده فالفيتة ألف مخطوب . ولما انقضى عصره ، وانقرض عصره ، خشيت أن ينقرض ذكره ، فأنشأت هذا الكتاب وأعطيته من البلاغة حظاً ، وأعرتة من الفصاحة لحظاً ، واقتكرت وابتكرت عياغته معنى ولفظاً " (٢) .

ويبدو أن العماد عرف قدر صلاح الدين الكامل بعد وفاته واقتسام أبنائه لمملكته وأعمالهم للعماد وهو يصرح بهذا في المقدمة فيقول : " وقُلْتُ : سلخوا مسالكه ونسكوا

(١) سنا البرق ج ١ / ٢٥

(٢) سنا البرق الشامى ٥٢/١ مقدمة العماد

مناسكه ، وانهم يعرفون مقدارى ويرفعون منارى ، ويشرحون صدرى ولا يضمون قدرى ،
 فأخلف الظن حتى قطعوا رسومى ، ومنعوا مرسومى ، وغوروا منابعى ، وكذروا مشارعى^(١)
 فكان ذلك دافعاً له للإسراع فى تخليده .

سبب التسمية :

وقد سرح فى مقدمته لهذا الكتاب بسبب تسميته بهذا الاسم ، فهو يرى أن حياته
 فى الشام عاملاً مع نور الدين وصلاح الدين كانت رائعة جميلة موفقة مرت عليه بسرعة وخطفة
 البرق ، وفى هذا يقول : " وسميته " البرق الشامى " لأنى وصلت إليها فى شعبان
 سنة ٥٦٢ فى دولة المادى نور الدين محمود بن زنكى سقى الله عهدده عهداً الرحمة ،
 فصادفت الدولة - فى أيامه والأيام السلاحيية إلى السابع والعشرين من صفر سنة تسع
 وثمانين - حنناسية المحاسن وحسبتم ا - بطيبها - مستورة - ، وعلى حسنهما مستقرة ، ثم
 التفت فإذا على كبري ومضى وطرف غمض ، وما أسرع ما انقضت وانقضت تلك الليالى والأيام
 والشهور والأعوام .

وقد انقضت تلك السنون وأغلها فكانتها وكأنهم أحلام^(٢)

حجم الكتاب والمجلدات الباقية منه :

ذكر المترجمون القدماء أن " البرق الشامى " يقع فى سبعة مجلدات ، واتفقوا^(٣)
 على ذلك ، وقد ضاع معظم هذا الكتاب مع ما ضاع من التراث العربى الإسلامى خلال
 فترات التاريخ الحالك وغير ظالم القرون الماضية ، والباقى من مجلداته السبعة مجلدان
 فقط وهما المجلد الثالث ويوجد فى مكتبة بودليان بأكسفورد رقم Bruce 11
 وقد وصفه المستشرق غاملتون جب ناقلاً عن مؤرخ آخر فقال : " وقد قام البروفسور
 بول كاعله مؤخراً بوضعه فى مقالة قصيرة جنباً إلى جنب مع بحث عام فى كتابات عماد الدين
 فقال : " إنه واضح وعلى العموم دقيق " ويشمل هذا المجلد أخبار وحوادث السنوات
 الواقعة بين سنتى ٥٧٢ ، ٥٧٥ هـ (١١٧٧ - ١١٧٩ م) ، وكذلك المجلد الخامس^(٤)
 ويوجد كذلك فى المكتبة نفسها برقم Marsh 425 وقد وصفه قائلاً : " أما

(١) سنا البرق الشامى ٥٣/١ (٢) المصدر السابق ٥٢/١ - ٥٣
 (٣) راجع على سبيل المثال وثبات الأعيان بتحقيق محيى الدين عبد الحميد ٢٢٥/٤
 والوافى ١٣٩/١ والدارى ٤١٠/١ وهدية العارفين ١٠٥/٢
 (٤) صلاح الدين الأيوبي - دراسات فى التاريخ - غاملتون جب ص ٩٨

المخطوطة الثانية : فقد اعيد تحريرها وتحريكها في بعض المواضع بيد متأخرة ، ولم
تَرَاعِ الدقة دائماً في ذلك . والأوراق القليلة الأولى مفقودة ، بينما أُضيفت مقدمة
للصفحة الأولى الموجودة ورقصها الورقة (٦) على ورقة واحدة في تاريخ متأخر " وتشمل
عذه المجلدة أخبار وحوادث السنوات ٥٧٨ - ٥٨٠ هجرية (١١٨٢ - ١١٨٤ م) .^(١)

وذكر الأستاذ الأثرى أنه رأى مصورة هذه المخطوطة في مكتبة المجمع العلمي
العربي بدمشق في سنة ١٩٥١ هـ ، وقال : إنها في ٣١٧ ورقة تبتدئ بالرقم ٢٢ وتنتهي
بالرقم ٣٣٩ ، وفي كل صفحة ١٧ سطراً . وكلماتُ سطُورِها تتراوح من سبع كلمات إلى
عشر .^(٢)

وذكر بروكلمان " أن مقتطفات منه موجودة في بطرسبورج ، وبعضها موجود في
ليدن برقم ٩٦٦ ، إلا أننا وجدنا صاحب " تذكرة النوادر " السيد غاشم الندوي
ينقل عن مجلة المعارف - الجزء الرابع والعشرين ع ١٤١ - أن منه نسخة عتيقة في
متحف بطرسبورج كتبت في حياة مصنفه " .^(٣)^(٤)

ونحن نأمل أن يكون ما نقله السيد هاشم الندوي صحيحاً لما نعتقده من ضرورة
الكتاب من حيث أنه مرجع اساسي لحياة نور الدين الشهيد وصلاح الدين المجاهد .
أسلوبه في البرق :

للعقاد طريقة مشهورة ومعروفة تحدثنا عنها في كتبه السابقة ، وقد أتفق الكتاب
الأقدمون على أن أسلوبه يقوم على التعقيد والصناعة اللفظية ومن هؤلاء أبو شامة صاحب
" الروضتين " الذي صرح في كثير من فصول كتابه بأنه اختصر ما نقله عن العقاد من
" البرق الثامي " .

وقد وصف أسلوب العقاد في " البرق " و " الفتح " بأنه طويل النفس في
السيج والوصف بحيث يُميل الناظر فيه ، ويُذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول ،
ويُنسيه " فحذف لذلك تلك الأسجاع إلا قليلاً منها استحسناها في مواضعها ، ولم تك
خارجة عن الفرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع " وعده من ذلك - كما
يقول - أن يفهم الكلام الخاص والمسام^(٥) ووافق على ذلك الفتح البنداري الذي اختصر

(١) المرجع السابق ص ٩٨ (٢) مقدمة القسم العراقي من الخريدة ٢٨/١

(٣) تاريخ الادب العربي - بروكلمان بالالمانية ٥٤٨/١

(٤) تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ص ٨١

(٥) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨

" البرق " وقال في مقدمته " . . . لكنني وجدت دُررَ مقاصده مكنونة في بحار أسسجاءه المتلاطمة الأمواج ورأيت غرر فوائده مغمورة في غمار أوصافه المتتابعة الأفواج ما بين فرائن تشابكت قرون لواحقها في أصلا سوابقها . . . " .
 وكأني بالبنداري أراد أن يوضح فَعَدَّ ، وما إلى التكلف واستخدام الاستعارات المتتابعة المتتالية ولعل رأى المستشرق جب يدُ عَشُ القارئ فهو يُعَجَّبُ بأسلوبه وبطريقته وبمُسَدِّهِ سِيدًا بارعًا من سادة اللغة السريية ، ومن العلماء الذين ملكوا اللغة ومفراداتها
 ويقول في ذلك : " إن الخصائص الأسلوبية للكتاب ليست مطردة ، بل تتنوع أيما تنوع من قسم إلى آخر ففي بعض الفقرات يأتي التركيب البلاغي موسعًا للغاية ، وفي البعض الآخر لا يتجاوز كونه عادة في التعبير عن كل شيء بالنثر المسجع ، وهو نثر مباشر وغير متكلف على نحو بارز في أحيان عديدة ، فصالح الدين مثلاً يتمثل كمن يتحدث بالسجع ، لكن الانطباع السائد باستثناء خطبة قصيرة موضوعة أو خطبتين نحو أن الكلام طبيعي وخال من التكلف ، وعلى يد سَيِّدِ بارع كهذا من سادات اللغة والمفردات ، فإن حقيقة كون رواياته مصوغَةً كلها بقالب هذا الوسيط لا تسلبها من وضوحها ودقتها أي شيء على الإطلاق ، فالذيول والمقدمات النوافرة لها وظيفة أدبية مختلفة تمام الاختلاف ولا تتدخل البتة في الفقرات السردية ، حيث يستمر أسلوب النثر المسجع إلى أقصى حد من الإغراق في تهمة الحشو أو الإطناب (٢) .

ونرى أن أسلوب العماد في هذا الكتاب يبدو لمن يقرؤه أول مرة غامضاً صعباً ، ولكن من يَعْتَدُّ عليه ، يجده أسلوباً غير متكلف ، وتبدو الألفاظ والعبارات واضحة في كثير من الأحيان ، إلا أنه يجد صعوبة بالغة في فهم بعض عباراتها أحياناً حتى يترك لنفسه العنان في السرد المسجع .
زمن تأليفه :

بعد وفاة السلطان صلاح الدين ، ألف العماد كثيراً من كتبه التاريخية ومنها كتاب " البرق الشامي " وما يدل دلالة فاطمة على ذلك ما نقله الدكتور رمضان ششن محقق " سنا البرق الشامي " من الجزء الثاني منه أن العماد كتب العبارة الآتية :
 " وَأُخْرِتُ أَصْفَهَانَ وَإِلَى الْيَوْمِ مِنْ سَنَةِ ٥٩٤ هـ مَا وَصَعَتْ الْفِئْتُ أَوْزَارِعَا " فالعماد كان يولف كتابه في سنة ٥٩٤ هـ على ما ذكر .

(١) سنا البرق الشامي ٥٠/١
 (٢) صلاح الدين الأيوبي - دراسات في التاريخ ص ٢٤
 (٣) سنا البرق الشامي ٢٧/١

أما الدليل الثاني فقد وجدناه في " الروضتين " من رسالة منقولة من كتاب العماد خبطة البارق وعطفة الشارق " والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل أرسلها إلى العماد وفيها يخثه على إنهاء كتابه " البرق الشامي " فيقول : " وكيف يعيش انعاقيل في الزمان المجنون ، ونحن على انتظار " البرق الشامي " أن يمطر ، وحاشا ذممة الوعد به أن تُخفّر ، واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدروس والتدريس والتصوير والتكييف والتصانيف التي تصرّف فيها بالبلاغة (١) . "

وعلى هذا الأساس نستطيع القول بأن العماد ألفه في سنة ٥٩٤ هـ وربما أنهاه في أوائل سنة ٥٩٥ هـ .

أهمية الكتاب :

لعل كتاب " البرق الشامي " من الكتب النادرة الهلّمة ، ذلك أن هذا الكتاب يبحث في تاريخ فترة حاسمة من تاريخ الأمة الإسلامية ، ولعله الكتاب الوحيد الذي ألفه صاحبه بعد تجربة طويلة خاضها وحياة ممتدة عاشها وهو يساعد قمقمة السيوف ، وصهيل الخيول واقفا عن كتب على كل ما كان يدور في الخفاء من أمور ، مطلقا على كل أسرار الممارك وخططها ونتائجها ، عارفا كل القادة والأمراء الذين أشعلوا نيران تلك الحروب والوقائع متعرفا عن قرب على ملوك وقادة الإفرنج الذين كانوا يزورون السلطان في خيمته لإجراء محادثات الهدنة والصلح .

ولقد نال هذا الكتاب أهمية بالغة عند المؤرخون العرب القدامى ، ودرس دراسا مستفيضة من المؤرخين الأوربيين - وإن كنا نأسف أشد الأسف لأن المؤرخين العرب المحدثين لم يهتموا به إلا قليلا منهم .

ومع أن معظم أجزاء هذا الكتاب قد ضاعت ونفدت ، نرى أبا شامة قد حفظ معظمه بل لبه وخلاصته وجوهره في كتابه المعروف بكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " ونقل ابن واصل في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " فقرات كثيرة منه خاصة في الأجزاء الثلاثة الأولى المطبوعة من كتابه . ولقد أثبت الدكتور اباز العريني أن ابن الأثير قد نقل دون إشارة من كتاب " البرق " في كتابه " الكامل " و " التاريخ الباهر " وكذلك فعل سامنتون جب مثل ما فعل .

(١) الروضتين (النيل) ٢٢٤ / ٢

(٢) مؤرخو الحروب الصليبية للدكتور اباز العريني في كثير من صفحات الكتاب .

(٣) صلاح الدين الايوبي - دراسات في التاريخ وفي الفصلين الثالث والرابع منه .

وكان كتاب البرق منبعا رئيساً لابن الفرات انذى نقل منه مشيراً إلى ذلك ومعتقاً ،
 وكان كذلك مصدراً أساسياً لابن الحنبلى فى تاريخه " الأندلس الجليل " الذى وجدنا
 أنه مختصر لكتابى العماد " البرق " و " الفتح " مشيراً إلى ذلك مرات عديدة ، وكان
 كذلك ينبوعاً مهماً لابن تفرى بردى فى كتابه " النجوم الزاهرة " ولابن العماد فى
 " شذرات الذهب " ونعتقد أن ابن خلدون قد استفاد منه ونقل عنه دون إشارة لأننا
 وجدنا ترتيبه للأحداث والفتوحات وكثيراً من العبارات تشابه ما فعله العماد فى كتابيه
 " البرق " و " الفتح " .

أما الأوربيون فقد نقلوا من جزئيه الباقيين واستفادوا منهما فائدة كبرى ومنهم
 شاملتون جب الذى جعله مصدراً رئيساً فى الكتاب الذى جمع مقالاته وترجمها يوسف
 ايبسى وسماه " صلاح الدين الأيوبي دراسات فى التاريخ الإسلامى " وخصى الفصل
 الرابع منه للحديث عن كتاب " البرق الشامى " وجعل عنوان هذا الفصل " البرق
 الشامى تاريخ علاج الدين للكاتب عماد الدين الأصفهانى " بل بلغ من شدة إعجابيه
 بهذا الكتاب أن ألف كتاباً منفصلاً عن حياة صلاح الدين مأخوذاً كله من (البرق الشامى)
 وجعل عنوانه " البرق الشامى تاريخ صلاح الدين للكاتب عماد الدين " ثم ألف كتاباً
 صغيراً آخر باسم : حياة صلاح الدين من أعمال العماد وبها " الدين بن شداد " .
 واستفاد من البرق كذلك من الأوربيين رونسيما (٢) ، وستيفن وستانلى بول (٤)
 وجبرائيل الذى ألف كتاباً عن المؤرخين العرب للحروب الصليبية وبول كاهله الذى كتب
 بحثاً عن أعمال العماد ومؤلفاته . وكذلك نيكيثاويوليسيف الذى ألف كتاباً عن نور الدين
 محمود فى أربعة أجزاء كبيرة وترجم فيه للعماد ونقل عنه الكثير .

أما المؤرخون العرب المحدثون فلم يعرف قيمته الكبرى منهم سوى الدكتور البزاز
 المرينى فى كتابه " مؤرخو الحروب الصليبية " وقد نوه بالعماد المؤرخ الرزين الأمين
 ووازن بينه وبين ابن الأثير المؤرخ الذى تحيز للأتابكة وحقد على صلاح الدين ، ونقل عن
 العماد دون إخلال وإن كان معظم ما كتبه الدكتور المرينى منقولاً عن المؤرخين الأوربيين
 خاصة شاملتون جب وستانلى بول .

(١) تاريخ ابن الفرات فى صفحات كثيرة .

- 2) A History of the crusaders by STEVEN AUNCIMAN
- 3) The Crusaders in the East by W.B STEVENSON
- 4) Saladin and the Fall of the kingdom of Jerusalem by stanly lane poale.
- 5) Arab Historians of the Crusaders by FRANCESCO GABRIELI
- 6) Nur al Din by NIKITA ELISSEEFF

وقد عرف قيمته كذلك الدكتور نظير سمد اوى في كتابه " المؤرخون المصاصرون
لصلاح الدين " وأشاد بالعماد مؤرخاً أميناً وكاتباً صادقاً .
أما غيرهما من المؤرخين العرب فأشاروا إليه إشارات عابرة مبتورة - لا توفيه حقه
ولا تعرف له قدره .

سُرقة البرق :

ويبدو أن أحد المغاربة قد حاول سرقة أسلوب العماد في كتابه هذا وقد روى
صاحب " نفع الطيب أن القاضي أبا البقاء خالد البلوى الأندلسي قد حاول انتحال
أسلوب العماد في " البرق فاكشف لسان الدين بن الخطيب الأمر وهجاه شعرا فقال :

خليلي إن يقص اجتماع بخالد فقولا له قولا ولكن تعدوا الحقا (١)
سُرقت العماد الأصهباني برقه وكيف ترى في شاعر سرق البرقا

وكرر صاحب " النفع " تسجيل هذه الحادثة في كتاب آخر له . . اسمه " أزهار
الرياض في أخبار عياض " (٢)

ويتضح أخيراً أن العماد الأصهباني كان المؤرخ المسلم الوحيد الذي شهد
الأحداث وهو مدرك لما يدور حوله ، عارف خبايا الأمور ومواطنها . فإن ذكرنا غيره من
المؤرخين الذين زامنوه وجدنا أن أشهرهم : بهاء الدين بن شداد المؤرخ الكبير
المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ولكنه لم يلتحق بالسلطان إلا في سنة ٥٨٤ هـ ، وكذلك ابن الأثير
المتوفى سنة ٦٤٠ هـ وقد كان شاباً صغيراً أثناء معارك صلاح الدين وفتوحاته ، وكذلك ابن
أبي طي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ والقاضي الفاضل الذي لم يكتب تاريخاً ، ولكن رسائله
ومناشيره تعطى فكرة صادقة عن حياة السلطان ولكن عياض معظمها قلل من أهميتها .
وهذا لم يبق مصدر صحيح وكتاب دقيق يؤرخ لحياة السلطان سوى " البرق الشامي "
أما بقية الكتب التي ظهرت بعد ذلك فتابعة له ، وتابعة منه .

مختصر " البرق الشامي " : (سنا البرق الشامي)

للبرق الشامي مختصر يسمى " سنا البرق الشامي " اختصره الفتح البنداري وهو

-
- (١) نفع الطيب للمقري ج ٢٨٦/٣ (٢) أزهار الرياض في أخبار عياض ٣٠٩/١
(٢) النوادر السلطانية لابن شداد (٤) الكامل في التاريخ ، والتاريخ الباغر لابن الأثير
(٥) كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين لابن أبي طي وهو مفقود
(٦) المتجددات للقاضي الفاضل ، ومصطلحها مفقود

نفسه الذي اختصر " نصره الفترة " كذلك . وقد كتب البنداري في مقدمته للمختصر أنه قام بهذا العمل خدمة للسلطان الملك المعظم أبي الفتح عيسى بن السلطان الملك المعادل الأيوبي . وكان البنداري قد ترجم لهذا الملك شهنامه الفردوس ثم أتبعها باختصار البرق وقال في مدح هذا الكتاب : " نظرت في الكتاب الموسوم بالبرق الشامي للإمام السعيد عماد الدين الكاتب الأعفهانى ، فوجدت غمائمته تتدفق بأنوار الفوائد وكمائمه تتفتق عن أنوار الفرائد ، تحتوي من البلاغة على أبقارها وعونها ، وتشتمل من البراعة على غورها وعيونها ، فيه من السير السلطانية والحادلية وسائر الذوحة الكريمة الأيوبية ما لا ينطبق على مثله كثير من الكتب المصنفة في التواريخ والسير القديمة منها والحديثة " .

وقد أضاف الفتح البنداري إليه اختصار كتابين آخرين للعماد عما : " المعقبى والمعتبى " و " خطفة البارق " لاحتوائهما على الكثير من أخبار الملك المعادل والسيد الملك عيسى والملك الكامل أخيه .

مخطوطات سنا البرق وطبعه :

لم يذكر أحد من المؤرخين والأدباء الذين كتبوا عن البرق ونقلوا منه . . هذا المختصر ، وقد كان يحسب في عداد الكتب المفقودة ، وظل الأمر على هذه الحال إلى أن وجد الدكتور رمضان ششن نسخة ناقصة منه في تركية وأنه ليقول في ذلك : " وقد عثرنا منه على المجلد الأول حين دراستنا أطروحة الدكتوراه بين مخطوطات أسعد أفندي ، وهو يحتوى حوادث سنوات (٥٦٣ - ٥٨٢ هـ) . . أي : من أول " البرق " إلى أوائل المجلد السابع . أما المجلد الثاني الذي يحتوى على حوادث سنوات ٥٨٤ - ٥٩٧ هـ وهو مجهول الآن " . وقد قام الدكتور رمضان بنشر الجزء الأول منه عام ١٩٧١ ببيروت والذي يبدأ بسنة ٥٦٢ هـ ووقف فيه عند نهاية ٥٧٦ هـ واعدًا أن يخرج الجزء الثاني منه ، وربما تأخر صدوره بسبب تلك الحوادث المؤسفة التي اشتمل أوارها وأصابها الناس نارها في لبنان .

٣- الفتح القسبي في الفتح القدسي :

كتاب في التاريخ قصره العماد على فتوحات صلاح الدين الأيوبي في السنوات

- (١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣
- (٢) سنا البرق الشامي - مقدمة البنداري ج ١ / ٥٠
- (٣) سنا البرق الشامي - مقدمة البنداري ج ١ / ٥١
- (٤) تقديم سنا البرق الشامي للدكتور رمضان ششن ج ١ / ٤٣

السبح الأخيرة من حياة السلطان ، واتخذ بدايته من فتح بيت المقدس (سنة ٥٨٣ الموافق ١١٨٢ م) وانتهى به إلى ما بعد وفاة صلاح الدين بقليل سنة ٥٨٩ الموافق ١١٩٤ م ولا مجال لمنافسة هذا الأمر فالكتاب مطبوع ومتداول ، إلا أننا وجدنا الدكتور عبد اللطيف حمزة يجعله تاريخاً لفتوحات صلاح الدين من سنة ٥٢٦ - ٥٨٣ ويقول : وعلى السنة (٢) التي تم فيها لصلاح الدين فتح بيت المقدس ونحو لا شك واعلم في ذلك .

وقد اختلف المؤرخون في اسمه فجعله بعضهم " الفتح القسى في الفتح القدسى " ومنهم ابن خلكان وتابعه في ذلك صاحب مفتاح السعادة وجورجى زيدان . وجعلهم معظمهم الفتح القسى في الفتح القدسى " ومن هؤلاء ابن الساعى والصفدى والنعمى . وتابعهم في ذلك من المؤرخين المسلمين : الجبترى والدكتور عبد اللطيف حمزة والدكتور الباز العربى والدكتور أحمد شلبى والزركلى والدكتور نظير سعداوى وكذلك فهرست المكتبة الأزعرية ومن الغربيين بروكلمان وفرانز روستنل ويوليسيف وغيرهم .

وأغرب بعضهم فجعله " القدح القسى في الفتح القسى " ولعل أول من وضع هذه التسمية صاحب كشف الظنون - معتمداً في ذلك على ما وجدته مسجلاً في ظهر نسخة الكتاب واتخذ غذا الاسم علماً عليه وعرف به في حرف القاف ، وتابعه في ذلك صاحباً " غديسة العارفين " و " الكنى والألقاب " والمشهور المتعارف أن اسمه : " الفتح القسى في الفتح القدسى " وقد سماه العماد بهذا الاسم تلبية لاقتراح من القاضى الفاضل ، فقد كان العماد قد سماه الفتح القدسى ، وحين عرضه على القاضى قال له : " سمّه الفتح القسى في الفتح القدسى فقد فتح الله عليه بفصاحة فُكِّرَ وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجزُ ذوو القدرة في البيان عن صياغته " . وقد اقترح الصفدى أن يسمى غذا الكتاب باسم " الفتح القدسى في الفتح القدسى " ويعمل ذلك فائلاً : " لكان أحسن لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : رُوِّحُ الْقَدْرَيْنِ فِي رُوْعِكَ " (٨) .

-
- 1) A History of Muslim Historiography by Frans Rosenhal 296 (١)
 - (٢) الأدب المصرى للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ٢٢٢
 - (٣) وفيات الاعيان تحقيق محيى الدين عبد الحميد (٤/٢٢٥/٦١٨٦) ومفتاح السعادة (١/٢٦٥) وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان (٣/٦٥)
 - (٤) الجامع المختصر (٩/٦١) والنوافى (١/١٣٩) والدارس (١/٤١٠)
 - (٥) عجائب الآثار للجبترى ٤/٣٤٢ والحركة الفكرية ص ٢٩٨ وكذلك الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ٢١٢ ومؤرخو الحروب الصليبية (٢٤٠) والتاريخ الاسلامى للدكتور أحمد شلبى (١٦٥) والاعلام للزركلى ٧/٢٥٤ والمؤرخون المعاصرون للدكتور نظير سعداوى (٢٤) وفهرست المكتبة الأزعرية ج ٥/٥٠٥
 - (٦) بروكلمان ١/٥٤٨ وفرانز روستنل ٢٩٦ وأليسييف ١/٢٩٦
 - (٧) كشف الظنون (٢/١٢١٦) وغديسة العارفين (٢/١٠٥) والكنى والألقاب (٢/٤٤٩)
 - (٨) فس بن ساعدة الايادى الحكيم الخطيب الباهلى (٩) الفتح القسى ص ٥٧ - ٥٨

لعل سبب تأليفه لهذا السفر لا يختلف عن دواعي تأليفه للبرق الشامى ، بل لقد ألف هذا الكتاب قبل البرق ، وفصل فيه القول تفصيلاً في حوادث السنوات السبع ٥٨٢ / ٥٨٩ من الهجرة .

لقد أعجب العماد بالسلطان وفتوحاته ، وشهد منها ما جعله يرفع الرأس عالياً ، ليفخر بسلطانه الذى حققها ، وَمَنْ لَا يُعْجَبُ بِحِطِّينَ ؟ ومن لا يدعُ لفتح القدس بعد أن ظلت قرناً مدينة محتلة ، فإذا بالقائد العظيم يدخلها دخول الظافر ، فيحى من رسومها ما اندثر ، ويبنى من معالمها ما انهدم ، ويميد الحق إلى نصابه والمحراب إلى مكانه ، ويرجع قول : " الله أكبر " يدوى على مآذنها ، ويبهج النفوس المحطمة والقلوب البائسة .

لقد نظر العماد في الفتحين العبرى والصلاحي ووازن بينهما فإذا عو يجد الفتح الثانى أعظم وأروع ، ويقول معللاً ذلك : " فإن الشام فتح أولاً والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم غير بعيد ، والوحى ما كاد يتمطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد ، والعيون التى شاعت رسول الله على الله عليه وعلى آله وسلم تسلي سيوفها من أجفانها " وبعد ذلك يصف حال الشام وأغله في عهد صلاح الدين فيقول : " والشام الآن قد فتح حيث الإسلام قد وبعث العظم منه واشتمل الرأس شيباً وعريق شباكه واستشن أدومه وقد عاد غريباً كما بدأ غريباً " ويصف بعد ذلك ضعف إيمان المسلمين ، وشدة لهم الصليبيين وخروجهم من بلادهم إلى القدس ، ولم على القتل والإجرام مصمون وذلك حيث قال : " وطال الأمد على القلوب فقست ، ورائت الفتن على البصائر فطمست ، وعرض هذا الأدنى قد أعشى وأصم حبه ، ومتاع هذه الحياة القليل قد سفل عن الجزيل في الآخرة كسبه ، والكفار قد خشنت عرائكهم ، واتسعت ممالكهم واستبصروا في الضلال واستبضعوا للقتال ، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، ونفروا من وراء البحر يطلبون أماصهم من البر ناشية الصوت " ويستمر في وصف غلطة الصليبيين وقسوة قلوبهم وحجمهم لسفك الدماء وبعد ثم الرحمة والحنان إلى أن يصل بنا إلى منقذ القدس من أيديهم ، ومخلصها من شرعهم ورجسهم صلاح الدين بن نجم الدين أيوب .

(١) مقدمة العماد للفتح القسى ص ٤٦ (٢) استشن أدومه : بلى جلده

(٣) الفتح القسى ص ٥٠ (٤) ناشية : رائحة

(٥) الفتح ص ٥١

مفهوم الكتاب :

جعل العماد كتابه في مجلدين تحدث فيهما عن السنوات السبع الأخيرة من حياة السلطان وعى - بلا شك - السنوات التي قطف السلطان فيها ثمرة جهاده وكفاحه طيلة ما يقرب من ربع قرن من الزمان ابتداءً من وجوده في الشام مع نور الدين وانتهاءً بوفاته .

وقد اتبع العماد في هذا الكتاب أسلوب غيره من المؤرخين في ذلك الوقت ونعنى به نظام الحوليات . فقد كان العماد يذكر السنة ثم يبدأ بذكر الحوادث التي جرت فيها مركزاً على الحوادث الحربية تاريخاً ما عدنا . فهو لم يهتم بالقصائد التي قيلت في غزاه الفتح ولم يترجم للأدباء والشعراء والأعيان . وكان جلّ عمله الحوادث الحربية ، والمراسلات العسكرية والنشرات الإخبارية إلى مختلف الولايات الإسلامية ، طالباً النجدة أحياناً ومبشراً أحياناً أخرى ، شاكراً في بعضها ، شاكياً في بعضها الآخر . وهو كذلك لم يذكر في قصيدة واحدة على خلاف البرق والنصرة وكتبه الأخرى . وقد خلد فيه أسماء كثير من الشهداء الذين ضحوا بدمائهم في سبيل دينهم ووطنهم .

وقد بدأ الكتاب بمقدمة (١) - كما ذكرنا - عن سبب تأليفه وأهمية هذا الفتح ، والسبب الذي دعاه إلى البدء بسنة ٥٨٢ م ثم قال : " ودخلت سنة ٥٨٢ م وكتب الملك الناصر صلاح الدين ابن يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد يستدعي من جميع الجهات جموع الجهاد وأهل الاستعداد ، واستحضر الفزوة من الحضر والبدو " ثم أورد فيها الحوادث والفتوحات التي تمت وانتقل إلى السنة التي بعدها إلى أن وصل إلى سنة ٥٨٩ السنة التي توفي فيها السلطان فكتب كثيراً عن أخلاقه وصفاته ، وانقسام دولته بين أبنائه ، ونهجه إلى الخلافة التي بدأت بعد وفاته ، وجعل في نهاية الكتاب فصلاً في " مناقب السلطان " .

أسلوبه :

للعقاد مذهب معروف وطريقة ثابتة التزامها في الكتابة ، وقد نوتنا لها سابقاً في حديثنا عن أسلوبه في كتبه السابقة وهو في هذا الكتاب يميل إلى التعقيد والإبهام والغموض وكأنى به أراد أن يكون هذا الكتاب فمة مصورة لسيطرته على اللغة وبلاغتها ، ولهذا نجد أنه أتى فيه بكل لفظ غريب فضلاً عن ذلك الإطناب والاسهاب الذي يجعل القارئ يمل في كثير من الأحيان .

(١) المقدمة في الفتح من ص ٤١ - ٥٨ (٢) الفتح القدسي ص ٥٨

(٣) مناقب السلطان في الفتح القدسي ص ٦٥٦ - ٦٦١

(١)
وقد اتفق جميع من كتبوا عنه على ذلك سوى ما نقله عبد الرحمن الجبرتي عن عبد الله
الإردكاوي ناسخ النسخ القسي " حيث يقول : " وكتب بعد إتمامه وحسن ختامه ما نصه :
" قد يَسِّرُ الله سبحانه إتمام هذا الكتاب بل العجب العجيب بل الروح المستطاب ،
الذي تكلم فيه من فصل ينبيء عن فصل ، ومن نوع يدح يحمل نور ربيع إلى آخر ما أطال
في مدحه " .^(٢)

وقد كتب محقق كتاب " النسخ " ناقداً أسلوبه لالتزامه بالسجع حتى يطفى على
كثير من الحقائق التاريخية فقال : " واعتمد على الأفكار من استعمال المحسنات البديعية
واللفظية إلى درجة كبيرة تجعل استخلاص الحقائق التاريخية منه أمراً صعباً ومهمة شاقّة
على بعض القراء " ولكنه وصف السجاد بالصدق والأمانة العملية فقال " ولكن الصدق
الذي امتازت به هذه المعلومات يجعلها تستحق ما يصرف في سبيل استخلاصها من عناء
وجهد " .^(٣)

أهميته :

يمد " الفتح القدسي " مصدراً أساسياً لتاريخ صلاح الدين في الفترة التي
أرخ لها ، ولن يستطيع باحث أو مؤرخ مهتماً أوتي من علم أن يدرس حياة السلطان وفتوحاته
دون الرجوع إلى هذا السفر الرائع ، ولو استطاع ذلك فإنه سيكون مضطراً لأن ينقل من
كتب أخذت عنه كالروضتين و " الثامل " و " مغز الكروب " و " امرأة الزمان " ووفيات
الأعيان " و " الوافي بالوفيات " و " الشذرات " والنجوم الزاهرة " وغيرهما ، فالكتاب
يعد وثيقة تاريخية وسياسية واجتماعية ، بحثت أدق التفاصيل بصدق وأمانة وإحسان .

إن أهمية هذا الكتاب تعود في الدرجة الأولى إلى كون الصمد المؤرخ المسلم
الوحيد الذي شهد المعارك عن كثب ، بل لقد اضطر إلى الهزيمة عند أبواب عكا أثناء
حصار الفرنج لها ، ولم يتفرب الصمد عن السلطان إلا نادراً ونحن نعرف أنه تفرب عن
فتح القدس لمرس أعاقه ولكنه أجد السير والسلطان على أبوابها مقيم ، فوصلها في اليوم
الثاني لفتحها وشهد تنفيذ اتفاقية الصلح بين المسلمين والصليبيين التي تمت قبل دخول
المسلمين إليها ، بل إنه المؤرخ الوحيد في العالم بأسره الذي شهد دخول الأسرى من

(١) الروضتين (ج ١ ص ٧/٢ - ٨) والأدب المصري للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ٢٢٢

، والتاريخ الاسلامي للدكتور أحمد شلبي ص ١٦٥

(٢) عجائب الآثار ٣٤٣/٤ (٣) تقديم المحقق لكتاب الفتح ص ٣٤

(٤) التقديم نفسه والصفحة نفسها

ملوك الفرنج يوم حطين ورأى بأمر عينيه رأس ابن منى الكرك يطير عن جثته بسبب غدره وقسوته ،
ولعل عظمة هذا الكتاب تظهر فيما كتبه الدكتور نظير سعادوى عن أعمية العماد المؤرخ
فكان : " وبذا زادت جماعة صلاح الدين رجلاً ذا أفضال كبيرة على المؤرخين والباحثين
ذلك أن العماد حرص على تسجيل الوقائع الصلاحية في نشرة المسجون كما حرص على تسجيلها
في شعره الكثير وقال : " وهو حجة تاريخية فيما يقول وفيما يكتب " .

ولعل مكانته تظهر واضحة فيما كتبه الدكتور الباز العرينى في موازنته - بين العماد
وابن الأثير المؤرخ في كتابه الكامل - التي سنذكرها بتفاصيلها في حديثنا عن العماد
المؤرخ إن شاء الله .
مخطوطاته وطبعاته :

لعل كتاب الفتح هو الكتاب التاريخى الوحيد للعماد الذى بقى دون طبع
ودون نقى ونال كثيراً من الاعتناء ، وربما كان ذلك بسبب موضوعه الذى يتصل بالجهاد
والجهاد يثير فى نفس المسلم احساساً بالعظمة والعزّة .

إن كتاب الفتح متعدد النسخ والمخطوطات وموزع فى كثير من مكبات العالم
العربية والأجنبية . ففى ليدن بأكسفورد يوجد منه مخطوط برقم ٥/٩٦٢ وفى باريس
مخطوط آخر برقم ٩/١٦٦٤ وفى بودليان مخطوطان برقمى (١/٧٧٥ و ٨٢٤ وفى برلين
مخطوط برقم (٣) ٩٧٩٤ وفى رامبور مخطوط برقم ٦٦٢/١ وكذلك غيرها مما أورد بروكلمان
فى كتابه .

ولعل المكتبة الازعمرية أكثر المكتبات العربية احتواءً لنسخة المخطوطة والمطبوعة ،
ومن نسخة المخطوطة فيها :-

نسخة مخطوطة فى مجلد بقلم معتاد مكتوبة سنة ١١٦٦ هـ مجدولة بالمداد الأحمر
والأزرق فى ٤٢١ ورقة ومسطرتها ١٥ سطراً وعلى النسخة التى ذكرها الجبترى فى تاريخه
والتي ذكرها فى ترجمة محمد أفندى اسماعيل السكندرى والتي كتبها له الشيخ عبد الله
الإدكاوى مؤلف كتاب "بصاعة الأريب" (٥) .

-
- (١) المؤرخون المعاصرون - دكتور نظير سعادوى ص ٢٤ - ٢٥
 - (٢) مؤرخو الحروب الصليبية - دكتور الباز العرينى ص ٢٤٠
 - (٣) بروكلمان (١/٥٨٤) بالالمانية (٤) فهرست المكتبة الازعمرية (٥/٥٠٥)
 - (٥) عجائب الآثار (٤/٢٤٣)

أما نسخة المطبوعة فجميعها موجودة في المكتبة الأزهرية :
وأولها النسخة المطبوعة في ليدن على مطبعة بريل نشر لاندبرج سنة ١٨٨٨ وعلى أول
طبعة لهذا الكتاب ولا ندري هل كانت هناك طبعة سابقة له في بريل سنة ١٨٨٧ كما
ورد في فهرست المكتبة الأزهرية أم لا .

وثانيها : نسخة مطبوعة في المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .
(١)
وثالثها : نسخة مطبوعة في مطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ .

ورابعها : الطبعة الأخيرة المتداولة بتحقيق الأستاذ محمد محمود صبح طبع السدار
القومية للطباعة والنشر وعلى في ٦٦١ صفحة وأضاف المحقق إليها ثبوتاً بالمراجع التي اعتمد
عليها في التحقيق وفهرساً شرح فيه بعض المصطلحات والكلمات الغريبة وفهرساً للأعلام
وآخر للبلدان فأصبح مجموع صفحات الكتاب وفهارسه ٦٩٣ صفحة .

عيسى الزمان في عتبي الحدشان :

وعلى رسالة تعد صغيرة إذا ما قيست بكتبه السابقة وقد جعلها ذيلاً للبرق
الشامى وتبحث فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة ٥٩٢ هـ . وعلى مفقودة حتى
الآن وقد نقل أبو شامة بعض فقراتها وأحداها في كتابه " الروضتين " .

وقد تحدث العماد فيه عن انقسام دولة السلطان واختلاف أبنائه من بعده .
ولعل ابن واصل صاحب المفرج قد حفظ لنا أجزاءً هامة منها ، ونقل فقرات تحدث
فيها العماد عن تنمضج حاله بعد السلطان . وكتب فيها رسائل من إنشاء العماد
بعضها لم يرد في أى مصدر آخر ، ومنها رسالة أنشأها العماد نيابة عن الأفضل إلى
الديوان العزيز في سنة ٥٨٩ هـ . وعلى غير الرسالة التي أوردنا صاحب " الروضتين "
وأولها : " أصدر العبد هذه الخدمة ومطالع عبوديته مشرقة الأنوار ، ومشارع موالاته
صافية عن الأكدار ، ويد ابتهاله بالصراعة مبسوطة . . . " (٤)

وقد قام الشيخ البندارى باختصار هذه الرسالة في آخر " سنا البرق الشامى " وعلى
ضمن الجزء السابع المقفود حتى الآن . (٥)

(١) فهرست المكتبة الأزهرية (٥٠٥/٥)

(٢) الروضتين (ج ٢/١٤٠٢١٤٠٥٢٢٨٠٢٢٨) (٣) مفرج الكروب (ج ٢/١٢٠٦١٣٠١٣)

(٤) مفرج الكروب (٦/٣) (٥) مقدمة سنا البرق للبندارى ج ١/١٥١

وقد ذكر هذه الرسالة إلى جانب أبي شامة وابن واصل ياقوت في "معجمه" والصفدي في "الوافي" واسماعيل باشا البغدادي في "عديّة المعارفين" وبروكلمان في تاريخه^(١).

نحلة الرحلة وحلية المعطلة :

وعلى رسالة ثانية مفقودة ، وذكر فيها اختلال أحوال الدولة وانقسام أبناء السلطان وصراعهم مع عهدهم ، ولعل الرحلة الواردة في العنوان جاءت عن رحلته إلى مصر محاولاً إصلاح ذات البين بين المتنازعين من أفراد البيت المالكي ، ونعتقد أن ما جاء فيها كان شاملاً ما فاتته في "العتبي" ومركزاً على ما جرى في رحلته إلى مصر سنة ٥٩٢ هـ ، وقد ذكرها أبو شامة في "الروضتين" وكتب بعض فقراتها بحولها فيها فقال : وللعماد كتاب آخر سماه بنحلة الرحلة ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وسواء أن الأحوال التي اختلت وتفسيرت بعد موت السلطان وإراد العماد الرحلة إلى مصر ، فأصبحه الأفضل رسالة إلى أخيه المنزير فمضى إليه وعنده عمه العماد فلم يتمكن من الرجوع إلا معهما^(٢) .

وقد حفظ ابن واصل في "المفرج" فقرات منها كثيرة إلا أننا لا نستطيع معرفة أيها ورد في "العتبي" والعتبي ، وأيهما ورد في "نحلة الرحلة" لأن ابن واصل لم يشير إلى ذلك بل كان يقول دون إشارة "وكتب عماد الدين الكاتب" أو "قال عماد الدين" ومع هذا أورد ابن واصل فقرات طويلة لم ترد في "الروضتين" .
عذا وقد لخصها الفتح البنداري في نهاية "البرق" ضمن الجزء المفقود حتى الآن^(٤) .

وقد ذكرها إلى جانب أبي شامة ياقوت والصفدي واسماعيل باشا^(٥) .

خطفة البارق وعطفة الشارق :

وعلى رسالة ثالثة ذكر فيها أشياء من حوادث سنة ٥٩٣ هـ إلى أن توفي في سنة ٥٩٧ هـ وعنى ضمن كتبه المفقود إلى الآن . وقد ذكر أبو شامة بعض فقراتها وحوادثها كما فصل في الرسالتين السابقتين . كما اقتبس ابن واصل كثيراً من فقراتها التي لم ترد في "الروضتين" ومنها عجاؤه لعز الدين أسامة صاحب قلعة بيروت الذي تركها خوفاً ممن الفرنج في أوائل سنة ٥٩٤ هـ فهجاه العماد قائلاً :

-
- (١) معجم الأدباء (١٦/١٩) والنواصي بالوفيات (١٤٠/١) وعديّة المعارفين (م ١٠٥/٢)
وبروكلمان ٥٤٦/١ (٢) الروضتين ج ٢/٢٣١
(٣) مفرج الكروب (ج ٢/٣٨٤١٣ وغيرها)
(٤) مقدمة سنا البرق الشامي ج ٤/٥١
(٥) معجم الأدباء (١٦/١٩) والنواصي بالوفيات (١٤٠/١) وعديّة المعارفين (م ١٠٥/٢)
(٦) الروضتين ج ٢/٢٣٣ (٧) مفرج الكروب ج ٣/٢٥٧ وما بعدها

وَسَمَّاهُ بِكَ
سَنَةَ سَنَاهَا بِبِهْرُوتِ سَمَّاهُ
إِنَّ بَيْعَ الْحِصُونِ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ
لَعَنَ اللَّهُ كُلَّ مَنْ بَاعَ ذَا الْبَيْتِ
عَ وَأَخْزَى بِخَزِيهِ مِنْ سَمَّاهُ (١)

وفيها ذكر العماد رحلته الرابعة إلى مصر بصحبة الملك الكامل ومديحه لسه ،
ولقاءه للفاضل وسى آخر ما كتبه العماد ، ومنها نقل صاحب (٢) الروضتين وفاة عز الدين
ابراغيم بن شمس الدين بن المقدم أحد الأمراء الكبار سنة ٥٩٧ هـ مما يدل على أن العماد
ظل يكتب حتى آخر لحظة من حياته ونقل منها كذلك أخبار المجاعة التي عمت البلاد فسى
تلك السنة ، وسى تدل كذلك على أن العماد ظل نشيط العقل دائب العمل على الرغم
من كبر سنه إلى أن نالته يد المنون في أول رمضان سنة ٥٩٧ .

رابعاً : كتب تراجم وتاريخ أدبي :

وتألف من كتابين أولهما الخريدة وثانيهما ذيلها

(١) خريدة القصر وجريدة العصر :

كتاب مشهور ذكر فيه العماد الشعراء والكتاب الذين عاشوا في القرنين الخامس
والسادس وانتهى به إلى سنة ٥٧٢ من الهجرة . وقد جمعه في أربعة أقسام مشهورة
وجميعها في عشرة وأثنى عشر مجلداً كبيراً ، وجمع القسم الأول منه للمراق ، والثانى
لبلاد العجم وفارس وخراسان والثالث للشام والحجاز واليمن والرابع لمصر والمغرب وصقلية
والأندلس .

وقد طبعت معظم أجزاءه وبقي بعضه مخطوطاً ، وسوف نوفيه حقه من الترجمة
والتعريف والوصف في الباب الرابع - والذي خصصناه للخريدة وأثرنا وأعميتها - من
بحثنا هذا إن شاء الله .

(٢) ذيل الخريدة وسيل الجريدة أو السيل على الذيل :

وسوف نوفيه حقه من الترجمة كذلك في الباب الخامس لأن هذا الكتاب ذيل على

الخريدة وتابع لسه .

خامساً : كتب الرسائل والشعر :

وتألف من أربعة كتب سى (١) جمعه للقصائد التي قيلت فى عمه العزيز

(٢) ديوان شعره (٣) ديوان دوبيت (٤) ديوان رسائله .

(١) مفرق الكروب (٧٥/٤) (٢) الروضتين ج ٢/٢٤٤

(١) مجموعة الأشعار التي قيلت في عمه العزيز : وقد جمعها العماد أثناء وجوده في أصفهان وعلى الأشعار التي نظمها الشعراء في مدح عمه ، وقد تركها في أصفهان حين غادرها إلى بغداد سنة ٥٤٩ هـ وعلى ضمن كتبه المفقودة حتى الآن .

(٢) ديوان شعره : بدأ العماد نظم الشعر في بداية شرح الشباب ، وقد حدثنا عن زيارته للموصل زمن وزيرنا جمال الدين ومدحه له سنة ٥٤٢ هـ ، كما حدثنا عن صلته بالوزير ابن عبيدة ونظمه المدائح فيه وفي الخلفاء العباسيين ، كما سطر لنا الكثير من تلك المراسلات الشعرية بينه وبين بعض شعراء عصره ممن كانت تربطه بهم صلات السود ، وحين انتقل إلى الشام كثر نظمه ، وقد كان للخراب مع أعداء نور الدين الشهيد وصلاح الدين المجاهد مع الإفرنج دافع قوى له على قول الشعر ونظمه ، وقد كان السلطانان يكلفانه في كثير من المناسبات بنظم الشعر في وصف المعارك الشهيرة أو في مراسلاتهما لأقاربهما وأصدقائهما . وهكذا أصبح للعماد حصيلة شعرية ضخمة جمعها - كما يقول العماد - نشوء الدولة أبو الفضل أحمد بن عبد الرحمن بن علي السلمي من بني نفاذه . وقد ترجم العماد له وقال فيه : " شاب محب للفضل حريص على تحصيله بجملته وتفصيله ، وقد كتب ديوان شعري ورسائل " (٢) .

ويبدو أن ما جمعه نشوء الدولة كان ما نظمه العماد قبل سنة ٥٧٢ هـ لأن القسم الشامي من الخريدة جمع قبل غزاه السنة وفيها . ولذا قام العماد بجمع ديوانه مرة ثانية وكتبه بخطه ورآه أبو شامة ونقل عنه (٣) ومن هنا اختلف المترجمون في مجلدات الديوان فجعلها ياقوت في مجلدين (٤) وجعله ابن خلكان والصفدي وحاجي خليفة وغيرهم في أربعة مجلدات كبار .

والديوان ضمن كتب العماد المفقودة ، ولكن الكثير من قصائده موجود في " البروضتين " و " مفرج الكرب " و " الوافي " و " معجم الأدباء " و " وفيات الأعيان " و " مرآة الزمان " و " الجامع المختصر " و " الأعلام الحظيرة " و " تاريخ ابن الفرات " وغيره . كما ترك لنا العماد الكثير من قصائده في كتبه " البرق الشامي " و " الخريدة " بأقسامها و " نصرة الفترة " .

(١) خريدة القصر - قسم شعراء المعجم الجزء الرابع - الورقة ٢

(٢) الخريدة - القسم الشامي ج ١ / ٢٢٩

(٣) البروضتين ج ١ في ١ ص ٧ - ٨) وكذلك (ج ١ في ٢ ص ٤٩٥)

(٤) معجم الأدباء (٢٠ / ١٩)

(٥) وفيات الأعيان ٢٢٥ / ٤ والوافي بالوفيات ١٣٥ / ١

وقد قام الأستاذ الأثرى بجميع أجزاء لطيف منها - كما يقول - في كتابه ، ويبعدو
(١) أنه لم يطبعه .

وقد نظم العماد في مختلف الأغراض المعروفة في زمنه وأكثر شعره في المديح ،
وكثير منه في وصف المعارك والتوحات مع الإفرنج ، ومع السلاطين والملوك الذين كان لنور
الدين وصالح الدين معهم جولات وعمولات ، كما نظم في الفزل والحكمة والفخر بنفسه
وقلمه إلا أنه في الهجاء كان نادر القول قليله ، ولم تُرَوَّ عنه إلا أبيات معدودة فيسه
وسوف نفضل القول في ذلك ونضرب الأمثلة في حديثنا عن أغراض شعره في الباب الثالث
إن شاء الله .

(٣) ديوان دوبيت : للعماد ديوان قصره على شعر الدوبيت ، والدوبيت كلمة أعجمية
تألف من جزئين والجزء الأول معناه اثنان ، وهو مؤلف من بيتين . يقول الدكتور عمر
موسى باشا : وقد سماه الصرب باسم الرباعي لكونه مؤلفاً من أربعة مصارح وسموا الواحدة
منه رباعية ، وأوزانه كثيرة منها : -

(٢)

فعلن مفاعلهن فعملن فعلن

وقد ألف الدكتور كامل الشيبى كتاباً بعنوان " ديوان الدوبيت في الشعر العربي
في عشرة قرون " وترجم فيه للعماد وأورد لهبه ما نظمه من الدوبيت .
ويعد العماد من أوائل الشعراء الذين جعلوا الدوبيت فناً مستقلاً ، وقد جميل
له ديوانا خاصاً ذكره ابن خلكان والصفدي وياقوت والمنذرى وإسماعيل باشا البغدادي
وفهرسم .

وقد حفظ لنا النتح البنداري في " سنا البرق " وأبو شامة " في الروضتين "
القليل مما ورد في هذا الديوان ، ومن أجمل ما أورده أبو شامة ما نظمه العماد تلبية
لرغبة نور الدين :

لِلْمُرُوِّ نَشَاطِي وَآلِيهِ طَرَبِي
مَالِي فِي الْعَيْشِ غَيْرُهُ مِنْ أَرْبِ
بِالْجِدِّ وَالْجِهَادِ نَجْحُ الطَّلَبِ
وَالرَّاحَةِ مَسْتَوْدَعُهُ فِي التَّعَبِ (٤)

(١) تقديم الأثرى للقسم العراقي ج ١/٦٦٦/٧٩

(٢) الادب في بلاد الشام د . عمر موسى باشا ج ٥٧٤

(٣) وفيات الاعيان (٢٢٥/٤) تحقيق محيي الدين والوفائي بالوفيات (١٤٠/١)

ومعجم الادباء (٢٠/١٩) وعدية العارفين ج ١٠٥/٢

(٤) الروضتين (ج ١/٢٠٧) النيب

وله رباعية في رثاء صلاح الدين :

قال الملك الناصر : مَنْ كَلَّفَنِي
فِي الْجُودِ بِفَيْرِ صَفْتِي فَمَا أَنْصَفَنِي (١)
مَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ الْمَلِكَ فَسَنِي
لَمْ يَبْقَ مِنَ الْجُودِ إِلَّا كَفَنِي

والديوان مفقود أيضًا .

(٤) ديوان رسائله :

كتب العماد خلال عمره المديد مئات الرسائل ، وقد جُمع قسم كبير منها في حياته
جمعها - كما ذكر العماد - نشو الدولة أبو الفضل أحمد بن عبد الرحمن بن علي السُّلَمي
من بني نفاذه وهو نفسه الذي جمع ديوانه . وكان ذلك قبل نهاية سنة ٥٧٢ هـ وهي السنة
التي أنهى فيها العماد القسم الشامي من الخريدة ، وقد كتب العماد بعد ذلك رسائل
كثيرة جدًا أثناء عمله مع السلطان صلاح الدين ومع ابنه الأفضل من بعده .

وديان رسائله كبير ويعتقد أنه كان في ثلاثة مجلدات كبار ، وهو ضمن كتبه
المفقودة حتى الآن .

وقد وجدنا مصورة لمخطوط رقم ٤١٩ أدب بعنوان : رسائل بين الملوك في أيام
الأيوبيين ، من إنشاء أحد الكتاب في حدود سنة ٥٩٧ هـ ، وكتب على ظهر الورقة الأولى
أنها ترسلات العماد الكاتب . وقد ألصق على هذه الكتابة ورقة بيضاء ، وعلى مصورة
عن مخطوطة نور عثمانية رقم (٣٧٤٥) في ٩٩ ورقة بحجم متوسط .

وقد قمنا بتصويرها وحججنا رجعتنا إليها وجدنا أنها رسائل لشيخ الدين أبن
الأثير ، وما يقطع الشك في هذا الأمر ما وجدناه في مواضع مختلفة من رسائل مبعوثة إلى
أخيه مجد الدين أو رسائل مؤرخة بعد وفاة العماد وبعضها سنة ٦٠٠ من الهجرة
وفات العماد سنة ٥٩٧ هـ .

وقد حفظ لنا العماد الكثير من رسائله في كتابه " البرق " و " الفتح " والقبيل
منها في " الخريدة " كما حفظ لنا أبو شامة في " الروضتين " الكثير منها ، ووجدنا
بعضها في " وفيات الأعيان " و " الوافي بالوفيات " و " مرآة الزمان " و " مفرج الكروب "
و " صبح الأعشى " و " تاريخ ابن الفرات " وغيرها .
وسوف نفصل القول في رسائله وأغراضها وأسلوبه فيها في الباب الثاني من هذا البحث .

(١) الروضتين ج ٢ ص ٢١٤ (النيل)

(٢) خريدة الفصير - قسم الشام ج ١ / ٣٢٩

(٣) مقدمة سنا البرق الشامي ج ١ / ١٥

(٤) فهرست المخطوطات المصورة - نواد سبتمبر ١٩٧٥ / ١

كتاب لم يؤلف :

بدأ العماد القسم المصري من الخريدة بترجمة للقاضي الفاضل قصرنا على مدائحه فيه ورسائله إليه ووعد العماد بتأليف كتاب يترجم فيه للقاضي الفاضل وحده لأنه يراه في منزلة لا يرقى إليها أحد ، فخيره دونه ، ولا يبلغ الشعراء والأدباء مكانته ، ولكن العماد لم ينفذ هذا الوعد ، ولم يف بالمهد الذي قطعه على نفسه ، ولعل اشتغاله في الحروب والفتوح أنساه الكتاب ، أو لم يجعل عنده الوقت الكافي لجميع مادته ، ولا نستطيع الإيعاء بفقدانه لأن أحداً من مترجميه لم يذكره .

وكتاب نسب إليه وهو :

البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان : وهو كتاب تاريخ يبحث في تاريخ الدولة الإسلامية من البعث إلى سنة ٥٩٣ من الهجرة ، ويرى يوليسيف أنه يؤرخ للأحداث ما بين سنتي ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م و ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م ، وقد وصفه الدكتور / رمضان ششن بعد رؤيته لمخطوطته الوحيدة الموجودة في مكتبة أحمد الثالث برقم ٢٩٥٩ في تركيبة فقال : " والكتاب في ٢١٤ ورقة مكتوب في سنة ٧٤٤ هـ جرية من أول النسخة إلى الورقة ١٤٠ ب البستان الجامع . ومن ١٤٠ ب إلى آخر المخطوطة ذيل علم الدين سنجر السروري الصالحى عليه ، إلى سنة ٦٢٢ من الهجرة وقال : " وفي العنوان وآخر الكتاب الورقة ١٤٠ ب فقيدان صريحان أن الكتاب للعماد الأصفهاني . ويورد بعد ذلك اعتراض المؤرخ الأوربي يوليسيف بسبب وجود كلمة القاضي في اسم المؤلف الذي يقول فيه : " إن الكتاب ليس للعماد ولكنه لرجل تسمى باسم العماد وكان قاضياً بحلب في عهده " . ويعتقد الدكتور رمضان ششن أن الكتاب للعماد وأن اعتراض يوليسيف لا قيمة له لأن العماد تسمى بلقب القاضي في كثير من الأحيان ، ويورد ششن على ذلك جملة في الجزء الثالث من " البرق " يقول فيها : " توجهت حضرة سيدنا القاضي الأجل عماد الدين " وينبه بعدها إلى أن أسلوب الكتاب يختلف عن أسلوب العماد المعروف .

وقد ترجم رونسيان لهذا الكتاب وقال : " لقد كتب هذا الكتاب في حلب سنة ١١٩٦ هـ "

(١) الخريدة - القسم المصري ج ١ / ٢٦٦

Nur al Din P. 22/23

(٢) نور الدين اليعسيف ج ٢ / ٢٢٢ - ٢٢٤

(٣) وكذلك بروكلمان ١ / ٩٦٨ تقديم منا البرق ج ١ / ٢٢٢

(٤) المرجع السابق ج ١ / ٢٢٢ (٥) المرجع السابق ج ١ / ٢٢٣

وهو مختصر لتاريخ العالم الإسلامي يهتم بشكل أساسي بالبلاد الواقعة بين حلب ومصر ،
وينقل في كثير من الأحيان من كتاب ابن أبي طي (١) .

ونحن لانعتقد أنه من تأليف العماد للأسباب الآتية :

أولها : أن العماد لم يتخذ من حلب دار إقامة طويلة حياته ، وإن كان يتردد عليها
لفترة قصيرة أثناء عمله مع السلطانين نور الدين وصلاح الدين .

وثانيهما : أن أسلوب الكتاب باعتراف الدكتور رمضان يختلف عن أسلوب العماد ولا نجد
سبباً يدعو العماد إلى تغيير أسلوبه ، وربما اعترض علينا ، بأن موضوع الكتاب تاريخي
وعندما دعا مؤلفه إلى ترك الصناعة اللفظية والمعنوية وردنا عليه أن العماد ألف كتابا
تاريخية كالفتح والبرق بأسلوبه المشهور .

وثالثها : أن السنة التي أنهى فيها المؤلف كتابه سنة ٥٩٣ هي السنة نفسها التي
كان العماد يؤلف فيها "الفتح" و"البرق" و"رسالة المعتبي" ، فلماذا يكسر
العماد مادة كتبه في كتاب آخر بأسلوب آخر ؟

(١) رونسيما ص ٤٨١ (بالانجليزية)

الباب الثاني

العماد والأدب المنشور

الفصل الأول : العمامة الكاتب

الفصل الثاني فنون العمامة النثرية

الفصل الثالث : العمامة المؤرخ

الفصل الرابع : دعائم أسلوبه النثرية

الباب الثاني

العماد والأدب المنشور *****

نال العماد ثقافة عالية شملت مختلف علوم عصره أو معظمها ، وكانت الكتابة فسي الدواوين والإشراف على ديوان الإنشاء عملاً الرئيسي الذي اشتهر به وعرف ، حتى أصبح الساعد الأيمن لنور الدين ثم لصالح الدين من بعده ، وعلى الرغم من هذا العبء الثقيل لم يشغله ذلك العمل عن قول الشعر وإسالة أحاسيسه ومشاعره في أسلوب موسيقى رقرق . . . تعبيراً عما في النفس وتسجيلاً لخطوات الحس ، وتقديراً للملوك والأمراء والقادة والوزراء الذين عرفوه وقدره وأحبهم وأحبوه ، وحين فقد مركزه عاد إلى مدرسته يعلم ويسدّس ويؤلف ، وقد خصص السنوات الأخيرة إلى يوم وفاته سنة ١٩٧٥ لكتابة تاريخي نور الدين وصالح الدين وخلفائه من بعده ، واشتهر العماد طوال حياته بكتابة الرسائل والمنشورات وما يتبعها ، وتاريخ الأحداث التي شهدنا أو سمعنا من الثقات ، ونظم الشعر فسي مختلف الأغراض الأدبية .

وقد نال العماد شهرته بالكتابة في ديوان الإنشاء حتى عرف بلقب الكاتب وأصبح ذلك اللقب علماً عليه وحده لا يناهسه فيه منافس .

أمّا العماد المؤرخ فتعدّ كتبه التاريخية عند المؤرخين الأوربيين وبعض مؤرخينا المسلمين المصدر الأساسي للأحداث التي سجلها بقلمه ، ويأتي بعد ذلك دوره فسي الشعر .

وضح أنه في العصور المعاصرة نال شهرة في الشعر عنه في الكتابة لدى بعض النقاد لم يعترف المحدثون بتفوقه في الشعر وظلوا يترجمونه على أنه كاتب ولهذا سنبداً بدراسته نتاجه النثري من حيث تمييزه في الرسائل وما يلحق بها ، ثم نُشئُ بحديث عن مكانته التاريخية ثم نعقد باباً آخر لدراسة نتاجه المشعري .

الفصل الأول

المصادر الكتاب

النثر قبل عصره :

بعد أن قامت الخلافة العباسية ، واختلفت طرق الحياة والمعيشة فيها ، وأصبح للفرس مكانة يحسدون عليها ، أحدث ذلك تأثيراً كبيراً في النثر العربي ، فأصبح فروعاً متعددة وألواناً متميزة ، وكان منه النثر العلمي والنثر التاريخي والنثر الأدبي ، ونشطت الخطابة خاصة السياسية منها ، واتسمت المناظرات الكلامية وبرز كثير من زعماء المذاهب الفكرية في هذا المجال تبرزاً واضحاً ، وقد كان الفرض الأول لرجال الفرق المختلفة الرد على مخالفيهم من الفرق الأخرى كالجهمية والمرجئة والجبرية والمعتزلة وأهل السنة وغيرهم من أهل الكلام ، وقد استطاع المعتزلة أن يمهضوا بالنثر العباسي نهضة رائعة ، وتنوع النثر الأدبي فأصبح يشمل الخطابة والوعظ والقصص والرسائل الديوانية واليهودية والوصايا والتوقيعات والرسائل الأخوية إلى غير ذلك .

وظهر في العصر العباسي الأول كتاب مشهورون من أمثال ابن المقفع وسهل ابن عارون والجاحظ وغيرهم ، وامتاز كل واحد منهم بميزات خاصة به ، وسمات تدل عليه ، وأسلوب اشتهر به . وكان هؤلاء يلتزمون الوضوح والسهولة مع توفير الجزالة والريانة ، وجمال الصياغة ، وظهرت عند الجاحظ الواقعية والاستطراد وضروب من التلوين الصوتي وأخرى من التلوين العقلي وغيرهما .

وتغيرت في هذا العصر مظاهر الحياة وارتقت ، وعرفت التزين وعاش الناس حياة الفنى والثراء .

وكان لهذه الحياة تأثير كبير على الأدب نثره وشعره . ومن دلائل ذلك ظهور السجع الذى أفاد الأساليب زينة لفظية في التوقيعات وغيرها ، وأصبح عنصراً أساسياً فى تجميل الأساليب والتراكيب الأدبية .

وفى بداية القرن الرابع بدأ السجع يأخذ طابعه الواضح فى كل النتاج الأدبي ،

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى . د . د . شوقي صيفى ١٢٧ وكذلك فى كتابه العصر العباسي الأول سنة ٤٤٦ .

(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى . د . د . شوقي صيفى ١٢٧

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر ص ١٤٤ والعصر العباسي الأول ص ٥٢٢ والاتجاهات الأدبية فى العصر العباسي ٥ السيد أحمد خليل ص ١٢٦

(٤) الفن ومذاهبه فى النثر ص ١٩٨

ولم تصل الحياة الأدبية إلى عصر المقتدر (٢٩٥ - ٢٢٠) حتى كاد السجع يصبح عامًا في كل ما يصدر عن الدواوين الرسمية، ولم يكن غناشوزير ولا كاتب لا يتخذ السجع مذعباً في صياغته .

ولم يكن ذلك مقصوراً على بغداد وكتابتها بل امتد ذلك إلى الإمارات المستقلة كإمارات السامانيين والبويهيين، والزياريين، ثم في الدولة الخزنوية فيما بعد . وأصبح السجع والبديع من أهم مواد صناعة الكاتب، وظهر في هذا العصر كتاب مشهورون كابن العميد والمصاحب بن عباد وأبي إسحاق الصابي وغيرهم . وكان للأول منهم شهرة فائقة حتى قيل فيه : " بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد " ويعدده الدكتور شوقي صيف أول كاتب احتكم إلى السجع في كتابته فجعلها جلّ عمه ، والمظهر الرئيسي في كتابته .

ويعدُّ المصاحب بن عباد تلميذ ابن العميد في هذا المجال حيث سار على نهجه وسلك طريقه وكان في أسلوبه يُعنى بقصر سجماته ، فإن طالت عاد ل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر . . . وعنى كذلك بألوان البديع خاصة لوني التصوير والجناس ولعل ميله إلى الجناس هو الذي جعله يكثر في رسائله من الجناس الناقص، أما ميله إلى التصوير ، فقد جعله يبرع في أوصاف الطبيعة ، وشابيهما الصابي وسار على طريقتهما وعنى بالسجع والجناس وغيرهما من ألوان البديع والتصنيع .

وهكذا أصبح البديع بأنواعه - خاصة السجع - مظهرًا أساسيًا في النثر مما جعل الدكتور سامي العاني ينفي عن هذا الأدب صفة الوضوح .

وكلما مضى الزمن وتقدم عهد الكتاب إلى هذه الأساليب في نثرهم خاصة رسائلهم وظهر بعد ابن العميد والمصاحب والصابي فريق آخر - كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني - تمسكوا بما وجدوه عند سابقينهم وزادوا على ذلك غنايتهم بالفن كما فعل بديع الزمان في مقاماته وأكثرها من إيراد ذلك في الشعر ، وزادوا من اقتباسهم من القرآن الكريم وحشد الأمثال والاهتمام بالجناس .

ثم جاء من بعد هؤلاء جميعاً أبو العلاء المصري والحريري فمالا إلى التعقيد

-
- (١) المرجع السابق ص ١٩٦ (٢) يتيمة الدهر ١٣٧/٢
 (٣) الفن ومذاهبه في النثر ص ٢٠٩ (٤) الفن ومذاهبه في النثر ص ٢١٦
 (٥) مقدمة دمية القصر وعصرة أهل العصر للدكتور سامي العاني ج ١/٢٩
 (٦) الفن ومذاهبه في النثر ص ٢٥٢

ميلاً بيناً وسلك المعرى ضرورياً من الأساليب أدت به إلى تعقيد هذا الفن عقداً مختلفة وعلى عقد كان يلتصقها في استخدامه للفريب وأوايد الكلام والأمثال والإشارات التاريخية وتارة في التزامه ما لا يلتزم - وتارة في بناء أسجاعه على حرف واحد أو حرفين أو أكثر، وهو لا يتكفى بذلك بل نراه يعدل في أحوال كثيرة إلى المجانسة مع ميل إلى الفريب حتى قال الدكتور شوقي صيفاً "إننا لا نخلو إذا قلنا : إن أنتم ما يميز أبا العلاء في جميع نماذجه النثرية أنه كان يطلب الفريب من حيث هو كأن الإغراب رينة ينفى أن يتحلى بها جيداً أعماله" ويبدو هذا التعقيد واضحاً في كتابيه "رسالة الففران" و"الفصول والفيات" ولصعوبة كتابه الثاني اتهم بالإلحاد، قال البخارزي : "وإنما تحدثت الألسن بإسائه لكتابه الذي زعموا أنه عارض به القرآن وعنوانه بالفصول والفيات محاذاة للسور والآيات، وأظهر من نفسه تلك الجنائية" ويعتقد ابن العميد عكس ذلك تماماً فيرى أنه "في تمجيد الله والسعيات" ويقول كذلك : "فإن الكتاب ليس من باب المعارضة في شيء" وتابعه على ذلك الدكتور شوقي صيفاً وأخذ برأيه .

وجاء من بعده الحريري صاحب المقامات ليتخذ لنفسه أسلوباً يقوم على السجع والبديع والتعقيد كذلك ، وكان أسلوبه هذا كان مثار إعجاب مزامنيه ومن جاءه وبعده ، ويكفينا دليلاً على ذلك ما كتبه صاحبنا العماد في ترجمته له، إعجاباً وتقديراً فقال : "سار فضله في الآفاق بين المقيمين والرفاق ، وطلعت ذكاه في المغرب والمشرق" ، وكتب فيه كلاماً كثيراً ، ومن ذلك ثناؤه على رسائله وغريبها بقوله : "وله رسائل معجبة وكلام غريب كالشرب ماله ضريب" ولقد أعجب العماد بمقامتهن له عند الحريري في الأولى منهما ، إلى إيراد السمين في كل كلمة من كلماتها ، وسماها السينية والشرين في الثانية وسماها الشينية ، وأورد عماد السمين كاملتين نثرهما وشعرهما وسجل له الكثير من المقطعات النثرية والشعرية وامتدت ترجمته من ٥٦٩ - ٦٢٤ من الخريدة ٠٠ مما يقطع بإعجاب العماد بشعره ونثره إعجاباً ملك عليه فؤاده فأغراه بالاستزادة من الأقطاف والاختيار .

وبذا أصبح أسلوب الحريري يقوم على الجناس والتعقيد والزخرف إلى جانب السجع وأنواع البديع المختلفة ، وهو بالإضافة إلى ذلك استحدث طرقاً جديدة كتلك المقامات التي

(١) الفن ومذاعبه في النشر ٢٦٩ - ٢٧٠ (٢) دمية القصر ج ١ / ٢٠٢
(٣) تحريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٧ (٤) الفن ومذاعبه في النشر ص ٢٨٥
(٥) ذكاه بالضم : الشمس (٦) الشريدة القسم السراقى ج ٤ ص ٦٠٠ / ٦٠١
(٧) راجع ترجمته في الخريدة الجزء الرابع من القسم السراقى ٥٩٩ - ٦٢٤

بناها على حرف من الحروف أو على نمط معين كمقامتيه السينية والشينية ، وكذلك إيرادها للأشكال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والتأوي اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبّرة ، إلى جانب اقتباسه للآيات القرآنية الكريمة " . ويرى الدكتور شوقسى ضيف أن إكثاره من التنايات يحيل كثيراً من جوانب مقاماته إلى ما يشبه الألفاظ " ويضرب لذلك مثلاً بمقامته التاسعة عشرة التي يكنى فيها عن الموت بأبي يحيى وعن الجوع بأبي عمرة (١) إلى غير ذلك .

وسكذا ما نكاد نصل إلى عصر العماد وزمنه حتى نجد أن النشر أصبح ذا صورة خاصة تحتم على الكاتب أن يسلك طريقها ويسير عليه وينحو منحاه . وكان العماد ابن عصره فمثله خير تمثيل - خاصة في تصنيحه وأسلوبه ، ومنهجه ، ولا ننسى أن العماد درس مقامات الحريري على يد ابن الحكيم مرة وابن الحريري مرة ثانية .

النشر في زمن العماد - فنونه - موضوعاته :

لعل من أشهر كتاب هذا العصر القاضي الفاضل والعماد ضياء الدين بن الأثير والخطيب الحصكفي ، أما العنون النثرية فقد تعددت ، وأهم ألوانها البارزة الفن الخطابي والنثر الديواني والنثر الوصفي والنثر الذووي والوجداني .

ويشمل كل فن منها أقساماً عدة : فالفن الخطابي يشمل الخطب الدينية والخطب الحربية والخطب السياسية . والنثر الديواني يشمل كتب التقاليد والتواقيع والمنشورات السلطانية ، كما يشمل كتب التهاني والفتوح التي كان يكتبها الكتاب إلى الخليفة وإلى ملوك الأمصار وولاتها وكتب النفي والحث على القتال .

ويشمل النشر الوصفي التاريخ والتراجم والرحلات والمقامات ويشمل النشر الذووي والوجداني والرسائل الأخوية والخواطر التأملية والقصص الوعظية والمنامات الأدبية كمقامات الوتراني .

ومن أهم موضوعات الأدب في هذا العصر الحروب الصليبية وما يتصل بها من رسائل التهاني والتبشير وكتب النفي ، وما كتبه المؤرخون من كتب حولها وفي وصف معاركها .

(١) الفن ومذاهبه في النشر ع ٣٠٠ - ٣٠١

(٢) أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين الحصكفي الخطيب بميفارقين ، ترجم له العماد وأعجب به ، ولد سنة ٤٦٠ تقريباً . له ديوان نظم وترسل ، وتوفي سنة ٥٥١ الخريدة المتن والحاشية - قسم الشام ٤٧١/٢

(٣) راجع كتاب الأدب في بلاد الشام للدكتور عمر موسى باشا ع ٧٢٢ - ٧٦٩ وكذلك الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي - دكتور محمد زغلول سالم ع ٢٠٤ - ٢١٢

ولم ينس الأدب المجتمع وما دار فيه وما أصابه من ويلات ونكبات وما حلَّ به من مجاعات وزلازل ، بل دخل إلى صميم الحياة أحياناً فمدح وذم ، ورفع ووضع ، ووَصَفَ الكُتَّابَ المدن ما دحين أو ذامين إلى غير ذلك .

وغلِبَ التصنيع على أدب هذا العصر نثره وشعره فقام على صوغ الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، وعلى تصنيع البديع وزخارفه من سجع وجناس وطباق ، وعلى كما مرَّ بنا طريقة المتأخرين خاصة الحريريِّ وأُعرابه الذين غلب على نثرهم التعميد والتصنيع . قال الدكتور سالم - في وصف أدب هذه الفترة - " فالأدب في عصرنا هذا كان حقاً أدب صنعه في أكثره ، وإن لم يخلُ الأمر بطبيعة الحال من الطبع والحسن الرقيق ، و«و» أدب " برجوازي " إذا صح استعارة التعبير - في أساليبه وموضوعاته بمعنى أنه أدب ترف لخدمة الطبقة الحاكمة والوزراء والولاة ، وغو في كثير من حالاته كذلك - أدب تسلية وقطع للوقت ، إذ فيه غير قليل من اللصب باللفظ والمعنى ، والمهارة في اللغز والتعمية ، بقصد السَّمرِ والدُّعابة ، وكان على الأديب أو الشاعر أن يبرع في هذا كله ، ويُعِدُّ عدته وآلاته ، وإلاَّ كان أديباً كاسد السوى ، غير قريب إلى قلوب الرؤساء ونفوسهم ولا مختصَّاراً لمجالسهم وأسماهم " .

القاضي الفاضل وطريقته :

هو أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين اللخمي البيسانى المعروف بالقاضي الفاضل (٣) (٤) . كان والده قاضياً بمسقلان ، فولد القاضي الفاضل بها في الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة . أرسله والده بعد أن شبَّ عن الطوق إلى مصر في خلافة الظاهر الخليفة الفاطمي ، وكان ابن الخلال صاحب ديوان إنشائه فتخرج به ، وتعلم على يديه حتى مهر في الكتابة وفاق أقرانه فيها ، والتحق بمد ذلك بصلاح الدين نصار وزيره وعضده وأصبح المعتمد وإليه الكلمة النافذة والقول الفصل ، وظل على هذه الحال حتى توفى السلطان واختلف أبناؤه فلزم بيته إلا ما ندر حتى توفى في السادس من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هجرية .

- (١) راجع ما كتبه صاحب الادب في بلاد الشام عن ٧٨١ وما بعد عما . والأدب في عصر صلاح الدين عن ٢١٨ - ٢٢١ (٢) الادب في عصر صلاح الدين عن ١٩٣
- (٣) نسبه إلى مدينة بيسان المدينة الفلسطينية المحتلة .
- (٤) له ترجمة في الخريدة - قسم مصر ٣٥/١ والجامع المختصر ٢٨/٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٥٣/٤ والمبر ٢٩٣/٤ والوفيات ١٦٥/٣ ومرآة الزمان ٤٧٣/٨ وطبقات الشافعية للأسنوي ٢٨٢/٢ ومقدمة ديوانه ، وكتاب الدكتور بدوي عن القاضي الفاضل
- (٥) مسقلان مدينة فلسطينية محتلة تقع على شاطئ البحر المتوسط شمال غزة
- (٦) الروضتين ج ٢/٤١١ وفيه وفيات الاعيان جعل وفاته في السابع من ربيع الاول ١٦٥/٣

ومحمد القاضي الفاضل زعيم مدرسة زمانه في الكتابة ، فقد اُتصف نشره بصفات خاصة
بعضها كان موجوداً في السابق وبعضها جديد .

وتقوم طريقة الفاضل على دعائم ذكرنا الأستاذ محمود رزق سليم فقال : " التزام
السجع ، وربما لزم فيه ما لا يلزم ، والاقتباس الدقيق من القرآن الكريم ، والجناس الخفيف
المقبول ، ومراعاة النظر والترادف ، والطباق ، والاعتماد على المجاز ، واصطناع الأمثلة
وتضمينها . . . عذا مع جنوحه غالباً إلى الفقرات الطويلة والإكثار من الأدعية والألقاب مع
استعمال نحو المجلس وإضافة الياء إلى اللقب مبالغة " ويقول كذلك : " على أن طريقة
الفاضل لها دعائم أخرى أكثر من هذه منها التورية والإستخدام والتوجيه والتلميح " . وقد
اتفق معه في ذكر هذه الدعائم الدكتور عبد اللطيف حمزة ، ولكنه فصل في بعضها وشرحها
فقال : " وكان من أهم الأشياء التي أضافها أديب العصر الأيوبي ، أولاً : والتورية .
وثانياً : نشر القرآن على طريقة ابن العميد في نشر الأشعار .

وإلى هاتين الخاصتين أضافت المدرسة الفاضلية خاصتين أخريين ، وهى الدكتور
عبد اللطيف حمزة أنهما ليستا من ابتكارها ولكنهما من ابتداع المدارس الأدبية التي
سبقتهما ، غير أن المدرسة الفاضلية كانت صاحبة الفضل في الوصول بهما إلى أقصى الشوط
وعما : أولاً : التوجيه . ثانياً : الاقتباس أو التضمين . وقد شرح معنى التوجيه فقال :
(نحو استخدام المصطلحات العلمية على اختلافها في الأدب ، وشرح الاقتباس والتضمين
فقال : " وهو غير نشر القرآن الذي مر ذكره فقد أكثر منه شعراء العصر وضمغوا شعرهم
كثيراً من القرآن والحديث وأشعار القدامى والمحدثين " . ونستطيع القول : بأن كل
ما ينطبق على النشر ينطبق على الشعر .

واتفق معهما الدكتور سالم الذي يفصل القول في بعضها قائلاً : " وهكذا نجد
الفاضل يمزج في براعة بين التلوين الصوتي (٤) عن طريق الجناس والسجع والتلوين التشخيصي
أو بالصور المخيلة عن طريق الاستعارة والتشبيه .
ووافقهم كذلك على ما سبق الدكتور شوقي صيف ولكنه ركز على ميل الفاضل إلى
التشخيص والتورية " . (٥)

(١) عصر سلاطين المماليك - محمود رزق سليم ٧٩/٥

(٢) المرجع السابق ٧٩/٥

(٣) الحياة الفكرية - د . عبد اللطيف حمزة (٢٨٠ - ٢٨١)

(٤) الأدب في عصر صلاح الدين . د . سالم بن ٢٢٦

(٥) الفن ومذاهبه في النشر . د . شوقي بن ٣٧٤ - ٣٧٥

ومع أن الفاضل نال شهرة فائقة وذاع صيته في عصره وبعد عصره ، وأصبحت طريقته نهجاً يُقتدى به غيره من الكتاب والنقاد قديماً وحديثاً . يرى بعض الدارسين قديماً وحديثاً أنها طريقة سيئة لميلها إلى الزخرف والتلاعب بالألفاظ والتصنيع في كل كلمة ، ومن هؤلاء : ابن خلدون والدكتور أحمد أمين .

أمّا ابن خلدون فيقول في مقدمته : " قد قدّمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من فلتته تكون جودة الملكة الحاصلة عنده للحافظ ، ، فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتّابي أو ابن المعتز أو ابن غانئ أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن شارون أو ابن الزيات أو البديع أو السّابي ، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النّبيه أو ترسل البيهقي أو العماد الأصبهاني . . . لنزول طبقته هؤلاء ، عن أولئك ، ، يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق ، وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده " .

فهو يرى أن نشر القدماء وشعرهم خير من نشر القاصي والعماد ومن عاصر في زمنهم ولم يعلل سبب الأفضلية ، وربما كان التصنيع في نشر المتأخرين هو السبب في تأخر طبقته عن سابقيهم .

ولعل في رأي الدكتور أحمد أمين اجحافاً كما يبدو في قوله : " إن اتجهنا إلى الغربيين إلى العلوم وتوسعهم فيها جعلهم يكتفون أدبهم بلون العلم ، وكان لأدبهم موضوع ، على عكس ما نرى عند الخوارزمي والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل من كلام كثير لا موضوع له " .

ونحن نميل إلى أن في قوله تجنياً على هؤلاء الذين يشهد لهم نشرهم ورسائلهم وكتبهم التي وصلتنا بأهمية الدور الذي قاموا به في خدمة أمتهم ، فرسائل القاضي الفاضل والعماد كان لها أهمية عظيمة في الحث على الجهاد والاستنجاد والدعوة إلى المساعدة بالمال والنفس ، وكان لها دورها الفعّال في إلهاب المشاعر وإثارة الهمم وبعث الأحاسيس . ولعل ما كتبه الدكتور عبد اللطيف حمزة في دفاعه عن طريقة الفاضل ومدارسته صورة حقيقية عما يدور في نفوسنا نحو هذا الأدب ، وإنه ليقول : " ونعود إلى مدرسة البديع في الأدب المصري ، فنلاحظ أن زعيمها وهو القاضي الفاضل قد أسرف على أسلوبه في الزينة

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٨

(٢) ظهر الاسلام د . د . أحمد أمين ج ٢ / ٢٧٢

اللفظية حتى ليخيل إلى الباحث أنه نظر إلى هذا الأسلوب ، كما ينظر الصانع إلى قطعة من السجاد يثقلها بأصباغه وألوانه ، ويخالج في زركشتها مبالغة تشبىح حاجة ملحة في نفسه ، وعلى حاجة إلى إرضاء الفن للفن ، ولعل ذلك عوفرو ما بينه وبين مدرسة الجعاني . بل عوفرو ما بين ذوقه وبين أذواقنا في الوقت الحاضر ، ومن هنا نظلم أدب القاضي في المصور الحديثة ، وجاء ظلمنا له من مخالفتنا لقاعدة من قواعد النقد يسيرة ، وخلصتها أنه ينبغي لنا دائماً في تذوق الأدب أن ننظر إلى هذا الأدب بالعين نفسها التي كان ينظر بها أسلافه إليه ، وأن نتذوقه بالطريقة نفسها التي تذوقه بها أصحابه من قبل . وإلا فكيف نقرأ بأذواقنا الحديثة شعر جرير والخرزدق والأخطل وغيرهم ؟ ثم كيف نقيس بمقاييسنا الحديثة أدب ابن المقفع والجاحظ والساحب بن عباد ^(١) ومن إليهم ؟ إننا مضطرون دائماً أن نتخلى عن هذه القاعدة في دراستنا لكل أدب قديم .

تأثر العماد بالقاضي الفاضل :

كان القاضي الفاضل زعيم مدرسة التصنيح والمحسنات اللفظية والبدعية ، ويرى كثير من الباحثين أن العماد كان تلميذاً مجيداً للفاضل ، بل هو أحسن تلامذته الذين اتصلوا به عن كتب وقرأوا رسائله ، ودارت بين الطرفين مراسلات عديدة أثناء عملهم ^{مساعدين} للسلطان الأيوبي ، وقبل أن نذكر آراء هؤلاء الباحثين نود أن ندرس تلك العلاقة التي كانت قائمة بين الرجلين ، فالعماد كما نعرف كان الرجل الأول عند نور الدين ، فلما مات فقد مركزه ، ورجع إلى دمشق من الموصل بعد أن علم بمقدم السلطان إلى الشام ، ولكنه لم يستطع الالتحاق بديوانه إلا بعد وساطة من الفاضل ، والعماد كما نعرفنا سابقاً كان وثيقاً لكل من عمل معهم . ومن هنا ظل وثيقاً للفاضل حتى آخر لحظة من حياته ، وربما قال قائل : إن العماد كان مضطراً لهذا الاعتراف ، لأن الفاضل ظل وزيراً للسلطان حتى توفي سنة ٥٨٩ هـ ، فنقول له : " إن العلاقة بين الرجلين ظلت على أحسن ما يرام حتى آخر لحظة من حياة الفاضل ، ونجد ذلك في حديث العماد مع الأفضل ابن السلطان صلاح الدين حين تركه الفاضل إلى مصر ^{منصباً} قال العماد : " فقلت للملك الأفضل : " لم تركت القاضي الفاضل يرحل ، والمُلك يتحول يتحول " ففي هذه العبارة نجد مدى إعجاب

(١) الحياة الفكرية ، د . عبد اللطيف حمزة ص ٢٨٤ - ٢٨٥

(٢) معجم الكروب ج ٣ ص ١٢

العماد بشخصي الفاضل وأخلاقه وحسن إدارته ، ونجد تلك العلاقة الوطيدة في مراسلتها الدائمة ، وفي إحدى هذه الرسائل طلب الفاضل - كما مر - من العماد أن يسرع في إنهاء كتابه البرق الشامي ، وفي أخرى سمي كتاب العماد الثاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، وحلَّ العماد عليه سيقاً حين سافر إلى مصر سنة ٥٩٢ .

والدليل المهم على تأثير العماد بالفاضل : أن العماد نفسه يعترف بذلك فيقول : " وإنما نسجت على منواله من جرياله ^(١) ورويت بزلاله ، وهو الذي نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب وأغربه من الإبداع ، وأبدعه من الضريب ، وما ألقيته كمرر دعاء ذكره في مكاتبته ، ولا روق لفظاً في مخاطبته ، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة لا مفتكرة ، بالعرف والعرفان معرفة لا نكوة ^(٢) ويعترف العماد أن كليهما كان يعرف صناعة الآخر فيقول : " أعرف صناعته ويعرف صناعتي ، وأعارض بصناعته الثمينة ، بعزجة بصناعتي " ^(٣) .

ومن الباحثين الذين قالوا بتقليد العماد له الدكتور أحمد بدوي حيث يقول : وأسلوب العماد لا يختلف عن أسلوب عصره في التزام السجع والصناعة البديعية ، وقد يبالغ في ذلك ، ولا سيما حين يكتب إلى القاضي الفاضل شيخ الصناعة في عصره ، وحينئذ تحس مبلغ المعناء الذي كان العماد يتكلفه ليرضى زعيم أسلوب الصنعة في عصره " ^(٤) .

وه قال الدكتور عمر موسى باشا فهو يرى أن العماد كان التلميذ النجيب للقاضي الفاضل حيث يقول بعد أن يورد عبارة يظهر فيها إعجاب العماد بالفاضل ، تلك هي نظرة العماد إلى القاضي الفاضل الذي جعل لهذا المذنب مدرسة خاعة في البيان وكان فيها التلميذ النجيب الذي اختاره لأنه رآه أنجب من يأتفه على متابعة السير بالأسلوب السري في الطريق التي مهدنا له من قبل " ^(٥) .

ولا شك أن العماد تأثر بالفاضل ، وربما أثر فيه ، ولكن قبل أن نستمر في بيان هذا التأثير والتأثير نود أن نوضح الفارق بين سني الرجلين واختلاف بيئتهما وثقافتهما . فالعماد مولود سنة ٥١٩ والفاضل مولود سنة ٥٢٩ . وقد نال العماد ثقافة عالية في مدارس مختلفة أعلاها النظامية ، وتشرف ثقافة عصره . . . بمختلف فروعها وعلى أيدي كبار

(١) الجريان بالكسر صبح أحمر وحمرة اندغب وسلافة الصمفر وما خلص من لون أحمر وفسيره والخمر أو لونها . (الفاموس مادة جزل)

(٢) الروضتين ج ٢ (النيل) ع ٢٤١ - ٢٤٢ (٢) الروضتين ج ٢ (النيل) ع ٢٤١

(٤) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية د . أحمد احمد بدوي ع ٢٦٩ - ٢٧٠

(٥) الادب في بلاد الشام د . عمر موسى باشا ع ٦٨٦

شيخ زمانه ، أما الفاضل فقد نال قسطاً من العلم على يد والده ثم ثقف نفسه بنفسه ، وتعلم فن الكتابة على يد ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء الفاطمي في زمنه ، ولم يبرز ذلك البروز الواضح إلا بعد أن التحق بديوان صلاح الدين الذي عرف قدره ونباهته وإخلاصه فجعله رفيقاً له وصديقاً ووزيراً . أما العماد فكان في ذلك الوقت قد وصل الى مركز يحسد عليه ، فنحن نعرف أنه عمل نائباً لابن عبيدة في واسط والبصرة ثم عمل رئيساً لديوان الإنشاء عند نور الدين وكان ذلك في نهاية ٥٦٢ - كما مرّ - ولم يكن له معرفة بالفاضل وربما لم يكن قد سمع به أو قرأ له شيئاً . وفي الوقت نفسه كان الفاضل قد اتصل بالسلطان سنة ٥٦٥ هـ ، ولهذا نستطيع القول بأنه في هذا الوقت كان لكل منهما تجربة خاصة به ، وأن التأثير المتبادل والإعجاب الدائم حدث بعد ذلك بفترة ليست بالقصيرة وذلك في سنة ٥٧٠ هـ أو بعد ذلك بقليل . ولكننا نعتقد أنهما قرآ لبعضهما قبل هذا الوقت حين كان نور الدين يكتب لصلاح الدين من إنشاء العماد فيجيبه الثاني بإنشاء الفاضل ، فحدث ذلك اللقاء الروحي قبل أن يحدث اللقاء الثاني الذي كان من نتيجته أن أصبح العماد نائباً للفاضل وكاتباً خاصاً للسلطان .

ونحن بعد هذا كله نرى أن اعتراف العماد بنسجه على منوال الفاضل وإشادته به لم يكن إلا وفاء للرجل الذي وقف إلى جانبه في أحلك فترات حياته . أما هذا الاتفاق في التصنيع فإننا نأخذ فيه برأى الدكتور شوقي ضيف الذي يقول : " والغريب أن العماد مع أنه جاء من المشرق موطن التصنيع لم يستطع أن يتفوق على القاضي الفاضل الذي تخرج في ديوان الفاطميين " فالعماد حين جاء إلى الشام كان قد أتقن صنعته ، فلما التقى بالفاضل أو قرأ له كان على دراية تامة بمنهجه ، فكان تأثير الفاضل فيه تأثيراً شكلياً لا جوهرياً ، وربما كان العماد في بعض رسائله إليه يحاول تقليده إرضاء له لما يحسه نحوه من عرفان بالجميل ، وغو في كلامه السابق يعترف بأنه كان يعارضه في رسائله .

الفصل الثاني

فنون العماد النثرية

كتب العماد خلال عمره العديد آلاف الرسائل والمنشورات والتوقيعات والتفالييد وقد حفظ العماد الكثير منها فيما بقي لنا من كتبه ، وحفظت لنا كتب التراجم بعضها منها كذلك ، ولكن ما وصلنا منها يعد قليلاً إذا ما قيس بما ضاع ، وكان العماد قد جمع رسائله في ديوان من ثلاثة مجلدات ضاع مع ما ضاع من كتبه .

ونستطيع تقسيم ما بقي من نشره إلى الفنون الآتية :

(١) النشر الديواني ويشمل كتب الحرب والتهاني والفتوح والمراسلات مع الخليفة وغيره من الولاة والتفالييد والمنشورات .

(٢) الرسائل الأخوية .

(٣) النشر الأدبي ويشمل ما كتبه في الخريدة في مقدماته للأدباء الذين ترجم لهم .

(٤) النشر التاريخي ويشمل كتبه التاريخية التي وصلتنا وقرأت من كتبه التاريخية المفقودة .

أما كتبه التاريخية فسوف نخصص لها فصلاً ندرس فيه أسلوب العماد التاريخي ومدى صدقه وأمانته العلمية ، والكتب التي نقلت عنه ، ونوازن بينه وبين الأثير صاحب الكامل وسوف نبحث في هذا الفصل بقية فنونه النثرية .

أولاً : رسائله الديوانية :

ونعني بها تلك الرسائل التي كتبها أثناء عمله في ديوان الإنشاء مع نور الدين وابنه الملك الصالح ، وعلاخ الدين وابنه الملك الأفضل . وتختلف هذه الرسائل فسي موضوعها والهدف منها ، وتلى بالتالي تختلف عن بعضها في المنهج وأحياناً في الأسلوب ونستطيع بعد رجوعنا إلى ما وصلنا منها أن نقسمها حسب موضوعاتها إلى الأقسام الآتية :-

(١) كتب البشائر بفتح المدن والبلاد ويتبعها تلك البشارات العامة والخاصة التي كانت تبشر بأمر مفقوح غير الحروب ونتائجها الحميدة .

(٢) كتب في وصف الأحوال والمتجددات اليومية والشهرية وعلى أقرب إلى التقارير ترسل إلى الخليفة بين الحين والحين أو إلى غيره من الملوك حتى يكونوا على علم بما يجري فسي انبلاد أيام الحرب والسلم .

(٣) كتب في الإخبار بوصول جيوش مسلم أو أسطور للمساعدة في الحرب الدائرة .

(٤) كتب الشكر على شيء قدم أو جيش أرسل .

هنا حتى صفحة ٤٠٤ لعلي عرض
المنازع وكردها دود در استر الر التعلو
العاجل

- (٥) كتب الإخبار بوصول جيش إفرنجي ، وعلى أقرب ما تكون تحذيراً للمسلمين .
- (٦) كتب الاستنفاار التي ترسل إلى الخليفة ، أو إلى الملوك وتتبعها كتب طلب الاستعداد وترسل إلى ولاية الدولة التابعين للسلطان .
- (٧) كتب تحمل أنباء سيئة كسقوط مدينة أو حدوث غزيمة .
- (٨) كتب فيها تقليد ولاية .
- (٩) كتب التمزيم بوفاة كبير .
- (١٠) كتب طلب الإذن من الخليفة بعمل ما .
- (١١) كتب الاعتذار عن عمل ما .
- (١٢) كتب استدعاء المساكين من الأمصار .
- (١٣) نسخ الميمن .
- (١٤) نسخ الهلكين والمهود .
- (١٥) أجوبة الرسائل التي كان الخليفة يرسلها أو غيره .

أولاً : كتب البشائر والبشارات :

وكتب البشائر كما ذكرنا أنفاً تشتمل على تلك الرسائل التي كان السلطان يسطرها بقلمه حين يحدث نصر ، أو تحتل مدينة أو يسقط حصن بأيدي المسلمين . ولعل هذه الكتب هي ميدان السلطان الفسيح الذي يجول فيه بقلمه ، ويصوم ببيانه وبلاغته ، فللنصر تأثير جميل على النفس وللفتح روعة وإشراق ، ومنظر الأسرى يبهج النفس ويشيرها ، لقد سطر السلطان بقلمه مئات الرسائل في عهد نور الدين وأيام صلاح الدين ، ورسائله هذه سجل تاريخي رائع على الرغم من أقوال ناقدى أسلوبه المسجع ، إنها تشرح ما كان يدور في هذه المعارك وما يرسوم فيها من خطط ، وتشيد بقادتها وأصحاب البلاء والنخوة فيها .

أما في عهد نور الدين فلم نجد فيما وصل إلى أيدينا من مصادر . . . أي كتاب كامل من كتب البشائر ولكننا وجدنا فقرات من كتاب في " سنا البرق الشامي " ، وعلى من كتاب وجهه نور الدين إلى الخليفة المستضيء بأمر الله حين انتصر مليح بن لاون ملك بلاد الأرمن وكان معاهداً لنور الدين وملتجئاً إليه - على الرغم من فساق إلى نور الدين ثلاثين من مقدميهم ، وشمل لهذا الكتاب ذكر فتوح توران شاه أخي صلاح الدين لبعض بلاد النوبة واحتلال برقة قال : " وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح فسقى

مضمار المناقسة وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح الموائسة ، والله بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام ، ويوفق الخادم لحيازة مراعى الإمام . . . ومنه أيضاً " ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النبوة من افتتاح بعض بلاد النبوة ، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنايك الخيل في العصور الخالية " ومنه كذلك : " وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها وتحكموا في محكم معاقبتها وحصونها حتى بلغوا حدود المغرب ، فظفروا من السؤال بعنفاً مغرباً . . . ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواعى المنى وإقصاء عبدة الصليب الأجناس من المسجد الأقصى ، وأن يجعل فتح بيت المقدس مفتوح مراده ومقترح زناده ومقترحه في جهاده ، وأن يملكه الساحل بجميع بلاد " .

وتظهر في هذا الكتاب بعض ميزات العماد البديعية ومنها تلك الجمل الطويلة والجناس ولكنه جناس خفيف لا تعقيد فيه ولا غرابة ، كما تلاحظ سهولة الألفاظ ووضوحها ، ويظهر فيه كذلك تلك السمات المعنوية ، ومع أننا لم نجد فاتحة الكتاب وبدأيته تترى السواد سلسل أفكاره وعرضها عرضاً واضحاً ، وختصها بأمنية ينطق بها كل لسان إلا وعلى فتح بيت المقدس .

ولا يعنى ما ذكرناه أنها عفات لم يجد العماد عنها فيما بعد ، بل إننا أوردنا لتبرهن على أن كتابة العماد كانت تختلف باختلاف الحادثة وظروفها .

ولم نجد بعد ذلك للعماد رسائل كاملة في هذا الصدد طيلة حياتي نور الدين ثم صلاح الدين من بعده إلى سنة ٥٢٤ هـ حيث وجدنا فقرة من رسالة كتبها العماد حين نازل صلاح الدين أحد الحصون الإفرنجية وجاء فيه : " قصدنا البرج ونازلناه ، ومازلنا نقاتل حتى أزلناه ، واحتموا بناطنه فما أخرج أحد رأسه ، وسنعود إليه يعون الله ونقلع أساسه " ونلاحظ في هذه الفقرة الفواصل المتساوية ووضوح الألفاظ وسهولة العبارة وخفة الجناس .

ومن هذه الكتب أيضاً فقرة من كتاب كتبه العماد على لسان صلاح الدين إلى مجاهد الدين قايماز صاحب الموصل حين كسر تقي الدين جيش سلطان الروم قلج أرسلان الذى احتل حصون رغبان وجاء فيه : " كسر تقي الدين بإذن الله ثلاثين ألفاً من عسكر

(١) سنا البرقى الشامى (١/٢٢٢)

(٢) حصن رغبان : بلدة بين عين تاب وسميساط قرب نهر الفرات / معجم البلدان ٥١/٣

المذكور بألف ، وكانوا ضعفاء على ضعف فزيدوا ضعفاً على ضعف . وقد علم الله تعالى أنه ساءنا كسر غاموسهم المهيب ، ومواخذته على رأيه المخطئ المصاب لا المصيب ، فإن المذكور يمشى زمانه بناموسه ويوشى نهاره من أشعة الآفات من شموسه .

ولقد كان لفتح القدس رنة فرح وسرور ، فسطر العماد بقلمه سبعين بشارة وحفظ لنا أبو شامة بعضها ، كما أورد العماد في كتابه "الفتح" واحدة منها كذلك ، ومنها بشارة كتبها العماد إلى الخليفة ببغداد قال عنها : "فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحه بهذه الآية :

" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً .

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، ومكن دينه المرتضى ، وبدل الأمن من المخافة ، وذخر غذا الفتح الأسنى والنصر الأغنى للعصر الإمامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه ، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه ، وبهذا الفتح العظيم والنجح الكريم قد انقرضت الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنييه ، وحيرة ترجييه ، ووحشة اليأس من تسييه ، وتقاصرت عنه طوائف الهيم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس ، وأعاد من الرجس ، وحقق من فتحه ما كان في النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأمس ، وجعل عز يومه ما حيا ذل أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والنسائل من البطرك والقس ، وعبيدة الصليب ، ومستقبلي الشمس ، وقد أظهر الله على المشركين السالين جنوده المؤمنين الصالحين ، وقطع دابر القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين ، فكان الله شرف هذه الأمة وقال لهم : اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم وحققي في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم : " ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم " وغذا الفتح قد أقدره الله على اقتضائه بالحرب العوان وجعل ملائكته المسومة له من أعز الأنهار وأظهر الأعوان ، وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد ، وقمع من كان يقول : " إن الله ثالث

(١) سنا البرق الشامي (٣٤٢ / ١)

(٢) الآية ٥٥ من سورة النور

(٣) العسوان : الشديدة

(٤) المسومة : معلمة ببياس أو بحمرة - القاموس المحيط

ثلاثة " بمن يقول " عو الله أحد " وأعان الله بانزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح الذي هو فتح النجوع ، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونشراً ، وعيد الله في البيت المقدس سرّاً وجهراً ، ومَلِكْت بلادُ الأردنِ وفلسطينَ عوراً ونجداً وبراً وبحراً ، وملئت إسلاماً وكانت قد ملئت كفراً . وتفاضى الخادم دَيْن الدِّينِ الذي عُلقَ رِسنُهُ دُشراً ، والحمد لله شكراً . . . حمداً يجدد للإسلام كل يوم نصراً ، ويزيد وجوه أهله بِشْرِي ، ففتوّجُه بِشْرًا ، وأبى الخادم إلاّ استباحة أموالهم وأرواحهم ، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم ، وانسه لا بد من تطهير الأرض المقدسة من رجس دمائهم ، وقتل وجالهم ، وسبى ذراريهم وهسائهم ، ولما أيسوا من النجاة ، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة ، خوفاً بقتل الأسارى المسلمين ، ونم أكثر من ثلاثة آلاف ، وإنهم يفسدون جميع ما في البلد من مال وبناء بهدم وإحراق وإتلاف ، وعرف أن جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع ، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيخ ، ويدلوا إطلاق الأسرى ، وشرطوا حمل ما للفداء ، وما زالوا يبتهلون ويضرعون ويدلون ويخشمون حتى استقر الأمر ، أنهم يفادون ، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها ، وبركت البركة الناعضة إليها في مناخها ، وفسلت من أوضاعها وأوزارها بمبرات العميون ، ورجع اضطرارها إلى السكون ، وفديت بنواظر أهل الإيمان ، ووصوفحت للوفاء بمعهد ما المجدد للإيمان ، وقد كُتبت في يوم خلاصها من رجب بليلة المصراع ، وتجلس إظلامها بإنارة سناء السراج ، وأعمدت الكنائس مدارس ، وأضحت بإحياهم رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس ، وزالت ضجرة الصخرة ، ونعشها الله من العثرة ، وبدل بالأنس ما كان من الوحشة والحسرة ، والحمد لله على هذه النصرة ، والمنة له على هذه المبرة ، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المماقل من حد الداروم إلى طرابلس ، وكل ما كان جارياً في مملكة القدس ونابلس ، ولم يبق إلاّ صور ، فإنّها قد تأخر انتزاعها ، وتقدم امتناعها ، والفرننج فيها قد ضربت بآمالها أطباعها وهي بتأييد الله مستفتحة والقلوب بتذليل جامعها (٣) منشوحة (٤) .

وواضح أن سمات أسلوب العماد تظهر في هذا الكتاب فمن اقتباس القرآن إلى التورية إلى استعمال الألفاظ والألقاب المسيحية فضلاً عما ذكرناه سابقاً .

(١) اجترح فلانا سبه واجترح الشاهد : اسقط عدالته وهي تأتي هنا بمعنى الاعتداء .

(٢) الوضر : وسخ الدسم واللبن

(٣) الجامع : جمع الفرس جماحا : اعتر فارسه وغلبه (القاموس مادة جمع)

(٤) الروضتين ج ٢/٩٦-٩٧ وقد كتب العماد كتبا كثيرة في هذا الفتح ومنه في الروضتين

ع ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠ وفي الفتح القسبي (١٤٧) وقد حفظ ابن القرات في تاريخه

بشارة خاصة ثانية بقلم العماد لقرائتها بحضرة الامام المستنصر جاق ٤ ع ١٧٤

ثانياً : كتب في وصف الأحوال والمتجددات اليومية :

وهي أشبه ما تكون بتقارير يكتبها العماد نيابة عن السلطان ويرتفعها السلطان بتوقيعه ، ويرسلها إلى الخليفة أو إلى حكام عصره ، أو ولاته في المقاطعات المختلفة ، وقد سطر العماد في كتابه " الفتح القسي " الكثير من هذه التقارير ، يشرح فيها المتجددات اليومية والشهيرة حتى يكون الجميع على علم بما يدور في ساحة القتال وأرض المعركة . ومنها كتاب أرسله إلى الديوان العزيز في بغداد يخبره فيه بمقدم ملك الإنجليز ونزول السلطان على مدينة يافا وما جرى من أمرها :

قال العماد : فصل في وصف الحان من كتاب إلى الديوان العزيز : " الخادم (١) حاله على ما أنهاه غير مرة ، في مرابطة الكفر مستمرة ، وأفريقي النصر على حُقُولها نارة وبكفها أخسرى مستدرة ، والحرب سجان ، وللإسلام في مضمار الظفر مجال ، وقد تجاوزت القصة عن حدّ الإنهاء ، وكلما شارفت القضية الانتها ، عادت إلى الابتداء ، والحادثة متصلة والواقعة مستقبلبة النعمة من الله في إجراء أوليائه على أجمل عاداته بإنجاز عِدَاتِهِ في قمع عِدَاتِهِ مؤملة .

وما ينقضي يوم إلا عن نصرته تتجدد ، ونعمة تتمهد ، وجمع للعدو يتبدد ، وجمبر لنكايه فيه يتوقد ، وخذلّ للسيف من حده بدم الشرك يتورد ، وفتح بكر من الحرب المسمون بـ **بَلْقَاحِ الْبَيْبِيسِ** الذكور يتولد .

وأخر ما تم في هذه الأيام من مَرَعَجَاتِ الْكُفْرِ وَمُبْهَجَاتِ الْإِسْلَامِ خطوة حلوة ، ونُوبَةٌ مَالِهَا نَبُوءَةٌ ، وَعَسَى أَنْ الْفَرْنَجِ لِمَا أَعْجَزْتُمْ قَصْدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُمْ مَا سَوَّلُوهُ فِي الْأَنْفُسِ ، عَكَسُوا زَعْمَهُمْ ، وَنَكَسُوا عَزْمَهُمْ ، وَعَادُوا خَائِبِينَ وَنَكَصُوا هَائِبِينَ ، وَاسْتَأْنَفُوا مَكِيدَةً أُخْرَى وَشَرَعُوا فِي شَرِّ خَلْفِ الشَّرِكِ بِهِ يَمْرِي . وَأَجْمَعُوا عَلَى قَصْدِ مَدِينَةِ بَيْرُوتِ ، وَتَأَمَّرُوا عَلَى الْإِتِّجَاهِ نَحْوَهَا - أَعْدَاءُ اللَّهِ أَوْلِيَاءُ الطَّاغُوتِ .

فسارت المسامر الإسلامية على مباراتهم لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم وتجردهم الخادم في خواصه ووافي يافا ، موقناً من الله تعالى أن مدد نصرته إليه يتوافي ، وحمل إليه

-
- (١) أفريقي جمع الجمع وهو ما اجتمع في السحاب ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة ومن الليل أكثره (القاموس : فون)
 - (٢) حقول حفل الماء أي اجتمع وحفل المجلس : كثر أهله والانتصارات : كثرتها .
 - (٣) بكأت الناقة أي قل لبنها وهنا بكأ النصر : أي قل .
 - (٤) موى الناقة يمر بها مسح ضرعها فدر لبنها ، وهنا بمعنى يظهر غدوهم .
 - (٥) الطاغوت : الشيطان

(١) من معتقلى نبات الأسل ، ومشتقلى بنات الخلل الأشد والعرين ، فإذا نزل بساحتهم فساء عباح المنذرين ، فأخذها بالسيف عنوة ، وأعاد ضرام النيران بها جنح الليل صخوة ، وأتى القتل والنهب على من وجد فيها من الكفار ، واستخرج ما بها من الأموال والمسدد والأذخار وخلص من المسلمين من كان بها فى الأسار ، وأضحت الفرنج تبارى بالتبار .

(٤) وطلب من بالقلعة الأمان على أن يسلموا من القتل ، ويستسلموا للأسر ، ونزل البطرق والقسطلان ، والمرشان وجماعة من المقدميين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول ومنقطعون إلى الوصول جنائم الفوت فى البحر ، وظهرت منهم أمارة الفدر ، ورجع العدو عن مقصده وردّه الله وخذله ، ونصر الإسلام ، وأخذله وسره بما يسره له وأجذله ، وناى سينك الدمار من سيب دما عنهم علّه ونهله .

وكان المقصود ردّهم عن مورد لهم وعدّتهم عن مقصدتهم ، فأرى ما قيضه الله من فتح الهدى وحلف العدا على الأرب ، واهتزت أعطاف البيض والسمر المنتشية من كأس نجيبها للطرب . والقوم الآن قد اشتغلوا بمصائبهم ، واجتمعوا لضم ما انتشر من أشاتهم وراسلوا فى الصلح على أن نخلى لهم عسقلان فما أجيّبوا ، وعلموا بجهلهم أنهم ما أصابوا فيما دبروه لإدبارهم فأصيّبوا ، والمسائر الإسلامية اليوم عليهم مجتمعة ، ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعة ، وقد آن أن تحلّ معاهد معاقلمهم التى هى متممة .

وكل ما يُجدّه الله من علو يظهر ، وعدو يقهر ، ونصر يزهر ، ونصل بالظفر يشهر ، فهو ببركات الاستمسك بطاعة المواقف الشريفة الإمامية الناصرية ، وبحمد الله وبمن أيامها وفضل إنعامها دلائل النصر ظاهرة ، وأسباب الظهور متناصرة ، ووجوه الآمال تبشر نجاحها ويسر ما فى اقتراحها سافرة .

ثالثاً : كتب الإخبار بوصول جيوش أو أسطول مسلم أو مؤونة وغير ذلك ووصفها :

وهى كتب كان العماد يذكر فيها تاريخ وصولها وفائدة الجيش أو الأسطول أو الشئ الذى وصل وربما كان الهدف من ذلك إثارة الهمم ، والترغيب فى الجهاد . ومن

(١) الأسل : الرماح والنبل

(٢) الخلل : الوهن فى الأمر والرقّة فى الناس والانتشار والتفرّق فى الرأى ويعنى هنا أنه فرق شملهم .

(٣) التبار : من التبر أى الذهب والفضة قبل أن يصاغ (القاموس مادة التبر)

(٤) البطرق : مفردها البطريقى احدى رتب رجاا الدين المسيحى

(٥) ، (٦) القسطلان والمرشان : من الرتب العسكرية عندهم .

(٧) معاقل : حصون وقلاع منيعة

(٨) الفتح القسى : ٦٠١ وفيه كذلك من أشباهه فى الصفحات (٥٤٥ ، ٥٣٥ ، ٥٠٧ ، ٥٤٧ ، ٦٠١ وغيرها .

هذه الكتب فصول في "الفتح القسى" أحدها فصل من كتاب في وصول عسكر عماد الدين زكى صاحب سنجار ، ووصفه لهذا الجيش ، وأثره في فتح المعنويات من جنود المسلمين ، قال العماد : "فصل في وصف عسكر عماد الدين" وصلت العساكر التي وقت يحدتها المناجدة ، ووافت يحدتها المعنى جده (٢) ، وأقبلت إقبال الآساد في عرين الوشيع ، وماجت مرق البحار في غدير الرغف النسيج ، واستهلست استهلالات الرواعد البوارق ، وألمت بالمداد إمام العوادى الطوارق .

ولقد جاءت في وقتها معجدة من جده . مؤجدة للانتقام من الكفر بكل موجبة واستظهر الإسلام بظهورها ، وسقرت وجوه النصر بسفورنا ، فأحجم الكفر بإقدامها ، وانتظمت أحداتى المشركين في عقود سهامها ، وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها ، وفص بالفضاء ختام قتامها . وما أشكر الدين والإسلام لعزائم عماده وغياثه ، وأبصت إمداد الظفر لاعتزاز نصل نصره وانبعائه .

وحين وصل الأسطول المصرى في يوم الثلاثاء السادس عشر من ذى القعدة سنة ٥٨٥ هـ كتب العماد عدة رسائل يخبر بوصوله ويصفه ، ويبين تأثيره على الفرنج ، ومما أعابهم من سوء بوصله . قال من فصل له بهذا المعنى :

"صدر الكتاب بورود الأسطول المصرى ، بالسطو الشديد ، والبأس القوى ، فارتاع الكفر من وصوله ، وعتوله الرائع ، وذن جمع الكفر لمرته الجامع ، وجاء بكل شينى شائى ، لشائى الدين واجئ ، مفاجع للعدو بالهلاك مفاجئ ، مفروق لمراكب الشرك المجتمعة ، مضيق لمناهج مضارها المتسمة ، فطحن مناكب مراكبها ، ووسع معاطن معاطيها ، واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة ، والإمداد إعاتتها من وراءها مستعدة ، وقتل من فيها من الرجال وغنم ما وجد فيها من المدد والأموال ."

وفي يوم الاثنين الرابع عشر من شعبان سنة ٥٨٦ هـ وصلت ثلاث بطرس تحمل الفلال من مصر إلى عكا والفرنج يحاصرونها ويحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم ، فكتب العماد كتاباً إلى سيف الإسلام أخى السلطان وحاكم اليمن يخبره بذلك ويصف له تلك السفن وما جرى

-
- (١) المناجدة : المناجد : المقاتل والمعين (٢) الجدة : بالكسر والضم : العطاء والفنى
 (٣) الرغف : الرقيق وكذلك أطراف الحطب والشجر لضعفها ورقتها .
 (٤) أحجم : امتنع (٥) الفتح القسى ٤٩٩
 (٦) راجع الفتح القسى ٤٢٤٢ ٤٦ ٤٤ ٤٤٤ وكذلك في وصف الاسطول المصرى الثانى ٢٨٦
 (٧) الشينى : نوع من السفن الكبيرة ٣٨٨ ٤٢٨٧
 (٨) المعاطن : عطنت الابل رويت ثم بركت أى الموطن . (٩) الفتح القسى ع ٣٤٣

لها وهجومهم عليها ، وفشلهم الذريع في منعها من الوصول إلى الميناء ، وقال العماد :
 " فصل من كتاب إلى سيف الإسلام في هذا المعنى :

" كان كتب الينا أصحابنا بـعكاء أننا جُيُسنا وإلى ليلة نصف شعبان لا يبقى لنا
 شيء نقاته ، ويقاؤنا ببقاء القوات وقواتنا فواته ، فبينما نحن في هذا المهم مفكرون ومن هذا
 المهم متفكرون ، إذ ظهرت للعيون بالقرّة ، وللقلوب بالقرار والمسرة ، ثلاث بطس على شبح
 البحر مستقرة ، يبعثها لطف الله بعثاً ، وتحثها الريح القوية حثّاً ، كأنها جبال باقبالها
 تروّع ، ونسور أجنحتها القلوع .

وشعر الفرنج بها فضاقت مذاهبها ، وبرزت مراكبها ، ودبت عقاربها ، وقربت من
 البطس شوانيها ، وقويت في البطس أمانيتها ، وحوى ما فيها من فيها من الرجال وهى
 تجرى بهم في موق كالجبال " وكان جواربها عرائس يزفنن بمالهن من الجهاز ، وكان البحر
 المتموج ثوباً بتلك الأعلام المنشآت مُسلم الطراز ، بيل كأنها تجار تحمل الصدقات إلى
 ذوى الإعواز ، فجاءت فجأة مُتسقة مُوسقة ، وأتى الأتى بها مُوافقة مُوفقة ، فلم يقدر على
 مقاربتها ومقارنتها شئى ، وكانت كلاًه الله وعصمته لها خيراً من كل كالى .

وجازت والكفر خزبان ينظر ، وفازت بالجز والمدو يذيل الذل يعثر ، وكان وصولها
 أوان انقضاء الأزواد وإنفاذها ، فمألت المدينة بخلائتها وأزوادها وعصمت أرقامها ، ودسّمت
 أرقامها ، وقسّمت أرزاقها ، وأشبعت جوعها ، وشميت عدوها ، وأنالت آرابها ، وأزالت
 إجدابها ، وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها .

فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق ، وسكنت بعد القلق ، وعاد إليها بعد الفسق
 إسفار أفلسق .

والحمد لله المُعني بعد الإعدام ، المُدني السننى بعد الإظلام .
 رابعاً : كتب الشكر على جيش أرسن أو شى قدم :

كان بعض الملوك يرسلون إلى أرض المعركة نجداتٍ عسكرية وأموالاً وأشياء قلبيهم
 المحاربين فكان من الواجب على السلطان أن يشكر المرسل على معونته ، وكان على العماد

-
- (١) البطس : نوع من السفن والمراكب (٢) الشوانى : نوع آخر أكبر حجماً .
 (٣) الآية ٤٢ من سورة غدر (٤) شانى : مبخس وكاره
 (٥) الفرق : الفزع (٦) الفتح القسى عن ٤٤١ - ٤٢٢

أن يدعي ببراءة رسالة الشكر ، حتى تكون للمرسل دافعا على إعادة الإرسال وتكراره ، وكان
العماد في رسالته هذه يثني على حسن دينه وأخلاقه ، وعلو علمه ، وميضا أشمية النجدة
المرسلة في وقع معنويات الجيوش وتأثيرها في تشييط هم الأعداء .

ومن هذه الكتب كتاب أرسله العماد في شكر عز الدين مسعود بن مودود صاحب
الموصل حين أرسل جيشه إلى صلاح الدين في التاسع من جاد الأولى سنة ٥٨٦ هجرية
بقيادة ابنه الملك السعيد علاء الدين خرم شاه . قال العماد : فصل من كتاب إلى صاحب
الموصل وشكره على تسيير ولده .

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله ، وعجل أنصاره ، وجمع شمله ، ووفق
أسد عرش الملك أن يحيى حوزة الإسلام بشيله ، وللمجلس في طوله اليد الطولى ، والمينة
الثانية التي أريت على الأولى ، حيث حث همته العلية ، وحض لحظ دينه عزيمته الماضية
القصية ، وشرف بولده علاء الدين من تغلد بوروده أوفى منه . وتجل من وفوه أقوى منه ،
وأوفى جنة . فلقد ورد الساحل بحرا ، وطلع في ليل القساطل بدرا ، وأسفر لمرتقبى
صباح النصر بحرا ، وجملا وجوه المؤمنين يبشراه بشرا ، وملا صدر الإسلام أمنا ، وقلب
الكفر ذعرا .

ومنها كتاب أرسله صلاح الدين إلى عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل
حين أرسل إليه النقط الأبيض والرماح والتراس وكان صلاح الدين على عكا أثناء حصار
الإفنج لها فكتب العماد في شكره : وصل السلاح ، وتم للإسلام من قروح الكفر الاقتراح
واستجيدت التراس والرماح ، وفارقت للقائهما أجسام الأعداء والأرواح ، واتصل بالقبض
الواصل من أهل النار الاحترق وطمنت وطمئت منهم النخور والأعناق ، وقد عدا بما أعداه
النصر إلى المهدي ، والردي إلى التدا . وأجود الأجاود وأكرم الأجاود من جاد بما
أجدي وأهدى ما عدي ، وعاد من المكرم ما يدا .

والكتاب أطول من ذلك ، وفيه بيان الحاجة إلى هذه المكنونة ، فالسلاح ضروري
في المعركة والمعركة طويلة ، وقد أفضت ما عند السلطان من عدة وعقاد ، وفي نهايته
أوضح أن العدد وكثرة السلاح قليل ، فالأعداء من البحر قادمون وأمدادهم لا تنقطع وأفواجهم

لا تنقطع .
(١) الفتح القسي : (٢٨) (٢) منة بالكسر : العطية (٣) السيف : السيف
(٤) البجينة : البجينة (٥) القسطل : الفيل
(٦) الفتح القسي : ٢٨٢ وهناك كتب شبيهه في الفتح ٢٥٠ - ٢٥١ - ٤٩٨
(٧) الفتح القسي : ٢٥٠ - ٢٥١

ومنها كتاب آخر في شكر صاحب الموصل على إنقاذ الجصاصين لحفر خندق حول القدس الشريف ، وكان صاحب الموصل قد أرسل سنة ٦٧ هـ خمسين رجلاً من الحجارين للمعمل في حفر الخندق وتعميقه وقطع الصخر ، فأقام هؤلاء ستة أشهر حتى أنهوا عملهم وأجاده ثم عادوا إلى بلدتهم مشكورين . قال العماد : فصل في شكر صاحب الموصل على إنقاذ الجصاصين لحفر الخندق :

قد أصبح البيت المقدس يقدّر ويسبيح ، ويعرب عن فضيلة منجده ، ويفصح ، فقد وصل الرجاء الواصلون بالنجح رجاءه ، الحامون بحفر خندقه أرجاءه ، وما فيهم إلا من أبان عن جدّه ، وأبان بحدّه ، وألان الشديدي بشدّه ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهده . وهذه لا شك مقدمة لما وراءها من نتائج النجدة ، وجدوى سابقة للواحق في منافع الجدات ، وعارفة معرفة في قمع المداة ، بإجراء المادات ، وللعدو انتظار لنجدات بحرية وارتقاب ، ووضعات جمر تحت رماد كيده يوشك أن يكون لها التهايب ، والهمة السامية لا تفتقر في هذا الباعث إلى باعث ، وعند عزائم حديث كل حادث .

خامساً : كتب الإخبار بوصول جيش إفرنجي :

بعد غزوة الصليبيين في حطين سنة ٥٨٢ هـ ظهرت في أوربة دعوة جديدة للقيام بحملة صليبية جديدة تمديد إلى المهزومين بعض ما فقدوه ، وخاصة القدس الشريف ، فتحررت حملة كبيرة من ألمانية وبريطانية وغيرها ، فلما بلغ خبر اقتراب ملك الألمان كتب العماد إلى الخليفة الناصر في بغداد كتاباً يحذره من مغبة الأمر والسكوت عليه ، وخطورة ذلك على البلاد . يقول العماد : " وكتب إلى الديوان العزيز فصلاً يخبر ملك الألمان عن إرعاب الإرجاف به :

" قد وصل الخبر الداعية الدعيا ، والفئة الفمّاء ، والنكبة النكباء ، والشدة الدهماء ، والليلة الليلاء ، وعلى أن ملك الألمان وجه ملوك الإفرنجية وحشودها وقوامها (٤) وكودها وأحزاب الشياطين وجنودها ، وألوية الأواء ، وينودها وصل جازراً على السماء ذيول قتامة ، مجرباً في الأوس سيول لهامه ، ثائراً بأطلابه لطلاب ثاره ، سائراً بخيله ورجليه كالسيل إلى قراره ."

(١) الفتح القسي ٥٦٥ (٢) الفتح القسي ٥٧٩
 (٣) فوامس : مفردتها فومس ، والنقود : مفردتها كند وعلى القاب ملوكهم وأمرائهم .
 (٤) الأواء : من الأوى وهو الشدة وتأتى هنا بمعنى أهل المصائب والشدائد .

وأنه في عصائب عليان في عصبيتها متعلبة ، وأتباع شياطين لإرضائها متفضبة ، وأسراب سراحين على سرح الإسلام متوشبة ، وأنه في مئتين من الآلاف الآلاف للنون ، وأقطاب الإعطاب الدائرة لدوائر شوكتها رحي الحرب الزبون ، وقد أوقدوا للشرا شرارا ، وأضرموا للشرك الداعي إلى النار نارا ، فإن حسرتهم على قياتهم دائمة ، وقياتهم قائمة ، والموت يدعوهم إلى المقبرة التي يدعونها والآجال تلبسهم لمناياهم التي يدعونها .

وكان خبر وصوله متداولا على السنة للأراجيف ، وتشيعه أعداء الله من قبل للترغيب والتخويف ، واستعدت المساکر الإسلامية للتوجه إلى بلاد الروم في الربيع ، ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجيوش باتفاق الجميع ، وانتظر ورود خبر صحيح ، ويقوم بأمر صحيح حتى إذا صح الخبر سار المسكر هم فانقطعت الأخبار وتمادي الانتظار ، ومضت شهور الربيع آذار ، نيسان ، وأيار .

وكانت كتب سلطان الروم فليج أرسلان وأولاده ورسلمهم متواعلة بما ينبئ عن — التعااضد ، وبنين أمر الوفاء والوفاق منه على التعاون والتعاقد ، وهم بإنهاء ما يصح عندهم واعدون ، ويزعمون أنهم في ردّ الواردين وإردائهم مساعدون ، فأخلف ذلك الوعد وصيغ ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بختة في هذا الأوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ومنه في تذكيره بالجهاد وفرضه على المسلمين ، وضرورة الحث عليه ، خاصة أنه الخليفة الذي له الكلمة المسموعة قوله : " وقد تحين الجهاد على كل مسلم وما في الوجود مؤمن — يكون له هذا الملم غير مؤلم والاشتمام بدفعه من أرض المهام وأعم الفروض ، والخدام منفرد في حمل عبء هذا القادح الياضظ بالنهوض ، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه ، وأن الذي يستبعد من النصر التريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه — إن شاء الله . "

سادسا : كتب الاستنفار :

حين كانت المعارك تشتد وتمنف ، ويكثر جرح الفرنج ، فيخاف المسلمون عاقبة الأمر ، كان العباد يخط بقلمه كتابا في الاستنفار يوجهها إلى الخليفة ، وإلى ولاية الأمصار وحكامها طالبا النجدة مستنهضا الهمم ، محركا نفوس ذوي الحمية ، مذكراهم بالإسلام

- (١) الزيون : الطاحنة (٢) قامة أي كتيسة القيامة في بيت المقدس
(٣) الفتح القسي ٣٩٢ (٤) المصدر السابق ٢٩٨ وكتب العباد كذلك فصلين آخرين لهذا الغرض أحدهما في جواب أمير وفصل آخر في كتاب آخر من ٤٠٢ من الفتح .

ومبادئه ، حائثاً لهم على الجهاد وفرصه ، وفي الفتح القسى نماذج عديدة • ومنها فصل
من كتاب وجهه على ما يبدو وإلى جميع أمراء المسلمين حين وصل ملك الألمان السابق الذكر
فقال : فصل من كتاب الاستنفار كتب فيه : " وقد عرف أن العدو الألماني المخذول قد
وصل فما لعوده عن هذا المقام معنى • وما لمن تأخر عن نصرته الإسلام من ثمر السمادة
مجنى • وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده ، وأوان بذل وسعه وجده واجتهاده • فإنته
مخضراً لا يغيب عنه إلا من ليس له عند الله خلاق • وموقف يفى بعهد الله فيه من سبق له
معه في السمادة ميثاق • • • • • وختمه قائلاً : " وليكن أول سابق في مضمار الجدد وأسعد
طالع في أفق الجدد ، فإن الإسلام في انتظاره • والمطالع مستشرفة إلى إشراق أنواره • • •
لا زالت الأقدار جارية في إسماع الدين والدولة بإقداره • " (٢)

ومن هذه الكتب التي خطبها للعماد في إثارة الهمم طالباً النجدة ، والإسراع
فيها كتاب سطره حين ضعفت عكا أثناء حصار الفرنج لها وأشرفت على السقوط • وكتاب
الفرنج يدخلونها ، وقد ترك لنا العماد منه فصلاً قال عنه : " فصل في الاستنفار " :

" قد عرف أن العدو قد احتشد بجميع ملوكه ، وخصت مسالكه وطرقه بطوارق سلوكه •
وهو حديد الشوكة ، شديد الشكبة • قد لجح في حصر الثغر ونصب آلاته ، وركب عليه
منجنيقاته ، ووالى الصروب من الضرب ، وأخذ منه مواضع في النقب ، وقد أشفى على خطر
عظيم ، وخطب جسيم ، وإذا لم يصل في هذا الوقت فمتى ؟ ومن أتى في غير هذا الوقت
المحتاج إليه فما أتى ، وهذا أوان رفض المتواني ، ونهوض المسلمين من الأفاصي والأداني ،
والوصول بكل ما يُقدَّر عليه من العسكر ، والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجد
الأوفر ، وهذا يوم الحاجة وأوان الضرورة ، والنهوض بعسكره إلى نصرته عساكرنا المنصورة ،
فلا يجنح إلى عذر ، فلأعدار أوقات ، ولا يلتفت إلى غير هذا المههم الذي ليس للمسلمين
إلى سواه التفات ، وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم ، ويتقاعد عن هذا المقام
المعظم وهو عظيم ؟ • • • • • "

سابقاً : كتب تحمّل أنها سيئة كسقوط مدينة أو عزيمة في معركة :

وقد كان العماد يكتبها حين تم مصيبة وتحل كارثة ، وفي عهد صلاح الدين

- (١) الفتح القسى ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، وغيرها •
(٢) الفتح القسى ٤٠٠ : جمع طارقة وهي الشدة
(٤) الشكبة بالفتح السلاح (٥) الفتح القسى ص ٥٠٠

لم تقع سوى كارتيمين ، ولم تنزل بالمسلمين غير سزيمتين : أولا عكا : عزيمة الرملة التي مر ذكرها والتي لم يشترت فيها العماد ، وثانيتها : سقوط عكا بيد الفرنج بعد حصار دام سنتين تامتين ، وقد سطر في هذا السقوط عدة كتب يعتذر فيها عما حل بالمسلمين من نكبة وما نزل بهم من مصاب ، واصفاً قوة العدو وشجاعة المسلمين .

وأطولها كتاب حفظه العماد^(١) في " الفتح القدسي " فصل فيه القول من بداية الحصار إلى سقوط المدينة والملوك الفرنج الذين ساعدوا في سقوطها . ومنها كتاب آخر ترك العماد منه فصلاً وجهه إلى قطب الدين بن قرا أرسلان صاحب " آمد " قال فيه : " قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكه ، وكثر على نهار الإسلام بإطلاق ليل الكفر وحلوكه ، فالإسلام ينشد ظهــــــــــــــــير، ويطلب الدين لكشف غمته من (ابن نوره) نوره .

وهذه عكا التي كنا عنها ندافع ، وعن ثغرها نمانع ، ونجري دماء الواردين في البحر لقصدنا في بحرها ، ونرد للرد عنها مكاید العداة في نحرها ، قد تمكن منها الكفر على كره من الإسلام ، واحتاج^٢ بين أبي إسلامها بعد أن عابر ومبر إلى الإسلام .

وكانت مودة قعدات مودة ، وصارت مفضوة بعد أن كانت عارية من الكفر مردودة ، وإذا أفكر متى خذلها ، ما أخذلها ، وغاب عنها وما حضرها ، علم أنها أسيرة أعماله ، وأخذه وإغفاله وحاشا أن يكون المجلس بالغبية عناً راضياً ، وعن النجدة عند تحقق الحاجة إليها متفاضياً

ومن هذه الكتب كتاب وجهه إلى مظفر الدين يشرح له واقعة عكا وسقوطها ويستدعيه للقدم إليه ، ويشرح له بالتفصيل كيفية سقوط البلد ، ودخول الفرنج إليه ومقاومة المسلمين لهم ، ويعتذر عن هروب بعض الأمراء الجبناء^(٣) - كما يسميهم - من عكا ، الذين لولا خروجهم ما سقطت المدينة ولا دخلها الأفرنج .

ثامناً : منشورات فيها تقليد ولاية أو وظيفة معينة أو لنشر شيء ما بين الناس :

وهي أشبه بكتب التعميم في الوظائف العامة وخاصة الكبيرة منها ، والتي يصدر فيها مرسوم من رئيس الدولة بتعيين وزير أو قائد عام ، مبيناً سبب الاختيار ، والصفات

(١) الفتح القدسي ٥١٤ - ٥١٦

(٢) الفتح القدسي ص ٥٢٠

(٣) الفتح ص ٥٢١ - ٥٢٤

التي يمتاز بها والتي أعلنته ليتسلم هذا المنصب ، وربما كان شبيها بقانون حكومي كالقوانين التي تنشر في الجريدة الرسمية للدولة ، وقد وجدنا في الفتح القدسي كتاباً خطه العماد في تعيين حسام الدين سياروخ النجفي في ولاية القدس الشريف ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٨٧ هـ . قال العماد : " وكان الأمير سياروخ بالقدس مقيماً ، وللنظر في مصالحه مستديماً ويضم من أمره ما كان منشوراً ، وكتب له في التاريخ المذكور باستقلاله منشوراً :
 " الحمد لله الذي أقصى من المسجد الأقصى من دانه من الكفر ودنسه ، ونزه البيت المقدس من رجس أعدائه المشركين بأيدي أوليائه الموحدين ، وطهره وقده ، وأنطق محرابه ومنبره بتلاوة الذكر المبين ، وأسكت الناغوس وأخرسه ، نحمده على ما عممه من الحوزة وحرسه ، وفرجه من الشدة ونفسه ، ونسأله أن يصلي على نبيه محمد المصطفى الذي شرع الدين وشرحه ، وصهد الشرع وأسس ، وأبطل الكفر وعطله ، وأرغم الشرك وأتمسه ، على آله وأصحابه الذين أعلى الله بهم منار الحق ، وأضفى ملبسه ، وأصفى مورده ، وأزكى مفرسه ويند :

فإننا منذ فتح الله لنا بيته المقدس وخفض بإعلاء أعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيامنا من أيامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تمبس ، وخصنا بفضيلة فتحه ، وجعل لنا به الحظ الأجزل ، الأفضل الأكرم الأنفس ، ما نزال نطلب ولياً لله يكون له والياً ، ويمود عاطله بتأثير إحسانه وحسن آثاره وإيثاره حالياً ، ويرجع بنظره الشافي وتدبيره الكافي ما انخفض من منار الهدى عالياً ، ولا يزال على بان منا أن نحى به من رسوم الإيمان ونجدد من معالمه ما ظل بمقام أهل الضلال فيه دارساً بالياً .

وقد اخترنا الأمير حسام الدين فالفينا لأهلية هذه الولاية جامعاً ، وإلى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعاً ، ووجدناه بأعباء الأمانة ناهضاً ، ولزيد المناصحة والصحة فيه ما خضاً ما خضاً ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس وأعمالها ، وقد قنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام أشغالها وحكمتها في تحصيل مصالحها ، وتسهيل مناجحها وسداد ثغرها ، وسداد أمرها ، ورعاية أمورها ، وعمارة حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأصيل رباع أماكنها ، وإسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها . . .

(١) الحوز : الجمع وضم الشئ ويعنى بها هنا الحماية

(٢) ماخض : رجل ماخض للبين أى يأخذ زبده

(٣) ماحض : رجل ماحض للبين أى يشتمه .

من أدناس أدنى الناس ، وتعميرنا بالعدَّة والعدَّة (١) والشدة والقوس والباس .

فليتول ذلك بقوة ناعضة ونهضة قوية ، وروية مبصرة وبصيرة روية ، وليستشعر تقوى الله التي تقوم بها العزائم ، وتتوفر منها المحامد ، وتكمل المكارم ، جارياً على مقتضى الشرع في كل ما يحلُّه ويعقده ، ويقدره ويجهله ، ويصدره ويوردّه ، والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده .

ولعلنا نلاحظ كيف رسم للوالى الطريق الذى عليه أن يسلكه وينهججه فى حكمه وولايته ، فالمدن أساس الحكم ، والقوة أساس الولاية ، جاعلاً تقوى الله رادعاً له عن كل غوى ، والشريعة الإسلامية دستورَه فى قضائه ، وطريقته فى أحكامه .

ومنها منشور كتبه العماد بأمر من نور الدين فى تعيين عماد الدين التوفانسى الشافعى مدرساً فى الجامع الأموى (٢) ، ويقول : " وكتب له منشوراً عند عودنا إلى دمشق بذلك فى سنة ٥٦٧ .

وأشار العماد إلى منشور كتبه بأمر من نور الدين كذلك فى تعيين عماد الدين أبى الفتح محمد أبى بن على بن محمد بن حموية شيخاً للصوفية وقد حفظ صاحب "الروضتين" جزءاً منه قال : ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه " فلينظر فى رباط السمساطى وقبلة الطواويس ورباط الطاحونة وغيرها من رباط الصوفية بدمشق المعمورة ومعلبك " .

ومنها تلك المنشورات التى كان نور الدين يقرر فيها أمراً أو يعفى فيها الرعية من نفقات سابقة أو إسقاط حرام ومنع منكر . قال العماد : " وكلف نور الدين فى هذه السنة - ٥٦٩ - العماد بكتابه منشورات يسقط فيها بعض الصرائب كضريبة الأتبان وغيرها ، ولم يبق سوى الجزية والخراج ، وقد حفظ صاحب "الروضتين" المنشور الذى يعفى أهل الشام من فريضة الأتبان " قال فيه :

" وبعد فإن من سنتنا العادلة ، وسير أيامنا الزاهرة ، وعوائد دولتنا القاهرة ، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم وإعفاء رسوم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم ، وما نزال نجدد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون فى رياضه ، ويرتوون من حياضه ،

(١) العده : السلاح والعهده بالنكسر العدد الواقع

(٢) الفتح القسى ٥٨٠ - ٥٨١ (٢) سننا البرق الشامى ج ١ / ٩٨

(٤) سننا البرق الشامى ١٤٥ / ١ (٥) الروضتين ج ١ فى ٥٤٦ / ٢

ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفيها من الشبه والشوائب ، ونلحق ما نعتبر عليه من بواقى رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقريباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواعب وبلوغ المطالب ، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتيان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة ، وضياح القنطرة ، والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور والمقبية ومزارعها الجارية في الأملاك ، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتيان على الضياح الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة وقرناه على أربابه ، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه وعزاً من انتقامه وأليم عقابه ، وسبيل النواب إطلاق ذلك الدوام وتعفية آثاره ، والاستمعاء من أوزاره ، والاحتراز من التدنس بأضارته ، وإبطال رسمه من الدواوين ، لاستقبال سنة تسع وستين وما بعدها على تماقب الأيام والسنين .

والمعاني الإسلامية واضحة في هذا المنشور ، ولعلنا نلاحظ كيف توخى في إبطال هذه الصريبة الشريعة الإسلامية حتى لا يترك لمن يأتي بعده ثغرة ينفذ منها لإعادة هذه الرسوم .

تاسعاً : كتب التعزية بوفاة كبير :

وأشهرها ذلك الكتاب الذي سطره العماد حين توفي نور الدين ، وكتبه نيابة عن الملك الصالح إسماعيل : (١) وإلى صلاح الدين الأيوبي ، وقد ورد في "سنا البرق" و"الروضتين" و"مفرج الكرب" مع خلاف في النص بينها زيادة ونقصاً . قال العماد في "البرق" وقد أنشأت في ذلك اليوم كتاباً عن الملك الصالح إلى صلاح الدين بترجمة ولده إسماعيل بن محمود ومفتحه : (١١)

"أطال الله بقاء مجلس سيدنا الملك الناصر السيد الأجل ، وأدام سموه (١٢) وعظم أجرنا وأجره في والدنا السعيد الملك العادل ، ندب الشام بيل الإسلام حافظ شعوره

- (١) الضائرة : المسببة للضرر (٢) سبوح : كاملة تامة
- (٣) المقسطة : الجائرة
- (٤) سنير : جبل بين حمص وحمص على الطريق وعلى رأس قلعة
- (٥) قصر حجاج : محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية من دمشق قيل أنها تنسب إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان . (٦) الشاغور : محله بدمشق بالقرب من باب الصغير منها .
- (٧) المقبية : قرية من ضواحي دمشق - السلوك ١/٢٥٧ الحاشية)
- (٨) أي سنة ٥٦٩ هـ . (٩) الروضتين ج ١ ق ٢/٥٥٠
- (١٠) الروضتين ج ١ ق ٢/٤٨٦ والمفرج ٢/٢
- (١١) كلمة مجلس من سنا البرق (١٢) السيد الأجل من سنا البرق وكذلك أدام سموه

وملاحظ أمورهم ، وعمد الجهاد مقتني فضيلته ، ومؤدى فريضة ، محيي سنه ، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريه ، على أنه يعز أن يرى في الزمان نظيره .
(٢) ومنه : (واجتمع أمراء الحضرة وممالك الدولة ، وأنشأ النعمة وأولياء الطاعة وأرقاء الخدمة على البيعة المؤكدة ، والأيمان المنفلطة ، والمواثيق المستحكمة ، بعقائد متعاقدة على الصفاء ، وأعضاء متعاضدة بالوفاء ، وحلف الأصغر والأكابر والغائب والحاضر والبادي والحاصر ، وأذنت الرؤس ، وعتت الوجوه ، وسكنت النفوس ، وعمت بركات الوالد السعيد رحمه الله في ثبات ملكه ، أو أن زلزال صوده الشامخ ، وسكون الدعاء بسدد حال تخلخل عمره الباذخ "

وللكتاب بقية يذكر فيه السلطان بخطر الفرنج ، وأن صلاح الدين خير من يعتمد عليه في رد غدرهم ، ودفع مكرهم ، وصد غزواتهم ومنع عجماتهم - قال في نهايته :
" ومن سوي السيد الأجل الناصر من ناصر ؟ . . . وقد عرفناه المقترح لسيرروض برأيه من الأمر ما جمع ، والأطم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكايه فيهم على البدار ، ويجرى على العادة الحسنى في إحياء ذكر الوالد هناك ، بتجديد ذكرنا ، راعياً في اغتنام ثنائنا وشكرنا " .
(٣)

عاشراً : كتب طلب الإذن من الخليفة بعمل ما :

كان صلاح الدين محباً للخليفة ، لا يترك مناسبة إلا يعلن له فيها ولاه ، والحوادث التي أوردنا العماد في كتبه وابن شداد في سيرته تثبت أن السلطان كان يعلن هذا الأمر ولا يخفيه ، وكان أخو العماد أحد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الخليفة لمتاب السلطان حين وصل إلى علمه وشايات عنه ، وخضوع السلطان لكل رسول للخليفة كان أحد مظاهر هذا الاحترام ، لهذا كله كان السلطان يحرص على رضى الخليفة ، ويسمى إليه ولا يخالف له أمراً ، وحين أراد نور الدين دخول الموصل أرسل العماد ليحصل له على إذن من الخليفة بذلك وحين صمم صلاح الدين على احتلال الموصل وأشير عليه بقطع ماء دجلة ليضطر أهلها إلى التسليم حرص السلطان على استئذان الخليفة . وقد حفظ لنا

(١) في الروستين مقدم (٢) من واجتمع أمراء الحضرة . . . غره الباذخ من سنا البرق
(٢) الروستين ج ٢ / ٥٥١ - ٥٥١

ولم ترد في سنا البرق وقد وعى الدكتور جمان الدين الشيال حين سجل كتابا فسى التمزية نقلا عن الروستين ونسبه للعماد ، وعو في الحقيقة من انشاء الفاضل ويبعدو أنه لم ينتبه الى مقدمة الرسالة وعى " وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين فأرسل كتابا بالمثل الفاضل (ورد خبر " ورسالة العماد في الصفحة نفسها .

(٤) الفتح القسى ١٨٢

أشرف

أبو شامة جزءاً من الكتاب الذي أرسله السلطان طالباً عذراً الإذن وذلك بإنشاء العماد
قال :

" وذكر المهندسون أن الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها بحسيث
ييمد مستسقى الماء منها ، وحينئذ يُسَطَّرُ أعلها إلى تسليمها بغير قتال ولا حصول ضرر
في تضيق ولا نزال (١) . "

وفور هذه الفقرة نرى كيف حاول العماد إقناع الخليفة بالبرهان فتحويل مجرى
النهر يمنع الضرر والقَتْلَ وغوا أهون الوسائل إلى احتلالها .

الحادي عشر : كتب الاعتذار عن عمل ما :

وعلى قليلة وكان العماد يخطها حين يحدث تقصير ما وقد حفظ لنا في " البرق "
كتاباً منها اعتذر فيه لصالح الدين بسبب المصالحة التي تمت بين شمس الدين بن المقدم
أحد رجال الملك الصالح وبين الفرنج حين نجحوا على بانياس بعد وفاة نور الدين .
فكتب العماد عن الملك الصالح كتاباً إلى السلطان يعتذر فيه عن عدم إعلامه وأخذ رأيه
قال فيه :

" اتفق عند الصدمة الأولى من الحادثة الكارثة نزول الفرنج على بانياس فسى
أعداد من الخيل والرجل خارجة عن حدّ القياس ، على حين غفلة من أعلها وقلة من
خيرتها ، وخيموا على حزننا وسهلها ، ولم يسع الوقت لمكاتبة المجلس العالي ثابته
وظنت الأولى كافية ، ولأعنة عزائمنا إلى نجدتنا نائية ، فأخبار الكفار ليست بخافية . . . (٢) "

الثاني عشر : كتب استدعاء المساكين من الأمصار :

فقد كان السلطان حين يحل الشتاء ويضعف القتال يريح جزءاً من جيشه ويسمح
لهم بالمودة إلى بلادهم ، فإذا جدّ الجدّ ، ورأى الإفرنج يستمدون طلب المدد من
الأمصار ، وقد وجدنا فقرات من كتاب يستدعى فيه صلاح الدين ألفاً وخمسمائة فارس مصري
إلى الشام ، ويشرح فيه للملك العادل أخي السلطان فائدة ذلك والسبب الذي دعاه إلى
إرسال توران شاه إلى مصر . قال العماد : " وكتب عن السلطان كتاباً منه : -

(١) الروضتين ج ٢ / ٦٢

(٢) سنا البرق ١ / ١٥٦

"قد بان لنا وجه الصواب في استدعاء عدة متوسطة من أنجاد المسكر المصري الأنجاب بحيث يخف وطؤها ويثقل في المدون^٥ نكوتها ، فكتبنا إلى أخينا الملك المعادل بمصر أن ينتخب لنا من الأقوياء بالخيل والعدة ألفاً وخمسائة فارس ، وأشرنا على الملك المعظم بالتوجه إلى مصر مستصحباً معه من طال بالشام بيكاره ، وبان إنفاضة واقتضاره ، ورأينا المصلحة في مسيره لمنافع كثيرة وفوائد أثيرة . ومنها : التخفيف عن الشام في مثل هذا العام ، وذلك بعد أن رتب في بعليك نوابه ، وأقطعها أصحابه . ومنها : أن تفي وصوله إلى مصر وقد خرج منها عسكر أسماً كبيراً وصيتاً عظيماً ، فإن الإرجاف شائع بأسطول صقلية المخذول وخروجه ، ووصول يكسر من عزم العدو ، ويحطه من ذروة العتو^٥ . ومنها : أنه إذا أقام بالقاهرة تصرف أخونا الملك المعادل في البلاد بعسكره وعذب^(١) صفو مقصده في مورد ه ومصدره .

الثالث عشر : نسخ اليمين والمهدن :

وكانت تكتب حين يتم الاتفاق بين المتخاصمين سواء كانوا مسلمين بعضهم مع بعض أو كانوا مسلمين مع الصليبيين . ومن هذه النسخ الكثيرة نسخة اليمين التي كتبها المعادل بعد أن تم^(٢) الصلح بين صلاح الدين وأعدى حلب سنة ٥٧٠ . ولكن المعادل أشار إليه ولم يذكره .

ومنها كتاب الصلح الذي كتبه المعادل بعد أن تم الصلح بين السلطان ومملك الإنكليز مثل الصليبيين ومعه بعض قاداتهم وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسائة ، ولم يسجله المعادل كذلك ، ولم يورده كذلك أصحاب البروضتين وسيرة ابن شداد وفرج الكروب ولا غيرهم ، ولكن المعادل أبقى شروط العقد ومدته فقال :

"فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكتب نسختها ، وعينت مدتها وبينت قضيتها^٥ وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأول أيلول لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل أمدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر والبسند و

(١) سنا البري ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢

(٢) سنا البري ج ١ ص ١٩١

والحضر ، وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا^(١) إلى صور^(٢) ، وأبدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الفبطة والسرور ، وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية والأعمال الدانية والتائية .

الرابع عشر : كتب التهئة :

ولعل أظهرها ، الكتاب الذي كتبه العماد عن الملك المعادل نور الدين إلى المعاضد آخر خليفة فاطمي ، حين علم برحيل الفرنج عن دمياط ، الذين كانوا قد نزلوا عليها في مستهل صفر سنة ٥٦٥ هـ ، فجهز نفسه وعسكره لنجدة أهل مصر ، وحين علم برحيلهم كتب هذا الكتاب :

"أطال الله بقاء فلان ، ولا زالت عوادي نعمة محمد بن بأولياته أحداق الأجفان بالأحداق ، وعوادي نعمة محرقة لأعدائه إحراق النيران أهل الشقاق ما أعلنت رايك النصر للدين ، وتليت آيات الذكر المبين .

الخادم يهنئ بما سناه الله من الظفر الذي أضحك سن الإيمان ، وحصل أهيل الشوك في شرك الخذلان ، وأعاد جيش الكفر واهي الجأش ، ويد الضلالة بادية الاوتماش حتى عاد جزب الشيطان مخذولا ، وسيف الله في رقاب أعدائه مسلولا ، وذلك ببركات الدولة التي سطع فخرها ، ولولا عدق اعتمامه بأهل الإسلام ، وحفظ الألباء الذين يذرون عن الدين ، ويحافظون على الذمام ، لكاد ركن الحق يميل لكيد الباطل ، فوفق الله فلانا وأيدته بنصره ، وأجرى قضاءه وفدرة على وفق أمره ، ورد كيد العدو والكافر في نصره .

وهذا الكتاب الذي كتبه العماد عن الملك المعادل نور الدين إلى المعاضد كتب التهئة التي أرسلها نور الدين مع شيخ العماد ابن عمرو إلى بغداد حين ولي المستنصر الخلافة سنة ٥٦٦ هـ ، ولكن المصادر التي وصلت أيدينا إليها لم تسجلها ولا وحدا منها وقد أشار العماد إليها في البرق .

أشار العماد في كتابه إلى ما ذكره في كتابه من الآتي

- (١) ياقار وقيسارية وعكا مدن فلسطينية محتلة من النيران أهل الشقاق ما أعلنت رايك النصر
- (٢) صور مدينة تقع الآن في لبنان
- (٣) الفتح القسي ٦٠٥ هـ وفي سيرة ابن شداد ٢٢٢ - ٢٢٤ هـ وفي مفرج الكبروب ج ٤٠٩/٢ - ٤٠٩ هـ وفي الروصتين ج ٢٠٢/١ مقلدا عن العماد : فرحنا
- (٤) سنل البرق الشامي ١٨٧ - ١٨٨ هـ وأشير إليه صاحب الروصتين ولم يذكره ج ١٢٤/١
- (٥) سنل البرق الشامي ١٠٢/١ وربما كانت موجودة في الأجزاء المفقودة من كتاب البرق الشامي .

مُتَابِعَةً لِأِرَادَتِهِ وَمَطَاوِعُهُ بِغَيْبَتِهِ لَمَا سَمَحْنَا عَلَى الْكُرْهِ بِغَيْبَتِهِ . وَلَكِنَّا ظَنْنَا بِهِ أَنَّهُ يَجِدُ مَنْ ذَلِكَ التَّصَبُّدَ الدَّائِمَ رَاحَةً ، وَيَكُونُ جَمَامِ مَوَارِدِ الْإِجْمَامِ لَهُ مُسْتَبَاحَةً مُسْتَبَاحَةً .

أُنَى وَالْمَمْلَكَةَ بِآرَائِهِ وَآلَائِهِ أَنْ حَلَّ مَتَسَقَةَ الْعُقُودِ مَشْرِقَةَ السَّمُودِ ، فَائِزَةً الْجُدُودِ ، نَاجِزَةً الْوَعُودِ . لَازَلْتَ أَقْلَامُهُ لِمَقَاصِدِ النِّجَاحِ مُحَرَّرَةً ، وَأَحْكَامِهِ لِقَوَاعِدِ الْإِصْلَاحِ مَقَرَّرَةً ، وَالْأَيَّامِ بِمِائِمَتِهِ الْمُبَارَكَةِ مَبَارَكَةً وَالْمَالِكِ لِمَشَارِكَةِ تَدْبِيرَاتِهِ الْمَشْكُورَةِ مَشَارِكَةً

ثَانِيًا : رَسَائِلُهُ الْأَخْوِيَّةُ :

التقى العماد خلال عمره المديد بالكثير من أدياء من عصره ، فأعجب بالكثير منهم ، وأعجب به الكثير ، وأثناء عمله بواسط ثم بالبصرة تعرّف على كثير منهم فراسلهم وراسلوه ومدحوه شعرًا ونثرًا . . . وفي الشام ومصر من بعد ما التقى بشعراء وكتاب القطرين ، وعلى رأسهم جميعًا القاضي الفاضل ، وكانت رسائله إليه وإلى غيره تقوالى ، ويستقبل منهم الرسائل النثرية والشعرية ، ولكننا للأسف الشديد لم نجد من هذه الرسائل إلاّ الاشارات إليها ، والقليل منها وردت منه فقرات لا تعطى صورة صادقة عن أسلوبه ومنهجه البديعى فيها .

ولقد لاحظنا أنّ العماد فى العراق كان يفضل الرسائل الشعرية على النثرية وربما دلّ ذلك على حب العماد للشعر وتفضيله إياه على النثر . فاذا ما تذكرنا أن العماد أبدى تحفظاً حين عرض عليه ديوان الانشاء سنة ٥٦٢ فى عهد نور الدين ، تحقق لدينا أنّ العماد كان يرغب أن يكون شاعراً مبدعاً لا ناثراً وكاتباً . والاشارات التى تركها تعطينا فكرة تقرب من الصحة فى هذا المجال .

قال فى ترجمته للقاضى المعدل أبى القاسم عمر بن الحسن الباسي : " وبدأنى بالمكاتبة نظماً ونثراً وعمل فى شعراً يبنى التعارف بيننا ، فأجبت عن شعره بمثله " ولم يذكر أنه أجاب على رسائله النثرية بمثلها .

ولقد كتب إلى أبى القاسم بن الحريرى وكتب إليه ، وحفظ رسائل ابن الحريرى

(١) سنا البرق الشامى ٢٨١/١ - ٢٨٢

(٢) الخريدة - القسم العراقى ج ٤ و ٥٨٧/٢

النثرية والشعرية له في الخريدة ولكن العماد لم يحفظ لنا رسالة نثرية كتبها ووجهها
إليه . (١)

ومكثدا فعن مع الفضل بن حمدان بن سليمان الشاعر البصري . (٢)

ومما يزيدنا اطمئنانا إلى عددا الأمر أن العماد كتب كثيرا من قصائد مادحيه التي
أثنوا فيها عليه خاصة في الأقسام العراقية والعجمي والشامي وقليل منها في المصري ، بل
إنه عقد فصلا جعل عنوانه : " جماعة من البصرة قصدوني بمدح " وقد سقط معظم عددا
الفصل من النسخة المطبوعة ، ووجدناه كاملا في مخطوطة نور عثمانية إلا أنه لم يترجم
إلا لشاعر واحد مدحه نحو المذكور آنفا .

ولم يحفظ لنا العماد إلا أشارات من رسائله إلى الفاضل : ومنها رسالة في وصف
المملوك الذي طلبه من صلاح الدين بعد أن عرض عليه السلطان قتل أحد أسرى الفرنج
واعذاره عن ذلك . (٤) وحفظ لنا رسالة إليه أيضا حين سافر القاضي الفاضل لأداء فريضة
الحج . . . يطلب فيها منه أن يحصن له خراج عيذاب البلدة التي أقطعها له توران شاه
أخو السلطان . (٥)

(٦)

كما ترك لنا فقرة قصيرة من رسالة وجهها للفاضل بعد وفاة السلطان ، وأخرى
يشكره على إرساله مجموعة من الكتب وأشار إلى رسالة كتبها إلى صديقه علم الدين علي بن
اسماعيل في بغداد ولم يسجلها . (٨) كما أشار إلى رسالة كتبها إلى صديقه ابن الفراهي ولم
يوردها . (٩)

وكانت بينه وبين أسامة بن منقذ مراسلات أشار إليها وكتب فقرة من رسالة لأسامة
إليه . (١٠)

أما رسالته للفاضل التي أرسلها إليه حين سافر القاضي لأداء الفريضة سنة ٥٢٤
وعلى في مدحه - فقد أورد منها أبو شامة جزءا ونحو :

(١) المصدر نفسه ص ٢٧٦ (٢) المصدر نفسه ص ٢٦٥

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٣

(٤) سنا البرق الشامي ج ١/٨٠٨ - ٢٠٩ وسجل جواب الفاضل عليها

(٥) سوف نذكرها (٦) سوف نذكرها (٧) الخريدة قسم مصر ٤٩/١

(٨) سنا البرق الشامي ١٠٤/١ (٩) سنا البرق الشامي ٢٥٤/١

(١٠) الخريدة - القسم الشامي ج ١/٥٤٤ - ٥٤٥

" طوبى للحجر والحجون من ذى الحجر والحجى ، منيل الجدا ، ومنير الدجى ،
 ولندى الكعبة من كعب الندى ، وللهدايا المشعرات من شعير الهدى ، وللمقام الكريم
 من مقام الكريم ومن حاطم فقار الفقر للحطيم ، ومعنى ربي بغير معنى الحرم وحاتم ماع (١) زمزم ،
 ومعنى ركب البحر البحر وسلك البر البر ، لقد عاد قس الى عكاظه وعاد قيس بحفاظ (٢) ،
 وباعجب للكعبة يقصدنا كعبة الفضل والافضل ، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والاقبال (٣) ."

ومما كتبه للفاضل رسالة شكر على كتبه التي أرسلها له من مصر ومنها كتاب
 العمدة وقلائد العقيان والحديقة وغيرها ، وقد حفظها العماد كاملة في الجزء الأول من
 الخريدة - قسم مصر - وقال في تقديمه لها أثناء ترجمته للفاضل : " وأنا مؤرد رسالة
 جامعة مانعة ناصحة ، كتبها في جواب مكاتبة له إلى وقد أعدى لي تسع مجلدات من
 الكتب النفيسة ، تشتمل على أشعار أهل مصر والمغربيين وآدابهم "

والرسالة طويلة بداعنا نثراً فأطال وختمها شعراً فأسهب ولكنه لم يسجلها جميعها
 ومنها :

" ما ظفر مدجج الا ظلام بالسنا ، ومخرج الإعدام بالينى ومزعج الفرام من وصل
 حبيبه المفارق بنجح المنى ، ومخرج السقام من وصف طبيبه الحاذق بيرة السنا ، والمصور
 المصور بتشير الجدة بعد الإلاق ، والمنهج المبهج بحر الجدة غيب الاخلاق (٤) (٥) (٦) (٧) "

ومنها في شكره على إرساله الكتب :

" ووصلت الكتب . كأنها الشهب ، يهدىها شمس نهار الفضل إلى سارى ليسل
 طلبه ، ليهديه بنورنا في غيبه ، ويقمه بسنا على مكنن مدعبه ، وعلى تسع مجلدات
 بل تسع آيات بينات ، وأنا عبد كليم الفصاحة المتوحد باختراع الكلام الحر ، وكريم الساحة
 المتفرد باختراع الإنعام البكر ، وطرف الفصاحة المزين علمه بالحلم ، والى الحماسة
 المبين عزمه بالحزم "

ومنها في تفضيل أسلوب الفاضل وكتابته على غيره الكتب وأساليبها :

-
- (١) ماع من الميع وغوا أن تدخل البئر فتلا الدلو لقله ماها .
 - (٢) الروضتين ج ٦/٢ (٢) مدجج شديد الاظلام
 - (٤) المصور الذى يحتاج ولا تقضى حاجته (٥) بحر الجده ، المال
 - (٦) المنهج : الثوب الخلق (٧) الفب بالكسر عاقبة الشئ

بيد أن منزلتها من الألفاظ الفاضلية منزلة الكتب المنزلة من الذكر المبين .
 وم بينها وبين الفرقان من فرقان . وما هي وإن جلت وجلت للقرآن بأقران . كذلك ما
 لفرائب المغريين ، وأحاديث المحدثين طلاوة ولا حلاوة ولا أطواء ولا طراوة ولا روثى
 ولا رواة ولا بهجة ولا بهاء ، مع فيض شرق سنائه البديعة وروثى بدائعه الصنيعة ،
 ومن ابن رشيبي عند رشيبي سهامه ، وهشيق أقلامه ؟ ولو امتد عمره إلى مدته ، لعمد
 إلى إخفاء " عمدته " وكان خاملاً في حاشيته ، حاملاً لفاشيته ، وإن أبا الصلت ، لو
 رأى راية رويته لأبى صلت صارم حرامته ، غاضاً حدقة حديقته ، غاضاً على إبهامه لما أبهم
 عليه من حقه وحقيقته ، ودع ودع قياس القيس يمرثه الطفل ، وقلب القول القسيبي
 يفرثه الحفل ، ففقد قلب يد الإحسان وفقد فلاك المعيان
 الإحيران في ميدان غذا البيان ؟ ولقد شخب ورث ابن أبي الشخبا ، ورد إلى خبا
 الإحتباء . ولو حبي ابن خفاجة لجاء حياً إلى جهة الاختفاء ، فهؤلاء الذين خص
 المولى عبده بخصائصهم ، وأخلصه للاطلاع على علم مطالبهم ومخالصهم

وله من رسالة في الشكوى من سوء حاله بعد وفاة السلطان ورحيل الفاضل إلى مصر
 مفضياً ، وبقاء العماد في دمشق ، وسعوره بالمهانة وتضييق حاسديه عليه خاصة ابـن
 الأثير الجزري وزير الأفضل . قال العماد : وما كتبه في كتاب يتضمن شكوى الحال :
 " ما حال من غصبت أملاكه أملاكه ، ونصبت أشراكه أشراكه ؟ " . ثم يسجل جواب الفاضل
 عليها .

(١) صاحب كتاب العمدة المشهور والمتوفى سنة ٤٥٦ هـ

(٢) الفاشية : الفطاء

(٣) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز صاحب كتابي الحديقة ، والرسالة المصرية والمتوفى
 سنة ٥٢٨ هـ

(٤) صلت : اشهار (٥) السود : خرز أبيض

(٦) يمرث : يمضي (٧) قلب : التوار

(٨) يفرث : ينثره ويعرف ما فيه (٩) قلبى : أبفض

(١٠) أحد الكتاب المشهورين في مصر - توفي سنة ٤٣٢ هـ

(١١) من انكتاب المصريين في القرن الخامس توفي سنة ٤٨٢ هـ

(١٢) الرسالة في القسم المصري من الخريدة ١ / ٤٤ - ٥٢

(١٣) سنا البرق الشامي ج ١ مقدمة العماد للبرق الشامي ص ٥٣ - ٥٤

وقد حفظ لنا صاحب صبح الأعشى فقرة قصيرة في ائذار العماد للفاضل لتأخر
المراسلة . فقال : ومن ذلك افتتاح العماد الأصهباني في ائذاره عن تأخر المكاتبات :
" إن تأخرت مكاتباتي فإن العذر معلوم ، والأجر محتوم والقلم مضدود ، واللحم
سدود ، والبلد محصور " .
ثالثا : النشر الأدبي :

ويشمل ما كتبه العماد في الخريدة وذيلها في مقدماته للأدباء الذين ترجم لهم .
كتب العماد تراجم كثيرة للشعراء والأدباء الذين أوردهم في خريدته وذيلها ،
ولم يترك من هؤلاء إلا الخامل أو من لم يعرف عنه شيئا أو لسبب آخر في نفسه ، وسوف
نناقش هذا الموضوع في الباب الرابع .

وقد اختلف موضوع هذه التراجم والمقدمات كما اختلفت في أسلوبها كذلك :
فالتفاوت في أسلوبه واضح ففي كثير من الأحيان كان أسلوبه يعتمد عن التصنع ، وفي الوقت
نفسه نجد له في تراجم أخرى أسلوبا مصنوعا التزم فيه ابديح بكل أشكاله .
ومن الأمثلة على النوع الأول ما كتبه العماد في ترجمته لأبي محمد طلحة ابن
أحمد النعماني قال :

" أظنه من العراق ، هو الذي ورد البصرة في زمان الحريري صاحب المقامات
فكتب إليه رسالته الشينية نظما ونثرا ، ووورد شيراز ومدح قاضي القضاة أبا محمد طاهر
ابن محمد الفزاري - وكان موثلا بنى الرجاء ، ومقصد الفضلاء ، ومطلع السعود ، ومنبيح
الجود ، وصل إليه هذا الشاعر في عيد الأضحى سنة ٥٥٩ وخدمه بقصيدة زائبة بمسند
مقامة قدمها وقطعة نظمها ، وعاد إلى الحجاز ، ثم قصد به شيراز سنة سبع عشرة ومدحه " .
(٢)

ولعلنا نلاحظ في هذه المقدمة ابتعاد العماد عن البديح وتصنعه ، كما أننا
نجد الفرق واضحا فيما كتبه ترجمة للأمير مجد العرب العاصمي ، قال :

(١) صبح الأعشى ١٦٢/٨
(٢) الخريدة القسم العراقي ج ٢ ص ٤٠٤

" شاعر مبرز محقق ، وله خاطر معجز مقلق ، وهو الداعية الدعيا ، وأعجوبة الدنيا ، وله العزة القمساء ، والفرقة الزعرارة ، والرتبة الشماء . "

ويظهر أسلوبه غذا - الذي يلتزم فيه البديح - حين يميل إلى النقد خاصة عندما يريد المدح ومن ذلك ما قاله في تعليقه على قصيدة لمجد السرب كذلك قال :

" هذه القصيدة فريدة . . . رصعت بها الكتاب ، وخريدة . . . أتحتف بمحاسنها الألياب ، ولم أتجنب فيما أوردته منها الصواب ، وراعت حق الفضل ، بالإطراء والمعدن تحقيقاً لقضية العدل " والجناس فيها واضح ولكنه خفيف مقبول . "

ومن الأمثلة على أسلوبه المطبوع ما كتبه في ترجمته لابن منير الشاعر قال عنه :

" واتقى انتزاع ابن منير من دمشق بسبب خوفه من رئيسها ابن الصوفي ، ومقامه يشيزر عند بني منقذ ، ووصل زين الدين ابن حليم إلى شيزر ، فلقبته بها ورغبه في العود وخدمة معين الدين أنسر الذي كان في الجود والحلم على الجود ، سامى الطود فلما فارقه كتب إلى ابن منير كتاباً يستنهمه إلى الرجوع ويستدعيه ، ويذكر له مصلحته فيسه ، ويقول له : لملي أكون في إحضارك كأصفى في إحضار عرش بلقيس ويعد له في الأوسنة أسباب التأسيس . "

ونلاحظ هنا قلة الجناس ووضوح الأسلوب وإشراقه .

فاذا وازنا ذلك بما كتبه في ترجمته لشاعر آخر وهو المشتبهى الدمشقي نجد الفرق واضحاً في الأسلوب قال :

" ذو النظم المشتبهى ، والفضل الذي له في قننه المنتهى واللفظ الرائع ، والخاطر المطاوع ، نظمه معتدل المنهاج ، صحيح المزاج ، أحبر من الديباج ، وأزعر من السراج الرعاج . "

وقال في مدح ظافر الحداد الشاعر السكندري : " ظافر يحظه من الفضل ظافر ،

(١) القمساء : الممتنعة الثابتة

(٢) الريدية - القسم العراقي ج ٢ ص ١٤٢

(٣) الخريدة - القسم العراقي ج ٢ ص ١٥٧

(٤) الخريدة - قسم الشام ج ١ ص ٩١ (٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٥

يدل نظمه على أن أدبه وأثره وشعره بوجه الرقة والسلاسة صافر • وما أكمله لولا أنه من مداح المصري • والله له غافر • حداد لو أنصف لسمى جوهرياً • وكان باعتزائه إلى نظم اللآلئ حرياً • أهدى بووي شعره الروي فلقلب السادية رياء • فياله ناظماً فصيحاً • مُفلقاً جرياً^(١) .

فالتصنيع ظاهر في هذا النص فإذا وازناه بنسب آخر له وجدنا البون واسماً والفرق بعيداً • قال في ترجمته لواصل الملك بن النديج المصري :

كان من أهل عصرنا • مولده بالإسكندرية • منى إلى اليمن • فركب البحر • فانكسر لوح من المركب تحته • فوقع فتعلق الجبل في عنقه • فمات عتيقاً لا غريقاً • ففسى هذا النص لا يظهر للصناعة أثر • اللهم إلا في كلمتي "عتيقاً وغريقاً" •

ولا يعنى إيرادنا للأمثلة السابقة - التي ابتمد فيها العماد عن البديع أو قلله - أن العماد كان يراوح بين الأسلوبين • فقد كان أسلوب التصنيع هو الغالب البارز • والصفة الظاهرة في معظم ما ورد في الخريدة من نثر العماد • ولكنه كان يورد فقرات في بعض التراجم تخلو من البديع • ولعله كتبها في بداية جمعه للخريدة أو ربما كان يترك في بعض الأحيان نفسه على سجيته فيكتب دون انتقاء للكلمات ولا اختيار لها •

رابعاً : النثر التاريخي :

ويشمل ما كتبه العماد في كتبه التاريخية ابتداءً من "نصرة الفترة" وانتهاءً برسائله الثلاث "العتيقي" و"النحلة" و"خطبة البارقي" •

وكتبه التاريخية باستثناء "الفتح القدسي" والجزئين الباقيين من "البرق الشامي" لا نستطيع الاعتماد على ما بقى منها لدراسة أسلوبه دراسة صحيحة دقيقة • لأن كتابيه "نصرة الفترة" و"البرق الشامي" لاختصرهما الفتح البنداري لتخفيف السجع فيها • أما كتبه الباقية فصافية ولم يبق فيها إلا مختصرات أو فقرات في "الروضتين" و"مفرج الكروب" في الأغلب • وفي غيرها في الأقل • وقد اعترف صاحب "الروضتين" •

(١) الخريدة - قسم مصر ج ٢ ص ٣

(٢) قسم شعراء مصر ج ١/٢ ١٣٦

و "مفرج الكرب" باختصار ما ثقلاه من كتب العماد . ولذا لا نستطيع الاعتماد عليهما
كذلك في دراسة أسلوبه .

لهذا سنعمد على "الفتح القسّي" وعلى ما بقى من "البرق" للتدليل على
أسلوب العماد وقارئ الفتح يرى لأول وعلة أن العماد قد اعتمد على التصنيح اللفظي
في كتابته للتاريخ ، ولعله يجد ذلك واضحاً في مقدمته له ، فهو يعترف أنه وضع كتابه
هذا لا للمهدف التاريخي فحسب ، ولكنه ليعلم القراء والأدباء أسلوباً رائعاً ، وثروة لفويصة
عظيمة . يقول في بيان هدفه هذا :

"هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الفرر المتجلية وسين
المستجدين الذين يستشرون إلى السير المتجلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح
والعقول ، ويكون حظ المتخير أن يسمع والأديب أن يقول ، فإن فيه من الألفاظ ما صار
معدنا من معادن الجواهر التي نولدها ، ومن غرائب الوقائع ما صار به لساناً من السنة
المجائب التي نوردها " .

أمثلة ونماذج :-

من الأمثلة التي أعجب بها الصدي والسككي ما كتبه العماد في مقدمته للفتح
قال : " فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوفتها ، وأظهر الآية التي لا أخت لها ،
فنقول : فهي أكبر من أختها ، وأفضت الليلة المظلمة إلى فجرها ، ووعلت الدنيا الحاملة
إلى تمام شهرها . وجاءت بواحد على الذي عناف إليه الأعداد ، وما كبت الذي له السماء
خيمة والحجج أطناب ، والأرض يساط والجبل أوتاد ، والشهس دينار والقطر دراهم
والأفلاك خدم والنجوم أولاد ، صلاح الدنيا والدين " وسهما دعونا له فإن الله قد سبق
إليه كوناً ، ورأينا بين منا وبين كرمه بونا . فهو سبحانه أكرم بالنوا منا بالسؤال ، والكرم
بكرم الله مجزي ، والساكت عن الدعاء له يكفي .

(١) الفتح القسّي - المقدمة / ٤٤
(٢) الحكيم من السماء : طرائف النجوم
(٣) الهمون : الفرق البعيسد

فإن قلنا : أحسن الله إليه : فقد قال : (إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً) (١)
 وإن قلنا : جزاه الله بالإحسان . فقد قال : "عل جزاء الإحسان إلا الإحسان" (٢) وإن
 قلنا : عداه الله سبيله . فقد قال : "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" (٣) وإن قلنا
 لا ضيع الله عمله . فقد قال : "فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل" (٤) وإن قلنا :
 "لا جعل الله لدعته عليه سبيلاً" . فقد قال : "ما على المحسنين من سبيل" (٥) وإن قلنا :
 زاده الله عدى . فقد قال : "والذين اهتدوا زادهم عدى" (٦)

كلُّ مُسْئِلٍ سَائِلٌ فى معاليه قد كَمَّـلٌ
 لا يَسْأَلُ مِنْهُ سَائِلٌ سَبَقَ الْجُودُ مَا سَأَلَ
 ولتصحح تأملاً تجد الله قد فملاً (٧)

وقد أورد الصفدى قسماً من هذا الجزء وقال عنه : "لما كان هذا خالياً من
 الجنس عذب فى السمع وقعه ، واتسع فى الإحسان صقعهُ ، ورشف اللب مدامهُ ، وكان
 عند من له ذوق أطرب من تفريدِ حمامة" (٨) وقد نقل السبكي هذا النهى وأورد رأى الصفدى
 موافقاً (٩) .

ومع أن العماد اتخذ التصنيف أساس كتابه الفتح ، وجدنا له أسلوبين مختلفين
 وكلاهما يقوم على الجنس . أما الأسلوب الأول فيقوم على الجنس وغيره ولكنه واضح مفهوماً
 والأمثلة عليه كثيرة وكان يستعمله فى بداية كل فصل حين يخبر عن أمر جديد ، فإذا انتهى
 من الأخبار الهامة ترك لقلمه العنان يكتب ما عن له غارفاً من ثروته اللغوية التى لا تنضب ،
 ولعل هذا النموذج الذى سنسجله يعطى فكرة صحيحة عن هذا الأمر . فقد كتب فصلاً
 بعنوان :

"ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع بينه"

"ووصل الخبر بأن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وصل — جامعاً من
 الأذاني والأفاسى ، ونزل طائماً على الماصى ، وخيم على قدس ، وخيمه قد تقدس ، والدين

- | | |
|----------------------------------|-------------------------------|
| (١) الآية (٣٠) من سورة الكهف | (٢) الآية (٦٠) من سورة الرحمن |
| (٣) الآية (٦٩) من سورة العنكبوت | (٤) الآية (١٩) من سورة هجران |
| (٥) الآية (٩١) من سورة التوبة | (٦) الآية (١٧) من سورة محمد |
| (٧) الفتح النفسى — المقدمة عن ٥٢ | (٨) الوافى بالوفيات ج ٤ / ١٢٤ |
| (٩) قدس : بحيرة فى سوريا | (١٠) |

بدنوه تأنس ، والكفر بقدمه تحكس ، وأنه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه على قهر
الشرك ونصر الإيمان ، فركبنا وابن ذكاء^(١) في إسفاره ، والصبح قد زحف على الليل برايات
أنواره والفجر قد فجر أنهار نهاره ، وسرنا بصدق النزاع وقصد الاجتماع فلقينا قد ركب
مستقلاً ، وقرب مقبلاً^(٢) .

فلما انتهى من الإخبار وجاء إلى الوصف ترك لنفسه عنانها فقال :

" وكان النادى مهيباً ، والندى مجيباً ، والذراير حيباً ، والقرى قريباً ، والظل
مدوداً ، والفصل موروداً ، والحفل حافلاً ، والشمل شاملاً ، والبساط مقيلاً ، والنشاط
مقبلاً ، والمروى حالياً ، والمروى عالياً ، والمسموع مطرباً ، والمجموع مفرباً ، والمنظر
والمخبر جليلاً جميلاً ، والمطلع والمطلب منيراً منيلاً ، والمكان علياً ، والزمان جليلاً ، والريح
في انتهائه " .

وعذا الأسلوب إن قبله دارس الأدب فلن يقبله دارس التاريخ الذي يسمى وراة
الحقائق التاريخية ، ولا يعنى ذلك أن تكتب هذه الحقائق بأسلوب ركيك ولكن بأسلوب
واضح جميل ولغة سليمة فصيحة .

ومن عذا الأسلوب الذي لجأ فيه العماد إلى الفموض وبالغ فيه وإلى التضييع
فأعمر ما كتبه في وصفه للفرنج في إحدى عجماتهم على المسلمين حيث كتب فصلاً بعنوان :

" ذكر خروج الفرنج للقتال "

ومنه :

" فلم يسمع إلا أنين الحنية ، ولحنين المنية ، ورنين الأوتار ، من كنين الأوتار^(٤)
وهفيف السهام لذيف اللهم^(٥) ، وصيل بنات النمود ، من غليل أبناء الحقود ، وعهممة
الأبطال ، وعغممة الأقتال ، وزعيم الشرغام ، وزعيم الصرام ، وقرع الظبا بالظبا ، ووقع^(٦)
الشبا على الشبا ، وضجة الحديد من الحديد ، وعجة الشديد من الشديد "

- (١) ابن ذكاء : الصبح (٢) الفتح القسى ع ٢١٩
(٢) الفتح القسى ٢٢١ (٤) الكنين من كنانة الهمام وعلى جسيبة من جلد
(٥) الذيف : من ذف بمعنى أجهز أي الهلاك .
(٦) الهمام من لهم الشيء بمعنى ابتغاه والتهمه وعلى هنا مستور
(٧) الشبا : الأولى : حد كل شيء حاد والثانية الفرس العاطية في العنان والتي تقوم
على رجليها .

ولعل ألفاظ كثيرين ، وذهيف ، الظبا ، الشبا ، وجرجرة وكثير مما يأتي في النص
مثل : حيملة وحيملة ، تمدّ ألفاظاً غامضة وتحتاج من القارئ العادي بل والمثقف
النوعي - في زماننا - أن يرجع إلى المعاجم اللغوية لفهمها . ولعله في مثل هذه النصوص
يحقق قوله السابق في مقدمته من أنه وضعه لتعليم القراء والأدباء الأسلوب الرائق والألفاظ
الأصيلة فضلاً عن التاريخ .

وأسلوبه في البرق الشامي لا يكاد يختلف عن أسلوبه في الفتح ، ومن الأمثلة عليه ما كتبه
بعنوان :

" ذكر وصول رسل دار الخلافة للشفاعة وردّ المواصلة بالصلحة في المسالحة
إلى الطاعة "

" ووصل إلينا الخبر بأن رسل دار الخلافة وأعلنون وفي أمر الموصل شافسون
سائلون وطم صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير ومعهما من خواصّ الديوان
جمع كثير ، فتلقاهم السلطان بالصدر الرحب والبشر العذب والخلق السهل غير الصعب
والسلم البكر من عوان الحرب ، والخطاب المتوجه لصرف وجه الخطب وكتبت إلى جناب
السلطان له مسائراً ، وإليه وله في المهام ناظراً مناظراً ، والموكب مشهود والمذهب
مقصود ، والمطلب موجود ، والنطالع مسعود والشارع محمود والملقى مودود ، والملق
مردود ، ولوا الإقبال معقود ، ورواء الإدبار مفقود ، وشعائر الدولة الإمامية المشرفة
في أيامنا البيض سودّ والبنود غايبة "

ولعلّ القارئ يلاحظ أن العماد قد جعل أسلوبه في بداية النص واضحاً مفهوماً ،
والتصنيح فيه خفيفاً وحين انتهى من سرد الخبر الرثيم ، أطلق لقلمه العنان وسألت
ألفاظه ، وكأنه كما قلنا أراد تثقيف القارئ بالمفردات اللغوية الأصيلة كما ذكر .

(١) حيملة : قولك هي على الصلاة هي على الفلاح

(٢) الهيمض : الجيس الكثير والهيمضلة : المرأة النصف والناقاة الغزيرة

(٣) في البرق الشامي المخطوط نقلنا عن كتاب صلاح الدين لهاملتون جب ص ١١٢

الموصل مع موضوع أدنى، فما ضرورة
التوسع في التاريخية ؟
حتى صفحة ٩٤

الفصل الثالث

العماد المـؤرخ

اشتهر في عصر العماد عدد من مشاهير المؤرخين المسلمين الذين ما زالت
بعض مؤلفاتهم مصدرًا عظيمًا لتاريخ تلك الفترة أو الفترات التي سبقتها . ويكفي للتدليل
على ذلك سماع أسماء ابن الأثير الجزري صاحب " الكامل " و " تاريخ الأتابكة في الموصل "
وأبي يعلى صاحب " مذييل تاريخ دمشق " وابن عساكر صاحب " تاريخ دمشق " ، وابن
أبي طيِّع صاحب " تاريخ حلب " ، وابن المستوفى صاحب " تاريخ إربل " وابن البريشي
صاحب " تاريخ واسط " وابن أبي جرادة المعروف بابن العديم صاحب " تاريخ حلب " ،
وأبي شامة صاحب " كتاب الروصتين " .

واشتهر كذلك القاضي الفاضل فيما يسمى " بمتجددات الفاضل " وعلى مذكرات
ورسائل رسمية يومية كان يسجلها بخطه ، وحظي بالشهرة كذلك القاضي ابن شداد صاحب
" النوادر السلطانية " وغيرهم من كبار المؤرخين .

إن نظرة قصيرة إلى أسماء هؤلاء تدلُّ دلالة قاطعة على أن الحركة العلمية
وبالتالي الحركة التاريخية كانت رافية ، وأن هذا العصر كان عصر علم وتدوين ولم يكن عصر
انحطاط . إن حركة العلم كانت قوية وحركة الأدب والنقد كانت على الأخرى جادة نشطة .

وكان العماد أحد دعائم العلم في القرن السادس ، كان علماً مشهوراً فسي
ميادين متعددة ، وعلوم وفنون كثيرة . وقد تحدثنا عنه بإفاضة فيما سبق ، وسوف نخصص
هذا الفصل للعماد المؤرخ الذي كتب عدة مؤلفات تاريخية كانت ولا تزال مصدرًا مهمًا بل
المصدر الرئيسي للفترة التي أرختها . إن كتابي البرق الشامي " و " الفتح القدسي "
ورسائله الثلاث : " العتبي والعتبي " و " نخلة الرحلة " و " خطبة البارقي " تعد المصادر
الأولى لتاريخ نور الدين من سنة ٥٦٢ هـ وصلاح الدين وخلفائه من بعده إلى سنة ٥٩٧
ويعدُّ كتابه " نصره الفترة " في تاريخ الوزراء السلجوقية " من أعم الكتب في تاريخ
السلجوقية .

وقد تحدثنا عن هذه الكتب فيما مضى من بحثنا هذا ، كما ذكرنا نماذج منها
لنرى أسلوبها ، ولكن عن يمين الأسلوب المسجع المصنع ، واللغة الفاضحة أحياناً أن
يفيد الباحث منها ؟ .

عذما ما سنبحثه في هذا الموضوع ، كما سنبحث كذلك صفات العماد المـؤرخ ،
ونوازن بينه وبين ابن الأثير مرة وبينه وبين ابن شداد مرة أخرى .
الفترة التي أرخ لها :

لعلنا نستطيع تقسيم الفترة التي أرخ لها العماد إلى فترتين :
أولاً عما : من أواسط القرن الخامس الهجري وحتى سنة ٥٧٥ هـ . وقد خصصها لتأريخ
دولة السلاجقة ومن مختصر البنداري " زبدة النصرة " نستطيع القول بأنه بدأ كتابه
بدخول السلطان طغرل بك إلى بغداد سنة ٤٤٧ (١) وانتهى به في شهر شوال من سنة ٥٧٥ (٢)
يوم وفاة المستضيء بأمر الله وولاية الناصر لدين الله ، وقد تحدثنا عن هذا الكتاب ضمن
كتب العماد .

والثانية تبدأ من سنة ٥٦٢ حتى سنة ٥٩٧ سنة وفاة العماد ، وقد كتب فيها خمسة كتب
تاريخية وهي " البرق " و " الفتح " والرسائل الثلاث . ويضيف بعضهم كما ذكرنا سابقاً
كتاباً آخر هو " البستان الجامع " . وقد نوهنا في عرضنا لكتب العماد بأن هذا الكتاب
يختلف عن أسلوب العماد الشهير ، ويتحدث عن الفترة التي أرخ لها كتاباه " البرق "
و " الفتح " وهو بالتالي لا يمكن أن يكون أحد كتبه .

وعنده الفترة من سنة ٥٦٢ هـ إلى ٥٩٧ هـ - وهي تقرب من خمس وثلاثين سنة -
تمثل حياة العماد منذ التحاقه بنور الدين إرني يوم وفاته ، وقد أرخ فيها الأحداث التي
شهدها بعينه ، وهي لذلك تمثل تاريخاً أو تواريخ عامة عدتها المؤرخون مصادر رئيسية
لهذه الفترة .

لماذا أرخ العماد لهذه الفترة ؟

أما كتابه الموسوم " بنصرة الفترة " فنحن لم نجد مقدمة هذا الكتاب إلا أن من
الواضح أنه كان تخليداً للأخبار أهلها خاصة عمه العزيز الذي كان أحد كبار الساميين في
الدولة السلجوقية - وقد تحدث فيه بإسهاب شديد عن الوظائف التي شغلها عمه ، والمناصب

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٧٨ - ٢٧٩

التي تقلدنا وأتقن عمله فيها حتى وصل إلى دست الوزارة ، وتحدث فيه كذلك عن —
المؤامرات التي حيكته حوله والتي أدت به إلى السجن في تكريت ومن ثم إلى قتله ، كما
تحدث باختصار شديد عن والده ومكانته ، وعرض الوزارة عليه من قبل الخليفة الراشد ، وتحدث
فيه كذلك عن أعمامه الآخرين مُشيداً ومُثنيًا . ولا يعني ذلك أنه لم يعمل موضوع الكتاب ليظهر
أخبار أعمامه ، ولكنها كانت تأتي مع الأحداث فيحيطها نوعاً من التركيز والتفصيل ، ولم يكن
هو الوحيد الذي ذكر عمه العزيز ، فكتب التاريخ تحدث عنه ومنها " المنتظم " لابن
الجوزي و " تاريخ ابن خلدون " وغيرهما . ولكن لم يتحدث أحد غيره عن والده وبقيّة
أعمامه .

أما كتبه الباقية فقد خصصها للحديث عن صلاح الدين ، وجاء تاريخه لنور الدين
وأعماله عرضاً ، إذ بدأ كتابه بيوم وصوله إلى دمشق ، ونور الدين حاكمها ، فتحدث عن
صلاته بنجم الدين وشيركوه وصلاح الدين ، وهؤلاء جميعاً كانوا قادة يحملون تحت إمرة
نور الدين ، ولعلّ مقدماته التي تركها خاصة في " الفتح " و " البرق " تثبت قولنا هذا
وتؤكدّه .

قال في " الفتح " : ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة ، ولم
تكن المدائح بينهم وبين المذام على الفاضلة . ولعلّ الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها
وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها ، وما وراء سهولتها من صعوبتها " (١) إذ أن هو
يريد تخليد أصحاب الفضل ، ومن ثمّ تسجيل الوقائع ببيضها وسودها لتكون عبرة لمن يعتبر ،
ودرساً لمن يفهم ويتنظ .

ولعلّ ما سجلناه سابقاً — مثلاً لأسلوبه البديع الذي أوله : " فلما أراد الله
الساعة التي جلاصنا لوقتها ، وأظهر الآية التي لا أخت لها . . . " يدل على مدى حبّه
للسلطان ما جعله يكتب هذا التاريخ ليحفظ له أعماله ويخلد له أفعاله .

ويمكننا القول بأن إعجابه بفتح القدمين واعتزازه طرباً كان دافعاً آخر له على كتابة
تاريخ منفصل لهذا الفتح ويدل على صحة كلامنا هذا قوله في مقدمته للبرق :

(١) الفتح القسسي ص ٤٤

(٢) المصدر السابق ص ٥٤

" وبعد فان الكرم من عرف حق المنعم عليه ، وشكر فضل المحسن إليه واذا خدم
مخدوماً أوجد بكرمه بذكره ، وابن صار معدوماً وعرف من سر عرفه ما كان مكتوماً ، ومن استكفاني
للإنشاء لتنفيذ أوامره في حياته أكافئه بالإحياء في إنشائه مفاخره في حياته ، وهو الملك
الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله ، فاني صحبتته فكان خير
مصحوب ، وخطبتُ ودهُ فالفيتة ألف مخطوب .

ولما انقضى عصره ، وانقضى عمره ، خشيبت أن ينقرض ذكره فأنشأت هذا الكتاب
وأعطيته من البلاغة حظاً وأعرتُه من الفصاحة لحظاً " .

وفي هذه المقدمة نجد دافعاً آخر أشار إليه العماد من طرف خفي ، ونمى به
تخليد سيرته وتمجيد أيامه مع السلطان وبيان تأثيره في الحوادث ، نجد ذلك في قوله :
" وأنا أقدم في هذا الكتاب ذكر نبذ من أحوالي مع السلطان ثم أبتدئ بذكر معرفتي به
وخدمتي له ، وأعقب مبادئ دولته " .

كما نجد دافعاً ثالثاً هو الافتخار بقلمه ونفسه ، فحب الأدب عند الأدباء يدعونهم
في كثير من الأحيان إلى الكتابة ، وإعجاب العماد بقلمه وأسلوبه وصناعته كان دافعاً له
إلى الكتابة ، وإنه ليقول : " ولم يزل قلمي ليسيفي مشاركاً وملكه مداركاً ، هذا للرزق
وذاك للأجل ، وهذا للأمن وذاك للوجل ، وكان السلطان يعتمد على قلمي وينصر كتابته ،
وعو يقول : " الحمد لله الذي وسع على السواد اعتمادى وحاط إلى سدايه استنادى " .
منهج العماد في كتابته التاريخية :

نهج العماد في كتبه التاريخية منهج المؤرخين المسلمين الذين اتخذوا نظام
الحوليات في تاريخ الأحداث ، وتبدو هذه الظاهرة واضحة في كل ما كتبه من كتب تاريخية ،
وكتابه الأول " نصره الفترة " ولذي أرخ للوزراء السلاجقة وملوكهم يتجلى فيه هذا الطابع
ولكنه لم يلتزم به التزاماً مطلقاً ، فقد جعل كتابه فصلاً متتابعة حسب السنوات المتتالية ،
وبدأ الكتاب بمقدمة عن بداية حار السلجوقية حتى وصل بهم إلى طغرلبيك ، فمقد له فصلاً

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٣

(١) سنا البرق الشامي ١ / ٥٢

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥

(٣) المصدر السابق ١ / ٥٢

بم عنوان : " ذكر دخول السلطان ركن الدين طغرليك ٠٠٠ إلى بغداد في ٢٥ رمضان سنة ٤٤٧ ومعه الوزير عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور الكندوري وهو أول وزراء السلجوقية " (١)

وتتابعت فصول كتابه ، إلا أنه لم يلتزم نظام الحوليات فكان يقدم ويؤخر حسب ما يقتضيه الشرح والتوضيح ، ولعل العماد وجد الكتاب على هذه الصورة ، فالكتاب كما سبق أن نوهنا - لأنوشروان بن خالد الوزير السلجوقي وقد ترجمه العماد وأضاف إليه إضافات شتى ، ولعل هذا الأمر هو الذي دفعه لإخراجه على هذا النهج .

أما في كتابه " البرق الشامي " فقد التزم نظام الحوليات التزاماً كاملاً ولعل الفهرس الذي ذكرناه أثناء حديثنا عن " البرق الشامي " يدل دلالة قاطعة على هذا الاتجاه .

(٢) وقد سلك المنهج نفسه في كتابه " الفتح القسي " الذي بدأه بمقدمة عن التاريخ وأهميته وسبب تأليفه لهذا الكتاب وتسميته وامتدح أسلوبه وطريقته . ثم بدأ بتسجيل حوادث سنة ٥٨٣ وما جرى فيها من وقائع وفتوح وما سطره قلمه فيها من خطابات ورسائل ، وهكذا كان يستمر في تعداد الحوادث والوقائع إلى أن ينتهي العام فيقول : " ودخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، ويبدأ في سرد حوادثها على النهج السابق .

وهكذا سلك العماد في وسائله الثلاث التي لخصها العماد في الروضتين حسب السنين .

إن كتب العماد التاريخية لا يعدُّنا المؤرخون المحدثون كتباً تاريخية بحتمه لأن العماد لم يلتزم فيها بذكر الحوادث التاريخية ، ولكنه أضاف إلى ذلك رسائل نثرية له ولغيره من الكتاب وأسماراً له ولغيره من الشعراء .

يقول السير ساملتون جب عن (البرق الشامي) إن تاريخ عماد الدين ليس بأى معنى تاريخاً عادياً لرواية الأحداث ، بل هو أكثر منه في طبيعته المفكرة المهنية أو السجل لنشاطات المؤلف الكتابية ، وقد جرى تزويده بوفرة من نسخ رسائله أو مقتطفات منها ، ومراسلاته شبه الخاصة مع القاضي الفاضل ، وشهادات التعمين لمختلف المناصب ، تلك

(١) المصدر نفسه ص ٩

(٢) الفتح القسي - المقدمة (٤١ - ٥٨)

التي كانت من إنشائه ، بالإضافة إلى مناسباته الأدبية والشعرية . والكتاب أقل تكراراً لتفصيلات شؤونه الخاصة . لكن بما أن عماد الدين لازم صلاح الدين بدون انقطاع تقريباً منذ صيف ١١٧٥ ميلادية وحتى وفاته ، فالكتاب هو أيضاً عرض زمني للأحداث .

وقد ذكر يوليوس مؤلف كتاب نور الدين بالفرنسية أن كتاب " البرق الشامى " عبارة عن سيرة شخصية أو بمعنى آخر مجموعة مذكرات تبدأ من وصول المؤلف إلى سورية سنة ٥٧٢ هـ / ١١٦٧ م وتنتهى عند وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ / ١١٩٤ م ، ويحكى عماد الدين في سبعة أجزاء كاملة ، كل ما حدث عندما كان يعيش إلى جانب نور الدين وصلاح الدين ، ويصطلى تفاصيل عن العمليات الحربية في سورية وبلاد الرافدين وعلى تفصيلات كان يسجلها من مفكرته أو سجلاته اليومية أو في سجل إدارته ، وعم يزود كتاباته ببعض رسائل موجهة إلى القاضي الفاضل ويصغى على الأحداث لمسة درامية .

وقال : روستال : عن البرق الشامى وغيره من كتب السامد : " وبطريقة أو بأخرى فإن كتاب العماد يتميز بأنه رمز لقيمة استخدام الوثائق لدى المسلمين ، وقد تم تجميع ذكرياته مرتبة ترتيباً تحليلياً من كتابات وثائقية جيدة ومن أوامر رسمية ومن مواد أخرى مشابهة ففى كتاب البرق الشامى " .

وقد شبه الدكتور نظير سعداوى المراسل الحربى بالعماد الأعفهانى بسبب منهجه غذا فقال : والمراسل الحربى لليوم الذى يغذى صحف العالم كلها ووكالات الأنباء بالأخبار الحربية ، أشبه ما يكون بالعماد الأعفهانى فى تتبعه عساكر صلاح الدين ففى ميادين القتال .

وخلاصة القول إن كتب العماد التاريخية لم تكن كتب تاريخ بحت فقد أضاف إليها رسائل وأشعاراً كثيرة ، وهذا ما جعل لها قيمة كبيرة وأهمية عظيمة ، فأصبح الكتاب مصدرًا من مصادر البحث للشاعر والنائر والمؤرخ ، ونحن نعتقد أن هذا هو سر خلود كتب العماد .

(١) صلاح الدين الأيوبي دراسات فى التاريخ الاسلامى ص ٧٣ والنسخة الانجليزية ص ٧٩

(٢) نور الدين بالفرنسية ج ١ ص ٢٩

(٣) A History of Muslim Historiography by - Rosenthal, p 296

(٤) التاريخ الحربى المصرى - دكتور نظير سعداوى ص ٦٤

وقبل أن نغيب كلامنا بهذا نودُّ أن نعيد ما سبق أن قلناه من أن كتابه "الفتح القسى" خلا من الشعر، ولم يكتب فيه سوى عدة أبيات في المقدمة، وسجل فيه الكثير من المراسلات والمنشورات والبشائر.

وربما سلك هذا النهج في رسائله الثلاث، ولكن وجود شبر للعماد فسى "خطفة البارقي" في مدح الكامل يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنه نهج فيها طريقته فسى البرن الشامى.

العماد بين ابن شداد وابن الأثير:

أما ابن شداد فهو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المشهور بابن شداد. . . نسبة إلى أخواله بنى شداد الذين تربي عند عم.

ولد ابن شداد في الموصل سنة ٥٢٩ (١١٤٥) وتوفي بحلب سنة ٦٣٢ هـ (١٢٢٦ م) وتعلم في الموصل ودرس علوم عصره من قرآن وحديث وتفسير وفقه وأدب وغيره، وارتحل إلى النظامية، وعمل فيها معيداً سنة ٥٦٤ (١١٧١ م) وظرفى السابعة والعشرين من عمره، وعمل فيها أربع سنوات، عاد بعدها إلى الموصل وعمل مدرساً بـ مدرسة القاضي كمال الدين ابن الشهرزورى، واشتهر أمره وعرف بالحكمة والاتزان والرأى السديد والمقل الراجح فاحتاره أمراء الموصل لارتزكين رسولهم إلى الخليفة ومن ثم ذهب إلى دمشق.

وفي سنة ٥٨٢ هـ حج ابن شداد إلى مكة، وحين كان في طريق عودته قصد القدس لزيارتها - ليجمع على حد تعبيره - بين زيارة قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وزيارة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الخليل. فوصل إلى دمشق ثم خرج إلى القدس، فبلغ صلاح الدين خبر وصوله، فظن أنه وصل رسولاً من جانب صاحب الموصل، فطلبه إليه وبال في إكرامه واحترامه.

وحين ودع ابن شداد السلطان في طريقه إلى القدس لحق به العماد الكاتب

(١) في الصفحات الأولى من مقدمة سيرة ابن شداد ترجمة وافية له

(٢) سيرة ابن شداد ص ٨٥

وأبلغه بأن السلطان يرغب في عودته إليه بعد أداء الزيارة ، فظن ابن شداد أن الهدف من ذلك وصية سيحملها منه إلى صاحب الموصل .^(١)

وبعد أن انتهى من أمر الزيارة عاد إلى دمشق فأقام فيها خمسة شهور جمع فيها كتاباً في الجهاد ، وكان السلطان يرغب في إلحاقه به ، ويشن عليه أمام رجال دولته ومن ثم أرسل إليه أنه قد عزم على منعه من العودة إلى الموصل حباً فيه ، ويقول ابن شداد : " وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيتة - ولمست - حبه الجهاد فأحببته لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة " .^(٢)

وظل القاضي ابن شداد إلى جانب السلطان حيث عينه قاضياً لمسكوه وقاضياً لبيت المقدس وناظراً للأوقاف فيها .^(٣)

وبعد وفاة السلطان التحق بابنه الملك الظاهر صاحب حلب الذي عينه قاضياً لها ومشرفاً على أوقافها . ويقول صاحب " شذرات الذهب " : وأجزل رزقه وعطائه وأقطعته إقطاعاً جزيلاً ، ولم يكن له ولد ولا قرابة ، فكان ما يحصل له يتوفر عنده فبنى به مدرسة وإلى جنبها دار حديث ، وظل صامى المكانة محفوظ الكرامة إلى أن توفي في الرابع من عشر سنة ٦٢٢ ودفن في حلب .^(٤)

اشتهر ابن شداد بكتابه المعروف باسم " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " أو سيرة صلاح الدين .

أما ابن الأثير فهو أوسط إخوة ثلاثة اشتهروا بهذا اللقب ، أولهم الأخ الأكبر أبو السماعات المبارك الملقب مجد الدين وأوسطهم صاحبنا المؤرخ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقب بعز الدين (٥٥٥ - ٦٢٠ هـ) أو (١١٦٠ - ١٢٢٤ م) . والثالثها نبيه الدين أبو الفتح نصر الله وهذا هو صاحب العماد الذي استطاع أن يكيد له وينزله من مكانته ويحاول الاستيلاء

(١) المصدر نفسه بتصريف ص ٨٥ وفي وفيات الأعيان ج ٨٥/٦ نصي على أن العماد هو الذي تبع ابن شداد وأبلغه بمطلب السلطان .

(٢) سيرة ابن شداد ص ٨٧ (٢) الفتح القسي ص ٦١٢

(٤) شذرات الذهب ج ١٥٨/٥ (٥) المصدر نفسه ج ١٥٩/٥

(٦) شذرات الذهب ج ١٢٦/٥ (٢) المؤرخون المساعرون لصلاح الدين ص ٦-٧

على أمواله - كما زعم العماد - وهو الذي عمل وزيراً للأفضل .

ولد عز الدين بجزيرة ابن عمر الواقعة على نهر الفرات وكان والده يعمل فيها ثم رحلت عائلته إلى الموصل ، وتعلم فيها ، وتنقل في البلاد الإسلامية واطلع على كثير من أمورنا ، وقد كتب عدة كتب يهمننا منها كتابان أولهما : " الكامل في التاريخ " وثانيهما : " تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل " .

لم يتصل عز الدين بن الأثير بالسلطان اتصالاً مباشراً ولم يعمل في ديوانه ، ولكنه رآه وعرفه خلال تلك المصارك التي دارت بين السلطان وأتابكة الموصل ، كما رآه وعرفه في معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ حين كان جندياً في جيش الموصليين الذين جاءوا نجدة للمسلمين .

والذي يهمننا من ذلك تحديد مكانة العماد بين الرجلين من حيث هو مؤرخ ، ولكن قبل أن نبدأ بالحديث عن هذه المكانة نود أن نشير إلى علاقته الشخصية بابن شداد ، أما مع ابن الأثير المؤرخ فالمعروف أنهما لم يتعارفا .

أما علاقته مع ابن شداد - كما أوردنا آنفاً - فكان العماد علماً الوصل والوسيط بين السلطان وبينه ، وقد اعترف ابن شداد بأن صلاح الدين أرسل له أحدهم ^(١) حواصه ، ولكنه لم يذكر اسم العماد صراحة ، كذلك لم يذكر اسمه ولو مرة في كتابه " النوادر السلطانية " .

أما العماد فقد ذكره في كتابه " الفتح القسي " عدة مرات ، قال العماد : " وعمول السلطان على القاضي بها ، اندين بن شداد يوسف بن رافع بن تميم ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم " . وقال عنه أيضاً في تكريم الخليفة له : " وشرف بها الدين وأعيد " . وقال في الوقعة العادلية عند عكا : " وركبت أنا والقاضي الفاضل بها ^(٢) ابن شداد لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد " . وقال عنه أثناء حديثه عن المفاوضات بين العادل وملك الإنجليز : " واستدعاني العادل والقاضي بها الدين " .

(١) الفتح القسي ص ٤٢٢

(١) النوادر السلطانية ص ٨٧

(٢) الفتح القسي ص ٢٢٤

ابن شداد وجماعة من الأمراء من أهل البراء والسداد وهم علم الدين سليمان بن جندر . . .^(١)
وقال عنه : " وركب السلطان يوم الجمعة . . . والقاضي بهاء الدين بن شداد يسايرني
وفي مسألة من الخلاف يباحثني ومناظرني حتى وصلنا إلى القدس قبل العصر " .^(٢) وقال
عنه مادحاً : " وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف ابن
رافع بن تميم وعمول منه على أمين كرسيه " .

إن النصوص السابقة تدل دلالة قاطعة على أن العماد كان يكن لابن شداد
كثير مودة وتقدير واحترام ، ولكننا نسود لنتساءل لماذا لم يذكره ابن شداد في كتابه ؟
ولعل النص الآتي يثير نوعاً من الشك ، قال ابن شداد في حديثه عن المفاوضات بين
العماد وملك الإنجليز - التي كان العماد وابن شداد من الجماعة الذين استدعاهم
العماد ليستشيرهم - . . . " وذلك أنه لما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر
رمضان استدعاني الملك السادل في صبيحته ، وأحضر جماعة من الأمراء علي رؤسهم
الأمير : علم الدين سليمان . . . وشرح لنا ما عاد به رسوله من الانتكاز .^(٣)

فالعماد يذكر أنه كان أحد أعضاء الجماعة ، وابن شداد لم يذكره وذكر غيره .
فهل كان ابن شداد يرى أن العماد في منزلة أقل من منزلته ، فكان يجب الركوب إلى
جانبه والحديث معه ، ومناقشته ؟ أم كان العماد كاذباً يلقق الأخبار لصالحه ليجمع
من نفسه شيئاً مهماً ؟؟

إن شهادات المؤرخين التي سنذكرها فيما بعد - تثبت أن العماد كان
صادقاً أميناً ، ولم يثبت كذبه في حادثة واحدة ، وربما وهم في أمر ما لكن الكذب والاختلاق
غير واردين عنده .

إننا نقف مستغربين أمام هذا الوضع ، ولعل ما كتبه محقق كتاب الفتح القسسي
- ليبين لنا مكانة العماد بين القاضي الفاضل والقاضي ابن شداد - يلقى نوعاً من الضوء
على هذا الأمر ، فقد جعل منزلة الفاضل في الدوحة الأولى ، كما جعل منزلة العماد
الثانية بعد الفاضل في الأمور الإدارية ، أما ابن شداد فمنزلته بعد الفاضل في الدين
والعلم وفي الميل والاطمئنان الشخصي .^(٤)

(١) الفتح القدوسي ٥٥٥ (٢) المصدر نفسه ص ٥٦٤
(٣) المصدر نفسه ص ٦١٢ (٤) النوادر السلطانية ص ١٤٧
(٥) مقدمة المحقق للفتح القسسي ص ٢٧ - ٢٨

والذي نراه أن هذا الكلام يسبب كبد الحقيقة ، فمنزلة الناخلة لم تكن تدانها
منزلة عند السلطان ، أما ابن شداد فالجميع يشهدون له بالبرج والتقوى ، ولم يلزم أحد
جانبه ، وقد اتصن بالسلطان بناء على رغبة ملحة من السلطان نفسه ، أما العماد فقد
كسب ثقة السلطان الإدارية فوثق به في تصريف الأمور ، ويبدو أن سلوك ابن شداد ومساره
في الحياة ، وقلة طمعه في الماديات الدنيوية جعل السلطان يميل إليه ميلاً قلبياً ،
ولا غرابة في ذلك فقد كان قاضياً متديناً .

وخلاصة الأمر أن تنافساً ديباً بين الرجلين ، واستطاع العماد السياسي أن يخفيه
أما ابن شداد فلم يستطع ذلك فأظهره من خلال كتابه وإنكاره للعماد ومنزله وأعماله
ذكرة له ولمكانته يعطيان دليلاً على ذلك .

ونسود لنقرأ شهادات المؤرخين الأوربيين والعرب في هؤلاء الثلاثة :-

أما ابن شداد فقد شهد له الجميع دون استثناء بالأمانة وعدم التحيز والإدراك

السليم .

ويبدو أن ستانلي بول كان من أوائل المؤرخين الغربيين الذين عنوا بدراسة
حياة صلاح الدين ومؤرخي زمنه ، وتكتب يقول عن ابن شداد : " ويكتب بهاء الدين في
حمر سليم وصدقهما على غاية من الرزانة ، وأنا لا أستطيع العثور في كتابه على شيء من
ذلك التحيز الشخصي والإغراق في الغلو الشرقي ، اللذين إن وجدنا فإنه من الضروري
الاعتذار عنهما وتبريرهما . وقد أخذ برأي هذا المستشرق سير هاملتون جب والدكتور
الباز السريني ونقلاه عنه .

أما جب فيقول : أما بالنسبة لموثوقية المصدر الأول - النوادر - وإمكان
التعمويل عليه فلا يمكننا أن نضيف شيئاً يذكر إلى شهادة ستانلي بول في مقدمته لكتاب
صلاح الدين (٢) .

وقال الدكتور السريني : " وما يتعلق بأصالة وصدق كتاب ابن شداد في
سيره صلاح الدين فليس في وسعنا أن نضيف إلا قليلاً إلى ما أوردناه من شهادة ستانلي
بول في تصديره لكتابه عن صلاح الدين .

-
- (١) صلاح الدين الأيوبي - دراسات في التاريخ ص ٦٨-٦٩ وثقمة تبرير خطأ شائع
صوابه تسويج . (٢) صلاح الدين الأيوبي - دراسات في التاريخ ٦٩-٧٠
(٣) كذا والصواب : ليس (٤) مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٣

واعتدحه كذلك الدكتور نظير سعداوى فقال : "حقاً لقد مدح ابن شداد صلاح الدين بصراحة وشمس مع النظرية الدستورية الحديثة القائلة : بأن الملك لا يخطئ ، وأخلص بحق لواجب وظيفته ، وكتب بوضوح ما رآه تماماً ، وفكر تفكيراً عميقاً فيه قبل أن يكتبه ، حتى حملت كتابته طابع الصدق ونطقت بحديثه ونزاعته وبعد عن التعصب أو الميول الشخصية أو المبالغة الشرقية على قول لين بول ^(١) " . وهو بالتالى يرجع إلى رأى ستانلى لين بول كسابقه . وقد امتدحه لا لصدقه فى روايته للأحداث التاريخية فحسب ، ولكن لصفات أخرى رائعة كان يحملها فقال : " هذا هو ابن شداد الفنى فى عيافته معاهدات الصلح ، والدبلوماسية فى سفاراته ، والمؤرخ المدقق فى سيرته ، والبري الفاضل فى أستاذيته ، والعدل فى قضائه ، والمراسل الأمين فى مشاهداته وأخباره " .

وقد نبه ابن شداد إلى أن كتابه ينقسم إلى قسمين : الأول منهما : كتبه نقلًا عن ثقات ، والثانى كتب فيه ما شاهدته . قال ابن شداد : وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين هـ وهو يوم دخوله الساحل - وجميع ما حكته قبل إنسانا نحو روايتى عن أئق به ممن شاهدته .

ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرنى به من أئق به خبراً يقارب العيان والله الموفق " . ^(٢)

وقد رأى جب أن القسم الأول يمتلئ بالأخطاء فقال : أما بالنسبة للتسمة عشر عاماً الممتدة بين عامى ١١٦٩ - ١١٨٨ ، فإن بها الدين لا يستطيع الرواية من جهة أخرى ، إلا بطريقة مباشرة ، وغالباً ما يكون على خطأ بالنسبة للتفاصيل الواقعية ^(٣) والتسلسل الزمني " وأخذ برأيه هذا الدكتور العرنى ونقل عنه فقال : " على أن ما أورده ابن شداد من أخبار عن الفترة الواقعة بين ١١٦٩ - ١١٨٨ يعتبر فيها مصدرًا ثانويًا ولم يكن بنجوة من الخطأ فى تفاصيل الحقيقة والتاريخ " . ^(٤)

ولعل هذا ما حدا بأبى شامه صاحب الروضتين أن يتخذ من النوادر السلطانية

(١) المؤرخون المعاصرون - د . نظير سعداوى ص ١٩

(٢) المرجع نفسه ص ١٩ (٣) النوادر السلطانية ص ٨٧

(٤) كذا وهو خطأ شائع جوابه : الواقعية

(٥) صلاح الدين - جب ص ٧٠ (٦) خطأ شائع جوابه : يعسد

(٧) مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٤ وهو يقصد أن ذلك ما كتب قبل سنة ٥٨٤ هـ . قبل التحاقه بالسلطان .

المصدر الأول لكتابه بعد سنة ٥٨٤ ، فقد كان كتاباً السواد "الفتح" و "البرق" المصدرين الأساسيين له . وكان يقول في بداية كل فصل : (قال السواد) وينقل عنه ما شاء له أن ينقل ثم ينتقل إلى الكتب الأخرى إن وجدت ، ولكنه بعد سنة ٥٨٤ ويمد أن أعلى انضمام ابن شداد لركب السلطان نجده وبعد الفصل الخامس يتخذ من "النوادر السلطانية" المصدر الأول في معظم الحوادث والأخبار والفتوح ، فصار ينقل عن ابن شداد ثم عن العماد إلا في حالات قليلة ، ربما لأن ابن شداد كان يتركها لأنه ما لم يسي كتابه إلى الاختصار وما إلى العماد إلى الاسهاب والتطويل .

وبهذا نخلص إلى القول بأن النوادر تعدّ مصدرًا رئيسًا للأحداث خلال السنوات من ٥٨٤ - ٥٨٩ ، وتبقى كتابات العماد قبل هذه الفترة وخلالها وبعد عام إلى سنة ٥٩٢ مصدرًا رئيسًا للأحداث جميعها ، لأن العماد ساعدنا - إلا ما ندر منها - بعينيه وربما كان هو المؤرخ المسلم الوحيد الذي امتد به الزمن مراقفًا لسلطانين عظيمين فترة تزيد عن ربع قرن من سنة ٥٦٢ - سنة ٥٨٩ .

أما مع ابن الأثير فالأمر يختلف تمامًا ، فابن الأثير مؤرخ عظيم وكبير ، ولكن المؤرخين أخذوا عليه تحيزه للأتابقة الزنكيين وميله إليهم ، وكرهه لصالح الدين ، ونقده لكتابات العماد وتكذيبه لبعضها ، وتحريفه لبعضها الآخر . قال عنه جب : " لقد تمتع ابن الأثير وهو زميل بها الدين في الانتماء إلى الموصل طيلة قرون عديدة بشهرة كونه واحدًا من أعظم مؤرخي الإسلام ، حتى إنه ليبدو من ناقله القول تقريبًا أن يصار إلى البحث في مؤهلاته وجدارته بالاعتماد والقبول لا سيما أنه قد عاصر صلاح الدين ، وكان على اتصال شخصي بإدارة الموصل وبالتالي في وضع يسمح له على الأقل بمعرفة الوقائع الخارجية ، ومع أنه شاهد صلاح الدين دون ريب في كل من الموصل وبلاد الشام على السواء لا يوجد أي دليل هناك على أنه اتصل بصلاح الدين اتصالاً شخصياً ألبته .

إن تحامله على علاج الدين ذائع الشهرة ، لكن رواياته للأخبار قد حظيت بالقبول عمومًا ، مع التمام الأعذار لواقعة التحامل ، فجدري اعتبارها صادرة عن مؤرخ مناصر

(١) البروصتين ج ٦ ص ١٢٤ أخبار سنة ٥٨٤ وبدأ بالنقل عن ابن شداد وعمده المصدر الأول .

(٢) خطأ شائع والصحيح زامن (٢) خطأ شائع تصحيحه حسبها

للأحداث (١) وأحسن الاطلاع عليها . والنتيجة الرئيسية التي سوف نتوصل إليها مقلتنا
هذه ، مؤداها أن هذه النظرة لا يمكن الاحتفاظ بها بعد الآن .

وقال عنه الدكتور : نظير سعداوى " ويؤخذ على ابن الأثير أنه - على رغم
ذكائه ووطنته وفراسته - ظل حزبياً متطرفاً متعصباً للزنكيين ، يُحَوِّر روايات غيره ما استطاع
فى سبيل إشباع نزعة نفسية نحو الزنكيين ، وقد سيطرت تلك النزعة على تفكيره حتى بعد
زوال سلطان تلك الأسرة ، وبعد أن صار المؤلف حراً فى إبداء رأيه حين عكف على كتابة
تاريخه السام ، ويصاب عليه كذلك أنه لم يذكر مصادره الأعلى التي اعتدى على روايتها
بالتسديد والتحريف الكثير لدرجة أصبح البحث عنها من أشق الأمور وأعزها مثلاً ، ويبدو
أنه كان متعمداً لتضليل قرائه بدليل قوله فى هذا الصدد " ذكر أصحاب التواريخ
وحكى أن بعض الحكماء بالأنساب والتواريخ فان " - و " حكى لى والدى " - " وحدثنى
والدى عن بعض خواصه ، قال " - وكان بمقدوره أن يذكر أسماء هؤلاء جميعاً ، وأسماء
تواريخهم التي أشاروا إليها ، بدلاً من ذكر تلك العبارات التي يشقى الباحث فى سبيل
الكشف عنها ، والتي لا تفيد المؤرخ الحديث فى قليل أو كثير ، ولا تخدم البحث من
جوانبه المتعددة (٤) " وبعد ذلك يعرض الدكتور نظير أعم محاسن ابن الأثير ومنها
اعتماده على الثقات فى نقله لأخبار الأقاليم كالعراق وإيران والمغرب وسورية ، ومعالجته
لتاريخ سورية والجزيرة معالجة تم عن فهم وإلمام بأدق التفاصيل . ولكنه يعود إلى نقده
مرة ثانية بسبب حقه على صلاح الدين - كما يزعم - فيقول : " ورواية ابن الأثير عن
صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر مليئة بالأخبار القيمة وجديرة
بالنقد والثناء ، والوقوف عندها وثقة فاحصة دراسة ، غير أنها تسير تسيراً صحيحاً
عما يجرى فى نفسه من عداوة طبيعية لصلاح الدين إذ تصوره الرواية الأثرية فى صورة البطل
الذى استخدم كل مواهبه العسكرية والسياسية لإشباع أطماعه العائلية ولبناء إمبراطورية
واسعة مما حرص الأستاذ جب على موازنة صلاح الدين بنور الدين من هذه الزاوية " .

(١) خطأ شائع تصحيحه عاشق مع الأحداث (٢) خطأ شائع تصحيحه الرئيسه .

(٣) صلاح الدين . جب ص ٧٠

(٤) المؤرخون المعاصرون ص ١٠ وعلذا هو رأى ودنسيان الذى يقول فيه " على أن
تاريخ ابن الأثير ويخلو من تصور وعبوب ، إذ لم يفصح ابن الأثير عن أسماء مصادره
حتى ثلاث مئول و تحيزه للزنكيين ج ٢ / ص ٧٨٢ من تاريخ الحروب الصليبية
والدكتور نظير سعداوى ينقل هذا الرأى من مصادره الأصيل مشيراً إلى ذلك فى
الحاشية . (٥) المؤرخون المعاصرون ص ١١

ويقول كذلك : " على أن هذا السد . لم يقلل من إغلال ابن الأثير وتفديره وإعجابيه
 بصراح الدين ، إلا أنه إعجاب مشوب بالحقد والحسد يفوسره قول ابن الأثير نفسه :
 لا تبالى يا ابن أيوب - أن موته تموت ، يركب ملك ملجوف ، ويسوي قماش ابن أتاتك
 زنكي " وذلك حين أراد صلاح الدين التركوب والمسلمون على حصار عكا (١١٨٩ - ١١٩١)
 فقصده معز الدين بن قلى أرسلان صاحب ملطية وسوي ثيابه عازله الدين فرخشاه بمن
 عز الدين ، وهو حفيد صاحب الموصل عماد الدين زنكي ، فأوغر ذلك الموقف صدر ابن
 الأثير ، وآلمه ، وتعجب لتغير الحان بأحد أمراء الموصل بهذه الصورة المؤسفة .

ويقول : (رسال) وابن كتابه تاريخ الأتابكة ملوك الموصل قد
 كرسه لمعارض صلاح الدين بقصد التقليل من منجزات صلاح الدين لصالح منافسيه ،
 وكانت أوضع خطوطه على التي وصحها في عمله الكبير الكامل .
 نقله عن العماد :

لابن الأثير كتب كثيرة لا يهمننا منها سوى كتابين أولهما : تاريخ الدولة
 الأتابكية ملوك الموصل ، وقد نقل فيه فصلاً عن العماد بسنوان : (فصل من كلام عماد
 الدين الكاتب فيه) يعنى في نور الدين محمود . وثانيهما : الكامل في التاريخ ، ولم
 يحترف بنقل شيء عن العماد ولكنه وصفه بالتحيز لصالح الدين في وقعة تل السلطان ،
 وترجم له في سنة وثلاثه سطور ، ولكن المؤرخين يرون أن ابن الأثير قد نقل عن العماد
 دون إشارة بل وتحريف في بعض الأحيان . وقد عقد جب لذلك فصلاً وضح فيه نقل
 ابن الأثير عن العماد وجعله مرتباً على السنين ، وبدأ بسنة ٥٧٣ هـ فقال :
 في السنة ٥٧٣ هـ : " يبدأ ابن الأثير بروايته عن عزيمة صلاح الدين
 في الرملة ، ويتضح من التفاصيل المتضمنة في الرواية أنها مأخوذة كلياً عن " البرق
 الشامي " مثل بسالة ابن تقي الدين عمر باعتبارها نسخاً لفحوى إحدى الفقرات الملحمية

- (١) الكامل ج ٧٧/١٢ طبعة بيروت وأوردنا للدكتور عبد المنعم ماجد في كتابه /
 الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٩٨ ليدل على حب ابن الأثير للزنكيين .
- (٢) ملطية : بلد في بلاد الروم قريباً من ديار بكر .
- (٣) المؤرخون المعاصرون ص ١١ - ١٢
- (٤) A. History of Muslim Historiography, Rosenthal, p. 296.
- (٥) طبع في مصر بسنوان التاريخ المبسوط في الدولة الأتابكية بالموصل .
- (٦) التامل ٤٢١/١١ قال بعد أن أورد الخبر من البرق الشامي وأنكره " وإنما قصد
 العماد أن يستظم أمر صاحبه بأنه عزم بسنة ألف عشرين الفا .
- (٧) التامل ٤٤٢/١١

لدى عماد الدين في البرق الشامي .

ويعتقد كذلك أن هجوم فيليب أوف فلاندرز على حماة منقول عن البرق الشامي فيسجل النص من الكامن ثم يقول : " لنا أيضاً نجد اعتماد ابن الأثير على كتاب البرق بيد و واضحاً ليس فقط من حقيقة كونه ترتيباً للجهنم ، يقتضى بالضبط ترتيبها في البرق بل إن ترتيب الأحداث هو ذاته من الناحية العملية ، وبأن ذلك لا يرجع إلى الإستشهاد برسالة رسمية ، غذا ما يتضح من وصف سلوك ثوران شاه الذي ما كان ليجد محلاً له بالتأكيد في رواية رسمية ، لكن ابن الأثير يضيف شيئاً إلى مصدره في العبارة القائلة بأن الهجوم على حماة دعت إليه مناسبة (١) شهزمية صلاح الدين في الرملة ، وهذا يمكن نسبته إلى أمرين فحسب ، إما إلى اللامبالاة بحيث يكون ابن الأثير قد ضلته حقيقة كون الهجوم على حماة في كتاب البرق يلي الرواية عن حملة الرملة أو إلى الخطأ المتعمد الذي يدعمه إخفاء تواريخ الحادثن ، فالبرق يذكر بوضوح تاريخ الهجوم على حماة يوم ٢٠ من جمادى الأولى (١٤ تشرين الثاني ١١٧٢) بينما لا يأتي ابن الأثير إلا على ذكر جمادى الأولى فقط في كل من المدخلين ، ولا يذكر تاريخاً دقيقاً للحادثة الأولى (٢) .

وينقل الدكتور الباز السريني عن جب كل هذه الملاحظات والمعلومات ، فيقول عن واقعة الرملة ، " ومن الدليل على أن هذا الخبر مستمد بأكمله من البرق الشامي ما ورد في الرواية من التفاصيل مثل شجاعة ابن تقي الدين وأسر عيسى الهكاري ثم اقتدائه (٣) " .

ويقول عن هجوم فيليب فلاندرز على حماة : " وفي هذا الموضع ما يدل على اعتماد ابن الأثير على البرق فترتيب عبارات عند ابن الأثير يسير تماماً على الترتيب الوارد في البرق ، يضاف إلى ذلك التطابق الذي يكاد يكون تاماً بين المصدرين في ترتيب الحوادث ، ومن الدليل على أن هذا التطابق ليس راجعاً إلى أن كليهما اقتبس من رسالة رسمية ما أورده ابن الأثير من وصف سلوك ثوران شاه أخى صلاح الدين الذي لا شك أنه ليس له صلة بخبر رسي " (٤) .

- (١) عدا تعبیر غیر عربی أوجده المناطقة وأشباسهم .
- (٢) صلاح الدين الايوبي جب ص ٧٥ - ٧٦
- (٣) مؤرخو الحروب الصليبية - د . السريني ص ٢٠٩
- (٤) المرجع السابق - السريني ص ٢٠٩ - ٢١٠

ويؤكد جب كذلك أن ابن الأثير في سنة ٥٧٤ قد نقل الروايات الموجزة في سورة والتي تشغل الفصل كله عن تلك السنة "هجوم الفرنجة على حماة ، ثورة ابن المقدم (١) وحصار بعلبك ، وغيرها من الهجمات الصليبية ، كلها تنسخ مادة روايات عماد الدين .

ويقول عن أخبار سنة ٥٧٥ : "يرتكز الخبر عن معركة مرج عيون (٩ حزيران ١١٧٩) دون ريب إلى رواية عماد الدين ، والملاحظة المقحمة عن مبلغ فديتاليان (٧) مأخوذة من البرق) ويقول كذلك : " وإشارة ابن الأثير في نهاية روايته إلى العدد الكبير من القصائد التي نظمت حول الموضوع هي مستوحاة بالتأكيد من القصائد ومجموعها أربع ، وعلى المستشهد بها في البرق ، والأبيات التي يذكرها مأخوذة عن القصيدة بين الأوليين بين هذه القصائد الأربع ."

وقد أورد جب والدكتور العريني أخباراً كثيرة أكدا أنها منقولة عن عماد ثم اتفقا في خلاصة الأمر على قول واحد هو : " أن ما من حقيقة في تاريخ الشام أثناء السنوات ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ وردت في تاريخ ابن الأثير إلا طبقت ما جاء في هذه الفترة بكتاب البرق الشامي ، فيما عدا الرواية المضطربة ، المتعلقة بالهجوم على حماة من قبل الفرنج في جمادى الأولى سنة ٥٧٣ (نوفمبر ١١٧٢) وفيما عدا إشارة صغيرة إلى أن ابن الأثير رأى كتاباً كتبه صلاح الدين بخط يده إلى أخيه شمس الدين ثوران شاه وهو بدمشق يذكر فيه وقعة الرملة ."

وعكذا فعل جب مرة ثانية فوازن بين ما ورد عند ابن الأثير في السنتين ٥٧٨ ، ٥٧٩ وبين ما جاء في الجزء الخامس من البرق الشامي محدداً الأخبار المنقولة وينتهي إلى القول : تنتهي عند هذه النقطة الأقسام المتبقية لدينا من البرق الشامي لكن التحليل المتقدم يكفي لتبيان ما يلي :-

(أ) أن كتاب البرق الشامي هذا هو المصدر الرئيسي الذي استخدمه ابن الأثير في رواياته عن أعمال صلاح الدين ، وعلى حقا روايات لا تعدو كونها إعادة سبك موجز لأبوابه الرئيسية .

(١) . صلاح الدين الأيوبي - جب ٧٧٧ (٢) المرجع السابق ص ٧٧

(٢) المرجع السابق ٧٧ - ٧٨

(٤) مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢١٣ وكذلك عند جب في كتابه عن صلاح الدين ص ٧٩

وتكاد تكون عبارة السريني ترجم لما ورد عند (جب)

(٥) كذا وهو خطأ شائع صوابه : الرئيس .

(ب) أنه حينما يزودنا ابن الأثير بتفصيلات غير موجودة في تلخيصات أبي شامة فهي توجد (١) رغم ذلك على العموم في النص الأصلي . ولعل عبارة الدكتور العريني أوضح إذ يقول : " فإن هذه التفاصيل واردة فعلاً في كتاب البرق ذاته " حتى إن ابن الأثير يقوم أحياناً بتبديل عبارات مصدره أو بتحريف معناها مدفوعاً بالعداء لصالح الدين .

وقد أورد عالمتون جب والدكتور العريني أحداثاً كثيرة لملها جميع وقائع صرح الدين وأثبتا بمالهما من حسن تاريخي وبالبرهان أن ابن الأثير كان ينقل عن البرق وغيره من كتب العماد دون إشارة . ولعلنا ذكرنا سابقاً أن ابن الأثير قد أشار مرة واحدة إلى البرق الشامي في كتابه الكامل قال فيها : " وقد ذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس ، ولم يكن كذلك إنما كان على التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمسمائة ، فإنني وقفت على جريدة العرض وترتيب المسكر للمصاف ميمناً وبمسيرة ٠٠٠٠٠٠ وكان المتولي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين أباً السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله ، وإني قصد العماد أن يحفظ أمر صاحبه بأنه ممنه بستمائة ألفاً ٠٠٠ " وقد سجل جب جزءاً من هذا النص ثم علق عليه مستنكراً بقوله :

" ولكي يتبدى سخف هذا القول فهو يضيء إلى تبيانه بمنتهى الحق ، وعلى أساس سجلات ديوان الجيش في الموصل . إن عماد الدين يشارك في الواقع - وإن تكن مشاركته على درجة معتدلة نسبياً - في المنزعة الشائعة لدى معظم مؤرخي الأحداث في القرون الوسطى بتسخيم أرقام الجيوش المعادية ، ولقد سبق لنا ورأينا أعلاه كيف أن ابن الأثير يضع علامة استفهام غمبية على تقديراته من تقديراته ، غير أن عماد الدين في هذه الحالة يجوز عدوه جزئياً ، فهو لم يؤكد بأن جيش سيف الدين كان مؤلفاً من (٢٠٠٠٠) رجل ، بل ذكر بطريقة أشد حذراً ، بأنه عندما تقدم

(١) كذا والصواب : على الرغم من ذلك

(٢) مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٢٦

(٣) صرح الدين الأيوبي - جب ص ٨٤ وعلى واردة كذلك في مؤرخو الحروب

الصليبية ص ٢٢٢

(٤) الكامل ج ١١ (٤٢٩) ط . بيروت .

صلاح الدين شمالاً ، وصلتنا الأخبار أن عددهم بلغ (٢٠٠٠٠) من الفرسان ما عدا قافلة التميميين والمدد خلفهم ^(١) . ويكمن جب تعليقه قائلاً : " لكن ابن الأثير — وهو بمنزل عن هذا الجدول الخلفي — ، يقدم هنا برهاناً صريحاً على استخدامه لكتاب البرق ، على الرغم من أنه لا يدخل اسم الكتاب إلا بإشارة عرضية فقط ، وهذا يشهد على بدوره ، كما هو معروف عنه جيداً — الحد الأقصى إطلاقاً من إقراره بدينه الأدبي ، وليس من قبيل الخيال أن نشتق من ملاحظاته شيئاً من التلذذ لديه في القدرة على الاكتشاف بأن عماد الدين يورد بياناً كاذباً للوقائع ولو مرة واحدة ^(٢) " .

وقد وازن الأستاذ جب والعريضي بين ما جاء في كل من الفتح القسي والتامل ونقل ابن الأثير منه دون إشارة ، وقد ذكر الدكتور العريضي مثلاً واحداً يدل على اختلافي ابن الأثير لبعض الأخبار ، والواقعة التي ذكرنا العماد في موت ابن شيركوه وتوزيع صلاح الدين لتركته بين ورثته بالعدل ، تلك الواقعة ينقلها ابن الأثير مختلفاً فيها ليدل على أن صلاح الدين كان بعيداً عن أحكام الشريعة . يقول الدكتور العريضي :

" أما المثال الثاني فأكثر ظهوراً وأعظم شهرة وذيوعاً ، إذ حدث عند عودة صلاح الدين من الشرق — بعد أن تقرر الصلح مع صاحب الموصل سنة ٥٨١ — أن توقف فترة من الزمن في حمص سنة ٥٨٢ (١١٨٦) نظراً لوفاة ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص الذي لم يترك من الذرية إلا ابناً صغير السن ، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، واسمه شيركوه ، فكتب له منشوراً بما قرر عليه من البلاد ، وذلك بحمص وسلمية وتدمر وراعي بن حصين والرحبة وزليبا ، ورتب السلطان مع شيركوه بحمص أميراً من الأسدية يعرف بأرسلان موقفاً . وكان نص السلطان على الصورة الآتية : " وأقمننا بحمص أياماً حتى استمرعنا خزائن ناصر الدين ، وقسمنا ميراثه ، وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين ، وهي مستحقة للمثمن والباقي بين البنت والابن ، وخلف

(١) النص والوارد في الترويضتين نقلاً عن البرقي : وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم وما وراهم من أمدادهم وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة (ج ١) ص ٦٥٠/٢ — ٦٥١)

(٢) صلاح الدين — جب ص ٨٦ — ٨٧

(٣) كلها مدن وبلاد في الشام قريبة من حمص السورية

(١) عَيْنُهُ وَوَرِقًا مَجْتَمَعًا وَمُفْرَقًا ، وَلِعَ التَّرَاثُ فِي الْمَلِكِ وَالْمَمِينِ وَالْأَثَاثُ مَا عَظُمَ أَنْ يَقْدَرَ بِمِقْدَارِ ، وَأَثَاثٌ عَنِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَمَا أَعَارَهُ السُّلْطَانُ طَرْفَهُ بَلْ تَرَكَهُ عَلَى أَهْلِ التَّرَكَةِ .

ثم يكتب الدكتور العريفي هذا الخبر منقولاً عن ابن الأثير الذي يسند هذا الخبر إلى مصدر مجهول معهما السلطان يقتل ابن عمه شيركوه فيقول : " فذكروا - والعصيدة عليهم - أن صلاح الدين وضع إنساناً يقال له الناصح ابن العميد وغو من دمشق ، فحضر عنده وناداه وسقاه سماً ، فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح فسألوا عنه : فقيل : إنّه سار من ليلته إلى صلاح الدين ، فكان هذا مما قوى الظن فلما توفي أعطى صلاح الدين إقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيئاً كثيراً ، فحضر صلاح الدين إلى حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك إلا ما لا خير فيه . ثم يكمل ابن الأثير كلامه دون أن يشير إلى المصدر قائلاً : وبلغني أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين ، بعد موت أبيه بسنة ، فقال له : إلى أين بلغت من القرآن ؟ فقال : إلى قوله تعالى : " إِنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا " (٥) فمجب صلاح والحاضرون من ذكائه .

يقول الدكتور العريفي مبتلياً : * والملاحظ أن هذه هي المرة الوحيدة التي تهيأت فيها لابن الأثير الفرصة ، لينهم صلاح الدين بارتكاب جريمة اغتيال ، واغتصاب أملاك الغير . واستغل ابن الأثير هذا إلى أقصى حد ، وتكرر الشطر الأخير من الرواية في معظم ما ورد من تراجم حياة صلاح الدين ، بل في تراجم الذين شادوا بفضلهم أمثال ابن خلكان والسبكي . والواقع أن ابن الأثير بلغ من البراعة في الاختراع في هذا المثال ، ما جعل البارون دي سلان نفسه = عند ترجمة ما جاء في ابن شداد عن سيرة صلاح الدين في مجموعة الحروب الصليبية بالاسم الخاص بالمؤرخين الشرقيين = يوجه اللوم

(١) الممين : الذهب (٢) الورق : الفضة

(٢) الروضتين ج ٢/٦٦ (النيل) وفي كتاب مؤرخو الحروب الصليبية مع التعليق عليه ص ٢٢٨ (٤) الكامل ج ١١/١٨٥

(٥) الآية ١٠ من سورة النساء (٦) الكامل ١١/١٨٥

(٧) هذا خطأ واضح والصواب : أشادوا

إلى القاضي ابن شداد بسبب إعجابهِ بصِلاح الدين الذي حملهُ على أن يغفل عند تصنيف الكتاب حادثاً ذاع في العالم بعد سنوات^(١) ويقول الدكتور موازناً بين ما جاء عند العماد وما ذكره ابن الأثير^(٢) والواضح أن ابن الأثير في هذا المثال لم يُعَدِّدْ فحسب في رواية العماد الكتاب ، بل أورد رواية مختلفة لا تعتمد في شيء على العماد الكتاب ، ومع ذلك فإنها اتخذت نفس الإطار التاريخي ، وما ينطوي عليه من الأحداث المستمدة من البرق الشامي ، ولا تظن أن ابن الأثير لم يقف على رواية العماد الكتاب ، الواردة بصيغة المتكلم المفرد ، فلا بد إذن أنه تجاهل رواية العماد واستمد روايته من مصادر لم يحفل بذكرها ولعله كان يقصد من وراء ذلك إلى أن يجعل صلاح الدين لا يزيد قدره على سائر أمراء عصره^(٣) .

ولعل تاريخ حياة صلاح الدين وما أورده المؤرخون عن حياته ووقائعه وسماحته لأصحابه ، وأصدقائه وموظفيه ، واتساعه بالسفوف والصفح حتى عن الفرنجة ملوكهم وقادتهم وفرسانهم إلا من كان يسبب الضرر للمسلمين ، كل ذلك يعبر عن حقيقة واحدة هي أن صلاح الدين كان رجلاً متديناً ورعاً يخاف من الجريمة ويبتعد عن الشر وارتكابه ، ورجل شهد لما لجميع بذلك لا يمكن أن يرتكب جريمة قتل ابن عمه وزوج أخته وأحد ولاته وأركان دولته ، ولعل هذه الصفة النبيلة انتقلت بالوراثة إلى أبنائه وأسرتهم فقد حدثت بينهم خلافات على السلالة ، وقامت بينهم حروب ، ولكن أحدهم لم يقتل أخاه أو ابن عمه ، فالجريمة كانت بسيدة عن صلاح الدين ومن جاء بعده من أسرته .

ونستطيع لذلك القول بأن رواية العماد أصح وأوثق ، ورواية ابن الأثير بعيدة عن الصدق والحق والنزاهة ، بل هي مرفوضة عند الثقات من المؤرخين لأنها فقدت شرطاً أساسياً ألا وهو المصدر والسند .

ونخلص بعد ذلك إلى تصنيف يجب لأهم مصادر حياة صلاح الدين التي جعلها على الصورة الآتية :-

- (١) مؤرخو الحروب الصليبية - السريفي ص ٢٢٨ - ٢٢٩
- (٢) كذا والصواب : ومع ذلك اتخذت الاطار التاريخي نفسه .
- (٣) مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٢٩ والدكتور ينقل مترجماً عن كتابه عن صلاح الدين وقد وردت القصة كاملة في كتاب جب ص ٨٩ - ٩١ .

أولاً : النسوم الأعلى لعماد الدين وعلى سبيل المثال الأجزاء الموجسودة
من كتاب البرقي وابتداءً من سنة ١١٨٧ م كتاب الفتح .

ثانياً : سيرة صلاح الدين التي وصمها بها الدين ابتداءً من سنة ١١٨٨ م .

ثالثاً : والنسبة للسنوات الباقية أي من سنة ١١٦٩ إلى سنة ١١٧٦ ومن
منتصف سنة ١١٨٠ إلى منتصف سنة ١١٨٢ ومن منتصف ١١٨٤ إلى مطلع سنة ١١٨٧ تلحق
الملخصات التي قام بها أبو غامة عن عماد الدين وأدرجها في كتاب الروعيتين وتكملها
المنتخبات من ابن أبي طي (١) .

إن إيرادنا لهذه الموازنة بين العماد وابن الأثير لا تعني بها أن ننقضي
ابن الأثير حقاً ، فابن الأثير مؤرخ كبير ، وكتابه الكامل من أروع الكتب التاريخية التي
وصلتنا ، وهو مصدر عظيم من مصادر تاريخ أمتنا ، ولكن ابن الأثير وقد زامن صلاح
الدين ، لم يكن مطلعاً على الأحداث في الشام عن كتب . وعو إلى جانب ذلك كان يحب
الزنجيين ويؤثر عنهم ، فمال إليهم وجرى قلمه بمدحهم ، فأثر هذا على كتابه لأحداث ووقائع
صلاح الدين فحاول أن يغير بعضها ، فظهر تحيزه من خلالها ، فصار العماد لذلك
أوثق منه في هذه الفترة وشهادات المؤرخين السابقين والمحدثين تثبت ذلك .

صفات السامد المؤرخ :

لقد شهد كثير من المؤرخين المحدثين للسامد بالأمانة والثقة والصدق ولم
نجد مؤرخاً واحداً يتهمه بالتزوير والكذب ، ومن هؤلاء المؤرخين هاملتون جب ويوليسيف ،
وأندرو أهرنكروتز وغيرهم من المؤرخين الغربيين . والدكتور محمد علي محمد
والدكتور نظير سعداوي والدكتور الباز العريضي وغيرهم من المؤرخين العرب .

قال فيه المؤرخ الأوربي جب : " ولدي إيمان بالنظر فيها - أي في كتاباته -
تبدو عبارات عماد الدين رزينة بشكل ملحوظ ، فلو تركنا جانباً جميع مسائل الأسلوب الأدبي
لتبين لنا أنها ليست بعيدة الشبه عن النفاق أو التثاوير التي يدونها موظف حتى الضمير

(١) صلاح الدين الأيوبي - جب ص ٩٦ وقد نقلها عنه الدكتور العريضي في " مؤرخو
الحروب الصليبية " ص ٢٦٠ - ٢٦١

من موظفي سلك الخدمة المدنية ، هناك شيء من الصراحة في الكلام وروانها التليق
إما (مع) أو (ضد) وحقق إنه يوجد نوع من التجرد المقابل عرصياً مع كونه موظفًا
رسمياً " ويقول عنه كذلك : " إن الكاتب الذي يتحدث عن انسحابه من الحملة على الرملة
بسبب برودة القدمين سنة ١١٧٧ ويستشهد بتعليقات أصحابه حول هذا العمل ، يوحى
لنا منذ البداية ببعض الثقة في كونه عادلاً . (١)

وقال عنه بوليسيف : إن مؤلفاته ليس فيها شيء من المديح أو المبالغة في
الوصف . (٢)

ووجه إليه أندرو اهرنكروتز الشكر وكذلك إلى ابن شداد قائلا : " إننا نوجه
الشكر إلى الراوي عماد الدين الأصفهاني وإلى قلم بهاء الدين بن شداد الباهر ، فقد
أظهر عظمة صلاح الدين " (٣)

وقال عنه الدكتور محمد حلمي محمد في تمهيدته للروشتين : " إنه يستمد على
الإكثار من استعمال المحسنات البديعية بدرجة ملة مرهقة ، تجعل استخلاص الحقائق
أمراً صعباً ، وسهمة شاقة ، ولكن عدو هذه المعلومات يستحق ما يصرّف في سبيل
استخلاصها من العناء " فالعماد يتحدث عما شاهده أو سمعه بنفسه أو عما وقف عليه
أثناء عمله بديوان الإنشاء " وقال عنه كذلك " والعماد مؤرخ دقيق عادق يتحدث عن
مشاهداته ويسجل ما يثيق فيه من مسموعاته . . . (٤)

وقال عنه الدكتور نظير سعداوي : " هذه هي مؤلفات العماد التاريخية ، تحتل
مكان الصدارة بين أصول القرن الثاني عشر الميلادي ، وأخطر القرون الوسيطة ، وأبلغها
أثراً في تاريخ الإسلام والحضارة ، تنطق بطول باع العماد في عياغة التاريخ بطريقة نشرة
مسبوغة دون تزوير للحقائق من أجل التزام القافية ، أو الخلق لصلاح الدين ، ولم يحصل
اعجاب العماد بصلاح الدين دون انتقاده إذا ما دعت الضرورة إلى نقده ، ودون أن يفقده

(١) صلاح الدين . جب ص ٢٤ (٢) نور الدين . بوليسيف ٢٦/١

(٣) صلاح الدين . أندرو اهرنكروتز ص ٢٢٨

(٤) الروشتين ج ١ ص ٢٦/١ - ٢٧ (٥) الروشتين ج ١ ص ٢

هذا النقد ثقة صلاح الدين فيه أو علاقته الطيبة معه (١) .

وقال عنه الدكتور الباز السرينى بعد أن وجه لنفسه سؤالاً قال فيه :
 " على أنه إلى أي حد نستطيع أن نعتد على صدق مصدرنا الوحيد " البرق الشامى " الذى ألفه عماد الدين الأصفهاني عن صلاح الدين ؟ وقال مجيباً : " والواقع أنه متى تم انتزاع المحسنات اللفظية ، واستبعدنا ما جرى من إسهابه في رواياته فإن تقريره للحوادث يعتبر سليماً ومتزناً ، وخالياً من المبالغة والمفالة (٢) .

ويقول كذلك : " ولا بد أن نقرر أيضاً أنه من الخطأ الفاحش أن نتصور أن الصياغة البلاغية في " البرق الشامى " إنما تفرض منها الإشادة بصلاح الدين وتعلقه ، فقلنا عشرنا فيه على عبارة واحدة خصي بها عماد مدح صلاح الدين وحده (٣) .

ويقول عن دقة العماد : " أما دقة العماد في روايته وتقريره فإنه يكفى أنه إذا جرت مقارنتها بغيرها من المصادر الأعلى = أمثال كتاب وليم الصوري ، وأرنول ومن إليهما من المؤرخين اللاتين للحرب الصليبية الثالثة ، = لمنا بينها قدراً كبيراً من المطابقة في المادة بصفة عامة ، ويصح أن يمتد هذا التطابق إلى التفصيل ، فإذا لم يكن لدينا إلا هذا المصدر الأعلى عن السطر الأكبر من الحياة العامة لصلاح الدين ، فإن ذلك المصدر يحتسب بالغ الصدق والأمانة فيما يتعلق بدراية المؤلف بالحقائق (٤) وفيما يتصل بمعرض هذه الحقائق .

إن أمانة العماد ودقته ومصداقته أصبحت من الأمور المسلم بها والتي لا جدال يدور حولها ولا نقاش ، ولكن الإنسان الكمال لا نعتقد بوجوده ، فالعماد بشر ولا بد أنه قد وهم في بعض الأمور أو أخطأ في تاريخها ، وقد ذكر المؤرخون بعض الحوادث التي أخطأ العماد متوهماً أو مخطئاً .

-
- (١) المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين . د . د . نظير مهدي ٢٦ - ٢٧
 (٢) كذا وهو خطأ شائع عوابه : بعد (١) مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٥٨
 (٣) مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٥٦ وهذا الرأي ينقله عن جب ص ٢٠ المصدر
 الانجليزي . (٤) كذا وهو خطأ شائع عوابه : موازنتها
 (٥) كذا وهو خطأ شائع كما مر وعوابه : بعد
 (٦) مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٥٦

ومن الأمور التي وهم العماد فيها ما ذكره لزيارته بصحبة السلطان لقبر أبي
هريرة بثبنا حيث قال : " وزرنا بنينا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس
بالتيمن به إليه " (١)

وقد نبه أبو شامة إلى وهمه هذا فقال : " اعتمد العماد في هذا على ما
اشتهر بين العامة من ذلك ، وأنا أهل العلم المصنفون في أخبار الصحابة رضي الله عنه
تابين سعد وغيره فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة ، ولم يذكروا غيره " (٢)

ونبه أبو شامة كذلك إلى الخلل في ذكره العماد في البرق في الفتح .
وفي وثقة الكمين ودخول البدل إلى عكا ، قال العماد : " لما كان يوم الجمعة الثاني
والعشرين من شوال (٥٨٦) انتخب السلطان من أجناده عدة وكثر لهم العدة وأمرهم
أن يكمنوا في سفح تل - شطابى عكا - بعيداً عن عسكر العدو بقرب المنزلة المتداوية
القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة فلما أصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة ، وساروا
نحو الفرنج وصالوا عليهم وأغاروا فاستقبلهم بالفرنج ، فخرج إليهم زهاء أربع مائة فارس
عندما قال العماد في البرق ، وقال في الفتح : مائتا قنطاري ، وكذا قال ابن شداد
مائتا فارس " (٣)

وظهر هذا التباين كذلك في تحديد اليوم في إحدى المفاوضات بين المسلمين
والفرنج عند أسوار عكا . قال العماد : " وفي يوم الجمعة العاشر من الشهر (جمادى
الآخرة سنة ٥٨٧) جماعة من رسل الفرنج ، ونحن على الحرب ومحاولة التماس
والضرب " (٤)

وقد غير روايته في كتابه الفتح فقال : " إن ذلك كان يوم السبت " (٥) ووافق ذلك ابن
شداد فجعله في يوم السبت الحادي عشر من جمادى الآخرة . (٦)

(١) تبنا : بلدة شامية (٢) الروضتين ج ٢ / ١٦١

(٣) الروضتين ج ٢ / ١٦١

(٤) قنطاري : عند دوزى وقنطاري : حامل الرمح أي الفارس . القنطاريات / الرماح
والنص في الفتح القسي ص ٤٤٨

(٥) النوادر ص ١٥١ (٦) الروضتين ج ٢ / ١٨٢ (٧) الروضتين ج ٢ / ١٨٧

(٨) الفتح القسي ص ٥٠٩ ويبدو أن الالتباس وقع بسبب ما ذكره العماد عن خروج وقصد
فرنجة يوم الجمعة وآخر يوم السبت (٩) النوادر السلطانية ص ١٦٦

ولا شك أن العماد قد وهم أو التبس عليه الأمر في أمور أخرى ، ولكننا سنكتفى
بالأمثلة السابقة لأن تعدادها ، وإحصائها وتبويبها من عمل المؤرخ .

كتب العماد التاريخية مصادر أصيلة للمؤرخين :

سبب أن المعنى إلى أن العماد كان المؤرخ الوحيد الذي تابع الأحداث فترة
طويلة من حياة السلطانين نور الدين وإصلاح الدين وأن ابن عماد وابن الأثير ظهرا على
مسرح الأحداث في وقت متأخر ، ولذا أصبح العماد هو المصدر الأول لغيره من
المؤرخين القدماء والمحدثين العرب منهم والأوروبيين . إن قراءة سريعة للروايتين ومقارنة
التكروبي تعطى إثباتاً قوياً على كمالنا هذا . ولعل الإحصائية التي سطرها الدكتور محمد
حلي في تمهيد الروايتين تعطى دلالة كبيرة على صدق قولنا هذا . فقد قسم
الدكتور الروايتين إلى سبعة أقسام قال عنها :

(١) وأول هذه الأقسام يبدأ بأول الكتاب وينتهي عند تعيين عماد الدين زنكي في ولاية
الموصل وأعمالها سنة ٥٢١ هـ ، ويقول عن مصادر هذا القسم : يقتبس من ابن الأثير ثمانى
عشرة مرة ، ويقتبس من ابن عماد ثلاث مرات ويقتبس من العماد مثلها وهو إنما اعتمد على
ابن الأثير أكثر من صاحبيه في هذه الفترة لتخصسه في تاريخ أتابكة الموصل .

(٢) أما القسم الثانى فيبدأ بولاية زنكي ، إمارة الموصل في سنة ٥٢١ هـ وينتهي أثناء
الحديث عن حوادث سنة ٥٥٥ هـ ، ويقتبس من ابن الأثير اثنتين وخمسين مرة ، ومن العماد
ست مرات فقط .

(٣) وينتهي القسم الثالث من هذا التقسيم عند سنة ٥٦٤ هـ وعلى السنة التي قدم فيها
العماد الأعفهانى إلى الشام حيث اتصل بخدمة نور الدين ، وتتركز مصادر الرئيسة فى
شخصيتين : ابن الأثير الذى لا تزال له مكانته الممتازة ، ولذا يقتبس منه أبو شامة أربع
عشرة مرة ، إذ أن الحديث لا يزال عن مناطق الجزيرة والشام . والعماد الأعفهانى
الذى يبدأ فى الظهور يقتبس أبو شامة منه إحدى عشرة مرة .

(٤) أما القسم الرابع فينتهى بنهاية الجزء الأول أى بنهاية الحديث عن حوادث سنة ٥٧٢ هـ

ويقول عن الاقتباسات : وقد اقتبس العماد في هذه الفترة خمساً وعشرين ومائة مرة
واقْتَبَسَ ابن أبي طيّ سِتّاً وثلاثين مرة وابن الأثير ثلاثين مرة .

ولعلنا نلاحظ بدء بروز العماد وكونه مصدراً مهماً ، ونزول درجة ابن الأثير
في هذه الفترة .

(٥) ويبدأ القسم التالي ببداية الجزء الثاني من الكتاب أي بحوادث سنة ٥٧٤ وينتهي
في أثناء الحديث عن حوادث سنة ٥٨٤ ، ويقول عن مصادر هذا القسم : وفي هذا
القسم يتأكد مركز العماد من حيث هو مصدر أول لأبي شامة الذي يقتبس منه خمس عشرة
ومائة مرة ، ويبدأ ابن شداد في شقّ طريقه ، ويحتل المكانة الثانية بين المصادر
الروصتين فيقتبس منه أبو شامة ست عشرة مرة . ويقول عن ابن الأثير : " أما ابن الأثير
فيتنازل شأنه وتقل مكانته حتى لا يتكرر ذكره أكثر من أربع مرات .

(٦) وفي أثناء الحديث عن سنة ٥٨٤ يلتحق بالقاضي بهاء الدين بن شداد بخدمة
صلاح الدين ويلزمه منذ ذلك الوقت في جميع معاركه الحربية ، ويقول عن مصادر هذا
القسم : " وفي هذه الفترة اقتبس أبو شامة من العماد الأصفهاني خمساً وتسعين مرة ،
واقْتَبَسَ من ابن شداد تسعاً وستين مرة ، ونبه إلى أن كثرة اقتباسه من العماد يعود
إلى تعدد كتبه .

(٧) والقسم الأخير الذي يختم به أبو شامة الكتاب يتعرض باختصار شديد لما أعصاب
الامبراطورية الواسعة التي تركها صلاح الدين بعد وفاته . والمصدر الوحيد الذي يعتمد
أبو شامة عليه في الحديث عن هذا القسم هو العماد الأصفهاني .

ونخلص من ذلك إلى القول بأن العماد كان المصدر الأول والرئيسي لأبي شامة
شامة في كتابه " الروصتين " ، وكذلك كان أحد المصادر المهمة لابن واصل صاحب مفرج
الكروب ، فنظرة سريعة إلى متن الكتاب وحواشيه تعطى انطباعاً صادقاً على أن كتب العماد

(١) في الاصل " كصدر أول " وهو خطأ وصوابه ما فعلناه

(٢) التفسيرات السليمة وردت بتفصيلها في تقديم الدكتور محمد حلي للروصتين ونقلنا
باختصار ج ١ ص ١ ص ٣٢ - ٣٦

كانت المصدر المسموع لابن واصل في كتابه . نفى صفحات كثيرة جداً كان ينقل عن المصادر مشيراً ، ولكنه احتلف عن أبي شامة في أنه كان ينقل عنه في كثير من الأحيان دون إشارة وقد نبهه المرحوم الدكتور جمال الدين الشيباني في حواشي الكتاب إلى أماكن النقل التي لم يشر ابن واصل إلى مصادرهما والتي رجع إليها المحقق ليصحح مخطوطة الكتاب قبل نشره ، ولا تكاد صفحة تخلو دون أن يشير إلى ذلك ، وقد نال السواد حصة الأسد في هذا النقل غير المشار إلى مصدره .

(١) لاحظ حواشي كتاب المعرج خاصة الجزئين الثاني والثالث .

الفصل الرابع

دعائم الأسلوب النثري للعماد لفظية ومعنوية

عاش العماد في عصر البديع ، وكان ابنه البكر الذي مثله خير تمثيل ، فأولسج بسمات هذا العصر البديعية ، والتزم بها التزاماً يكاد يكون تاماً ، وقد رفعه أسلوبه هذا إلى مكانة سامية عند حکام عصره ، ويكاد قول الدكتور محمد زغلول سلام " وكان على الأديب شاعراً وناثراً أن يكون فطناً ملماً بالكثير من فروع المعرفة بارعاً قديراً على اللبس بالألفاظ والمعاني ، وإلا كان أديباً كاسد السوق غير مقرب لدى الرؤساء ولا مختاراً في مجالسهم وأسطرغم " ينطبق عليه وعلى غيره من كتاب عصره . وإن كما لا نوافق على كلمة اللعب لأن الهدف هو وصف الكلمات وتضميقها وتزويقها لا اللعب بها .

وكان العماد والقاضي الفاضل على رأس طبقة الكتاب في ذلك الزمن ، ولم يستطع منافس أن يناقسهما ، ويروي صاحب شذرات الذهب " نقلاً عن ابن خلكان أن أبا عبد الله الوهبراني محمد بن محرز ركن الدين صاحب كتاب " المناجات " جاء إلى الدولة الصلاحية آملاً أن يكون له فيها مقام ، فلما قرأ للعماد والفاضل ، رأس تلك الحليبة علم من نفسه ، أنه ليس في طبقتهم ولا تتفق سلعته مع وجودهم فعدل عن طريق الجسد وسلك طريق الهزل .

وتسهيلاً للبحث سنقسم الحديث عن دعائم مذهب العماد النثري إلى قسمين

دعائم لفظية ، ودعائم معنوية :

أولاً : الدعائم اللفظية :

ويعنى بها الصناعة البلاغية في الصور البيانية والزخارف البديعية وما يتبعها ، وقد كان العماد يلتزم بعض هذه المبادئ في رسائله ، ويظهر هذا الأمر في مقدمته لرسالة أرسلها إلى القاضي الفاضل ، وأوردنا في الخريدة فقال ، " وأنا مورد رسالة جامعة مانعة ناصمة وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق

(١) نبيه الدين بن الأثير - د . محمد زغلول سلام ٤٢ - ٢٣

(٢) شذرات الذهب ١٤ - ٢٥٢ وللوهبراني كتاب مطبوع بعنوان : " منامات الوهبراني "

والترصيح والمقابلة والموازنة والتوسيع (١) .

ولكن غذه الدفائم البديعية الأساسية لها تواجح أخرى وأغصها السجع والاستعارة وغيرها مما سنبحثه .

أ - الصور البيانية :

وأهم غذه الصور التشبيه والاستعارة والتورية :

١- التشبيه : نحو من سمات أسلوب السواد ، ولكنه من أخفها وأقلها ، ومع ذلك كان يرد في كثير من رسائله ، ويتكرر في الفقرة الواحدة عدة مرات ، ومن ذلك رسالته في الإخبار بوصول ثلاث بطس - أي سفن - تحمل النبل من مصر إلى عكا والإفراج بحاصرونها قال : " وتحشمها الريح ولقوية حفاً ، لأنها جبال بإقبالها تروع ، أو نسور أجنحتها القلوع .

وشعر الفروجة بها فضاقت مذاهبها ، وبرزت مراكبها ، ودبت عقاربها ، وقربت من البطس سوانبها - سفن أكبر - وقويت في البطس أمانبها ، وحكى ما فيها من فيها من الرجان " وعلى تجرى بهم في موج كالجبال " وكان جواربها عرائس يزفون بما لهم من الجهاز ، وكان البحر المتمون ثوباً - بتلك الأعلام المنشآت - معلم الطراز ، بل كأنها تجار تحمل الصدقات إلى ذوى الإعواز ، فجاءت فجأة متسقة موسقة ، وأتى الأتى بها موافقة مؤففة (٢) فقد ورد في هذه الفقرة ستة تشبيهات صريحة .

وفي رسالته إلى القاضي الفاضل التي ذكرناها سابقاً في شكره على إعدائه القبول : " وصلت القتب كأنها الشهب (٣) " ويقول بعد ذلك : " ووقمت في قبضة طفل الحلق كالصقور (٤) " .

٢- الاستعارة : وعلى إحدى دعائم أسلوبه الأساسية ، ويرى الدكتور سالم أنها إحدى سماته الفخمة الرئيسة ، ولكنها من نوع الاستعارات الجزئية المتتابعة .

- (١) الخريدة - قسم مصر ٤٤/١
(٢) انفتح القسي عن ٤٢١ - ٤٢٢
(٣) القسم المصري ٤٨/١
(٤) الطائل : آخر وقت السفر عند الغروب
(٥) القسم المصري ٥١/١
(٦) الأدب في عصر صلاح الدين ص ٢٦٦

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله: "وما ينقضي يوم إلا عن نصرته تتجدد ،
 ونعمة تتمهد ، وجمع للعدو ويتبدد ، وجمر لنكابة فيه يتوقد ، وخطف للسيف من حده بسدم
 الشرك يتورد ، وفتح يكر من الحرب العوان يلقح البيض الذكور يتولد (١) .
 ومنه كذلك قوله: "واعترت أعضاؤ البيه والسمر المنتشية من كأس نجيبها للطرب (٢) .

وعلى ترد متتابعة في كثير من عباراته كقوله: "ووجوه الصفاح بلثام النجيب
 ملتزمة ، وعيون النسمان عن حواجب القسي إلى مقل الأفران رابقة مارقة ، وحمم الحسام
 في مريشات السهام يكبب الكبب من حنايا المنايا السائقة سابقة (٣) .

٣- التورية :

كان يستعمل بعض الألفاظ لتدل على مسميات أخرى ، فالمسلمون
 أعلن الجمعة ، والمسيحون أعلن الأحد ، وأهل الثاوث ، ومستقبلوا الشمس وعبيدة
 الصليب . وعلى ترد كثيراً في رسائله .

ب- الصور البيعية :

للأسماء التي صفتها في صفحة ٢٥١ سرد
 ولقي الحناجر والحيثيات
 وإعطاء مثل عليها

وأول هذه الصور والزخارف البيعية التي أشرنا إليها قبل قليل :-

١- السجع :

فالعماد موسيقى الأسلوب ، ولذا كان يوازن بين الجمال ، والفواصل ،
 وأحياناً تأخذ السجعات جملتين ، وأحياناً أخرى تأتي سجعات متتالية متوالية في عبارات
 عديدة ، والسجع صفة عامة في كل نثره ، ومظهر رئيسي من أهم دعائمه مع الجناس والطباق
 وميله إلى السجع في رسائله يقوده أحياناً إلى التكلف ، وأحياناً تأتي كلماته مطبوعة
 جميلة ، فيها رنة موسيقية ، حلوة الإيقاع ، وإذا جاءت متكلفة فذلك بسبب تفتيشه عن
 الكلمات المناسبة في قاموسه اللغوي ، ولكن برين السجع لا يطفى على المعنى في كل
 رسائله ، وإنما يكون ذلك حين يكون التكلف ، فإذا جاءت مطبوعة توازى المعنى واللفظ
 وجاءت العبارة مشرفة جميلة بلفظها وصنعها ، وفي الفقرة الآتية نجد تساوي الفواصل

(١) الفتح القسي ص ٦٠١ (٢) المصدر نفسه ص ٦٠١

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٠ - ٢٥١

(٤) راجع كتابه في فتح القدس في الروعتين ٩١/٢ - ٩٢

وقسرها حيث يقول :

وقد أفنى المصالح النصار ، والنصار النبال ، والرمط الأفواق ، واللقاء
العتان ، والمصاع المناهل ، والقراع الذوايل ، والصياح الصواهل .

وأحيانا أخرى تطول الفواصل وتمتد ، ومثال ذلك : وقد أصبح البيت
المقدس بقدر وسبح ، ويمرّب عن فضيلة منجدة ويفصح ، عُقد ومن الرجال الواعلون
بالنَجح رجاؤه ، والحامون بحفر خندقه أرجاءه .

وأحيانا تطول الفواصل المسجوعة طولا مزعجا متكلفا ، ومثال ذلك قوله في
رسالة إلى القاضي الفاضل : ولا فتى حكم الشرع في شرعه الحكم بفتياه فتيا ، وروض الولي
بولي رعاه وجوده مجسودا موليا ، وقضاء الفضائل بأشوار جدواه وأضواء عليها مستهلا
متهلا ، وجاه البجاهل بتأرجح نيا نياعته الفائح النشْر وتبلج وجهه وجاهته اللائح
المقشر متبطلا متعطلا ، ولا برح كاشحه يطوي الكشح ويوح جوى جوهه بالفم موقوم ، ومناصحه
تحوى المنى صحة عقيدته وعقد صحته مبرم مقوم .

وعرف في الحالة السابقة ينطبق عليه قول الدكتور أحمد أحمد بدوي " وأسلوب
العماد لا يختلف عن أسلوب عصره في التزام السجع والصناعة البديعية ، وقد يبالي في
ذلك ، ولا سيما حين يكتب إلى شيخ الصناعة في عصره وهو القاضي الفاضل ، وحينئذ
تحرص ببلوغ المعنا الذي كان العماد يتكلفه ، ليرضى زعيم أسلوب الصناعة في عصره " .

والعماد يوازن بين السجع والجناس في الفواصل ، ومثال ذلك قوله : وعذوه
عكاه التي كنا عنها ندافع ، وعن ثغرها نمانع ، ونجري دماء الواردين في البحر لقصد ها
في بحر ها ، ونرد للرد عنها مكاييد العداة في نحرها ، قد تمكن منها الكفر على كره من
الإسلام ، واجتاع من أبى إسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الإسلام .

-
- (١) المصاع : القتال (١) الصياح : مفرد ها المصاع وعلى الأرض البطمئة
 - (٢) الفتح القسي س ٢٥٠ - ٢٥١ (٤) الفتح القسي س ٥٢٩
 - (٥) مجودا من الجود وعو المطر (٦) وموليا من الولي وعو المطر أيضا .
 - (٧) كاشحه : مصم العداوة (القاموس مادة كشح)
 - (٨) قسم مطر ٤٥/١ - ٤٦
 - (٩) الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية س ٢٦٦ - ٣٢٠
 - (١٠) الفتح القسي س ٥٢٠

ولعلنا نلاحظ السجع في المبارات والجناس بين بحرهما ونحرهما والإسـلام
الأولى والثانية .

٢- الجناس : وهو موضوع قديم في الأدب العربي ذكره البلاغيون والنقاد كابن
المعز والحاتمي والجرجاني وقدامة بن جعفر ، وابن رشيق وابن الأثير وغيرهم .

وقد خصه له ابن رشيق باباً خاصاً وقال في تعريفه " التجنيس ضرب
كثيرة منها المماثلة ، وهي أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى " (١) ثم يشرح بـقيـسة
الأنواع .

وتحدث عنه ضياء الدين بن الأثير فقال : " وإنما سمي هذا النوع من
الكلم مجانساً لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد ، وحقيقته أن يكون اللفظ
واحدًا ، والمعنى مختلفاً " (٢) وأخولف الاثنان في تسمية أنواع الجناس فقسّمه ابن رشيق
إلى تجنيس ماثل ومحقق ومضارعة ومشكلة وتصحيف ومنفصل " ، وقسمه ابن الأثير إلى
قسمين : تجنيس حقيق وهو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها ، وتجنيس
آخر سماه المشبه بالتجنيس ، وقسمه إلى أقسام بعضها جعل له اسماً وبعضها عرفه
دون تسمية ، ومنه نوع سماه : المسكوس والمجنّب - وهو المشاكلة عند ابن رشيق - ويكون
باتفاق الكلمات في معظم حروفها " (٤) .

والجناس هو الركن الأول في دعائم مذنب العماد البديعي ، وقد ورد عنده
بكل الأنواع التي ذكرها البلاغيون دون استثناء ، بل جعل التجنيس الشرط الأول
لمذنبه النقدي الذي استخدمه في نقد شعر الشعراء في الخريدة ، وسوف نتحدث عن
ذلك - إن شاء الله - في الباب الرابع عن العماد الناقد ، ويستطيع القارئ أن يأخذ
أية فقرة من رسائل العماد ونثره التاريخي ليجده واضحاً دون كدٍّ أو تعب ، ولنقرأ
مما هذه الفقرة من إحدى رسائله التي يقول فيها : " وما بقى للفرنج مع استيلائها

(١) العمدة لابن رشيق ٢٢١/١ (٢) المش السائر ٣٤٢/١
(٣) العمدة ٢٢١/١ - ٢٢٢ (٤) المش السائر ٣٤٢/١ - ٣٦١

على الموضع ، إلا زائد قوة في المطمح والمطمع ، وقد عزمنا على المصاف ، وصدَّ صدْمَـة الكافر بالجدِّ الكافي الكاف ، والله كافل دينه بالنصر ، والثمودى بمكره أهل المكر ، وما هذا أو ان الونى (١) .

فالجناس واضح في القطعة بين المطمح والمطمع ، وصد وصدمة ، والكافسي والكاف ، ومكره والمكر ، وأوان والونى ، ومنه ما هو جناس كامل ومنه ما هو ناقص ومنه ما هو جناس مشاكله أو مجنب ومنه ما هو مضارعه وغير ذلك .

وقد أعجب ابن الأثير بالجناس المعكوس خاصة فقال فيه : " وهذا الصرب من التجنيس له خلاوة ، وعليه رونق ، وسماه قدامة بن جعفر الكاتب (٢) (انتبديل) وضرب عليه أمثلة قون بحصمهم : " عادات السادات سادات العادات " وقد ورد عند العماد بكثرة ، ومثال ذلك قوله : " فليتل ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية ، وروية مبصرة وبصيرة ووية وليستشعر تقوى الله " (٣)

وأحياناً يلزم العماد نفسه بإيراد عبارة كلها مجنسة كقوله : قد وصل الخبير بالداعية الدغيا ، والنعمة النماء ، والتكبة التكب ، والشدة الدهما ، والليلة الليلا . . . (٤)

ولا يحسن كلامنا هذا أن العماد قد التزم السجع في كل ما كتبه ، ولكنه عنده مظهر واضح ، وقد أورد بعض كتاباته خفيفة الجناس أو قليلته ، ولذا نقده الصفدي على كثرة وروده في شعره ، وفضل شعره على أن الوزن ينحايه ، وسنورد ذلك في حديثنا عن شعره ، إن شاء الله تعالى .

وقال الصفدي في هجومه على الجناس : " ولكن لما زاد في استعمال الجناس ضاقت بترده الأنفاس ، وأصبح الكلام من القلوب وحشياً ، ومن الأسماع حوشياً " (٥) وضرب على كلامه مثالين أحدهما : الجناس فيه قليل ، وثانيهما : كثر الجناس فيه كثرة مفروطة .

وأخذ برأيه غذا ابن محصوم فقال : " لقد جاء جناس العماد الكاتب

(١) الفتح القسي ص ٥٢٠ (٢) المثل المائر ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧
 (٣) الفتح القسي ص ٥٨٠ (٤) الفتح القسي ٢٩٧ - ٢٩٨
 (٥) الواقي بالوفيات ١/ ١٢٢ (٦) المصدر السابق ١/ ١٢٣ - ١٢٤

في الشعر أخف منه في النثر (١) .

وقد جمعه القلقشندي الأول في هذا المصنف فكتب العنوان الآتي : من كان فرداً في زمانه بحيث يعرّب به المثل في أمثاله " ثم ذكر أمثلة على كلامه فقال : " والقاضي الفاضل في الترسيل ، والعماد الكاتب في الجناس وأشعب في الطبع ، وأبو نصر الجارابي في معرفة كلام القدماء ونقله وتفسيره " .

٣- رد الأعجاز على الصدور :

وهو شبيه بالجناس ولكنه يلتزم تكرار الجناس معكوساً ومثال ذلك ما كتبه الصفدي في ترجمته للعماد . قال في ثورته على الجناس عنده :

" ولم يكفه هذا بل كان يكثر من رد العجز على الصدر كقوله : " سرّ أولياءه وأولسى مسرته ، وأقدر يده ، وأيد قدرته ، وأزرد ولته ، وأدال مؤازرته ، وبسط مكنته ومكّن بسطته ، وأسعد جدّه ، وأجدّ سعادتته ، وأراد نجحته ، وأنجح إرادته ، وأجلّ حيلته ، وسرّ أسرته ، وحاط حماه وحوى حوطته ، ولا زال معروفاً موالياً ، وموالياً معروفاً . . . " .

٤- الطباق :

وقد عرفه ابن رشيقي بقوله : المطابقة عند جميع الناس جمعك بين الضدين في الكلم أو بيت شعر .

ومن أمثلته : قول العماد : " وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس وجعل عز يومه ما حياً ذل أمس ، وأسكته الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال " .
وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين " .

قال الطباقي بين كثير ، نجده بين وحشة وأنس وكفر وإسلام وعزّ وذل وهم وأمس والفقهاء والضلال والجهال والعلماء ، وبين المشركين والمؤمنين والضالين والعالمين " .

(٢) صبح الأعشى ١/٤٥٢ - ٤٥٤

(٤) السدة ابن رشيقي ٥/٢

(١) أنوار الربيع ج ١/٢٦٢

(٢) الواقي بالوفيات ١/١٣٤

(٥) البروجتين ١/٩٦

ومثل ذلك قوله من رسالة إلى القاضي الفاضل : " وما أشكره للمجلس العالى
الصدرى وقد صدره فى مجالس الملاة كاتباً ، ولما طرأ الأعداء كاتباً ، وأقدره بمناجحه ،
وأعجزه عن مدائحهم ، فأصبح ناطقاً صامتاً ، قانطاً قانتاً ، قائللاً ساكتاً^(١) . "

فالتباني واضح : بين : " أقدره وأعجزه ، وناطقاً وصامتاً ، وقانطاً وقانتاً ،
وقائللاً وساكتاً . "

والطباق كثير فى نثره الأدبى والتاريخى ، ولكن لم يكن له الأثر الكبير كالجناس
والسجع ، وإن كان يأتى بعدهما فى المنزلة الثالثة .

٥ - ما لا يستحيل بالانعكاس :

وقد شرحه ابن معصوم فقال : " وهذا النوع سماء السكاكى مقلوب الكل ،
ومعظمهم المقلوب المستوى ، وعرفه الحريري فى مقاماته بما لا يستحيل بالانعكاس ، وهو
أن يكون الكلام بحيث إذا قلبته أى ابتدأت من حرفه الأخير إلى حرفه الأول كان إيماه ،
وعرب مثلاً عليه قول القاضي الفاضل : " أبداً لا تدوم إلا مودة الأديبا^(٢) " . "

وذكر مثلاً ثانياً هو الحديث المشهور الذى دار بين العماد القاضى الفاضل
حيث قال له العماد : " سرفلا كبايك الفوس " فأجابه القاضى : " دام عُملاً^(٣)
العماد " . "

٦ - الترميم :

الترميم
شرح ابن الأثير فى المثل المسائل فقال : وهو مأخوذ من ترصيع المقعد
وذلك أن يكون فى أحد جانبي المقعد من اللآلى مثل ما فى الجانب الآخر ، وكذلك نجعل
عندنا فى الألفاظ المنثورة من الأسجاع ، وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية
لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية .

(١) القسم المصرى ٤٨/١ (٢) أنوار البريق - ابن معصوم ج ٢١٥/٥
(٣) الوافى بالوفيات ١٢٨/١ وطبقات الشافعية ٩٨/٤ والأدب فى بلاد الشام ٦٨٧/١
(٤) المثل السائر ٢٦١/١

ومثاله قول الله تعالى : " إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ " وإن الفجار لفي جحيم (١) .

ومثاله عند العماد قوله في ترجمة علم الدين الشافعي : " انتمش جد الكرام العائر ، وحيى رسم الجود الدائر " ، وقوله في ترجمة النقيب نبيه الدين الحسيني المتوضحة بأضواء القرى ، الضاحكة عن ثمرات المعنى :

وقوله في رسالته إلى القاضي الفاضل : " الناعل المظي في عذاب المهاجرة الخسنة ، بعذاب المناهل من مجادرة مؤرد السلسال والذاهل المعنى في عذاب المهاجرة الحسناء برحاب المنازل من نجاز موعده الوصال " وفي الرسالة نفسها جاء قوله : " ومزعج الفرام من وعيل حبيبه المفارق بنجح المعنى ، ومخرج السقام من وصف طبيبه الحسان في سبر المعنى " .

٧ - المقابلة :

عرفها ابن رشيقي بقوله : " المقابلة بين التقسيم والطباق وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب فيعطى أول الكلام ما يليق به أولاً ، وآخره ما يليق به آخراً ، ويأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالفه ثم أورد المثال الآتي عليه :

فيا عجباً كيف اتفقنا ، فناصر وفي مطوي على الفل غادر

(٦)

فقابل بين النصح والوفاء وبين الفس والغدر .

ومن أمثله عند العماد قوله من كتاب : " وضحك أرضها من يكاء سماءها " (٧) .

فقابل بين ضحك الأرض ويكاء السماء وبينهما كما ترى طباق .

وكذلك قوله من رسالة إلى سيف الإسلام أخي السلطان صلاح الدين :

" وظالما مكثت بالكفر دار يؤس فسادت بالإسلام دار نعيم " فقابل بين الكفر والبؤس وبين الإسلام والنعيم . وقوله من كتاب في فتح القدس : " وجوه الإيمان متباشرة " (٨) .

(١) سورة الانقطار - الآيات ١٢ و ١٤ (٢) الخريدة - قسم الشام ٣٦٤/٢

(٣) قسم الشام ٢٦٣/٢ (٤) قسم مصر ٤٥/١

(٥) المصدر السابق ٤٤/١ (٦) السعدة ٩٩/٢

(٧) أمراء مصر في الامام - الملحق ص ٦٧ (٨) الروضتين ١٢٨/٢

ووجوه أصل الصليب عوايس^(١) " فقابل بين أصل الإيمان والبشر وأصل الصليب والمبوس " وقوله : " وَأَصْلُهُ خَوْفُهُ ، وَفَارِقَةُ أَصْنُهُ " فقابل بين الوصال والخوف وبين المفارقة والأمن .

٨ - الموازنة :

وجمله ابن رشيق نوعاً من المقابلة ، ولكن الشيثيين لا يشترط فيهما الاتفاق أو المخالفة ولكن في الوزن والازدواج فقط ، وذكر المثال الآتي عليه :

أَخْلَاقٌ مَجْدٌ تَجَلَّتْ مَالَهَا حَظْرُهُ فِي الْبُأْسِ وَالْجُودِ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْخَبْرِ^(٢)

فوازن بين البأس والجود وبين الحلم والخبر فلا طباق بينهما وإنما عما متفقان في الوزن المروض والازدواج .

وعو كثير عند العماد لقرنه من الطباق ومثاله ثوله : " زاد حزنه وزال حسنه " فالطباق غير موجود بين الزيادة والنزوال ولا بين الحزن والحسن ، وإنما الاتفاق في الوزن والازدواج .

ويأتى كذلك في كثير من الحالات في ثلاث كلمات أو أكثر وذلك من أجل الوزن الموسيقي في الجمل : مثال ذلك قوله : " فَازَ مِنْ حَبْلِ الْعَصْمَةِ بِمَتِينِهِ وَضَمِنَ دُرَّ الْحِكْمَةِ بِشَمِينِهِ " فوازن بين ثلاث كلمات وثلاث أخرى .

٢ - المحسنات اللفظية :

أ - الاقتباس من القرآن الكريم : والاقتباس من القرآن الكريم ظاهرة بدأت بظهور الإسلام ، فما من خطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا واقتبس فيها من القرآن الكريم وما من رسالة أو كلمة للخلفاء الراشدين إلا جاء فيها من القرآن الكريم ما يسندها ويدعم

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩

(٤) الروضتين ١٩/٢

(١) الروضتين ١٩/٢

(٣) العمدة ١٩/٢

(٥) قسم مصر ٤٦/١

معانيها ، وهكذا سار الكتاب والخطباء والبلغاء وغيرهم على هذا النهج يأخذون من القرآن الكريم مستشهدين ، وقد طرأ أمر جديد في هذا العصر هو نشر القرآن الكريم ، وظهر بوضوح في رسائل القاضي الفاضل ، وجاء كذلك عند العماد في رسائله خاصة .

أما اقتباس الآيات القرآنية فلا تعرف رسالة من رسائل العماد التي وصلتنا كاملة إلا وفيها آيات من كتاب الله ، وكثير منها بدأه العماد بآية كريمة ، وخاصة كتب البشري بالفتوح والانتصارات ، ومن ذلك كتابه إلى الديوان العزيز في بغداد بشري بفتح القدس ، وقد بدأ بالآية الكريمة : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً " (٢) الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعهد الاستخلاف (٣)

وبدأ كتاباً ثانياً يُبشِّرُ فيه السليفة بفتح القدس فقال : " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون " الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد (٤)

وله من كتاب إلى سيف الإسلام - أخي السلطان صلاح الدين - أورد فيه الآية الكريمة في ثنايا الكتاب " وعلى تجرى بهم في موج كالجبال " (٦)

ويلاحظ العماد أحياناً إلى نشر القرآن الكريم وذلك في كثير من المواضع فسي رسائله ذوات الطابع المفرح في الفتوحات والانتصارات ، فمن كتاب يبشر فيه بالانتصار في حطين يقول : " ولما أحيط بالقوم آوى ملكهم إلى جبل يعصمه من القوم ، فأسمعهم السيف : لا عاصم اليوم (٨) فإلصق ما أخذ من قوله تعالى : قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء قال : لا عاصم اليوم من أمر الله " . وورد كذلك في كتاب آخر يبشر فيه بفتح القدس حيث يقول : " وخطب الدين القائل : " ولقد مننا عليك مرة أخرى بقوله

- (١) راجع حديثنا عن القاضي الفاضل وأسلوبه قبل صفحات .
 (٢) الآية ٥٥ من سورة النور (٣) الروضتين ٩٦/
 (٤) الآية ١٠٥ سورة الانبياء (٥) الروضتين ٨٦/٢
 (٦) الفتح القسي ٤٢١ (٧) الآية ٤٢ من سورة عبود
 (٨) الروضتين ٨٧/٢ (٩) الآية ٤٣ من سورة عبود

فالأولى في عصر النبي ﷺ " وعومأخوذ من قوله تعالى : ولقد مننا عليك مرة
 أخرى . " ومعنى ذلك نشره الآية كريمة في رسالة للفاضل وفيها
 يقول : " فهل كانت عدّة أمهات ينشر لآ كمالها أو حسنة جزاؤنا بعشرة أمثالها ^(٣) .
 والمعنى مأخوذ من قوله عز وجل : " ولقد واعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمنّاها بعشر " ^(٤)
 وقوله سبحانه :-

" مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا " ^(٤)

(ب) الاقتباس من الحديث الشريف :

ولمؤ قليل في رسائل العماد ، ومن ذلك ورود حديث للرسول صلى الله عليه
 وسلم في كتاب له يصف فيه دمشق ويفصلها ، فيقول معللاً ذلك : " أمّا قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : " الشّام خيرة الله في أرضه يسوق إليها خيرة الله من عباده " ^(٥) .

(٤) بنية النثر الفني :

ومعنى بها ألفاظه وتراكيبه ، ومقاديرها طولاً وقصراً ، وأساليبها ومناججها
 ومعانيها .

أ - الألفاظ والتراكيب : اختلفت الألفاظ في رسائل العماد بين رسالة ورسالة ففي
 بعض رسائله ما ن إلى الإغراب ، فأتى فيها بكل قريب لفظ وغامض معنى ومن ذلك رسالته
 إلى القاضي الفاضل التي بدأنا قائلًا : " طوى للحجر والحجون من ذي الحجج
 والحجى منيل الجدا ومنير الدجى " ^(٦) . ورسالته التي وردت في الجزء الأول من
 القسم المصري والتي أولها : " ما ظفر مدجج الأظلام بالسنا ، ومخون الإعدام بالبنى " ^(٧) .
 وقارئ كتابين الرسالتين يجد صعوبة بالغة في فهم معانيهما فهماً عميقاً
 وصحيحاً . فضلاً عن الألفاظ الغريبة فيهما التزم المحسنات البديعية التزاماً شديداً ،

- | | |
|--|-------------------------------|
| (١) الروضتين ٨٦/٢ | (٢) الآية ٣٧ من سورة طه |
| (٣) قسم مصر ٥٠/١ | (٣) الآية ١٦٠ من سورة الانعام |
| (٥) أمراء مصر في الاسلام - الملحق ص ٢٠ | |
| (٦) الروضتين ج ٦/٢ | (٧) قسم مصر ٤٤/١ |

وعنده الظاهرة تبدو بوضوح حين يكتب إلى رئيسه القاضي الفاضل .

ونجد له كذلك رسائل واضحة الألفاظ سهلة الفهم ، لا تحتاج من القارئ إلى كدّ ذهن أو تعب ، ومثال ذلك قوله : " فصدنا البرج^(٢) ونازلناه ، وما زلنا نقاتل حتى أزلناه ، واحتّموا بباطنه ، فما أخرج أحد رأسه " وفي هذه الرسالة وأشباهاها نجد الوضوح التام على الرغم من التزامه للجناس والسجع .

والعماد يلتزم الألفاظ الفصيحة ، ولا يلحن في كلامه أبداً ، ولم يرد في رسائله شيء من هذا القبيل ، وتعلو ألفاظه كلما كانت موجهة إلى الكتاب والوزراء والمثقفين ممن يفهمون لفته ويستملحون أسلوبه .

على أنه أدخل في رسائله بعض الألفاظ والأسماء المسيحية ، وفي الكتاب الذي كتبه يبشر بالانتصار في حطين وردت الألفاظ : البارونية ، القمص ، والابرنس^(٣) ، والبطرك ، والقمس . وفي كتاب آخر وردت ألفاظ : صليب الصليوت ، والداوية والاسبتارية .

ووردت بعض الألفاظ الفارسية كالمنجيني^(٥) والخندي^(٦) وكلتا عمدا استعملتا منذ

زمن قديم .

ووردت كذلك بعض الألفاظ الفارسية في كتبه التاريخية وخاصة في نصرة الفترة^(٧) مثال ذلك : الخركاة والدركاه^(٨) والباركاه ، واستعمل العماد كلمة بيبيكار^(٩) الفارسية بمعنى الحرب والقتال وأصلها يوناني بمعنى الرماح .

-
- (١) سنا البري الشامي ٢٢٢ / ١
 - (٢) الروستين ٨٧ / ٢ وعلى ألقاب أمراءهم والكلمة الأخيرة تعني الأمير .
 - (٣) الروستين ٩٧ / ٢
 - (٤) صليب الصليوت : صليب مقدس عند المسيحيين لا عقادهم أن جزءاً منه مصنوع من الخشب الذي صلب عليه المسيح . والداوية الاسبتارية طائفتان من طوائف الفرنجة لكل منها نظام خاص مدني وعسكري والكتاب في مفرج الكروب ٢ / ٢٠٢ والروستين ٨٩ / ٢ .
 - (٥) في المغرب للجواليقي ٤٥٤ أنه فارسي مغرب
 - (٦) وكذلك الخندي فارسي مغرب
 - (٧) تاريخ دولة آل سلجوي ١٣٥ ، ٢٥٩ ومناحا الخيمة الكبيرة
 - (٨) المصدر السابق ص ١١٤
 - (٩) الباركاه : ربما كانت من البارجاه بمعنى بلاط الملك (المغرب ١٢٣) وتاريخ دولة آل سلجون ١١٨ (١٠) الروستين ١٨١ / ١ ومفرج الكروب ٢ / ١٨٢
 - (١١) دوزي ٢ / ٤١٤ ووردت في مفرج الكروب ٢ / ٩٥

كذلك استعمل ألفاظاً خاصة بالرسائل الموجهة إلى رئيس الخليفة وغيره وعلى صفة عامة عند كتاب ذلك العصر كلفاظ المجلس والمجلس العالي والخدام والديوان العزيز بمعنى به ديوان الخليفة ببغداد .

وكثيراً ما كان يضيف إلى النسبة إلى الأسماء ، ويظهر ذلك في قوله من رسالة إلى القاضي الفاضل : " أما مصر فهي الآن عراقية الدولة ، عباسية الدعوة ، يوسيفية العزة ، فاضلية الحوزة ، ناصرية النصر ، عادلية الخطوة ، صلاحية السيرة ، سيفية الهزّة (١) . "

وله كتاب في فتح القدس يقول فيه : " وذخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى للعصر الإمامي النبوي الناصري على يد الخدام أخلص أوليائه " (٢)

ونخلص إلى القول بأن ألفاظ العماد في نثره كانت سليمة كل السلامة من حيث الرعانة والجزالة والتماسك .

أما عباراته وتراكيبه فتختلف من رسالة إلى أخرى ، ومن موضوع إلى آخر ، فالعبارات تقصر وتطول حسب النغمة الموسيقية التي يريد لها ، وترتاح نفسه لها ، وتغير في وصف عباراته وتراكيبه - إلا أن الجناس كان يميل به إلى الوعورة أحياناً ، فكان يضطره إلى التكلف وتطوير العبارات طولاً مملاً ، مما يجعل القارئ يكدر ذهنه حتى يفهم المعنى ولا يعني ذلك أننا نعيب عليه ذلك ، فهذا هو رأينا بذوقنا الحديث وأما رأي مزامنيه فكان الإعجاب الشديد وخاصة من سلطانه صلاح الدين ورئيسه القاضي الفاضل وغيرهما من المؤرخين الذين ذكرناهم سابقاً .

(٢) مقادير الرسائل :

اختلفت أطوار رسائله حسب الغرض منها والهدف من كتابتها ، فبينما نجد لها قصيرة في المنشورات العامة ، نجد لها طويلة إذا كانت موجهة إلى الخليفة أو إلى القاضي الفاضل ، لأنه مضطر إلى شرح الأحوال ومجريات الأمور ، وسير القتال على الجبهات ،

(١) قسم مصر ٥٢/١

(٢) الروضتين ٩٦/٢

فيلجأ إلى الشرح والتطويل ، ونجدها متوسطة إذا كانت في كتب التعميم في الوظائف العامة وخير ما يمثلها كتابه في تعيين الأمير سياروخ في ولاية القدس .

(٣) بنية رسالة النثرية :

اختلفت بنية رسائل السواد حسب الهدف من إنشائها ولذا اختلفت مقدمتها وموضوعها وخاتمتها . ففي رسائل البشري بالفتح والانتصارات يغلب عليه أن يبدأها بأية كريمة ، يتبعها بحمد الله الذي مكن للمسلمين من هذا النصر الأسنى والفتح العظيم شارحاً بعد ذلك أهمية هذا الفتح أو ذلك النصر ، مبيناً المصاعب والمشقات التي عاناها السلطان في سبيل ذلك ، موازناً بين حالة المدينة في أيام الاحتلال وأيام الفتح ، وغو كثيراً ما يشكر الله في أواسط الرسائل ذكراً آيات كريمة من القرآن الكريم كذلك ، فإن كان الاستيلاء على المدينة فتحاً وكانوا قد دخلوها حرباً شرح طريقة دخولها ، وإن كان صلحاً بين كذلك مجريات أموره وشروطه ، وأنهى رسالته بشكر الله على توقيفه للسلطان ورضاه عليه .

فإن كانت رسالة تحذير من وصول جيش إفرنجي ، اختلف الوضع فنراه بوضوح يكتب الألفاظ المنتقاة والعبارات المختارة التي تبين الخطر ، ويحذر من مغبة الكسل والتعاسي ، شارحاً قوة العدو وخطاه عدده ، وكثرة عدده وتصميمه على النزال والقتال منهيها الرسالة بالأمل في تقديم العون وتوفير المساعدة ، وغو في الغالب يقتبس من الآيات ما يتصل بهذا المعنى .

فإن كانت رسالة أخوية اختلف الوضع كذلك فنراه يبدأها بالشثناء على الصديق والإشادة بفضله وعلمه ، مبالغاً في ذلك أشد المبالغة ، وخير الأمثلة على ذلك رسالته التي أشرنا إليها سابقاً والتي أرسلها إلى القاضي الفاضل يشكره على إعدائه الكتب ، وفيها يشرح فائدة هذه الكتب ، ويوازن بين أساليبها وعلمها ، وأسلوب وعلم الفاضل ، الذي لا يعلوه علم ، ولا ترتفع إلى منزلته وأسلوبه منزلة ولا أسلوب ، فهو القمة الشكامة والطود الأشم ، الذي لا يدانيه شيء في الوجود . ثم ينهيها بإعلان ولائه لــــه وإخلاصه الدائم لحضرته ، ويختم النثر برسالة شعرية .

وأحياناً يبدأ الرسالة بحمد الله وشكره دون اقتباس آية كقوله من رسالة إلى سي
سيف الإسلام أخطى السلطان صلاح الدين " كتابنا ونعم الله تعالى منوط بمزيد من
الشكر عندنا مزيداً لنا ، صحوط من السديد توأمها وفريدها " (١) .

وعرفى رسائله على خلاف ما يتهم به من أن له كتابات نشرة لا موضوع لها ،
فهذا الأمر ربما ورد في كتاباته التاريخية ، وقد نسبنا إلى ذلك في الفصل السابق ، أما
في رسائله النثرية فتجد ذلك التماسك المعنوي والانتقال من فقرة إلى فقرة بترايط شديد ،
فلكل عبارة موقع ولكل فقرة مكان ، لكن الذين يتهمهمون عليه ينطلقون دائماً من منطلق
البديح ولا شئ غير ذلك .

(٤) رسائله والمعاني الإسلامية :

تفاوتت رسائله ببروز المعاني الإسلامية فيها ، فبينما تظهر واضحة كل الوضوح
في الديوانية منها ، لأنها تنطق باسم الدولة الرسمي ، وموجهة إلى حكام الولايات
الإسلامية ، وعولاء لا يربطهم بعضهم ببعض سوى الإسلام ، لأن منهم العربى والفارسى
والتركى ، ولذا التزم السواد إبراز هذه المعاني ليكون لها وقع كبير في نفوس قارئيهما
الموجهة إليهم ، فضلاً عن أنها كانت تخرج باسم سلطانين كبيرين كانا يتمسكان بالدين
قلباً وقالباً ، إلى جانب أن السواد كان فقيهاً ومحدثاً قبل أن يكون كاتباً ومنشئاً ، وأشد
ما تظهر هذه السمات حين تكون في البشرى بفتح أو انتصار أو في حث على الجهاد ،
أو إخبار بوصول جيش فرنجى ، وحينئذ ترى المعاني الإسلامية والأفكار الدينية تطغى
وتسم .

ومن الأمثلة على ذلك كتابه إلى الديوان في بغداد يخبره بوصول جيش
فرنجى ويرجوه تقديم السنون والمساعدة والمشاركة في الجهاد ، قال في نهايته : " وقد
تعيين الجهاد على كل مسلم - وما في الوجود مؤمن يكون له هذا العلم المؤلم ، والاهتمام
بدفعه من أفرض المهام ، وأهم الفروض والخادم منفرد في حمل عب هذا الفادح الباطل
بالنهوض " .

(١) مضار الحقائق وسر الخلائق ص ٢٠

(٢) الفتح القسى ٢٩٧ - ٢٩٨

وتبرز معالمها واضحة في كتب الاستنصار ، ومن ذلك قوله في كتاب وجهه إلى ملوك المسلمين حين جاء ملك الألمان قال فيه " قد عرف أن العدو الألماني المخذول قد وصل ، فما لعمود عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصرته الإسلام من ثمرة السعادة مجنى ، ولذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده وأوان بذل وسعه وجدّه واجتهاده ، فإنه محض لا يغيب عنه إلا من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفى يمسد الله فيه من سبق له معه في السعادة ميثاق ، وإنها لغنيمية ، أوفدنا الله علينا ، وعدية أعداءنا الله إلينا ، وفضيلة خصنا الله بها وأسعدنا بسببها (١) ويكمل مركزاً على أوامر الله في الجهاد حاثاً على ذلك ، مشجعاً بوجود الفنائم والنعم .

وتظهر كذلك في المنشورات العامة التي توجه إلى أبناء الأمة وفي كتب التعمين ومثال الأول كتاب إسقاط ضربية الأتبان الذي أوردناه سابقاً ومثال الثاني تعيين سياروخ في ولاية القدس . (٢) (٣)

وتضعف ضعفاً شديداً في الرسائل الأخوية ، وكتب الهدنة مع الأعداء ، وكتب المتجددات اليومية وشرح الأحوال العامة في الدولة التي كان يرسلها حيناً إلى القاضي الفاضل وأحياناً إلى الخليفة وغيره . (٤)

٥) المعاني المسيحية والموازنة بين المسلمين والمسيحيين :

كان العماد يوازن دائماً بين مبادئ الإسلام ومبادئ الصليبيين المسيحية فقد كان ذا اطلاع واسع على أهم المبادئ المسيحية الدينية ، ولذا كان يركز على عقيدة التثليث عند علم ، يقول من رسالة له : " وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أعلل الأحد ، وقمع من كان يقول إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول : قل هو الله أحد " . وله من رسالة ثانية في فتح القدس يقول فيها : " وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الأئمة ، وعادت الكنائس مدارس ، وآيات التثليث بها دارس ، ووجوه الإيمان باشرة ووجوه أعلل الصليب عوابس . . . (٥) (٦)

-
- (١) الفتح القسى ص ٤٠٠ (٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٥٠ - ٥٥١
(٣) الفتح القسى ٥٨٠ - ٥٨١ (٤) الفتح القسى ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٥٣٥ ، ٥٤٧ ، ٥٥١
(٥) الروضتين ٩٧/٢ ٦٠١ وغيرها .
(٦) الروضتين ٩٦/٢ وانظر كتابه إلى سيف الإسلام في الروضتين ١٣١/٢

وعو يذكر ربوبية عيسى التي يؤمن بها المسيحيون في كتاب إلى سيف الإسلام أخى السلطان صلاح الدين فيقول: " فُتِحَ بَيْتُ اللَّهِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي عُلِقَ نَيْفًا وَتَسْمِينِ سَنَةِ مَعَ الْكُفْرِ رَسْنُهُ واشتغل خاطر الإسلام بسببه وساء حزنه ، وُذِكِرَ فِيهِ الْوَأَحَدُ الْأَحَدُ الَّذِي تَعَالَى عَنِ الْوَلَدِ وَنَفَى أَنْ الْمَسِيحَ ابْنَهُ ، وَرَبَّعَ فِيهِ التَّثْلِيثَ فَعَزَّ صَلْبِيَهُ وَصَلْبُهُ ، وَأَفْرَدَ التَّوْحِيدَ فَكَادَ يَهَى مَتْنَهُ " .

وله من كتاب آخر يذكر فيه مبدأ التثليث ، ويعرض لألقاب رجال الدين عندهم ، ودعوتهم إلى قتال المسلمين ، ووعد عم الناس بغفران الذنوب إن هم فعلوا ذلك ، قال من رساله إلى الخليفة : " قد مضت ثلاثة أشهر شهراً فيها التثليث على التوحيد سلاحه ، وسط الكفر جناحه فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ولا خطة صغسيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها وتثلث كنائسها ، واستخرجت دقائن نفائسها وخرج بصلبانها أساقفها ومطاركها ، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكتها ، وتصلبت للصليب السليب ونادوا من نواديهم بأن البلاد هي بلادهم وأن إخوانهم بالقدس وأبلاهم الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الإسلام - وهبته له ذنوبه ، وذهبته عنه عيوبه " .

وكان كلما أورد لفظاً أو تورية عن المسلمين جاء بما يقابلها عن المسيحيين حسب رأيه ، فالإسلام والإيمان يقابلها الكفر والشرك وأعد الجمعة يقابلهم أهل الأحد ، وأعد التوحيد يقابلهم أهل التثليث وعذه الألفاظ كان المعاد يكررها في كثير من رسائله الجهادية .

(٢) نثر : استخج

(١) الروضتين ٩٩/٢

(٢) الروضتين ١٤٩/٢

الباب الثالث

العماد والأدب المنظوم

الفصل الأول : الشعر في عصر الع—عماد

الفصل الثاني : شعر الع—عماد بين ناقدية

الفصل الثالث : أغراض شعر الع—عماد

الفصل الرابع : الدراسة الفنية لشعر الع—عماد

هذا الباب في مجموعتي صفحات: ٤٠٧
ص ٢٥٧ إلى ص ٢٦٨ استعراض
لأغراض الشعر في عصر العماد وسوره نماذج (أ)
ثم استعراض لأغراض شعر العماد وسوره نماذج (ب)
دوره العماد في التحليل

الباب الثالث

العماد والأدب المنظوم

تمهيد : الشعر قبيل عصر العماد :

عاش العماد في القرن السادس الهجري ، ولذا سنلقى أضواءً على آراء النقاد والأدباء في شعر القرن الخامس وأوائل السادس هي الفترة التي عاش فيها مهيار الديلمي ، وأبو العلاء المعري وابن زيدون وابن خفاجة الأندلسي ، والشريف العقيلي ، وظافر الحداد وغيرهم من أئمة الشعر والأدب في ذلك الزمن .

لقد أصدر كثير من الأدباء والنقاد المحدثين حكمهم القاتل على هذا العصر فاتهموه بالجمود والانحطاط ، ومن هؤلاء الدكتور شوقي ضيف الذي يقول : " لا نصل إلى القرن الرابع حتى نحسب أن الشعر العربي جامد لا يتحول عن الموضوعات والمعاني القديمة " وقد أرجع أسباب هذا الانحطاط وذلك الجمود إلى عدم إدخال المصرب للفلسفة والعلوم في أشعارهم وإلى عدم اطلاعهم على الأدب اليوناني ، فأصيبوا لذلك بما يسميه القصور الذاتي وذكر كذلك سبباً ثالثاً هو اعتماد الشعراء بالألفاظ والسقاطهم للمعاني مما جعل الشعراء لا يبحثون عن موضوعات جديدة ، وبذلك انصب عملهم كما يقول : على التحوير في المعاني القديمة ، فنشأ هذا البحث الواسع الذي نجده في كتب النقد العربي ونعني به بحث السرقات .

وتابعه على ذلك أحمد الجندی في تقديمه لديوان فتيان الشاغوري (٥٢٠ - ٦١٥) الذي يرى أن الشعر قد انحط في رأي الكثيرين من قرائه خلال هذه الفترة ، وتحول عن غاياته الهامة التي كانت تنحصر في التعبير الصادق عن الهواجس والأحاسيس التي تتأثر بالطبيعة والحياة فيصورها الشعر تصويراً صادقاً بعيداً ، عن التكلف والصنعة " ويقول كذلك : " والإجماع في رأي أصحاب الشعر على أن الانحطاط الشعري قد بدأ بمد

(١) الفن ومذائبه في الشعر العربي د . شوقي ضيف ص ٣٩٢

(٢) المرجع نفسه ص ٢٩٢ والذاتي خطأ صوابه : الذووي

(٣) المرجع نفسه ص ٢٩٢

(٤) تقديم ديوان فتيان الشاغوري لأحمد الجندی ص ٦

(١) أبي العلاء والشريف الرضى ومن عاصرهما أى منذ أوائل القرن الخامس الهجرى . ثم يذكر الأسباب التى أدت بالشعر إلى هذا الانحطاط فيقول : " وسبب الانحطاط يرجع فى الأغلب إلى ولوع الشعراء بالمحسنات اللفظية من جناس وطباق وتورية واستعارة وتشبيه ، التى تحمل فى طياتها المبالغة المستكرهمة والتكلف المستهجن والصنعة الثقيلة التى تحول دون التعبير الشعرى الصادق المحبب " (٢) .

ويعتقد الدكتور زكى المحاسنى أن الشريف العقيلي - الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس - كان من أواخر الشعراء الذين حافظوا على رواء الشعر ورونقه ، فيقول : " وإذا كان فى أدائه وتمبيره كثير الاستعارة اللفظية لصوره التمثيلية ، فإنى أعده حافظاً لحياة الشعر قبيل انحداره عن روائه وعموده " (٣) .

ونختم هذه الآراء برأى للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى الذى يرى رأياً مناهضاً لمن سبقه من الأساتذة فيقول : " إن ما أتهيننا إليه من أن شعراء هذا العصر ليس بينهم عالقة من أمثال المتنبى وأبى تمام ، لا يعنى مطلقاً أن الشعر فى جملته كان خلال هذا العصر أقل منه فى العصور الذهبية السالفة فإننا لو نسينا أولئك العمالقة - وعدد غم محدود - فإننا نضع أيدينا فى هذا العصر على قاعدة أدبية واسخة رسوخ الجبان ، مخلصمة تمام الإخلاص لفتحها ، عارفة تمام المعرفة لمسئولياتها ، لم تحاول أن تكسب المجد بثمن رخيص ، ولكنها كدحت واعتصرت فيه أذغانها ، وأفنت فيه شبابها - كما يعنى الصوفى فى خالفه " (٤) .

ثم يسجل أمثلة جميلة من شعر السرى الرفاء وأبى طالب المأمونى للتدليل على قوة بعض أشعارهم . وردّه طويل خلاصته أن الشعر فى هذا العصر شعر جيد ، وكلام جميل ، وأن السابقين من الأدباء والنقاد قد جحدوا هذا العصر فضله ، واتهموه ظلماً وعدواناً بالجمود والانحطاط ، وهذا هو رأينا الذى به نأخذ ، ونجد فيه الصواب ، فالتميم مرفوض فى نظرنا ، فلا يمكن أن يطغى الجمود على عصر كامل فيه آلاف من الأدباء والشعراء ،

(١) المرجع السابق ص ٦ (٢) المرجع السابق ص ٦ كذلك
 (٣) تقديم الدكتور المحاسنى لديوان الشريف العقيلي ص ٢٠
 (٤) تاريخ الشعر العربى د . محمد العزيز الكفراوى ج ٢ / ٢٤ - ٣٨

ورما جاء هذا الاتهام من الوضع السياسي لذلك الزمن حيث انقسمت الدولة إلى دويلات
ورما اتهم هذا العصر أيضاً تقدمه لاتهام عصر الجهاد الذي يليه ، إذ دأب المستشرقون
على اتهامه بذلك - فانتقل الرأي إلى أدبائنا دون وعي .

اننا نجد في هذا العصر وما تلاه الفح والسمين ، والجيد والردئ ، والتماسك
القوى والركيك الضعيف ، فلتكن نظرنا له على هذا الأساس ، وربما يؤكد نظرنا على هذه
أنّ النقاد والأدباء بدأوا دراسة هذا العصر وما يليه وسوف نذكر بعضاً منهم في حديثنا
التالي .



الفصل الأول

الشعر في عصر العماد

إن نظرة عامة يلقىها الدارس على الخريدة بأقسامها تكفى ليحرف أن الشعر في هذا الزمن كانت له سوق نافقة ، وأن الخلقاء والوزراء والقادة والولاة ، والكتاب ، والأدباء ، والأطباء ، والتجار وغيرهم كانوا ينظمون الشعر . . . فضلاً عن الشعراء الذين اشتهموا بالشعر وتميزوا به ، ففي العراق ظهر الحَيْصِيُّ بَيْضَ وسبط ابن التعاويذي ، وفي الشام تفوق ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وأسامة بن منقذ والعماد وفتيان الشاغوري وابن عنين ، وابن قسيم الحموي وعرقلة الكلبي ، وفي مصر لمع ابن الساعاتي وابن سناء الملك وعمارة اليمنى والأسعد بن مَمَاتٍ وغيرهم . إن عَوْلَاءَ الشعراء جميعاً ، كانوا من مداحي الخلفاء والسلطين والأمراء ، ولكن إلى جانب عَوْلَاءَ ظهرت أسماء كانت للشعر هاوية تقولته تزجيةً للفراع وتسليةً ، وتنظيمه في ليالي السر ، وتتبادل له في تهايينها ، وتمازيها ورسائلها والخريدة تشهد بصدق قولنا غذا .

لقد نظم عَوْلَاءَ في مختلف الأغراض الشعرية المعروفة من مدح وهجاء وغزل ونسيب وخمريات وفخر ، ولكن إلى جانب هذا كله اتسع القول في أغراض حتى ظهرت وكأنها أغراض جديدة ومنها شعر الحرب والجهاد الذي قيل في الحروب الصليبية ، ونظمه الشعراء في وصف ملاحمها ووقائعها وأحداثها ، ومنها كذلك تلك المطارحات المشعرة بين الشعراء وما يسمى بالشتويات ، وأصبح الأحاجي والألغاز غرض خاص بها ، يتفاخر كل شاعر في النظم فيه . واتسع القول في مدح الرسول على الله عليه وسلم حتى ظهر غرض جديد أطلق عليه البعض بالنبويات أو المدائح النبوية .

وقد اختلفت آراء النقاد والأدباء في شعر هذا الزمن ، فمنهم من يعطيه الأهمية ويمتدح الأصيل منه ، ومنهم من ينزل به فيراه غثاً لا قيمة له ولا فائدة منه . إننا نجد الدكتور أحمد بدوي يرى في شعر هذا العصر تقليداً للشعراء العباسيين لأنه يجد

(١) الشتويات : مطارحات وجدانية ورسائل أخوية يتبادلها الأب مع ابنه أو شاعر مع شاعر (الأدب في بلاد الشام ص ٥٢٧) وكلمة أخوية في الاصل اخوانية وهي خطأ شائع .

(٢) لزكى مبارك كتاب بعنوان المدائح النبوية

فيه نثقات ونفحات تبد وأصيلة في بعض الأحيان ، فيقول : " وكان الشعراء في جملتهم يتجهون إلى محاكاة الشعراء العباسيين في أساليبهم ، وطرق تعبيرهم ، وبلغوا من ذلك حظاً كبيراً حتى نستطيع أن نضع بعضهم في بعض فصائده إلى جوار كبار الشعراء العباسيين ، ولكننا لا نستطيع أن نخفل ما كان في هذا العصر من اتجاه إلى الزخرف والزينة يكاد يشترك فيه شعراء هذا العصر جميعاً ، يقوى بعضهم حتى لا تصنف الزينة في أسلوبه ، وحتى تبد وكأنها طبيعة غير متكلفة ، وتقوى هي على الآخر حتى تسقط شعره في تكلف مقوت ثقيل " وفي الوقت الذي نجد الدكتور محمد زغلول سلام يفرق بين طوائف الشعراء في الجودة ، كما يفرق بينها في الأغراض ومدى قدرتها على الصفاء الجيد نجد الدكتور علي جواد الظاهر يسبب هذا الشعر لعدم صدقه وضعف أعماله .

يقول الدكتور سالم في نقد شعر طبقات العلماء والتجار وغيرهم من الشعراء " إلا أن بعض هؤلاء لم يرق شعرهم إلى مرتبة الشعر الجيد ، ولم يبلغوا هم أنفسهم منزلة الشعراء المحترفين " ثم يقول مرة ثانية موضحاً كلامه : " وليس معنى هذا أن كل من جمع بين العلم والشعر جاء شعره كذلك غثاً بارداً وديثاً ، بل إننا نجد نماذج ممن جمعوا بين الاثنين ومع ذلك احتفظوا بمكانة رفيعة في عالم الشعر كابن التعاويذي وابن الهبارية " (١)

أما الدكتور علي جواد الظاهر فيقول في نقده للنزل والنسب في العصر السلجوقي :

" ضخامة في الكم ، مسألة في الكيف ، نقص في الأصالة والصدق ، تقليد للسابقين لا سيما الشريف الرضي وصهيار الديلمي " ويقول عنه كذلك " وكما قصروا في العاطفة قصروا في الخيال ، وإن لم يبق إلا كلام مرصوف عندهم قوم تمكنوا من اللغة والعروض والأدب " (٢)

ويقول في المديح : " كثرة على غير ابتكار في معنى أو صياغة ، وكيف يستطيع

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٦٠

(٢) الأدب في عصر صلاح الدين ص ٢٦٤

(٣) الأدب في عصر صلاح الدين ص ٢٦٥

(٤) الشعر السري في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ص ٩٧

المرء ابتكاراً وكل همّة جائزة ينتزعها - لسبب ولنفر سبب - بهذه الوسيلة من وسائل
العيث التي يسميها شعراً^(١) ، ويقول كذلك عن موضوعات المديح : " والموضوعات
عتيقة ومادة مكرورة ، وربما تصرف شاعر في معنى قديم فأضاف إليه شيئاً جديداً " .

ويستدح الدكتور الطاهر الفخر من دون الأغراض الشعرية ، فيقول : " كثير
وجيد في جملته " وقريب منه الشكوي حيث يقول : " ويغلب على هذا النفر الصدق
وتشيع الحرارة ويبلغ درجات الإجماع " .^(٢)

ومن الأدباء الذين يرون شعر هذا العصر سطحياً الأستاذ أحمد الجندى
الذى يقول في تقديمه لديوان عرقله الكلبى : " إن شعراء العهد الأيوبي قد أخذوا
بالاضطرابات التي أحدثت بأيامهم فصرفتهم عن التخليق في أجواء العبقرية الشعرية ،
كما أخذوا باتجاهات العصر التي لفتتهم إلى المحسنات اللفظية والصناعة التي تلهي
وتعوى ذهن الشاعر عن الاختراع والابتداع " .

لذلك كان شعر هذا العصر سطحياً ، يكرر نفسه في أفكاره وتعبيراته
وصناعته فقيراً في صورته وأخيلته ، ولمحاته الذهنية الأخاذة ، بحيث لا تجد أمامك
شيئاً جديداً ، ولو قرأت الخريدة كلها وخاصة شعراء النمام ، لما وجدت فرقاً كبيراً
بين شاعر وآخر إلا في بعض الظواهر التي لا تكاد تظهر ، حتى لتكاد تستطيع نسبية
أبيات هذا الشاعر إلى ذلك وأنت آمن أن تتهم بالخطأ في الرواية والاختيار " .^(٣)

ولكن الأستاذ أحمد الجندى يعود إلى مدح شعر عرقله الكلبى ناسياً ما كتبه
عن شعراء العصر فيقول : " وشعر عرقله بصورة عامة ، شعر قريب من القلب ، لا تمسثر
فيه على لفظة نابية ، اللهم إلا بعض أسماء الأعلام من معاصريه وعم من غير العرب فهو
ناصر الديباجة صحيح الأسلوب ، تشعير بالنغمة المريحة تغمر أفاظه ، فإذا أنشدت
هذا الشعر أخذتلك النشوة ، وما لك بك الطرب كل ميل " .^(٤)

-
- (١) المرجع نفسه ص ١٠٢ (٢) المرجع نفسه ص ١٠٢
(٣) المرجع نفسه ص ١١٤ وكذلك في ص ١٢٢ حيث قال " الفخر من خيرة أغراض العصر " .
(٤) المرجع نفسه ص ١٢٤
(٥) ديوان عرقله - التقديم ص هـ (٦) ليس في اللفظة كلمة عاصر ويمكن استبدالها
(٧) ديوان عرقله ص ح " بزامن " مثلاً .

ويعد أن يذكر له الأستاذ الجندی بعض الأبيات التي أعجب بها يقول عنها :
 "إنها ديباجة مطبوعة تذكر بالبحتری لولا بعض الهنات الهينات كما في الوقوف عند
 (لكن) الساكنة ، وتكرار الاستفهام المتكلف في البيت الأخير ، على أن القافية
 عادة في مكانها مطمئنة في موضعها من البيت وهذا غاية في فصاحة الأسلوب . وقد
 يرتفع به الأسلوب حتى يبلغ مرتبة الأمويين في قوة الأسر وانسجام الألفاظ كقوله :

وَنَادِبَةٌ نَاحَتْ سُحَيْرًا بِأَيْكَةٍ فَهَيَّجَتْ الوَسْوَارِ فِي قَلْبٍ نَادِبِ
 تَنَوُّ عَلَى عُصْنِ أَنْوَحٍ بِمِثْلِهِ وَنَدَلْ حَاصِرٌ يُبْكِي أَسَى مِثْلِ غَائِبِ (١)

وليس خافياً ما في جملة "أنواح لمثله" من شاعرية واختصار (٢) .

إننا نجد تناقضاً بين حكم الأستاذ الجندی الأول على شعر العصر الذي يشمل
 عرقلة وغيره ، ثم مديحه لعرقلة والارتفاع به إلى منزلة البحتری مرة والشعراء الأمويين مرة
 ثانية .

ولقد دافع الدكتور محمود إبراهيم عن شعر الجهاد الصليبي في هذه الفترة ،
 ودعا إلى دراسته فقال : " وثمة ظاهرة تسترعى النظر بالنسبة إلى شعرنا المرتبسط
 بالحروب الصليبية ، تلك هي عدم شيوع هذا الشعر على ألسنة الناس ، بالرغم من
 الحوادث الكبار المرتبطة به ، مع أن مجموعة أخرى من الشعر العربي ، لا ترتبط بما
 ارتبط به ذلك الشعر من أمور جليلة في حياة الأمة ، قد اشتهرت وذاعت ، وتغنى الناس
 بها جيلاً بعد جيل في حين أن الكثيرين من مثقفينا لم تألف أسماعهم حتى أسماء
 شعرائنا إبان الحروب الصليبية أو أسماء عدد كبير منهم على أقل تقدير " .

ويقول بعد ذلك - متسائلاً - عن سبب هذا الإغفال - : ويتساءل المرء عن
 سر هذا الإغفال العجيب لأدب فترة حافلة من فترات تاريخنا ، فلا يجد جواباً شافياً .
 هل هو أثر من آثار التقسيم الكلاسيكي للمصور الأدبية في تاريخ السرب الأدبي ،
 وحشدنا في حيز التقليد والجمود والانحطاط ؟ ربما ولكن فكرة الجمود تغدو مستحيلة

(١) ديوان عرقلة ع

(٢) ديوان عرقلة - التقديم ع ط

(٣) الصواب : على الرغم

ومناقضة لطبائع الأشياء ، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار حالة الفيلاني التي كانت عليها
 الأمة في تلك الفترة والتحديات الخطيرة التي واجهتها خلالها .^(١)

وقد لخص الدكتور محمود إبراهيم رأيه في ابن القيسراني الشاعر بل أحد كبار
 شعراء هذا العصر ، فقال : " وإذا سمع في شعر ابن القيسراني الجهادي الهادى
 المقعقع صوت الإنسان المسلم يخوفى مع غيره من أدباء العصر معركة أمته ، ويتخذ من الكلم
 المنظوم سلاحاً له ، فإننا نسمع في شعرياته صوت ذاته الباحثة أبداً عن الجمال ،
 الساعية دوماً إلى المتعة ، فتتعرف من هذه النفثات الوجدانية على طبيعة الرجل ونزعاته
 الأصيلة " . ويقول كذلك في شعره :

" ولئن عز على الناظر في شعر ابن القيسراني أن يجد فيه دائماً التعبير الأصيل المستقل ،
 فيما خلا خطرات من شعره الوجداني ، فإن ذلك لم يكن مما يزرى بالشاعر في مفهوم
 أدباء عصره ، ونحن لا نأخذ على الشاعر أنه سار في شعره على نهج عام مطروق ، فتلك
 سمة لم يكدها شاعر من شعرائنا القدامى يبرأ منها ، حتى شعراء الجاهلية ، ولكننا نود لسو
 لم يكن سره على نهج نهم من الأقدمين سيراً واعياً مدركاً ، يتجاوز خصائصهم العامة إلى
 لمساتهم التفصيلية . "

وامتدح الدكتور ثقافة ابن القيسراني وسعة معجمة اللغوى وتمكنه من التركيب
 العرسي وإجادته تقليد القدامى من شعراء العرب ، فقال : " ومع ذلك كله : " فلا بد
 أن نعترف للشاعر بثقافة شعرية ولغوية واسعة وتمكن من التركيب العرسي الأصيل ، ساعدت
 عليه حمولة واسعة في مفردات اللغة ، مما مكّنه أن يحيى في شعره التقليدي شعر الفحول
 من سبقوه ، في زمن وصل فيه التقليد الشعرى درجة المسخ والتشويه " .^(٢)

ويقول في إجادته للتقليد " إننا نجد لابن القيسراني فضل الإجابة في
 التقليد حتى ولو لم يحتو الكثير من شعره على جديد " .^(٣)

-
- (١) صدى الفزوة الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ٦ - ٤
 (٢) كذا والصواب حذف " غاننا " .
 (٣) صدى الفزوة الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ٢٢٤
 (٤) هذا خطأ نحوي لأن الفاء هنا ممنوعة والصواب : أن ذلك " .
 (٥) صدى الفزوة الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ٢٢٤
 (٦) كذا والصواب حذف الفاء لتصبح " لا بد " .
 (٧) صدى الفزوة الصليبي في شعر القيسراني ص ٢٢٤ (٨) المرجع نفسه ص ٢٢٥

ومن هؤلاء الذين رأوا شعر هذه الفترة متكلفا لا رونق فيه محمد إبراهيم نصر محقق ديوان ابن سناء الملك وإته ليقول : " ولكن الشعر مع كل هذا المدد الزاخر من الأحداث لم يجد الشعراء المفظورين الموسومين الذين يستطيعون تخليد مدد وجههم وأبطالهم كما خلد المتنبي سيف الدولة ، فأعوزته القوة الدافقة والصور المتحركة النابضة بالحياة والخلود وبدت عليه مسحة من التكلف والرونق اللفظي (١) .

ولقد فصل الدكتور محمد التونجي القول في شعر هذه الفترة فذكر الأمور التي أجاد وأفيها ، والأمور التي أضعفت شعرا فقال : " مما لا مزية فيه أن شعراء هذه المرحلة التاريخية ، لا يقلون عن سابقهم من حيث استخدام الصور البيانية ولا من حيث الصنعة البديعية بل يزيدون ويشقون ليكون أسلوبهم تمهيدا فصيحاً لمصر العثمانيين ونسبوا الانحطاط ، ثم إنهم لا تنقصهم اللغة غالباً فعدد منهم علماء باللغة ، وأعلام في النحو والصرف والنقد والبلاغة ، إلا أن الذي يفتقرون إليه - بلا ريب - هو تلك التي تحيي الشعر ونصنق بها الشعرية والذي ينقى النثر وهو التذوق ، ولهذا تراهم يضيعون حصيدتهم اللغوية في بحشهم عن الشعرية المفقودة ، ويفقدون نكهة الموضوع بتضمنهم وسجعهم الزائدين ، ومن هنا نطلق في تسميتنا لهذه المرحلة بأنها تمهيد لمصر الانحطاط التركي - مستثنين من ذلك أدب الجهاد ضد السليبيين وأدب عصر الماليك (٢) .

ويقول في براعتهم اللغوية ورقة شعرا وصحته والألفاظ الحوشية منها والناعسة فضلاً عن الصافية : " والدليل على البراعة اللغوية : إننا نجد بهم يلبسون كل غرض غالباً - ثوبه اللغوي المناسب ، فالرقة موجودة والصنعة موجودة (٣) .

وخلاصة الأمر في هذا الصدد أننا نرى أن شعر هذه الفترة قد سيطر عليه البديع وطفنت عليه الصنعة ، ولكننا مع هذا نرى أنه ينقسم إلى قسمين : أولهما : شعر الجهاد الصليبي . وثانيهما : الشعر الذي قيل في بقية الأغراض من مدح وغزل وشجاء . أما شعر الجهاد الصليبي فلم تستطع الصنعة ولا البديع أن يخفقا من مدقه

(١) ابن سناء الملك - حياقة وشعره ص ٢٢

(٢) حول الأدب في العصر السلجوقي د . محمد التونجي ص ٢٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٠ - ٢٤١

وحرارته ، فظهرت أصالته واضحة ، وقد نبع من قلوب الشعراء جميعاً ، ومن يقرأ شعر العماد وقد سيات أبي الفضل الجلياني المصروب بحكيم الرّمان والذي ترك ديواناً أسماه " ديوان المبشرات والقدسيات " يجد الشعور الديني العميق النابع من أعماق القلب ، مما ينفس عنه عنمة التكلف المقيت . ولعل قراءة قصيدتي العماد في رثاء نور الدين وصلاح الدين تجعلنا نؤمن بأنهما تنبضان بالمساطرة الصادقة النابعة من شعور فياض وإحساس بعيد الأغوار ، وتصوران لنا كفاح هذين الرجلين العظيمين اللذين فقدت الأمة الإسلامية بغددهما مجاهدين فذيين نأمل من الله العزيز أن يجعل لأمتنا أشباهاً لهما في عصرنا هذا ليفعلوا فعلهما ويحذوا حذوهما .

أما النوع الثاني : فاختلف باختلاف الفرض ، فأحيانا نجد بعض القضاة الجميلة التي ترتفع حتى تداني أشعار الأوائل ، وأحيانا تنحط حتى تبدو طالاسم أو شبيهات بها ، وأحيانا يظهر التلاعب اللفظي حتى لنجد شاعراً كابن عنين الهجاء الساخر ينظم قصيدة يداعب فيها ابن أخت له يلثغ بالقاف فيجمل في كل كلمة منها قافياً ومنها هذه الأبيات :

مَقْلَةٌ قَرَحِيٌّ وَقَلْبٌ شَيْقِيٌّ	وَمَا فِي وَدْقِهَا يَسْتَنْبِقِيٌّ
وَاشْتِيَاؤِيٌّ وَاحْتِرَاؤِيٌّ وَاتَّقَا	عُقْبَانِيٌّ وَسَقَامٌ مَوْسِقِيٌّ
يَا لَقَوْسِيٍّ وَلِقَوْمِي تُوَسُّوَةٌ	لَوْ قَيْدِيٌّ قَلَّتُهُ الْحَكْدَقِيٌّ
أَرْفِقُوا بِالْقَلْبِ قَدْ أَوْثَقِيٌّ	قَيْدُهُ وَالْمَشْقِيٌّ قَيْدٌ مَوْثِقِيٌّ

وليمت هذه القصيدة هي الوحيدة في هذا المجال ، بل ظهر هذا النظم عند كثير ممن

(١) عبد المنعم الجلياني : عبد المنعم بن عمر بن حمدان الأديب الطبيب الشاعر ينسب إلى جليانة بلدة في الأندلس سكن دمشق . أورد له صاحب الروضتين كثيراً من القدسيات . له ديوان المبشرات والقدسيات وعدة كتب توفي سنة ٦٠٢ الروضتين ج ١١٢/٢ وما بعدها . وعيون الأنبياء لابن أبي أصيبعة ٢ ص ١٥٧ - ١٦١

(٢) ابن عنين : شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين المعروف بابن عنين يرجع نسبه إلى الأنصار هجاء مشهور ولد سنة ٥٤٩ ونظم الشعر سنة ٥٦٥ هجاء صلاح الدين فنفاه وغاب عن دمشق قرابة عشرين عاماً ثم رجع وعمل وزيراً للملك المعظم عيسى ابن الملك العادل وتوفي بدمشق سنة ٦٢٠ / مقدمة ديوانه ص ٢ - ١٦

(٣) وقيد : شديد المرض

شعراء المصراع أمثال الشاغوري الذي نظم قصيدة التزم في كل كلمة منها حرف السين :^(١)

اسْقَى الخَنْدَرِيسَ سُبَيْ عَرُوساً بِسَنَاها السَّاقِي يَسْرُ النُّفُوسَا
سَقَّتْ بِالسَّاقِ سَاقِيًا وَبَسَّنَا نَكَ لِلْحُسْرَةِ الأَسْوَدُ الشُّوسَنَا
حَسَبْنَا حَسُونَا السُّلَافَ شَمُوساً بِكُتُوسٍ يَحْسَبُنَ حُسْنًا شَمُوسَا^(٢)

ويبدو على مثل هذه القصائد وأشباهاها أنها لا تُعبر عما يجيش في نفس صاحبها من أحاسيس بل ربما كانت متكلفة مصطنعة بعيدة عن الشعر الأصيل .

أما الأوزان الشعرية في هذا المصراع ، فإنها بحور الخليل ، ولكن بعض الشعراء كانوا يغمرون قليلاً في الأوزان ، ويتصرفون فيها ويوزعونها توزيعاً يشبه الموشحات^(٣) وظهر لذلك ما يسميه الدكتور محمد التونجي بالأبحر السبعة المستحدثة وعلى : السلسلة والدوبيت والقوما والموشح والنزج وكان كان والموالي^(٤) .

بحر السلسلة :

وقد عرض له الدكتور إبراهيم أنيس وقال عنه انه وزن غريب حقاً ، وأنه في الأغلب نظم ينطوي به نطقاً عامياً ، ورفض أن يتعرض لوزنه ممللاً ذلك بقوله : " ويجب ألا تعرض لوزنه بالبحث والتحليل إلا حين يشيع شيوعاً كافياً لتستريح إليه الأذان " ثم قال : " وأجدر بوزن السلسلة أن يضم إلى تلك البحور المهملة التي حدثونا عنها " .

أما الدكتور التونجي فذكر أن وزنه ، فعلن فعلاتن متفعلن فعلاتن ومثاله قول الشاعر حمزة بن علي :

عدل تأمن يبقى لك الخليط إذا بان اللهم فؤادا وللمدافع أجفان^(٦)

(١) فيتان الشاغوري : أبو محمد فتیان بن علي الأسدي ولد سنة ٥٣٠ هـ في بانياس وعاش في حي الشاغور بدمشق عمل مسلماً وكان صاحب حلقة للتدريس في جامع دمشق الكبير وكان يقرئ النحو وتوفي سنة ٦١٥ هـ / مقدمة ديوانه ص ٥

(٢) ديوان الشاغوري ص ٢٢٨ (٣) حول الأدب السلجوقي ص ٢٤٩

(٤) حول الأدب السلجوقي ص ٢٥٠ وموسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ص ٢٠٩-٢٤٥

(٥) موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ص ٢١٨ - ٢١٩

(٦) حول الأدب السلجوقي ص ٢٥٠

وأما الدوبيت فلفظ فارسي معناه البيتان ، وهو قالب شعري ظهر في الشرق مثل ظهور الموشح في الأندلس . واتفق على هذا التصريف الدكتوران إبراهيم أنيس (١) وكامل الشيبني . ويكمل الدكتور الشيبني شرح معناه فيقول : " والدوبيت أو الرباعية وحدة شعرية ذات أربعة مصارح يُراعى في الأول والثالث والرابع معها على الأقل قافية واحدة ، وكان كل رباعية منها عن فنٍ مستثنى على شكل قصيدة مصغرة " ووزنه كما يورد في المصنفات الفارسية على :

مفعولٌ مفاعيلٌ مفاعيلٌ مفاع (أربع مرات)

وكما يورد في المصنفات العربية على :

فَعْلُنْ مَفَاعِلُنْ مَفْعُولُنْ فَعْلُنْ (أربع مرات) (٢)

ويذكر الدكتور الشيبني أن الفرس قد أخذوا المصطلح العربي والمربأخذوا المصطلح الفارسي .

ويعتقد الدكتور الشيبني كذلك أن الصماد الأصفهاني آخر الشعراء الذين استعملوا التسمية العربية وبعد هـ أو في حياته بدأت التسمية العربية الجديدة الدوبيت بوصفها المصطلح الدال عليه وقال : " ويبدو أن أول من استعملها أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه المنتظم " .

وأما القوي فقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن وزنه " مستفعلن فعلان " وأنه شاع بين البغداديين في الدولة العباسية ، وذكر أن رجلاً يدعى أثا نقطة عو الذي اخترعه للخليفة الناصر في أواخر القرن السادس الهجري ، وأن الخليفة كان يطرب له ، وعين مات أبو نقطة أراد غلام له أن يعرب الخليفة بموته ، فجمع بعض الفنانين ووقف معهم خارج القصر في الليلة الأولى من رمضان وأخذ يخنى بصوت رخيم طرب له الخليفة ثم كان أن اختتم الفناء بقوله :

(١) موسيقى الشعر ٢١٦ ديوان الدوبيت لكامل الشيبني ص ١٧

(٢) ديوان الدوبيت ص ١٨

(٣) ديوان الدوبيت ص ١٨ (٤) المرجع نفسه ص ٥٧

(٥) المرجع نفسه ص ٥٦ وقد تعرض لشرح الرباعيات كذلك الدكتور سلام في كتابه " الأدب في عصر صلاح الدين " ص ٣١٩ والدكتور عمر موسى باشا في كتابه " الأدب في بلاد الشام " ص ٥٧٤

يَا سَيِّدَ السَّادَاتِ لَكَ بِالْكَرَمِ عَادَاتُ
أَنَا ابْنُ أَبِي النُّقْطَةِ تَعْبِثُ أَبِي قَدُ مَسَاتُ

ويقال أنه سمى بذلك لأن قائله كان يقول : " قوما نسحر قوما " . (١)

وأما الموشحات : فأختلف في أصلها ونشأتها . ويقول الدكتور عمر موسى باشا في ذلك :

" فيذهب البعض إلى أن أصل الموشح أندلسي محلي ، ويذهب البعض الآخر إلى أنه جليقي ، ويذهب نفر ثالث إلى أن أصله البعيد روماني ، بل قال بعضهم : " إن الموشحات أتت الأندلس من بغداد وأن أصلها يلتمس في الرباعيات العربية الفارسية " .

وقد جعل الصفدي الموشحات أندلسية فقال : الموشح فن تفرد به أهل المغرب ، وامتازوا به على أهل المشرق ، وتوسعوا في فنونه ، وأكثروا من أنواعه وضروبه . وقال في أول من نظم فيه : " وقيل : إن أول من نظم الموشحات بالمغرب الإمام أحمد بن عبدربه صاحب العقد الفريد . وينقل عن ابن بسام قوله : " أول من صنع أوزان بهذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريقها - فيما يلخني - محمد بن محمود القزويني الضريمر " . وعرف الصفدي الموشح بقوله : " كلام منظوم على قد مخصوص بقواف مختلفة " ، وقد عقد فصلاً عدد فيه أسماء أصحاب الموشحات في المغرب ومصر والشام ، ومن ذكرهم في الأندلس ونظم كثير : ابن حمديس ، وابن الزقاق ، وابن أبي الرجاء ، وذو الوزارتين ابن عمار .

وفي مصر : القاضي السيد هبة الله بن سناء الملك وقال في مديحه : " وهو حامل راية هذه الصناعة والناس عليه فيها عيال " . وفي الشام : السراج عمر بن مسعود الكفاني والشيخ صدر الدين محمد بن الوكيل .

وقد عقد الدكتور عمر موسى باشا فصلاً للموشحات ، وقسمها لأقسام منها : الموشحات المشرقية والموشحات الصوفية ، وموشحات ابن عربي وخصص فصلاً للموشحات الشامية وآخر للموشحات الغزلية والمدحية .

(١) موسيقى الشعر ص ٢١٤ والادب في عصر صلاح الدين ص ٢٢٦

(٢) الادب في بلاد الشام ص ٥٢٦ وقريب من هذا ما ذكره الدكتور إبراهيم أنيس في

موسيقى الشعر ص ٢١٩ (٣) توشيح التوشيح - الصفدي ص ٢٠

(٤) توشيح التوشيح ص ٢٠ (٥) المرجع نفسه ص ٢١

(٦) المرجع نفسه ص ٢٢/٢١ (٧) الادب في بلاد الشام ص ٥٦١/٥٤٦



(١)

أما الزجل : ففن انتقل من مغرب العالم الإسلامي الى مشرقه * ويقول الدكتور عمر موسى باشا فيه : * ظهر الزجل بعد الموشح على الأرجح في أواخر القرن الرابع الهجري وتطور على أيدي زجالين مشهورين * ولعل أبرز من أسهم في تخليص الزجل من التوشيح في القرن الخامس الهجري الزجال المشهورين أخطل بن نماره * حتى إذا جاء القرن السادس بلغ الزجل عصره الذهبي على يد أبي بكر بن قزمان شيخ الصناعة * وقد عاش في النصف الأول من هذا القرن في عهد دولة المرابطين *

وقد فرق الدكتور عمر موسى باشا بين الموشح والزجل ناقلاً عن صفى الدين الحلبي فقال : * كل ما أعرب موشح وكل ما خلا من الأعراب زجل * ويتفق معه في كل ما سبق إيراده الدكتور إبراهيم أنيس *

أما النكان وكان : فهو فن أحدثه البغداديون وسمى بهذا الاسم لأنهم كانوا ينظمون به الحكايات والخرافات حتى ظهر ابن الجوزي (م ٥٩٧) وشمس الدين الكوفي فنظما فيه المواعظ والحكم * ولا يراعى فيه روى مخصص بل لكل شعر روى بعينه * ولا يتفيد بشروط وتقيود القافية *

(٨)

وأما المواليا : فهو فن مشرقى ظهر بين الطبقات الشعبية * وقد أورد الدكتور إبراهيم أنيس أن سبب نشأة هذا الفن ما حدث بعد نكبة البرامكة من منيع الرشيد للشعراء أن يرثوهم شعراً فجعلت إحدى جوارهم ترثيهم بهذا الشعر وتقول : يامواليا وقد شك الدكتور أنيس في هذه الرواية واعتقد أن ظهوره جاء في وقت متأخر ربما تكون في القرن السادس أو السابع *

وذكر الدكتور عمر موسى باشا أوزانه ناقلاً عن الحلبي فقال : المعروف أن هذا الفن كان في بدئه مفعلاً وله وزن واحد * وأربع قوافٍ على روى واحد * وقد اقتطع

-
- (١) المرجع نفسه ص ٥٦٤ (٢) خطأ شائع وليس لهذا الفصل وجود في اللغة
 (٣) الادب في بلاد الشام ص ٥٦٢ / ٥٦٤
 (٤) المرجع نفسه ص ٥٦٦ (٥) موسيقى الشعر ص ٢٢٢ وما بعد
 (٦) الادب في عصر صلاح الدين ص ٢٢٣ (٧) موسيقى الشعر ص ٢١٢
 (٨) الادب في بلاد الشام ص ٥٧٩ (٩) موسيقى الشعر ص ٢١٠
 (١٠) المرجع نفسه ص ٢١١

النواسطيون من بحر البسيط وجعلوه بيتين ٥ وقفوا شطركل بيت منها وسما الأرميسة صوتاً واستخدموه في النزل والمدح والهجاء .

وقد تميز شعر هذه الفترة بشكل عام بالإضافة إلى البديع والتلاعب اللفظي بكثرة ورود التورية فيه والتشبيه والاستعارة والكناية إلى جانب الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف وتضمين الشعر والمصطلحات العلمية والمنطقية والفلسفية والنحوية والعروضية والصرفية والفقهية .

وامتاز كذلك بكثرة ورود الألفاظ الفارسية فيه ٥ وامتاز شعر الجهاد بإيراد الألفاظ المسيحية كالثالوث المقدس وروبية عيسى وعلمه ومقتله - حسب زعمهم - وعهد - احتضان النصارى وأسماء القادة الصليبيين وألقابهم وبعض أديانهم كالتأقوس إلى غير ذلك .

الفصل الثاني

شعر العماد بين ناقديه

بدأ العماد نظم الشعر في شبابه أو في بداية سن الشباب ، ولم يحفظ لنا
العماد في كتبه من قصائده الأول إلا عدّة أبيات ومقطوعات قليلة قصيرة ، ومنها تلك
القصيدة التي امتدح بها جمال الدين وزير الموصل سنة ٥٤٢ هـ حين زارها لأول مرة
قادماً من بغداد والتي أولها :

أُظُنُّهُمْ وَقَدْ عَزَمُوا ارْتِحَالاً تَنَوُّا عَنَّا جَمَالاً لَا حَمَّالاً
سَرَوْا وَالصَّبِيحُ مَبِيضُ الْخَوَاشِي فَلَمَّا حَانَ عَهْدُ الْوَصْلِ حَالاً

ويقول محققاً : وذلك من أول نظمي (١) .

ويبدو مما كتبه في الخريدة أنه نظم الشعر في بغداد ، وله بيتان من قصيدة
في وصفها يقول في مقدمتها : " ولي قصيدة في وصف بغداد نظمتها في السبعا
وزادت على معنى الفرّى "

تَسْبِيحٌ فِي دَوْلَةٍ يَغْزُلَانَهُمَا سِبَاحَةُ الْحَيْتَانِ فِي الْبَحْرِ
مَا مَازَهَا لِلطَّفِّ مِنْ مَائِهِمَا سِوَى سِرَادِ اللَّحْظِ وَالشَّمْرِ (٢)

ومنذ تلك الفترة إلى يوم وفاة العماد ظل ينظم الشعر مادحاً وواصفاً وراثياً ،
ويقوله في الاستعطاف والحنين والشوق ، ويصف فيه المعارك السياسية والحربية ، وقد
ترك لنا ديواناً ضخماً فقد مع ما فقد من كتبه ، وإن كان قد حفظ لنا في الخريدة بعض
القصائد أو أجزاء منها ، وحفظت لنا كتب التاريخ والتراجم أجزاء أخرى ، ولكن الباقي
إذا ما قيس بالسك المفقود لا يعادل منه إلا شيئاً يسيراً . وقد ترك لنا بعض النقاد
آراءهم في شعره واختلفوا فيه اختلافاً بيناً ، ففرق بين شعره جيداً ويفضله على شعره ،
وفرّق آخر يجعله متوسطاً ، وفرّق ثالث يرى أنه يميل إلى الضعف ويفضل نثره عليه .

ومن الذين امتدحوه وأعجبوا بشعره : المتدرى الذي يقول : " وكان

(١) الروضتين (جان ١٩٥٠/٢) وتاريخ دولة آل سلجوق من ١٩٢

(٢) الخريدة - قسم المغرب (ج ١٥١/٢)

جامعاً لفضائل الفقه والأدب والشعر الجيد وله اليد البيضاء في النثر والنظم (١) . وقد
أورد النعماني عبارة طويلة زعم أنه نقلها عن المنذري جاء فيها ثناءً عظيمًا على العماد وشعره
حيث قال : " هو إمام البلقاء وشمس الشعراء وقطب رحي الفضلاء فاق الأوائيل
طرّاً نظماً ونشراً " (٢) وهذه العبارة غير موجودة في النسخة المطبوعة .

وقال أبو الفداء : " له النظم البديع " وقال ابن الساعي : " جيد النظم
كثير القول له يرسل المليح والكتابة البليغة دون شعره " (٣) وقال الصفدي - مفضلاً
شعره على نثره وصحلاً سبب هذا التفصيل - : " ولعمري لقد كان ذا قدرة على النظم ،
والنثر أكثر منه ، وأرى أن شعره ألطف من نثره ، لأنه أكثر من الجناس وبالغ فيه حتى يعود
كلامه كأنه ضرب من الترقى والمزاييم ، وإنما لطف نظمه بالنسبة إلى نثره لأن الوزن كان
يضايقه فلا يدعه يتمكن من الجناس ، وقد عاب الناصب - ممن له ذوق وفطره سليمة - كثرة
التجنيس لأنه دليل التكلف " (٤) وبه قال الدكتور أحمد لأحمد بدوي ونقل هذا الرأي آخذاً
به وقال : " ولنختم الحديث عن العماد بحكم خليل بن أبيك الصفدي عليه ، لأنه يوافق
رأينا إلى مدى بعيد " ثم ذكر كلام الصفدي السابق وأورد الأمثلة التي سجلها في
الوافي ثم ختم كلامه قائلاً : " والعماد في شعره أجود منه في نثره حقاً وإن كان يلتمس في
كليهما الحسنات والزخارف " (٥)

وامتدح محمد سيد كيلاني شعره وطول نفسه في قصائده فقال : " ولم يصل
إينا من شعره سوى قصائد قليلة وشعره جيد ، وتفحص في النظم طويل ، فبعض قصائده
تربو على الباقين " (٦)

وهذا الرأي أخذ الشيخ عباس القمي صاحب كتاب " الكنى والألقاب " وقصلاً
شعره على نثره . وكذلك الدكتور رمضان ششن في تقديمه لسنا البرق الشامي آخذاً
برأي الصفدي . (٧)

- (١) التكملة لوفيات النقلة للمنذري (٢٨٩/٢) (٢) الدارس للنعماني (٤١٠/١)
- (٣) كتاب المختصر في أخبار البشر / أبو الفداء (٤٥/٦)
- (٤) الجامع المختصر - ابن الساعي (٦١/٩) (٥) الوافي بالوفيات ١١١/١
- (٦) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية د . أحمد لأحمد بدوي ص ٢٧١
- (٧) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي / سيد كيلاني ص ١١٠
- (٨) الكنى والألقاب - عباس القمي (ج ٢/٤٤٦)
- (٩) سنا البرق الشامي - تقديمه له (ج ١/١٤)

ويعد الأستاذُ بهجةُ الأثرى خيراً من فصل القول في تفضيله لشعر العماد ، فقد ذكر الأسباب وعللها ، فقال في مُتَرَفِّفِ حديثه عن شعر العماد بعد أن ذكر رأى الصفيدي السابق :

” وهذا وجه واحد من الوجوه التي يمكن أن تذكر في تفضيل شعر العماد على نثره ، وليس كل ما يقال فيه ، ولعل أهم ما يبدو في ذلك من الأسباب هو جُودُهُ طبعه الشعري ، وسماحةُ تريحته ، وانسيانُهُ في مذاهب الفصاحة والرفقة والسلاسة ، وما يُؤدِّه في ذلك من رعيده السخيم من حفظ دواوين العرب وإدمانه قراءة الشعر البليغ ، وقراءته دواوين — بكاملها على أصحابها أو أبنائهم أو غيرهم من الأدباء كما يروي من قراءته على الحيسيين ديوانه وعلى ابن الأَرَجَانِي ديوان أبيه ، وعلى الأديب النطنزي أكثر شعر أبي المظفر الأموي الأبيوردِي ، وكذلك شدة اتصاله بشعراء عصره وروايته أشعارهم على نحو ما ترى من كثرة ما أودعه في خريدة القصر من كلام الشعراء الذين في فارس والعراق والحجاز والشام ومصر وعلى أشياء واضحة عند العماد فيما يبدو من طول نفسه في قصائده ، واتساعه في أفكاره وعباراته — في غير اجتلاب ولا تكلف — وانكشاف معانيه مع استواء لفته وشدة قوافيه أحياناً ، وقدرته على ارتجال الشعر المطبوع والمصنوع مع الإجابة التامة فيه ، وعسده الصنعة الأخيرة يندر حصولها عند الشعراء ، لأن الإرتجال فورة من فورات الطبيعة واختساب الألفاظ لا تتأتى معه المجانسة والتنوُّق والاجتلاب ، وقد اشتهر من أمثله البارعة ما تهيناً له وهو يساير القاضي الفاضل في موكب حاشدٍ كثرت فرسانه وأثبات سنابك خيله من الخبار ما سدَّ الفضا ، وأثار دهشة القاضي الفاضل منه فقال العماد فوراً مرتجلاً :

أَمَا الْخُبَارُ ، فَإِنَّهُ مِمَّا أَثَارَتْهُ السَّنَابِكُ
وَالجَوْنَةُ مَطْلِبُهُمْ لَكِنْ أَنْسَارُ بِهِ السَّنَابِكُ
يَادْهُرُ لِي عَيْدُ الرَّحَى مِمَّا فَلَسْتُ أَخْشَى مَرَّ نَابِكِ (٢)

- (١) راجع رأينا في هذه الأستاذية في شيخ العماد في الباب الأول .
(٢) معجم الأدباء (١٨/١٦) والوافي بالوفيات : ١٣٨/١ والنجم الزائرة ١٧٨/٦ وشذرات الذئب (٢٢٢/٤) والسنايك الأولى : سنابك الخيل والثانية السنايك أي نورك والثالثة من من اللمر والنس والناب أي ناب الحيوان المفترس .

وامتدح الأستاذ الأثرى كذلك وقتَه وسلاسة شعره واتساع عباراته وامتداد نفسه ،
وشبّهه بمهيار الديلمي ، وأثنى على خياله الواسع ، وتصرفه في الأغراض المختلفة وجمال
غزله ورقته ، وأعجب بمراثيه للعظام من أبناء عصره ، وأشاد بقصائده الجهادية الرائعة ،
واختتم حديثه قائلاً : " ولو نشر ديوانه العظيم لألقى أضواء جديدة على شاعريته ،
وأبان لنا فضلَه في تخليد كبريات حوادث عصره في شعره كما خلدها في نثره ، وأطلتنا
على ما غاب عنا من الصور التي رسمها لها الآفاق التي سبج فيها خياله أو طافت حولها
أفكاره " (١) .

وامتدح أبو شامة في الروصتين شعره في نور الدين خاصة ، وجعله أفضل
الشعراء بعد وفاة ابن منور والقيسراني وابن الدهان الموصلي فقال مثلياً على شعره في
نور الدين :

" وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً " (٢)

وأثنى ابن خلكان وابن كثير على العماد لطول نفسه في قصائده فقروا أن ~~نفسه~~
نفسه في قصائده طويل " وأعجب باتوت بقصيدة العماد التي نظمها في الشوق التي
دمشق ثم مدح بها صلاح الدين بعد ذلك والتي مطلعها :

أَجِيرَانِ بَجِيرُونَ مَالِي مَجِيرٍ سِوَى عَدْلِكُمْ فَاعْدِلُوا أَوْ فَجُرُوا

وقال في تعليقه عليها بعد أن ذكر الكثير من أبياتها " وقد أطلنا نفسه في
عذبة القصيدة وكلها فخر ، وقد اكتفينا بما أوردناه منها " .

وحكم الدكتور محمد كرد علي بأن شعر العماد في درجة أرقى من الوسط ،
وجعل شهرته الفارقة تعود إلى وظيفته ومنزلته في الدولة فقال : " وما قيل في نثره يقال
في شعره ، فإنه يكثر فيه الجناس أيضاً حتى يفقد سلاسته ، ولنا أن نقول :
" إنه شاعر أرقى من الوسط وتأثر كذلك هيئات له الأيام شهرة طالما تخطت من بدوه وما

(١) تقديم الأثرى للقسم العراقي في الحريدة ج ١ / ص ٦٦

(٢) الروصتين ، أبو شامة ج ١ / ١٥١ (النيل)

(٣) وثبات الأيمان (٢٢٥/٤) البداية والنهاية ج ١٢

(٤) معجم الأدباء (١٦١/١٢ - ١٨)

ساواهم في أدبهم وأخلاقهم (١)

ومن الذين يعدون شعر العماد متوسط الجودة الدكتور محمد زفلول سلم الذي قال في معرض ترجمته له : " وشعر العماد متوسط لا يبلغ حدّ الجودة ، وإن كان بعض معاصريه معجب به " .

ومن الذين لم يعجبوا بشعر العماد الأستاذ محمد راتب الطباخ صاحب "أعلام النبلاء" الذي نقل كلام صاحب الروعيتين السابق الذكر ، ثم علق عليه قائلاً : أقول : السواد الكاتب ليس من الشعراء الجيدين ونثره خير من نظمه .

ومعهم كذلك الأستاذ مظفر سلطان الذي عقد فصلاً في كتابه لدراسة شعر العماد وقد أعجب بشعره في وصف البلاد وخاصة دمشق وخطبتها وقصائده الجهادية ولكنه عاد مرة ثانية ليرى في هذا الشعر وسيلة لتحقيق الأهداف والمصالح الذويّة ، وبذلك يكون شعره فاقداً للإحسان والمحافظة ، قال : " وهو قد عالج القريض ونظم الشعر في كل مناسبة عارضة وبعد كل حادث جليل ، وقد رأينا كيف أنه كان يهتزع إلى القوافي يستعين بها في الدخول إلى العظماة والأمراء والسلطين ليعمل بخدمتهم ويسير فسي ركابهم مادحاً راثياً واصفاً مدافعاً ، مداعياً ، مستميحاً ثائراً ، ولكن أشعاره هذه كانت وسيلة أكثر منها غاية أعني أنه كان ينظمها في المناسبات تمهيداً لنثره وترويحاً وتمزيقاً لمنزلته وتحكياً ، فقد كان يطمح إلى منزلة المنشئ أكثر من طموحه إلى مرتبة المشاعر المداح أو لمله كان يحس في قرارة نفسه أن ياعة في النثر أطول منه في الشعر ، أو أن حاجة القوم إلى النثر أكثر من حاجتهم إلى الشعر .

وقد علق على قصيدة العماد التي أولها : -

أذركت من أمر الزمان المشتهى ولأنت من نيل الأمانى المنتهى (٢)

(١) كنوز الأجداد د . محمد كود على ص ٣١٧

(٢) خطأ شائع وتصحيحه الصيريين

(٣) الأدب في عصر صلاح الدين ص ٢٥٢

(٤) أعلام النبلاء - الطباخ (١/٢) ٥١/٢

(٥) السواد الأصهباني - مظفر سلطان ص ١٤٧

(٦) الروعيتين ج ١ ص ٣٨١/٢

قال : " ولعلك ترى معنا أن مديح العماد هي أكثر أبيات هذه القصيدة تقليدًا بليسيدي
خامد لشعر النقاد حين الذين تقدموه وسبقوه وتركوه في الضباب يمدو ويطلع ويلهث .
(١)

واتهمه بالسرقة وأخذ أشعار الأوائل وصوغها بالفاظه فقال : " وليست المسألة
مسألة بيت واحد أو معنى فرد ولكن العماد فيما يبدو شديد الدالة على الشعراء حسن
الظن بأريحيتهم فهو يقتبس ويقترض أو يستعير منهم ما يشاء كيف يشاء .
(٢)

ونقول إن الحكم على شعر الشاعر لا بد أن تسبقه الدراسة الواعية ، وأن يكون
لدى الناقد ذوق أدبي وحسن شعري . وقد اختلف القديما والمحدثون في تعريف الذوق
والذي يهمنا من غذا كله أن نقول ما قاله الدكتور عبد المنعم خفاجي :

" باختلاف الذوق تختلف أحكام النقد اختلافاً كبيراً " فالقارئ في كثير من الأحيان يجسد
الآراء مختلفة حول القصيدة الواحدة ويجد المادح الممجب والذام المسقط ، ولا أدل على
ذلك من الأمثلة التي ذكرها الدكتور عبد المنعم خفاجي حول اختلاف النقاد في نقدهم
لشوقي وحافظ في العصر الحديث ، فكيف يكون الحكم على اشعر القديم بذوق العصر
الحديث ، إن الناقد الحديث عليه أن يحكم بأنه واق العصر الذي يدرسه ، وعلى الأسس
النقدية التي كانت سائدة في ذلك الزمن بالإضافة إلى وجوب التزام النزاهة وعدم التحيز
للمذهب أو العنصرية ، نقول هذا لأننا سبق أن ذكرنا أن الأستاذ مظفر سلطان قد
أصدر الكثير من أحكامه على صفات العماد وشعره ونشره بهذا المنظار ، وقارئ رسالته
يتخيل أن بين الرجلين عداً مستحكماً لم تستطع للقرون الثمانية التي فصلت بين حياتيهما
أن تزيله .

لقد أحسن الأستاذ الأثرى في نقده لشعر العماد ، ولعله بالغ في الإطراء ،
لأن لكل شاعر عيوباً وحيثاتٍ . أما أن العماد كان شاعراً مبدعاً فهذا ما وجدناه في
كثير من شعره ، وأما أن له أشعاراً تتدنى عن ما بقىها ، فهذا أمر لا نشك فيه ، ولكننا

(١) العماد الاصفهاني - مظفر سلطان ١٥٤

(٢) المرجع نفسه ١٥٥

(٣) دراسات في النقد الادبي د . خفاجي ص ٤١

(٤) المرجع نفسه ص ٤٣

عزيمه

نود أن نشر مسألة نرى أنها هامة فملك على : هل كان العماد - في نظمه لهذا الشعر
الكثير - ينظمه عن إحساس و عاطفة أم كان ينظمه بلا شعور ، بل كان عمه و غايته القصوى
استرضاء الممدوح ليزيد في الأجر والشوية ؟ ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول : إن شعر العماد ينقسم إلى أغراض عديدة
أعصها ما قاله مادحاً أو مجاعداً أو واصفاً .

أما مدحه : فقد مدح الخلفاء والوزراء في بغداد ومدح نور الدين وصلاح
الدين ووصف معاركها مع الصليبيين وكذلك بعض الأمراء في الشام ، ومدح القاضي الفاضل
وغیره من القادة والوزراء ، والذي نميل إليه ميلاً كبيراً هو أن شعر العماد في المدح
والجهاد كان ينبع في معظم حالاته من إعجاب شديد بالممدوح خاصة الخلفاء المباسيين
الذين ظل يعملن ولاه و حبه لهم إلى آخر يوم في حياته ، وهو إعجاب ديني ، وكذلك
كان إعجابه بنور الدين وصلاح الدين إعجاب المسلم بالقائد المنتصر فضلاً عن إعجابه
بقيادة الجهاد مع الصليبيين من أمثال تقي الدين عمر وشاهنشاه وغيرهما . ومن غنا
نستطيع القول : إن شعر العماد في المدح والجهاد كان نابهاً من عاطفة عميقة
وإعجاب عظيم بالممدوح ، ولعلوا إن كان يرغب في العطاء فقد كان الإعجاب هو الدافع له
على قول الشعر والأمثلة التي تثبت هذا الكلام كثيرة :

ومن ذلك ما ذكره العماد عن مجلس لنور الدين وحديث حاضره عن طيب دمشق
وحسن آلائها ، ورقة هوائها ، فقال نور الدين : أنا حبُّ الجهاد يسليني عنها ، فما
أرغب فيها .
وعندئذ ارتجل العماد بولسه :

لِيُرْفَى الدُّنْيَا جَمِيعًا بِلُدَّةٍ مِثْلَ دِمَشْقِ
وَيَسْلِينِي عَنْهَا فِي مَسْبِلِ اللَّهِ عَشِيقِي
والتَّقَى الْأَعْمَلِ مَنْ يَسْتَدِرُّكُمْ بِشَقِيٍّ وَشَقِيٍّ

(١) في الخريدة : بداية قسم شعراء الشام : والتقى الأعلم ومن يتوكلها
وهو لا يعطى المعنى المناسب .

كَمْ شَيْبِي شَافِلٌ عَنْهُ —————
 وَأَمْسَى الْبَيْضُ يُغْنِي
 عَنْهُمْ الْغَزْرُ شَيْبِي —————
 عَنْهُ بِالْأَقْلَامِ مَشَيْبِي (١)

فالأبيات جميلة ولا تصدر إلا عن إيمان عيق بالجهاد .

ومناك قصيدة أبدع وأروع وهي تلك القصيدة التي ارتجلها العماد ، حين كان ركباً مع نور الدين ينظران إلى سوية للمسلمين ، وقد عادت من هجوم على طبرية فلحقها الإفرنج قرب مخاضة على نهر الأردن فطلب نور الدين من العماد ، أن يصف ما جرى فقال مرتجلاً :

عَدَّتْ بِنَصْرِكَ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَدَثَّ لِمَصْرِكَ آيَةَ الْإِحْسَانِ
 يَا غَالِبَ الْقَلْبِ الْمَلُوكِ وَعَائِدَ الْقَيْدِ اللَّيْثِ وَقَارِمَ الْفُرْسَانِ
 يَا سَالِبَ التَّيْجَانِ مِنْ أُرْبَانِهَا حُزَّتْ الْفَخَارُ عَلَى ذَوِي التَّيْجَانِ

ومنها :

أَصْبَحْتَ لِلْإِسْلَامِ رُتْنَا ثَابِتًا وَالْكَفْرُ مِنْكَ مَنصُوعُ الْأَرْكَانِ (٢)
 قَوَّضْتَ آسَارَ التَّمَلُّلِ بِعَزْمِكَ الْوَالِدِ سَاعِيٍّ وَشِدَّتْ مَبَانِي الْإِيمَانِ

ويقول أبو شامة معلقاً عليها : وهي قصيدة طويلة ، وصف فيها أمراء الحاضري الجهاد معه ومعهم .

لقد كان العماد سريع البديهة ، تطاوعه الألفاظ وتسيل على لسانه ، طويل النفس لمآح الخاطر ، ولذلك كان شعره جيداً ، بل لقد بلغت بعض قصائده في الرثاء - خاصة رثاء نور وصلاح - حدَّ الروعة حتى إنها لتضاهي أشعار الأوائل الذين حازوا قصب السبق ، ولكننا نجد في بعض أشعاره تصنعاً متكلفاً ، ونعتقد أن ذلك لا يحدث إلا حين يمدح بشعر عاطفة .

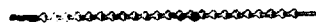
أما قصائده في الوصف والتشوق والحنين فالإحساس والشعور فيها واضح بليغ ومن الذي يصف شيئاً لا يحجبه أو يشوره ؟ ومن الذي يتشوق إلى بلد أو شخص يشعر

(١) الروضتين (ج ١/٢ - ٥٢٧ - ٥٢٨) وبداية قسم شعراء الشام ص ١٧ - ١٨
 (٢) الروضتين (ج ١/٢ - ٥٢٦) والخريدة - قسم الشام بداية قسم الشام ص ٥٤/٥٩
 (٣) الروضتين ج ١ ص ٥٢٦/٢

بكراعيته أو فكره ، ولذا كانت أشعاره في هذه الأغراض جيدة جميلة .

ولكن الجناس والطباق والبديع عامة أثرت على شعر العماد لدى الذين لا يحسون بجمالها في موقعها مما جعلهم يشعرون بالملل إزاءها والزهد منها في بعض الأحيان ، على أنها في شعره - كما قال السفدي وغيره - أخف من نثره .

ولقد لاحظنا أن شعر العماد قلَّ بعد وفاة السلطان ، ولمن ذلك يؤكد قولنا السابق بقوة الإحساس وعمقه في شعر العماد ، فب وفاة السلطان انعدم الدافع حيث توقف الجهاد ، وضعفت السلطة ، واختفت الشخصية التي تبعث الإعجاب في نفس الشاعر لتسيل الألفاظ من فيه وتتدفق الكلمات على لسانه ، ونحسَّ شاعريته قوية مندفعة ، وربما اعترض معترض بقوله : من أين عرفنا قلة شعره في الفترة الأخيرة من حياته ، ود يوانسه مفقود ؟ ونقول : ربما كان الاعتراض صحيحاً ، ولكن حكماً بنى على ما وجدناه في الروضتين ومفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات وغيرها من كتب التراجم والتاريخ ، إذ لو وجدت له أشعار نظمها في الفترة الأخيرة لسجلتها هذه الكتب ، وأبو شامة في الروضتين سجل له منظومات قليلة في مدح السادل وولده الكامل ، وابن واصل سجل له بيتين فقط في نجاء عز الدين أسامة صاحب قلعة بيروت - الذي تركها فريسة للإفرنج سنة ٥٩٤ هـ ، فإذا ما وازنا ذلك بما سجلناه له من تصائد شيرة بل وطويلة في كثير من الأحيان اعتطمنا أن نؤكد أن العماد فقد الدافع بعد وفاة السلطان ، وعدم عمق الإحساس بالتالي فقل شعره فضلاً عن أنه لجأ إلى التأليف التاريخي في الفترة الأخيرة من حياته مما شغله عن نظم الشعر والإكثار فيه .



مدح العماد أربعة من الخلفاء العباسيين أولهم المقتدى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ
 وثانيهم المستنجد بالله المتوفى سنة ٥٦٦ هـ وثالثهم المستنصر المتوفى سنة ٥٧٥ هـ والناصر
 لدين الله المتوفى سنة ٦٢٢ هـ وقد توفى العماد في عهده هـ وإن كانت أشعاره في الأخير
 أقل ما قيل في هؤلاء الخلفاء .

وقد ترجم العماد لثلاثة الأول في الخريدة هـ كما ترجم لخمسة آخرين وأمير
 عباسي هـ فذكر أشعارهم التي سمعها أو نقلها . كما أورد بعضاً من قصائده التي نظمها
 فيهم أثناء وجوده في العراق والبصرة والشام .

يقول العماد في ترجمته للمقتدى : وكان وصولي إلى بغداد في الأيام المقتضية هـ
 وفي ظلها المنشأ وفي فضلها المرير هـ وفي جوارها حصل الأمن هـ ووصل المن (١) .

وأول قصيدة مدحه بها كانت في سنة ٥٥٢ من الهجرة هـ عقيب انكشاف كربة
 الحصار ورحيل محمد شاه عن بغداد هـ ومطالعها :

أَضَحَّتْ نُجُورُ النَّصْرِ تَبَسُّمٌ بِالظَّفَرِ هـ وَغَدَّتْ خِيُولُ النَّصْرِ وَاضِحَةَ الشُّرْرِ هـ

ولم يورد العماد القصيدة كلها هـ ولكنه اختار أجزاء منها هـ وما أورد منها يتضمن
 أفكاراً عديدة بعضها في مدحها والثناء العطر على أصله وحسبه ونسبه هـ وفي الإشادة
 بصفاته وجميل سلوكه هـ وحسن سيرته وسيرته هـ ورفعه إلى منزلة لا تطاولها ولا تعلوها
 سوى منزلة النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام . يقول مثنياً ومبالغاً أحياناً :

يا ابن السراة ذوى العلا من هاشم	والأكرمين أولى المناقب من منبر
مقلدى الذكر المنزل فيهم	إن نازلوا بدلاً عن المنصب الذكر (٧)
أنت ابن عم الصطفى وسببه	أبشر فانك بسده خير البشر
ومن راحتك المزن في المحل اجتدى	والل سنك البدر في الليل افتقر (٤)

(١) الخريدة - القسم العراقي ج (١) ٢

(٢) أبو محمد بن محمود بن ملكشاه حاكم بغداد سنة ٥٥٦ هـ وفشل في ذلك وتفصيل

الخبر في تاريخ دولة آل سلجوق ١١٦ - ١١٦

(٣) المنصب : القطع ويعنى الحسام القاطع

(٤) المزن : السحاب

ويقول مبالغاً :

لَوْ كُنْتُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ لَأَنْزَلْتُ فِي هَذِهِ السَّيْرِ الَّتِي لَكُمْ مُسَوِّراً

ويصف فيها ركوبه فرسه وخروجه للناس بوجه مشرق كالشمس تحجب البصر والرؤية إذا نُظِرَ إليها ولا ينبغي أن يجعله مباركاً لأن جده هو المباس الذي استسقى به عمر بن الخطاب في عام الجذب . فقال :

وَبَرَزْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ تَشْرِيقِي لِلسُّورِي وَسَنَّاكَ يَحْجُبُ عَنْكَ نَاطِرٌ مَنْ نَظَرَ
فِي سَيِّئَةٍ مَعْطُورَةٍ لِلَّهِ مِنْ أَنْسَوَارِهِ سُبْحَانَهُ فِيمَا فَطَّرَ
بَيْسَاءٍ يُسْتَسْقَى بِهَا صَوْبُ الْحَيَا وَيَأْخُذُ بِهَا إِذَا أُجْدِبُوا - اسْتَسْقَى عُمَرُ
وَكَأَنَّهَا تِلْكَ الْمِظْلَةُ هَالِكَةٌ وَجْهَ الْأَسْمَاءِ يُضِيءُ فِيهَا كَالْقَمَرِ (١)

ومدحه بقصيدة ثانية أورد بعضها في الخريدة ، ولم يخرج فيها عن ذكر الصفات الأولى ، إلا أنه بدأها متعزلاً وأطال في ذلك وأعاد بعدله وجوده فقال :

وَلَقَدْ وَرَدَتْ فَنَاءً بِحَرِّ النَّسْدِيِّ أَعْنَى بِهِ عَنْ أَنْهَرُ وَجَبَّادِ
فِي كَهْفِ الْجُبُودِ خَمْسَةَ أَبْحُورٍ فَيَاضَةٌ ، تَسْمَى بِخَمْسِ أُنَامِ
مَدَّ وَدُ ظِلُّ الشَّدَنِ لَيْسَ بِزَائِلٍ مَحْمُودٌ وَكُنَّ الْمَلِكِ لَيْسَ بِمَائِلٍ (٢)

أما الخليفة المباسي الثاني الذي مدحه العماد ونازل عطاياه ، وحصل على رضاه فكان المستنجد بالله ، وأورد له في الخريدة أربع قصائد : اثنتين في مدح نفسه واثنتين في استعطافه حين اعتقل بعد وفاة ابن عبيدة وسوف نتركما لنعود إليهما في الحديث عن الاستعطاف .

أما القصيدة الأولى فعسادية لم يذكر العماد أولها ، وذكر أن رواية الموكسب الشريف في ديوان الخليفة أنشدها في آخر رمضان سنة ٥٥٧ هجرية ، والقصيدة في مجملها

(١) الخريدة - القسم السراقى (ج ١ ص ١٦ - ٢٧)

(٢) القصة تقول : أن عمر بن الخطاب استسقى بالمعبار بن عبد المطلب في عام الجذب

وقال : اللهم إنا كنا إذا أجدينا نتوسل إليك بنبينا ، فتمسقنا ، وإنا نتوسل

إليك بعم نبينا فاسقنا (٣) الخريدة - القسم السراقى (ج ١ ص ١٧ - ٣٨)

(٤) المصدر نفسه - القسم السراقى ج ١ ص ٤٢

صديح في الخليفة ألبسه فيها الصفات التقليدية من العدل والمهابة والحزم والشجاعة
 وانكرم الواقع ، والفضب فيما يفضب الله ، والرضا عما يرضى الله ، ولم ينس كذلك أن يشنى
 على نسبه الطاهر الشريف الذي يتصل بنسب الرسول الكرم صلوات الله وسلامه عليه .
 يقول :

لَقَدْ بَسَطَ الْإِحْسَانَ وَالْمَدَنَ فِي الْأَرْضِ
 أَفَادَ النِّيَابَا وَالْمَنَى ، قَوْلِيئُهُ
 مَهِيَّبٌ يَغْضُ الطَّرْفُ دُونَ لِقَائِيهِ
 أَفِي يَوْسُفَ الْمُسْتَجِدِّ اللَّهُ قَوْلُهُ
 أَلَا إِنَّ أَمْرَ الْيَسْرِ يُبْرَمُ بِأَسْمِهِ
 إِمَامٌ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ يَقْنِي
 عَدَاً لِلْمَنَى يَقْنِي ، وَحَاسِدُهُ يَقْنِي
 يَغْضُ حَيَاءً وَهُوَ فِي الْحَقِّ لَا يُغْضِي
 كَذَلِكَ مَكَأَ لِيَوْسُفَ فِي الْأَرْضِ (١)
 فَأَبْرَامُهُ يُقْنِي سَرِيحاً إِلَى النَّقْضِ

ويقول فيها كذلك :

إِمَامٌ لَهُ مَا يُسْخَطُ اللَّهُ مُسْخِطُهُ
 لَكَ النُّورُ مَوْعُولاً بِنُورِ مُحَمَّدٍ
 وَظِلِّكَ فِي سَرَى الْبِلَادِ وَعَرْشِيهَا
 أَمَّتْ عِبَادَ اللَّهِ أَمْنَا قَلَمٌ تَسَدُّعُ
 وَمَا غَيْرُ مَا يُرْغَى إِلَيْهِ لَهُ مُرْضُ
 أَشْأَتْ بِهِ الْأَنْصَابُ عَنْ شَرَفٍ مَحْضِ (٢)
 مَدِيدٌ عَلَى طَوْلِ الْبَسِيطَةِ وَالْعَرِضِ
 عِيُونَ الْبَسَادِ رُغْبًا تَكْحَلُ بِالْقَمْضِ

ولم ينس العناد في نهايتها أن يشيد ويفتخر بشعره الذي يجده خير شعر
 قيل في مدح الخليفة :

(١) الآية وردت في سورة يوسف مرتين : أولاهما في الآية (٢١) : وقال الذي اشتراه
 من مصر لامرأته : أكرهى هتواه : عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وكذلك مكنا
 ليوسف في الأرض والآية (٥٦) وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، يتبورا
 منها حيث يشاء ، ونصيبنا برحمتنا من تشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين .
 ويعلق الأستاذ الأثرى على إيراد هذه الآية قائلا : وهذا التساؤل من الشاعر
 لتعظيم الخليفة المدوح بنسبه ما نزل من الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم
 في يوسف الصديق اليه في غابة البرود والنفلة .

(٢) المحض : الخالص لم يخالطه غيره .

وما كُنْ شِعْرٍ مِثْلَ شِعْرِي نَيْسِكُمْ وَمَنْ ذَا يَمِيسُ الْبِأَزْلَ السُّودَ بِالنَّفْسِ (١)

وله فيه أيضاً قصيدة ميمية بدأها متغزلاً وأطال التغزل ثم انتقل بعد ذلك إلى مدح الخليفة بالأوصاف المشهورة ، وما ن إلى المبالغة ، وجعل أوصافه بالغة حتى لا يستطيع الإنسان تخيلها ، وصورة يشرف بلثم تراب موكبه لأن يده سمت عن التقبيل ، وأثنى على أعله ونسبه الكريم وذلك حيث قال :

أوصافه بالوحي نعرفهم
فصافته جعلت عن الوهم
تسمو بلثم تراب موكبه
فلقد سمت يده من اللثم
ما كنت تبصر نفع موكبه
لولا تواضعه عن السظم
النجم منزله ، ومنزله
للوحي منزل سورة النجم (٢)

وقال في بنى العباس شيئاً على كرمهم ، وحبهم لعمل الخير والمكرات ، وشجاعتهم الفائقة :

قوم يرون إذا هم اجتمعوا
تفريق ما غموا من الثمن (٣)
خفوا إلى فعل الجميل فما
يشثقلون تحمّل الفرم (٤)
حمر النصارى جلوا بيضهم
ظلمات ظلم الأزمن الدهم (٥)

ولم ينس العباد كذلك أن يشير إلى وراثتهم للخلافة ، وأحقيتهم لها وذلك بحكم

سنيته :

أرث النبوة بل خلافتهم
في يوسف المستنجد القرم (٦)

(١) البازل : الجميل في تاسع سنه وليس بعده من تسمى ، والسود : السن
النفس : يكسر النون السهزول من السير ناقة أو جملا .
والبيت الأخير في طبقات الشافعية للسبكي والشطر الثاني : ومن ذا يقيد البازل
السود بالنفس . والقصيدة في الخريدة - قسم العراق (ج ١ / ٤٢ - ٤٨)
(٢) الخريدة - قسم العراق (ج ١ / ٥١) (٣) الثمن : الثمنينة
(٤) المضم : ما يلزم أدائه
(٥) الدهم : السود والأزمن الدهم : يريد بها أزمة الشدة والقحط .
(٦) القرم : الفحل العظيم من الابل وأطلق على السيد أو الرجل العظيم
والأبيات في الخريدة - قسم العراق (ج ١ / ٥١ - ٥٢)

والمستغنى هو الخليفة الثالث الذي أكثر العباد من مدائحه ، وقد أورد في
الخريدة بعضاً منها ، وله فيه قصيدة صادية أولها :

أطاع دُمعى وعَبَّرى في الفِرامِ عَمى وَالقَلْبُ جَرَّعَ مِن كَأْسِ الهوى مُصَصَا (١)

وبعد أن أطل الغزل إنتقل إلى مدح المستغنى فجعل وجوده في هذا الزمن
يمحو الذنوب ويغسلها ، وجعل طاعته واجبة على كل الناس ، وألبسه ثياب الكرم والجلود
وجعله مصدر كل سحاب ، وأصل كل برق ، وقرر أن مادحه يعيش عزيزاً وذامه يعيش مهيناً
ذليلاً ، وهو سيد الخلفاء السابقين واللاحقين .

(٢)	لولا زمانُ الإمامِ المُستغنى نَنا	لما أمحى ذنُبَ أيامى ولا مُصَصَا
(٣)	مَنْ أَلزَمَ اللهُ كُنَّ الخَلقُ طَاعَتَهُ	مُخَوِّفاً مِنْهُ عَمياناً وَشَقَى عَمَا
(٤)	مَنْ لَا خِيارَ لولا سُحْبُهُ هَظَلتْ	ولا مَخاييلَ لولا بَرُّهُ وَبَصَا
(٥)	قَدْ عاشَ في العِزَّةِ القَعساءِ حامِدُهُ	وَماتَ جَاحِدُهُ مِن ذِلَّةِ قَعَمَا
(٦)	مَوْلَى لِرَاحَةِ أَعينِ الأَرضِ راحَتُهُ	وَكَمْ يَفْرَجُ عَنَّا الحادِثَ اللَحَمَا
(٧)	بِالْجُودِ لِلْمُتَغنى حُلُوُ الجِنى سَلِسا	بِالنَّاسِ لِلْمُعْتدى مَرُّ الأبا عَفِصَا
(٨)	يا سيدَ الخلفاءِ الأوصياءِ ، ومن	نبت المنى في روض النجاج وصى

صارية

وله فيه قصيدة فخادية نظمها بالتمام أيام الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٧٠ هـ وأولها

أَصْحُ عِيونِ العانِياتِ مَرِضُهُما وَأَفْتَكُ الحَاطِطِ الحِسانِ عَفِيفُهُما (٩)

ولم يخرج في أفكارها عما سبقها . ويبدو أن العباد كانت له طريقة واحدة ونهج ثابت
في مدح الخلفاء ، فهو يبدأ قصيدته متمزلاً ثم ينتقل إلى مدح الخليفة ، ويعددها إلى

(١) الخريدة - قسم الصران (ج ١/٦٤)

(٢) في الأصل امتحى والأعوجب امتحى (وفي القاموس امتحى قليلة)

ومحض : أخلص مما يشوبه

(٣) شق عما : مخالفة جماعة الاسلام أو تفريق الجمع

(٤) المخايل : جمع مخيلة وهي السحابة التي تحسبها ماطرة ، ووسى البرق : برق ولمع

(٥) القعساء : الثابتة ، والقعص : الموت .

(٦) اللحن : الضيق (٧) المعتنى : من يأتيك طالبا عنوك ومعروفك

الجنى : ما يجتنى من الشجر ، العفص : الذي يشخن مصارعه

(٨) وصت الأرض : اتصل نباتها - والابيات في الخريدة - القسم العراقي (ج ١/٦٧)

(٩) المضيف : الطرف الفاتر ، والقصيد في الخريدة - القسم العراقي (ج ١/٧١)

الثناء على أهله وحسبه ، وأحياناً كان ينهى القصيدة بمدح الوزير أو نور الدين أو صلاح الدين .

مدحه لوزراء الخليفة ورجال الديوان :

لقد كان الوزير أبو المظفر عَوْثُ الدين يحيى بن هبيرة أول من عرف قدر العماد وعلمه وفرقته ، وألزمه بنياية واسط ثم البصرة ، ولذا كان بدعيًا أن بمدح العماد — هذا الوزير ويشيد بأخلاقه وعلمه ، ولا عجب أن يثنى الشعراء والأدباء — كالعماد — على هذا الوزير ويشيدوا بمجامده وصدقاته وتدينه .

وقد مدحه العماد من خلال القصائد التي مدح بها الخليفة المستنجد — وأورد في الخريدة أبياتاً في مدحه من القصيدة التي مدح بها المستنجد بالله والتي ذكرناها سابقاً وأولها في الخريدة :

لَقَدْ بَسَطَ الْإِحْسَانَ وَالْعَدْلَ فِي الْأَرْضِ إِمَامٌ يُحْكُمُ اللَّهُ فِي خَلْفِهِ يَقْضِي

قال العماد بعد أن مدح الخليفة : " ومنها في الوزير " يعني ابن هبيرة ، وذكره أبياتاً وصفه فيها بالتمسك بالشرعة والحكم بموجبها ، والقيام بأعباء المملكة ، قال :

وَيُحْيَا لِيَحْيَى كُلُّ حَقٍّ قَعَسَ زَهْ وَسَلَّ قَضَى غَيْرَكُمْ مَا كَانَ لِلدَّيْنِ مِنْ قَرَضٍ ؟
وَزَيْرٌ بِأَعْبَاءِ الْمَمَالِكِ نَاهِيٌّ إِذَا عَجَزَتْ سُمُّ الرُّؤُوسِ عَنِ النَّهْيِ (١)

ومدحه كذلك بأبيات عديدة ضمن القصيدة العينية التي مدح بها المستنجد في رجب سنة ٥٥٩ هـ والتي أولها في الخريدة :

رَسَمَ عَلَيَّ لِذَلِكَ الرَّسْمِ أَنْتَ أَقَابِيْرُهُ سَعَى الْجِسْمِ

ومن قوله في مدح الوزير والثناء على حزمه وعزمه ، وحسن سيرته وسيرته ، وعلو همته وحاتمته جسده :

(١) الخريدة — للنقسم العراقي (ج ١ / ٤٦)

- (١) أَرَزَتْ مُلْكًا بِالْوَزِيرِ ، فَصَنَنْ
يَحْيَى الَّذِي أَحْيَى بِسَيْرَتِهِ
شَرُواكَمَا فِي السَّنَمِ وَالْحَزْمِ ؟
حَتَّى الْمَحْلَمِ مَيَّتَ النَّزْمِ
كَبُرَتْ وَجَلَّتْ فِيكَ هِمَّتُهُ
فَلَهُ بِنُصْحِكَ أَكْبَرُ الْهِمَمِ
عَوَّجَاتِي الْجُودِ لَيْسَ يَكْرَى
إِسْدَاءُ نَائِلِهِ سِوَى حَسَمِ (٢)

وقد مدح العماد كذلك ولد الوزير أبا البدر ظفراً الملقب بشرف الدين ضمن القصيدة التي عارض فيها قصيدة مهيأ بالدليلى التي أولها :

بَكَرَ السَّارِضُ تَحْدُوهُ النَّعْمَانِي فَسُقِيَتِ الْفَيْتُ يَادَارُ أُمَامَا (٣)

وقد نظم العماد قصيدة على وزنها ، ومنها أبيات في مدح ابن الوزير المذكور ، لم يخرج فيها عن أوصاف الشجاعة والكرم وعلو المكانة وسمو المنزلة ، ومساعدته للأيتام ، وعطفه على الضعفاء ، ولعل لا أجنب الحقيقة إذا أعجبت بهذه القصيدة ، والأبيات التي قالها في مدح ظفر هي :

- (٤) فَهَوَّ الْفَيْتُ إِذَا بَتَّ اللَّهْمَا
وَعَوَّ اللَّيْتُ إِذَا قَلَّ اللَّهْمَا
لَمْ يَزِدْ أَعْدَاءَهُ يَوْمَ الْوَفَا
وَالْفَنَا إِلَّا أَنْحِطَاطًا وَأَنْحِطَاهَا
وَاجْتَلَى مِنْ مَشْرِقِ الْمَجْدِ السَّنَا
وَأَمْتَطَى مِنْ بَارِزِ الْمَلِكِ السَّنَامَا
وَأَنْشَأَتْ يَسَنَانَا مُنْتَهَى
ظَلَمِ الظُّلْمِ لِأَيَّامِ الْإِيَّامِي
أَوْلَدَتْ أَنْعَمَهُ عَقَمَ الْمُسْنَى
وَوَشَقَى مِنْ يَأْسِنَا الدَّاءَ الْمُقَامَا
كَرَمٌ يَحْيَى وَيَأْسُنٌ مَهْمَا
وَعَبَا مَا عَجَبَا إِلَّا عَمَامَا (٦)

وقد مدح العماد بعد رحيله إلى الشام سنة ٥٦٢ هـ الكثير من السلاطين والأمراء ، فمدح نور الدين ، وكمال الدين بن الشهرزوري ونجم الدين أيوباً وشيركوه وصالح الدين قبل توليه السلطنة ، ومدح نجم الدين بن مصال ، والقاضي الفاضل ، كما مدح تقي الدين عمر وترران شاه اخا السلطان ، والملك الأفضل والملك العادل وابنه الكامل ،

(١) شروا كما : مثكما (٢) الخريدة - القسم العراقي (ج ١ / ٥٢)

(٣) الخريدة - القسم العراقي (ج ١ / ١٠١)

(٤) اللها : يضم اللام : العظايا ومفودها اللهموة بالنم () واللهام : الجيش

المنظم . فله : هزمه

(٥) السنا : السوء وامتنى : ركب والبارز الجمل أو الناقة في تاسع سنه

(٦) القصيدة في القسم العراقي ج ١ / ١١٥

والملك المؤيد والملك الظاهر ، وكثيراً غيرهم .

وأول الذين مدحهم في القام الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين مدحه بقصيدة في آخر شوال سنة ٥٦٢ هـ وكان صلاح الدين بمصر وأولها :

يَوْمَ النَّوَى لَيْسَ مِنْ عُمُرِي بِمَحْسُوبٍ وَلَا الرِّأْيُ إِلَى عَيْشِي بِمَنْشُوبٍ (١)

ويهدو أن العناد أعجب بنجم الدين بسبب تقديره له وحضوره للسلام عليه حين قدم إلى دمشق ولذا أثنى عليه ثناء عظيم ، وهو عنده صاحب الرأي ، ذو عزم وهمة ، وصاحب منزلة عظيمة :

مَوْفَى الرِّأْيِ ، ماضِ العِزِّ ، مُرْتَفِعٌ عَلَى الأعْجَمِ مَجْدًا وَالْأَعْرَابِيبِ
أَحَبُّكَ اللهُ إِذْ لَزِمْتَ نَجْدَتَهُ عَلَى جَبِينِ بِنَاجِ المَلِكِ مَحْسُوبِ (٢)

وفيها تعني العماد أن يُثبَّت الله أقدام شيركوه وصلاح الدين في مصر ورجا الله أن يلحق بهما نجم الدين كما لحق النبي الكريم يعقوب عليه السلام بولده يوسف عليه السلام قال :

أَخُوكَ وَأَبْنُكَ صِدْقًا مَعَهُمَا اعْتَصَمَا بِاللَّهِ ، وَالنَّصْرُ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ
هُمَا هُمَا مَانِ فِي يَوْمِي وَغِيٍّ وَقِيَرِي تَعَوَّدَا صَرْبَ هَامٍ أَوْ عَرَاقِيْبِ
وَسَيَقْرُ بِمِصْرٍ يَوْسُفٌ وَيَسِيْرُهُ تَقَرَّرُ بَعْدَ التَّنَائِي عِيْنُ يَعْقُوبِ (٣)

وحين عاد شيركوه من مصر ومصحبته صلاح الدين في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٥٦٢ هـ اجتمع العماد بشيركوه وأنتده بقصيدة أولها :

بَلِّغْتِ بِالْجِدِّ مَا لَا يَبْلُغُ البَشَرُ وَنَلِّغْتِ مَا عَجَزَتْ عَنْ نَيْلِهِ القُدْرُ

ولعل لا أبالغ إذا قلت : إن العماد في هذه القصيدة قد أبدع ، ذلك أن شيركوه كان شخصية عسكرية رائعة ، ومحاولاته الثلاث في إنقاذ مصر قد أكسبته لدى الناس حبا واحتراما وطردته للفرنجية منها جعل اسمه لامعا وشهرته دائمة ، قال العماد فيح :

(١) الروضتين (ج ١ ص ٢٦٩/٢) وسنا البرق (٥٩/١)

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٩/٢ وسنا البرق ج ١ ص ٥٩/١ وفي الثاني ذكر فقط سبعة أبيات .
والتعبير بقوله : نجدته خارج على الأدب العام والذوق السليم .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٣٦٩/٢

مَنْ يَهْتَدِي لِلَّذِي أَنْتَ اهْتَدَيْتَ لَهُ وَمَنْ لَهُ مِثْلُ مَا أَنْزَمْتَهُ أَنْزَمْتُ
 أَسْرَتِ أُمِّ بَسْرَةَ الْأَزْمَقِ قَدْ طَهَسَتْ فَأَنْتَ إِسْكَندَرُ فِي السَّيْرِ أَمْ خَضِرُ
 أوردت خيلاً بأفصى النيلِ صادرة عَنِ الْفَرَاتِ يُقَاضِي وَرْدَهَا الصَّدْرُ
 تَنَاقَلْتَ ذِكْرَكَ الدُّنْيَا هَلْ لَيْسَ لَهَا إِلَّا حَدِيثُكَ مَا بَيْنَ الْوَرَى سَمَرُ (١)

ويرى العماد أن سيرة سيركوه تفوق كل سيرة ، ويخيل أنه لو عاش في زمن الرسول
 الكريم لنزلت السور القرآنية الشريفة في امتداحه ، وثنى على عدله وجراته ، ويشبهه بمصلى
 بن أبى طالب وعمر بن الخطاب في عدلهاما واقدمهما ، وبالإسكندر في حكمته وبرؤسّم في
 شجاعته ، وغر يفوق الملوك بأفعاله وأعماله وذلك حيث يقول :

فَأَنْتَ مَنْ زَانَتْ الْأَيَّامُ بِسَيْرَتِهِ وَزَادَ فَوْقَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ السَّيْرُ
 لَوْ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ كُنْتَ ، أَنْتَ فِي هَذِهِ السَّيْرِ الْمَحْمُودَةِ السُّورُ
 أَصْبَحْتَ بِالْعَدْلِ وَالْإِقْدَامِ مُنْفَرِدًا فَقُلْ لَنَا : أَعْلَى أَنْتَ أَمْ عَمْرُ ؟
 إِسْكَندَرُ ذَكَرُوا أَخْبَارَ حِكْمَتِهِ وَنَحْنُ فِيكَ رَأَيْنَا كُلَّ مَا ذَكَرُوا
 وَرُسْمٌ خَبَرُونَا عَنْ شَجَاعَتِهِ وَصَارَ فِيكَ عَيَانًا ذَلِكَ الْخَبِيرُ
 أَفْخَرُهُ ، فَأَيُّ مَلُوكِ الْأَرْضِ أَذْهَلُهُمْ مَا قَدْ فَعَلْتَ ، فَكُلُّ فِيكَ مُفْتَكِرُ
 سَهْرَتِ إِذْ رَفَعُوا بِلَهِ هَجَّتْ إِذْ سَكُّوا وَعَلَّتْ إِذْ جَبُنُوا ، بَلْ طَلَّتْ إِذْ قَصُرُوا
 يَسْتَعْظِمُونَ الَّذِي أَدْرَكَهُ مُعْجَبًا وَذَلِكَ فِي جَنْبِ مَا نَرُوهُ مُحْتَقِرُ (٢)

ومدح العماد صلاح الدين بعد عودته مع عمه من مصر بقصيدة ، لم يأت فيها
 بجديد ، ونعتقد أن ذلك يعود إلى أن دور صلاح الدين لم يكن قد برز ووضح ، وشهرة
 عمه وشجاعته كانتا أظهر وأوضح ، ولذا نجد أنه يمدحه بأربعة أبيات من القصيدة ثم ينتقل
 إلى وصف الأحوال في مصر وغدر شاور وزيرها ، وإدعاء الفاطميين للخلافة ، وهذا يكون
 قد خرج من غرض المديح إلى الشعر السياسي ومطلع قصيدته هذه :

كَيْفَ قَلِمٌ مِمْلَقْتِهِ نُرٌّ وَأَرَاهَا بِلَا قُورٍ تَجُورُ ؟

والأبيات التي مدحها العماد هي :

(١) البرونستين ج ١ ق ٢٧٠/٢ وفي سنا البري ج ١/٦٥ أورد أربعة أبيات فقط .
 (٢) البرونستين ج ١ ق ٣٧٠/٢ - ٣٧١

الأشيرة : إيهماك بظا هر مكة ، أي خارجا عنهما ، وكانوا
يقولون : أشرف أشيرة ، كإيمانهم (عج العروس)

مُسْتَجِيرٌ جَوْرِيٌّ وَإِنِّي مِنْهُ
فَسَلُهُ نِيَّ يَدِ الزَّمَانِ سِوَارٌ
كُرْمٌ سَائِغٌ وَجُودٌ عَمِيمٌ
أَنْتَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَجُنُّ إِلَيْهِ
بِأَيِّ أَيْوَبٍ يُوسُفٌ مُسْتَجِيرٌ
مِثْلُهَا رَأَيْتُ عَلَى الْمَلِكِ سُورٌ
وَنَدَى سَائِغٌ ، وَفَضْلٌ مُغْزِيٌّ
وَلَوْ فِي الْمَهْدِ ، سَرْجَةٌ وَالسَّرِيرُ (١)

فإذا ما رجعنا إلى قصيدة ثانية مدح بها العماد صلاح الدين بعد توليه السلطنة نجد
الفرق واضحا ، ونرى الإعجاب الكبير بشخص السلطان وشجاعته وأعماله ، وقضائه على
الخلافة الفاطمية ووقوفه في وجه الصليبيين مجاهداً ، وتمسكه بالقرآن الكريم وأحكامه ،
وابتعاده عن الموبقات وخطاياها :

وَلَتَأْتِيَنَّ بِالْمَلِكِ النَّاصِرَ الْمُسْتَجِيرُ
هُوَ الشَّمْسُ وَأَفْلَاكُهُ فِي الْبِلَادِ
إِذَا مَا سَطَا ، أَوْ حَبَا ، وَاحْتَبَى
بِيُوسُفٍ مِثْرَةً ، وَأَيَّامِيهِ
مَلَكْتُ فَأَسْجِجُ فَمَا لِلْبِلَادِ
وَفِي مِخْصَمِ الْمَلِكِ لِلْمُسْتَجِيرِ
لَكَ اللَّهُ فِي كُلِّ مَا تَبْتَغِيهِ
أَمَّا الْمُفْسِدُونَ بِمِصْرَ عَمْرُوكِ
أَمَّا الْأُدْعَاءُ بِهَا إِذْ تَقَرَّبَتْ
وَيَوْمَ الْفَرْنَجِ إِذَا مَا لَقُوكِ
صَلَّاحٌ عِلَّاحٌ ، وَنَصْرٌ وَخَيْرٌ
وَمَطْلَعُهُ سَرْجَةٌ ، وَالسَّرِيرُ
فَمَا الْمَلِكُ ؟ مَنْ حَاتَمُ ؟ مَا يَشِيرُ ؟
تَقَرُّ الْعَيْوُونَ وَتَسْتَقِي الصُّدُورُ
سِوَاكَ مُجِيرٌ وَمَسْئُولِي نَصِيرُ
سَكَ سِوَارٌ ، وَمَعِكَ عَلَى الدِّينِ سُورٌ
مَحَقٌّ ظَهِيرٌ ، وَنَعْمُ الظُّمِيرُ
وَعِذِي دِيَارُكُمْ الْيَوْمَ قُورُ
لَا يُعَادِيَهُمْ زَالَ مِنْكَ الْفُتُورُ
عَبَّاسٌ بِرَغْبِهِمْ قَطْمُورُ (٢)

ومنها :

وَفَجْرُكَ فِيهِ الْقُرَى وَالْقُرَانُ
وَأَنْتَ تُرِيئِي دِيْمَاءَ الْفَرْنَجِ
بِجَمِيعًا وَقَجْرُ الْجَمِيعِ الْفُجُورُ
وَعِنْدَهُمْ قَدْ تَرَأَى الْخُمُورُ (٣)

(١) المصدر السابق ص ٢٧٢ وفي سنا البرقي ٦٥/١ - ٦٦ خمسة أبيات من القصيدة .
(٢) حبا : أعطى بلا جزاء ولا من احتبى : جمع بين ظهره وساقه بسحابة أو نحوها
يشير : من أعظم جبال مكة بينها وبين عرفة . معجم البلدان والقاموس المحيط مادة
(المشير) (٣) أسجج : سجع سهل ولان

(٤) قور : قار الشيء بمعنى قطعه من وسطه خرقا مستديره ، ولعله يعني بائدة طالكة .
(٥) قسطور : شديد (٥) ووضع (أما) في البيتين أورشهما ضمت تأليف .
(٦) الروضتين ح ١ ق ٦٣٠/٢ وفي الخريدة - بداية قسم شعراء الشام ص ٢٧ وهى
أطول من ذلك .

في صحاح البلاغة : الأشيرة : ألبعة .
سكنى المشرف على مكة = مشرف الأعراب .
إذنه هناك الكر من جبل

ونستطيع القول بأن الأشعار التي مدح العماد بها صلاح الدين قبل توليته
السلطنة كانت تقليدية ، لا جديد في أفكارها ، وإنما هي صفات مطروقة ، لا يبدو فيها
الإعجاب الشديد ، ولعل القصيدة الآتية التي مدح بها العماد صلاح الدين أثناء
وجوده بمصر في حياة نور الدين تعطينا فكرة واضحة عما نقول ، وأولها :

سَكَرَانُ بِاللَّحِظِ صَاحِي نَشْوَانٍ مِنْ غَيْرِ رَاحِ

ويطيل العماد في المقدمة الشزلية حتى تبلغ اثنين وعشرين بيتاً ، ينتقل بعدها إلى مدح
صلاح الدين فيصفه بالإكثار من المساعي والمفاخرة بالمعالي والجود بالنائب والوفار في
التصرف والشجاعة في الكفاح . يقول العماد :

قد اسْتَقَرَّتْ أُمُورِي	فِيهِ بِحَسْبِ اقْتِرَاحِي
كَمَا اسْتَقَرَّ صَلَاحُ الدَّيْنِي	لَا يَمْلِكُ الصَّالِحُ
تَنْبُرُ شَمْسُ مَسَاعِي	مِنْ سَمَاءِ الصَّبَّاحِ
وَأَمْرُهُ مَسْتَفَادُ	مِنَ الْقَضَاءِ الْمُتَّحِ
ذُو الْمَفْخِرِ الْمُتَعَالِي	وَالنَّائِلِ الْمُسْتَحِ (١)
وَاللْحَقِيقَةِ حَالِ	وَالدَّيْنِيَّةِ مَسَاحِي
غَيْتِ السَّمَاجَةِ طُودُ النَّ	سَوَاقِرِ لَيْثِ الْكَهَاحِ
صَدْرِي بِجَدِّ وَاهِ عَدْرِي	إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي انْشِرَاحِ

وفي هذه القصيدة وفي غيرها من القصائد التقليدية كان العماد يلجأ إلى الإلباسه ثوب
الكرم الحامى والجود الذي لا جود بعده ، ويكرر هذه الصفة في كثير من أبيات القصيدة
حيث يقول منها :

نَدَى كَرِيمٍ حَسِي	وَأَمُّ نَوْسِرٍ وَقَبَاحِ (٢)
وَمِنْ مَرْجِي نَسْدَاهُ	مُبَشَّرٍ بِالنَّجَّاحِ

(١) المستحاح : الذي يطلب منه النجاة

(٢) الذمير : الشجاع

ويقول في نهايتها :

من قيد شكري عطيا ك مطلقات السراج (١)

ولنقرأ بعض أبيات القصيدة التي مدح بها صلاح الدين حين اتصل بخدمته بعد عودته إلى الشام من الموصل ، حين علم بمقدم السلطان من مصر ، وأولها :

عفا الله عنكم ما لكم أيها الرعط ، فسظم ومن قلب المحب لكم قسط

وقد مدحه بالجنود والكرم في أبيات عديدة ، وأثنى عليه لحمايته الإسلام ، وتفريخ الكروب التي تحيق بالمسلمين ، وتخفيف المصائب التي حلت بهم ، وأشاد به لأنه جاء للشام منقذاً ، وللمسلمين مجيراً من أمراء متنازعين وحكام فاسدين ، ووقفه بالعدل والقول الحق .

والأبيات تتدفق على لسان العماد ، ولا عجب فقد هرب العماد من أمراء الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وعاد إلى صلاح الدين معجباً بشجاعته — وقوته وشدة بأسه وسلطوته ، مؤملاً الخير على يديه — حيث يقول :

مُنَعَتْ حَمِيَّ الْإِسْلَامِ لِلنَّصْرِ مَعْطِيًّا غَدَاةَ عَوْتٍ مِنْ دُونِهِ الْأَذْوَابُ الْمَعْطِيَّةُ (٢)
 وَصَلَتْ وَكَمْ قَرَّجَتْ عَنَّا مَلِكَةً يَسْتَهْمُ الرَّزَايَا فِي الْكِرَاءِ لَهَا لَهْطُ (٣)
 يَسْعُدُكَ عَادَ الْحَقُّ وَأَتَمَّحَ الْهَدْيُ وَهَبَ نَيْمُ النَّصْرِ وَأَنْفَجَ الضَّفْطُ
 وَأَنْتَ أَجَرْتَ النَّضَامَ مِنْ سُومِ جَارِهِ وَلَيْمَ يَكْفِ رَهْطُ الْكُفْرِ حَتَّى بَنَى رَهْطُ
 أَجَرْتَ وَقَدْ جَارُوا وَدِنْتَ وَقَدْ عَدُوا وَصَلْتَ وَقَدْ خَارُوا وَلَيْتَ وَقَدْ لَطَّوْا
 فَلَا يَتَّبِعُوا التَّمُولِيَّ بِمَنْ مَلَّ نَجَاشِيهِ غَوَى وَيَقْسِمُ حَشْوُ جَيْشِهِمْ زُطْبُ (٤)
 كَثِيرٌ تَعَدَّيْتُمْ قَلِيلٌ غَنَاؤُهُمْ وَهُمْ — لَا أَعَابُوا رَشْدَهُمْ — هَمَلٌ رَهْطُ
 عَدَلْتُ فَلَا ظَلْمَ لَهُمْ وَطَلْتُ فَلَا مَدَى وَقُلْتُ فَلَا مَيَّسَ لَهُمْ وَجَدْتُ فَلَا قَحْطَ (٥)

ويعدّ القاضي القاضى من الجماعة التي نالت إعجاب العماد ، وقد مدحه

(١) القصيدة في الخريدة — قسم شعرا مصر (ج ١/ ٢٢-٢٥) وفي الروضتين ج ١/ ٢-٤٦١-٤٦٢

. وفي الأصل (بفيد شكري) وهو غير مناسب .

(٢) المعط : الجرد التي لا شعر لها (٤) لهط : رعى وضرب

(٥) زط : قبيل من الهند (٥) مهن : كذب

والقصيدة في الخريدة — قسم شعرا مصر (ج ١/ ٢٥-٣١) والروضتين ج ١/ ٢-٦٢٢

بعده فصاد وأولها ما نظم فيه من قصيدته النامية حين لقيه بجمعه في شبان سنة ٥٧٠
وفيها أتى على وقاره ونسبته الفريدة ، وبلاغته الفائقة وفضاحته النادرة وثقاه الكبير ،
وورعه العظيم ، ومنها :

عَايَنْتُ طَوْدَ سَكِينَةٍ وَرَأَيْتُ شَمْسَهُ	سَنَ نَهْمِيلَةٍ وَوَرَدْتُكَ بَحْرَ فَوَائِسِ
(١)	
وَرَأَيْتُ سَحْبَانَ الْبَلَاغَةِ سَاحِبًا	بِبَيَانِهِ ذَيْلَ الْفَخَارِ لَوَائِسِ
(٢)	
أَبْصُرْتُ لُفَا فِي الْفَصَاحَةِ مُسْجِرًا	فَمَرَفْتُ أُنَى فِي فَهَامَةِ بَاقِسِ
(٣)	
حَلَفَ الْحَصَافَةِ وَالنَّصَاحَةَ وَالسَّمَاءَ	حِةَ وَالْحَمَاسَةَ وَالتَّقَى وَالتَّائِسِ
بَحْرٍ مِنَ الْفَيْضِ الْغَزِيرِ كَحَضْرَتِهِ	طَامَى الْعُبَابِ ، وَمَالَهُ مِنْ سَاحِسِ
(٤)	
وَجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ سَبْنَةَ أَبْحَرِ	وَبَحْوَرِهِ تُسْمَى بِمَشْرِ أَنَامِسِ

ومدح ناصر الدين محمد بن شيركوه فأثنى على شجاعته في القتال وجوده في السلم فقال :

لَمَّا لَقَيْتَ جُمُوعَهُمْ مُنْظُومَةً	صَيَّرْتَ ذَاكَ النِّظْمَ وَهُوَ نَثَارٌ
(٥)	
فِي حَالَتِي جُودٍ وَأَيْسٍ لَمْ يَكُنْ	لِلتَّبَرِّ وَالْأَعْدَاءِ مِنْكَ تَبَارٌ
(٦)	
تَهَبُ الْأُلوْفَ وَلَا تَهَابُ الْوُفُوهُمْ	هَانَ الْعُدُوُّ عَلَيْكَ وَالذُّيُوبُ تَبَارٌ

ويبدو لنا أن إعجاب به بالعماد كان صليفاً ولذا نرى قصائده فيه قليلة ، والأوصاف التي
مدحه فيها تقليدية ، وحين سافر مع السلطان إلى مصر ، في المرة الثانية سنة ٥٧٦ من
الهجرة ، تلقاهم العماد مستقبلاً ومرحباً ، فاستطر العمد - على ما يبدو - إلى مدحه
مجاملة ، فكان من قصيدة بدأنا متسوقاً لدمشق وذاكراً المنازل والديار التي مرّ فيها ،
وأنها بما بمدح العماد فكان فيه :

(١) في الخريدة - قسم مصر ١٧/١

ولقيت سحبان البلاغة ساحباً ببيانه ثوب الفخار لوائس

وسحبان : بليغ عربي من وائل يضرب به المثل .

(٢) قمر : قس بن ساعدة الأيادي الحكيم والخطيب الهريسي الجاهلي المشهور .

وباقل : رجب يضرب به المثل في السعي .

(٢) في الخريدة - قسم مصر : حلف الفصاحة والحصافة .

(٤) الروستين ج ١ ن ٦٤١/٢ وفي قسم مصر ٣٧/١ - ٤٩

(٥) كذا في الأصل والأنسب غادرت ذاك النظم .

(٦) هي الطبعة الجديدة من الروستين الانبار وفي طبعة النيل " الديكار " وهو الأصح .

والقصيدة في الروستين ج ١ ن ٢٥/٢

في

عناكَ تَلَقَانَا انْفُودُ بِيَهْدٍ - فَسَرُوا بِنَا نَفْسًا وَّزَادُوا بِنَا بَشْرًا
 قَطَعْنَا إِلَى بَحْرِ النَّدَى بِحَرِّ قَلْبِنَا (١) وَمَنْ قَعَدَهُ بَحْرُ النَّدَى يَقْطَعُ الْبَحْرَ
 عَبْرَنَا إِلَى مَنْ تَأَثَّرَ الرُّمْلُ جُودُهُ وَجُزْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الرُّمْلُ وَالْجِسْرَا
 وَلَمَّا نَزَلْنَا مِصْرَ فِي شَهْرِ طَوْبَةِ وَرَدْنَا بِكَفِّ الْعَادِلِ الْبَيْلِ فِي مِصْرَ (٢)
 غَدَا تَأَعْبَرُ عَنْ قَصْرِهِ قَصْرُ قَيْصَرَ وَابْوَانُ كِسْرَى عِنْدَ ابْوَانِهِ كَسْرًا

وواضح أن فيها شيئاً من التكلف والتعسف والضعف .

ومن قصائده في المديح قصيدة مدح بها الكامل بن العادل في أواخر حياته ،
 لم يأت فيها بجديد ، ويبدو أنه نظمها إرضاءً له لأن العماد صحبه في رحيله من دمشق
 إلى مصر سنة ٥٩٦ هـ . قال العماد وخدمته بكلمة أولها :

أَنْتُمْ تَحْبُونَ بِالْإِعْرَاضِ تَعْدِي سَبِي وَمَقْصِدِي وَنَ بَخْلِقِ الصَّدِّ تَهْذِي سَبِي (٢)
 سَارُوا قِيَامِي حَقِّي مِنْ مَهْجَتِي ارْتَحَلِي غَابُوا قِيَامِي عَنْ مَقَلَّتِي غِي سَبِي
 قَدْ كَانَ يَهْمُ مَنِي دَهْرِي فَأَذْرَكْنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بَيْنَ أَيَّامِ
 الْكَامِلِ الْمَالِكِ الْأَمَلِكِ حَيْثُ لَهُ رُبُّ الْأَعَاجِمِ مِنْهُمْ وَالْأَعْرَابِ
 مَعْتَرَّ عَرْفَهُ عَرَفًا وَمَكْرَمَةً مَخْمَرًا طَائِنَةً بِالطَّهْرِ وَالطَّيِّبِ
 دَعَاكَ مِصْرَ إِلَى سُلْطَانِهَا فَأَجِبْ دَعَاَهَا فَهِيَ حَقٌّ غَيْرُ مَكْذُوبِ

ثانياً : الشعر السياسي :

ونعني به ما نظمه العماد في دفاعه عن الخلافة العباسية ، وردّه على الخلافة
 الفاطمية وعجائنها ، وكذلك ما قاله في الحروب التي دارت وشب أوارها بين نور الدين
 والأتابكة والأمراء المحليين ، وما قاله في الحروب التي نشبت بين صلاح الدين والحلبيين
 والموصليين وغيرهما من سكان المدن الإسلامية في السنين الأولى من توليه السلطنة ،

(١) يلاحظ أن الواعد إلى مصر من الشام لم يكن يقطع بحر القلزم " البحر الأحمر " بل
 كان يصل إليها عن طريق سيناء ولم تكن قناة السويس قد فتحت بعد ، والبيت التالي
 يؤيد ذلك .

(٢) قيسر : ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس : والقصيدة في الروضتين (النيل)
 (ج ٢ ص ٢٠) (٢) السنة : النوم

وعمله على توحيد القطرين المصري والشامي وما يتبعهما من مدن وولايات كالموصل والجزيرة
الفراتية والتي أثبتت الحوادث في التاريخ الداس والحاضر أنه لا انتشار للإسلام إلا
بوحدهما ، ولا مجد إلا باتفاقهما .

أما دفاعه عن الخلافة العباسية ، فقد كان يظهر من شعره في البيت والبيتين
مشيراً إلى وراثة بني العباس للخلافة ، وأن العباس وهو العم الأكبر يستحق وراثة
الخلافة أكثر من استحقاق ابن العم وهو علي بن أبي طالب لها . ولذا نراه يخاطب
المستنجد في قصيدته البيمية السابقة الذكر قائلاً :-

إِثْرُ النَّبُوَّةِ بِنِ خِلَافَتِهِمْ فِي يَوْسُفَ الْمُسْتَنْجِدِ الْقَهْرِ (١)

وقال حين ولي المستضيء الخلافة سنة ٥٦٦ :

قَدْ أَضَاءَ الزَّمَانُ بِالْمُسْتَضِيِّ وَارِثِ الْبُرْدِ وَأَبْنِ عَمِّ النَّسِيِّ (٢)
جَاءَ بِالْحَقِّ وَالسَّرِيعَةِ وَالْعَدْلِ لِيُفِيَا مَرْحَبًا بِهَذَا الْمَجِيِّ

ولكن هذه النعمة قوية وأصبح لها صوت مسموع وقول واضح بعد أن استنجد وزير المعتمد
الفاطمي بنور الدين ، فأنجده بشيركوه وعلاج الدين ، وحدث ما حدث من غدر شاور ،
بعد إعادته للوزارة ، واستنجاهه بالفرنجية ، وحين رجع شيركوه من مصر في أواخر سنة ٥٦٢
مدح العمد شيركوه بقصيدة رائية ذكرناها سابقاً ، ومن ثم وجه خطابه إلى شيركوه مذكراً
له بأفعاله الطيبة التي منها إلحاقه هزيمة نكراء بالفرنج ، ثم عجا شاور لغدره ، وأعلن
سروره بقهر حكام القاهرة الفاطميين فقال :

أَفْنَتَ سَيُوثِكَ مَنْ لَاقَتْ فَإِنْ تَرَكْتَ قَوْمًا فَهُمْ نَفَرٌ مِنْ قَبْلِهَا نَفَرُوا

وقال :

وَالسَّارِكُونَ الْقُصُورَ الْقَاهِرِيَّةَ قَدَّ نَادَى الْقُصُورَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَهَرُوا
وَسَاوَرُوا سَاوَرُوهُ فِي مَكَائِدِهِمْ فَكَادَهُ الْكَيْدُ لَمَّا خَانَهُ الْحَذَرُ
نَاوُوا مِنَ الرَّعْبِ مَوْتًا فِي بُلُودِهِمْ وَحِينَ أَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفِهِمْ نَشَرُوا (٣)
وَإِنَّ مِنْ شِيرْكُوهِ الشَّرْكَ مَنْخَزَلٌ وَالْكَفْرُ مَنْخَذِلٌ وَالِدِينُ مَنْتَصِرٌ

(١) الخريدة - القسم العراقي ج ١ / ٥٢

(٢) الخريدة - القسم العراقي ج ١ / ١٢١ والأول والثاني في البداية والنهاية (١٢ / ٢٦٢)

(٣) الروضتين (النيل) ج ١ / ١٤٥

بل إن العماد حمل أول دعوة إلى إنهاء الخلافة الفاطمية ، وقد خاطب نجم الدين أيوباً في قصيدة مدحه بها آملاً أن يستقر صلاح الدين في ملك مصر . ولحقق به نجم الدين ، كما استقر يوسف الصديق عليه السلام فيها من قبل ، ولحقه يعقوب عليه السلام ، فاستقر بها ، والتأم الشمل ، وذلك في أواخر شوال سنة ٥٦٢ هـ ، وفي بداية وصول العماد إلى دمشق وكان قد وصلها في شعبان :

بُـمَلِكِ مِصْرَ وَنَصِرِ الْمُؤْمِنِينَ غَدَاً تَحْطِي النَّفُوسُ بِأَنْبِيٍّ وَتَطْـيِّبُ
وَيَسْتَقِرُّ بِمِصْرَ يَوْسُفٌ وَبِـيْهِ تَقَرُّ بَعْدَ التَّنَائِي عَيْنٌ يَحْقُوبُ
وَيَلْتَقِي يَوْسُفٌ فِيهَا بِأَخَوْتِهِ وَاللَّهُ يَجْمَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ تَشْرِيْبِ (١)

ويقول العماد بعد ذلك : " فنظمت ما في الصيب تقديره "

وحين مدح صلاح الدين دعاه إلى استعادة الحق المنصوب في مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية فيها فقال :

وَلَكُمُ عُدَّةٌ إِلَى مِصْرَ بِالنَّصْرِ بِرِ عَلَى ذِكْرِهَا تَمُّ النَّصْرُ
فَأَسْتَرُوا وَاحَقَّ الْإِمَامَةُ مِمَّنْ كَانَ فِيهَا فَإِنَّهُ مَسْتَتِيرُ (٢)

وحين علم أن شيركوه قتل شاوراً وتسلم أمر الوزارة أرسل إليه يهنيه بقصيدة

أولها :

بِالْبَدِّ أَدْرَكْتَ مَا أَدْرَكْتَ لَا اللَّيْبُ كَمْ رَاخَةٌ جُنَيْتَ مِنْ دَوْحَةِ التَّسْبِ

وفيها يثنى عليه لقضائه على شاور وتخليص مصر من شره ، وإيقادها من براثن الفرنجة الذين استدعاهم شاور فقتلوا عوراتهم فعماد وإيها طامعون في احتلالها ، قال :

مَنْ شَرَّ شَاوِرَ أَنْقَذَتِ الْعِبَادُ عَنْكُمْ وَكَمْ قَضَيْتَ لِحِزْبِ اللَّهِ مِنْ أَرْبِ
عَوَالِدِي أَطْمَعُ الْإِفْرَنْجُ فِي بَلَدِ لِلْإِسْلَامِ حَقِّي سَمَوًا لِلْقَصْدِ وَالطَّلِبِ

وفي هذه القصيدة ينظم العماد بحسب إحساس وتدفق شعور لأن فعل شيركوه ملك عليه لفته وأخذ عليه فؤاده ، ولذا يخاطب صلاح الدين آملاً بإنهاء الخلافة الفاطمية ، وارجساع

(١) الروضتين ج ١ / ١٤٤ (النيل) والتشريب : الصلى (القاموس المحيط مادة (الشرب))

(٢) الروضتين (النيل) ج ١ / ١٤٦ السباهود

الدعوة العباسية إليهما ، قال :

(١) لِمَا سَعَيْتَ لَوَجْهِ اللَّهِ مُرْتَقِبًا ثَوَابَهُ نِلْتَ عَشْوًا كُلَّ مُرْتَقِبٍ
 أَعَدَّتْ نِعْمَةٌ مِصْرَ نِعْمَةً فَغَدَّتْ تَقُولُ: كَمْ نَكَتَ لِلَّهِ فِي النَّكْبِ
 أَرَكِبْتَ رَأْسَ سِنَانٍ رَأْسَ ظَالِمِهَا عَدْلًا وَوَكَّتَ لِرُؤُوسٍ غَيْرِ مُرْتَكِبِ (٢)
 رَدَّ الْخِلَافَةَ عَبَّاسِيَّةً ، وَدَعَا السُّدَّ عَنِ فِيهَا بِعَادِلٍ شَرِّ مُنْقَلَبِ
 " لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَعْمَى وَتُرْسِلْهَا " فَالْحَزْمُ عِنْدِي قَطْعُ الرَّأْسِ كَالذَّنْبِ (٣)

وحين توفي شيركوه وتولى صلاح الدين الوزارة من بعده هنا العماد نور الدين بملك مصر وبالنصر وتوحيد القطرين وكان ذلك سنة ٥٦٤ هـ فقال مادحاً نور الدين لإرساله جيشه الذي انتصر على الفرنج وخلص مصر والإسلام من شر شاور ، وأعاد السنة إلى أرض مصر ، وجعل ملوك مصر الفاطميين عبيداً له وجعل عبيد نور الدين ملوكاً فيها :

أَوْرَدَتْ مِصْرَ حِيُولَ النَّصْرِ عَادِمَةٌ شَفَى الْأَعْيَةَ إِقْدَامًا عَلَى اللَّجِيمِ
 أَعَانَهَا اللَّهُ فِي إِطْفَاءِ جَبْرِ أَدِيِّ مِنْ شَرِّ شَاوِرٍ فِي الْإِسْلَامِ مُنْطَلِمِ
 وَأَصْبَحَتْ بِكَ مِصْرٌ بِعَمَلِ خِيْفَتِهَا لِلأَمْنِ وَالْعِزِّ وَالْإِقْبَالِ كَالْحَرِيمِ
 وَاسْتَنْتَ أَسْقَتْ وَالْبِدْعَةَ انْمَحَقَتْ وَعَاوَدَتْ دَوْلَةَ الْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ (٤)
 مُلُوكِهَا لَكَ صَارُوا أَعْبَادًا ، وَغَدَا بِهَا عَبِيدُكَ أَمْلَاكَ ذَوِي حُرْمِ

وللعماد قصائد كثيرة في سقوط الفاطميين ، ولكن أكثرها إيلاًماً وعبجاءً قصيدته حين أنهى صلاح الدين الخلافة الفاطمية ، ودعا للخلفاء العباسيين على منابر القاهرة فخرج صوت العماد مدوياً مستبشراً ، مبيناً مصائب الخلافة الفاطمية ومشيئاً بحسنات العباسيين وأفعالهم . فقال من قصيدته التي أرسلها مع شهاب الدين بن الشيخ شرف الدين بن أبي عمرو رسول نور الدين إلى المستنصر :

(١) في الأصل مرتقب بالقاف وهو تحريف .
 (٢) الدعى : الخليفة الفاطمي لأن أهل السنة كانوا يسمونهم أدياء النسب ويقولون بأنهم من غير نسل علي .
 (٣) في البيت تضمن شعورهم اليه والأبيات في الروضتين ج ١ / ١٥٩ - ١٦٠ (النيل)
 (٤) الروضتين ج ١ / ١٧٥ (النيل)

(١)	نائب المصطفى إمام العنصر	فَدَّ حُطْبُنَا لِلْمُسْتَعْبِيِّ بِمِصْرَ
(٢)	ضيق والقاصر الذي بالقصر	وَوَخَدْنَا لِنُصْرَةِ الْعُسْدِ الْعَا
	ما بين فاستبشرت وجوه النصر	وَأَشَعْنَا شِعَارَ بَنِي الْعَبَّ
	وهو بالذليل تحت حجر وحصر	وَوَزَّكْنَا الدَّعَى يُدْعَوُ تَبُورًا
	سبة للشهاشي في أرض مصر	وَتَبَاهَتْ مَنَابِرُ الدِّينِ بِالْحُطْبِ

ويرى العماد أن أهل مصر كانوا قسمين : تسمياً ينكر الخلافة الفاطمية ، وقسماً آخر يقف إلى جانبها معانداً وسانداً ، فلما تولى صلاح الدين ساندوه جميعاً ، ويوجه خطابه إلى داعي الدعاة الفاطمي ، طالباً منه الرضا بقضاء الله ، فيقول :

عزى الحق أهل مصر ، وكانوا قبلة بين منكر ومؤيد
 فن لداعي الدعي : حسبك ، فما لله أقر الحقوق خير مقرر
 لو فتح بقرمودن البرايا كما حننا الله بافتراع البيكر

ويرى أن الفاطميين كانوا أدياء ، ليس لهم حق في الخلافة ، أما العباسيون فرجال خير وبركة وعدل :

واستعدنا من أدياء حقوقاً تدعى بينهم لزيد وعيرو
 والذي يدعي الإمامة بالقبا هرة انحط في حضيض القهبر
 خانه الدهر في مناه ، ولا يبط مع ذواللب في ولاء الدهر
 خلفاء الهدى سراة بني العبد أس والطيبون أهل الطهر
 بهم الدين ظافر مستقيم ظاهر قوة ، قوي الظهر

وحين توفي الماضد آخر الخلفاء الفاطميين ، هجأة بقصيدة ميمية معتقداً أنه كان للخلافة مفتصباً ، وأنه كان ضالاً غايباً ظالماً ، ووصف فيها سكوت المصريين من أعوانه عن مناوأة صلاح الدين ورضاهم بحكمه فقال :

توفي الماضد الدعي ، فما يفتح ذو بدعة بمصر فما

(١) في الخريدة : وارث المصطفى . وفي الروضتين وتاريخ الخلفاء : وتاريخ ابن الفرات (نائب المصطفى)

(٢) قال العماد : قصدت بالمضد الماضد المجانسة ونسرة وزير الخليفة لنصرته

(٤) الخريدة - قسم السراق ١٤/١ - ١٦ - والموجود منها جزء منها . وكذلك في الروضتين ١١٨/١ - ١١٩ (النيل) وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي بعضها منها في ٢٩٦ وكذلك في تاريخ ابن الفرات ج ١ في ١٨١/٤

وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا أَنْقَسَى وَغَدَا
وَأَنْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الْفُؤَادِ وَقَدْ بَا
وَعَارَ شَمْسُ الصَّلَاحِ مُلْتَمِئًا
لَمَّا غَدَا مَعْلِنًا شِعَارَ بَنِي النَّبِيِّ
وَمَا دَعَى التَّوْحِيدِ مُنْتَصِرًا
يُوسُفُهَا فِي الْأُمُورِ مُحْتَكِمًا
حَ مِنَ الشَّرِكِ كُلِّ مَا اضْطَرَمَّا
بِهَا وَعَقْدُ السَّدَادِ مُنْتَظِمًا
لَا حَقًّا هَ وَالْبَاطِلُ ائْتَمَّا
وَمِنْ دُعَاةِ الْإِسْرَاقِ مُنْتَقِمًا

والقصيدة طويلة مدح فيها العباسيين وأثنى على تقاهم وصلاتهم وسداد علمه ، وكان
العماد فيها عادقاً في وصف أحوال الفاطميين فوصف خراب قصورهم ، وانتهاك أعراضهم
فقال :

عَادَ حَرِيمُ الْأَعْدَاءِ مِنْتَهَكَ الْـ حَرَمِي هَ وَفِي الطُّفَاةِ مُقْتَسِمًا
فُصُورُ أَعْلَى الصُّورِ أَخْرَجَهَا عَلِمَ بَيْتٍ مِنَ الْكَمَالِ سَمَّا (١)

وقوله
وقوله إلى جانب نور الدين في حروبه الداخلية :

لم يشهد العماد من معارك نور الدين الداخلية إلا أواخرها .

ومن الفتح التي شهد لها وصحب نور الدين حين دخلها فتح منبج ، يقول صاحب
الروضتين نقلاً عن العماد : وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله ، فبعث إليه
نور الدين من حاصره وانزعها منه ، ثم توجه نور الدين إليها لتهديب أحوالها وحينئذ
مدحه العماد بمصيدة جيوية ، وصف فيها صاحب منبج بالخروج عن الطاعة وشبهه بالخواج
ورأى في نور الدين رجلاً مسلحاً يُقَوِّمُ اعوجاج كل مُسْتَهْتَرٍ هَ ويصحح ما يفسده غيره هَ قال
فيها :

بُشْرَى الْمَالِكِ فَتَحَ فَلَعَنَتْنِي هَ
أَعْلَيْتَ هَذَا الْفَتْحَ مِفْتَاحاً بِي هَ
وَأَقْبَى وَيَشْرُ بِالْفُتُوحِ وَرَاءَهُ هَ
مَا أَعَجَبْتَكَ الشُّهْبُ فِي أَبْرَاجِهَا
وَلَقَدْ رَمَى مِنْ يَمِينِكَ أَحَقْرُ أَنْ يَرَى
لَكِنْ تَهْدِي بِي مَنْ عَمَّاكَ سِيَاسَةً
فَلَيْتَنِي هَذَا النَّصْرُ كُلُّ مَنْتَوَجِ
فِي الْمَلِكِ يُفْتَحُ كُلُّ بَابٍ مُرْتَجِ
فَأَنْتَهَضُ إِلَيْهَا بِالْجُيُوشِ وَعَسَجِ
طَلِبًا فَكَيْفَ خَوَارِجٍ فِي أَبْنِي
أَثَرُ الْعُبُوسِ يُوْجِهُكَ الْمُنْتَبِلِ (٢)
فِي غَضَبِهَا تَقْوِيمُ كُلِّ مَحْسَبِ

(١) الروضتين ج ١ / ١٦٥

(٢) سنا البرقي الشامي ج ١ / ٦٩ والروضتين ج ١ / ١٥٠

ويعد أن تمّ لنور الدين تهذيب أحوال منهج ، رحل منها إلى الرضا ، فأقام
في قلعتها مدة ، فمدحه العماد بقصيدة أولها :

أَدْرَكَتْ مِنْ أَمْرِ الزَّمَانِ الْمُسْتَهْتَهِي وَبَلَّغْتَ مِنْ نَوَالِ الْأَمَانِ الْمُنْتَهِي (١)

وفيها يوازن العماد بين نور الدين وغيره من الملوك ، فنور الدين ملك جاد غلبت التقوى
والورع عليه ، وليس ثياب العدل ، ومال عن الدنيا إلى الآخرة ، ولذا اشتهر أمره
وذاع عيته ، وبدا خيره ، وعلا ذكره ، وعمل على مساعدة رعيته ، بغنى فقيرهم ، ويجسير
مستضعفهم ، ولا يتأخر عن معونة أحدهم بل يسعى لكسب رضاهم ، ويظل لأموالهم
متفقداً ، وبأمر الله وشرعته متمسكاً

مَا هِيَ عَنْكَ السِّينُ لَوْ حَاوَلْتَهَا	وَالْمُشْرِقَانِ فَكَيْفَ مَنِيحُ وَالرُّهَا ؟
مَا لِلْمَلُوكِ لَدَى ظَهْرِكَ رُونَقُ	وَإِذَا يَدَتْ شَمْسُ الصُّحَى خَفِيَ الشُّهَا
إِنَّ الْمُلُوكَ لَهَيَّوْا وَإِنَّكَ مَنْ فَدَا	وَمَالِهِ وَالْمَلِكُ مِنْهُ مَا لَهَا
شَرِهَتْ نَفُوسَهُمْ إِلَى دُنْيَا عُمُ	وَأَبَى لِنَفْسِكَ زَعْدَهَا أَنْ يَشْرَهَا
مَا نَمَتْ عَنْ خَيْرٍ وَلَمْ يَكْ نَائِمَا	مَنْ لَا يَزَانُ عَلَى الْجَمِيلِ مُنْبَهَا
أَخْمَلَتْ ذِكْرَ الْجَاهِلِينَ وَلَمْ تَزْنِ	مَلِكًا يَذْكُرُ الْعَالِمِينَ مُنَوَّهَا
وَرَأَيْتِ إِرْعَاءَ الرِّعَايَا وَاجْبَا	تَغْنَى فَقِيرًا ، أَوْ تُجِيرُ مَدْلَهَا
لِلرِّضَاهُمْ تَحْفَظَا ، وَلِحَالِهِمْ	مُتَّقِدًا ، وَلِدِينِهِمْ مُتَّقَهَا
وَمَا بِهِ أَمْرَ الْإِلَهِ أَمْرَتَهُمْ	مَنْ طَاعَةَ وَنَهَيْتَهُمْ عَمَّا نَهَى (٢)
عَنْ رَحْمَةٍ لِيَكْبِرَهُمْ لَمْ يَشْتَفِلْ	عَنْ رَأْفَةٍ يَكْبُرُهُمْ لَنْ تُشَدَّهَا (٣)
بِالْبَأْسِ عِنْدَكَ آمَلْ لَمْ يَمْتَحَنْ	بِالسَّرْدِ دُونَكَ سَائِلٌ لَنْ يُجَبَّهَا

وعنى طويلة ، فما أبدع هذه الصفات ، وما أروعها ، ولعل لا أبالغ إذا قلت : إن أي ملك
كريم أو حاكم عادل يتمنى أن يتصف بها ويحصل عليها ، وأن ينهج هذا السلوك ، لقد
أعجب أبو شامة بهذه الأبيات فقال : " رحم الله العماد فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة

(١) هذا البيت ورد لوحده في بداية قسم شعراء الشام ص ٤٥ إشارة إلى القصيدة ، ولم
يسرد العماد غيره .

(٢) في الأصل " لكبيرهم " وما كتبتاه أنسب .

(٣) سنا البرق الشامي ج ١ / ٦٦ والروضتين ج ١ / ١٥٠ (النيل)

(١) بأحسن لفظ وأرقه والعماد حين نظمها كان مؤمناً بما يقول ، معتقداً ما ينظم ، وصح
 نصف النسخ شيئاً ما جاءت القصيدة رائعة ، قليلة الجناس ، خفيفة التصنيع ، خفية التكلف
 بشكل واضح كل الوضوح .

(٢) وفي سنة ٥٦٤ هـ أرسل نور الدين أحد قادته إلى قلعة جعبر ليتسلمها من
 صاحبها شهاب الدين مالك بن علي العقيلي ، فأنشده العماد قصيدة مدحه فيها وأثنى
 عليه ونظم أوصافه وكلها عرر ، تتحدث عن أعماله ، وكلها إنشأه وبناءه وتشيد فقال :

أَسْلَمَ لِبِكْرِ الْفُتُوحِ مُفْتَرَعًا وَوَدَّ لِمَلِكِ الْبِلَادِ مُنْتَرَعًا
 فَإِنَّ أَوْلَى الْوَرَى بِهَا مَلِكٌ عَمْدًا بِنَيْبِ الْخُطُوبِ مَسْطَرَعًا
 إِنَّ ضَاقَ أَمْرٌ فَفِيهِ هِمَّتِي لِكَشْفِ ضَيْقِ الْأُمُورِ كَيْنَ مَسْمَعًا
 يَا هُمَيِّ الْعَدُوِّ بِنَدِ مَيْتَتِي وَرَافِعِ الْحَقِّ بَعْدَ مَا اتَّسَعَا

وقال في أعماله التي يفضل بها غيره من الملوك والأمراء :

أَسْقَطَتْ أَفْسَاطُ مَا وَجَدَتْ مِنَ الْمَدِّ مِنْ بَعْدِي ، وَالْقَاسِطُ أَرْتَدَا
 وَلَمْ تَدْعُ فِي ابْتِغَاءِ مَصْلَحَةِ الْوَدِّ سُدَّ مِنْ لَنَا بَاقِيًا وَلَكِنْ تَدْعَا
 وَكُنْ مَا فِي الْمُلُوكِ مُفْتَرَعًا مِنْ الْمَسَالِي لِمَلِكِكَ اجْتَمَعَا (٣)
 عَمَّتْ الرِّبْطُ وَالْمَدَارُ مِنْ تَبَعِ فِيهَا نَوَابِغٌ وَتَهْدِيمُ الْبَيْعَا
 مَا زِلْتَ ذَا فِطْنَةٍ مُؤَسَّسَةً عَلَى عَيْبِ الْأَسْرَارِ مَطْلَعَا (٤)

ولكذا وثق العماد يدافع عن نور الدين وأخذ يوازن بين سيرته وسيرة غيره من
 الملوك ، قرأه للسنة متبهاً وللدن سالكا ، ورأى غيره في الضلال سائراً ، وللبدعة صانعاً ،
 والشعر كما يقولون - ديوان العرب ، ولذا كان العماد يحرص على نشر صفات وأعمال
 نور الدين حتى يستقبله رعايا الملوك الآخرين مرعبين ، وللملوكهم كارهين ، راجين الخلاص
 منهم آملين أن يسودهم ويحكمهم نور الدين .

(١) الروضتين ج ١ / ١٥١
 (٢) اسم رجب نسبت إليه هذه القلعة بعد استيلائه عليها .
 (٣) البيج : الكنائس ، والربط جمع رباط وهو بيت للصوفية .
 (٤) الروضتين ج ١ / ١٥٢

مع صلاح الدين في معاركه الدالية :

عاد العماد من الموصل إلى دمشق ثم لحق بالسلطان ، وقد تسلم قلعة حمص ثم سار إلى قلعة بعلبك فتسلمها في الرابع من شهر رمضان سنة ٥٧٠ هـ فدحه العماد بقصيدة منها :

بِفَتْوحِ عَمْرِكَ يَفْخُرُ الْإِسْلَامُ وَبِنُورِ نَعْرِكَ تَشْرِقُ الْأَيَّامُ
وَفَتْحِ قَلْعَةِ بَعْلَبَكِ تَهْدَبَتُ لَعْدَى الْمَمَالِكِ وَاسْتَقَامَ الشَّامُ (١)

وهو يحثه فيها على توحيد الشام بعد اضطرابه .

وحين جاء عز الدين مسعود أخو صغاب الموصل لنجدة أهل حلب ، والتقى مع السلطان عند حماة ، وتمت عليه الهزيمة ، مدح العماد ناصر الدين محمد بن شيركوه لحسن بلائه في المعركة وأثنى على صلاح الدين لتوحيده بلاد المسلمين وما يقدمه في سبيل نصرة الإسلام وأهله وإضفاف الكفار وأعدائهم حيث قال :

فَدَ حَازَ مَلِكَ الشَّامِ يَوْسُفَ الَّذِي فِي مَبْرِ تَنْبِيْطِ عَصْرَةِ الْأَعْوَارِ
نَصَرَ الْمُهْدَى فَتَوَطَّدَ الْإِسْلَامُ فِي أَيَّامِهِ وَتَضَمَّنَعَ الْكُفَّارِ (٢)
لَمَّا لَقِيَتْ بِمَوْعِهِمْ مَنْظُومَةً غَادَرَتْ ذَلِكَ النُّظْمَ وَعَوْنِيَّارِ (٣)
فِي حَالَتِي جُودٍ وَأَسْرٍ لَمْ يَزَلْ لِلتَّبَرِّ وَالْأَعْدَاءِ مِنْكَ تَبَّارِ (٤)

وقال في وصف المعركة التي قامت عند نهر المصا الذي يمر بالقرب من حماة ، معيراً الحلبيين والموصليين بهزيمتهم ، ومذكراً لهم بما جرى عليهم من هزائم متكررة عند المعركة ، وحمص وبعلبك :

لَمَّا جَرَى الْعَاصِ عِنَّا لِكَ طَائِعاً بِدَمَائِهِمْ فَخَرَّتْ بِهِ الْأَنْهَارُ (٤)
وَتَحَطَّمَتْ عِنْدَ الْقُرُونِ قُرُونُهُمْ بَلْ كَلَّتِ الْأَنْيَابُ وَالْأَطْفَارُ (٥)
عَبَرُوا الْمَعْرَةَ مَا لِكَيْنِ مَسِيرَةٌ وَالْعَارُ يَمْلِكُ نَارَةٌ وَيَعَارُ (٦)
أَوْ مَا كَفَاهُمْ يَوْمَ حِمصٍ وَكَهْمُ فِي بَعْلَبَكِ بِمِثْلِهَا الْإِنْذَارُ (٦)

- (١) الروضتين ج ١ / ٢٤٧ (٢) في الأصل صيرت / وغادرت أنسب للمعنى
(٣) الروضتين ج ١ / ٢٤٨ والتبر : الذهب والتبار : الهلاك ، والتبور / الهالك
(٤) المصا : نهر في سوريا (٥) القرون : قرون حماة مكان قريب منها الروضتين ج ١ / ٢٤٨
(٦) الروضتين ج ١ / ٢٤٨ - ٢٤٩

وانتقى السلطان مع أهل حلب والموصل بقيادة سيف الدين غازي صاحب الموصل في تل السلطان وذلك في العاشر من شوال سنة ٥٧١ هـ فانهمزوا فمدح العماد السلطان بتصيدة غي من أقوى القواعد التي نظمها العماد في حرب صلاح الدين على قتال أهل حلب والموصل وأتباعهم ، وتخليص البلاد من شوهم ، ورجاء عبور الفرات لاحتلال ما وراءه من مدن ، وأمل منه استعادة الرها وحران وغيرهما . وأولها :

يَوْمَ أَسْبَبَ صَبَا الرِّهَابِ صَبَاحَهُ وَرَوَى حَدِيثَ النَّصْرِ عَنْكَ رَوَاحَهُ

وقال في وصف جيش سيف الدين وأطماعه وعزيمته ونجاته ودخوله الى حلب :

أَوْفَى يُرِيدُ لَهُ بِجَرِّ جُنُودِهِ رِيحًا فَجَرَّتْ خَسْرَةَ لُرَاحَهُ
حَمَلَ السَّلَاحَ إِلَى الْقِتَالِ وَمَادَرَى أَنَّ الَّذِي يَجْنِي عَلَيْهِ سِلَاحَهُ
وَلَمْ يَكْسِرْ لَا يُرْجَى جَسْبُورُهُ وَيَقْرَحُ قَلْبَ لَا تَبِيلُ جِرَاحَهُ
وَنَجَا إِلَى حَلَبٍ وَمِنْ حَلَبِ الرَّدَى دُرٌّ وَبِهِ نَجَاتُهُ وَفَلَاحَهُ (١)

ويرى أن أصدقاء سيف الدين قد أساءوا إلى الدين وأفسدوه ، وأن صلاح الدين تمسك به وعمل بما جاءت به الشريعة الغراء :

إِنَّ أَفْسَدَ الدِّينِ المَصَاةُ بِعَنَتِهِمْ فَالِنَاصِرِ المَلِكِ الصَّالِحِ صَلَاحَهُ (٢)

والقصيدة طويلة ذكرها العماد في القسم المصري من الخريدة ، وفيها يحثه على قتال هؤلاء القوم ، وإنقاذ بلادهم ، وتوحيد بلاد المسلمين فيقول :

فَاعْبُرُوا إِلَى الْقَوْمِ النُّرَاتِ لِيُشْرِبُوا الدُّ مَوْتَ الأَجَايِ فَقَدْ طَمَّ طَفَاحَهُ (٣)
لَتَفُكَّ مِنْ أَيْدِيهِمْ رُغْمَ الرُّهَا عَجَلًا وَيُدْرِكُ لَيْلَهَا إِسْبَاحَهُ
وَابْعَثُوا الحِرَانَ الخَلَّاصَ فَمَنْ بَهَا حِرَانٌ قَلْبِ نَحْوِكُمْ مَلْتَا حَهُ (٤)
نَجُوا البِلَادِ مِنَ البَلَاءِ يَعْذُ لَكُمْ فَالظُّلْمِ بَادٍ فِي الأَجْمِيعِ سِرَاحَهُ
وَاسْتَفْتَحُوا مَا كَانَ مِنْ مُسْتَفْتَلِقٍ فِيهَا فَرَيْتُمْ لَكُمْ فَتَّ سَاحَهُ

(١) بعض الأبيات في الروشتين ٢٥٥/١ والقصيدة طويلة في القسم المصري من الخريدة

ج ١ ص ١٧ - ٢٢

(٢) الخريدة - القسم المصري ج ١/١٨ (٢) الأجاج : المر

(٤) ملتاحه : من لاحه المعطش : غيره

قُولُوا لِأَهْلِ الدِّينِ تَسَرُّوا بِعَيْنِنَا فَلَقَدْ أَقَامَ عَمُودَهُ سَفَاحَهُ (١)
وَبَشْرَايَ كَأَلِ الشَّامِ مِنْ سُلْطَانِيهِ جَدِلُ الْفَوَادِ بِنَصْرِهِ مُرْتَاخُهُ (٢)

وهناك قصائد أخرى غير ما ذكرنا ، ولكنها تعطى الانطباعة السابقة نفسها فلا داعي لذكرها .

ثالثا : التهاني :

وهي قصائد مدحية كان العماد يعظمها حين يتم انتصاره على عدو ، أو تفتح مدينة وعلى لا تخرج عن قصائد المدح ، إلا أنه كان يبديها في القالب بيت شعر - أو أكثر - يشير فيه إلى سبب نظم القصيدة ، ومثال ذلك قصيدته حين هنا نور الدين يفتح مصر ، فقال :

بُجِّلَتْ مِصْرَ أَهْنَى مَالِكِ الْأَمْسِ فَأَسَمَدٌ وَأَبَشْرٌ بِنَصْرِ اللَّهِ عَنِ أُمِّ (٣)

ومنها قصيدته التي هنا فيها صلاح الدين بملك مصر ، فقال :

أَهْنَى الْمَلِكِ النَّصِيرِ رَّبِّ بِالْمُلْكِ وَالنَّصِيرِ (٤)
وَمَا مَهْدٌ مِنْ بَنِيْنَا نِ دِينِ الْحَقِّ فِي مِصْرِ

ومما نظمه العماد على لسان غيره مهنتا صلاح الدين بملك مصر :

هَيْئَةً لِمِصْرٍ حُورٍ يُوَسِّفُ مَلِكُهَا بِأَمْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْفُوتَا (٥)

ومنها قصيدة العماد التي هنا فيها نور الدين بعيد العطر سنة ٥٦٦ هـ ، وختان ولبيده الملك الصالح إسماعيل ، والتي يقول في أولها وهي طويلة :

عِيدَانِ : فَطَاهِرٌ وَطَاهِرٌ فَتَحَ لِي قَرِيبٌ وَنَصِيرٌ
كَأَلَهُمْ مَا لَكَ فِيهِ حَقًّا نَفَاؤُا وَأَجْنُرٌ (٦)
وَفِيهِمَا بِالتَّهْنِيَانِي رَسَمَ لَنَا مَوْسَى مَسْمُورٌ

(١) سفاح : سفك الدماء وهي هنا كلمة غير لائقة وأحسن منها " مصباحه "

(٢) الأبيات في القسم المصري من الخريدة (ج ١ / ٢٠ - ٢١)

(٣) الروضتين ج ١ / ١٢٤ (انيل) (٤) المصدر السابق ١٢٦ / ١

(٥) الروضتين ج ١ / ١٨٠ (انيل)

(٦) المصدر السابق ٢٢٧ / ١

ولهذا الفرض يشمل تقريباً قسماً كبيراً من قصائد الشعر السياسي والمدائح
وشعر الجهاد الذي نظمه العماد حين تم لنور الدين وصلاح الدين افتتاح المـسـدـن
الإسلامية من الأمراء المسلمين ، أو من ملوك الفرنجة ، ولذا أحببنا الإشارة إليه
مفهمين لتبين أن هناك قصائد تنظم في المناسبات ومعظمها كان العماد ينظمه
ارتجالاً في يوم الحادثة نفسها أو في المجلس نفسه .

رابعاً : الاستمطاي :

كان العماد إذا وقع في ضيق ، أو اشتدت عليه الأيام يلجأ إلى الشعر يرسله
إلى الخلفاء والسلاطين والوزراء راجياً أن يخلصوه مما عوفيه ، فحين توفي ابن مـبـبـيرة
وزير الخليفة في بغداد ، اعتقل أنصاره ، وكان العماد نائمه في واسط والبصرة ، فاعتقل
عـو الأخر ، ولما رأى أن لا محالة من خروجه لجأ إلى الخليفة المستنجد مستمطفاً
وراجياً ، أن يخلصه من سجنه ، وأن يطلقه من اعتقاله فنظم في شعبان سنة ٥٦٠ قصيدة
رائية بدأها بذكر سابق المودة ، والوفاء ، وحسن النصح والمشورة ، وتحمله للفطيسنة
غير صابر ولا مطيب ، وعو وإن كان لا يوجه كلامه هذا للخليفة إلا أنه نوع من التذكير
بسابق المودة وقديم الصلة ، والأبيات الأولى منها في الخريدة هي :

أَعِيدُكُمْ أَنْ تَغْفَلُوا عَنْ أُمُورِهِ وَأَنْ تَتْرَكُوهُ نَهْبَةً رَلِمِيْرِهِ
عَفَا اللَّهُ عَنْكُمْ قَدْ عَفَا رَسْمُ وَدَّكُمْ خَلَعْتُمْ عَلَى عَهْدِي دِثَارَ دُشُورِهِ
بِمَا بَيْنَنَا (يا صاحبي) مِنْ مَوَدَّةٍ وَفَاءٍ إِنْ أَنْتَ قَانِعٌ بِبَيْسِيرِهِ
وَعِنْدَا أَوْ أَنْ النَّصِحَ إِنْ كُنْتَ نَاصِحًا أَخَا فَقْبِيحٍ تَرَكَهُ بِحُـرُورِهِ (١)

وعندما يستمر في التذكير بالعلاقة الطيبة ، والصلة المتينة إلى أن ينقلنا إلى
حديث دار بينه وبين امرأة مُطَلِّقَةِ السراح رأت والد مع منه غزير ، والقيد يوثق يديه ورجليه
فسألته عن حاله ، وما جرى له ؟ وكيف السبيل إلى خلاصه ؟ فإذا به يناشد عا الله
أن تتركه لأن الخليفة يكفل جبر كسره وإطلاق سراحه :

(١) الخريدة - القسم العرفي (١/٥٦)

(١) وَمَطْلَقَةٌ لَمَّا رَأَيْتَنِي مُوشِقًا أَعَانَتْ بَدَمٌ مَعَ أُنْرَعَتْ مِنْ غَدِيرِهِ

تَنَادَيْتَنِي بِاللَّهِ: مَنْ لِي؟ وَمَنْ يُرِي؟
يقوم لبهت شدته بأمره؟

فَقُلْتُ لَهَا: بِاللَّهِ عُدِي؟ فَإِنَّمَا نَعُو الْكَافِرُ الْكَافِي بِجَبْرِ كَسْبِهِ

والقصيدة طويلة ومنها ما وجهه إلى الخليفة مستمطفاً:

وَقَدْ لِلذِّي فِي الْجَدْبِ أَطْلَقَ جَدُّهُ

(٢) سَبِيلَ الْحَيَا حَقِّي نَعَى بِسَدِّ رُورِهِ

(٣) لِمَاذَا حَبَسْتُمْ مَخْلَصًا فِي وَلَائِكُمْ وَمَا اللَّهُ مُلْقِي مَوْعِنًا فِي سَمِيرِهِ

ويقول كذلك:

وَإِنَّ رَجَاءً بِالْإِمَامِ أَنْوُطُ حَفِيْقٍ بِأَمَالِي ابْتِسَامٍ شُورِهِ
تُقَرُّ بِعُلْيَاةِ الْخِلَافَةِ عَيْنِهِمَا فَنَظَرُهَا لَمْ يَكْتَحِلْ بِنَظْرِ سَمِيرِهِ

ويقول فيها مملناً شدة الحبس على نفسه ، ورافعاً صوته شكياً ، وراجياً إطلاق سراحه :

(٤) أَرَى اللَّهَ أَعْطَى يُوسُفًا حُسْنَ يُوسُفٍ وَمَكَّنَهُ فِي الْمَالِئِينَ لَخْمِيرِهِ

بَرْتَنِي سُورُوفُ الْحَادِثَاتِ ، فَأَوْنِسِي تَمَعَّ مَنَى الْإِنْعَامِ عِنْدَ شُكُورِهِ

(٥) كَذَا الْقَلَمُ الْمُبْرِيُّ أَوْتَاهُ أَنْهَارٌ مَقَامٌ يُودَى شُكْرَهَا بِبَصْرِ سَمِيرِهِ

ولكن الخليفة لم يستمع إلى رجائه ، ولم يصح إلى ندائه ، فنظم العماد قصيدة أخرى في

مدحه واستعطافه بدأها متفرلاً ، فقال :

مَقْصُورُهُ أَعْصَى الْهَوَى وَأَطِيعُهُ
عَذَا لَمَرٌ هَوَاكَ ، لَا أَشْطِيْمُهُ

ثم انتقل إلى مدح الخليفة المستنجد ، فأثنى عليه لحمايته للدين ، وحفاظه عليه ،

ومدحه لعفته وتقاه وشجاعته ونداه ، فقال :

وَيُوسُفُ الْمُسْتَنْجِدِ بَيْنَ الْمُقْتَضَى
دِينِ الْهُدَى سَابِغِ السَّمَادِ رَفِيْعُهُ

(١) في الخريدة المطبوعة: أعنه دمع " وفي الهامش في إحدى نسخ الخريدة المخطوطة

(أعانت بدمع وغو أنسب للمعنى) .

(٢) سبق الإشارة إلى هذه القصة ، والعماد يكرر بعض مضمانيه أحيانا .

(٣) في الخريدة المطبوعة " ملقى مؤمن " وفي الهامش في إحدى نسخ الخريدة المخطوطة

(ملقى مؤمنا) وغو أصح .

(٤) يوسف الأولى : اسم المستنجد الخليفة ، ويوسف الثاني اسم النبي الكريم .

(٥) القصيدة في الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ٥٦ - ٦٠

وختمها بالرجاء ، وأنهاها بالاستعطاف فقال :

<p>بِرِضَاكَ مَا كَشَفَ الْقِنَاعَ قُنُوعُهُ هَيْهَاتَ - يَا مَوْلَايَ - لَسْتُ تُنْصِئُهُ أَوْدَعَتْهُ مِنْكَ الْجَمِيلُ مَذِيبُهُ أَنَّ الرَّجَاءَ إِلَى نَدَاكَ شَفِيعُهُ (١)</p>	<p>يَا أَفْضَلَ الْخُلَفَاءِ دَعْوَةٌ قَانِيعٌ أَيُّكُونُ مِثْلِي فِي زَمَانِكَ عَانِيًا ؟ أَوْدَعُ جَمِيلًا لِي ، أَدْعُهُ فَخَيْرٌ مَنْ حَسَبُ الْمُؤْمِنِ مُجَاجًا فِي قَصْدِهِ</p>
--	--

ولم يستمع المستنجد لرجاء العماد ، وظل في السجن نسيًا منسيًا .

والتفت العماد حوله : إلى من يلجأ ؟ ومن يستكين ويستغيث ؟ فلم يجد سوى عماد الدين ابن الوزير عند الدين الذي كان أبوه أستاذ الدار في عهد المستنجد ووزيراً للمستنقضى فيما بعد . ويبدو أن صداقة حميمة كانت تربط بين العماد وعماد الدين فلجأ إليه آملاً أن يسعف ، ويساعده في إطلاق سراحه ، وتخليصه من محنته ، فنظم في مدحه قصيدة طويلة بدأها متغزلاً ثم مادحاً ، ثم انتقل إلى استعطاف المستنجد والاستفجاء بعماد الدين . . . للعمل على فك قيده وإعادة حرته إليه فقال موجهاً خطابيه إلى عماد الدين :

<p>رَاجِيكُمْ أَبَدًا بِنَيْلِ رَجَائِيهِ دَاوِمٌ بِالْجُودِ مِنْ أَدْوَائِيهِ زَانَ الْعَلَاءِ بِجِدِّهِ وَأَبَائِيهِ حَاشَاكَ تَتْرُكُ عَانِيًا بِعَنَائِيهِ نَسْرِي ، لِفَضْلِ أَنْتِ مِنْ أَبَائِيهِ (٢) أَنْ يَخِيبَ وَأَنْتِ مِنْ شَفَعَائِيهِ ؟</p>	<p>أَبْنِي الْمُخَلَّفَ مَا يَزَالُ مُظَفَّرًا وَإِذَا عَرَا خَطْبُ مِلْمٍ مُؤَلِّمًا يَا مَنْ عَلَا يَحْكِي أَبَاهُ وَجَدَّهُ يُعْنَى الزَّمَانُ بِمَنْ عُنِيَتْ بِأَمْرِهِ كَأَنَّكَ أَبَا نَسْرٍ عَلَى زَمَنِ أَبِي وَاشْفَعْ لِي شَفْعَ وَعْدِهِ بِنَجَازِهِ</p>
--	--

ثم يطلب منه أن يتوسط له لدى والده ليشفع له لدى الخليفة ، ويذكر له حاله وكرمه محتسده فيقول :

(١) الخريدة - القسم العراقي ج ١/٦٠ - ٦٤
(٢) في الخريدة المطبوعة " تشفع " وفي النسخ يذكر أن في إحدى النسخ المخطوطة " ليشفع " وهو أنسب .

ذَكَرَهُ بِعَالِي السَّاحِبِ الْمَوْلَى الَّذِي
 وَقِيلَ : اسْتَجَارَ كَرِيمَ بَيْتِ بِي وَدُوَادِ
 وَالْمُسْتَجِيرُ بِنَا مَجَارٌ لَمْ يَسْزَنْ
 سَافَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِحَالِيهِ
 قَدْ لِلْإِمَامِ عَلَمٌ حَبَسَ وَلِيَّكُمْ
 أَوْ لَيْسَ إِذْ حَبَسَ النَّمَامَ وَلِيَّكُمْ

(١) يَقْوَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَأْيِهِ
 بَيْتَ الْكَرِيمِ وَيَجِدُ فِي أَحْيَائِهِ
 وَلَوْ أَنَّ هَذَا الدَّهْرَ مِنْ أَعْدَائِهِ
 فَأَرَى شِفَاهَكَ مُوجِبَ لَشِفَائِهِ
 أَوْ لَوْ جَمِلَكُمْ جَمِيلٌ وَلَائِيهِ
 خَلَقَ أَبُوكَ سَبِيلَهُ بِدُعَائِهِ

(٢)
 (٣)

ونجحت الوساطة ، ونفعت الشفاعة فأطلق سراح العماد .

سافر العماد بعد ذلك إلى دمشق وعمل مع نور الدين وجرى له ما جرى بصدفاته وحاول أن يلتحق بديوان صلاح الدين فلم يجد إلى ذلك سبيلاً ، فنظر حولـه عليه يجد الطريق الصحيح الموصول إلى الهدف ، فعرف أن القاضي الفاضل خير من يعنيه ، ولكن علاقته بالفاضل كانت ضعيفة ، فماذا يفعل ؟ لجأ عندئذ إلى نجم الدين ابن مصلح الأيوبي المصري الدار ، وأحد كبار أعوان صلاح الدين وصديق الفاضل ، فاتصل به ونظم فيه أبياتاً يرجوه فيها أن يعينه فقال :

لَمَلَّ نَجْمَ الدِّينِ ذَا الْفَضْلِ
 إِنَّ أَجَلَ النَّاسِ قَدْرًا فَسْتَيْ
 وَمِثْلَهُ مَنْ يَسْتَعْنِي بِالْمُضَلِّ

يُذَكِّرُ الْفَاضِلَ فِي سُغْلِي
 بِفَضْلِهِ يَتَمَبَّ مِنْ أَجْلِي
 وَيُسْتَدِيمُ الْحَمْدَ مِنْ مِثْلِي

(٤)

وتوسط نجم الدين لدى الفاضل ، والتقى العماد به ، فمدحه بقصيدة جميلة أثنى فيها على بلاغته وفصاحته وقال منها :

عَايَنْتُ طَوْدَ سَكِينَةٍ وَرَأَيْتُ شَمَّ
 سَرَفِيَّةٍ ، وَوَرَدَتْ بِحَرِّ فَوَاضِلِ

وميخاطب الفاضل راجياً ومستعظفاً أن يتدخل لدى السلطان حتى يلحقه بديوانه :

- (١) برائه : أي برأيه
 (٢) أرى : من الأرى وهو السسل ولهذا يناسب المعنى وقد مر ذلك
 (٣) القصيدة في الخريدة القسم السرافي ١٧٢/١ - ١٧٦ ولاحظ تكرار المعنى لثالث مرة .
 (٤) الروضتين ج ٢٥١/١

مالي وجاءَ الجاهلين ، فأغني
أرجوك مُتَتَبِئاً لَدَى السُّلْطَانِ بِي
عَنَّهُمْ ، كُتِبَتْهُمْ ، وَوَجِدُ بِالْجَاهِ لِي
كِرْمًا عَمَلُكَ يَمْتَنِي بِأَمَانِي
فَقَرَّرَ لِي الشُّغْلَ الْمَبْجَلُ ، مُخْلِياً
بِأَلِي مِنَ النَّهْمِ الْمُقِيمِ الشَّاعِلِ
(١)

ودخل الفاضل إلى السلطان ، وعرفه أنه يرغب في العماد مساعداً ، فوافق وأصبح العماد
من أخلص رجاله .

خامساً : الغزل :

كثر الغزل في عصر العماد كثرة مفرطة ، وكل شاعر يأخذ منه دائماً بأوفى
نصيب ، وقد تناوله الجميع على السواء . والغزل في العماد غرض خصب يترك فيه الشاعر
لخياله العنان وغويص المحبوب ، حقيقة كان أو خيالاً .

وقد ظهر في هذا العصر ثلاثة تيارات غزلية : غزل عفيف ، وغزل صريح
وثالث هو الغزل بالمذكر .

والعماد هو أحد شعراء هذه الفترة ، وكان يميل دائماً إلى النظم في الغزل
العفيف ، مع عدم الخروج عن الحدود المفقولة والألفاظ اللائقة ، وفي أحيان نادرة
ارتكبه في جماعات نظم أثناءها شعراً يتغزل فيه بالمذكر ، وباعترافه كان ذلك تقليداً لشعراء
سبقوه ، وسوف نشير إلى ذلك في معرض ذكرنا للمسئلة .

ويبدو أنّ شعره الغزلي كان مرغوباً فيه ، لأننا وجدنا ابن الساعي يختار
جزءاً من غزلياته في كتابه المفقود على الأغلب - المسمى " غزل الطراف ومغازلة الأشراف " .

وينقسم غزل العماد إلى ثلاثة أقسام : أولها : غزل مقدمات القصائد .
وثانيها : غزل محض في قصائد كاملة غزلية محضة . وثالثها : الغزل بالمذكر وهو أقلها .

أما الذي في مقدمات قصائده ، فلمثل أكثره ورد في أشعاره المدحجية ، خاصة
القصائد التي نظمها في الفترة الأولى من حياته ، وصنفي بها مديحه للخلفاء والوزراء
في بغداد ، ثم مديحه في السنوات الأولى من مديحه إلى الشام ، ولكننا نجد أن العماد
يترك هذا الغزل - على الأغلب - في معظم قصائد الجماد المدحجية منها والوصفية .

ولعل من أوائل القصائد التي نظمها أشعاره في الخليفة المقتدى ، وكان لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، وقد بدأنا بالفرز ، ولكنه قبل أن يبدأ بوصف حبيبته أو أية غانية من النساء ، يبدؤنا بمعدة أبيات يطلب من اللائم أن يتركه وسبيله ، فاللوم معه لا ينفع والمذم لا يفيد ، فالحب قد ملك عليه فؤاده ، ومدامعه تكشف حبه مهما حاول إخفائه ، قال :

كُنْ عَادِرِي فِي حُبِّهِمْ لَا عَادِلِي يَا فَارِغًا عَنْ سُخْرِ قَلْبِي الشَّاعِلِي
 هَبْ أَنْ سَمِعِي لِلنَّصِيحَةِ قَابِلِي مَا تَأْفِكِي وَالْقَلْبَ لَيْسَ بِقَابِلِي
 أَخْفَيْتِ سِرَّ الْوَجْدِ خَيْفَةَ عَدَلِي فَتَعْرِفُوا مِنْ أَدْمَعِي وَمَخَابِلِي
 لَمْ يَقْبَلُوا عَذْرَ الْمُحِبِّ وَقَابِلُوا حَقَّ الْهَوَى مِنْ لُؤْمِهِم بِالْبَابِلِي
 مَا لَوْ إِلَى وَصَلِي ، فَجِئِنِّ وَصَلْتَهُمْ مَلُّوا ، وَلَيْسَ يَمَلُّ غَيْرَ الْوَاصِلِي

ثم ينتقل بمد ذلك إلى وصف محبوبته التي سحره طرفها ، وأسكره رضاها ، وملك فؤاده حسنها وقدحها ، ودقة خصرها ، وعضفاً حسياً فيقول :

(١) وَأَغْنِ طَرْفِي سِحْرَهُ وَرُضَابِي فِي سُكْرِهِ عَنْ بَابِلِي
 صُتْلُونُ كَمَا مَعِي ، مُتَمَفِّقًا كَمَا تَرِي ، مُعَدِّرًا كَمَا سَأَلِي
 أَنَا فِي الصَّنَى كَالْخَصْرِ مِنْهُ أَشْتَكِي مِنْ جَائِعًا مَا يُشْتَكِي مِنْ جَائِلِي
 يَا قَلْبَهُ الْقَائِسِي تَعَلَّمْ عَطْفَهُ وَتَمَائِلًا مِنْ عَطْفِهِ الْمُتَمَارِلِي

وله قصيدة ثانية مدح فيها الخليفة المستنجد ، وبدأنا متغزلاً ، وفيه ما يذكر اسم محبوبته سلمى صراحة ، وإن كنا لا ندري إن كان هذا اسماً حقيقياً أو اسماً رمز فيه العماد مثل كثير من شعراء الفزل السابقين إلى محبوبته قال العماد في أولها :

رَسَمَ عَلَيَّ لِذَلِكَ الرَّسْمِ أَنِّي أَقَامِسُهُ مِنْ صَنَى جِسْمِي

ويصف حبه العميق لمحبوبته سلمى ، ولا يقبل لوم اللائمين ، فقد رضع حبها منذ طفولته ولكن ذلك لا يعنى أنها تواصله ، لأنها متمنعة عليه ، بمعدة المنال صعبة الوصال ،

(١) باهل : من مدن العراق ينسب اليها السحر والخمر / عامر الخريدة - القسم العراقي ج ١ / ٤١

وعظاها له مقاطعته ، وتمخذيها له هجرائه ، ولكن حبه لها يزداد ، ودموعه تكشف ما
 يخفيه من وجد ولوعة ، إن قلبه قد امتلأ بحبها ، ولكنها لم تحطف عليه ، فأصابه الهم ،
 وسيطر عليه القلق ، قال :

دار على حرب الزمان لنا جنحت بها سلمي إلى سلمي
 ما للهوى أبدا يلازميني فيها ؟ فهن كعب الهوى باسمي (١)
 يا صاح تعذلي على شافي ما زان يعذرنى له خصمي
 اني رصت لبان حبيهم ويمز عنه - وإن جفوا - فطمي (٢)
 كلم براقهم ولو كنت لسي في حبيهم ، كلم على كلم

وفيها يصف عذابه ، وما سببه له المحبوب من الهم الشديد والحزن العميق ، وما
 أصاب جسمه من نحول ، فيقول :

أوما سوى عجزى عقابهم أم ليس غير هواهم جرمي
 أما الفرام فأدومي أبدا يحربين عنه بألسن عجم
 والقلب مسكنهم ، فكيف رضوا أن يجسلوه مسكن الهيم
 والسقم في جسم المحب ، فلم وصفت عيون البيض بالسقم ؟ (٣)
 آدم سقن دمي بأعينها بالترجان من الدمى الأدم

وصف فيها كذلك حبيته بأوصاف حسية فالعيون لجمالها تغزو القلوب ،
 والوجوه أقمار سمينة حين تكشف النغم ، فإن وضع اللثام فالوجه هلال جميل ، أما الخصور
 فرفيقة منزلة ، وهي لرقصها تنصف عن حمل الأعجاز والأرداف المتلقة :-

ما كنت أعلم قبل رؤيتها أن النواظر أشبهت نسي (٤)
 أقمار خمير إن سفرن لنا وإن انتقمين أيلة اللثام (٥)
 يصفن عن حمل الأزار قليم ، يخملن أوزارا من الإثام ؟

(١) شفى الحب شعفا : أحرق قلبه (٢) الخريدة - القسم المراقى ٤٨/١
 (٣) الأدم : جنى أدما ، والأدمة هي الناس السمرة ، وفي الظيا : لون مشرب بياضا .
 (٤) تصي : تقفن (٥) انتقمين : أي لبسن النقاب أي نصف مجربات .

وحاجب الحبيبة قوس تصيب من يراها ، فلا يستطيع بعد ذلك ترك هواها ،
وريقها خمر معتقة تسرُّ شاربها وتبعث في نفسه النشوة :-

مَنْ مُنْصَفَى مِنْ جَوْرِ حَاجِبِهِ وَلِحَاطِظِهِ عَنْ قَوْسِهِ تَرْمِي ؟
وَحَلَا وَمَرَّ تَجْنِيًّا وَجَبْنِي يَا شُهْدَهُ هَلْ لَمْ شَيْبَ بِالسُّمِّ ؟
الْخُمُرِ رَيْقَتَهُ ، وَقَدْ عَدَيْتْ مَا كُلُّ خُمُرٍ مَسْرَّةُ الطَّمْسِ (١)

ومعظم قصائده المدحية في الفترة الأولى من حياته وتغنيبه بها كان قبل رحيله
إلى الشام - وكان يبدؤها بالفزل ، وأما قصائده التي قصرها على الفزل فلم يترك منها
سوى مقطوعات قصار ، ولا ندرى هل كانت مقدمات لقصائد مدحية أوردتها المؤرخون
منفصلة أو كان الأمر غير ذلك .

ومنها مقطوعة أوردها الصفدي يتفزل الممد فيها بمحبوته ومخاطبهم
بأسلوب المذكر ، وعوف فيها لا يخرج عن الأوصاف السابقة الذكر ، فيقول :

يَا نَيْصِيمَ الْكُشْحِ فِي حُبِّي لَسْتُ لَمْ يَزِدْنِي كَاسِحِي إِلَّا اهْتِضَامًا
كُرْمَ الْمَاشِي فِيهِ مَثَلُ مَا لَوْ الْعَادُونَ فِيهِ حِينٌ لَأَمَّا
يَقْوَامُ عِلْمِ الْهَزِّ الْقَنَّا وَلِحَاطِظِ تَوْدِعِ السُّكْرِ الْمُدَامَا
أَتْرَاهُ إِذَا تَشَقَّى وَرَنَّا سَمَّهْرِيًّا نَزَّامٌ سَلَّ حَسَامَا
خَدَهُ يَجْرَحُهُ لِحْظُ الْوَرَى فَلَذَا عَارِضُهُ يَلْبَسُ لَأَمَّا
وَبِرِّكَ الْخَطِّ مِنْهُ دَائِبَرَا هَالَةَ الْبَدْرِ إِذَا حَطَّ اللَّثَامَا (٢)

ويغلب على ظننا أن معظم مقدمات قصائده الفزلية ومقطوعاته كانت تقليداً لمن
سبقه ، ولم تكن إلا محصن خيال ، فقد وجدناه يقلده بيتين أوردتهما للمعتمد بن عباد في
الفزل ، يقول بعد أن سطرهما في خريدته : ولما علفت غدين البيتين في هذا الجزء
في دمشق سنة ٥٧١ هـ عيَّلتُني أسلوبهما :

(١) الخريدة - القسم السرافي ج ٤٦/١ - ٥٠

(٢) الوافي بالوفيات ١٣٥/١

ثم يورد أبياته الثلاثة في تقليد سبطا وعى :

رَأَوْتُهُ فِي قُبَّةٍ كَلْبَةٍ رَمَنْ وَجِهُهُ فِيهِ الْحَلْوُ وَمِنْ ...
 فَأَغْضَاظَ مَنِي حَنْقًا كَأَنَّهُ لِي مَضْمُونٌ طَفِينٌ
 قُلْتُ إِنَّ بَدَلْتِ مَمَلًا يُرْسِبَتِ مَنِي قَالُ : إِنْ (١)

أما شعره في الغزل بالمذكر ، فلم نجد له سوى مقطوعتين أوردتهما اثنا عشر ترجمته للشاعر الفزري في الخريدة . قال السمد في تقديمه للمقطوعة الأولى - بمسند أن أورد أبياتا للفزري في الغزل بالمذكر - : " وسألني بعض أصدقائي ببغداد أن أعمل في معناه شيئا نقلت بديها : "

وَسَرَّاجٌ سَرَى فِي الْقَلْبِ مَنِي هَوَاهُ ، وَحَلَّ مِنْ طَرَفِي السَّوَادَا
 يُسَهِّلُ لِلرَّكُوبِ لَنَا طَرِيقًا بِصُنْعِهِ وَلَا يُعْطِي الْقِيَادَا
 وَمَا يَقْرَى بِشَفْرَتِهِ أَدِيمًا كَمَا يُغْرَى بِمَقْلَتِهِ الْفُؤَادَا (٢)

أما الثانية فقد أوردنا بعد المقطوعة الأولى مباشرة ، وقال : وقلت أيضا في غلام سراج - :

قَدِيتَ سَرَّاجًا ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَشْقِ عِنْدِي حَسَنُ رَاجٍ هُوَ
 يَقُولُ لِي أَزْكَبِي وَلَا تُفْشِرِي يُرِيدُ الْجَامِيَّ وَأَسْرَهُ رَاجَهُ (٣)

ويقول السمد - بعد أن أوردنا . وعنده نظمها بديها ، وفي إثباتها هنا التكشف لجهايزة الكلام والتصدي للقرائح الصافية بقريحتي المشوية ، وما أوردتها لجودتها على أنها ما تقتضون النهاية ، بل لمناسبتها وكونها لا ثقة بهذا الموضع .

وعنده المقطوعة على التي استغلها الصفي ليتهايمه بالشذوذ الجنسي وقدم أوردناها في معرض حديثنا عن أخلاقه ، وأثبتنا اختلافه لها لعدم ورودها في " بدائع البدائ" - مصدر الخبر . وإن كنا نؤمن لو أن السمد لم ينظم مثل هذا الشعر الباجن

(١) الخريدة - قسم شعراء المغرب ٢/٤٥

(٢) الخريدة - قسم الشام (١/٢٩ - ٣٠)

(٣) المصدر السابق (١/٤٠) وقد سبق ذكرها في حديثنا عن صفاته وأخلاقه .

فيسن إلى شخصه وعلمه وفقهه ، وقد أورد الخفاجي في "ريحانة الألباء" بيتين للعماد
يفصل فيهما الأنتى على الذكر وينكر على بعض من سبقه تفضيلهم الذكر على الأنتى .

يقول الخفاجي بعد أن أورد كلاماً كثيراً وأشعاراً عن تفضيل الشعراء للذكر
على الأنتى " ومن خالف هذه المعاني الأدهب الأصفهاني حيث قال :

تَبِكَ حَبِيبَتِي أَزْدَعْتَنِي طَيِّبًا أَوْسَعَتْ فِيهَا ابْنَ هَانِي تَكْدِيبًا
لَوْ أَمَعَنْتَ فِيهَا النُّحَاةَ نَظْرًا لَمْ تَوْصَى فِي الْمَذُكَّرِ التَّفْلِيبًا (١)

وقد تقدم رأينا الحاسم في غذا الاتهام .

سادساً : الشوق والحنين :

غرض بارز في شعر العماد ، نظم فيه شوقاً إلى أهله ، وحنيناً إلى دمشق وما
حولها وتذكراً لمصر ومن فيها :

ولم يظهر غذا الغرض في شعر العماد في بداية حياته ، ولكننا فوجئنا
بانفجار لوعته وتوقد عاطفته ، حين حدثت الزلزلة في بلاد الشام سنة ٥٦٥ هـ ، فدمرت
وأظلمت وقتلت وأبادت ، وعمدت وخربت ، فأشارت لواعجه ، ومشت آلامه ، وانعكست
مشاعره العميقة شعراً سلسلاً ، يتموج حناناً ومثله إنساناً ، ولا ندرى هل كان أبوه حياً
آنذاك : ولكننا نعرف أن أخاه تاج الدين كان يعمل في ديوان الخلافة ببغداد ، وسيأتي
وصف الزلزال فيما بعد ، أما أبيات الحنين التي تشوق فيها إلى أهله في بغداد واعتذر
عن غذا اليكاري بحجه للجهاد ، ومازمته للملك الكريم الجواد نور الدين حيث يقول :

دَهْرِي سَمْعُونِي تَجَلَدًا وَأَشْرِي تِياقًا وَمَحَانٍ تَجَمُّعُ الْأَضْدَادِ
أَيُّهَا بَعْدَ الْأَحْبَةِ يَا قَلْبِي سَبِي وَمَا بَدَّه شُرُوطِ الْبُودَادِ
ذَا بَقَلْبِي وَسَانَ فِي الدَّمْعِ لَمَسًا دَامَ مِنْ نَارِ وَجْدِي فِي اتَّقَادِ
طَا الدَّمْعُ الَّذِي تُحَدَّرُنَا الْأَشْرُ سَوَائِي إِلَّا فَتَائِتُ الْأَكْبَادِ
حَبْدًا سَاكِنُو قَوَادِي هُوَ وَعَمْرِي بِهِمْ يَسْكُنُونَ سَفْحَ الْبُودَادِ

أَتَمَّنِي بِالشَّامِ أَهْلِي بِبَغْدَادَا د ، وَأَيْنَ الشَّامِ مِنْ بَغْدَادَا
مَا اعْتَيَاضِي عَنْ حُبِّهِمْ يَعْلَمُ الدَّ مَا تَعَالَى - إِلَّا بِحُبِّ الْجَهَادَا
وَاشْتِغَالِي بِخِدْمَةِ الْمَلِكِ الْمَسَا دِي مَحْمُودِ ، الْكَرِيمِ ، الْجَوَادِ (١)

ونجد أن هذا الحنين يزداد حين اضطرر إلى ترك الشام إلى الموصل في طريقه إلى بغداد ، فأقمنه المرض ، فنظم قصيدة في الشوق إلى دمشق ، وتظهر فيها حسرته ، ولوعته وحبّه العميق للبلد الذي آواه ، ورفع مكانته وجعله من عدد رجاله .

وقد نظم أشعاراً أخرى حين رحل مع السلطان سنة ٥٧٢ هـ إلى مصر ، وكانت رحلته الأولى إليها ، فكان كلما نزل مكان ينظم فيه شعراً يفيض بالشوق العميق إلى أهله وبلده ، ويرسم صورة ألمه من السفر إلى مصر ، ولكنه ما يكاد يخرج من مصر حتى ينظم شعراً يأسف فيه على فراق هذا البلد التي استمتع بجمالها وخضرتها ، وقضى به أياماً سعد فِيمَا وَسُرَّ ، ولقى فيه من التبجيل والاحترام ما لم يكن يتوقعه وكذلك نظم في الشوق إلى دمشق حين سافر إلى مصر في رحلته الثانية سنة ٥٧٦ هـ .

أما قصيدته التي تشوق فيها إلى دمشق ، والتي نظمها في الموصل سنة ٥٧٠ هـ

فأولها :

(٢) أَجِيرَانِ جَيْرُونَ مَا لِي مُجِيرٌ سَوَى عَطْفِكُمْ فَأَعِدْ لَوْ أَوْ فَجُورُوا
وَمَا لِي سَوَى طَيْفِكُمْ زَائِرٌ فَلَا تَمْنَعُوهُ إِذَا لَمْ تَزُرُوا
يُحَمِّزُ عَلَيَّ بِأَنَّ الْفَقْرَ لَدَيْكُمْ أَسِيرٌ وَعِنْدَكُمْ أَسِيرٌ
وَمَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي أَعْيَا شَيْءٌ بَعْدَ الْأَجْبَةِ إِنِّي عَبَسُورٌ

وفيها يعدد البلاد والقرى وسواحي دمشق التي تضي فيها شطراً من حياته ، وتذكر فيها ذكريات جميلة ، فذكر بانياس ، ونهر يزيد ونهر ثورا وبردي والفرج والقصير ، فقال :-

(١) الروصتين ج ١/١٨٥

(٢) جيرون : اسم لدمشق أو لأحد أبوابها

إلى ناس بنياس هي صبة صوة لها الوجد داع وذكره مشير (١)
 يزيد اشتياقي وينمو كما (يزيد) و (ثورا) يشور (٢)
 ومن بردى برد قلبى المشوق فيها أنا من حره مسه تجير (٣)
 وبالمن مزجوعين السدى على ذكره العذب عيسى مرير (٤)
 فقدكم فقدت الحياة وسوم اللقاء يكون النور

ويستمر في ذكر المواضع والمواقع لنجدته بعد ذلك يأمل من الله سبحانه أن يحقق المعجزة ، فتغير الأوضاع في دمشق ليعود إليها ، ويدخل من باب السلامة ، ويعبر من باب الصغير ، ولا عجب فدمشق عنده جنة الله في أرضه ، وشوقه إليها لن تحوه الأيام والسنون ، وفي هذا يقول :

ويطيب بشراي من جلتي إذا جاني بالنجاح البشير
 ويستبشر الأعداء الكرام سنالك بس ، وتوفى النذور
 ترى بالسلامة يوما يكون (بياب السلامة) متى عبور
 وإن جوازي (بياب الصغير) لسموي من الصبر حظ كبير
 وما جنة الخلد إلا دمشق وفي القلب شوقا إليها سفير
 مياها ينها الخضرفيح الرحاب وسلمالها العذب صاف نير (٥)

وقد مدح في نهايتها السلطان وحشه على إكمال مسيرته ، والاستمرار في الجهاد .

وحين خرج السلطان من دمشق إلى مصر في اليوم الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٢ - وكان يوم الجمعة - رافقه وصحبه ، وظل إلى جانبه حتى يوم عودته لدمشق ، وقد نظم العماد في رحلته هذه قصائد ومقطوعات عديدة ، ظهرت فيها آلام فراقه لأهله وأحبائه ، ومن المؤكد أن العماد كان قد تزوج في تلك الفترة ومن المحتمل أنه كان قد رزق بأولاد خزلها .

(١) في الروضتين بنياس وفي الخريدة - قسم الشام باناس وهو أحد فروع بردى ، وتلفظ به العامة بانياس ، وترجم له ياقوت في معجمه ، وبنياس أصح للوزن الشعري (عاشق الخريدة بداية قسم شعراء الشام ص ٢٠) و ذكر " وجاءت في الخريدة والروضتين ذكرى وصححتها لتصبح وذكر مشير +

(٢) يزيد وثورا : فرغان من بردى (٦) كذا والصواب : فيها أنذا

(٤) المن السهل الواسع ، وربما قصد العماد المرح الذي شرقى دمشق عند مصب نهر بردى .

(٥) الخريدة بداية قسم شعراء الشام ١٩-٢٦ والروضتين (النيل) ١/٢٤٠ وباب السلامة وباب الصغير من أبواب دمشق .

وأطول هذه القصائد شهيدته التي أوردتها في الخريدة - قسم مصر - والتي
أولها :

عَجَزْتُكُمْ لَاعِنَ مَلَانٍ وَلَا عَسَدٍ وَلَكِنْ لِمَقْدُورٍ أُتِيحَ مِنَ الْأَمْرِ

وفيها يستدرك لأهله عن مرافقه لهم ، ويعترف بخطئه في هذا الفراق ، فيقول :

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي أَنْ يُتَاحَ فِرَاقُكُمْ وَمَنْ يَسْلُمُ الْأَمْرَ الْمَقْدُورُ أَوْ يَدْرِي ؟
وَأَعْلَمُ أَنَّ مَخْطِئِي فِي فِرَاقِكُمْ وَعُذْرِي فِي ذَنْبِي وَذَنْبِي فِي عُذْرِي
أَرَى نَوْبًا لِلدَّعْوَى تَحْصَى وَمَا أَرَى أَشَدَّ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي نَوْبِ الدَّعْوَى
يَحْيِيَنِ إِلَى لُقْيَا سِوَاكُمْ غَشَاوَةٌ وَسَمِعِي إِلَى تَجْوَى سِوَاكُمْ لَذْوٍ وَقَرٍ (١)
وَقَلْبِي وَعُذْرِي فَارْقَانِي لِيُثِدَّكُمْ فَلَا صُدْرِي فِي قَلْبِي وَلَا قَلْبِي فِي صُدْرِي

ومنها :

تَجَرَعْتُ صِرْفَ الْمَهْمِ مِنْ كَأْسِ شَوْقِكُمْ فَهِيَ أَنَا فِي صَحْوِي نَزِيفٌ مِنَ السُّكْرِ (٢)
وَأَنْ زَمَانًا لَيْسَ يَغْمُرُ مَوْطِنِي يُسْتَنَّاكُمْ فِيهِ فَلَيْسَ مِنَ الْعَمْرِ
أَسِيرٌ إِلَى مِصْرَ وَقَلْبِي أَسِيرٌ وَمِنْ عَجَبِ أَسْرَى وَقَلْبِي فِي أَسْرِ
أَخْلَى فِي شَطِّ الْمَزَارِ فَأَرْسَلُوا الْخَيَْالَ وَزُورُوا فِي الْكُرَى وَارْتَحُوا أَجْرِي
تَذَكَّرْتُ أَحْبَابِي بِجِلْقِ بَعْدَ مَا تَرَحَّلْتُ وَالْمَشْتَاقِ يَا نَسَّ بِالذِّكْرِ

وكلمة بعد للمعاد عن دمشق ازدادت لوعته ، وتصاعف شوقه ، وأخذ الحزن
عليه فؤاده ، وكلمة مرموزة ظهر ألم الفراق على جبينه ، وطفرت الدموع من عينيه غزيرة ، وكلمة
تصاعف الشوق لجأ إلى البكاء بنفس فيه عن همه ، ويخفف من كربه ، وأنه ليقول واصفاً حاله
في كل بلد :

أَعَادَتْكَ يَا زُرْقَاءُ حَمْرَاءُ أَدْمَعِي فَقَدْ مَزَجَتْ زُرْقَ الْمَوَارِدِ بِالْحَمْرِ (٢)
وَسَوْدُ هُمُومِي سَوَدَتْ بَيْنَ أَزْمَعِي فَيَوْمِي بِلَا نُورٍ وَلَيْلِي بِلَا فَجْرِ

(١) الوفر : الصمم (٢) كذا والصواب : فيها أنذا
(٢) الزرقاء : نهر في الأردن ، وعليه مدينة باقية كبيرة في هذه الأيام قريبة من عمان

أَبَا لَيْلٍ زِدْ مَا شِئْتَ طَوِيلًا وَظَلْمَةً ۖ فَقَدْ أَدْعَيْتَ وَنَكَتَ السَّنَا ظَلْمَةَ الْهَجْرِ (١)
تَذَكَّرْتُ حَمَامَ الْقَصِيرِ وَأَهْلِيهِ ۖ وَقَدْ جُزْتُ بِالْحَمَلِ فِي الْبَلَدِ الْقَصِيرِ

والقصيدة طويلة ، ولم يوردها للعماد جميعها بل أورد منها مقطوعات مختلفة ،
وفيما يبق منها يتحدث عن مشاعره حين وصل إلى حمسى وأيلة وصدر وعين موسى والجسر
والسدير وبركة الجب ، والفسطاط ، وحين يصل إلى الفسطاط وينتهي به المطاف في مصر
يعود إلى تذكُر أحبابه في دمشق مرة ثانية ، ويتصور الساعات الأخيرة التي قضاه معهم ،
ويصف ما دار بينه وبين أم عمرو - التي نعتقد أنه اسم وعنى لزوجته لا لمعشوقته - وقد
وقفت بجانبه باكية ، متسائلة عن سبب هذا الفراق الذي لا داعي ولا موجب له ، وقد
سَكَتَ وتمطلت لغة الكلام عنده ، فلم يُحِرْ جواباً . . . وأخيراً لم يجد عذراً يُحتذِرُ به
سوى أنه يقوم بواجبه إلى جانب سلطانة الذي يأمل الخير على يديه والذي سيغير حاله
المعسرة إلى حال من الغنى والثراء والجاه ، وأنه ليقول :

بَكَتْ أُمُّ عَمْرٍو مِنِّي وَشَيْكَ تَرَحَّصَلِي ۖ فَيَا حَجَلْتَا مِنِ أُمِّ عَمْرٍو وَمِنِ عَمْرٍو (٢)
تَقُولُ إِلَى مِصْرٍ تَسِيرُ ؟ تَعْجِبًا ۖ وَمَاذَا الَّذِي تَبْغِي وَمَنْ لَكَ فِي مِصْرٍ ؟
تَبْدُو فِي سَهْلٍ مِنَ الْعَيْشِ قَمَلْنَا ۖ وَتَنْظُمُ سِلْكَ الْعَيْشِ فِي السِّلْكِ الْوَعْرِ
فَقُلْ أَيْضًا عَرَفَ حَدَاكَ عَلَى النَّوَى ۖ يِوَاهُمُ فَقَدْ بَاعَ الْمَرْايِحَ بِالْخُسْرِ (٣)
فَقُلْتُ : مَلَأَنِي النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي ۖ حَصَلْتُ بِجَدِّ وَاةٍ عَلَى الْمَلِكِ وَالنَّصْرِ (٤)

ودخل العماد القاهرة فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم ، ثم خرج السلطان
والعماد بصحبته إلى الإسكندرية في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٧٢ هـ ،
فأحسَّ العماد أن المدة طالت وأن لراقه لأحبابه قد امتدَّ أمده ، وأن يوم العودة إليهم
يبعد وبعيداً ، فقال :

يَوْمًا بِجَنَّةٍ ۖ وَيَوْمًا فِي دِمَشْقٍ وَإِلَى سُسْتَاطٍ يَوْمًا ۖ وَيَوْمًا بِالْبِغْرَاكَيْنِ (٤)
كَأَنَّ حِسِّي وَقَلْبِي الصَّبَّ مَا خُلِقَا إِلَّا لِيُقْتَسَمَا بِالشُّوقِ وَالْبَيْنَيْنِ

(١) حمام القصير : سبق ذكره
(٢) في الخريدة " ما الذي تبغي " وفي الروضتين " وماذا الذي تبغي " وهو الأصح
والبيت في الحالة الأولى مكسور .
(٣) القصيدة في قسم مصر ٦/١ - ٦
(٤) جى : سبق ذكرها وعلى مدينة قريية من أصفهان مسقط رأسه . والبيتان في الروضتين
٢٦٦/١

وحين خرن من القاهرة وركب راحلته وعرفه أن لا أمل في القعود قال :

أُحِبُّكُمْ رَحِبَ النَّفْسِ بِتَسَاهَاهَا وَأَسْتَأْفِكُمْ شَوْقَ الظَّمَا إِلَى السُّورِ
تَرَحَّلْتُ عَنْكُمْ وَالْفُؤَادُ رِيحًا لِيهِ صَبُورًا عَلَى الْبَلَاءِ مَقِيمًا عَلَى التَّوَجُّدِ
فَإِنْ رَمْتُمْ غَدْرِي فَإِنِّي عَلَى الْوَفَا وَإِنْ خَعْتُمْ عَهْدِي فَإِنِّي عَلَى الْعَهْدِ (١)

وينتقل في ربيع مصر ، فتملك عليه فؤاده ، ويعجب بما فيها ، ويعن فيها ، ثم يحين وقت العودة ، فيرحل الراكب إلى دمشق ويصلها في الرابع والعشرين من شوال سنة ٥٧٣ هـ ، ويحسن السواد بالشوق العارم إلى مصر التي قضى فيها أياماً جميلة ، مصر التي كرمته ، وعرفت مكانته فرغته ٠٠٠٠ فيقول :-

سَأْنِي مِصْرَ ، سَتَأْتِكُمْ طَيْبُهُمَا وَإِنَّ عَيْشِي بِمَعْدِكُمْ لَمْ يَطِيبِ
لَا عِدْمَتُ رَاحَةٍ فِي قُرْبِهِمَا فَأَنَا فِي بُعْدِهَا فِي تَعَبِ
بَعْدَ الْعَهْدِ بِأَخْبَارِكُمْ فَابْتَعْثُوا أَخْبَارَكُمْ فِي التَّعَبِ
لَيْتَ مِصْرًا عَرَفْتُ أَنِّي وَإِنَّ رَغِبْتُ عَنْهَا فَالْهَوَى لَمْ يَفِيبِ (٢)

وللعماد عدة قصائد أخرى في المشوق إلى مصر ، لم يخرج فيها عن الأنسكار والمعاني السابقة وإن كان الإحساس العميق ، والحب الجارف يظهر واضحاً فيها .
سابعاً : الوصف :

للعماد عدة مقطوعات شعرية وصف فيها للورد والرياحين ، والشيب والقطائف والمشمس ، والحمام والبق ، وقد أجاد في معظمها إجادة تامة ونظم بعضها تقليداً لشعراء آخرين . وقال بعضاً منها ارتجالاً :

قال في وصف الورد :

قُلْتُ لِلنُّورِ : مَا لَشَوْكِكَ يَدْمِي كَلَّ مَا قَدْ أُسْوَتْهُ مِنْ جِرَاحِ ؟ (٣)
قَالَ : لِي عِزُّهُ الرِّيحَيْنِ جُنْدُ أَنَا سُلْطَانُهَا وَشَوْكِي سِلَاحِي

(١) الروضتين ٢٦٦/١

(٢) الروضتين ٢٧٥/١

(٣) حسن المحاضرة ج ٢/٤٠٥ ونهاية الأرب ١٤/٨

ووصف العماد أترجة بيتين أعجب السعدى بهما كثيراً وسما :

وَأَتْرَجَةٌ صَفْرَاءُ لَمْ أَدْرِ لَوْنَهَا أَوْنُ فَرْقِ السُّكَّانِ أَمْ فَرْقَةُ السُّكْنِ (١)
بِحَقِّ عَرْتِهَا صُفْرَةٌ بَعْدَ حُسْرَةٍ فَمَنْ شَجَرٍ بَانَتِ وَصَارَتْ إِلَى شَجْنِ

ونظم في الشيب عدة مقطوعات ، تشبّهه مرة بالفبار ومرة بالفجر حين تشترق
شمسه وأخرى بتتريب الكتاب ، ومنها ما ذكره بعد أن أورد بيتاً للفزى في الشيب وهو :

مَسَحَتْ عَارِضِي وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُا ظَنَنْتِ الْقَتِيرَ غُبَّارَا

ثم قال : وأنا شبّهته بالفبار في موضع آخر ، وأظن أني ابتكرت المعنى وهو من قصيدة
طويلة ، وفي ذلك يقول :-

وَمَا مَشَيْبُ الْمَرْءِ إِلَّا غُصْبَةٌ تَعَلَّقَتْ مِنْ رُكْنِ عَمْرِ قَدْ غَبِرَ

وقال في الشيب كذلك :-

لَيْسَ الشَّبَابُ تَوْلِيًّا وَالشَّيْبُ صَبْحٌ تَأَلَّى
مَا الشَّيْبُ إِلَّا غُبَّارٌ مِنْ رُكْنِ عَمْرِ تَعَلَّى
رَكْبُكَ لَمَّا تَكَلَّمْتَ تَبَعْدَ أَدْنَاهُمْ أَبَلَّى
وَضَاعَ مِفْتَاحُ وَصْلِ النَّاسِ حَسَانِ كَالْبَابِ مُمَلَّى (٢)
وَلَا حِزَابِي وَتَوْبِي وَلَا غِنَابِي مُطَلَّى

وللعماد في وصف الفبار ومدح القاضي الفاضل ثلاثة أبيات تقدمت أوردتها
كثير ممن ترجموا له معجبين بها ، للدلالة على سرعة بديهته وارتجاله للشعر ، والتزامه
الجناس في آخر كل بيت ، وقد نظمها العماد وهو يساير القاضي الفاضل ، وقد أظلم
الجو من كثرة غبار الجيش فقال :

أَمَّا الْفُبَارُ فَإِنَّهُ مِمَّا أَثَارَتْهُ السَّنَابِكُ
وَالجَوُّ مِنْهُ مُطَلَّى لَكِنْ أَنْسَارُ بِهِ السَّنَابِكُ

(١) الفيث المسجم في شرح لامية المسجم ١٤٢/٢ والخريدة - القسم العراقي ١٥٤/١

(٢) الخريدة - قسم الشام ٥٩/١ والبيتان الأولان في ربحانه الألبا وزعمرة الحياة

يا دهر لي عبد الرحيم فلتت أخشى من نايك (١)

وله قصيدة في وصف القطائف أرسلها العماد إلى صديقه علم الدين الحسن ابن سعيد الشافعي :

ما راقدات في صحون	مستوطنات في سكون
يجلين أشجار الكرا	رئيس بين أبنكار وعون
أو كالمقائل في الخدو	رقد اعتقلن على ديون
هن اللذيات اللوا	تذ بالسهبون من الحزون
أو كالتمايم للصحا	ف وما نيسبن إلى جنون
السكرات الفرنا	فقات الفلريل والشون
صرعى وما دارت لهما	يوما رحي الحرب الزبون
لقدن في أكفانهم	ن على النقى لا للنبون
يحين بالتفريق بل	يشمن في نسي السجون
المستطابات الظهو	ر المستلذات البطون
نعدن بالتوضيح في الن	جلمات كالدرا المنون (٢)

وللعماد في وصف الشمس مقطوعتان كتبهما في جواب رسالة شعرية لصديقه نشر الدولة أحمد بن نفاذ يستدعيه أيام الشمس ، ورسالة النشو الشعرية أولها :

دعا الناس للذات مشمس جلي قد أشرعوا من كل غرب ومشرق
فقم يا عماد الدين تحظ بالكله ولا تشن عنه عزيمة السير تسبق
وقل حين يبدو أصفر اللون مضرنا أيا حسنه من أصفر اللون مشرق (٣)

ويجيبه العماد عليها بمقطوعة يلغزم فيها الوزن وانقافية نفسيهما ، ويظهر فيها شوقه العميق لدمشق ، وحنينه إلى الاستقرار فيها ، والاستمتاع ببهاج الحياة وزينتها

(١) معجم الادباء ١٨/١٦ والواص بالوفيات ١٢٨/١ وطبقات الشافعية الكبرى ٩٧/٤
والنجوم الزاهرة ١٧٨/٦ وشذرات الذهب ٢٢٢/٤
واسنابك الأولى أي سنابك الخيل والثانية السنابك بمعنى النور والفضوء والثالثة بمعنى
الناب . (٢) الروضتين ج ٢١٤/١
(٣) الروضتين ج ٢٠٦/٢ والوافي ١٢٦/١

عنات ، واشتياقه لأعله وحبه لأولاده ، حتى أحس السلطان صلاح الدين بما يدور فـنـ
خلده ، وما يخفيه من مشاعر حبيبة .

ويروى العماد أن السلطان قال له بعد أن سمعها : كأنك تريد أن تظنني إلى
دمشق وتسبقني ، فقلت : الأهل والولد وقد عيـنـ مـنـهـمـ الجـلد ، ولكن غيبتني عن الخدمة أسـمـ
لا يدور بالخلد ، وظلك نحو السكن والبلد ، وما قاله العماد في جواب النشو :

سَلَمُوا نَسَابِيَّ نَحْوَ مَشِيئَتِي جَلِيٍّ وَثُمَّ كَمَا تَهَوَّى عَلَى الْأَكْلِ تَنْتَقِي
وَيَسْفَرُ شَوْقًا لِأَنْتَظَرَ قَدْ وَمِنَا وَمَنْ يَتَحَشَّى ذَا الْفَضَائِلِ يَشْتَقِي
إِذَا حَصَرَتْ أَطْبَاقُهُ غَابَ رُشْدُنَا لِمَا يَتَدَقَّى مِنْ مَشْوَقٍ وَشَتَقِي

ويقول في وصفها مسبها لها بالنجوم مرة ، وبالكرات الفضية مرة ثانية والدنانير مرة ثالثة :

كَأَنَّ نَجْمَ الْأَرْضِ نَوَى عُسُونِيهِ فَيَا حَيْرَتِي مِنْ نَجْمَةِ الْمَتَالِقِ
وَجَنَانَتِهَا مَحْمَرَةٌ وَجَنَانَتِهَا فَمَنْ يَرِنَا مِثْلِي يُحِبُّ وَيَعْشَقِي
بَدَتْ بَيْنَ أَوْرَاقِ الْفُضُونِ كَأَنَّهَا كُرَاتٌ نَسَارٍ فِي لُجَيْنٍ مَطَّرَقِي

وحين سمع السلطان البيت الأخير لم يعجبه تشبيه الورق باللجين وقال له : تشبيه
الورق باللجين غير موافق ، فإن الورق أخضر ، فغير العماد الشطر الأخير وقال :

..... كُرَاتٌ نَسَارٍ بِالزَّمَرِ مَحْدَقِي
تَسَاقَطُهَا أَشْبَارُهَا فَكَأَنَّهَا دَنَانِيرٌ فِي أَيْدِي الصَّيَارِفِ تَرْتَقِي (١)

وعلى طويـلة تحدث العماد فيها عن حبه للشمس وطيب مذاقه ، وتكرم أصدقائه عليه بتقديمه
عدية له ، فإن لم تملكه هدية اشترى من السوق حاجته منه .

وله قصيدة أخرى كتبها جواباً لرسالة النشو السابقة ، لم يلتزم فيها الوزن
والقافية كما فعل في القصيدة الأولى ، والقارئ حين يقرأ أبياتها الأولى يحزن في البداية
أن العماد يتغزل في فتاة جميلة ، ولكننا نجد بعد ذلك يصف هذه الفاكهة على أنعمانها
فيشبهها بالذغب البراق مرة وبوجوه الحسان الحمر مرة ثانية ، ومنها :

قَدْ صَحَّ عَزَمِي عَلَى الْمَسِيرِ نَلَا
أَمْعَى إِلَى دُمِيَّةٍ مَقْبَلَهَا
مَمُورٌ بِلِمْ مَدَّ وَرَعَجَّ بَب
طَلَّوْا بِمَاءِ النَّصَارِ ظَاهِرَةً
أَبْعَى مُقَابِي وَالْقَلْبُ قَدْ رَحَلَا
أَرَشَفُ مِنْهُ الْمُدَامُ وَالْعَسَا
تَرَى بِهِ وَهُوَ جَائِدٌ شُـ
لِبَاطِنٍ فِي حَشَاةٍ نَارٌ طَلَّ

ومنها أبيات في وصفها على أعصابها • وحلاوة مذاقها • وجمال مظهرها • وحسن عورها •
وبديع أشكالها بين أوراقها :

حُمِرْ مَحْسَانُ الْوَجُوهِ قَدْ لَيْسَتْ
عَرَائِسٌ مِنْ خُدُورِهَا بَكْرَزَتْ
زَهْرٌ كَشُتَبِ السَّمَاءِ رَاجِمَةٌ
عُيُونِهَا الرُّمْدُ فِي تَرْقِيئِهَا
مِنْ خَيْرِ أَوْرَاقِهَا لَهَا حُلَلَا
تَحْسَبُ أَشْجَارَنَا لَهَا كَلَلَا
جَنِّ جَنَانَةٍ بِقَطْفِهَا كَفَلَا
جَاحِظَةٌ أَبْرَزَتْ لَنَا مَقَلَا

(٤) وله قصيدة وصف فيها ليلة قضاها على نهر دقلى • وعرفى طريقه من أصفهان
إلى واسط سنة ٥٤٩ هـ • فى تلك الليلة عجمت عليه البراغيت وأخذت تفرسه • ومسى البق
دمه • وحاول طردنا • ولقمتها تسلفت جسمه • فارصة قافزة • ولدته مشتهية • ولجسده
شايوة • وكلما مضى الليل ازداد الفرقان عددا • فكانت ليلة شديدة طويلة مديدة •
وذلك قوله :-

يَا لِحَى اللَّهِ لَيْلَةٌ قَرَضَتْ نِينِي
شَرِبَتْ بِقُفَا دَمِي فَتَمَنَّتْ
قَدْ تَعَرَّيْتُ مِنْ ثِيَابِي لِكَرْبِي
كَلِمَا زِدَتْ مُنْعَبِهِنَّ بِحُسْبِي
فِي دِيَا جِيرَهَا الْبِرَاغِيَتْ تَرَصَا
وَبِرَاغِيَتْهَا تَوَاجَدَنْ رَقَمَا
عَمِيرٌ أَنْتَ لَيْسَتْ مِنْهُنَّ قَمَمَا
عَنْ فِرَاشِي شَرِطَنْ فَأَزِدْ دَنْ جِرْمَا
مَنْ بَرَاغِيَتْ خَلَّتْهَا طَافِيرَاتِ
عَرَصَتْ بِبَيْشِهَا الشَّرِيقَانِ حَوْلِي
وَهَى أَوْفَى مِنْ أَنْ تُعَدَّ وَوَحْصِي

(١) الروضتين ٢/٢١٠ (٢) كلالا : جمع كلة وحى الناموسية

(٤) الروضتين ٢/٢١٠ - ٢١١

(٤) أحد خمسة أنهر تنقسم من دجلة إذا انفصل من واسط ويكتب أحيانا دقلة ودقلاء

راجع نيامش الخريدة - القسم العراقى ج ٤ ن ١ ص ٣٥٥

(٥) لحي الله فلانا أى قبضه (٦) شهرهن : اشتبهن

لَوْ غَزَا سَنَجَرَ بِهَا الْفَزَيْرِيَّةَ لَمِ يَدْعُ مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ شَخْصًا (١)

وقد اعترفت العماد أن بيتي العدل أبي علي بن بختيار الواسطي اللذين نظمها في البق خير من أبياته فيها ، فقال : " وكنت أظن أن هذا المعنى لم أسبق إليه حتى أنشدت البيتين اللذين سبقا للعدل أبي علي ، فأقررت له بالفضل ولعنا :

وَلَمَّا انْتَحَى الْبُرُوقُ وَأَبْيُقُ مَسْجَعِي وَلَمْ يَلِكُ مِنْ أَيْدِيهِمَا لِي مَخْلَعِي
زُفْنَتْ بَكْفِي إِذْ مَدَّاهُمَا دَمِي فزَمَرُوا عَذَا ، وَابْتَدَأَ ذَاكَ يَرْفَعِي (٢)

وله أبيات من قصيدة في مدح نور الدين يصف فيها عصف الزلزلة وقصفها ، ويرسم شرفها وضربها ، ويصور وقعها ونقعها ، ويسكب فيها عبرات الشوق ويهتن بدمع غزير باكيأ حيايا هذا الزلزال ، ناعيا قتلى ذاك الاختلال ، وكانت هذه الزلزلة قد وقعت في بلاد الشام في الثاني عشر من شوال سنة ٥٦٥ ومطلع قصيدته :

هَلْ لِسَانِي الْهَوَى مِنْ الْأَشْرَفَادِي ؟ وَلِسَانِي لَيْلِ السَّبَابَةِ هَكَدِي ؟

وقال في وصف ضررها وإهلاكها ، والخسارة التي نزلت بالمسلمين ، والخراب الذي حل ببلاد الفرنجة :

سَطْوَةٌ زَلَزَلَتْ بِسُكَّانِهَا الْأَرْضَ وَوَهَّدَتْ قَوَاعِدَ الْأَطْنَاسِ
أَسَدَتْهُمْ بِالْحَقِّ رَجْفَةٌ بَأْسٌ تَرَكْتَهُمْ صَرَعَى صُرُوفِ الْمَوَادِي
خَفَسَتْ فِي قِلَاعِهَا كُلَّ عَمَلٍ وَأَعَادَتْ قِلَاعَهَا كَالْوَهَادِ
أَنْفَذَ اللَّهُ حُكْمَهُ فَهُوَ صَافٍ مَظْهَرٌ بِرَّ عَمِيهِ فَهُوَ بَأَوِي
آيَةٌ آثَرَتْ ذَوِي الشَّرْكِ بِالْهَلَاكِ لِكِ وَأَعْدَى التَّوْحِيدِ بِالْإِرْشَادِ
وَالْأَعَادِي جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّدْءِ بِمِرِّ مَا قَدَّ جَرَى عَلَى قَوْمِ عَمَادِ
أَشْرَكَتْ فِي الْهَلَاكِ بَيْنَ الْفَرِيقِ مِنْ دُعَاةِ الْإِسْرَاكِ وَالْأَلْحَادِ
وَلَقَدْ حَارَبُوا الْقَضَاءَ فَأَمْضَى حُكْمَهُ فِيهِمْ بِغَيْرِ جِجَالِدِ (٣)
وَالْإِلَهَ الرَّؤُوفَ فِي الشَّامِ عَنَّا دَافِعَ لُطْفَهُ بِلَاءِ الْبِلَادِ

(١) القسم العراقي ج ٤ ن ١ ص ٢٥٥ وهو يشير إلى الحروب التي دارت بين سنجار الملك السلجوقي والغز والتي وقع فيها سنجار أسيرا ، ويقع عندهم فترة ثم أطلقوا

سراحه . (٢) القسم العراقي ج ٤ ن ١ ص ٢٥٤

(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٢٠

ويضيف العماد إليها بيتاً يعتقد أنه معني مبتكر لم يسبق إليه في وصف الزلزلة

وَسَوَّوْا :
وَسَحَّحْتُ أُعْيِبْتُ الْأَرْضَ لَمَّا سَكَتَتْ مِنْ مَقَامِ أَهْلِ الْفَسَادِ (١)

ثامناً : الرثاء :

للعقاد عدة قصائد في الرثاء ، وتشمل بكاء المجاهدين الذين سقطوا بعد كفاح طويل مع الصليبيين ، ورجال آخرين ، لم يكن لهم في تلك الحروب حول ولا طول . وسوف نترك القصائد التي نظمها في رثاء المجاهدين لنحدث عنها في القسم الثاني من شعره ، ونصفي به شعر الجهاد ، وسنتكلم في هذا الموضوع عن رثائه لرجال القسم الثاني .

ويبدو لنا أن رثاءه لهؤلاء ، أسقطه المؤرخون ، ولم يوردوه ، لأن عمَّ هؤلاء كان شعر العماد حول الحروب الصليبية وأبطالها ، ولذا نرى شعره في " الروضتين " و " مغن الكروب " و " تاريخ ابن الفرات " يدور حول هذا الموضوع ، ولهذا أيضاً لم نجد للعماد قصائد في رثاء الخلفاء أو الأمراء والكبراء في الدولة النورية ، أو في رثاء المشاهير في الدولة الأيوبية ، فالعماد الذي يرثي سيركوه عم صلاح الدين لا بد أن يرثي أباه نجم الدين ، ولكننا لم نجد بيتاً واحداً في رثائه ، والباقي من شعره في الرثاء مقطوعتان في رثاء صديقه المعتمد إبراهيم ، حينما علم بوفاته في سنة ٥٧٦ أثناء وجوده بمصر ، فنظم قصيدة يتفجع فيها لفقدان هذا الصديق العزيز ، ويتحسر على فراقه الأبدى ، وإن كان هذا الحزن غير عميق ، وذلك التحسر غير مرير . قال العماد في الأولى منهما :

أَرَى الْحُزْنَ لَا يُجْدِي عَلَيَّ مَنْ فَقَدْتُهُ
تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَانُ بِنَدَاكَ كُلَّهُمْ
عَقَدْتُ بِكَ الْأَيْمَانَ بِالنُّجْحِ وَالثَّقَا
وَكَانَ اعْتِنَادِي أَنْكَ الدَّهْرُ مُسْعِدِي
وَلَوْ كَانَ فِي حُزْنِي مَزِيدٌ لَزِدْتُهُ
فَلَمَسْتُ أَرَى الدُّنْيَا عَلَيَّ مَا عَهْدْتُهُ
فَجَلَّتْ يَدُ الْأَقْدَارِ مَا قَدَّ عَقْدْتُهُ
فَخَانَتْنِي الْأَيَّامُ نَيْمًا اعْتَقَدْتُهُ
سَوَى مَا أَرَادَ اللَّهُ لَا مَا أَرَدْتُهُ

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٧٠

(٢) احد أصدقاء العماد لا نعرف عنه أكثر ما أوردناه أعلاه .

وَدَاعِ دَعَانِي بِاسْمِهِ ذَكَرْتُ لَكَ فَأُظْهِرُنِي بِذِكْرِ اسْمِهِ فَاسْتَمَدْتُهُ
 فَقَدْ أَحَبَّ النَّاسُ عِنْدِي وَخَيْرُهُمْ فَمَنْ لَا نَبِيَّ فِيهِ إِذَا مَا نَشَدْتُهُ (١)

(٢)

أما الثانية لمقطوعة من بيتين لم يخزن فيهما عما أورده في الأولى .

تاسماً : الهجاء :

لقى العماد الكثير من العناء من حساده في العراق والشام ، واضطرب إلى
 الرحيل والتنقل بسبب ذلك . وكنا نتوقع لذلك أن نجد له هجاءً مرّاً في هؤلاء الذين
 نفضوا عليه فترة من حياته ، ولكننا لم نجد سوى ثلاثة أبيات في هجاء المدن بين المعجمي ،
 أحد أمراء الملك الصالح بن نور الدين ، ولا نعتقد أن السبب يعود إلى فقدان الشعر ،
 فالمؤرخون أوردوا له الكثير من الشعر السياسي في الفاطميين والحكام المناوئين لنور الدين
 وصالح الدين من بعده ، كما أورد له صاحب " المفرج " بيتين من الشعر في هجاء
 عز الدين أسامة لانسحابه من قلعة بيروت وتركها للفرنج يأخذونها دون عناء ، وإنما يعود
 السبب إلى جيلة العماد التي تعيل إلى المداراة ، وربما يعود السبب كذلك إلى كره العماد
 للألفاظ الجارحة ، والكلمات الفاحشة ، والعبارات البذيئة ، ومن المؤكد أن أخلاقه كانت
 في مستوى عالٍ يمنعه أن يسب أو يلجأ إلى البذاء في شعره .

(٣)

أما أبياته في هجاء المدن بين المعجمي فلا تتعدى وصفه بالغمور والباقي منها
 فخر للعماد بنفسه ، وقد نظمها العماد حين أرسله صلاح الدين إلى حلب لعقد صلح مع
 أئمتها ، وحين اجتمع مع الملك الصالح وأصحابه كان المتكلم المدن ابن المعجمي . . الذي
 يقول العماد عنه " فأخذ يتحدث بلسنته ، ويترجم بلسنته ، ويضرب عنى صفحاً ، ويومئ
 الجماعة أني وأناي " ثم أورد الأبيات وهي :

وَمَا دَرَى الْعَمْرُ بِأَنِّي أَمْرُؤٌ أُمِّيزُ التَّبْرَ مِنَ الْوُتْرِ
 قَدْ عَارَكَ الْأَهْوَالَ حَتَّى شَدَا بَيْنَ الْوَرَى كَالصَّارِمِ الْمُنْشَبِ (٤)
 قَدْ رَأَيْتُهُ الدَّهْرُ فَلَوْ أَنَّ مَسَّهُ بِحَطْبِهِ مَا رَسَعَ لِلْحَطْبِ

(١) سنا البرق الشامي ج ١ ص ٢٥٠-٢٥١ والروضتين ج ٢ (النيل) ص ٢٠

(٢) الروضتين ج ٢ (النيل) ص ٢٠

(٣) أحد أمراء نور الدين زنكي ، ثم أحد كبارهم في عهد ابنه الملك الصالح

(٤) الروضتين ٢٥٩/١

عاشراً : الحكمة :

عاش الصاد عمراً مديداً ، قضاه عاملاً مجدداً ، وشهد الكثير من الألسـوال واستمتع بالكثير من متع الحياة ، والحكمة تصدر عن تجربة عميقة في الحياة ، وخبرة طويلة بها ، ومشاركٍ لأحوالها ، ومقاومة لخطوبها ، ولذا كان للصاد حكم قليلة أوردنا له الصفي ، ومنها في الحث على القناعة وترك الطمع والتمسك بعزة النفس وعدم إذلالها قال :

أَفْنَعُ وَلَا تَطْمَعُ فَإِنَّ النَّفْسَ كَمَالَهُ فِي عِزَّةِ النَّفْسِ (١)
وَأِنَّمَا يَنْقُصُ بَدْرُ الدُّجُبِ لِأَخْذِهِ النُّورَ مِنَ الشَّمْسِ

وله حكمة ثانية يحث فيها على العمل والإسراع فيه ، لأن الحياة مهما طاللت قصيرة والموت يقف بالمرصاد . قال :

وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا صَحَائِفٌ نُوِّنَ فِيهَا ثُمَّ تَمْحَى وَتُحَقِّقُ (٢)
وَلَمْ أَر فِي دَهْرِي كَدَايِرَ الْمُنَى تَوَسَّعَهَا الْأَمَالُ وَالْعَمْرُ ضَيْقُ

الحادي عشر : الألفاز :

ظهرت الألفاز في زمن العماد ظهوراً واضحاً ، ويبدو أن الهدف من ذلك نحو إظهار قوة التمكن من اللغة ، ومن النادر أن نجد شاعراً في هذا العصر يخلو ديوانه من ألفاز كثيرة ، والخريدة مملوءة بالألفاز الشعراء في مختلف الأسماء والصفات والأشياء .
والباب السادس من ديوان ابن عنين قصير ، محقق الديوان على الألفاز . والصاد بوصفه رجلاً من أبناء العصر لم يثر على هذا الفن ، بل سايره معجباً . وقد أورد في البرقي الشامي أحد ألفازه ، ويقول في قصيدة نظمه له : " وكنا سائرين في رفقة من أهل الأدب ، فعبر بنا مرموق في صورة ملك اسمه شاه مالك فاقترح عليّ لنفسي اسمه فارتجلت :

(١) الواقي بالوفيات ١٢٦/١ وطبقات الشافعية للسبكي ١٦٦/٤

(٢) الواقي بالوفيات ١٢٦/١ وطبقات الشافعية للبرقي ١٦٦/٤ والفيث المسجم ١٥/١

(٣) ديوان ابن عنين ص ١٤٩ - ١٧٨

اسْمٌ مَّحْبُوبٍ سُدَّاسٍ إِذَا
وَأِذَا قَدَّمَ تَائِبِي شَطْرَهُ
عَرَبِيٌّ عَجَبِيٌّ نَشَفُوهُ
سَقَطَ الثُّلُثُ فَعَدَّكَرُ الْكَلِمَةِ
فَهُوَ سُلْطَانٌ لَنَا ذُو عَظَمَةٍ
كَهُ مَعْنَى رَمَنْ قَدْ فَهَمَهُ (١)

ويعلق العماد على هذا اللفظ مبيناً أنّ الهدف من ذلك أنّ يثبت قوة تريحته ،
وتمكته ، فيقول : " وانما أوردت هذه اللمحة لأعلم أنّي في ظعني واقامتى ما خلوت ممن
يقتدح زناد تريحتي " (٢)

وله لغير ثان في كلمة " غلبك " أورده اليونيني مروياً عن الشيخ شرف الدين
الأنصاري وهو :

إِلَى حَبِيبٍ نَصَفَ اسْمَهُ عَنِ قَلْبِي
أَنَا فِي ذِلَّةِ السُّبُودَةِ مِنْهُ
وَأَمِيرِي بِاتِّبَاعِهِ بِالْتَّرْكِيَّةِ
وَهُوَ مَعْنَى فِي عَزَّةٍ مَلِكِيَّةِ (٣)

وأورد العماد في الخريدة قصيدة له ألغز فيها بكوز الفقاع ، وأنشدنا لمديقه
الطبيب أبي العلاء محفوظ بن المسيحي الواسطي ، وقد بلغت واحداً وعشرين بيتاً وعلى
أقرب إلى الوصف فيها إلى اللفز ، ومنها :

مَا صَوْرَةٌ ، مَا مِثْلُهَا عُرْرَةٌ
تَمْطِرُ لِلسَّرِيِّ ، وَمَنْ ذَا رَأَى
مَنْكُوحَةٌ مَا لَمْ تُسَخَّحْ حَمْلُهَا
مَحْرُوقَةُ الْقَلْبِ وَلَكِنَّهَا
كَأَنَّهَا النَّارُ بِأَحْسَبَائِهَا
عَلَى اشْتِدَادِ الْبُرْدِ مَسْجُورَةٌ

ومنها :
كَمْ عَسَلٍ ذَاقَتْ وَكَمْ سُكَّرٍ
مَلْمُومَةٍ مِنْ صَخْرَةٍ عَكَلَدَةٍ
وَأَنْعَمَ لَيْسَتْ بِمَكْفُورَةٍ
فَاجِرَةٌ بِالمَاءِ مَعْجُورَةٌ (٤)

(١) سنا البرق الشامي ج ١ ص ٢٧٠ (٢) سنا البرق الشامي ج ١ ص ٢٧٠

(٣) ذيل مرآة الزمان لليونيني ٢٧٤/٢

(٤) الفقاع : شراب يتخذ من الشعير يحصر حتى تسلو فقاعاته

(٥) مفرورة : أعابها الفر وهو السبرد (٦) مسجوره : موقده

(١) مِنْ الصَّفَا جِسْمٌ ، وَلَكِنْ تَرَوِ عَلَى صَفَاءِ الْمَاءِ تَامُورَهُ
فِيَا حَلِيفَ الْمَأْتِرَاتِ الَّتِي أَصَحَّتْ لِأَنْزِلِ الْفَقْرَ مَشْهُورَهُ
أَنْعِمُ ، وَعَجِّنْ حَنْ إِشْكَالِهَا فَمِنْهُ لَدَى فَضْلِكَ مَا سُورَهُ (٢)

ونعتقد أن للعماد ألبازاً أخرى فقدت مع ما فقد من شعره ، لوجه لهذا النمط ورغبته دائماً في تقليد الشعراء من القدماء وأهل زمانه .

الثاني عشر : الأخويات والشبقيات :

وعلى قصائد تبادلها العماد مع أصدقائه الكثيرين ، وقد كان يحكم بركزه — سواء حين كان يعمد في واسط والبصرة أو في الشام ومصر — محط أنظار كثير من الناس الذين كانوا يتفربون إليه إما إعجاباً بشخصه وأخلاقه ، وإما ليكون وسيطهم إلى الحكام والسلاطين ، ولذا نجد الكثير من هذه القصائد في الخريدة والروغيتين ، ولعل معظم القصائد التي قالها في أثناء عمله في واسط والبصرة كانت من قبيل المصلحة ، لأنه كان ينوب عن ابن هبيرة ويده جمع الخراج ، ويستطيع التصرف في النخ والعطايا ، وكذلك في الإعفاء من الخراج ، ولهذا رأينا الكثير من الشعراء الأحياء الذين وردت أسماءهم ممن لقيهم العماد في البصرة وواسط ، ومدحوه ومدحهم ، ومنحهم ووعبهم فشكروه على عطاياه وأثنوا عليه لرفده .

ومن هؤلاء الذين راسلهم وراسلوه القاضي أبو القاسم عمر بن الباصمي البار ذكره والذي كتب للعماد قصيدة " يستزیده فی معنی إداره " فكتب العماد جوابها وسمى " إلى تعجيل إداره " أما قصيدة ابن الباصمي فهذا جزء منها :

(٢) تَلَا فِعْمَادُ الدِّينِ إِصْلَاحَ مَا مَنَى وَلَا تَكِ مَمَّنْ لَا يُبِيدُ وَلَا يُبْدِي
(٤) فَبَيْتِكَ مَعْرُوفٌ ، وَفِي نَفْسِكَ صَالِحٌ وَعَرْضُكَ مَوْقُورٌ عَنِ النَّدَمِ بِالْحَمْدِ

فكتب العماد إليه معتذراً عن قصيره وأعداً بقضاء حقوقه .

(١) التامور : القلب والصفاء : الحجارة العراض الملس

(٢) الخريدة — القسم السراقى ج ٤ و ٢ ص ٥٠٣

(٣) حير من تلاف / تول " (٤) القسم السراقى ج ٤ في ٢ ص ٥٨٦

والقصيدة طويلة تنقل العماد خلالها من الاعتذار والوعود إلى الفخر إلى مدح ابن الباسيس ومنها :

أُعِيذُكَ يَا ذَا الْفَضْلِ ، مَا يَشِينُهُ وَذَا الْمَجْدِ ، مَا لَا يَلِيْقُ بِذِي الْمَجْدِ
تَقَرَّدْتُ نِي بِالْمَسْتَبِدِّ وَنَ عَسَابِي تَقَرَّدْتُ عَنِّي بِالْإِجَابَةِ وَالسَّرْدِ
وَمَنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ أَنِّي نَائِبٌ وَمَالِي يَدِي فِي حَلِّ أَمْرٍ وَلَا عَقْدِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ يَوْمًا لَدَى الْبَاسِ لِي يَدٌ فَلَا حَمَلَتْ كَفِّي لِمَكْرَمَةِ زُنُودِي (١)

ومنها في عتابه والاعتذار إليه كذلك :

أَسْتَفْرَعُ فِي عِتَابِ صِلَى جَهْدِهِ وَفِي شُكْرِهِ مَا زِلْتُ مُسْتَفْرَعًا جِهْدِي
تَجَرَّعْتُ كَأَنَّ السُّبَّ مَرًّا وَإِنَّمَا لَوْ لَدَيْكَ عِنْدِي كَانَ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ
وَإِنَّ أَعْتِدَادِي بِالْوِدَادِ لَصَادِقٌ لَدَيْكَ فَلَمْ كَذَّبْتَ أَمَّا مَنْ مُنْتَهَدِ (٢)

وعذا ما حدث كذلك مع الفضل بن حمد بن سليمان والذي التقى به العماد في الزكية وهي من أعمال البصرة ، فحين حبسه الميث عن زيارة العماد كتب إليه قصيدة أورد لنا صاحب الخريدة كاملة ومنها :

لَقَدْ حَبَسَ الْفَيْثُ عَنِّي مَا جِيَدِي يَقْتَرِبُ بِمَنْظَرِهِ النَّظِيرُ
يُمِيتُ الضُّمُومَ وَيُحْيِي السُّرُورَ وَيُنْعِمُ فِي قُرْبِهِ الْخَاطِرُ (٣)

فكتب العماد مجيباً عليها مثنياً على صاحبها وسعره ، مؤملاً قره ، آملاً لقاءه ، ومنها :

لَسْنُ مَنَعَ الْفَيْثُ عَنِّي زُورِي فَفَيْثُ فَضَائِلِهِ زَائِرِي
وَمَا عَابَ مَنْ شَخْصُ الْآئِي إِذَا غَابَ عَنِّي مَنْظَرِي حَاسِرِي
بِدُرِّكَ فُوتَ وَهَنْ فَائِزِي بِدُرِّكَ فِي عَفْقِهِ خَاسِرِي ؟ (٤)

وللعماد رسائل أخوية مع النعماني أبي عبد الله الحسين بن حراز من أهل الهامة . وله كذلك رسائل شعرية أثناء وجوده في بلاد الشام وإن كان الأمر يختلف عنه في العراق ،

(١) نائب أي نائب الوزير ابن هبيرة (٢) الخريدة - القسم السراقي ج ٤ ص ٢٤١ س ٥٩١
(٣) القسم السراقي ج ٤ ص ٢٤٦ ص ٧٦٦ ويقر الناظر بمعنى يسره
(٤) آلاء : نَعَم

ففي واسط والبصرة كان هؤلاء بحاجة إلى العماد ، أما في الشام فكان العماد بحاجة إلى
من يرأسهم في غالب الأمر ، وله رسائل شعرية مع شيخه شرف الدين بن أبي عصرون ،
وغى ما يسميه الدكتور عمر موسى باشا بالشتويات .

وله كذلك رسائل إلى أصدقائه في الموصل ودمشق وغيرهما . وله رسائل أخرى
أرسلها من مصر إلى أصدقائه في دمشق وأخرى إلى القاضي الفاضل .

ومن هذه الرسائل الكثيرة رسالة أرسلها إلى صديقه القاضي الفاضل يستنذر
فيها عن عدم مرانقته للسلطان في خروجه الذي أدى إلى هزيمة الرملة سنة ٥٢٢ هـ ومنها :

فيل لي : سر إلى الجهاد وماذا
ليس يقوى في الجيش جأشي ، ولا قوه
أنا لكتب لا للكتاب اتبدا
كاد فسلى يضيع لولا اهتمام ال
بالع في الجهاد جهد مسيري ؟
هي يرى موترا إلى موتور
مي وللسحف لا الصفاح حضوري (٣)
فاضل القاضي الندى بأموري

الثالث عشر : القحور :

كان العماد يحس في قرارة نفسه أنه من بيت السؤدد والرياسة ، والجواه
والعز ، والسلطنة والحكم ، وهذا الكلام ليس غريباً ولا مختلفاً ، فكما أوردنا في ترجمته
لأهله ، شهد كثير من المؤرخين أنه من أسرة كريمة كان عمه العزيز ركنها وعمودها ، فلا
عجب إذا رأينا العماد يفخر في شعره بنفسه وبيته ونسبه ومحتده وقد ورد ذلك في القصائد
التي نظمها جواباً على رسائل شعرية لأصدقائه في واسط والبصرة ، ولكننا لاحظنا أن هذه
النعمة قد اختفت تماماً بعد رحيله إلى الشام ، ونعتقد أن ذلك يعود إلى أن العماد
اضطر إلى التذلل حتى وصل إلى ما وصل إليه ، فلولا نجم الدين أيوب وكمال الدين بن
الشهرزوري لما عمل مع نور الدين ، ولولا نجم الدين بن معان والقاضي الفاضل لما عمل مع
صلاح الدين ، فعلى من يفخر ؟ ، أعلى هؤلاء الذين رفعوه إلى المنزلة التي وصل إليها
والجواب بالسلب ، لكن لا بأس أن يكون فخره بقلمه في كتاباته التاريخية خاصة في الفتح
القدسى - كما مر سابقاً - لأن هذه الكتابات ألفت في الفترة الأخيرة من حياته .

(١) شيخ العماد سبقت ترجمته ضمن شيوخه .

(٢) الأدب في بلاد الشام ٥٢٧ وما بعدها .

(٣) سنا البرق القاضي ج ١ ص ٢٥٤ والروضة ج ١ ص ٢٦٨

ويظهر فخره بفعاله ورواها من قصيدته التي كتبها جواباً للقاسم أبي القاسم
 الهاسيمي ، وقد تقدم ذكرها فولدنا نراه لا يقنع بما وصل إليه من مكانه ، ولا يتكفى بما
 حصل عليه من درجات العلاء ، ولا عيب أن يسعى للوصول إلى منزلة أسمى ومكانة أرقى ،
 وإنه ليقول :

ولو أنني أعطيت مولى من العلاء لكتبتُ لما أخفيه من سرها أبدي
 ولستُ بما فيه أنا اليوم قانعاً ولكن من العلاء أعدو على وعد
 بواسط مكثي لا تظار مواعيد لها ولهم يمكثُ السيفُ في الفمَدِ (١)
 سأعزمُ عزمَ الماجدين برحلة أصوبُ فيها نحو منقبو قصدي

وقد فخر العماد بنفسه ووصفها بحلم الأحنف بن قيس ، وبالمهمة العالية التي
 تترفع عن الدنيا ، وقوة المراس ، وتحمل السحاب ، والصفود في وجه الأحداث ، وذلك
 من قصيدة وجهها إلى الكمان بن حراز عديقه الواسطي الأصل ، حيث يقول :

أنا أحنفُ في الحلم عن أئاليهم وشرعتي - ما عشتُ - فيه حنيفها (٢)
 لي هممة ، تأبى الدنيا قد سمت وأعز نفسي بأسها وعزوفها
 ولكم عرائي حادثٌ هم أنجلي عني ، كما يعمرؤ البدور خسوفها (٣)

وله من قصيدة تائية إلى ابن الحراز كتبها إليه من بغداد يتهدد فيها
 أعداءه وحساده ، ويصف نفسه ، بالضرغام المخيف ، فيقول مخاطباً عديقه مهدداً أعداءه :

قل للثعلب: لا تفركِ خلوة في القاب ، لما غاب عنه فرائص (٤)
 سيعود في طلب الفرائس سيم ذو سطوة وستفيم فرائس (٥)

وله من قصيدة كتبها إلى أبي العباس محمد بن القاسم الحريري جواباً على

(١) الخريدة - القسم السرافي ج ٤ ن ٤٧٢ / ٢

(٢) الأحنف بن قيس ، سيد بني ثميم ، أدرك النبي ولم يره ، ووفد على عمر ابن الخطاب
 حين أت إليه الخلافة وشهد الفتح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل وتوفي سنة ٧٣

(٣) الخريدة - القسم السرافي ج ٤ ن ٦ ن ٤٦٢

(٤) الفرائس : الأمد

(٥) الخريدة - القسم السرافي ج ٤ ن ٤٧٤ ، والفرائس : جمع فريسة وعلى لحمه بسين
 الكتفين والصدر ترتعد عند الشئ

رسالة يطلب فيها الإحسان إليه ، وإنصافه من طلاب الخراج ، فيجيبه العماد واصفاً نفسه بحب الإحسان والعدل المطلق ، وأولها :-

شَعْرٌ مِّنْ أَنْصَافٍ ، وَلَدَلَّ عَرُوتَ خَلَاتِقِي غَيْرِ إِحْسَانٍ وَأَنْصَافٍ (١)

وله من قصيدة يمدح فيها الإمام المستنجد ، ويفخر فيها بشعره ، فيجمله خبير الشعر كله ، ويراه أفضل من شعر محمد بن هاني الأزدي الأندلسي ، فيقول :

وَمَا كُنَّ شَعْرٌ مِثْلُ شَعْرِي فِيكُمْ وَمَنْ ذَا يَقِيْسُ الْبَازِلُ الْمَوَدَّ بِالنَّقْضِ
وَمَا عَزَّ حَتَّى هَانَ شَعْرُ ابْنِ عَانِي (٢) وَلِللَّسَنَةِ الْفَرَّارِ عَزُّ عَلَى الرَّقْضِ (٣)

وفخر ببئته ومحتده في القصيدة التي استعطف فيها عماد الدين بن رئيس الرؤساء حتى يشفع فيه إلى الخليفة المستنجد فيخرجه من السجن ، وقد سبق ذكرها ومنها :

ذَكَرْتُ بِحَالِي الْمَاحِبَ الْمَوْلَى الَّذِي يَقْوَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَأْسِهِ
وَقُلْتُ : اسْتَجَارَ كَرِيمٌ بَيْتِي وَذُو الْبَيْتِ الْكَرِيمِ يُجَدُّ فِي إِحْيَائِهِ (٤)

وحيث كان في السجن في بغداد ، نظم قصيدة يستعطف فيها الخليفة حتى يطلق سراحه ، وعلل فيها سبب اعتقاله ، ورأى أن ذلك بسبب فضله ، وسعة عقله ، وقسوة عزمه ، وشجاعته ، ومنها تفكيره وحده ذكائه ، فقال :

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ فَضْلِي نَاقِضِي وَأَنَّ ظُلْمَ الْحِظِّ مِّنْ قِيَمِ نُوْرِهِ
كَذَلِكَ طُولُ اللَّيْلِ مِنْ ذِي عِبَابَةٍ يُخَبِّرُهُ عَنْ عَيْشِهِ بِقَصْبِ نُوْرِهِ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ عَقْلِي عَاقِلِي وَأَنَّ سِرَارِي حَادِثٌ مِّنْ سُفُوْرِهِ
وَكَانَ كِتَابُ الْقَضَى بِأَسْمَى مَعْنُونًا فَحَاوَلَ حِظِّي مَحْوَهُ مِنْ سُطُوْرِهِ

(١) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ ص ٦٢٨ (٢) محمد بن هاني الأزدي الأندلسي ولد في اشبيلية ونشأ بها واتصل بمصاحبها اشتهر بملذاته وحبهِ للفلسفة فنقم عليه أهل اشبيلية وساءت المقالة بحق الملك بسببه فأشار عليه بالنجبة عن البلدة مدة ، فالتقى بجونر الصقلي والمعز الفاطمي ، وتوجه معه إلى الديار المصرية ، فلما وصل إلى بركة وقتله سنة ٢٦٢ هـ - عاش الخريدة - القسم العراقي ٤٨/١

(٣) الخريدة - القسم العراقي ٤٨/١ (٤) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ١٧٦

(٥) عاقل : متسدي (٦) سراري : خفائي وسرار الشهر آخر ليلة منه .

ومنها :

أَقُولُ الْعَزْمِي : إِنْ لِلْمَجْدِ مِنْهُجًا سَهْوَلُ الْأَمَانِي فِي سُلُوكِ وَعُورِهِ (١)
وَمَا لِي يَا فِكْرِي سِوَاكَ مُظَاهِرٌ وَقَدْ يَسْتَعِينُ الْمُبْتَلَى بِظَهْرِهِ

ومعناك أشعار نظمها العماد على لسان غيره ، وهي أشبه بالرسائل التي تكتب في الحاجات ، وتدل على مقدرة في النظم ، ولكننا نهملها لأنها لا تمثل مشاعره ، ولا تصور أحاسيسه كما ينبغي ، وإن كانت ترسم الطريق لمن جاء بعده في نظم القصص والروايات بلسان شاعر كما حدث في العصر الحديث .

ومعناك أشعار أخرى للعماد نظمها في طلب أشياء معينة من نور الدين أو صلاح الدين ، وهي قريبة من باب الاستعطاف ، تركها لركاكتها وضعفها .
ومن الأمثلة عليها ، طلبه عمامة مذهبة بدلاً من العمامة الملبوسة التي أرسلها له صلاح الدين بعد أن أنهى الخلافة الفاطمية : ومنها يخاطب توران شاه أخا السلطان :

وَقُلْ : لَقَدْ جَاءَتْهُ مَلْبُوسَةٌ تَخَلَّفَتْ مِنْ تَبَعٍ فِي سَبَابِ (٢)
عِمَامَةٍ مَرَّتْ وَرَثَتْ ، فَمَا نَشَرْتَهَا إِلَّا وَطَارَتْ هَبَابًا (٣)

وللعماد كذلك أشعار عرسها عن الفارسية وأوردنا في كتابه نصره الفترة ، ومنها أبيات لمن يسميه **مؤيد الدين** في عجبنا أخيه فخر الدين قال فيها :

مَاذَا أَقُولُ عِي أَمِيرِي جَمْعَ الْمَعَايِرِ وَالْمَعَايِبِ (٤)
عَادَتْ مَنَاقِبُ وَالْيَدِي مِنْ سُؤْمٍ مَنُضِيهِ مَثَالِيِبِ

ومنها كذلك أبيات للخاتون في عجبنا مختص الملك وعرسها العماد بيتين هما :

لِصَدْرِ الصَّدْرِ ضَيْقِي فِي اتِّسَاعِ وَيَطْمَعُ فِي كَمَالٍ مِنْ تَقْوَرِ (٥)
عَلَى التَّثْلِيثِ نَاطِرُهُ وَلَكِنْ مِنْ التَّرْتِيبِ يَنْظُرُ فِي الْأَمُورِ

(١) ظهير : معين والمظاهر المساوي - والابيات في الروضتين ج٤ ص ٢٦٢

(٢) تبع : لقب ملوك اليمن القدماء وسبأ إحدى ممالكهم .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٢٦٦ - ٤٤٧

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٠ (٥) المصدر السابق ص ٩٧ وللعقاد أشعار

أخرى في هذا الكتاب معرفة عن الفارسية في الصفحات ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨

القسم الثاني : شعر الجهاد :

بدأ شعر الجهاد في عهد الرسول على الله عليه وسلم ، وقد تصدى الشعراء المسلمون أمثال حسان بن ثابت وحمد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وابن لقيم العبسي وجرير بن أبي سلمى وغيرهم للرد على عبد الله بن الزبير ، وجرار بن الخطاب بن مرداس ، وكعب بن زهير قبل إسلامه وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وغيرهم ، وقد نشطت حركة شعر الجهاد في هذه الفترة نشاطاً عظيماً ، وامتاز الشعر بتأثيره بالإسلام ومبادئه ، وظهر هذا واضحاً في معانيه وعوره وألفاظه وأساليبه ، وبدأ شعر الجهاد خافق الصوت في عهد الخلفاء الراشدين نظراً لانتشار الإسلام ، وتكوين دولته ، واقتصار الشعر على مقطوعات صغيرة كان الفارس الشاعر ينشدها للتنفيس عما يحسره من غرة لفرقة أهله وأحبته أو لتشجيع المقاتلين أثناء احتدام القتال واستحراء المعركة .

وفي العصر الأموي ضعف شعر الفتح ضعفاً بيناً وذلك لأن الشعراء تشاغلوا بالدفاع عن أحزابهم ، وإذا انقسمت الدولة الأموية إلى أحزاب وفئات متصارعة ، وكل حزب كان يسعى لتحطيم مناوئيه وانضم إلى كل حزب شعراء يدينون بمذهبه ، ليدافعوا عنه ، وينافحوا عن مبادئه ، ومع هذا قيل شعر جهاد قليل على جبهتين من جبهات القتال ، عما جبهة ما وراء خراسان وجبهة الروم .

أما في العصر العباسي ، فظهرت قصائد ناضجة ، وامتاز العصر الأول وأوائل الثاني بظهور شاعرين عظيمين من شعراء هذا الفن هما أبو تمام والبحتري ، وسرى هذا اللون أو جله في ثنايا مدح الخلفاء والإشادة بالقواد المجاهدين ، وظهر من أعلام المجاهدين قادة وعلوا إلى أعنان السماء ، ومنهم أبو سعيد الثغري ، وابنه محمد بن يوسف الثغري اللذان امتازا على غيرهما ببلائهما في حروبهما ضد الروم وأعداء المسلمين في المقاطعات الشرقية من البلاد الإسلامية ، ونستطيع القول بأن القصائد الملحمية ظهرت على يد أبي تمام والبحتري ، وقصيدة فتح عمورية لأبي تمام خير شاهد على قولنا هذا .

ووقفت إمارة الحمدانيين في حلب وقفة رائعة صامدة في وجه مطامع الروم في استعادة سورية ، وظهر سيف الدولة كالثور المراسخ والجبل الأشم يصد هجماتهم ،

ويكفل لهم الثمرات ، ويلحق بهم الهزائم ، وامتازت هذه الفترة بظهور شاعرين عظيمين آخرين هما المتنبي وأبو فراس الحمداني ، وعلى الرغم من أن المتنبي كان متكسبا بشعره كانت طبيعته ونفسيته تتوجان بالبطولة ، ومن هنا ظهر الصدق في شعره ، وامتاز بالحساس المتدفق ، وأما أبو فراس فقد كان شعره الجهادي نابعا من إحساسه ببطولته ومطولة ابن عمه ، ولذا يعد شعرهما قمة شعر الجهاد الذي تم نضوجا ، وإن كان بعض الباحثين يذهب إلى ضعف الأثر الديني فيه .

وفي بداية الحروب الصليبية وقف الشعراء أمام أحداثها عامتين ، فلم ينبس أحد منهم بكلمة ولم نجد قصيدة واحدة تحت الحكم على الوثوق في وجههم ، والجهاد في سبيل الله اللهم إلا قصيدة لابن الخياط نظمها في حث حكام دمشق على مقاومة الصليبيين موجبهة إلى عند الدولة المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ، وفيها يصف تراخي المسلمين ، في الوقت الذي يذل الأعداء فيه قصارى جهدهم لتحقيق آمالهم ومطامعهم - ويؤنب القادة على هذا المعجز والتواني واللبو في الوقت الذي يتطلب الأمر الجِدَّ كل الجِدِّ ، وقد قال :

تَرَاخُونَ مَنْ يَجْتَرِي سَيْدَةً وَتَسُونَ مَنْ يَجْعَلُ الْحَرْبَ نَهْدًا
أَنْوَمَا عَلَى مِثْلِ هَذِي السَّافَاوِ وَهَزَلًا وَقَدْ أَصْبَحَ الْأَمْرُ جَدًّا (٣)

وتمجج الشاعر ويدعش من نومهم الطويل وسباتهم العميق والمدو حاقدا ، والحاقد مخيف بطبعه ، فكيف إذا اجتمع في الإنسان الحقد والكفر ؟ عند ذلك يكون الإنسان أكثر شراسة وأشد لومًا .

وَكَيْفَ تَنَامُونَ عَنْ أَعْيُنِ وَتَرْتَمُونَ فَأَسْهَرُ تَمُودَ حَقْدًا
وَشَرُّ الشَّعَائِنِ مَا أَقْبَلُكَ كَدَيْهِ الشَّعَائِنِ بِالْكَفْرِ تَحْدَى
بَنُو الشَّرِّكَ لَا يَنْبِرُونَ الْفَسَادَ وَلَا يَعْرِفُونَ مَعَ الْجَوْرِ فَسَادًا (٤)

وأمام هذا الضعف والتخاذل احتل الصليبيون البلاد ، فأفزعا الناس وأرعبوهم

(١) ابن الخياط : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي الكاتب . ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفي سنة ٥١٢ هـ وفيات الأعيان ١٤٥/١

(٢) غضب الدولة : مجد الدين أبي بن عبد الرزاق أحد مقدمي دمشق / مقدمة ديوان ابن الخياط ص ١٢ (٢) ديوان ابن الخياط ص ١٨٢

(٤) ديوان ابن الخياط ص ١٨٣

فولوا الأديبار ، ولطمت الغنيمات خدودهن وخرجت الحرائر من بيوتهن هاربات مولييات
الأديبار ، إنه منظر يبعث الأسى ويشير الشجن :

فَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ بِهِمْ أَصْبَحَتْ تَدُقُّ مِنَ الْخَوْفِ نَحْرًا وَخَدًّا
وَأُمٌّ عَوَاتِقٍ مَا إِنَّ عَرَفَتْ مِنْ حَرًّا وَلَا ذُقْنَ فِي اللَّيْلِ بَرْدًا
تَكَادُ عَلَيْهِنَّ مِنْ خَيْفِكِيسَةٍ تَدُوبُ وَتَتَلَفُ حَزْنًا وَوَجْدًا (١)

والقصيدة طويلة جميلة بديعة ذات معان سامية ، وصور بديعة ، تثير الهمسة ،
وتبعث المرءة ، وتخلق الرجولة من ثنايا الأسطار .

وقد سكت الشعراء بعد ذلك عهداً من الزمن ، وما إن ظهر هلكي ، واحتسب
الربنأ ، وسمد في وجه الصليبيين حتى بدأ الشعراء النظم في وصف الأحداث والحسك
على الجهاد ، فظهرت قصائد جهادية بديعة لابن منير وابن القيسراني ، وابن القسيم
الحموي ، وأبي المظفر الأبيوردى ، وعلم الدين الشاتاني ، وابن سناء الملك ، وابن
الساعاتي وقتيان الشاغوري والعماد وغيرهم . وتابع هؤلاء وغيرهم الأحداث في عهد نور
الدين ثم صلاح الدين وخلفائه من بعده .

ونستطيع القول بأن دور الشعراء في ايقاظ الأمة من سباتها في مرحلة الضفطة
الصليبي كان معدوماً ، ولم يؤد دوره ، أما موقفه من حركة توحيد الأمة في عهد نور الدين
وصلاح الدين ، فقد كان رائعاً وأدى دوره الناصر ، وكذلك تابع الشعراء حركة الجهاد
بعد الصليبيين في عهد السلطانين نور الدين وصلاح الدين فمدحوا القادة المجاهدين ،
وأثنوا عليهم لانتصاراتهم ، ورثوهم بعد مماتهم ووصفوا مآثرهم ، وتلججوا أعداء الأمة
من المتخاذلين ، وحثوا الملوك والعمامة على الجهاد ، وشجروا وفخروا ، ورفعوا المعنويات
وأشادوا بالشجعان ، وبذا يكون الشعراء قد أدوا ما عليهم في عهد نور الدين وصلاح
الدين كاملاً ، وشعر جيد ، إلا أنهم كبلوه بالبديع ، والتزموا الصناعة اللفظية ، مما
أنصفت انبلاج الصورة ، وكان جل شعرهم تقليداً للشعر العربي في العصور السابقة فسى
أوزانه وقواعده ، وأخيلته إلا ما ندر ، ومع هذا نستطيع القول بأن بعض أشعارهم قد رقى
إلى درجة كبيرة ، وسما حتى بلغ الشعر العباسي .

(١) المرجع نفسه ص ١٨٢

ولم يخرجوا في شعرهم عن الأغراض العربية القديمة ، فنظموا في المدح والوصف
والرثاء والهجاء والحث على الجهاد والفخر .

أغراض شعر العماد الجهادي

نظم العماد قصائد طويلة في مدح الملوك والقادة المجاعدين ، كما نظم
قصائد أخرى في رثائهم ، وله أبيات من قصائد في حثهم على الجهاد والصمود في وجه
الأعداء ، وله أبيات أخرى من قصائد في وصف الممارك التي خاضها المسلمون وانتصروا
فيها .

أولاً : المديح :

مدح الشاعر فئتين من المقاتلين الأولي : السلاطين والملوك والثانية : القادة
والأمراء .

١- مديحه للسلاطين والملوك :

مدح العماد سلطانين عظيمين هما نور الدين وصلاح الدين ، اللذين عاش
في بلاطيهما ، وساعد بأمر رأسه عظيم أعمالهما ، واطلع على خلق أمورهما ، فداخله
الإعجاب بهما ، وأطراهما بقصائد عديدة كان نفسه فيها طويلاً ، لأنه شهد الكثير من
الممارك والفتوحات ، ورأى أبطال الجهاد من الأمراء والقادة وهم يناضلون ، ويكافحون
فأثنى على هذا النضال والكفاح ، وأشاد بالبطولة الفائقة ، والشجاعة النادرة .

ومن أجمل القصائد التي نظمها العماد في مدح نور الدين قصيدته التي
قالها ارتجالاً حين كان يقف إلى جانب نور الدين ، وقد رجعت إحدى سراياه من عجمها
على أعمال طبرية في سنة ٥٦٨ هـ في الشلالة قال العماد في تقديمه لها :

" وكتت راكباً في لقاءهم مع الملك السادل ، وعويقون : " كيف تصف ما جرى فمدحتهم
بقصيدة أولها :

عَدَّتْ بِسَهْرِكَ رَايَةَ الْإِيْمَانِ وَوَدَّتْ لِصَهْرِكَ آيَةَ الْإِحْسَانِ

وكان نور الدين يغلب الجميع ويتصر على الملوك كلهم ، وعلو الفارس المغوار ، والليث
المهصور ، قاهر أرباب التيجان ، والذي لا ثاني له ، ولا شبيهه ، وهذا ما يصوره بقوله :

ياغالبِ الضُّبِّ المُلُوبِ وَعَمِيدِ النَّبِيِّ
 يا سَالِبِ التَّجَانِ مَنْ أَرَبَابِهِمْ
 حَزَنَتِ الفُّخَّارَ عَلَى ذَوِي التَّجَانِ
 فِي كُلِّ إِفْلِيمٍ بِكُلِّ لِسَانِ (١)
 يَا وَاحِدًا فِي الفُّضْلِ غَيْرَ مُشَارِكِ
 أَقْسَمْتُ : مَالِكٌ فِي البُّسِيطَةِ ثَانِي

وما أجمل الصفات التي نعتت بها /هـ/ فأمنيتها الأولى : الجهاد في سبيل الله
 وسها حقق الفتوحات العظيمة والانتصارات الرائعة ، وقمع المشركين ، وتعدى للصليبيين
 حتى أصبحت سيرته المحطرة على كل لسان ، فالقومص الإفرنجي أرداه قتيلاً والبرنسس
 الصليبي رفع رأسه على سنان رمحه ، وملكهم جعله عبداً رقيقاً له ، وأنزل الذلَّ بهمهم ،
 والحق الهوان برجالهم ، وفي هذا يقول :

أَحَلَى أَمَانِيكَ الجِهَادُ ، وَإِنِّي
 كَمْ بِكَرِّ فَتَحَ وَلَدْتُهُ طِبَاكَ مِنْ
 كَمْ وَفِيَّةً لَكَ بِالْفَرَجِ ، حَدِيثُهَا
 قَدَّ سَارَ فِي الآفَاتِ وَالْبُلْدَانِ (٢)
 قَمَسَتْ قَوْمَهُمْ رِدَاءً مِنْ رَدَى
 وَقَرَنْتِ رَأْسَ بَرْنَسِهِمْ بِسِيَّانِ
 وَمَلَكْتَ رِقَّ مَلُوكِهِمْ وَتَرَكْتَهُمْ
 بِالذُّلِّ فِي الأَقْيَادِ وَالْأَسْجَانِ (٣)
 وَجَعَلْتِ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالَهُمْ
 وَسَحَبْتَهُمْ هَوْنًا عَلَى الأَذْنَانِ

والقصيدة طويلة وقد أثنى فيها على شجاعة نور الدين وحسن تدبيره ، وصواب
 رأيه ، وأشاد بمكانته بين الملوك المسلمين الذين تقاعسوا عن الجهاد وواجباته ، ودكسر
 أفعاله التي بها ثبت الإسلام ، وسدَّمَ أركان الكفر ، ورفع أعلام الدين عالية خفاقة ، وأطاح
 بولاية الشرك بعد أن كانت ترفرف مرتفعة ، وألمع إلى أن نور الدين بقوة جلده ، وعيبسوق
 إيمانه ، استطاع أن يحقق للمسلمين من الانتصارات ما رفع الهام وأعلى المقام حتى أصبحت
 كلمته نافذة في العراق والشام ومصر ، ولولا شغفه بالجهاد لوصل إلى خراسان وهمسذان
 وفي هذا يقول :

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٠٧ والخريدة - بداية قسم شعراء الشام ص ٥٤
 (٢) القومص والبرنسس ألقاب الأمراء عند الفرنجة .
 (٣) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام ص ٥٥

وَعَزَمْتَهُمْ بِالرَّأْيِ قَبْلَ لِقَائِهِمْ
 أَسْبَحْتَ لِلْإِسْلَامِ رُكْنًا ثَابِتًا
 قَوَّضْتَ أَسْمَاءَ الضَّلَالِ بِعِزِّكَ الْمَدِي
 قُلْ أَيْنَ مِثْلَكَ فِي الْمُلُوكِ مُجَاهِدُ
 لَمْ تَلْقَهُمْ ثِقَةً بِقُوَّةِ شِوْكَةٍ
 مَا زَالَ عِزُّكَ مُسْتَقِلًّا بِاللَّيْذِي
 وَبَلَّغْتَ بِالتَّأْيِيدِ أَقْصَى مَبْنَعِ
 دَأْتُكَ لَكَ الدُّنْيَا فَفَاصِبِهَا إِذَا
 فَمِنَ الْعِوَارِ إِلَى الشَّامِ وَالْإِيذَارِ
 لَمْ تَلْهُ عَنْ بَاقِي الْبِلَادِ وَإِنَّمَا

وَأَرَأَى قَبْلَ شَجَاعَةِ الشَّجْمَانِ
 وَالنُّكْرِ مِنْكَ مُصَمِّعِ الْأَرْكَانِ
 مَا ضَى وَشَدَّتْ مَبَانِي الْإِيمَانِ
 لِلَّهِ فِي سِرِّهِ وَعِنِّي إِعْلَانِ
 لَكِنَّ وَثِقْتَ بِنُصْرَةِ الرَّحْمَنِ
 لَا يَسْتَقِلُّ بِثِقَلِهِ الثَّقَلَانِ
 مَا كَانَ فِي وَشِعْ وَلَا إِمْكَانِ
 حَقَّقَهُ - لِنَفَاذِ أَمْرِكَ - دَانِي
 مَصْرًا إِلَى قَوْمِي إِلَى أَسْوَانِ (١)
 أَلَيْسَ كَقَوْمِ الْفُرِّ الْفُرِّ عَنْ هَمْدَانِ

ثم وصفه بالشجاعة النادرة والبسالة الفائقة ، والبلاغة ابدية ، والتقى العظيم
 قائلاً :

(٢) فِي بَأْسِ عَمْرٍو هِيَ بَسَالَةٌ حَيْدَرٍ فِي نَطْقِ قَوْمِي تَقَى سَلْمَانَ

وقد صوره شاعرنا ركن الإسلام وعماده في قصيدة ثانية ، ووصفه بأنه خادم أركان
 الضلال ، ومذل عناديد الشرك ، وصيِّد مبغى الهدى بالحنن والعزم ، ورافع بنسب
 الإسلام والإيمان والتوحيد ، وقاتل كفاة المشركين وسناديدهم ، وفي ذلك يقول :

قَدَوْتُ لِلْإِسْلَامِ رُكْنًا وَكُفْرَهُمْ
 وَذُلَّ الْأَوَّاءِ بَنِي الشَّرْكِ فِي سِي
 شَيْدَتِ بِالشَّامِ بِنَاءَ الْهُدَى
 لَوْلَاكَ لَمْ تَحُلْ بِأَطْرَافِهِ
 فَلَمْ تَدْعُ فِي أَرْضِهِ كَانِفَرًا
 وَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ سَكْبِيْدًا
 وَلَمْ تَنْزِلْ تُرْدِي صِنَادِيْدَهُمْ

رُكْنِ ضَلَالٍ بِكَ مَهْدُودِ (٣)
 لَوَاءِ نَهْرٍ لَكَ مَعْقُودِ
 عِزْمًا وَحِزْمًا أَيْ تَشْبِيْدِ
 رَايَاتِ إِيْمَانٍ وَتَوْجِيْدِ
 أَوْ مَلْحَدًا لَيْسَ بِمَلْحُودِ
 يَنْدُرُ إِلَّا طَعْمَةُ السَّيْدِ (٤)
 بِجُنْدِكَ الْفُرِّ الصَّنَادِيْدِ

(١) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام ص ٦١ (٢) الروضتين ج ١ ص ٢٥٨
 (٣) بداية قسم شعراء الشام ص ٤٤
 (٤) بداية قسم شعراء الشام ص ٤٤

ووصفه بالوفاء والسهر الدائم على مصالح المسلمين ، في الوقت الذي نام فيه
غيره تاركاً الجَدَّ ، ملازماً للهو ، وذلك من قصيدته التي هُتِّمَ فيها بعيد الفطر سنة ٥٦٩ هـ ،
وختان ابنه الملك الصالح ، فقال :

يَا أَعْظَمَ النَّامِرِ قَدْرًا	وَعَلَّ لِفَيْرِكَ قَدْرًا
وَسَاهِرًا حِينَ نَامُوا	وَقَائِمًا حِينَ قَرُّوا
مَا عَدَّتْ إِلَّا وَفَاءً	وَعَادَةُ الْقَوْمِ غَدْرًا
وَفِيكَ الدَّهْرُ غَزْوًا	لِلْمُشْرِكِينَ وَقَهْرًا
وَفِعْلُ عَمِيرِكَ ظَنَمًا	لِلْمُسْلِمِينَ وَقَسْرًا

(١)

ووصف فيها عدى الخوف والرعب اللذين أنزلهما في صدور الفرنج حتى اصطبمت
وجوههم باللون الأصفر ، وأصبح الغزو عنده هدفاً ومقصدًا ، ولا يعني ذلك أن انشقاقه
بالجهاد ، جملة يهمل الخير والأمر به ، فهو يصف اليتيم ويعينه ، ويحطف عليه ويرحمه
وفي ذلك يقول :

حَرْبٌ عَوَانٌ وَفَتْحٌ	عَلَى مُرَادِكَ بِسُكْرٍ
بَنُو الْأَعَاوِرِ مِنْ خَشْمٍ	سِيَةِ انْتِقَامِكَ صَفْوَ
لَمْ يَيْسُرْ لِلْكَفْرِ ظَفْرٌ	لَا كَانَ لِلْكَفْرِ ظَفْرٌ
وَمَا دَجَى لَيْسَ خَطْبٌ	إِلَّا وَعَزْمُكَ فَجْرٌ
أَصْبَحْتَ بِالْفَزْوِ صَبْرًا	وَعَنَهُ مَالِكٌ صَبْرٌ

(٢)

وما أجمل الأبيات التي مدحه بها من قصيدة أرسلها إلى الخليفة المستنصر فسى
أواخر سنة ٥٦٨ هـ مع رسالة من نور الدين حملها ابن عسرون ، وكأنه أراد بهذه الأبيات
أن يصب للخليفة أجمل سمات نور الدين وهي :

عَلَّ مِثْلُ مَحْمُودِ بْنِ زَنْكِي مُخْلِصٌ	مُتَوَحِّدٌ يَبْنِي رِضَاكَ بِكُنْ فَسَنُ
وَرِعَ لَدَى الْمَخْرَابِ أَرْوَعٌ مُحْرَبٌ	فِي حَالَتِهِ إِنْ أَقَامَ وَإِنْ ظَعَنُ
يُؤَسِّسُ وَيُصْبِحُ فِي الْجِهَادِ وَعَسِيرُهُ	يُضْحِي رَضِيعٌ سُلَافُهُ وَصُجَّيْعٌ دَنُ
وَمِثْرَةُ الْإِسْلَامِ مُتَمِصْرًا حَسْرَى	وَبِذَلَّةِ الْأَشْرَاكِ مُتَقِيمًا قِيمُنُ

(٣)

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢٢ وممن أبياتها في الريدة - بداية قسم شعراء الشام ص ٦٦ -
(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٢٢ (٣) الروضتين ج ١ ص ٢١٥

وكانى به أردد أن يوازن بين نور الدين وغيره فنور الدين يسمى لإرضاء الخليفة بكل طريق ، وغوتقى وورع مؤمن صادق الإيمان عميقه ، مجاهد مناضل ، مكافح ، فسى الوقت الذى يقضى غيره وقتته فى اللهو والمجون وارتكاب المعاصى ، لا يراعى فى ذلك إلا ولاذمة .

وشبهه العماد بالأنبياء المرسلين فى أخلاقهم وسلوكهم فهو غفيف كسليمان عليه السلام ، وزاهد كاليسع ، وغورافع لواء الحق ، وإلى جانب ذلك يتصف بالحياة والكرم والورع والتقوى ، وفى ذلك كله يقول :

يَا مُحَيِّى الْمَدُونِ بِمَدِّ مِيَّتِيهِ وَرَافِعِ الْحَقِّ بِمَدِّ مَا اتَّضَمَّ مَا
وَنُورِ دِينِ الْهُدَى الَّذِى تَمَعَّ الشَّرْكَ ، وَعَفَى الضَّلَالِ وَالْبِدْعَا
أَنْتَ سَلِيمَانُ بِنِى الصَّفَافِ وَفِيهِ أَلْ كُ مَلِكٌ وَتَحَكُّى بِزَيْنِدِكَ الْيَسَمَا
حُزَّتِ الْبِقَا وَالْحَيَاءُ وَالذُّكْرُ الْ مَحْصُ وَحُسْنُ الْيَقِينِ وَالْوَرُوسَا (١)

ورجل هذه صفاته لا ينسى أن يعمل لمصلحة رعيته ، ويخفف عنهم أعباء الحياة ، ويرفع عن كاهلهم كل ظلم ، ولذا أسقط نور الدين المكوس وأحق الحق ، وعمل بأوامر الدين الحنيف ، ونفذ ما جاء فيه ، وبنى المدارس والربط ، وهدم الكنائس ، وغور صاحب ذلكاء وذو بأس وشجاعة ، وصاحب عدل وأمان ، وفى ذلك يقول العماد :

أَسْقَطْتَ أَقْسَاطَ مَا وَجَدْتَ مِنْ أَلْ سَمَكِسِ بِمَدْلِ وَالْقَاسِطُ ارْتَدَعَا
وَلَمْ تَدْعُ فِى اِبْتِغَاءِ مَسْلِحَةِ السُّدِّينِ لَنَا بَاقِيَا ، وَلَنْ تَدْعَا
وَكُلُّ مَا فِى الْمُلُوكِ مُفْسَدَةٌ مِنْ الْعَمَالِى لِمَلِكِكَ اجْتَمَعَا
عَمَّتْ الرُّبُطُ وَالْمَدَارِسُ تَبَّ مِنْهَا ثَوَابًا وَتَهْدِمُ الْبَيْمَا (٢)

أما السلطان صلاح الدين فقد اتصل به العماد فى حياة نور الدين ، والتقى به أول مرة حين عاد من مصر فى رحلته الثانية إليها مع عمه ، ومدحه بقصيدة أطلال مقدمتها الفزلية ثم انتقل إلى وصف ككوس الحب ثم إلى وصف الرياض ، وجعل مديح السلطان نهايتها ووصفه فيها بأوصاف تقليدية ، لا يظهر فيها الإعجاب الذى زرعه السلطان فى نفسه بمسند ذلك بسنوات ، ومنها :

(١) الروضتين ج ١ ص ١٥٣

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٣

أَنْتَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَجِنُّ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي التَّهْدِ سَرَّجُهُ وَالسَّرِيرُ
 فَضَلُّهُ فِي يَدِ الزَّمَانِ سِوَارُ مِثْلَمَا رَأَيْتُهُ عَلَى التُّلُكِ مُسَوَّرُ
 كَرَمٌ سَابِغٌ وَجُودٌ عَظِيمٌ وَنَدَى سَلْبٌ وَفَعْلٌ غَزِيرُ
 رَاحَةٌ أَمْ سَحَابَةٌ وَأَمَّ غَمَامٌ وَأَنْمَلُ أَمْ بَحُورُ (١)

ويستمر في الثناء عليه لكرمه وجوده ونداه ويشبهه بالزمن مرة وبالغمام مرة ثانية ،
 وينتقل بعد ذلك إلى تهنيئته بالعودة من مصر سالماً فيقول :

عَادَ مِنْ مِصْرَ يُوْسُفَ وَإِلَى يَعْقُوبَ بِالتَّهْنِئَاتِ جَاءَ الْبَشِيرُ
 عَادَ مِنْهَا بِالْحَمْدِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ الْمَشْهُورُ
 فَلْيُؤَبِّبْ مِنْ إِيَابِ صَارِحِ السُّدِّ بَيْنَ يَوْمَيْهِ تَوَفَى النَّسِيرُ (٢)
 وَكَذَا إِذْ قَبِلَ يُوْسُفَ لَأَقْسَى وَجْهَ يَعْقُوبَ عَادَ وَهُوَ بِمِصْرَ

إن معظم قصائد العماد في جهاد صلاح الدين قد فقدت ، ذلك أن معظم
 معاركه مع الصليبيين كانت بعد سنة ٥٨٢ هـ ، وأجزاء البرق الشامي بعد هذه السنة
 مفقودة كما أن صاحب الروضتين وغيره لم يوردوا للعماد قصائد جهادية إلا القليل منها .
 ومن ذلك قصيدة العماد في فتح القدس سنة ٥٨٣ هـ يهنئ فيها السلطان بهذا الفتح
 للجليل والنصر المؤزر ، وأولها في الروضتين :

أَطِيبُ بِأَنْفَاسٍ تَطِيبُ لَكُمْ نَفْسًا وَتُعْتَامِرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ وَحَشِيَّتِي أَنْسَا

وفيها يرى أن صلاح الدين خير البشر جميعاً ، وهو لا شك مبالغة من العماد - وذلك
 بسبب كرمه الفريد ، وجبيلته الحميدة الطيبة ، وشدة يأسه في الحروب والتمارك وقوته فسى
 مقارعة الخطوب ، ومنازلة صناديد الكفر . وذلك حيث يقول :

رَأَيْتُ صَلاَحَ الدِّينِ أَفْضَلَ مِنْ عَدَا وَأَشْرَفَ مِنْ أَصْحَى وَأَكْرَمَ مِنْ أَمْسَى
 وَقَبِيلَ لَنَا فِي الْأَرْضِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ وَلَشْنَا نَرَى إِلَّا أَنَاطَةَ الْخَمْسَا
 سَجِيئَةَ الْخَمْسَى وَشِهْمَةَ الرِّضَا وَبَطْشَةَ الْكَبْرَى وَعِزْمَةَ الْقَمْسَا
 فَلَا عِدَمَتَ أَيَّامًا مِنْهُ مَشْرِقًا يُنِيرُ بِمَا يُؤَلِي لِيَا لَيْلِنَا الدُّمْسَا

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٦

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها وعلى ذلك في الخريدة - بداية قسم شعراء الشام ص ٢

والسلطان نال أعلى الصفات الحميدة لفتح القدس ، ولذا ازداد تقديسًا
وطهارةً وفاق غيره من الملوك بسبب ذلك :

فَلَا يَسْتَحِقُّ الْقُدْسَ غَيْرُكَ فِي النَّوَى فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ دُونِهِمْ فَتَحَ الْقُدْسَ
وَمِنْ قَبْلِ فَتْحِ الْقُدْسِ كُنْتَ مَقْدَسًا فَلَا عِدَمْتَ أَخْلَاقَكَ الظُّهْرَ وَالْقُدْسَ (١)

مدحه للأمواء والقادة

أول الأمراء الذين مدحهم العماد لجهادهم العرفج شيركوه بن شاذى عم
صلاح الدين حين التقى بهم في مصر ، ولذلك مدحه العماد في قصيدته التي أوردناها
سابقاً والتي أولها :

بَلِّغْتِ بِالْجِدِّ مَا لَا يَبْلُغُ الْبَشَرُ وَنَلَيْتِ مَا عَجَزَتْ عَنْ نَيْلِهِ الْقُدْرُ

فقال مطرباً شجاعته التي حققت المعجزات على الإفرنج الذين نجحوا على مصر :

لَقَدْ بَغْتِ فِتْنَةَ الْإِفْرَنْجِ فَأَنْتَصَفْتِ مِنْهَا ، بِأَقْدَامِكَ وَالْهِنْدِيَّةِ الْبَتْرُ
عَوَّسْتِ فِي أَرْضِ مِصْرٍ مِنْ جُسُومِهِمْ أَشْجَارُ خَطِّ لَهَا مِنْ هَلْمِهِمْ شَرُّ (٢)

ومن هؤلاء الذين مدحهم العماد تقي الدين عمر ابن أخى السلطان صلاح
الدين وقد كان بطلاً من أبطال الحروب الصليبية ، ومنهم كذلك الملك الأفضل والمسلك
المهيد والظاهر غازى أبناء السلطان ، ولكن دورهم كان أقل من سابقهم وقد كنا نأمل من
العماد أن يثنى على غير هؤلاء القادة المجاهدين من غير أبناء الأسرة الحاكمة ، وإن كنا
نعتمد أن العماد وغيره من الشعراء كانوا يمتدحون أصحاب المطايا ، ويشنون على الأجواد ،
وأرباب الفنى والثروة القادرين على المنع والمطايا ، ولا يعنى ذلك أن التكسب بالشعر
جعل العماد يعطى هؤلاء أكثر مما يستحقون من عفات ، فقد مدحهم بما فيهم حقاً مع
ميل إلى الببالفة ، فأسماء تقي الدين والأفضل وغيرهما كانت لامعة في سماء الحرب ،
وقدموا من الأعمال ما يستحقون عليه الشكر والإشادة بالذكر .

(١) الروضتين ١٠١/٢

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٤٥

ففي هزيمة الرملة سنة ٥٧٢ هـ أبدى عمر بن شاعرنا الملقب بتقى الدين شجاعة
وقدم يداً بيضاء ، فنظم العماد قصيدة مدح فيها بنى أيوب عامة ، ثم مدح تقى الدين
في نهايتها ، فجعل بنى أيوب في منزلة فريرش مجدداً وعزة ، وأثنى عليهم لتقايم وورعهم
فقال :

بَنُو أَيُوبَ زَانُوا الْمَلِكَ مِنْهُمْ رَجَعِيَّةٌ سُودٌ وَتَقَى وَدِينِ
مُلُوكٍ أَصْبَحُوا حَيْرَ الْبَرَايَا لِخَيْرِ رَعِيَّةٍ فِي خَيْرِ دِينِ
أَسَانِيدُ السِّيَادَةِ عَنْ عَلَاهُمْ مَمْنَعَةٌ مَسْحُوحَةُ الْمُتَسَوِّنِ
بَنُو أَيُوبَ مِثْلُ فُرَيْشٍ مَجْدًا وَأَنْتَ لَهَا كَأَنْزَعِهَا الْبَطِينِ (١)

وأطرى شجاعة تقى الدين وإخافته للفرنج ، وتسد يده الضربات المنيفة السلي
صفوفهم ، ولا عجب فيه احتفى الجيش الإسلامي فكان له حصناً ومنعة :

أَخَفَّتِ الشَّرْكَ حَتَّى الذُّعْرُ مِنْهُمْ يُرَى قَبْلَ الْوَلَادَةِ فِي الْجَنِينِ
وَيَوْمَ الرَّمْلَةِ الْمُرْهُوبِ بِأَسَا تَرَكْتَ الشَّرْكَ مُزْعِجَ الْقَطِينِ (٢)
وَكُنْتَ لِعَسْكَرِ الْإِسْلَامِ كَهَفَا أَوْ مِنْهُ إِلَى حِصْنِ حِصِينِ

وفي سنة ٥٨٠ هـ شارك تقى الدين في معارك المسلمين في الأكرک وما حولها
فمدحه بقصيدة طويلة بلغت خمسة وثمانين بيتاً ، وأورد أبو شامة عشرة أبيات منها ، ووصفه
بالشجاعة والمهابة ، وحسن الثناء والكرم وطيب الأمل والمحتد وشبهه بالعمريين في
الدفاع عن الإسلام ونشره وحمايته فقال :

مَخُوفَ السَّلْطَا صَعَبَ الْأَبَا حَسَنُ الثَّنَا مُرَجَّى النَّدَى سَهْلُ الرَّضَى طَيْبُ الثَّنَا
صَفَا آخِرَ الْعُمَرَيْنِ مَنْ عُمَرُ السَّنَى بِهِ الْعُمَرَانِ الْيَوْمَ بِالْمَدَنِ ثَلَاثَا
لَمْ أَحْدِثُوا قَمْعَ السَّلَالَةِ بِالْهُدَى فَمُدُّ طَلُوكَا لَمْ تَلْقُ فِي الدِّينِ مُحْدِثَا (٣)

ومدحه بقصيدة أخرى سنة ٥٨٢ هـ بلغت مائة وأربعين بيتاً ، وأورد صاحب
الروضتين بعضاً منها ، ومدحه بالصفات السابقة الذكر إلا أنه أمل أن يكون فتح بيت المقدس
على يديه ، ومنها :

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٧٤ (٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها
(٣) الروضتين ٥٧/٢

رَدَدَتْ كَرَارِيْسَ الْفَرَنْجِ وَكَلَّهْمُ	لَعْنَى الْأَسْرِ فِي غِيِّ الصَّخَارِ مُكَرَّدٌ مِنْ
وَبَسَّتْ وَجْهَ الدِّينِ يَوْمَ لِقَيْتِهِمْ	وَأَجْمَعُكُمْ مِنْ أَسْوَدِ الْقَهْرِ أَشْوَرٌ
أَفَادَ دَمَ الْأَنْجَارِ طَهْرُ سَيْوفِكُمْ	وَمَا يُسْتَفَادُ الطَّهْرُ لَوْلَا التَّجَسُّسُ
وَكَمْ كَفَى الْإِسْلَامُ سُوءَ بِمُسْلِكِكُمْ	كَفَيْتُمْ عَلَى رَعْمِ الْمُعَادِ بَيْنَ كُلِّ سُو
وَلَا يَفْتَحُ الْبَيْتَ لِلْقُدْسِ غَيْرُكُمْ	وَبَيْتِكُمْ مِنْ كُلِّ عَابٍ مَقْدَمٌ
لَهُمْ كُلِّ يَوْمٍ فِي جِهَادٍ مَثَلَكُمُ	إِذَا نَسَرُّوا التَّوْحِيدَ فِي مَخْمَسٍ
إِذَا مَا تَقَى الدِّينَ صَالَ تَسَاقَطَتْ	لَا إِقْدَامُهُ مِنْ عَصْبَةِ الشُّرْكِ أَرْوَسُ
وَمَا عَمَرَ إِلَّا شَبِيهَهُ سَمِيحٌ	شَدِيدٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ ثَبَتَ عَمْرُسُ (١)

وفي يوم فتح القدس مدح ثلاثة من أبناء صلاح الدين وعم الملك الأفضل والملك المهدي والملك الظاهر غازي ، وما ورد في الروضتين لا يعطينا فكرة صحيحة عن الصفات التي مدح بها هؤلاء الملوك ، فأما الأفضل ففي الأبيات الباقية أشنى عليه لمشاركته في فتح القدس ، وأشاد بالفتح نفسه لمظمته فقال :

وَالْقُدْسُ أَعْمَلُ دَاوُدَ مِنْ قَبْلِكُمْ	تَوَفَيْتُمْ بِشِفَاءِ ذَاكَ الْمُسْتَعِيلِ
دَرَجَ الْمُلُوكُ عَلَى تَمَنِّي فَتَحِهِ	رِضْنَا وَعَلَمْتَهُمْ لَمْ تَبْنِ لِيْلِ
وَأَتَى زَمَانَكُمْ فَأَمْدَنَ آخِرًا	مَا قَدْ تَعَذَّرَ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (٢)
مَا كَانَ قَطُّ وَلَا يَكُونُ كَفَتْحِكُمْ	لِلْقُدْسِ فِي الْمَاضِي وَلَا الْمُسْتَقْبَلِ

وأخر هذه الأبيات مدح للأفضل لإحيائه شرع الكرام السابقين ونصر الحقيق وقهر الباطل :

أَحْيَيْتُمْ شَرَعَ الْكِرَامِ وَلَمْ يَكُنْ نَصْرُ الْمُحِيِّ بَيْنَكُمْ وَقَهْرُ الْبَاطِلِ

وأشنى في قصيدة ثانية على الملك المهدي لمشاركته في فتح القدس وأورد أبو شامة منها بيتين فقط هما :

وَكَمْ لِيْنِي صَلَاحِ الدِّينِ لِيْنَا	عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ حَقِّ تَأَكُّدِ
وَإِنْ لَّهُمْ عَلَى الْأَمْلَاقِ طَرَا	بِفَتْحِ الْقُدْسِ فَسَلَا لَيْسَ يَجْحَدُ (٣)

(١) الروضتين ج ٢ ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) الروضتين ١٠٧/٢ .

(٣) المصدر السابق والصفحة نفسها .

ومدح الملك الظاهر غازي وأهله الملوك أصحاب الشجاعة والمكارم والحفاظ على
الود والهطولة في ساحات الوغى والجهاد ، وأثنى عليهم لفتح القدس وغيرها من المدن
الإسلامية فقال :

كُهِمُّ الْمُلُوكُ ذُوو بَأْسٍ وَمَكْرَهِيَّةٍ ، إِنْ سَأَلُوا أَصْفُوا أَوْ حَارَبُوا خِيفُوا
أَغْنَاهُمُ الْقُدْرُ عَنْ قَوْلِ الْوَرَى فُتِحَتْ
عَكَا وَصَيْدَا وَبَهْرُوتَ وَأَرْسُوكَ
جِيْرُ الْفِرْنَجِ إِذَا لَاقَى سَوَابِقَهُمْ كَأَنَّهُ جَبِيلٌ بِالرَّيْحِ مَنَسُوكَ (١)

ولعلنا نستطيع القول بمد ذلك : إن قصائد العماد كانت ترتفع أحيانا حتى
تبلغ حد الجودة ، وكانت تنزل في أحيان أخرى حتى تبلغ درجة الوسط ، ولكن جـ
قصائده لم تنزل حتى تصل إلى درجة الضعف . فقد كانت قصائده في المديح ترتفع
بارتفاع منزلة المدح وأفعاله ، والمناسبة التي نظمت فيها القصيدة ، ولذا كانت قصائده
في صلاح الدين في بداية الالتقاء به عادية لا حماس فيها ولا إثارة ، ولكننا وجدنا
أن حماسه في قون الشعر ونظمه ، والبالغة في مدح السلطان يملو ويزداد في معاركه
مع الصليبيين ، ولعلنا نستطيع القول كذلك : بأن مدائحه لتقى الدين بلغت حد الروعة
وطول النفس لإعجابها ببطولته ، في حين لم نجد ذلك في مدحه للأفضل وأبناء السلطان
الآخرين نظراً لصغر سنهم ، وقلة أعمالهم الجهادية ، ولعلنا كذلك نستطيع القول بأن
مدائحه لنور الدين كانت أجمل قصائده الجهادية على الإطلاق ، ولا عجب في ذلك فنسور
الدين كان شخصية عظيمة بلغت حداً من التقى والورع والشجاعة نسبتها إلى الخلفاء الراشدين
وعده البعض سادسهم بعد عمر بن عبد العزيز .

ثانياً : رثاء الجاهدين

تحركت شاعرية العماد لتعبر عن الأسى العميق الذي حل بالأمة الإسلامية
والخسارة الفادحة التي نزلت بوفاة رجلين عظيمين من رجالها ومطلين كبيرين هما من
خيرة أبطالها ، فقد شاء القدر أن يشهد العماد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ و شاء له القدر
مرة ثانية وبعد عشرين عاماً أن يشهد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ ، فحق على العماد
الذي لقي منهما كل خير أن يرثي هذين المجاهدين وأن يعدد مناقبهما ، وأن يبين

أفعالهما • ولذلك كانت مراثية فيهما من أروع ما نظمه العماد في حياته • ومن أبدع المراثي في الشعر العربي قاطبة • لقد بكاهما العماد • وحق له البكاء • وراثهما وحق له الرثاء فخرن شعره فيهما من قلب مفعم بالحزن • ملئ بالأسى • ولا غرو فقد جاء العماد إلى السرى دمشق غريباً وحيداً فرفعه نور الدين وأكرمه • وعاد إلى صلاح الدين آملاً أن يسيد إليه مكانته • فحقق له ما أراد • فضلاً عن أعمالهما لصالح الأمة •

ولم يبق من شعر العماد في رثاء المجاهدين سوى قصائد ومقطوعات قليلة العدد • وكلها في رثاء شيركوه • ونور الدين وصلاح الدين •

وأول مراثيه كانت في شيركوه الذي توفي سنة ٥٦٤ هـ - فصور لنا موته مصاباً عظيماً ولزل أركان الدين • وإن كانت الأبيات الباقية من القصيدة هي أقرب إلى الحكم والتمزيق منها إلى الرثاء فهو يقول : إن الدنيا فانية • ولا أمل لنا في الخلود فيها • والمسوت سيصيب كل حي • ويد الردى ستمسك بكل مخلوق وهو كلام عادي يقال : في التمزيق بكل مهت :

تَضَعُ فِي عَذَا الْمَصَابِ الثِّبَاعِ	مِنَ الدِّينِ ، لَوْلَا نُورُهُ كُلُّ ثَابِتٍ
فَأَيُّ نَوْرِ الدِّينِ دَامَتْ مِنْبِرَةٌ	لَنَا خُلُقًا مِنْ كُلِّ مَوْدٍ وَفَائِتٍ
فَمَا بَالُنَا نَبْدِي التَّهَامُ غَلَّةٌ	وَدَاعِي الْمَنَايَا نَاطِقٌ غَيْرُ صَائِتٍ
نُؤَكِّلُ فِي دَارِ الْفَنَاءِ بَقَاءَنَا	وَنَرْجُو مِنَ الدُّنْيَا صِدَاقَةَ مَا قِتٍ
وَمَا النَّامُ إِلَّا كَالْفُصُونِ يَدُ الرَّدَى	تَقَرَّبَ مِنْهَا كُلُّ عُمُودٍ لَنَا حِسِتٍ
لَقَدْ أَبْلَغْتَ رَسْلَ الْمَنَايَا وَأَسْمَعَتْ	وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْظَ مِنَّا بِنَاصِتٍ
فَلْتَهَيَّ عَلَى تِلْكَ الشَّمَائِلِ ، إِنَّهَا	لَقَدْ كَرَّمَتْ فِي الْحُسْنِ عَنْ نَعْتِ نَاعِتٍ (١)

وله فيه مراثية ثانية تمزية لأخيه نجم الدين والد صلاح الدين • وولده ناصر الدين محمد بن شيركوه • وهي أصدق إحساساً • وأكثر حزناً • قال فيها :

مَا بَعْدَ يَوْمِكَ لِلْمَعْنَى الْمُدْنَفِ غَيْرُ الْعَوِيلِ وَحَسْرَةِ الْمُنَاسَفِ
مَا أَجْرًا الْحَدَثَانِ كَيْفَ سَطَا عَلَى الْا أَسَدِ الْمُخَوِّفِ سَطَا وَلَمْ يَتَخَوِّفِ

مَنْ ذَا رَأَى الْأَسَدَ الْمَهْمُورَ فَرِيضَةً أَمْ أَبْصَرَ الصَّبِيحَ الْمُنِيرَ وَقَدْ خَفِيَ
مَنْ تَكَلَّمَ بِدُونِ الْكَلِمَةِ سِوَاهُ إِنَّ زَلَّتْ بِهِمْ أَقْدَامُهُمْ فِي الْمَوْقِفِ ؟ (١)

ويعدد مناقبه حيث يمتضى أيامه بين عبادة ربه وقراءة كتابه الكريم ، وبين العمل الجاد :

أَيَّامُ عَمَلِكَ لَمْ تَزَلْ مَقْسُومَةً لِلَّهِ ، بَيْنَ تَعْبِيدِ وَتَعَمُّرِي
مُتَّجِدًا لِبِعَادَتِهِ ، أَوْ تَالِيًا مِنْ آيَةٍ ، أَوْ نَاطِرًا فِي مُصَحَفِي
يُوجِعُ النَّدَى وَالْبَأْسُ مِنْكَ بِحَاتِمِي وَحَيْدَرُ وَالْحِلْمُ مِنْكَ بِأَحْنَفِي (٢)
بِالْمَلِكِ قُوَّتٌ ، وَحُزْنَةٌ عَنِ قُدْرَةٍ وَتَسْمِيَتْ عَنْهُ بِسِيرَةِ التَّمَعُّفِي

وفي الحادي عشر من شوال سنة ٥٦٩ هـ توفي نور الدين بن زنكي ، الذي يقول العماد في انشاء عليه نثراً : " كان من أولياء الله المؤمنين ، وعباده الصالحين وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين " فنظم العماد فيه في البداية مقطوعتين صغيرتين لا يظهر فيهما أثر للحزن ، ولا تأثير للوعة ، يقول في الأولى منهما :

عَجِبْتُ مِنَ الْمَوْتِ كَيْفَ اهْتَدَى إِلَى مَلِكٍ فِي سَجَايَا مَلِكِ (٣)
وَكَيْفَ قُوِيَ الْفَلَكُ الْمُسْتَدَى رُفِي الْأَرْضِ بَعْدَكَ وَسَطَ الْفَلَكِ

ولا تختلف المقطوعة الثانية عن الأولى كثيراً ، فهو يرى أنه يفقدان نور الدين انتهى الجود والكرم ، وأنه كان ملكاً في الحياة الدنيا ، فانتقل ليصبح ملكاً في الحياة الآخرة ، وعلو كلام لا طائل تحته ولا إحساس كبيراً فيه :

يَا مَلِكًا أَيَّامُهُ لَمْ تَنْزَلْ بِنَفْسِهِ فَاضِلَةٌ فَأَخْبِرْهُ
غَاصَتْ بِحَارُ الْجُودِ مَذْغِيَّتْ أَنْتَ الْفَائِضَةُ الزَّائِرَةُ (٤)
مَلَكْتُ دُنْيَاكَ وَخَلَقْتَهُ وَسِرَّتْ حَقِّي تَمْلِكُ الْأَخْبِرَةُ

ولكن أحوال العماد اختلفت بعد نور الدين ، وتطاول عليه حساده ، وآذوه وحرموه من كثير من أعطياته المقررة له من نور الدين ، فحضر بالمنصب الذي ألم به ، والخطب الفادح الذي

(١) الروضتين ج ١ ص ١٦٢ (٢) الروضتين ١ / ١٦٢
(٣) الروضتين ج ١ ص ٢٢٨ (٤) الروضتين ١ / ٢٢٨

حل عليه ، وعرف أن نور الدين كان حاضنه وحاميته ، فعرف أن الخير زان بزواله ، وأن الملما قد أهينوا ، وأن الجهال قد علت منزلتهم وبرزوا ، فقال من قصيدة بدأها متشوقاً لأصحابه ، وانتهى بها إلى رثاء نور الدين ، ووصف حاله من بعده ، ومدح الملك الصالح اسماعيل ابنه ، والأبيات الباقية منها بيد وفيم امدى إحساس العماد الصادق بفقده وعلى :

لَفَقَدَ الْمَلِكُ الْعَمَادَ	نِيبِي الْمَلِكُ وَالْمَمْدُ
وَقَدْ أَظْلَمَتِ الْأَفْكَاءُ	نُ : لَا شَمْسٌ وَلَا ظِلٌّ
وَلَمَّا غَابَ نُورُ الدِّيَارِ	مِنَ عَنَا أَظْلَمَ الْحَفَاءُ
وَزَانَ الْيَخْضَبُ وَالْحَسِيرُ	وَزَادَ السَّرُّ وَالْمُحْسِنُ
وَمَاتَ الْبَأْسُ وَالْجُبُودُ	وَعَاشَ الْيَأْسُ وَالْبُخْنُ
وَعَزَّ النَّقْمُ لَمَّا هَمَّ	نَ أَعْلَى الْفَضْلِ وَالْقَضْنُ
وَحَلَّ يَنْفَقُ ذُو عَيْشِهِ	إِذَا مَا نَفَقَتِ الْجَهَنَّمُ
وَمَدُّ فَارَنْ أَهْلَ الْخَيْمِ	مِمَّا حَضَمَ لَهُ شَيْئُهُ
وَكَادَ الدِّيْنَ يَنْحَطُّ	وَكَادَ الْكُفْرُ أَنْ يَحْلُوَ (١)

واعطى العماد كارها أن يفادر الشام ، فسار إلى بغداد ماراً بالموصل فمرض بها ، فأقام حتى برأ ، فسأله بعض أصدقائه نظم مرثية في نور الدين وذلك في رجب سنة ٥٧٠ هـ فنظم قصيدة رائعة تمير عن مدى الخطب الجسيم الذي حل بالعماد بوفاة نور الدين ، فلم يكن يتوقع أن يهبان إلى تلك الدرجة ، وأن يبلغ به الاذلال إلى درجة الهروب بجلده ، وكان قد رأى الفرق الكبير بين أعمال نور الدين ، وأفعاله ، وبس أعمال أمراءه الذين حجروا على ابنه الملك الصالح الطفل الصغير ، وتصرفوا في ملكه ، واطقسوا المناصب فيما بينهم ، وتعاونوا مع الفرنج ، وأطلقوا أسراهم ، وسانعت الدولة الإسلامية في نظر الإفرنج .

ورما اعترض معترض واتهم العماد بفقدان الإحساس ، وأن هذه القصيدة ارتجلها أو نظفها إثباتاً لمقدرته اللغوية والشعرية ، ولكننا لا نرى هذا الرأي فأبيات القصيدة عميقة المعاني ، واضحة المشاعر والأحاسيس ، ونستطيع أن نحرب مثلاً للعماد من واقعتها فأحدنا يفقد عزيزاً ، فيبكيه في أيامه الأولى ولكن الحزن يختفي ، وما يكاد عديق أو قسرب

يذكر هذا الفريد حتى تنهمر دموعنا فزيرة • لأن حزننا دفين فاذا حاجت الأحزان لذكراه
ظهر وبان •

وقد ذكر العماد في الخريدة أن هذه القصيدة بلغت مائة وعشرة أبيات أولها :

الدِّينُ فِي ظُلْمٍ لِعَيْبَةِ نُسُورِهِ وَالدهْرُ فِي غَمٍّ لِفَقْدِ أَمِيرِهِ (١)

وقال : وفي إيرادها تطويل • ومالي على الإطالة تعميل • ومن حسن الحظ أن أبا
شامة قد حفظ لنا منها جزءاً كبيراً بلغ ثمانية وثلاثين بيتاً ، وهي :

الدِّينُ فِي ظُلْمٍ لِعَيْبَةِ نُسُورِهِ	وَالدهْرُ فِي غَمٍّ لِفَقْدِ أَمِيرِهِ
فَلْيَنْدُبِ الْإِسْلَامُ حَامِي أَهْلِيهِ	وَالشَّامُ حَافِظَ مَلِكِهِ وَنَسْوَورِهِ
مَا أَعْظَمَ الْبِقْدَارُ فِي أَخْطَارِهِ	إِذَا كَانَ عَذَا الْخَطْبُ فِي مَقْدُورِهِ
مَا أَكْثَرَ الْمَتَأَسِّفِينَ لِفَقْدِ مَنْ	قَرَّبَ نَوَاطِرُنَا بِفَقْدِ نَظِيرِهِ
مَا أَعْوَسَ الْإِنْسَانُ فِي نَسْيَانِيهِ	أَوْ مَا كَفَاهُ الْمَوْتُ فِي تَذْكِيرِهِ ؟
مَنْ لِلْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ بَانِيًا	لِللَّهِ طَوْعًا مِنْ خُلُوصِ هَمِيرِهِ
مَنْ يَنْصُرُ الْإِسْلَامَ فِي عِزْوَانِيهِ	فَلَقَدْ أَصِيبَ بِرُكْبِهِ وَظَهْرِيهِ
مَنْ لِلْفَرَنْجِ ، وَمَنْ لِأَسْرِ مَلُوكِهَا	مَنْ لِلْيَهْدَى يَبْغِي فَتَاكَ أَسِيرِهِ
مَنْ لِلخَطُوبِ مَذَلًّا لِجَمَاحِهَا	مَنْ لِلزَّمَانِ مَسْهَلًا لِنُورِهِ
مَنْ كَاشَفَ لِلْمُعْصَلَاتِ بَرَأْيِيهِ	مَنْ مَشَرَّقِي فِي الدَّاجِيَاتِ بِنُورِهِ
مَنْ لِلتَّكْرِيمِ ، وَمَنْ لِلنَّعْشِ عِشَارِهِ	مَنْ لِلتَّيْمِ ، وَمَنْ لِجَبْرِ كَسِيرِهِ
مَنْ لِلبِلَادِ وَمَنْ لِنَصْرِ جِيُوشِهَا	مَنْ لِلجَمَادِ ، وَمَنْ لِحِفْظِ أُمُورِهِ
مَنْ لِلْفَتْوحِ مُحَاوِلًا أَبْكَارِهَا	بِرَوَاجِهِ فِي عِزْوِهِ وَبُكُورِهِ
مَنْ لِلسَّلَا وَعَهْودِهَا ، مَنْ لِلنَّدَى	وَوُفُودِهِ ، مَنْ لِلحِجَا وَوُكُورِهِ (٢)
مَا تُنْتِ أَحْسَبُ نَوْرَ الْمَدِينِ مُحَمَّدِ	يَخْبُو وَلَيْسَ الشَّرْكَ فِي كَيْجُورِهِ
أَعَزَّ عَلَيَّ بَلِيَّتُكَ غَابَ لِلْهَدَى	يَحْلُو الشَّرِيَّ مِنْ زُورِهِ وَزَنْبِيرِهِ
أَعَزَّ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَاهُ مُقْبِيًا	عَنْ مَحْفَلٍ مَشْرِقِي بِحُورِهِ
كَهْفِي عَلَى تِلْكَ الْأَنَامِلِ ، إِنَّهَا	مَذْ عَيْبَتِ عَاصِ النَّدَى بِبُحُورِهِ

(١) بداية قسم شعراء الشام ص ٧٦ ذكر المصطلح فقط •

(٢) الديجور : شدة الظلم •

وَلَقَدْ أَتَىٰ مِنْ كُنتَ تُجْرَىٰ رَسْمَهُ
 وَلَقَدْ أَتَىٰ مِنْ كُنتَ تُكْشَفُ كَرَمَهُ
 وَلَقَدْ أَتَىٰ مِنْ كُنتَ تُؤْمِنُ سِرَّهُ
 وَلَقَدْ أَتَىٰ مِنْ كُنتَ تُؤْتِرُ قُرْمَهُ
 وَالجَيْشُ قَدْ رَكِبَ الفِدَاةَ لِشَرِّهِ
 أَنْتَ الَّذِي أَحْيَيْتَ شَرَعَ مُحَمَّدِي
 كَمْ قَدْ أَقَمْتَ مِنَ الشَّرِيعةِ مَعْلَمًا
 كَمْ قَدْ أَمَرْتَ بِحِفْرِ خَنْدَقِ مَعْقِلِ
 كَمْ قَبَّعَ لِلرَّدَىٰ رَمَتْ بِقَسْرِهِ
 أَوْتَيْتَ فَتَحَ حُصُونِهِ ، وَمَلَكَتْ عَدُوَّ
 أَزْعَدْتَ فِي دَارِ الفَنَاءِ وَأَهْلِيهَا
 أَوْ مَا وَعَدْتَ القُدْسَ أَنَّكَ مُنْجِزٌ
 فَصَحَىٰ تُجِيرُ القُدْسَ مِنْ دُنْسِ العِدَا
 يَا حَامِلِينَ سِرِّهِ : مَهَالَا هَلْ مِنْ
 يَا عَابِرِينَ بَنَعِشِهِ : أَنْشَيْتُمْ
 نَزَلَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ لِذُنُوبِهِ
 وَمِنَ الجَفَاءِ لَهُ مَقَامِي بَعْدَهُ
 حَيَاكَ مَعْتَلُ الصَّبَا بِنَسَبِهِ
 وَلَيْسَتْ رِصْوَانُ الصُّمُومِ سَاحِبًا
 وَسَكَتَ عَلَيَّ فِي فِرْدَوْسِهِ

فَصَحَ العِلَامَةُ عِنَاكَ فِي مَنْشُورِهِ
 فَأَرْفَعُ ظِلَامَتَهُ بِنَصْرِ عَشِيرِهِ
 وَقَعَ لَهُ بِالْأَمْنِ مِنْ مَخْشَدِ دُورِهِ
 فَأَدِمَ لَهُ التَّقْرِيبَ فِي تَقْرِيبِهِ
 فَأَرْكَبُ لِتَبَيُّرِهِ أَوْ أَنْ عِبْرَتِهِ
 وَقَضَيْتَ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِنَشْرِ دُورِهِ
 هُوَ مِنْذُ عِبْتِ مَعْرُضٍ لِدُنُورِهِ
 حَتَّى سَكَنْتَ اللَّحْدَ فِي مَحْفُورِهِ (١)

إِزْوَاءَ بِيهِمُ الرِّهْنِ مِنْ تَأْمُرِهِ
 سِرَّ بِلَادِهِ ، وَأَسْبَيْتَ أَهْلَهُ قَسْرِهِ
 وَرَعَيْتَ فِي الخُلْدِ المِقِيمِ وَحُورِهِ
 مِعَادَهُ فِي فَتْحِهِ وَظَمِ دُورِهِ
 وَتَقَدَّرَ الرِّحْمَانُ فِي تَطْهِيرِهِ
 عَجَبَ نَهْوَيْكُمْ بِحَمَلِ ثَبِيرِهِ
 مِنْ عَالِحِ الأَعْمَالِ نَشْرَ عِبْرَتِهِ ؟
 مُسْتَجْمِعِينَ عَلَى شَفِيرِ حَفِيرِهِ
 نَعْلًا وَفَيْتَ وَسِرَّتْ عِنْدَ مَسِيرِهِ ؟
 وَسَقَاكَ مَعْهَلُ الحَيَا بِسُدُورِهِ
 أَذْيَانُ سُنْدُسٍ خَزَهُ وَحَرِيرِهِ (٢)

حَلَفَ المَسْرُةَ ظَافِرًا بِأَجْرِهِ

والتحق العماد بعد ذلك بقليل بعلاج الدين ، وأصبح له نعم المساجد والوفيق ، يحل بحلوله ويرحل بترحاله ، ولم ينقطع عنه إلا المرض ، ولم يقف عن مشاغده معاركه إلا في هزيمة الرولة سنة ٥٧٢ هـ ، وظل إلى جانبه ، وشهد معه معركة حطين ، وكثيراً من الفتوحات العظيمة ، والتحق به في ثاني يوم فتح القدس ، وظل إلى جانبه

(١) التامور : القلب - كما مر .
 (٢) الروضتين ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥

سنتين كاملتين ، والفرنج يحاصرون عكا ، وشهد معه سقوطها ، وجمع بذلك وتألم .

ولا تنك أن حياة كحياة السلطان صلاح الدين أشارت الإعجاب في نفسه ، وولدت الكثير من الحب فيها ، ولذ نراه يولف كتابين لتخليد ذكره عما " الفتح " و " البرق " ومات السلطان سنة ٥٨٩ ، والعماد شيخ كبير ، وقد عركته السنون ، وعو لا يستطيع الوقوف في وجه الشباب من الحكام الجدد ، الذين لم يرعوا له ذمة ، ولم يحفظوا له حرمة . فبكى العماد سلطانه ورثاه بقسيدة بل ملحمة بلغت اثنين وثلاثين ومائتي وخمسة عشر بيتا البرق الشامي ، وقد أوردت كثير من المصادر أبياتا منها ، وأورد أبو شامة في الروضتين سبعة وستين بيتا ، وعسى وإن كانت لم تخرج عن المناقب التي عددها في رثائه لنور الدين توضح حسرته عليه وتبرز حزنه لفقده ظاهرا ، وتفجسه عليه كبيرا ، وأولها :

شمل الهدى والملِك عم شتاكه والدَّهْرُ ساءَ وأقلَّمت حَسَناتُه

وعو فيها يسلك طريقته في رثاء نور الدين في الاستفسار والتمجيب وذكر المناقب والأفعال الحميدة ، ويحاول دائما أن يُظهر للناس الخسارة الفادحة التي حلت بهم بموته ، حسب ما يقول :

أين الذي هو لم تزن مخشية هرجوة رهباته وعيباته
أين الذي كانت له طاعاتنا مبدولة ولويته طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي لله خالصة صفت نبياته

وينقل بعد ذلك لذكر جهاده للفرنج وانتصاراته عليهم فيقول :

أين الذي عنت الفرنج لبأسه دلا وبينها أدركت ثاراته
أغلل أعناق العدا أسبانه أطواق أجياد الوري مناته
من في الجهاد صفاحه ما أعيدت بالنصر حتى أعيدت صفحاته
من في صدر الكفر صدر قناته حتى توارت بالصباح قناته
لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن مدعاهن قط لذاته لذاته
مستودة عدوانه محمودة روحانه ميمونة صحواته
في نصرة الإسلام كان محاميا أبدا إذا ما أسلته حمانه

وتساءل السواد بعد ذلك عن معين الأيتام بعد السلطان ، وراح الأرامل بعد فقده فيقول :

مَنْ لِيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ رَاحِمٍ مَمْعُطَةٍ مَهْمُوسَةٍ سَدَقَاتٍ ؟

ويقرر أنه يموت السلطان حزن بيت المقدس ، وابتأس البيت الحرام ، وارتاعت الشفـور ونكبت الخيول ، واستوحشت السيوف ، وأنت الرماح فيقول :-

وَكَمَادَةَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ يَحْزُنُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ عَلَيْهِ بَلْ عُرْفَاتِكُمْ
مَنْ لِلشُّمُورِ وَقَدْ عَدَاهَا حِفْظُهُ مِنَ الْجِهَادِ وَلَمْ تَعُدْ عَادَاتُهُ
بَكَتِ الصَّوَارِمُ وَالصَّوَاهِلُ إِذْ خَلَّتْ مِنْ سُبُلِهَا وَرُكُوبِهَا غَزَوَاتُهُ
يَا وَحِشْتَا لِلْبَيْضِ فِي أَعْيَادِهَا لَا تَنْتَقِيهَا لِلرُّوحِ غَزَمَاتُهُ
يَا وَحِشَّةَ الْإِسْلَامِ يَوْمَ تَمَكَّنَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ مُؤْمِنٍ رُوعَاتُهُ

ويوازن بينه وبين ملوك زمنه ، فلا يجد له من بينهم مثيلاً ، ولا شبیبها :

هَلْ لِلْمُلُوكِ مِثَالُهُ فِي مَوْفِيهِ شَدَّتْ عَلَى أَعْدَائِهِ شَدَائِدُهُ
وَإِذَا الْمُلُوكُ سَعَوْا وَفُتِمَ سَمْعُهُمْ رَجَحَتْ وَقَدْ نَجَحَتْ بِهِ مَسَاعِدُهُ

وخاتمة الأبيات في الروستين ثناء على أبنائه ورجاء في السيوعلى عداه ، والتقييد بطريقته ، والتزام نهجه ، فيخطبهم قائلاً :

أَبْقِ صَلاَحَ الدِّينِ إِنَّ أَبَاكُمْ مَا زَالَ يَأْبَى مَا الْكِرَامُ أَبَاتُهُ
لَا تَقْتَدُوا إِلَّا بِسُنَّةِ قَسْلِيهِ لِتَطْيِبَ فِي مَهْدِ النِّعَمِ سَنَاتُهُ
وَرُدُّوا مَوَارِدَ عَدْلِهِ وَسَطَا حِيهِ لَتُرَدَّ عَنْ نَهْجِ الشَّمَاتِ سِمَاتُهُ (١)

وله فيه مقطوعات أخرى أوردها أبو شامة في الروستين ، وعلى لا تخرج فـسى معانيها ، وأفكارها عن القصيدة السابقة ، ولكنها تشيد بأعماله السابقة في حياته ، وحروره مع الصليبيين ، يقول في إحداها :

مَنْ لِلْعَمَلِ ؟ مَنْ لِلدَّرَا ؟ مَنْ لِلْهُدَى يَحْيِيهِ ؟ مَنْ لِلْبَأْسِ ؟ مَنْ لِلنَّائِلِ ؟
طَلَبَ الْبَقَاءَ لِمَلِكِهِ فِي أَجْبَلِ إِذْ لَمْ يَنْتَقِ بِبِقَلِهِ مُلْكِ الْمَاجِلِ

(١) الروستين ٢/٢١٥ - ٢١٦

بِعَمِّ أَعَادُ الْبِرِّ بِخِرَاءِ بِيْرَةٍ وَسَيِّفُهُ فُوحَتْ بِأَدِّ السَّاجِلِ
 مَنْ كَانَ أَهْلُ الْحَقِّ فِي أَيَّامِهِ وَيَعِزُّهُ يَرْدُّونَ أَعْمَلُ الْبَاطِلِ
 وَتَوَحُّهُ وَالْقَدْرُ مِنْ أَهْلِكَ هَا أَبَقْتُ لَهُ فَضْلًا بِغَيْرِ مَسْأَلِ
 مَا كُنْتُ أَسْتَسْقِي بِغَيْرِكَ وَأَبِيًّا وَرَأَيْتُ جُودَكَ مُخْجَلًا لِلرَّوَابِلِ (١)
 فَسَقَاكَ رِضْوَانُ الْإِلَهِ لِأَنَّكَ سِنِي لَا أُرْتَضِي سَقَى السَّمَامِ الْمَهَاطِلِ

ثالثاً : عجايب المتخاذلين

لا يظهر هذا الفرض في الباقي من شعر العماد ، إما لأنه ضاع ، وإمّا لأن طبيعة العماد وجبليته كانتا تكرهان الهجاء بشكل عام ، ولذا لم يظهر الهجاء الشخصى فى شعره ، وكذلك لم يظهر هجاء المتخاذلين فيه ، وإن كان قد ظهر الهجاء السياسى خاصة فى عجايب الفاطميين ووزيرهم شاور .

ولم نجد من شعر العماد فى هجاء المتخاذلين سوى بيتين عجايب فهما عجز الدين أسامة والى قلعة بيروت والمكلف بحمايتها والحفاظ عليها ، ولكنه خاف وتركها فريسة سهلة للفرنج ، فخاف الأجناد الذين بها وانهمزوا وقيت القلعة ليس فيها من يذب عنها ، وهم الفرنج بذلك ، فأسرعوا إليها وملكوها سنة ٥٩٣ ، فلمن التامر أسامة غذا وعجايب العماد قائلاً :

إِنَّ بَيْعَ الْحُصُونِ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَتَبَيَّرَ سَنَةً سَنَهَا بِبَيْرُوتَ سَاسَمَةَ
 لَمَنْ اللَّهُ كُلُّ مَنْ بَاعَ ذَا الْبَيْتِ عَ وَأُخْرَى بِخَزِيهِ مِنْ سَاسَمَةَ (٢)

رابعاً : الحث على الجهاد

وقف الشعراء إلى جانب زنى ونور الدين وصلاح الدين بعد حوثهم وسجلون وقائمهم ، فلزمهم أن يوجهوا أنظار هؤلاء السلاطين إلى الأمنيات التى تحلم بها الأمة ،

(١) الروضتين ٢١٧/٢ وأورد أبو تمامة بيتين منسويين الى المجهول بهذا المعنى :
 (٢) مفرج الكروب ١٦/٣

سلم الحصن ما عليك ملامته ما يلام الذى يبرم السلامة
 فصحاء الحصون من غير حرب سنة سنها ببيروت ساسامة

وتسمى إلى تحقيقها ، وكان العماد أحد الشعراء المقربين بل أقربهم من نور الدين ،
وصلاح الدين ، وكانت كلمته عندهما مسموعة ، ورأيه نافذاً ، ولذا نجد في الأبيات الكثيرة
من قصائد مدحهما ، يحثهما على قتال الفرنجة واحتلال الساحل الشامي ، وتحريـ
ر بيت المقدس ، وفتح المدن المحتلة إلى غير ذلك من أمور ، ونستطيع القول بأن العماد
قد أدنى واجبه في هذا المجال عملاً وقولاً ، فبالعمل كان إلى جانبهما في معظم معاركهما
وبالقول والكلمة حثهما على ذلك نشراً وشعراً في معظم قصائده التي مدحهما بها . بل
كان يحث غيرهما من الأمراء والقادة أبطال الجهاد على تحرير القدس والساحل الشامي
وغير ذلك .

في القصيدة التي مدح بها نور الدين لاحتلاله مفتح وأخذها من عا حبهما ،
بشره بفتح القدس مرة ، وحثه على احتلالها مرة ثانية ، وأهاب به أن يفتح طرابلس
الشام ، ومدينة نابلس الفلسطينية فقال :

(١) أَبْشِرْ ، فَبَيْتُ الْقُدْسِ يَتَلَوُّ مَنِيحًا ، وَنَمِيحٌ لِسَوَاهُ كَأَلَا نُمُودَجِ (١)

وحثه على فتح القدس وغيرها قائلا :

(٢) فَاتَّهَدُ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ غَايَةً ، وَكَلَى طَرَابُلُسٍ وَنَابُلُسٍ عَجِجَ (٢)

وله من قصيدة يهنئ فيها نور الدين بفتح مصر ، ويحثه على نهايتها على غزو الإفرنج
وقتلهم وتطهير القدس من رجسهم ، قال :

أَغْرُ الْفَرَنْجِ فَهَذَا وَقْتُ غَزْوِهِمْ ، وَأَحْطِمُ جُمُوعَهُمْ بِالذَّائِلِ الْحَطِيمِ
وَطَهِّرُ الْقُدْسَ مِنْ رِجْسِ السَّلِيبِ وَثَبُ (٣) ، (٤) ، (٥)
عَلَى الْبِفَاثِ وَثَوْبِ الْأَجْدَلِ الْقَطْمِ (٥)

وحين انتقل نور الدين إلى باريته ورثاه العماد بقصيدته التي أولها :

الدَّيْنُ فِي ظِلْمٍ لَيْثِيَّةٍ نَوْرِهِ ، وَالذَّهْرُ فِي عَمٍّ لِقُدِّ أَمِيرِهِ

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٨٠ (٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٣) البفاث : شرار الطير (٤) الاجدل السفر

(٥) الروضتين ج ١ ص ٢٤٥ وانقطع المقاطع .

أراد العماد أن يذكر صلاح الدين بوعده قطعة على نفسه بتحرير القدس وفتحها وطرده الصليبيين من مسجدها ، ولذا كان على خليفته أن يوفى بهذا الوعد ويحققه ، فقال :

أَوْ مَا وَعَدْتَ الْقُدْسَ أَنْكَ مَنْجَرٌ مِمَّ عَادَهُ فِي فَتْحِهِ وَظَهْرُهُ
فَمَتَى تُجِيرُ الْقُدْسَ مِنْ دُنْسِ الْعِدَا وَتَقْدِّمُ الرَّحْمَنَ فِي تَطْهِيرِهِ؟ (١)

وله في قصيدة نظمها في التمشق إلى دمشق - حين كان في الموصل - ، ثم في مدح السلطان صلاح الدين مخلصها ، وحثه على تحرير القدس وفتحها :

وَيَوْمَ الْفَرَنْجِ إِذَا مَا لَقَّوْكَ عِبُوسٌ بِرَغْمِهِمْ قَمَّاطِرٌ
نَهَوْصًا إِلَى الْقُدْسِ يَشْفِي الْغَلِيلَ يَفْتَحُ الْفَتْوحَ وَمَاذَا عَسِيرٌ؟ (٢)

وحثه على فتح القدس في قصيدته التي مدحه بها حين احتل بعلبك سنة ٥٧٠

فقال له : فَمَتَى تَفْتَحُهَا ، وَاقْصِدِ الْفَتْحَ الَّذِي بِحَصُولِهِ لِفَتْوحِكَ الْإِتْمَامُ (٣)

وسنأ العماد السلطان بانتصاره على الحلبيين والموصليين سنة ٥٧١ وحثه على احتلال الساحل الشامي وتحريره ، وتحرير رقاب الفرنجة وطردهم فقال :

وَأَتَانِي بِالسَّاحِلِ الْأَقْصَى ، وَقَدْ سَاحَتْ بِنَحْرِهِمِ الْفَرَنْجِيَّةُ سَاحِدٌ (٤)

ومدحه في مصر في السادس من شوال سنة ٥٧٢ ، وذكره بالبلاد المحتلة . ووجوب تحريرها ، وسفك دماء آخذيها ، وكأنه أراد أن يذكر السلطان بأن بقاءه في مصر قد طال ، وأن واجبا في الشام قد ترك ، وعملا جليلا قد أهمل والقوم غادرون ، والأعداء مجربون ، وذكره بطائفة من طوائف الفرنجة تعد من أكثر الصليبيين اجراما ، وحببا في القتل وسفك الدماء . قال له :

فَمَتَى وَأَفْتَحَ الْقُدْسَ وَأَسْفَكَ بِيهِ دِمَاءَ مَتَى تُجْرَهَا يَنْظِفُ
وَأَهْدِي إِلَى الْأَسْبَارِ الْبِتَارِ وَهَدَّ السُّقُوفَ عَلَى الْأَسْفُوفِ
وَأَخْلَصَ مِنَ الْكُفْرِ تِلْكَ الْبِلَادَ يَخْلُصُكَ اللَّهُ فِي الْمَوْقِفِ (٥)

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ (٢) الروضتين ٢٤٧/١

(٣) المصدر السابق ٢٤٧/١ (٤) قسم مصر ٢١/١

(٥) الروضتين ٢٦٩/١

وحين تم فتح بيت القدس ، وأصبحت قوة السلطان بارزة واضحة ، وضعف الفرنجة
 بيئاً ظاهراً ، ورأى الصناديق والمدن والحصون والقلاع تتساقط الواحدة إثر الأخرى أصابته
 النشوة والسرور والفرح ، فإذا به في القصيدة التي مدح بها السلطان لفتح القدس يحدد
 هذه المدن والحصون ، ويذكره بالحصون والقلاع الباقية التي مازال الفرنجة بها مرابطين
 وللنجدة منتظرين ، فيقول في المدن التي حررت :

وَقَدْ طَابَ رَبَانَا عَلَى طَبْرِسِيَّةِ	فَيَا طَيْبِهَا مَفْنَى وَيَا حَسَنَهَا مَرْسَى
وَعَكَا وَمَا عَكَا فَقَدْ كَانَ فَتْحُهَا	لِاجْتِهَادِهِمْ عَنِ مَدُنِ سَاحِلِهِمْ كَتَمَا
وَصَيْدَا وَبِهْرُوتَ وَتَبْنِيْنَ كُلِّهَا	بِسَيْفِكَ أَلْقَى أَنْفَهُ الرِّفْمُ وَالتَّمَشَا
وَيَافَا وَأَرْسُوفَ وَتَبْنِيْ وَغَزَّةَ	تَخَذَتْ بِهَا بَيْنَ الطُّلَى وَالطُّبَى عُرْسَا
وَفِي عَسْقَلَانَ الْكُفْرَ ذَلَّ بِمُلْكِكُمْ	فَمَنْظَرُهُ بِلِأَمْرِهِ أَرِيدُ وَأَرْجَسَا

ويقول في التذكير بالمدن الباقية :

وصار بصور عصبة يرفقونكم	فلا تبطلوا عنها وحسبكم حسنا
توكل على الله الذي لك أصبحت	كلايته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقيين واجتتأ عليهم	فإنك قد سمرت ديارهم فلسا

ويحسه على احتلال ابلاد الشرقية خراسان وبلاد ما بين النهرين وكذلك بلاد
 الترك وغيرها ، ثم يعبود ليحسه على احتلال الكرك وما بقى من المدن فيقول :

وَعَدَّ الْفَرَنْجُ الْكُرْكُ مَا قَبِلَهُ بِلَادُهُمْ يَعْزِمَتِ وَأُمْلَأُونَ دِمَارَهُمُ الرَّمْمَا

ولم ينس الصناديق أن يحث الأمراء المجاهدين على تحرير الأرض المحتلة والقدس
 الذبيح ، فنراه يوجه خطابه إلى شيركوه حاثاً وراجياً ومذكراً ومنبهاً . . . عولاه والسي
 وجوب العمل السريع والجد والاجتهاد من أجل تخليص هذه البلاد .

فحين هنا الصناديق شيركوه بفتح سمر وتوليه الوزارة فيها ، رأى الصناديق أن شيركوه

(١) صيدا وبيروت وتبنيين مدن لبنانية في الوقت الحاضر .
 (٢) يافا وأرسوف وتبني وغزة مدن فلسطينية محتلة .
 (٣) عسقلان مدينة فلسطينية محتلة (٤) الروضتين ١٠١/٢
 (٥) الروضتين ١٠٢/١

أصبح في مركزه قوة يستطيع به أن يعمل على تحرير القدس فحسب على ذلك قائلاً :

(١) فَتَحَتْ مِصْرَ وَأَرْجُو أَنْ تَصِيرَ بِهَا مِيسِرًا فَتَحَ بَيْتَ الْقُدْسِ عَنْ كَتَبِ

وحين تم لصالح الدين النصر على السودان جيش الفاطميين الذين بلغ عددهم - حسب رواية الروضتين عن العماد - خمسين ألفاً ، وأصبحت السلطة بيد صلاح الدين الذي سعى وزيراً للمعاضد خاتبه العماد في القصيدة التي كتبها على لسان غيره قائلاً :

يَا مُخْجِلَ الْبَحْرِ بِالْأَيْمَانِي قَدْ آتَى أَنْ تَفْتَحَ السَّيْمَانِي
فَقَدَّرَ الْقُدْسَ مِنْ خَبَاكِ أَرْجَانِ كَفِي عَمِّ أَرَادِي (٢)

ولم ينس العماد أن يحثه على احتلال القدس ، وقاتل الفرنجة وعزيمة الصليبيين ووجوب العزم والجد في ذلك وعن كنه هذا يضمن لفاعله سمعة حسنة ، وذكراً طيباً .

كل هذا في القصيدة التي عزاه فيها بوفاء عمه شيركوه ، وكأنه أراد أن ينبيهه إلى خطورة المهمة الملقاة على عاتقه ، فقال له :

فَصَبُّوا عَلَى الْإِفْرَنْجِ سَوْطَ عَدَابِهَا يَا أَنْ تَفْسِمُوا مَا بَيْنَهَا الْقَتْلُ وَالْأَسْرَا
وَلَا تُهْمِلُوا الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ وَأَعَزَمُوا عَلَى فَتْحِهِ غَايِبِينَ وَأَفْتَرَعُوا الْبِسْكَرَا (٣)
تُدَيِّمُونَ بِالْمَعْرُوفِ طَيْبَ ذِكْرِكُمْ وَمَا الْمَلِكُ إِلَّا أَنْ تُدَيِّمُوا لَكُمْ ذِكْرَا

وحث العماد تقي الدين عمر ابن أخي السلطان آملًا أن يكون فتح القدس على يديه ، فقال له :

وَلَا يَفْتَحُ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ غَيْرَكُمْ وَيُؤْتِكُمْ مِنْ كُلِّ عَابٍ مُقَدَّسًا (٤)

ويخاطب العماد حسام الدين بن لاجين أحد قادة صلاح الدين الذين اشتركوا في فتح القدس سنة ٥٨٢ من قصيدة مدحه بها ، ويطلب أن يُذكر السلطان بأن هناك مدناً لم تفتح وبلاداً لم تحرر ، فهناك صور وطرابلس وأنطاكية وهناك فرنجسنة

(١) الروضتين ١٥٩/١ (٢) خبات : البول والفاطمة ، والغتم مفرد لها : أغتم

وغوم لا يفصح شيئاً الأراذل جمع رذيل وسوا الخسيس .

والبيتان في الروضتين ١٧٩/١ (٣) الروضتين ج ١٧٩/١

(٤) الروضتين ٧٢/٢

ما زالوا يترصون ، فلا داعي للظلمة وانتكوه ، فعلى السلطان الإسراع قبل وصول النجدة
ولم الشمل المشتت . قال :

قُلْ لِلْمَلِكِ صَلَاحُ الدِّينِ أَكْرَمُ مِنْ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ أَوْ مَنْ يَرْكَبُ الْفَرَسَا مَنْ يَمْشِي فَتَحِكَ بَيْتَ الْقُدْسِ لَيْسَ سِوَى	أَبْرَ عَلَى يَوْمِ أَنْظُرُ طُوسَ ذَا لِحَبِّ وَأَخْلُ سَاحِلَ هَذَا الشَّأِ أَجْمَعِ وَلَا تَدْعُ مِنْهُمْ نَفْسًا وَلَا نَفْسًا نَزَلَتْ بِالْقُدْسِ وَاسْتَفْتَحَهُ وَمَتَى
صُورٌ ، فَإِنْ فُتِحَتْ فَاقْبِضْ طَرَابِلُسَا وَابْتِمْ إِلَى كَيْلِ أَنْطَاكِيَةِ الْمَسَا مِنَ الْمُدَارَةِ وَمَنْ فِي دِينِهِ وَكِسَا فَانْتَهَمَ يَأْخُذُونَ النَّفْسَ وَالنَّفْسَا تَقْبِضْ طَرَابِلُسَا فَأَنْزِلْ عَلَى قُدْسَا (١)	

خاصاً : الوصف

وصف العماد الكثير من الممارك الحربية التي دارت رحاها على أرض الشام
ومصر وسال نجيع شجمانها على توابها فارتوت به ، ووصف الأعداء وجراتهم ومقاومتهم
صناديد المسلمين لهم ، ونزيمتهم .

ففي المعركة التي شبَّ أوارها واشتعلت نارها على أرض مصر ، والتي دارت بين
شيركوه والفرنجية الذين استنجد بهم شاور ، مدحه العماد ، ووصف تلك المعركة وكثرة
القتلى من الفرنجية ، وفزارة الدماء التي سالت على أرضها ، وقد كانوا قد جاءوها آملين
احتلالها ، فتلقتهم صوارمه ورماحه وسيوفه وطلباه ، وحلت فيهم قتلا حتى أفنت معظمهم ،
ومن بقى فزَّهَّارياً وإلى غير رجعة .

قال :

لَقَدْ بَغَتْ فِئَةُ الْإِفْرَنْجِ فَأَنْتَهَفَتْ عَرَسَتْ فِي أَرْضِ مِصْرٍ فِي جُجُومِهِمْ وَسَالَ بَحْرُ نَجِيعٍ فِي مَقَامٍ وَغَسَى أَنْهَرَتْ مِنْهُمْ دِمَاءً بِالسَّعِيدِ جَرَى	رَمَضَا ، بِأَقْدَامِكَ الْهِنْدِيَّةِ الْبُتْرُ أَشْجَارُ خَطَّ لَهَا مِنْ هَامِهِمْ ثَمْرُ بِهِ الْحَدِيدُ غَمَامٌ ، وَالِدَمُ الْمَطْرُ رَمَضَا إِلَى النَّيْلِ فِي وَادِيهِمْ نَهْرُ
رَأَوْا إِلَيْكَ عُبُورَ النَّيْلِ إِذْ عَدِمُوا تَحْتَ السَّمَوَاتِ هَامَ الْمُشْرُوكِينَ كَمَا	نَشْرًا فَمَا عَبَرُوا حَتَّى قَدْ اعْتَبَرُوا تَحْتَ النَّوَالِحِ يَوْمًا خَفَّتِ الْأَكْرُ

أَفْتَتِ سَيُوفُكَ مَنِ لَأَقْتِ فَإِنْ تَزَكَّتْ قَوْمًا فَهَيْمُ فَعَرَمِنْ قَبْلِهَا نَفَرُوا
 لَمْ يَنْجُ إِلَّا الَّذِي عَاقَتْهُ مِنْ خَيْبِثٍ وَحُضَّ الْقَلَا ، وَتَوَلَّى لِلْحَدُورِ مَنظَرُ (١)

ومدح صلاح الدين قبل توليه السلطنة لصدوده الباسل في وجه الفرنجة الذين
 حاصروه في الإسكندرية سنة ٥٦٢ هـ ووصف رعيهم وجبنهم حين استحضر القتال ، ففروا
 مولين الأذبار ، وعم يحمون كالكلاب ، وأطلق المسلمون أيديهم في الإفرنج قتلاً وأسراً ،
 فقتلوا الأمراء والقادة ، وأسروا الصغار من الأعداء حتى تمنى أمراء الإفرنج أن يكونوا
 جنوداً صفاراً فيؤسرون ، ومن القتل ينجون ، قال في ذلك :

وَنَوُّ الْهَنْفَرِجِ هَانُوا فَفَرُّوا وَمِنْ الْأُسْدِ كُلِّ كَلْبٍ فَفَرُّوا (٢)
 إِنَّمَا كَانَ لِلْكَلابِ عُرْوَةٌ حَيْثُمَا كَانَ لِلْأُسْدِ زَيْبِيرُ
 وَقَلْبٌ عِنْدَ الْفِرَارِ سَلِيبٌ فَهَوَّ بِالرُّعْبِ مَطْلَقٌ مَا سَبَّورُ
 لَمْ يُبْقُوا سِوَى الْأَصَاغِرِ لِلْسَّابِ سِوَى قَوْدِ وَأَنَّ الْكَبِيرَ صَفِيرُ (٣)
 وَحَمِيَّتِ الْإِسْكَندَرِيَّةُ مِنْهُمْ وَرَحَى حَرَمِهِمْ عَلَيْهِمْ تَدُّورُ
 حَاغَرُوهَا وَمَا الَّذِي بَانَ مِنْ ذَبِّ كُ عَنْهَا وَحَفْظُهَا مَحْضُورُ
 كَحَمَارِ الْأَحْزَابِ طَيْمَةٌ قُدَّ مَسَا وَبِئْسَ الْهَدْيُ بِهَا مَنْصُورُ (٤)

ووصف العماد معركة دمياط التي حدثت سنة ٥٦٥ بين صلاح الدين
 والصليبيين ، فقد علم أن العدو قد عز على قصد دمياط ، فأرسل صلاح الدين إلى البلد
 من الرجال والأبطال والفرسان والمبيرة وآلات السلاح ما أمتها ، ووعد للمقيمين فيها
 بإمدادهم بالعساكر والآلات (٥) واتجه الفرنج إليها ، واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها
 فوجدوا مقاومة عنيفة من داخل البلدة ، وخارجها ، ورواها أن لا قدرة لهم على الصمود
 فدخلوا خاسرين ، فمدح العماد صلاح الدين لهذا النصر ، ووصف جيوشه وجحافلها الجرارة
 التي صمدت في وجه جيوش الفرنج الكاملة السلاح ، والتامة العُدَدِ والمُدَّةِ ، فما غادروها
 حتى كان الكثير من رؤوسهم يتدحرج على أرض دمياط وترايبها ، وأصبحت أجسامهم طعاماً

(١) كبرو الهنفرج يعني الفرنج أصحاب الم تفرى ملك القدر الصليبي في ذلك الوقت .
 (٢) البروضتين ١٤٥/٢ الأكر : جمع أكره وعلى لفحة في الكرة (٢) البروضتين ١٤٦/٥
 (٣) الاحزاب قريش وحلفاؤها الذين حاصروا المدينة المنورة في السنة الخامسة من الهجرة
 (٤) البروضتين ج ١ ق ٢ ع ٤٥٨

للطيور الجارحة والحيوانات المتوحشة ، فرحلوا أسفين ، متحسرين ، وفرقاداتهم وشجعانهم
من الداوية أذلاء ، وقد خزي المطران والأسقف ، وتكسرت صلبانهم ونكست :

كَمْ جَحْفَلٍ بِالسَّرَايِ ذِي لَجَبٍ	بِالصَّفِّ وَفِيهِ يَضَعُونَ صَفْفَهُمْ
كَالْبَحْرِ طَامِي الْعُبَابِ لَا عِبَةَ	رَبِّمْوجِهِ لِلرِّيَّاحِ أَعْصَمُهُمْ
كَيْبِيَّةٍ مَنَعَتْنِي مَهْدِي بَيْتِهَا	إِلَى السَّرْدِ مَشْرَعٌ مَشْفَقُهَا
غَادَرَتْهَا النَّسُورُ مَا كُلُّهَا	حَيْثُ بِأَشَارَتِهَا تُصَيِّفُهَا
مَتَّصِفًا مِنْ رُؤْيِي طَاعِنِيَّةٍ	بِبِلَاتِيَّاتِ الظُّبَا تَنْصَفُهَا
وَحُطَّتْ دُمِيَّاطٌ إِذْ أَجَاطَ بِهَا	مَنْ يَرْجُمُ الْبِلَاءُ يَقْدِفُهَا
لَا قَتَّ غَوَاةُ الْفَرَنْجِ حَيْبَتِهَا	فَزَادَ مِنْ حَسْرَةٍ تَأَسَّفُهَا
فَرَّقَ قَدِيرُهَا وَأَزْعَجَهَا	رِنْدًا لِدَاوِيَّهَا تَلْهَيْهَا
يُمَطِّرُ مَطْرَاتِهَا الْعَذَابَ كَمَا	يُرْدِي بِمَهْدِ السَّقُوفِ أَسْقُفَهَا
تَكْسِرُ صَلْبَانَهَا وَتَنْكُسُهَا	لِقَصْمِ أَصْلَابِهَا وَتَقْصِفُهَا

وفي سنة ٥٦٨ عد انتصر المسلمون بقيادة نور الدين في السلالة على الفرنجة
فطلب نور الدين من العماد وصف ما رآه من بطولة وشجاعة ، فوصف العماد هذه الواقعة
وما فعله الأشاوس بالقوم الفرنجى ، وقطعهم لرأس الإبرنس الصليبي ، ورفضهم له على
سنان الرمح ، ووصف كثرة الأسرى والذل الذي حل بهم ، وغزارة الدم الذي سال من
رقاب الفرنجة ، كما وصف الفهار وتخطيته للنجوم حتى باقت لا يظهر منها شيء :

كَمْ وَقَمَةٍ لَكَ بِالْفَرَنْجِ حَدِيثُهَا	قَدْ سَارَ فِي الْأَقَايِ وَالْبُلْدَانِ
وَمَلَكْتَ رِقَى مَلُوكِهِمْ ، وَتَرَكْتَهُمْ	بِالذَّلِّ فِي الْأَقْيَادِ وَالْأَشْجَانِ
وَجَعَلْتِ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْصَالَ لَهُمْ	وَسَحَبْتَهُمْ هُونًا عَلَى الْأَذْقَانِ
إِذْ فِي السَّوَابِغِ تَحَطَّمُ السَّمَرُ الْفَنَاءُ	وَالْبَيْضُ تَخْضِبُ بِالنَّبِجِ الْقَانِي
وَعَلَى غَنَائِهِ الْمَشْرِقِيَّةِ فِي التُّسْلَى	وَالهَلَامُ رَقَصَ عَوَالِي الْمَسْرَانِ
وَكَانَ بَيْنَ النَّقْعِ لَمَعَ حَدِيدِهَا	نَارٌ تَأْتِي مِنْ خِلَالِ دُخَانِ

(١) طامى العباب : مرتفع المسوح

(٢) قسم مصر ١٢/١ وفي الروضتين بعض الابيات ج ١ و ٢ ص ٤٦٢

فِي مَازِي وَرَدَ الْوَرِيدُ مُكَفَّلٌ فِيهِ بَرَى الصَّارِمَ الظَّنَّانِ
عَطَى الْمَجَاجِ بِهِ نُجُومٌ سَمَلَتْهُ لَتَنُوبَ عَنْهَا أَنْجُمُ الْخُرْعَانِ (١)

وللعقاد قصيدة في مدح السلطان لانتصاره الساحق الرائع في معركة حطين المشهورة سنة ٥٨٢ هـ ، والأبيات الواردة في الروضتين جميعها في وصف المعركة ، وحق إننا لا نجد مديحاً واضحاً للسلطان ، وفي بداية القصيدة وصف العقاد عبوس الأبطال وكثرة الفبار ، ووصف كبير الفرنجة ، وغو يرسف في أغلال الذن ، وحكى لنا قصة مقتل إبرنيس الكرك ، حين طار رأسه بحربة سيف بسبب غدره المتواصل ، وقتله للأبرياء الآمنين ، قال :

يَا يَوْمَ حَظِيمٍ وَالْأَبْطَانُ عَابِسَةٌ وَالْمَجَاجَةُ وَجْهَ الشَّمْسِ قَدْ عَبَسَا
رَأَيْتُ فِيهِ عَظِيمَ الْكُفْرِ مُحْتَفِرًا مَحْفَرًا خُدَّةً وَالْأَنْفُ قَدْ تَحَسَّاسَا
يَاطْهَرُ سَيْفُ بَرَى رَأْسِ الْبِرْتَمِ فَقَدْ أَصَابَ أَعْظَمَ مِنْ الشَّرْكِ قَدْ نَجَسَا
وَعَاصٍ إِذْ طَارَ ذَاكَ الرَّأْسُ فِي دَمِهِ كَأَنَّهُ يُفْتَدِعُ فِي الْمَاءِ قَدْ غَطَسَا
عَوَى طِبَاهُ مِنَ الْأَعْمَادِ مُهْرَقَةٌ دَمًا مِنَ الشَّرْكِ رَوَاهَا بِهِ وَكَسَا
مَنْ سَيْفُهُ فِي دِمَائِهِ الْقَيْمِ مُغْفَسٌ مَنْ كَلَّ مِنْ كَمْ يَزُلُ فِي الْكُفْرِ مُغْفَسَا
أَفَانَهُمْ قَتَلَهُمْ وَالْأَسْرُ فَانْتَكَسُوا وَبَيْتُ كُفْرِهِمْ مِنْ خُبْرِهِمْ كَتَسَا (٢)

وقد وصف فيها مسيرة السلطان بجيشه الجرار وهم يحملون الرماح الردينية والأسنة الخطية والتقى بالفرنجة عند حطين ، فأذلي ملوكهم بعد أن كانوا أعزة ، وتحركت خيول المسلمين في ذلك السهل الفسيح يركبها فرسان أشاوس وأبطال كماء ، وقد اعتقلوا رماحهم وكسروا على الفرنجة الذين جاءوا بنفوس مثوثة للقتال ، مصممة على النزال ، فما هي إلا جولات حتى ولى الفرنجة الأدبار ، فارتجت الأرض لسرعة جريهم ، فمات أكثرهم ، وفر الباقون وهم قلة ، ووقع ملوكهم في الأسر ، وأصبحت نساؤهم سبايا للمسلمين ، فرخصت أثمانهن وقرن الإقبال عليهن ، فعرضن بثمن بخس في الأسواق ، ولكن الشارين لم يرغبوا في الشراء ، يقول العقاد في ذلك :

سَحَبَتْ عَلَى الْأُرْدَنِ رَدْنًا مِنَ الْقَنَا رَدَ بَغِيَّةٍ مُلْدَا وَخَطِيئَةٍ مَلْسَا (٣)

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٢٩ والخرعان : جمع خرص وهو القنا والسنان
(٢) الروضتين ٨٢/٢ (٣) ملدا : ناعمة

حَطَطْتُ عَلَى حِطِّينَ قَدْرَ مُلُوكِهِمْ وَلَمْ تَبْقَ مِنْ أَجْنَابٍ كَفَرُهُمْ حِجْسًا
 وَنَحْمَ مِجَانِ الْخَيْلِ حِطِّينَ لَمْ تَكُنْ مَعَارِكُهَا لِلجُرْدِ ضَرْسًا وَلَا دَنْسًا
 غَدَاةَ أَسْوَدِ الْحَرْبِ مُعْتَقِلُوا الْقَنَا أَسَاوِدُ تَبْيِضُ مِنْ نُحُورِ الْعِدَا نَهْبًا
 أَتَوْا شُكْرَ الْأَخْلَاقِ حُشْنَا فَلَيِّنَتْ حُدُودَ الرِّقَاقِ الْحُسْنِ أَخْلَاقَهَا الشُّكْمَا
 طَرَدْتَهُمْ فِي الْمَلْفَقِ وَعَكَسْتَهُمْ مُجِيدًا بِحُكْمِ الْعَمْرِ كَرْدَكَ وَالْمَكْمَا
 فَكَيْفَ مَكَمَّتِ الْمُشْرِكِينَ رُؤْسَهُمْ وَدَأْبَكَ فِي الْإِحْسَانِ أَنْ تَطْلُقَ الْمَكْمَا
 كَسَرْتَهُمْ إِذْ صَحَّ عَزْمُكَ فِيهِمْ وَنَكَسْتَهُمْ إِذْ صَارَ سَهْمُهُمْ نَكْسَا
 بِوَاقِعَةٍ رَجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ بِبَيْشِهِمْ دُمَارًا كَمَا بَعَثَتْ جِبَالَهُمْ بَسَّسَا
 جَبُطُونَ فَنَابِ الْأَرْضِ صَارَتْ قُبُورُهُمْ وَلَمْ تَرَفْ أَرْضًا أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رَمْسَا
 وَطَارَتْ عَلَى نَارِ الْمَوَاضِي فِرَاشَهُمْ صَلَاةَ قَوَادِمٍ مِنْ جَمُودِ عَمِّ قَيْسَا
 وَقَدْ خَشِمَتْ أَسْوَابُ أَبْطَالِهَا فَمَا يَعْبَى السَّمْعُ إِلَّا مِنْ صَلِيلِ الطُّبَى هَمْسَا
 تُقَادُ بِدَأْبِهِ الدَّمَاءُ مُلُوكُهُمْ أَسَارَى كَسْفِيْنِ الْيَمِّ نَطَّتْ بِهَا الْقَلْسَا
 سَهَابًا يَلَادُ اللَّهُ مَمْلُوءَةً بِهَا وَقَدْ شُرِبَتْ بِخَسَا وَقَدْ عُرِضَتْ نَخْسَا
 يُطَافُ بِهَا الْأَسْوَابُ لَا رَاغِبَ لَهَا لَكثَرَتِهَا كَمْ كَثُورَةٌ تُوجِبُ الْوُكْسَا

ويعود مرة ثانية ليصف لنا مقتل أرتناط أمير الكرك الإفرنجي الذي قتله صلاح الدين بيده لغيره ، فقد ضربه السلطان ضربة واحدة ألقت رأسه بعيداً عن جسده ، فقار دمه من أوداجه ، وأسرعت الملائكة حاملة روحه إلى النار :

(٤) شَكَا يَيْسًا رَأْسُ الْبَيْرُنِسِ الَّذِي بِهِ تَنَدَى حَسَامٌ حَاسِمٌ ذَلِكَ الْيَيْسَا
 حَسَا دَمُهُ مَاضِي الْفِرَارِ لِنَفْدَرِهِ وَمَا كَانَ لَوْلَا فَدْرُهُ دَمُهُ يَحْسَى
 فَلِلَّو مَا أَعْدَى يَدَا فَتَكَتْ بِهِ وَأَطْهَرَ سَيْفًا مَمْدُومًا رَجْمَهُ النَّجْسَا
 نَسَفَتْ بِهِ رَأْسُ الْبَيْرُنِسِ بِعُرْسِيَّةِ فَأَشْبَهَ رَأْسِي رَأْسَهُ الْعِيْنِ وَالْيَرْسَا

ومناك قصائد أخرى نظمها العماد على لسان غيره أشرنا إلى بعضها خلال هذا الباب ، وعلى لا تخرج عن الأغراض السابقة ولذلك لم نجعل لها تسمياً خاصاً بها .

(١) النكس : الانقلاب (٢) القطر : الحبل الضخم من ليف أو حوس أو غيره مما من قلوب السفن . (٣) الوكسا : النقسا .

(٤) يشير إلى غدر بيرنيس الكرك واعتدائه على قوافل الحجاج والمسافرين إلى مصر .

(٥) الروصتين ٢ / ٨٢ - ٨٤ والعمن : الصوف أيرس : القطن .

٣- العماد والدوييت :

سبق أن أشرنا في حديثنا عن كتب العماد إلى أنه ترك لنا ديوانا خاصا بالديويت وأن هذا الديوان صاع ونقد . وقد وجدنا له عدة رباعيات في الخريدة والروضتين وسنا البرق الشامي ، ونستطيع تقسيمها على قلتها إلى الأغراض الآتية :-

أ- رباعيات الجهاد :

وقد وردت في الخريدة والروضتين ، وكتبها العماد على لسان نور الدين

وهي :

لَا رَاحَةَ فِي الدُّنْيَا سِوَى أَنْ أُغْزَى سَبَقِي طَرِيقًا إِلَى الطَّلِي يَهْتَرُ
فِي ذُلِّ ذَوِي الكُفْرِ يَكُونُ المِزْرُ وَالقُدْرَةُ فِي عَيْمَرِ جِهَادِ عَجْزُ (١)

ومنها كذلك :

أَذَلَّتْ ذَوِي الشَّرِكِ بِعَمْرِ المِزْمِ وَالکُفْرُ يَهْزِ عَارِي فِي عَسْمِ (٢)
شَدَّتْ بِنِي المُلْكِ بِأَمْرِ الجِزْمِ وَالنَّسْرُ رَأَيْتَهُ قَرِينِ الحِزْمِ

ومنها وقد أبدع :

لِلنُّزُو نَشَاطِي وَإِلَيْهِ طَرِي مَالِي فِي الصَّمِ غَيْرُهُ مِنْ أَرْبِ (٣)
بِالْجِدِّ وَبِالْجِهَادِ نَجْحُ الطَّلَبِ وَالرَّاحَةُ مَسْتَوْدَعَةٌ فِي التَّعَبِ

ومنها كذلك :

أَقْسَمْتُ سِوَى الجِهَادِ مَالِي أَرْبِ وَالرَّاحَةُ فِي سِوَاهُ عِنْدِي تَعَبِ (٤)
إِلَّا بِالْجِدِّ لَا يَنَالُ الطَّلَبُ وَالصَّمِيرُ بِلا جِدِّ جِهَادٍ لِمَبِ

ب) في المدح :

له رباعية في مدح نور الدين قبل أن يخالطه في أواخر سنة ٥٦٢ وهي :

مَا أَعْلَمُ وَالْحِظُّ عَزِيزُ السَّدْرِ لَمْ أَحْرَمْ تَقْبِيلَ يَمِينِ المُلِكِ (٥)
يَأْمَنُ بِمِرَادِهِ مَدَارُ القَلْبِ أَبْشُرُ بِوُقُوعِ شَاكِرٍ فِي الشَّرِكِ

- (١) الخريدة بداية قسم شعراء الشام من ٤٦ والروضتين ٢٠٧/١ وديوان الدوييت للشيبى ١٨٧
 (٢) بداية قسم شعراء الشام من ٤٦ وديوان الدوييت للشيبى من ١٨٧
 (٣) بداية قسم شعراء الشام من ٤٦ والروضتين ٢٠٧/١ وديوان الدوييت للشيبى من ١٨٧
 (٤) الروضتين ٢٠٧/١ وديوان الدوييت ١٨٧/١ (٥) الروضتين ج ٢١٤/٢

جـ - في الرثاء :

له رباعية نظمها في رثاء صلاح الدين قال فيها :

قَالَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مَنْ كَلَّفَتْنِي فِي الْجُودِ بِخَيْرٍ شَيْعَى نَمَا أَنْصَفَنِي
مَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ الْمَلِكَ فَكِنِي لَمْ يَبْدُ مِنْ الْجُودِ إِلَّا كَفَّنِي

د - في الوصف :

له عدة رباعيات في الوصف وإحداهما في وصف الشمس .

قال فيها :

الْمَشْمَسُ لَا تَنْتَظِرُنَا مُصْفَرٌ وَالرُّوْحُ إِلَى لِقَائِنَا مُفْتَرٌ (١)
قَدْ نَفَقْتُمْ الْوَقْتَ فَمَهَذَا السُّمُرُ لَا لُبَّ لَهُ فَمَنْ بِهِ يُفْتَرُ

وله رباعية في وصف البلبس والورد يقول فيها :

اسْمِعْ مَا قَالَ عِنْدَ لَيْبِ الْوَرْدِ فَالْبَلْبَلُ فِي الرَّوْحِ حَاطِبُ الْوَرْدِ (٢)
الشُّرْبُ عَلَى الْوَرْدِ نَصِيبُ الْوَرْدِ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَنْصِبَ طَائِبُ الْوَرْدِ

وقال كذلك في المعنى واصفا الراح والورد :

كَمْ قَدْ حَضَرَ الرَّاحُ وَغَابَ الْوَرْدُ حَتَّى عُدِمَ الرَّاحُ فَنَابَ الْوَرْدُ (٣)
لَمَّا عَيَّقَ الرَّاحُ وَطَابَ الْوَرْدُ قَلْنَا : حَمَدَ الرَّاحُ وَذَابَ الْوَرْدُ

(١) الروضتين ٢١١/٢

(٢) (٣٤٢) الرباعيتان موجودتان في ديوان الدوميت للدكتور كامل الشيبى وفي الهامش إشارة أنه أخذهما من خلاصة الأثر للمجيب دون ذكر للجزء والصفحة . وقد رجعت لهذا الكتاب فلم تقع عيني عليهما وربما أخطأتهما .

حتى صفحة ٢٨٨
استعراض لأنواع الحسان البديعية
مع سورة نازع لها

الفصل الرابع

الدراسة الفنية لشعر العماد

دعائم أسلوبه الشعري اللفظية والمعنوية :

تحدثنا في الباب الثاني عن دعائم أسلوب العماد النثرى لفظية ومعنوية ، وقد التزم العماد كثيراً من هذه الدعائم والسمات الفنية التي اتصف بها نثره من جناس وطباق وتشبيه واقتباس قرآني وتضمين للشعر ، ولكن للشعر سمات أخرى تختلف عنها في النثر ، ولهذا أنشأنا هذا الفصل لدراسة السمات البارزة في شعره ، وهي قسمان : التصنيع البلاغي ، وبنية القصيدة .

القسم الأول : التصنيع البلاغي :

والتصنيع البلاغي يشمل الصور البيانية والزخارف البديعية التي بدورها تنقسم إلى معنوية من تورية وطباق وتشبيه وما شابه ذلك ، ولفظية من جناس واقتباس وتضمين وما يتبعها .

(١) الصور البيانية :

وتشمل الأخيلة والتشبيهات والمجازات التي أوردها في شعره ، وقارئ هذا الشعر يرى بوضوح ألوان التشبيه والاستعارة والكناية ، وعلى تمنح الشعر جمالاً إلى جانب الابانة مما في النفس ، لأن الأفكار الجميلة لا بد لها من الثوب القشيب ، تظهر فيه ، فيتحد المعنى بالصورة فيشعر الأسلوب وينضج ، ولكن هذه الصور والأخيلة أصبح لها فسي عصر البديع المكانة الثانية ، إذ صار البديع وأركانها الرئيسة من جناس ومقابلة وتقسيم وطباق وغير ذلك أساس الجمال اللفظي والمعنوي في نظرتهم ، وأصبح البديع هو المقياس الأول لجودة الشعر وجمال تفوقه .

أ - التشبيه :

أعجب العماد بالتشبيه وأظهر هذا الإعجاب في تعليقاته النقدية في الخريدة ، وسوف نعرض لرأيه هذا في حديثنا عن العماد الناقد .

وقد وردت صورة في شعر العماد كثيراً ، وهي في الغالب تشبيهات تقليدية

لا جديد فيها ، ومن الأمثلة عليها قوله في بني العباس - وفيه أريمة تشبيهات في بيت واحد :

خُلِقُوا الْهَدَى سِرَاةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالطَّيِّبُونَ أَهْلُ الطُّهْرِ
كَشُمُوسِ النَّحَى ، كَمَثَلِ بَدْرِ الْقَسَمِ ، كَالسُّحْبِ ، كَالنَّجْمِ الزُّهْرِي (١)

وكثيرا ما يكرر ألفاظ المشبه والمشبه به السابقة كقوله في مدح المستنجد العباسي :

إرث النبوة بل خلافها في يوسف المستنجد القاسم (٢)
كالبدر نورا ، والهزير ساطعا يوم الهياج ، وليلة القاسم

ويلجأ العمد إلى التشبيه في قصائده الوصفية ، ففي قصيدته التي وصف فيها القطائف ، أورد عدة صور تشبيهية ، يشبه فيها القطائف مرة بالتمائم وأخرى بالعقائل في خدورها ، وثالثة بالخيال الواقعة ورابعة بالبدر ، قال :

ما راقدات في صحون مستوطنات في سُكون
أو كالتائم للصحة فيما نسبت إلى جنون
ومنها :

المستقيمات الصفو فوقفن كالخيال الصفو
أو كالعقائل في الخسدو رقدن اعتقلن على ديون
ومنها :

تشدن بالترصيع فيسى الـ جارات كالدرد المردون

ومن تشبيهاته بيت أشده على مسامح الدين يقول فيه :

بدت بين أوراق الخسوف كأنها كرات نضار في لجين مطبرق

يقول العمد : قلما اتشدت السلطان هذا البيت قال : تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق أخضر فقلت :

(٣) كرات نضار بالزمرد محسودق

(١) الخريدة - العراوى (١٥/١) والروضتين (١٩٩/١)

(٢) المصدر نفسه - السراقى ٥٢/١

(٣) الروضتين ٢١٠/٢

ولغو تشبيهه تمثيلي ، ويبدو أنّ العماد كان معجباً بهذا النوع من التشبيه .
ومن تشبيهاته - أيضاً - قوله :

(١) تُساقطها أشجارها فكانها دنانير في أيدي السيارف ترتقي

ولغو تشبيهه مادي جامد بعيد عن الجمال لأنه يشبه عبورة سقوط الشمس عن الأشجار
بسقوط الدنانير من أيدي السيارفة .

ومن الصور الجميلة عذا التشبيه التمثيلي في قوله :

(٢) تمكن الرعب في قلب السد وبها تمكن النار بالإجراقي في الفحم

وربما أورد صورة جديدة أبدعها خياله ، ومثال ذلك قوله :

(٣) كأن سقيط الطل في صفحاته سحيراً نظيم الدر بين توثيره

ب - الاستمارة :

نوع آخر أحبه العماد وأورده في صورته الشعرية كثيراً ، ولا غرو فالعماد ممن
يحبون التصرف في اللفظة على وجوعها المختلفة ، والاستمارة محازم وعرفها ابن الأثير
بقوله : إنَّها نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما .

ومن أجمل استمارات العماد قوله في مديح أسد الدين شيركوه :

(٥) غرست في أرض مصر من جسيمهم أشجار خط لها من غلامهم ثمر
وسان بحر نجيع في مقام وغى به الحديد غمام والدم المطر

ومنها كذلك :

(٦) محمر نصل النصر في يوم الوغى الـ صغير ، مبيض المطر نسوعه

(١) الخريدة - القسم العراقي ٤٥/١

(٢) الروضتين ١٧٥/١ (٣) الخريدة - القسم العراقي ٥٩/١

(٤) المثل السائر ٨٢/٢ (٥) الروضتين ١٤٥/١

(٦) القسم العراقي ٦٢/١

وقوله كذلك في مدح المستنجد :

(١) مَنْ لَا خُمَائِلَ لَوْلَا سُحْبُهُ هَطَلَتْ وَلَا مَخَابِلَ لَوْلَا بَرْقُهُ وَصَلَا

وقوله فيه كذلك :

(٢) مَوْلَى لِرَاحَةِ أَسْبَلِ الْأَرْضِ رَاحَتَهُ وَكَمْ يَفْرَجُ عَنَّا الْحَادِثَ اللَّحِصَا

وقوله في وصف الحرب :

(٣) وَالْحَرْبُ عَضَّتْ بِأَنْتَابِ لَهَا عَصِي وَالصَّفَّ أَحْكَمُ مِنْ أَنْتَابِهَا لَسَا

وقوله كذلك :

(٤) لَمَا أَنْتَشَى الْهَامُ مِنْ كَأْسِ النَّجِيعِ بِهِ غَنَى الْمَهْنَدِ وَالْخَطِي قَدْ رَقَعَا

ج - الكناية :

على من أنواع المجاز التي يذكر فيها الأديب كلاماً له معنى قريب ، ويريد معنى

آخر بعيداً .

ومن ذلك قول الصماد :

(٥) وَنَشَرْنَا أَعْلَامَنَا السُّودَ قَهْرًا لِلْحَدَا الزُّرْقِ ، بِالْمَنَايَا الْحُمُرِ

فكفى عن القتل بالمنايا الحمر .

وقوله في صلاح الدين حين عشر به حصانه فوق :

(٦) فَأَعْذَرُ سَقُوطَ الْبَرْقِ عِنْدَ مَسِيرِهِ فَالْبَرْقُ يَسْقُطُ حِينَ يَخْطِفُ سَائِرًا

فالبرق الأولى كناية عن صلاح الدين .

د - التورية :

شبيهة بالكناية ، قريبة منها ، يلجأ فيها الأديب إلى الرمز ، وهي كثيرة فسي

شعر الصماد ومنها قوله :

(٧) عَادُ مِنْ مِصْرَ يَوْسُفَ وَإِلَى يَمِّ سَقُوبَ بِالتَّهْنِيَاتِ جَاءَ الْبَشِيرُ

(١) القسم العراقي ٦٧/٢ ووسى البرقي : لمع

(٢) المصدر السابق ٦٧/١ واللحن : السين

(٣) المصدر السابق ٦٩/١ واللحن : تقارب الأسنان (٤) المصدر السابق ٦٩/١

(٥) الخريدة - القسم العراقي ١٥/١ (٦) الروستين ١٤٩/١

(٧) الروستين ١٤٦/١

فورى بيوسف عن صلاح الدين ويعقوب عن أبيه نجم الدين •

وقوله في مجاء الخلافة الفاطمية والحث على القضاء عليها :

(١) **رُدَّ الْخِلاَفَةُ عَبَّاسِيَّةٌ وَدَعِيَ الدَّعْوَى فِيهَا يَصَادُغُ شَرٌّ مَنقَلِبِ**

فالدعى هنا بمعنى الخليفة الفاطمى الذى يدعى الخلافة وهو غير مستحق لها •

وقوله فى ذم الفاطميين كذلك :

(٢) **وَعَصْرٌ فِرْعَوْنِيٌّ انْقَسَى وَغَدَا يُوَسِّفُهَا فِي الْأُمُورِ مَحْتَكِمًا**

ففرعون هنا يعنى الخليفة المأمون الفاطمى •

وتورياته كثيرة فالمسلمون أهل الإيمان ، وأهل التوحيد ، وأهل الجماعة ،

والمسيحيون أهل التثليث ، وأهل الأحد ، وأهل الصليب •

ثانياً : الزخارف البديعية المعنوية :

١- الطباق :

وهو السمة الثانية بعد الجناس فى شعره ، وترد كثيراً فى قصائده ، وهو

يمجبب بها ، ويحطرب لبها ، وإذا وقعت عنده ، والأمثلة عليها كثيرة كثيرة بالفة ولا تكاد

قصيدة تخلو منها ، ومن ذلك قوله :

(٣) **فِرْحَ الْعَدُوِّ بِجَمْعِهِ وَلَقَيْتَهُ فَتَحَوَّلَتْ أَحْزَانُهُ أَفْرَاحُهُ**

فطابق بين الحزن والفرح •

وقوله فى القصيدة نفسها :

(٤) **لَتَفَكُّ مِنْ أَيْدِيهِمْ رَهْنُ الرَّهَى عَجَلًا وَيَدْرِكُ لَيْلَهَا أَصْبَاحُهُ**

فطابق بين الليل والإصباح بمعنى النور والضيء •

وقوله منها كذلك :

(٥) **فَجَاؤُا الْبِلَادَ مِنَ الْبِلَاءِ بِعَدْلِكُمْ فَالظُّلْمُ بَادٍ فِي الْجَمِيعِ صَرَاحُهُ**

فطابق بين العدل والظلم •

(١) المصدر السابق ١٦٠/١ (٢) الروضتين ١٩٥/١

(٣) قسم مصر ١٧/١ (٤) قسم مصر ٢٠/١

(٥) قسم مصر ٢١/١

وقوله من قصيدة أخرى :

تَشَاغَلْتُمْ عَنْهُ وَثَوَّقَا بِوَدِي كَأَنَّ رِضَاكُمْ عَنْ مَجْبِسِكُمْ سَخَطٌ (١)

• فطابق بين الرضا والسخط .

وقوله في مدح الخليفة المستنجد :

أَنْتَ عِبَادَ اللَّهِ أَمَّا فَلَمْ تَدْعُ عِيُونَ الصِّدَا رَجَا تَكْحُلُ بِالْفَمِضِ (٢)

• فطابق بين الأمن والرعب .

(٣)

وفي هذه القصيدة طابق بين كثير من الكلمات في أبياتها • طابق بين مسخط ومرضى • وبين الرشد والفي • والحب والبغض • وحفيت وتعملت • والمدل والظلم • ومشتت وجامع • وقارئها يجد الطبايق في معظم أبياتها • ولو شئنا لاستشهدنا بمثلثات الأمثلة التي وردت في شعره .

٢- المقابلة :

وعنى الجمع بين الأضداد ••• أي : أكثر من طبائى • وعنى ترد فى شعره ولكنها قليلة ، إذا ما قيست بالطبايق نفسه ، وفى البيت الآتى جمع ثلاث طباقات متتالية وعلو :

قَدْ عَاشَ فِي الْعِزَّةِ الْقَمْسَاءَ حَاجِدُهُ وَمَاتَ جَارِحُهُ مِنْ ذِلَّةٍ قَمَصَا (٤)

• وقد طابق بين عاش ومات والعزة والعمزة ، والذلة والحامد والجاحد .

٣- حسن التعليل :

ذكره الخطيب القزوينى فى الإيضاح ، وعرفه بقوله : هو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى ، ونحو على أربعة أقسام من حيث الوصف الممثل ثابت قصد بيان علة ، فأما أن يظهر له فى العادة علة ، أو يظهر له علة غير المذكورة ، وفسير ثابت • ونحو إما ممكن فى ذاته ، أو غير ممكن إلا بالإدعاء .

(٢) قسم الصران ٤٤/١

(١) قسم مصر ٢٦/١

(٤) قصصا : مات مكانه والبيت فى القسم

(٣) قسم الصران ٤٣/١ - ٤٨

(٥) الأيضاح ج ١٦٩/١

السراقى ٦٧/١

(١)

وزعم الدكتور عمر موسى باشا أنه مستمد من البلاغة الفارسية لأن القزويني مثل عليه بيت شعر مترجم عن الفارسية وهو :

لَوْ لَمْ تَكُنْ نِيَّةَ الْجُوزَاءِ خِدْمَتَهُ لَمَا رَأَيْتَ عَلَيْهَا عَقْدَ مُفْتَطِرِي (٢)

وأعجب به الدكتور عمر موسى باشا فقال : يحتاج هذا النوع البديعي الجديد إلى لفظ رشيق وأسلوب رقيق ، ومعنى دقيق ودراية تامة في إيراد الصلة المقبولة ، ولا غداً مظهراً من مظاهر التكلف ، فيزيد المعنى سوءاً وفساداً ، ويبدو حينئذ الخيال مبهماً .

ومن أمثله عند العماد بيتان من الشعر في استعطاف الخليفة المستنجد أثناء اعتقاله في بغداد ، يقول فيها :

بَرِّئِي سُرُوفَ الْحَارِثَاتِ ، فَأَوْنِي تَضَعُ مَعَى الْإِنْعَامِ عِنْدَ شَاكِرِهِ (٤)
كَذَا الْقَلَمُ الْمَبْرِيُّ أَوْتَاهُ أَنْسَلٌ فِقَامٌ يُؤَدِّي شُكْرَهَا بِصَرِيحِهِ

وعو قليل عنده .

(٣) الزخارف البديعية اللفظية :

١ - الجناس :

أول العُصْوِ التي ظهرت في شعر العماد كما برزت في نثره ، وهي من السمات الأولى التي كان يطرب لها حين يجدها في شعر غيره .

وقد وردت في شعره بكل أشكالها وصورها تامة وناقصة ومصحفة ، وتأتي في البيت الواحد مرة ومرتين وثلاثاً وأربعاً .

والجناس من الأسباب الرئيسة التي جعلت الصفدي ، والسبكي والدكتور أحمد أحمد بدوي وغيرهم ينقدونه فيه لكثرة وروده ، ويرون أن شعره أجود من نثره لأن السوزن كان ينشأه فيأتي الجناس قليلاً .

والأمثلة في شعره أكثر من أن تحصى . ولذا سنورد مقطوعات قصيرة من هذا الشعر لنرى مدى كثرة هذا الجناس :

(١) الأدب في بلاد الشام ص ٦١٦ (٢) الإيضاح ١٧٤/١

(٣) الأدب في بلاد الشام ص ٦١٦ - ٦١٧

(٤) القسم العراقي ٥٩/١

فمن ذلك قوله حين وقعت الزلزلة في الشام سنة ٥٦٥ فقال متشوقاً :
 أَيْنَ أَحِبَّابِي الْكِرَامُ سَقَى اللَّيْلَ هُ عُمُودَ الْأَحْبَابِ صَوَّبَ الْعِهَادِ
 حَبْنًا سَاكِنُو فَوَادِي وَعَهْدِي بِهِمْ يَسْكُتُونَ سَفَحَ السَّوَادِي
 أُنْفَى فِي الشَّامِ أَهْلِي بِنَفْسِي فَأَجْنِ الشَّامُ مِنْ بِنْفَادِ ؟
 مَا عَجِيزِي عَنْ حُبِّهِمْ يَتَلَمَّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا رُحْبَ الْجَهَادِ
 وَاشْتِفَالِي بِخِدْمَةِ الْمَلِكِ الْعَسَا فِي مَحْمُودِ الْكَرِيمِ الْجَوَادِ (١)
 أَنَا مِنْهُ عَلَى سَرِيرِ سُرُورِي وَاتَّحُ الْعَيْشِ فِي مُرَادِ مُرَادِي

والقارئ يرى الجناس واضحاً في كل بيت من هذه الأبيات يجده بين عهد وعهد

والعهد ، وساكنو ويسكتون ، وسرير وسروري ، ومراد ومرادى وغيرنا .

وكذلك نجده واضحاً كل الوضوح في قوله :

كَمْ عَيْنٍ عَمِنَ غَوْرَتِ غُورُهُ وَقَلْبٍ قَلْبٍ عَسَوَتْ مَتَاحُهُ (٢)
 كَمْ مَارِيٍّ مِنْ مَازِنِ دُمِهِ عَلَى مَسْحِ الْحَسَامِ مِرَاقِهِ مَسَاحُهُ

ففي البيت الأول تكرر الجناس ثلاث مرات وفي الثاني مرتين .

بل أحياناً يتكرر أربع مرات في البيت الواحد ، مثال ذلك قوله :

مَلِكٌ تَمَلَّكَ جَدَّهُ مِنْ جَدِّهِ فَالْمَجْدُ مَجْدٌ وَالْمَرَّاحُ مَرَّاحُهُ (٣)

وأحياناً يأتي الجناس في ثلاث كلمات في البيت الواحد :

مَلِكٌ يَجِبُ الصَّفْحُ عَنْ أَعْدَائِهِ فَلِذَلِكَ تَصَفَّحُ عَنْ عَدَائِهِ صَفَاحُهُ (٤)

٢ - الترصيع :

ذكره ابن الأثير كما أسلفنا ، ومثل له يقول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيفَةِ مَهَّ سِدِّي الطَّرِيقَةِ ، نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ

ولغوى شعر العماد كثير كثرة بالغة ، ذلك أن العماد موسيقى يحب السوزن

والترصيع له وقع موسيقى وإيقاعات جميلة متماوية ، ومن أمثلته قوله :

(١) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام ص ٤٧ - ٤٨

(٢) قسم مصر ١٩/١ (٣) قسم مصر ٢١/١ والجد الأول الحظ ، والثانية

(٤) قسم مصر ٢١/١ النشاط

كُرِّمَ سَابِغٌ ، وَجُودٌ عَمِّمٌ وَنَدَى سَابِغٌ ، وَفَسْلٌ غَزِيرٌ
وقوله في مديح نور الدين :

(١) يَاغَالِبَ الْقَلْبِ الْمَلُوكِ وَصَائِدِ السَّيِّدِ اللَّيُوثِ ، وَفَارِسِ الْفُرْسَانِ
وقوله في مديح المستنصر :

(٢) جَزِيرُ الْعَطَايَا ، وَأَفْرُ الْفَتَنِ وَأَرْفُ الْإِظْلَالِ ، طَوِيلُ الْمَأْتِرَاتِ عَرِيضُهَا
وقوله في مدح المستنصر ، وذكر مصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية :

(٣) فَاعْتَدَى الدِّينَ ثَابِتَ الرُّكْنِ فِي مِصْرَ مَحْوُطِ الْحِمَى ، مَمُونِ الثَّنِيرِ
وقوله في رثاء صلاح الدين :

(٤) مَسْعُودَةٌ غَدَاةً وَمَحْمُودَةٌ رُوحَاتُهُ ، مَيْمُونَةٌ نَحْوَانُودٌ

٣ - الاقتباس من القرآن الكريم :

وتلو قليل في شعره على عكس نثره ، ومن أمثله عنده قوله في مديح المستنجد :
أَفِي يَوْسُفَ الْمُسْتَنْجِدِ اللَّهُ قَوْلُهُ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ (٥)
وأحيانا ينثر الآية في شعره كقوله :

وَكُلَّ نَفْسٍ مَشِيحٍ رَهْنٌ مَا كَسَبَتْ وَالسَّامِرِيُّ رَهْنٌ بِالَّذِي قَبِضًا
وعو ما خوند من قوله عز وجل " كل نفس بما كسبت رهينة " (٦)

٤ - تسمين الشعر :

يرد قليلاً في شعر العماد ، ومثال ذلك قوله :

(٧) وَهَرَمَتْهُمْ بِالرَّأْيِ قَبْلَ لِقَائِهِمْ ، وَالرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجَعَانِ
فهو تسمين قول المتنبي :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجَعَانِ هُوَ أَوْلُ وَعَى الْمَحَلِّ الثَّانِي

(١) بداية قسم شعراء الشام ٥٤ (٢) قسم العراق ٧٤/١
(٣) الروضتين ١٩٨/١ (٤) الروضتين ٢١٥/٢
(٥) آيتان في سورة يوسف (٥٦، ٢١) والبيت في القسم العراقي ٤٤/١
(٦) الآية ٣٨ من سورة المدثر
(٧) بداية قسم شعراء الشام ص ٥٦ والروضتين ٢٠٨/١

وقوله في مدح شيركوه ، وحته على القضاء على الخلافة الفاطمية :

(١) لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَنْصَى وَتُرْسِلْهَا فَالْحَزْمُ عِنْدِي قَطْعُ الرَّأْيِ كَالذَّنْبِ
فالبیت للأسود بن يحفر .

وكذلك تسمينه لقول الممرى :

(٢) وَلَوْ كُنْتُ جَارًا لِلْمَمْرَى لَمْ يَقُولْ بَلَمَنْ جِيرَةً سَيَمُوا النَّوَالُ فَلَمْ يَنْطُوا

٥ - المصطلحات النحوية :

وعلى ذلك ترد قليلة في شعره ، ومن ذلك قوله في مدح صلاح الدين
ورجائه أن يلحقه بديوانه :

(٣) وَأَوْعِزُّ بِتَشْرِيفِي وَرُسِيِّ فَإِنَّ سَهْلَ لِحَمْدِي جِزَاءٌ قَدْ تَقَدَّمَ الشَّرْطُ
وكذلك ورد في قصيدة وجهها الى القاضي الفاضل ، يقول فيها :

(٤) مُضَاعَفُ الْفِعْلِ حَطُّ قَصْبِي وَعَائِقُ الصَّرْفِ حَرْفُ جُزْمِ

القسم الثاني : بنية القصيدة :

ونعني بذلك مقدمتها ومطالعها ومخالصها ونهايتها ، فضلا عن دراستها
الفاظها ومعانيها وأوزانها وقواعدها .

١ - مقدمة القصيدة :

يقول ابن رشيق : " من عادة السرب أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز ، وما
أنصى من الركائب ، وما تجشم من طول الليل وسهره ، وطول النهار وتعبه ، وقلة الماء
وغوره ، ثم يخرج إلى مدح المقصود ، ليوجب عليه حق القصد ، وتمام القاصد ،
ويستحق منه المكافأة " .

أما صاحبنا العماد ، فالقصائد الباقية من شعره لم يلتزم فيها ما يراه ابن رشيق
ومن سبقه ، فهو إما أن يبدأ قصائده بالفضل ، وإما أن يبدأ الفرض الأساس من القصيدة
مدحا أو رثاء أو غيرهما .

- (١) الروضتين ١٦٠/١ وأصل شطره الثاني " ان كنت شهما فأتبع رأسها الدنيا .
- (٢) قسم مصر ٣١/١
- (٣) قسم مصر ٣٠/١
- (٤) قسم مصر ٥٢/١
- (٥) العمدة ٢٢٦/١

أما القصائد الأولى في حياته تلك التي نراها في الجزء العراقي من الخريدة في مدح الخلفاء ، فقد بدأنا بالفضل ، وكذلك كان يفعل حين يكون نظمه مجاملة أو عن غير عيب إحساساً بأفعال المدوح ، وكنا قد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن مدائح صلاح الدين الأولى .

ففي قصيدته التي مدح بها المقتدى قبل ولايته لواسط بدأ بالفضل وأطال حتى بلغت المقدمة الفزلية عشرين بيتاً .^(١)

وقد مدحه سنة ٥٥٩ بقصيدة بلغت مقدمتها الفزلية ثمانية وعشرين بيتاً^(٢) وكلامنا هذا ليس عاماً بل هو في الأعم الأغلب ، إذ أن العماد كان إذا تحمس أو أعجب بدأ النظم بالفرض الأصيل حتى في أشعاره الأولى في بغداد ، فحين رحل محمد شاه بن محمود بن ملكشاه بعد حصاره لبغداد ، مدح العماد الخليفة بقصيدة جعل مطلعها المديح وأولها :

أَسْحَتْ نُفُورُ النَّصْرِ تَبْسُمُ بِالظَّفْرِ وَوَدَّتْ خَيُولُ النَّصْرِ وَاصِحَةَ الْفُرِّ^(٣)

وعندما كان في الشام ، فجميع قصائده في نور الدين ، وكذلك قصائده الأخيرة في مدح صلاح الدين بعد عمله معه كان يبدأ بالفرض الأساسي ، فإن كان نظمه مجاملة ، شرب من المديح إلى الفزل .

فحين فتح نور الدين قلعة جعبر قال العماد من قصيدة أولها :

اسْلُمَ لِبِكْرِ الْفُتُوحِ مَقْتَرَعًا وَوَدَّمَ لِبَطْنِ الْبِلَادِ مُنْتَرَعًا^(٤)

وحين أصبح شيركوه وزيراً للعائذ الفاطمي بعد معارك شديدة مدحه العماد

فقال من قصيدة أولها :

بِالْجِدِّ أَدْرَكْتَ مَا أَدْرَكْتَ لَا اللَّيْبِ كَمْ رَاخَوْ جُنَيْتٍ مِنْ دَوْحَةِ النَّعْبِ^(٥)

(١) قسم العراق ٤٠/١ - ٤١ (٢) قسم العراق ٤٨/١ - ٥٠

(٣) قسم العراق ٣٦/١ (٤) الروضتين ١٥٣/١

(٥) الروضتين ١٥٩/١ ، وهذا البيت مأخوذ من قول أبي تمام :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تتال الا على جسر من التعب

٢ - مطالع قصائده :

يقول ابن رشيقي : ^(١) إِنْ الشَّعْرُ قَفَلَ بِأَوَّلِهِ مِفْتَاحَهُ وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَجُودَ ابْتِدَاءَ شِعْرِهِ .

وقد وفق العماد في كثير من مطالع قصائده كالتي أوردناها قبل قليل إذ وفق فيها كل التوفيق ، ومن ذلك اللون قوله في مديح نور الدين حين انتصر على الفرنج سنة ٥٦٨ هـ :

(٢) عَفَدْتُ بِنَصْرِكَ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَدَّتُ لِمَصْرِكَ آيَةَ الْإِحْسَانِ
وقوله في رثاء نور الدين :

(٣) الدِّينُ فِي ظُلْمٍ لِيَفِيئَةَ نُورِهِ وَالذَّمُّ فِي غَمٍّ لِفَقْدِ أَمِيرِهِ
وله كذلك مطالع لم يوفق فيها ، ومن ذلك قوله :

(٤) أَجِيرَانِ جَبْرُونَ مَالِي مُجِيرٍ سَوَى عَطْفِكُمْ فَاعْدِلُوا أَوْ فَجُرُوا
وقوله كذلك :

(٥) أَصْبَحْتُ بِفَلْتِي تُشَكِّي مِنَ الْعُسْرِ يَ وَإِسْرَاجَهَا رِيلاً كَبُوشِ
٣ - حسن التخلص :

أى : الانتقال من غرض إلى غرض ، وللعمداء مخالس جميلة موفقة ومثال ذلك ما ورد في قصائده التي بدأنا متعزلاً ثم انتقل إلى المديح كقوله في القاضى الفاضل :

(٦) كَمَا لِلرَّجَبَةِ - لَا عَدَمَتُهُمْ - وَغَبُوا عَنِ الْإِسْعَادِ فِي الرَّهْدِ
(٧) أَوْ لَيْسَ أَحْبَابِي بِنُورِ زَمَنِي لَا عَرُونَ إِنْ لَمْ يَحْفَظُوا عَهْدِي
إِنْ لَمْ يَقُوا فَلَقَدْ وَفَى كَرَمًا عَبْدُ الرَّجِيمِ بِدَمَةِ الْمَجْدِ

فقد انتقل من غرض الشوق إلى المديح انتقالاً جميلاً غير متمسف ولا مبتذل .

-
- (١) العمدة ٢١٨/١ (٢) الروضتين ٢٠٧/١
(٣) الروضتين ٢٤٤/١ وسبق ذكره في الرثاء مع القصيدة كاملة .
(٤) بداية قسم شعراء الشام ص ١٦ (٥) الروضتين ١٥١/١
(٦) الشطر الأول غير سليم عروضياً (٧) قسم مصر ٤٠/١ - ٤١

ومن مخالصة التي أبدع فيها إبداعاً فائقاً قوله :

بَكَتْ أُمُّ عَمْرٍو مِنْ وَشِيكِ تَرَحُّلِي فَيَا خُجَلِي مَنِ أُمُّ عَمْرٍو مِنْ عَمْرٍو
تَقُولُ إِلَى مِصْرٍ تَصِيرُ تَعَجُّبًا وَمَا ذَا الَّذِي تَبْخَى وَمَنْ لَكَ فِي مِصْرٍ (١)
فَقُلْتُ : مَلَأَنِي التَّاسِرُ الْمَلِكُ الَّذِي حَصَلَتْ بِجِدْوَاةٍ عَلَى الْمَلِكِ وَالنَّصْرِ

٤ - نهاية القصائد :

كثيراً ما كان العماد ينهي قصائده بالثناء على جود المدوح إن كانت القصيدة مدحاً أو الدعاء بالبقاء الطويل ، والعمر المديد والنصر المبين .

ومن ذلك قوله في نهاية قصيدة مدح بها المستنجد :

وَكَيْفَ أَحْصَى يُنْطِقِي فَضْلَ مُنْتَسِبٍ إِلَى الَّذِي فِي يَدَيْهِ نَطَقُ كُلِّ حَصِي (٢)

وقوله في نهاية قصيدة ثانية في مدحه كذلك :

حَسْبُ الْمَوْجِلِ مَنْجَحًا فِي قَصْدِهِ أَنْ الرَّجَاءَ إِلَى نَدَاكَ شَفِيعَهُ (٣)

ومن القصائد التي أنهانا بالدعاء ، قوله في نهاية قصيدة في مدح نور الدين

فَابْقِ لَنَا يَا مَلِكًا بِقِصَاؤِهِ فِي كُلِّ عَامٍ لِلرَّعَايَا عِيدُنَا (٤)
فِي نِعْمَةٍ جَدِيدَةٍ سَعُودُنَا وَدَوْلَةٍ سَعِيدَةٍ حُدُودُنَا

وله قصيدة في مدح نور الدين ختمها بالدعاء فقال :

لَا زِلْتُ مَحْمُودٌ فِي أُمُورِكَ مَحْمُودٌ بِمُودٍ أَيْتُوبِ الْإِقْبَالِ مَدْرَعَا (٥)

وقوله كذلك في نهاية قصيدة أخرى :

فَأَسْلَمَ طَوِيلَ الْعُمُرِ مَمْتَدَّ الْمَدَى عَافَى الْحَيَاةِ مَخْلَدَ السُّلْطَانِ (٦)

وختم قصيدته في رثاء صلاح الدين بمدح أولاده وأخيه وآخر بيتين فيها قوله :

وَالْمَلِكُ فَازِي الطَّاهِرِ الْبَالِي الَّذِي كَصَحَّتْ لِأَظْهَارِ الْعَلَاءِ بِغَزَاتِهِ (٧)
وَلَنَا بِسَيْفِ الدِّينِ أَظْهَرُ نَصْرَةٍ بِالْمَادِلِ الْمَلِكِ الْمُطَهَّرِ ذَاتِهِ

(١) الروضتين ٢٦٦/١ (٢) قسم العراق ٧١/١ (٣) قسم العراق ٦٤/١

(٤) الروضتين ١٤٩/١ (٥) الروضتين ١٥٣/١ (٦) الروضتين ٢٠٨/١

(٧) الروضتين ٢٢٧/١ ومداية قسم شعراء الشام ص ٤٣٨ ، ٤٤٥ ، ٦٢ وغيرها .

وذكر ابن رشيقي في العمدة أن الحذائي من الشعراء كرهوا ختم القصيدة بالدعاء لأنه من عمل أهل الضمف إلا للملوك ، فإنهم يشتهون ذلك .
(١)

٥ - القافية :

التزمت القصائد العربية في العصر الجاهلي وما بعده مقافية واحدة مــــن أول أبيات القصيدة إلى آخرها ، وحين تقدم الزمن بدأت فنون جديدة للشعر تظهر . . وقد اختلفت فيها القافية مثل الموشحات والأزجال وغيرها .

وقد التزم العماد المسلك الأول فقائده تلتزم القافية الواحدة ، ولم ينظم العماد الموشحات ، ولا ما شابهها من فنون جديدة ، اللهم إلا الربايعيات ، والرابعيات تختلف في الوزن وتتفق في القافية الموحدة في الأشطاو والأربعة .

ومعظم قصائده ، سهل القافية ، وفيه موسيقية وخفة ولكن بعضاً منها جساءً متكلفاً فلقاً ، مما قاده إلى الإتيان بالألفاظ غريبة وحشية ، وكلمات متناقرة ، مثال ذلك قوله في مدح فرخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين :

مَوْلَايَ عَزَّ الدِّينَ فَرُخْشَاهُ الدَّعْرُ مِنْ بَرَجْلٍ لَا يَخْشَاهُ
نَلْقَاهُ سَمِعَ الكَلْبَ دَفَأَهَا طَلَّقَ لِلمَحْيَا كَرَمًا بِشَّاهُ (٢)

ولمنا نلاحظ التصريح في البيت الأول حين اتفقت القافية في الشطرين . وأكثر من هذه تناقراً وغبابة قافية قصيدته التي مدح بها المستنصر الخليفة العباسي والتي أولها :

أَطَاعَ دُمْعَى وَصَبْرِي فِي المَرَامِ عَصَى وَالْقَلْبُ جُرْعٌ مِنْ كَأْسٍ مِنَ المَهْوَى غَصَا (٣)

فقد اضطر بسبب قافية الصاد هذه أن يأتي بأغرب الألفاظ وأكثرها وضوحاً قولاً : القاصصا ملصا ، اللحصا ، غصصا وغيرها .
(٤)

(١) العمدة ٢٤١/١
(٢) الروضتين ٢٧٠/١
(٣) القسم العراقي ٦٤/١
(٤) القلس : النون المشوابة واحدها قلوب . والمطمى : السقوط بالتزلي والحصا : الضيق . وغصصا : الذي يثخن مسارعه .

واضطر لذلك أن يكرر بعض الكلمات نفسها في القافية وهو ما يسمى بالايطاء في الشعر ، ومثاله عند العماد قوله :
(١)

تَبْنِي بِقَرْعِ عَصَا التَّقْرِيحِ لِي رَشْدًا كَمَا يَنْبَأُ ذُو حِلْمٍ بِقَرْعِ عَصَا

ثم يكرر الكلمة الأخيرة نفسها في البيت الخاصر فيقول :

(٢) مَنِ أَلَزَمَ اللَّهُ كُلَّ الْخَلْقِ طَاعَتَهُ مَخُوفًا مِنْهُ عَصِيَانًا وَشَىْءًا عَصَا

وقد نظم قصيدة على قافية الصاد تكلف فيها الكلمات الأخيرة في كل بيت وإن كان هذا التكلف أخف من القصيدة الصادية السابقة وأولها :

(٣) وَأَصْحَ عَيُونِ الْفَانِيَاتِ مَرِيضُهَا وَأَفْتِكَ الْحَاظِ الْحَسَانَ غَمِيضُهَا

ولعلنا نلاحظ التصريح كذلك في هذا المطلع .

وأتى في أواخر الأبيات بكلمات غامضة منها : مغيضها ، نفيضها .
(٤) نحيضها ، نصيئتها .

٦ - الوزن الشعري :

الترنم العماد أوزان البحور العربية التي وضعها الخليل ولم يخرج عنها إلا في نظمه للرباعيات أو الدوبيات ، وقد تحدثنا عن الرباعية أو الدوبيات في كلامنا عن ديوانه المفقود المسمى ، ديوان الدوبيات " وفي المدائح وشعر الجهاد كان العماد يميل إلى البحور والأوزان الطويلة ، وفي قليل منها مال إلى الأوزان القصيرة .

٧ - الألفاظ والتراكيب :

الترنم العماد العربية الفصيحة ، لم يخرج عليها ، ولهذا لم يؤثر عنه شيء من اللحن ، وأسلوبه فصيح ، وتراكيبه سليمة ، ولن يستطيع أحد أن يعيبه في شيء من هذا القبيل ، وإن كنا نلاحظ عليه أشياء منها : تكراره لكثير من الألفاظ ، وإيثاره

(١) العمدة : ١٧٠/١ (٢) قسم السران ٦٦/١ - ٦٧

(٣) القسم العراقي ٧١/١

(٤) المغيض : التقصان والقلعة ، والنفيض من قولهم نفض المكان إذا نظر إلى جميع ما فيه حتى يعرفه . والنحيض : الكثير اللحم ، والنصيض : الماء القليل .

للألفاظ الفارسية ، واستعماله للأسماء الفرنجية ، والإكثار من ذكر أسماء المدن والبلاد والقرى والحصون والإكثار كذلك من إيراد أسماء الأعلام والمشاهير من الحكماء والشعراء القدماء ، والشجعات والأبطال السابقين .

وتكرار الألفاظ واضح في شعره ، ويبدو أن الجناس والطباق وغيرهما هي السبب الرئيسي في ذلك ، فكلمة طود تتكرر كثيراً في شعره ، وكذلك شمس وشموس وبحور وبحار وقمر وأقمار ونجوم وجبال وبطاح وما شابهها .

ومن الألفاظ الفارسية التي أوردتها ، كلمات : الدست والتامور (٢) ، والجواسق (٣) وغيرهما . (٤)

قال العماد في قصيدة ثنا فيها نور الدين بظهور ولده :

يَزْعَى سَرِيرٌ وَتَوَاجٍ بِهِ وَدَسْتُ وَصَدْرٌ (٦)

ووردت كلمة تامور في رثائه لنور الدين قال :

كَمْ قَيْصَرٍ لِلرُّومِ رَمَتْ يَفْسِيرِهِ إِزْوَاءَ بَيْتِ الْهِنْدِ مِنْ تَامُورِهِ (٧)

وقال في التشويق إلى دمشق :

كَأَنَّ الْجَوَاسِقَ مَا عُولَسَةَ بِرُومٍ تَطْلُعُ مِنْهَا الْبُدُورُ (٨)

وقد استعمل الكثير من الألفاظ الفرنجية ، وقالب ما ورد عنده منها ألقاب أمراءهم وملوكهم ، وأسمائهم ، وأسماء طوائفهم ، كقوله في ذكر طائفة الأستار الفرنجية ولقب الأسقف :

وَأَعُدُّ إِلَى الْإِسْتَبَارِ الْبِتْسَا رُوَيْدَ السَّقُوفِ عَلَى الْأَسْقِفِ (٩)

-
- (١) راجع الروضتين ٢٥١/١ وقسم مصر ٢٤/١ وغير ذلك .
(٢) الدست : اليد (إدى شير (الألفاظ الفارسية المعربة) ويبدو أن معناها هنا المرش .
(٣) التامور : صومعة الراهب وتأتي في البيت بمعنى القلب (المعرب للجواليقي)
(٤) الجواسق : فارس معرب وهو تصغير فير (المعرب للجواليقي)
(٥) وردت ألفاظ أخرى مثل أكديش ، وماشوس ، وكتبوش هي الروضتين في شعر العماد ١٥١/١ . (٦) الروضتين ٢٢٧/١ (٧) المصدر نفسه ٢٤٤/١
(٨) المصدر نفسه ٢٤٦/١ (٩) المصدر نفسه ٢٦٩/١

وذكر بعض أمزاتهم وإحدى طوائفهم كذلك في وصفه لمقتل أرناط عاحب الكرك

يوم أسرى حطين فقال :

نَسَفْتُ بِهِ رَأْسَ الْبَرْبَرِ بِسَرْبَةٍ	فَأَشْبَهَ رَأْسًا رَأْسَهُ الْعَيْنَ وَالْبَرْبَرِ
بَعَثْتُ إِمَامَ أُمَّةِ النَّارِ نَحْوَهَا	فَزَارَ إِمَامُ أَرْنَاطِهَا ذَلِكَ الْحَبْسَا
حَكَى عُنُقَ الدَّائِيَّ صَلَّى بِسَرْبَةٍ	طَرِبَ الشَّبَابُ عُدًّا لِمُضَارِبِهِ حَسَا (١)

أما أسماء الأماكن فقد ذكر منها الكثير حتى إن بعض قصائده تعدد معاجم جغرافية لأسماء القرى والمدن ، ويكفي أن نذكر قصيدته في التشوق إلى دمشق حين غادرها إلى الموصل بعد وفاة نور الدين ، وقصائده في التشوق إلى دمشق كذلك حين رحل إلى مصر مع صلاح الدين إذ كان ينظم في كل مكان يحل فيه أبياتاً من الشعر ، يعدد فيها كل الأمكنة التي يمر بها المسافر من دمشق إلى مصر ، وفي ذكرنا لهذه القصائد تطويل لا داعي له .

ومطلع قصيدته الأولى :

أَجِيرَانِ جَيْرُونَ مَا لِي مَجِيرٍ سَوَى عَطْفِكُمْ فَأَعِدْ لَوْ أَوْ فُجُورُوا (٢)

ومطلع أطول قصائده في رحلته إلى مصر :

هَجَرْتَكُمْ لَا عَنْ مَلَالٍ وَلَا غَدْرٍ وَلَكِنْ لِمَقْدُورٍ أُتِيحَ مِنَ الْأَمْرِ (٣)

ومن الأسماء التي كانت تتعدد في شعر العماد أسماء قسم بن ساعدة الإيادي والأحنف بن قيس ، وعنترة بن شداد ، وحاتم الطائي ، وهرم بن سنان ، وفرعون وجالسوت ومن الأنبياء عليهم السلام : يوسف ويعقوب وداود ، ومن الصحابة على وعمر وغيرهم الكثير .

من ذلك حين مدح شيرنوه فقال :

أَشْبَحْتُ بِالْعَدْنِ وَالْإِقْدَامِ مَنْفَرِدًا	فَقُلْنَا لَنَا أَعْلَى أَنْتَ أُمَّ عَمْرٍ
إِسْكَندَرَ ذَكَرُوا أَحْبَارَ حِكْمَتِهِ	وَنَحْنُ فَيْكُ رَأَيْنَا كُلَّ مَا ذَكَرُوا
وَرَسَمْتَ نَحْبِرُونَا عَنْ شَجَاعَتِهِ	وَصَارَ فَيْكُ عَيْنَانَا ذَلِكَ الْخَبْرُ (٤)

(١) الروضتين ٨٤/٢ (٢) بداية قسم شعراء الشام ص ١٩

(٣) قسم مصر ٦/١ والروضتين (٤) الروضتين ١٤٥/١

وقوله يمدح نجم الدين وأخاه شيركوه وابنه صلاح الدين :

(١) وَيَسْتَفِرُّ بِمَجِيْرِ يَوْسُفَ وَيَسْتَفِيهِ تَقَرُّبُ عَدِ التَّنَائِي عِيْنِ يَعْقُوبَ

وقوله من قصيدة يمدح بها نور الدين :

(٢) وَإِنْ بَغَى جَالُوتَهَا ضَلَالَةً فَأَنْتَ فِي إِهْلَاكِه دَاوُدُهَا

وقوله في عجايب شاور :

(٣) لَأَذِ بِالنَّبِيلِ شَاوِرٌ مِثْلَ فِرْعَوْنَ نَ فَذَلَّ اللَّاجِي وَعَزَّ الْعَبُورُ

وقوله كذلك في مدح نور الدين :

(٤) أَنْتَ سَلِيمَانُ فِي الْمَعَايِفِ وَفِي الْمُلْكِ وَتَحَى بِزُهْدِكَ الْيَسْمَاعُ

وقوله في مدح ابن عبيرة الوزير العباسي :

(٥) هُوَ حَاتِمُ الْجُودِ لَيْسَ يَرَى إِسْدَاءَ نَائِلِهِ سِوَى حَسْمِ

وعذته ظاهرة واضحة مميزة في شعر العماد ، فحين يمدح يلجأ إلى هذه

الموازنات في الكرم والشجاعة والتقى والزهد والبسالة والحكمة وغير ذلك .

٨ - المعاني :

لا بد أن يكون للقصيدة موضوع تدور حوله ، وقد تحدثنا عن أغراض شعر العماد والمعاني التي دارت حولها ، وأشرنا إلى بعض المعاني التقليدية والمعاني الإبداعية ، وسنقصر الحديث في موضوعنا هذا على الأساليب التي أكثر العماد من إيرادها ، وعن تكراره لبعض المعاني ، وعن الإشارات التاريخية ، والدينية التي وردت في شعره ، وعن الإشارات الفقهية وعن مبالغته في بعض الأحيان :

أ - الأساليب التي أكثر من إيرادها :

وأكثرها أسلوب الاستفهام ، وغالبا ما يأتي في الرثاء ، ففي أطول قصائده في رثاء نور الدين وصلاح الدين نجد أن العماد يكرر الاستفهام مرات عديدة ، وقد كرر

(٢) المصدر نفسه ١٤٨/١

(٤) المصدر نفسه ١٥٢/١

(١) المصدر نفسه ١٤٤/١

(٣) المصدر نفسه ١٤٦/١

(٥) قسم الصران ٥٤/١

الاستفهام تسع مرات متتالية في رثائه لنور الدين وكلها بدأه باسم الاستفهام " من ذاكرا *
بعده بعض أعمال نور الدين من بناء للمساجد والمدارس ومن نصرة للخزوات وغير ذلك
فقال :

مَنْ لِلْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ بَانِيًا لِلْمَوْطُوعَا عَنْ خُلُوعِي صَمِيرِهِ (١)
مَنْ يَنْصُرُ الْإِسْلَامَ فِي غَزَوَاتِهِ نَلْفُدُ أُصَيْبَ بَرَكْتِهِ وَظَمَ صَمِيرِهِ

وفي رثائه لصالح الدين كثر الاستفهام " بأين " ست مرات متتالية ومن ذلك
قوله :

أَيْنَ الَّذِي مَذَلُّهُ تَزَلُّ مَخْشِيَةٌ مَرْجُوءَةٌ وَعِبَاتُهُ وَعِبَاتُهُ؟ (٢)
أَيْنَ الَّذِي كَانَتْ لَهُ طَاعَاتُنَا مُبْدُؤَةً وَلِرَبِّهِ طَاعَاتُنَا؟

والعماد على ما يبدو ومعجب بالاستفهام إذ نجده في كثير من قصائده يميل
اليه ويسورده . (٣)

وهو كذلك يستعمل الأمر والدعاء كثيراً وكذلك النداء والتعجب ، ومن أجمال
أبياته في النداء ما قاله في رثاء صالح الدين متحسراً وبأياً عليه :

يَا وَحْشَتَا لِلْبَيْضِ فِي أَغَادِيْنَا لَا تَنْتَقِصِيهَا لِلْوَفَى عَزَمَاتُهُ
يَا وَحْشَةَ الْإِسْلَامِ يَوْمَ تَخَنَّتْ فِي كُلِّ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ رِعَاتُهُ (٤)
يَا حَسْرَتَا مِنْ يَأْسِ رَاحَتِهِ الَّذِي يَقْنِي الزَّمَانَ وَمَا انْقَضَتْ حَسْرَاتُهُ

والأمثلة كثيرة على ما أسلفنا في شعره ، ويستطيع القارئ أن يجدها في الأمثلة
الشعرية التي ذكرناها في أغراضه الشعرية .

ب - تكراره لبعض المعاني :

كان العماد يكرر بعض معانيه في قصائد عدة ، مثال ذلك قوله في مديح صلاح
الدين :

عَادَ مِنْ مِصْرَ يَوْسُفَ وَإِلَى يَنْقُوبَ بِالتَّهْنِيَاتِ جَاءَ الْبَشِيرُ (٥)

- (١) الروضتين ٢٤٤/١ (٢) الروضتين ٢١٥/٢
(٣) راجع الروضتين ١٠٧/١ والقسم السراقي ٤٦/١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ وغيرها .
(٤) الروضتين ٢١٦/٢ (٥) الروضتين ١٤٦/١

وقد كرر المعنى نفسه في قصيدة أخرى فقال :

(١) وَيَسْتَقْرِ بِمِصْرَ يُوْسُفَ وَيَسِيْبِهِ تَقَرُّ بِسَدِّ التَّنَائِي عَيْنَ يَعْقُوبَ

وكرر كذلك قصة استسقاء عمر بالعباسي عم الرسول فقال :

(٢) وَقَلَّ فِي الْجُدْبِ أَطْلُقُ جُدَّهُ سَبِيْلَ الْحَيَا حَتَّى عَصَى بِدُرُورِهِ

قال في قصيدة ثانية :

(٣) بَيْنَمَا يَسْتَسْقَى بِهَا عَوْبَ الْحَيَا وَيَأْتِيهَا إِذَا جَدُّ بَوَاءَ اسْتَسْقَى عُمَرُ

وقوله في مديح المستنجد :

(٤) وَارْتِ النَّبُوَّةَ بِلْ خِلَافَتِهَا فِي يُوْسُفَ الْمُسْتَنْجِدِ الْقَسَمِ

كرر هذا المعنى في مديح المستنجد فقال :

(٥) قَدْ أَضَاءَ الزَّمَانُ بِالْمُسْتَنْجِدِ وَارْتِ الْبَرْدِ وَابْنِ عَمِ النَّبِيِّ

وحين مدح المفتي قال :

(٦) لَوْ كُنْتُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ لَأَنْزَلْتُ فِي عَزِيهِ السَّيْرِ الَّتِي لَكُمْ سُورَ

كرر هذا المعنى بعد زمن في مدح شيركوه فقال :

(٧) لَوْ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ كُنْتُ أَتَتْ فِي عَزِيهِ السَّيْرِ الْمُحَمَّدِيَّةِ السُّورَ

وتكرر معاني الجود والكرم السابغ والشجاعة والفائقة وما شابه ذلك تأتسى

كثيرا عنده .

ج - إيراده للاشارات التاريخية :

استمد المماد من ثقافته العميقة الكثير من الاشارات التاريخية فحين تحدثنا عن الألفاظ وإيراده لأسماء الأنبياء الكرام والخلفاء العظام ، والقادة القدماء مسلمين وغير مسلمين ، ظهر لنا كثرة أسمائهم ، وكان المماد يشير فضلا عن ذلك الى قصص محدودة وحوادث معينة .

- (١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٤ (٢) قسم الصران ٥٨/١
(٣) المصدر نفسه ٢٧/١ (٤) المصدر نفسه ٥٢/١ (٥) المصدر نفسه ١٢/١
(٦) المصدر نفسه ٢٧/١ (٧) الرويتين ١٤٥/١

فقصة استقساء عمر بالعباس عن الرسول على الله عليه وسلم كثر مرات وأشار إلى
حصار الأحزاب للمدينة المنورة في عهد الرسول عليه السلام فقال :

(٢) كِحْصَارِ الْأَحْزَابِ طَيِّبَةً قَدْ مَسَا وَنَسَبِي الْهُدَى بِهَا مَنْصُورٌ

مشبهها حصار الفرنج وشاور الوزير الفاطمي لصالح الدين في الاسكندرية بحصار قريش
وأعوانها للرسول الكريم في المدينة المنورة .

وقد أشرنا سابقا الى ذكره لرستم القائد الفارسي والاسكندر وغيرهما من القادة ،
كما ذكرنا أسماء الخضر وموسى عليهما السلام .

د - الاشارات الفقهية :

وهي قليلة في شعره ، وأبرز مثال ورد منها فيه قوله في مديح المستنجد :

(٣) فِدْعُ التَّيْمِ بِالصَّيْدِ ، فَفَى كَنْفِ الْإِمَامِ شَرِيعَةُ التَّيْمِ

د - المبالغة :
يبالغ العماد كثيرا في المديح خاصة ، وله رأى في المبالغة
سنورده في حديثنا عن العماد الناقد .

ومن الأبيات والأمثلة الشعرية التي ظهرت فيها المبالغة واضحة قوله في مديح

المقتفى :
(٤) أَنْتَ ابْنُ عَمِّ الْمُصْطَفَى وَسَمِيهِ أَبَشْرُ فَإِنَّكَ بَعْدَهُ خَيْرُ الْبَشَرِ

فجعلله خير من خلق الله بعد رسول الله ، وهي مبالغة واضحة .

وقوله في صلاح الدين حين فتح القدس :

(٥) رَأَيْتُ صَاحِخَ الدِّينِ أَفْضَلَ مِنْ غَدَا وَأَشْرَفَ مِنْ أُنْحَى وَأَكْرَمَ مِنْ أَمْسَى

ومن مبالغاته الجميلة قوله في مديح تقي الدين عمر الذي عرف بجهادته للفرنجة :

(٦) أَخَفَّتْ الشَّرْكَ حَتَّى الذُّعْرُ مِنْهُمْ يَرَى قَبْلَ الْوِلَادَةِ فِي الْجَنِينِ

والمبالغة صفة عامة في شعر شعراء هذا العصر ، والعماد أحد هم بل من كبارهم الذين
أكثروا منها ، وتعلقوا بها .

(١) القسم العراقي ٣٧/١ (٢) الروضتين ١٤٥/١ ، ١٤٦

(٣) القسم العراقي ٥٠/١ (٤) القسم العراقي ٣٧/١ (٥) الروضتين ١٠١/٢

(٦) الروضتين ٢٧٤/١ وهو مأخوذ من قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه تتخافت النطف التي لم تخلق

الباب الرابع

الخـ _____ ريدة

الفصل الأول : كتب التراجم التي سبقتها أو تلتها

الفصل الثاني : خريدة القصر وجريدة العصر

الفصل الثالث : اثر العماد في الخريدة

الفصل الرابع : العماد الناقـد

الباب الرابع

الخريدة

سنجعل هذا الباب في أربعة فصول ، وسنخصص الفصل الأول منها لكتب سبقت الخريدة ، وسارت الخريدة على نهجها أو قريباً منه أو لكتب أخرى رُفِعت من حريق الخريدة واستقت من نبعها .

وسنجعل الثاني للخريدة تدرس فيه سبب التسمية ودواعي تأليفها وأجـزائها ، ومخطوطاتها وطبعاتها وما شاكل ذلك من أمور .

وسنبحث في الثالث أثر العماد في الخريدة .

وسنقصر الرابع على دراسة المبادئ النقدية التي اتخذها العماد منهجاً له في نقده لشعر الخريدة ونشرها .

الفصل الأول

كتب التراجم التي سبقتها أو تلتها

اعتناء العلماء منذ زمن مبكر بتدوين وتصنيف الأدب

منذ أخذ الإسلام بمجامع القلوب ، وسيطر على نفوس المسلمين ، وملا حياتهم نشاطاً وحركة وإيماناً ، دفعهم إلى الجهاد والفتوح ، فهبوا إلى السراق أحد منابع الحنـارات ، وإلى الشام بمدنياته المتعاقبة ، وإلى مصر أم الحضارة الفرعونية وأولى المعارف العالمية التي عرفت حتى الآن .

اتجهوا شطر هذه الأقاليم ، فإذا عم أمام عالم غير عالمهم ، عالم جديد وعلوم جديدة ، فاندفعوا إلى المساجد ينهلون من العلوم الدينية والمعارف الإسلامية حتى أتقنوها ، وألقوا فيها ، وعلومها غيرهم من الأم الداخلة في الإسلام ، وما كاد المصـر الأموي يمضي حتى كانت الكتابة قد انتشرت بين طبقات الشعب الفنية منها والفـيرة .

وماں الناس إلى تعلم علوم جديدة ، فنهلوا من الحضارة اليونانية الشيء الكثير من منطقتها وطبها ، ومن الفارسية العديد من علومها ومعارفها ومن الهندية الفيزياء من حكمتها وفلسفتها ، ومع ذلك لم ينسوا عالمهم العربي ، ويقتسم العربية ، ولم يتركوا آدابهم فإذا بهم يرجعون إلى جزيرتهم ليسجلوا أشعار فياثلهم ، وشمرائهم ، وليكتبوا خطب خطباثلهم وحكم حكماثلهم ، وظهر رواة الشعر الجافظون للأشعار العربية قديمها وحديثها وأسبحوا يتناقلونها مشافهة ، ويحفظونها في الصدور ، ويسجلونها في الكتب ، فأصبحت كتب الأغاني والمعقد الفريد وغيرهما تحفظ الكثير من الشعر العربي القديم .

وعبت طائفة من العلماء تجمع أشعار الأدياء من الشعراء والكتاب ، وظهرت كتب الطبقات كطبقات الشعراء لابن سلام وأطلت الكتب التي تنقد هذه الأشعار وتحاكمها إلى الطريق الذي رسمه لها الشعراء الجاهليون .

ثم ظهرت طائفة أخرى تختار من الشعر ما يروقها ، وترجم لصاحب عذده الأشعار ، وتكتب بعض أخباره ، واختلفوا في طرق تصنيف عذده الأشعار والأقاليم التي يترجمون لشعرائها ، وتباينوا في اختيار الشعراء فمنهم من يختار شاعرا واحدا ، وآخرون اختاروا شعراء قطر واحد ، وغيرهم ترجموا لشعراء العالم الإسلامي كله . وسوف نقسم عذده الاختيارات الشعرية إلى قسمين ، متوخين في ذلك منهج الدكتور أحمد بدوى في تقسيمه لها مع ميلنا إلى التفصيل ، حيث مال الدكتور بدوى إلى الإيجاز الشديد مشبرا إلى المنهج فقط ذاكرا بعض الأمثلة عليه - مصنفين إلى ذلك ما لم تجده عنده .
وعرفنا من ذلك التعرف على مناهج الكتب التي سبقت الخريدة ، لنعرف مدى تأثير العماد بها في تأليفه لموسوعته .

(أ) المجموعات الشعرية ذوات الصفات الخاصة :

وأخذت عذده الصبغة مظاهر مختلفة ، ومن ذلك أن بعض الأدياء اختاروا قطرا بعينه وشعراء معينين ومن الأمثلة على ذلك :

١- مافعله ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ في كتابة طبقات الشعراء الذي خصصه لشعراء الدولة العباسية الذين مدحوا الخلفاء والوزراء والأمراء في دولة بني العباس (٢)

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بصر والشام ص ٤٤ - ٤٨

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٨

ووضعه ذيلاً على كتاب البارع لها رون بن المنجم - الذي سنورد ذكره فيما بعد - وقد ذكر ابن المعتز السبب في تأليفه لكتابه هذا فقال : " خطر على الخاطر في بعض الأفكار أن أذكر في نسخة ما وُصِّفَت الشعراءُ من الأشعار في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس ليكون مذكوراً عند الناس " والكتاب موجود مطبوع .

(٢) وقد أورد الناسخ اسم ابن المنجم خطأ باسم : (ابن نجيم) وصح المحقق ذلك في تقديمه للكتاب إلا أنه أبقاه في النص بروايته الخاطئة .

(٤) وقد ترجم ابن المعتز لاثني عشر وثلاثين ومائة من الشعراء بدأهم بابن عَرَمَةَ ثم تلى بيشار بن بُرْد وحتم كتابه بالترجمة لستة من الشعراء آخرين فضل الشاعرة ومنهجه في كتابه هذا يختلف باختلاف الشاعر فبينما نجد ه يفصل القول في أخبار الشاعر ويورد له الكثير من الأمثلة إذا كان مشهوراً معروفاً كبشار وأبي تمام ودعبل نجد ه يختصر القول في كثير من الشعراء الغير المشهورين فأبي السفاح الأنصاري وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف وكثير غيرهم .

(٦) ٢- وشبيه به ما فعله ابن القطاع الصقلي المتوفى سنة ٥١٥ هـ عجزية والذي خصص كتاباً أسماه " الدرة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة " وقد اشتمل على مائة وسبعين شاعراً ، وعشرين ألف بيت لشعراء جزيرة صقلية ، ويقول الدكتور بدوي في بيان أهمية هذا الكتاب : " وهو خليق بأن يُصوِّر الحياة الأدبية لهذه الجزيرة تحت الحكم العربي ، والكتاب مفسود ومع الأسف الشديد .

وقد ذكر الدكتور بدوي أن له كتاباً آخر عو : " لُحُّ اللَّحِّ " وجمع فيه خلقاً كثيراً من شعراء أهل المغرب .

٣- وشبيه به كتاب أبي الخطاب عمر بن دحية المسمى " المطرب من أشعار أهل المغرب " وهو موجود ومطبوع .

-
- (١) المرجع نفسه ص ١٨ (٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٨
(٣) المرجع السابق - التقديم ص ٧-٨ (٤) المرجع السابق ص ٢٠ وشار ص ٢١
(٥) المرجع السابق ص ٤٢٦ (٦) هو أبو القاسم علي بن عبد الرحمن بن جعفر المعروف بابن القطاع الصقلي المعري المتوفى سنة ٥١٥ هـ . كشف الظنون ج ٢/٢٣٩
(٧) في كشف الظنون يسمى الكتاب " الدرة الخطيرة من شعراء أهل الجزيرة " (٧٣٩/٢)
(٨) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية د . أحمد أحمد بدوي ص ٤٤ وقد سماه الجوعرة الخطيرة من شعراء الجزيرة ، وسماه المحققون الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة .
(٩) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية د . بدوي ص ٤٤

٤ - ومنهم كذلك الرشيد بن الزبير الذي ألف كتاب "جنان الجنان ورياض الأذهان" (٢) في أربعة مجلدات ، ويشتمل على شعر شعراء مصر ومن طرأ عليهم ، وغو أحد مصادر العماد في القسمين المصري والمغربي من الخريدة ، ويرى صاحب "الطالع السعيد" أنه "ذيل على اليتيمة" والكتاب مفقود حتى وقتنا هذا ، وقد ترجم الدكتور بدوي لكتاب الجنان فقال : "ولست أدري إن كان الرشيد عندما ترجم لشعرائه قد التزم السجع ، فقد نقل عنه صاحب المحمدون من الشعراء وأشعارهم حكماً على شاعر قال فيه : "كان على المحل في النحو واللغة وسائر فنون الأدب ، منحطاً في الشعر إلى أدنى الرتب" وعلى جملة مسجوعة ، لست أدري إن كان قد سار في كتابه على نسقها ملتزماً بالسجع ، أو أن السجع جاء عرساً ، وإن كنت أرجح التزامه بالسجع" (٥)

٥ - ومن هؤلاء كذلك ابن بشر بن عثمان بن عبد الرحيم الذي ألف كتاباً أسماه "المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر" ذكره العماد الكاتب في القسم المغربي من الخريدة وقال في ترجمته لابن رجاء الكاتب "وقع بيدي كتاب ألقاه ابن بشر بن الكاتب بصقلية فسى عصرنا هذا ، ووسمه بالمختار في النظم والنثر لأفاضل العصر" واعتقد الدكتور أن هذا الكتاب يقتصر على التعريف "بعدة من الشعراء" والكتاب المصريين المعاصرين للمؤلف (٨) وإن كان يشتمل كذلك على التعريف بشعراء من أهل المغرب ، وغو أحد مصادر العماد في القسمين المصري والمغربي .

٦ - ولعل من أغم الكتب الباقية التي سارت على هذا النهج وسلكته كتاب "قلائد المقيان في محاسن الأعيان" للفتح بن خاتان ، وقد قصره على ملوك الأندلس ووزرائها وأدبائها الشعراء ، يقول عنه محققه الأستاذ محمد المناني "وغو أشهر تأليفه وغو أقرب إلى المقامات في حسن السبك واختيار الكلمات ورصانتها مع جزالة في الأسلوب ، وقد

- (١) الرشيد بن الزبير : أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الفسائي الأسواني المصري يلقب بالرشيد مات في سنة ٥٦٢ حسب رواية يافوت ، له ديوان شعر ، وله ترجمة في القسم المصري من الخريدة ٢٠٠/١ ومعجم الأدباء (٥١/٤) والطالع السعيد ص ٩٨ وكشف الظنون (٦٠٦/١) ومعجم المطبوعات العربية لسركيس ٤٤٧/١
- (٢) اختلفوا في الاسم فالمدكور أعلاه ورد في الطالع السعيد وكشف الظنون والخريدة أما في معجم الأدباء فيسميه "جنان الجنان وروضة الأذهان"
- (٣) العبارة من معجم الأدباء ٥٥/٤ (٤) الطالع السعيد (١٠٠/١)
- (٥) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٤٥
- (٦) ابن بشر بن عثمان بن عبد الرحيم بن عبد الرزاق بن جعفر بن بشر بن شبيب الأزدي المهدي ويصف كتابه - كما ذكر العماد - في سنة الخريدة - القسم المصري ج ٢/١١٥
- (٧) الخريدة - القسم المغربي ج ١ ح
- (٨) الحياة الأدبية د . أحمد أحمد بدوي وكلمة (معاصر) خطأ شائع .

أجمع النقاد على أنه كاتب بليغ عذب الألفاظ لعوب بأطراف الكلام قدير في الوصف حتى قال
بعض من عرفه به : "إنه أراد أن يفتح الشعراء الذين ذكرهم في كتاب ينشره سامحه الله
تسالي".

وقد قسم الفتح كتابه غذا إلى أربعة أقسام وهي :

القسم الأول في محاسن الرؤساء وأبنائهم ودرج أنموذجات من مستعذب أبنائهم وترجم في
هذا القسم لستة منهم : أشهرهم : المعتمد بن عباد .

والقسم الثاني في غرر حلية الوزراء وفقر الكتاب والبلاء ، وترجم فيه لثمانية وعشرين منهم ،
ومن المشهورين فيهم : ابن زيدون ، وأبو بكر بن عمار وابن عبدون وغيرهم .

والقسم الثالث في لمع أعيان القضاة ، ولمح أعلام العلماء السراة وترجم فيه لثلاثة عشر
منهم ، ومنهم أبو الوليد الباجي وأبو مروان بن سراج وأبو الفضل بن عياض وغيرهم .

والقسم الرابع في بدائع نبيها الأدباء وروائع فحول الشعراء ، وقد ترجم فيه لستة عشر منهم ،
ومن المعروفين ، ابن حفاجة وابن وهبون وابن اللبائنة وغيرهم .

وقد التزم الفتح في كتابه غذا السجع من أول الكتاب حتى نهايته ، وأخذ عليه
عدم تموضه لحياة المترجم لهم من جميع نواحيها ، فلم يذكر لهم تاريخ الولادة والوفاة ،
والنشأة ، ولم يذكر الآثار التي ألّفوها إلا في القليل النادر ولنا في هذا الكتاب عودة
في الفصل الثالث من غذا الباب ، لأن الكتاب أحد مصادر السجاد في القسم المفري .

٧- وظهر - على ما يبدو - منهج آخر بعد الخريدة التزم فيه الأدباء طريقاً آخر
فجمعوا الشعراء الذين يجمعهم اسم خاص كما فعل القبطي الذي جمع كتابين من غذا
النوع :

الأول جوع فيه أشعار من تسمى باليزيد ، وذكره صاحب "الطالع السعيد" باسم

(١) قلائد المقيان - الفتح بن خافان حيز (٢) المصدر نفسه من ع ٤ - ٧٩

(٣) المصدر نفسه من ع ٧٩ - ٢١٥ (٤) المصدر نفسه من ع ٢١٥ - ٢٥٩

(٥) المصدر نفسه من ع ٢٥٩ - ١٥٢ (٦) مقدمة قلائد المقيان ع ط .

وغو آخر الكتاب .

• أشعار اليزيديين •

والثاني جمع فيه أشعار من تسمى بمحمد وهو موجود مطبوع ، وظهر بعنوان "المحمدون من الشعراء" ، وطبع طبعين جديدين الأولى منهما في السعودية ، والثانية منهما طبعتها المجمع العلمي العربي بدمشق .

ويشتمل هذا الكتاب على ثمان وعشرين وثلاثمائة ترجمة مرتبة حسب الترتيب

المهجائي ، ويمتاز بكثرة المختارات الشعرية لكثير من الشعراء .

والموجود من هذا الكتاب يبتدئ باسم محمد بن أحمد الرقي ، وينتهي باسم محمد بن سعيد البغدادي ، ولذا يُعْتَقَدُ أن جزءاً كبيراً من الكتاب قد فقد .

وقد اهتم القفطي بالشعراء الذين عاشوا في الجاهلية وفي صدر الإسلام حتى أوائل القرن السابع الهجري ، وأول الشعراء الجاهليين الذين ترجم لهم الشاعر محمد بن حُمُرَان الشويمس .

وبما أن القفطي قد توفي في سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م فإنه قد فرغ من نسخ هذا الكتاب في السنوات الأخيرة من حياته ، ولذلك لم يشر ياقوت إلى هذا المخطوط في قائمة مؤلفاته القفطي قبل عام ٦٢٠ / ١٢٢١ م .

ولم يترجم القفطي للشعراء في الجزء الباقي من الكتاب وربما فقدت ترجمته في الجزء المفقود .

وقد أخذوا على الكتاب بعض العنات ومنها : أن المؤلف كان يختصر في ترجمته لبعض الشعراء اختصاراً كبيراً ، ويطيل في بعض الأحيان ، ويوفى بعض التراجم حقها من الترجمة الحياتية والاختيارات الشعرية ، ومن ذلك ما وجدناه في ترجمته للشاعر رقم (٧٤) والشاعر رقم (٨٣) وكذلك رقم (١١٤) ورقم (١٢٢) فقد اختصر ترجمته لهم كثيراً في الوقت الذي أطال في ترجمته للأبيوردى وابن دريد وابن شبل البغدادي وعى أطول التراجم في الكتاب .

(١) الترجمة رقم ١٨٤ ع ٢٢٢ من الكتاب .

(٢) راجع الصفحات ١٠٩، ١١٦، ١٤٦، ١٥٢ على التوالي .

(٣) راجع الصفحات (٤٧/٥٠) ، (٢٠١/٢٠٤) ، (٢٧٠/٢٩٠) من الكتاب .

واختصرت أبحاثهم شراً من التطويل ورهباً للتفصيل ، إلا أننا لها بانتخابها أحسن المواقع
وعيوننا هي باقتضابها أجول في المحافل ، ولؤلؤ في المسامع ، وربما عرض ما يدعوا إلى
البسط ، فانتقض حكم هذا الشرط ، ولا غرو أن أواقع المحذور ، فللكلام اضطراب يبيح
المحذور . . . (١)

ورتب أهل كل زمان حسب مكانتهم ومركزهم ، وهو يقول في ذلك :
وأبرزته مسوقاً على الحقب ، مسوقاً بحسب الرتب ، أعين للصدور صدر كل مائة وأربعين من
تميز في جماعة أو تحيز إلى فئة ، ليستوي المتأدبين حتى من المتوثبين . . .

(٢) وترجم لستة من أهل المائة الأولى أولهم عمرو بن العاص

(٤) وترجم لأربعة وثلاثين من أهل المائة الثانية أولهم أبو جعفر المنصور

وترجم لخمسة وثلاثين من أهل المائة الثالثة أولهم عبد الرحمن بن الحكم بن
عشام الخليفة الأموي . . . (٥)

وترجم لستة وعشرين من أهل المائة الرابعة أولهم عبد الرحمن بن محمد
الناصر لدين الله . . . (٦)

وترجم لثمانية وعشرين من أهل المائة الخامسة أولهم سليمان بن الحكم بن
سليمان بن عبد الرحمن الناصر . . . (٧)

وترجم لثمانية عشر من أهل المائة السادسة أولهم يحيى بن تميم بن المعمر
المنهاجي . . . (٨)

وترجم لأثنى عشر من أهل المائة السابعة أولهم أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ
المجاهد المقدسي أبي محمد . . . (٩)

وفي الباب الثاني ذكر الذين لم ينشر لهم على شعر ، وترجم لعشرة من أهل
المائة الأولى أولهم عبد الله بن سعد . . .

(١) مقدمة ابن الأبار لكتابه عن ١٠-١١ (٢) المقدمة عن ١١
(٣) الحلة السيرة ج ١ عن ١١-٢٢ (٤) المصدر نفسه ج ١ عن ٢٢-١١٢
(٥) المصدر نفسه ج ١ عن ١١٢-١٦٦ (٦) الحلة السيرة ج ١ عن ١٩٧-٢٠٨
(٧) المصدر السابق ج ٢ عن ٥-٢٨٨ (٨) المصدر السابق ج ٢ عن ١٨٩-٢٧٩
(٩) المصدر السابق ج ٢ عن ٢٨٠-٢٤٠ (١٠) المصدر السابق ج ٢ عن ٢١-٣٢٥

وترجم لخمسة عشر من أهل المائة الثانية أولهم يزيد بن أبي مسلم (١) .
وترجم لتسعة عشر من أهل المائة الثالثة أولهم أبان وعثمان أبناء الأمير عبيد
الرحمن بن الحكم بن عثام . (٢)
وترجم لاثنتين من أهل المائة الرابعة وهما المنصور بن القائم بن المهدي وابنه
المعز لدين الله .
وبذا يكون عدة من ترجم لهم ستة عشر ومائتين من الشعراء .

٩ - والتزم بعض المؤلفين الكتابة عن عصر معين أو فون مخصص كما فعل ابن سمييد
الأندلسي (٦١٠ - ٦٨٥) الذي ألف كتاباً فصره على شعراء المائة السابعة
وأسماءه : " الفصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة " وقد قسم كتابه هكذا
إلى ثلاثة أقسام :

الأول : في تراجم الذين تحققت سنو وفاتهم .
الثاني : في تراجم الذين لم يوقت لهم على تاريخ في ذلك .
الثالث : فيمن استقر العلم على حياته عند انتهاء التصنيف وذلك في سنة ٦٥٧ هـ . (٤)

وقد نقد محقق هذا الكتاب الاستاذ إبراهيم الأبياري الباقي منه فقال :
" ومضى المؤلف يترجم لرجال القس الأول - وعم من تحققت سنو وفاتهم - سنة بسنة
سنة - يتخير ويستصفي ، إذ كان هذا شرطه في تأليفه ، فوقع على ثمان تراجم في وفيات
السنة الأولى بعد الستائة ، وعلى ثلاث في الثانية وعلى تسع في الثالثة وعلى ست في
الرابعة ، وعلى اثنتين في الخامسة ، وما كاد يمضي في ثانيتهما حتى انقطع الحديث عن
غير تمام ، يشعر بذلك السياي والفراغ متروك في ١٥٤ - كما يقول - (٥)

ويبدو أن أجزاء من هذا الكتاب قد فقدت ، لأن محققه يقول : " وقد قسمه
المؤلف إلى أجزاء لا ندري عدتها ، ولا نهجه معها فتراه يضم وفيات عامين في جزء يختمه ،
فيقول كمل الجزء الأول من كتاب الفصون

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥-٢٦٦ (٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٦-٣٨٦
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٨٧-٣٩٢
(٤) تقديم المحقق لكتاب الفصون اليانعة ص ط ومقدمة المؤلف ص ١
(٥) تقديم المحقق للكتاب نفسه ص ط

(١)

يتلوه إن شاء الله تعالى تراجم سنة ٦٠٣ هـ " إلا أنه من الواضح أنه لم يلتزم بقطر معين في الترجمة ، فالذين ترجم لهم في سنة ٦٠١ هـ كانوا على هذه الصورة :

المشاركة - أ - من العراق : ١- الأديب الشاعر والمتصوف شميم الحلبي

٢- والشاعر البارع المحسن المبدوسى الواسطى

ب- من الشام : ١- الوزير الجواد المجيد نجم الدين بن مجاور الدمشقي

٢- الرئيس والشاعر المتقدم شمس الدين بن نفاذه الدمشقي

ج- المفارسة : أ- المغرب الأقصى :

١- قاضي الجماعة الأديب الممتحن أبو عبد الله بن مروان

• التلمساني

ب- الأندلس

١- شيخ طلبة الحضر ٠٠٠ أبو جعفر الذعبي البلبسى

٢- الجليس ٠٠٠٠ أبو محمد بن الياسمين الاشبيلسى (٢)

٣- الفقيه المدرس ٠٠٠ أبي السباس بن مسعود القرطبي

وفي سنة ٦٠٢ هـ ترجم لثلاثة فقط أحد عما من الموصل وثنائيهما من مصر وثلثهما من الأندلس •

(٤)

وفي سنة ٦٠٣ ترجم لتسعة شملوا العراق ومصر والمغرب •

وفي سنة ٦٠٤ ترجم لستة شملوا السراق والمغرب (٥)

وفي سنة ٦٠٥ ترجم لاثنين من الشام والمغرب • (٦)

• وينقطع الكتاب عند هذا الحد •

١٠- وقصر لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ كتابه الكتيبة الكامنة على شعراء

المائة الثامنة من أهل الأندلس ، وأسماء " الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء

المائة الثامنة " والكتاب موجود مطبوع ، وقد قام بتحقيقه الدكتور إحسان عباس ، ويسميه

المقري في " نفع الطيب " : " الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة " •

(٢) النصوص اليانعة في ٣

(٤) المصدر نفسه في ٧٣ وهو بداية الجزء الثاني منه

(٦) المصدر نفسه في ١٤٥

(١) تقديم المحقق للكتاب في ط

(٣) المصدر نفسه في ٥٧

(٥) المصدر نفسه في ١٠٩

وقد قسم ابن الخطيب كتابه إلى أربعة أقسام • وجعلهم في أربع طبقات :

الطبقة الأولى : طبقة الخطباء والصوفية • وقرر أن حظهم في الإجابة قليل وعدد علمهم تسعة عشر • والطبقة الثانية طبقة للمقرئين والمدرسين وعدد علم أحد عشر • وعلم أقل شأنًا من الطبقة السابقة في باب الشعر •

والطبقة الثالثة طبقة الفضاة وعلم أربعة وعشرون وجعلها طبقة منحطة في البيان لاقتصار مداركها على علوم الأديان وندور فيها البعيد •

والطبقة الرابعة : طبقة من خدم أبواب الأمراء من الكتاب والشعراء وهم تسعة وأربعون ويرى أنهم ربما كانوا متميزين بالإجابة لأكثر من أفراد الطبقات السابقة •

وبذا يكون عدد الذين ترجم لهم لسان الدين بن الخطيب ثلاثة أشخاص ومائة

ويلاحظ على كتابه أنه قسمهم بالنسبة لحياتهم إلى قسمين • فقد قدم الذين قضوا نحبتهم قبل تأليف الكتاب وبدأ بهم وعددهم أربعة وثمانون • وكان يقول بعد ذكره اسم كل واحد منهم في كثير من الحالات رحمه الله • وبدأ بالقسم الثاني • وعلم الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة • وبدأ بالترجمة رقم (٨٥) وانتبه بهم إلى رقم (١٠٣) وربما كان الكتاب ناقصاً لفقد بعض أوراقه •

٢) المجموعات الكبرى

١- البارع في أخبار الشعراء المولدين : لأبي عبد الله هارون بن علي بن يحيى ابن أبي منصور المنجم البغدادي الأديب الفاضل • وقد ترجم له صاحب مصحح الأدباء فأطرى بلاغته • ووصفه بالأدب والفنل وذكر من كتبه "كتاب أخبار النساء"

- (١) في التقديم عن ١٩ وفي متن الكتاب عن ٢١
- (٢) في التقديم عن ١٩ وفي متن الكتاب عن ٢٥
- (٣) في التقديم عن ١٩ وفي متن الكتاب عن ١٥١
- (٤) في التقديم عن ١٩ وفي متن الكتاب عن ١٥٨
- (٥) الكنية الكامنة في ٢٤٩ نهاية ترجمة أبي عبد الله الفائق •
- (٦) المصدر نفسه ابتداءً من ترجمة أبي القاسم الفسافي عن ٢٥ وحتى نهاية الكتاب •
- (٧) مصحح الأدباء (ج ١٩٦٢/٢٦٢) ووجهات الاعيان بيروت (٢٧٨/٦) ومفتاح السعادة (٢٦١/٢) وكشف الظنون (٢١٧/١) وغدية السارفين (٥٠٤/٢) ويسميه "البارع في الشعراء المحدثين"

(١) وكتاب أخبار الشعراء المولدين وذكر اليسير من مقدمة الكتاب الثاني ، وقد ترجم له ابن خلكان ترجمة أوفى ، وأوضح ، وقال عن كتابه البارع " وصنف كتاب " البارع في أخبار الشعراء المولدين " وجمع فيه مائة وواحداً وستين شاعراً ، وافتتحه بذكر بشار بن برد العقيلي ، وختمه بمحمد بن عبد الله بن صالح ، واختار فيه من شعر كل واحد عيونته ، وقال في أوله : " إني لما عملت كتابي في أخبار الشعراء المولدين ذكرت ما اخترته من أسمائهم ، وتحريت في ذلك الاختيار أقصى ما بلقته معرفتي ، وإنتهى إليه علمي ، والعلماء يقولون : " دن على عاقل اختياره " وقالوا : اختيار الرجل من وفور عقله ، وقال بعضهم : " شعر الرجل قطعة من كلامه وظنه قطعة من عقله ، واختياره قطعه من علمه " وطول الكلام في هذا وذكر أن الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبل هذا في هذا الفن ، وأنه كان طويلاً فحذف منه أشياء واقتصر على هذا القدر .

وأثنى ابن خلكان على هذا الكتاب لنفاسته وغناؤه عن دواوين الشعراء الذين ترجم لهم ، مما يدل على حسن اختياره وتدويفه للشعر .

والكتاب كما يظهر من التراجم التي كتبت عنه خصمه صاحبه للتعريف بشعراء النشرون الإسلامى وخاصة من قدم منهم إلى بغداد ، وكان علينا أن نتحدث عنه في موضعه حين عرضنا لطبقات الشعراء لابن المعتز ، ولكننا تركنا ذلك نظراً لأهمية هذا الكتاب فجميع المجموعات الشعرية الكبيرة التي نتحدث عنها قد حذت حذوة ، وسارت على نهجه وقلدته حتى قال ابن خلكان : إن كتاب الخريدة وكتاب الخطيرى والباخرى والشالسبى فروع عليه وغو الأصل الذى نسجوا على منواله .

(٧) ولد ابن المنجم سنة ٢٥١ هـ وتوفى سنة ٢٨٩ هـ حسب رواية المرزبانى و سنة ٢٨٨ هـ حسب رواية ابن خلكان الذى تابعه في ذلك أصحاب كتب " مفتاح السعادة " و " كشف الظنون " و " عديسة المارفين " .

-
- (١) معجم الادباء ٢٦٢/١٩ (٢) عوَاب التعمير : " واحداً وستين ومائة شاعر " وما غنا خطأ .
- (٣) في هذا يفوق الشاعر : " قد عرفنا باختيارك ان كان دليلاً على اللبيب اختياره .
- (٤) وفيات الاعيان ج ٦/٢٨ (٥) المصدر نفسه ج ٦/٢٨
- (٦) المصدر نفسه ج ٦/٢٨ (٧) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٦٤
- (٨) وفيات الاعيان ج ٦/٢٩
- (٩) مفتاح السعادة ٢٦١/٢ وكشف الظنون ٢١٧/١ وعديسة المارفين ٥٠٢/٢

٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل
الثعالبي النيسابوري المولود سنة ٢٥٠ هجرية والمتوفى سنة ٤٢٩ هـ .
(١)

وهو كتاب بل روضة تنقل فيها صاحبها عبر العالم الإسلامي في زمنه ، فاختار
مما سمع ومما قرأ - ما أعجبه ووصلت إليه أذنه ، وجمع كل ذلك في كتابه اليتيمة .

وكتابه هذا كما يقول محققه الأستاذ محمد يحيى الدين عبد الحميد " كتاب
جمع الكثير من غرر شعراء القرن الرابع وصدور القرن الخامس ، ملوكهم وأمراءهم ووزرائهم
وقضاتهم - ذوى الجند منهم وذوى المجون - " في رقعة البلاد التي كانت يد المصرب
مبسوطة عليها يومذاك ، من بلاد الشام والسراى وجرجان ومصر والمغرب والأندلس
وغيرها ، وغطته الحقة من الزمن - على ما كان - فيها من التفرق والاضطراب السياسى -
أزهر وأنصر حقب الزمان في الآداب والعلوم والفنون " .
(٢)

أقسامها :

قسم الثعالبي كتابه إلى أربعة أقسام كبرى ، وجمع كل قسم منها عشرة أسواب :
القسم الأول في محاسن آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر
والموصل والمغرب وبلخ من أخبارهم .

(٤)

القسم الثانى فى محاسن أشعار أهل العراق وأنبياء الدولة الديلمية من طبقات الأفاضل
وما يتعلق بها من أخبارهم ونواديرهم ونصوص من فصول المتوسلين منهم .

القسم الثالث فى محاسن شعراء أهل الجبلان وفارس وجرجان وطبرستان وأصفهان من
وزراء الدولة الديلمية وكتابتها وقضاتها وشعرائها وسائر فضائلها وما ينضاف إليها من أخبارهم
وغير الفاظهم .

(١) له ترجمة فى وفيات الأعيان ١٧٢/١ والسير للذهبي ١٧٢/٢ وشذرات الذهب ٢٤٦/٢
ودمية القصر ٢٢٦/٢ وترجم له ابن بشار فى الذخيرة - القسم المخطوط وأشار الى ذلك
فى مقدمته لكتابه الجزء الاول - القسم الاول ص ٢٠

(٢) وفيات الأعيان ج ٢/١٨٠

(٣) تقديم اليتيمة بقلم المحقق الأستاذ يحيى الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢ - ٤

(٤) بتحقيق محمد إسماعيل الصاوى (أنباء) وتحقيق خليل حاوى (انشاء) وكـ
الكلمتين تحريف كلمة (أبناء)

(١)
القسم الرابع في محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر وأنبياء الدولة السامانية
والغزنوية ، والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستطرف
من أخبارهم وخاصة أهل نيسابور والغرياء الطارئین عليها والمقيمين بها .^(١)

وقد جعل كل قسم منها في عشرة أبواب ، أما القسم الأول فجعله على الصورة
الموجزة الآتية :

الباب الأول في فصل شعراء الشام ^(٢) والباب الثاني في ذكر سيف الدولة ، والباب
الثالث في ذكر أبي فراس والباب الرابع في شعر آل حمدان وأمراء الشام وقضاتهم وكتابتهم
وترجم في هذا الباب لثمانية عشر شاعراً .

والباب الخامس في ذكر أبي الطيب المتنبى ^(٤) والسادس في ذكر ثلاثة شعراء هم النامى
والناشئ والزاهى . والسابع في أبي الفرج البیضاء . والثامن ترجم فيه لثلاثة من
الشعراء . والتاسع ترجم فيه لشعراء من أهل الشام ومصر والمغرب وطرف من أشعارهم
ونوادعهم ، وترجم فيه لفرابة ثمانين ومائة شاعر ، وهو أطول الأبواب . والباب العاشر
وترجم فيه لخمسة من الشعراء .

فيكون قد ترجم في هذا الباب لعشرة ومائتين من الشعراء .
أما القسم الثاني فجعله في عشرة أبواب أيضاً :

وجعل الباب الأول للملوك الشعراء من آل بويه وترجم فيه لأربعة منهم .

والباب الثاني خصه للوزير المهلبى ، والثالث لأبي إسحاق الصابى ، والرابع لثلاثة
من الكتاب والخامس لتسعة من شعراء البصرة ، والسادس ترجم فيه لستة من شعراء العراق
من غير أهل بغداد والباب السابع : ترجم فيه لأربعة من شعراء بغداد ، والثامن جعله
لثمانية من المقلين من أهل بغداد . والتاسع : ترجم فيه لثمانية من شعراء العراق وغيرهم
والباب العاشر خصه للشريف الرضى .

وجعل القسم الثالث كذلك في عشرة أبواب .

(٢) الكلام السابق نفسه

(٢) مقدمة البيتية بقلم الثعالبي ص ٦ - ٧ وهذه النسخة بتحقيق محمد اسماعيل الصاوى

(٣) دراسة أبي فراس طويلة من ٢٧ - ٧١

(٤) دراسة المتنبى طويلة جدا من ٩٠ - ١٨٧ من القسم الاول .

(٥) للبيضاء دراسة طويلة من ٢٠٠ - ٢٢٣

(٦) هذا الباب هو أطول الأبواب من ص ٢٤٦ من الجزء الاول المطبوع وحتى نهايته ثم
امتد خلال الجزء الثاني حتى ص ١٩٥

وقصر الباب الأول على ابن العميد^(١) ، والثاني على أبي الفتح ذي الكفایتین ،
والثالث على أبي القاسم إسماعیل بن عباد^(٢) ، والرابع على أحمد بن إبراهيم الضبی ، والخامس
ترجم فيه ستة من شعراء أصبهان ، والسادس لعشرة شعراء ، والسابع لستة عشر شاعراً
والثامن لأثنی عشر شاعراً من فارس والأهواز ، والتاسع خصصه لشعراء وكتاب جرجان وطبرستان
فترجم ستة من جرجان ، وثلاثة من طبرستان ، وقصر الباب العاشر والأخير على شمس
المعالی قاهوس بن وشیکیر .

وجعل القسم الرابع كذلك في عشرة أبواب .

وترجم في الباب الأول لعشرين من بلاد الصجم ، وفي الثالث لأربعة عشر من
المصريين المقيمين في بخارى ، وقصر الثالث على شاعرین ، وخصص الرابع لستة من غرر
فضلاء خوارزم ، وقصر الخامس على أخبار أبي النضر المهذاني بديع الزمان . وترجم في
السادس لتسعة من الشعراء ، وفي السابع لخمسة عشر من بلاد خراسان سوى نيسابور ،
وخصص الثامن للمكيالی ، وترجم في التاسع لستة عشر من الطارئين على نيسابور من بلدان
شقي ، وترجم في العاشر لسبعة وعشرين من أهل نيسابور .

ولعلنا نلاحظ مدى دقة الترتيب والتنظيم في المنهج الذي سار عليه الثعالبي
والذي يخالف ما نهجه العماد في الخريدة ، إذ سنجد - فيما بعد - أن الخريدة
جاءت غير منظمة في معظم أبواب أسماها ، مما جعل العماد يقع في تكرار التراجم في
أحيان كثيرة ، أو يترجم لشاعر من بلد ما في قسم غير قسمه .

وقد اهتم الثعالبي ببعض الشعراء والكتاب دون غيرهم ، وخصص أبواباً كاملة
لواحد منهم ، بينما جمع أعداداً كثيرة في باب واحد ، بالإضافة إلى اهتمام الثعالبي
بإيراد أخبار بعض الشعراء كاملة أو شبه كاملة ، بينما يقصر ترجمته لكثير من الشعراء على
إيراد بعض الأبيات أو المقطوعات دون ترجمة تذكر أو بلا ترجمة على الإطلاق .

والثعالبي كذلك يعترف بأنه لم يستقص شعراء عصره بل قصر كتابه على غرر

(١) دراسة طويلة من ع ١٤٧ - ١٦٢ من الجزء الثالث المطبوع .

(٢) دراسة طويلة جدا من ع ١٦٩ - ٢٥٩ من الجزء الثالث المطبوع .

فضلا عنهم المشهورين ، بينما نجد العماد يحاول جاهدا استقصاء شعراء عصره ممن رأهم أو سمع أخبارهم التابه منهم والمغمور . ونلاحظ كذلك أن الثعالبي اهتم بالملوك والأمراء والوزراء حتى ولو كانوا من غير الشعراء المجيدين ، ولكنه قدمهم لمزلتهم لا لشعرهم أو لأديبهم .

ولعل قارئ البيتية يلاحظ بوضوح كامل اهتمام الثعالبي بقسم بلاد المعجم الذي نال من اهتمامه ما يقرب من نصف البيتية المطبوعة ، فإذا وازنا ذلك بالعماد وخريدته وجدنا التوزيع العادل ، والاهتمام الواضح بكل جزء من أجزاء العالم الإسلامي في عصره ومدى العناية الذي لقيه العماد أثناء بحثه الدائب عن كل شاعر مشهوراً كان أو مغموراً . أما أسلوبه النثرى فيها فقد التزم فيه السجع والمحسنات اللفظية .

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : لأبى الحسن على بن بسام الشنقرى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وهو أندلسى أراد أن يكون لبلده ما للشعر الإسلامى من المكانة الأديبة ، فجميع هذا الكتاب ليثبت أن بلاده متفوقة فى مجال الشعر والأدب " لكثرة ما رأى من افتتان الناس من أهل أفقه بالشرق وأديبائه وعلمائه وإعرائهم عن الأندلس وما أنتجت من أدب وعلم " كما يقول الدكتور طه حسين فى تقديمه للذخيرة .

وقد قلد ابن بسام الثعالبي فى كتابه البيتية ، منهاجاً وأسلوباً وطريقة وعمد . أقسام .

فقد قسم ابن بسام كتابه إلى أربعة أقسام :

وخصص القسم الأول لأهل قرطبة ، وما يصاحبها من بلاد تتوسط الأندلس ويشتمل من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء على جماعة .

وقد ترجم فى هذا القسم أربعة وثلاثين عيناً ، ولكنه لم يلتزم بالجماعة الذين سأورد لهم أعلاه ، وإنما ترجم لملكين من ملوكها هما المستمين بالله والمستظهر بالله .

(١) فى ايضاح المكنون لاسماعيل باشا البغدادى أنه ولد فى حدود سنة ٥٨٦ هـ وهو وهم .
 (٢) الذخيرة - تقديم الدكتور طه جادق اص أ - لم يظهر منها سوى الجزء الأول والرابع
 (٣) تقديم الدكتور طه حسين جادق اص أ - وعلمت أن طبعة كاملة جديدة ظهرت فى بيروت بتحقيق الدكتور احسان عباس .

(٤) الذخيرة - مقدمة المؤلف عى ١١ - ١٢

لأنه يرى تفديهم عن سواهم كما أوضح في المنهج الذي رسمه لنفسه .

وخصص القسم الثاني لأهل الجانب الغربي من الأندلس وذكر أهل إشبيلية
(١) وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط ، وترجم فيه لسته وأربعين من الرؤساء
وأعيان الكتاب وأولهم القاضي أبو القاسم بن عباد .

(٢)

وجعل القسم الثالث لأهل الجانب الشرقي من الأندلس ، وترجم فيه لفضلاء
عصره من الكتاب والشعراء وذكر بعض أخبارهم ، وأورد تراجم ثلاثة وثلاثين منهم .

(٣)

وجعل القسم الرابع للطائفتين على جزيرة الأندلس في عصره من الكتاب والشعراء
سواء أكانوا مغاربة أم من الشام والعراق ، أم من بقية الأمصار الإسلامية وأول من ترجم له :
أبو العلاء صاعد اللقوى ، وأتبعه بأبي الفضل البغدادي ، وترجم فيه لأثنى عشر وثلاثين
منهم .

وبذلك يكون مجموع الذين ترجم لهم ابن بسام خمسة وأربعين ومائة كاتب
وشاعر .

(٤) وقد اعترف المؤلف بأنه ألف كتابه بهذا مقدماً وناهجاً طريقة الثمالي في كتابه
اليتيمة ، ورسم في مقدمة كتابه المنهج الذي سيسير عليه في تبويب كتابه والطريقة التي
سيختار فيها المختارات الشعرية والنثرية ، والشعراء والكتاب الذين سيجزم لهم فقد
أخذ نفسه بأنه سيختار جيد الكلام وخير الفصول ، وأن يشرح الأخبار المتعلقة بهما ،
كما أوضح أنه سيجزم لبعض الشعراء خامل الذكر ، وأنه كذلك ترجم لرجال من لا لجودة
عصرهم ولكن لنباهة ذكرهم ، وأنه سيقدم هؤلاء الذين هم أصحاب الشهرة على غيرهم ،
ولو تأخر زمانهم ، كما أخذ على نفسه أنه سيجزم أولاً للكتاب لأنهم صدور أهل الأدب ،
وأعلن أنه سيقدم على هؤلاء - إن وجدوا - الملوك والوزراء وأصحاب السياسة والرياسة ،
ويعد هؤلاء الكتاب وأعيان الشعراء فطوائف المثقلين منهم .

(١) الذخيرة - مقدمة المؤلف (ج ١ ص ١٧ - ١٦)

(٢) الذخيرة - مقدمة المؤلف (ج ١ ص ١٦ - ١٨)

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٨ - ٢٠

(٤) مقدمة الذخيرة للمؤلف ج ١ ص ١ - ٢٠

(٥) مقدمة الذخيرة ج ١ ص ٢١

والذخيرة مرتبة منظمة والأجزاء المطبوعة التي ظهرت منها تدل على ذلك ،
ولا غرو فقد نهج فيها منهج الشمالي وسار على خطاه وهديه ، واستفاد من أخطائه ،
فابتعد عنها ، وسار على أسلوبه في السجع فاستطاعه .

وقد لاحظ الدكتور طه حسين أنه يخالف الشمالي في أمر عده الدكتور خطأ ،
ووصفه بقوله : فهو أبعد منه نظراً وأنفذ منه بسيرة ، وأعقق منه تفكيراً ، ووعو على تكلفه
في اللفظ لا يُخدع بالرواء الظاهر عما وراءه من جودة المعنى أو ردايته ، ومن صواب التفكير
أو خطئه (١) وعده الدكتور كذلك أفقه منه في الأدب وأكثر تدوقاً له ، وأدق ملاحظة لما
يكون من الصلة القوية بين طبيعة الإقليم وما ينتج فيه من أدب ، وبين طبيعة الأجناس
البشرية ، وما تنتج من أدب ، وبين ما يكون من محاوراة الأمم المختلفة - وما ينتج من
الأدب (٢) .

ويرى الدكتور أنه على الرغم من اتفاقهما في العناية بالملوك والرؤساء ، نرى
ابن بسام يمتاز عن الشمالي ^{بموضوعه} لتاريخهم عرضاً دقيقاً مفصلاً ، وابرار آثارهم الأدبية
وردت إلى مصادرنا .

(٤) دُمية القصر وعصرة أهل العصر : لأبي الحسن علي بن الحسن بن أبي الطيب
الباخرزي الذي لا يوجد نص يحدد سنة ولادته ، ويعتقد محقق الدمية الدكتور سامي
العاني أن ولادته كانت في باخرز وبعد المائة الرابعة ، وتوفي قتيلاً سنة ٤٦٧ هـ جريسة
في مجلس أنس بباخرز ووعو في أيام كهولته ونهب دمه غدراً . (٦) (٧)

وكتاب الدمية موسوعة أدبية ينتقل القارئ فيها من قطر إلى قطر فيتعرف إلى
شعراء كل بلد ، ويميز بين قضاياتها وكتابها ، وأمرائها ، وقد أجمع كل الذين ترجموا
للباخرزي وكتابه الدمية أنها ذيل لبيتية الدر ، والشمالي - كما هو معروف - أرخ لشعراء

-
- (١) تقديم الدكتور طه حسين للذخيرة ج ١ ص ١
(٢) المصدر السابق والتقديم نفسه ص ١ (٦) المصدر السابق والتقديم نفسه ص ١ - ج
(٤) له ترجمة في المعبر (٢٦٥/٢) وطبقات الشافعية لسبكي (٢٩٨/٢) والبداية
والنهاية (١١٢/١٢) والنجوم الزاهرة (١٩/٥) وعدية العارفين (٦٩٢/١) وكشف
الظنون (٢٠٤٩/٢) . (٥) باخرز بفتح الباء الموحدة وبعد الألف خاء معجمة
مفتوحة ثم راء ساكنة وزاي معجمة ناحية من نواحي نيسابور / عدية العارفين ٦٩٢/١
(٦) تقديم المحقق للدمية (ج ١/٢١) (٧) تقديم المحقق للدمية (ج ١/٤٨)

القرن الرابع وصدر من القرن الخامس ، فجاء الباخرزى وبدأ حيث انتهى الشمالي ، وترجم لشعراء عصره ، ولكنه لم يلتزم بذلك التزاماً صحيحاً ، ولذا نجد فيه ثلاثة أصناف من الشعراء وهم : السابقون الأولون ، واللاحقون المخضرمون ، والمحدثون المصريون ، وقد ترجم لشعراء توفوا قبل نهاية القرن الرابع ، ومنهم أبو القاسم أحمد بن إسماعيل الرسى نقيب الطالبين ، والذي توفى سنة ٦٤٥ هـ ، وأبو منصور يختيار بن عز الدولة الذي توفى سنة ٦٦٧ وأبو محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالى الذي توفى سنة ٢٧٩ وغيرهم .

ويستفد المحقق أن آخر من ترجم لهم الباخرزى من الشعراء السيد أبو الحسن على بن مانكديم الحسينى الذي توفى فى شوال سنة ٥١٧ هـ .

منهجها وأقسامها :

حدد الباخرزى منهجه فى جمع مادة كتابه وأسماء الشعراء فيها فقال فى

مقدمته :

" كَرَّرْتُ فى كتابى هذا أسماء قوم من أعلام العلوم الذين هم أسنمة الأدب وغواره ، ومنهم مشارق الشعر وبها مغاربه ، ممن رأيتهم فكان لقاءه لىمنى كُحْلاً ، أو سمعته به فكانت أخباره لسمى نحلاً " (٢) (٤) .

وقد جعل الشعراء طبقات حسب مقامهم ، فقال : " وقد فهرست أسماى الفضلاء ثم فرقت عليها نظرى أروساً وأقداماً ، وجعلت طبقاتها المرتبة أقساماً ، ثم أخرجت أقسام طبقات الأسماء ، فلكل مقام فيها مقال ، ولكن طبقة منها رجال ، وهم أزواج ثلاثة منهم السابقون الأولون ، ومنهم اللاحقون المخضرمون ، ومنهم المحدثون المصريون " .

وقد قسم كتابه إلى سبعة أقسام .

(٦)

القسم الأول : فى محاسن شعراء البدو والحجاز ، وتعدُّ الباخرزى شعر هؤلاء الشعراء أجود الشعراء : أقول فى هذه الطبقة : " إن أحسن أبيات الأشعار ما طلعت

(١) تقديم المحقق للدمية (ج١/٤٩ - ٥٠)

(٢) تقديم المحقق للدمية (ج١/٥٠) (٢) النحل

(٤) مقدمة المؤلف للدمية ج١/١١٨ - ١١٩

(٥) المصدر نفسه ج١ ع ١٢٠ - ١٢١ (٦) المصدر نفسه ج١ ع ١٢٩ - ١٣٠

من أبيات الأشعار ، ورعت مع الطباء الشيخ - وترجم في هذا القسم تسعة وعشرين شاعراً .

القسم الثاني : في طبقات شعراء الشام وديار بكر وأذربيجان والجزيرة وسائر بلاد المغرب ، ولم يقدم لشعراء هذا القسم ، وترجم لثمانية وستين شاعراً أولهم تميم بن معد صاحب مصر المتوفى سنة ٢٧٤ هـ ، ولم يذكر شعراء كل قطر من الأقطار السابقة منفصلين عن شعراء الأقطار والأخرى بل كان يأتي بترجمة لشاعر مصري ، ويتبعها بترجمة لشاعر مغربي ، ويتبعها بشاعر عماني وهكذا .

(٢) القسم الثالث : في فضلاء العراق ، وقد عدّ الموصل من العراق وترجم لشعرائه ضمن هذا القسم ، وعموماً لم يفعل العمد الذي عدّ الموصل من الشام وترجم لشعرائه ضمن القسم الثاني من الخريدة . وقد ترجم البخارزي في هذا القسم لأربعة وستين شاعراً أولهم الملك العزيز أبو منصور خسرو فيروز بن جمال الدولة المتوفى سنة ٤٤١ هـ في ميافارقين ، ولم يفصل بين شعراء كل مدينة كما فعل العمد بل كان ينتقل من ترجمة شاعر بفسدادى إلى ترجمة واسطى فيصيرى فموصلى دون ترتيب .

(٣) القسم الرابع : في شعراء السرى والجيل وأصفهان وپارس وكرمان ، وقد ترجم في هذا القسم لأربعة وسبعين شاعراً أولهم الوزير الصفى أبو العلاء محمد ابن على بن حسول المتوفى سنة ٤٥٠ هـ جزيرة ، ولم يقدم لهذا القسم أيضاً ، ولم يرتب شعراء المدن كذلك .

(٤) القسم الخامس : في فضلاء جرجان وأستراباذ ودغستان وقومس وحوارزم وما وراء النهر ، وترجم في هذا القسم لخمسة وخمسين شاعراً ، أولهم قاضى القضاة الرئيس أبو بشر الفضل بن محمد الجرجاني ، ولم يقدم لشعراء هذا القسم كذلك .

(٥) القسم السادس : في شعراء خراسان وپهستان وپست وسجستان وخرزنة وقد بدأ هذا القسم بمقدمة قصيرة أوضح فيها أنه لم يراع في الأقسام السابقة تفاضل الدرجات والمراتب بين الشعراء ، وكان : حتى اشتبهت المناسم بالفوارب ، وامتزج السردل بالفاخر واختلط

(١) الدمية ج ١ ص ١٧١ (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨١ - ٣٦٤

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٥ - ٤٥٥ نهاية الجزء الاول .

(٤) الدمية ج ٢ ص ٢ - ٨١

(٥) الدمية ج ٢ ص ٨٣ - ٤٨١ وعمواً أكبر الأقسام وأطولها .

الأول بالآخر * ولذا فُصل من بين شعراء هذا القسم خمسة من الشعراء أحدهم من نيسابور وهو أبو الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ، وثانيهم من هراة وهو القاضي أبو أحمد منصور الأزدي المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وثالثهم من مرو وهو السيد أبو القاسم علي الموسوي ورايهم من بلخ وهو أبو الحسن محمد بن عبد الله الحسيني المتوفى سنة ٤٦٠ هـ وخامسهم من السرخس وهو العميد أبو بكر علي القهستاني المتوفى سنة ٤٤١ هـ ثم عاد ليورد باقى شعراء هذا القسم دون ترتيب كبقية الأقسام السابقة ، إلا أنه ميز مدينتين من مدن هذا القسم أولهما : مدينة بيهق فجعل شعراءها تحت عنوان خاص " أسماء طبقات بيهق " وترجم فيه لسته من الشعراء ، وثانيتهما إسفرايين وترجم فيه لثمانية وتسعين شاعراً .

ويعد هذا القسم أكبر أقسام الدمية إذ ترجم فيه لعشرين ومائتى شاعر .

(١)
القسم السابع : وجعله لأئمة الأدب الذين لم يرد لهم إلا الشعر النادر وترجم فيه لعشرين أديباً ٠٠ أولهم أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٥٩ هـ صاحب المجل في اللغة ثم أتبعه بابن جنى اللغوي النحوي المشهور والمتوفى سنة ٣٩٢ هـ .

وانتشرت بين هذه الأقسام السبعة فصول قصيرة هي :

أولاً : فصل تمهيدى سماه : تاج الكتاب وأثنى فيه على الخليفة العباسى القائم بأمر الله وأورد له شعراً . (٢)

(٢)
ثانياً : فصل أقحمه وسط القسم السادس يتحدث فيه عن شعراء باخرز وقد خصهم به هذا الفصل كما يقول : * وفاء لهم وعناية بهم لأنهم أغلبلده .

(٤)
ثالثاً : فصل سماه : خلخال الكتاب عرض في بدايته إلى ما كابد من جهد ومشقة ونصب ه وما أنف من عمر طويل في جمع مادة الكتاب ه وأنه تقدم بهذا الكتاب إلى الوزير نظام الملك الحسن بن علي .

(٥)
رابعاً : الفصل الرابع والأخير : يفون عنه المحقق : إنه مثبت في بعض النسخ وساقط

(١) الدمية (ج ٢ ص ٤٨٣ - ٥٠٥) (٢) الدمية ج ١ (١٢٢ - ١٢٦)

(٣) الدمية ج ٢ ص ٤٠٧ (٤) الدمية ج ٢ ص ٥٠٩ - ٥١٠

(٥) الدمية ج ٢ ص ٥١٠ - ٥١٥

من الأخرى ، وقد أفردته لتقريب كتابه من قبل شعراء عصره ، فأورد فيه مقطوعتين للشاعر الأديب البارع الزوزنى ، ومقطوعة واحدة لأبي عامر الجرجاني ، وواحدة ليعقوب بن أحمد ، ورابعة لأبي الفضل الحيري والخامسة قصيدة طويلة لعلى بن أحمد الفنجكرودى .

ولعلنا نلاحظ اهتمام المؤلف ببلاد المعجم وشعرائها حتى جعل لهذه البلاد ثلاثة أقسام من الأقسام الستة الرئيسة ، ومعه أديباء القسم السابع عم أيضاً من بلاد المعجم ، ولذا نستطيع القول بأن نصف أقسام الدمية مخصص لهذه البلاد ، فإذا وازنا ذلك بالخريدة ، وجدنا مدى عناية العماد بكل البلاد ، والمدن والتريب الأدنى . وإذا رجعنا إلى عدد التراجم وجدنا أنه ترجم في الأقسام الثلاثة الأولى لواحد وستين ومائة شاعر وترجم لتسعة وأربعين وثلاثمائة شاعر لأقسام بلاد المعجم وهو فرق بعيد يدل على مدى اهتمام الباخري ببلادها كلها لا يباخرز وحدها ، ولعل هذا الأمر من ميزات الخريدة التي حاول العماد من أجله أن يلتزم جانب الحياد في هذا الأمر .

كما يلاحظ قارئ الدمية والخريدة مدى اهتمام العماد بالنقد ، ولئن استزم الاثنان الباخري والعماد بالثناء المسجع ، إن للعماد نظرة نقدية أوضح واهتماماً أكثر برواية أخبار صاحب الترجمة خاصة أولئك الشعراء الذين لقيهم أو كانوا مشهورين معروفين .

مصادر الدمية :

أحصى المحقق مصادر الدمية ، وأورد لنا في تقديمه لها فقال : يمكن أن نصف مصادر كتابه يرجع إلى مايلي :-

أولاً : الروايات الشفهية التي سمعها بنفسه من أصحابها وفي الكتاب تسع وأربعون ومائة رواية من هذا النوع .

ثانياً : روايات سمعها ممن سمع ورأى المترجم فأثبتها في كتابه نقلاً عن هؤلاء الرواة الموثوق بهم .

ثالثاً : المصادر المكتوبة : ويمكن تصنيف هذه المصادر إلى عدة أصناف وهي :

(١) الدمية - تقديم المحقق ص ٥٧

(٢) المصدر نفسه - تقديم المحقق ص ٥٧

(أ) الأخبار والأشعار التي كتبها له المترجمون بأنفسهم فقد كاتب جمعاً كبيراً ، من أدباء عصره ، وروى عن هذه الكتب في أكثر من عشرة مواضع ، وكان يستعين بما كتبه المترجمون لوالده ، فروى عن هذه الكتب في أكثر من موضع أيضاً .

(ب) روايات ذكر أنه قرأها للمترجم ، ولكنه لا يذكر المصدر الذي قرأها فيه وقد كرر ذلك في ستة مواضع من كتابه .

(ج) الكتب : لم يذكر في مصادرهِ إلا كتاباً واحداً وهو قلائد الشرف لأبي عامر الفضل بن إسماعيل الجرجاني رجع إليه في ثمانية مواضع من الدمية .

وأورد بعض الروايات الشعرية والتراجم دون ذكر المصدر كما فعل في ترجمته لطاهر بن محمد الأصفهاني ص ٢٧٦ وأبي الفرج المعروف بفروجة .

(٥) وشاح دمية القصر ولقاح روضة العصر : لأبي الحسن بن علي بن زيد البيهقي :

وعو ذيل لكتاب الدمية يقول صاحب كشف الظنون : ووشحه على ترتيب دمية القصر ، وقد جمع فيه أعمار أهل عصره ، وعو من الكتب المفقودة ، إلا بقية منه عشر عليها في بعض البلاد التركية مؤخراً في خزانة كتب حسين جلبي بمطبعة بروسة . وعو جزء ناقص من أوله وآخره وكتب في القرن السابع .

(٦) زينة الدهر وعصرة أهل العصر : لأبي المعالي سعد بن علي الوراق الكوفي الخطيري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ ، ويعد هذا الكتاب ذيلاً على الدمية وعو في مجلد واحد مفقود أياً .

(٩) وقد ترجم العماد للخطيري ، وأثنى على أدبه ، ووصفه بالفضل والذكا ، وذكر

-
- (١) المصدر نفسه - تقديم المحقق ص ٥٩
(٢) الدمية نفسه - تقديم المحقق ص ٥٩ (٣) المصدر السابق - تقديم المحقق ص ٦٠
(٤) ص ٢٨٩ وعو غير ابن فورجة النحوي المشهور المذكور في بنية الوعاة .
(٥) كشف الظنون (٢ / ٢٠١١ ، ٢ / ٢٠٤٩) والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٤٧ - ٤٨ (٦) الخريدة - تقديم الأثرى للقسم السراقى (ج ١ ص ٨٢ - ٨٣)
(٧) المصدر السابق ج ١ ص ٨٦ (٨) كشف الظنون ٢ / ٢٠٤٩
(٩) الخريدة ج ٤ ص ١ على ٢٨ - ١٠٦

من كتبه كتاب "لمح الملح" في التجنيس وكتاب "الإعجاز في الأحاجي والألغاز" ولكنه لم يشر إلى كتابه "زينة الدهر" وربما يعود ذلك إلى أن الخطيرى ألف هذا الكتاب بعد رحيل العماد عن بغداد سنة ٥٦٢ هـ ويبدو أن الخطيرى ألفه بعد هذه السنة فلم يصل علمه إلى سمع العماد الذي أنهى خريدته في حدود سنة ٥٧٣ هـ ولذا لا يمكن عد كتاب الخريدة ذيلاً لكتاب الخطيرى كما زعم البعض وهو ما سنفنده فيما بعد ، وإنما هو ذيل للدمية واليتيمة (١) ولا غرابة في هذا القول لأن الرجلين عاشا في الزمن نفسه ، وألغيا كتابيهما في الفترة نفسها ، ولا يعدو الفرق بين الزمنين سوى بضع سنوات قلائل .

ويبدو أن كتاب الخطيرى كان صغيراً وقصيراً لقول صاحب كشف الظنون إنه في

مجلد واحد .

(١) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ٥ ، ولذا ما ذكره العماد في مقدمته للجـ

العراقي ج ١ ص ٥

الفصل الثاني

خريدة القمر وجرادة العسر

دواعي التأليف :

ذكر العماد في مقدمته للتقسيم العراقي الدوافع التي شجعتة على تأليف خريدته
وحدد عما بدافعيين :

أولهما دافع خاص ، وهو تخليد ذكرى الشعراء الذين مدحوا عنه المميز وذلك حيث يقول :
والذي بمعنى أولاً إلى جمع هذا الكتاب أننى وجدت المعاصرين لسمى الصدر الشهيد^(١)
عزيز الدين أبى نصر أحمد بن حامد من الشعراء ما فيهم إلا من أم قصده وطلب ووفد عليه
بمدحه واسترفده من منحه ، وفاز عنده بنججه ، وأدرك في ليل الأمل من الفوز سـو
صبحه ، وحمل إليه بنماذج فضله ، فحصل من إفضاله برحه ، . . . وكلهم متدحه ومستميحه ،
ومستمنحه ، فأحبيت أن أحيى ذكرهم ، وأقابل بمجازاة شكرى شكرهم . . .^(٢)

وثانيهما دافع عام : إذ رأى العماد أن سوق الأدب قد كسدت ، فأحسب
أن ينشطها من عقالها ، بتخليد ذكر رجالها ، لأن الشعر في ذلك الوقت كان يرتقى
وينشط بتشجيع الحكام والنقاد ، ومادام الحكام قزماً وأتراكا لا يجهدون السريسة
ولا يتذوقون أدبها ، وجب عندئذ على النقاد ومدونى الأدب تشجيعهم بتخليد أسمائهم
وأشعارهم وشرعهم ، يقول العماد : " أما بعد . فإننى لما رأيت الفضل في عصرنا هذا ،
وإن ضاع عرفه قد ضاع عرفه^(٣) ، كما أنه وإن زان ضعفه فقد زاد ضعفه ، لفساد أمره ،
وكساد سميره ، وتلبوط نجمه ، وسقوط رسمه وخط حظه ، وقلة عناية أمته بحفظه ، آثرت
أن أوثر من مثمر أهل العسر ما يخلد آثارهم ويجدد منارهم ، فإننى لما ألفت أسكار^(٤)

(١) كلمة معاصر غير واردة في اللفظة وربما جاءت خطأ من الناسخ .

(٢) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ٧ - ٨ مقدمة العماد .

(٣) ضاع الاولى بمعنى انتشر والعرف - بفتح العين - الرائحة ، ضاع الشيء بمعنى غلبت
واندثر والعرف بضم العين ضد النكر أى بمعنى المعروف .

(٤) الضعف بالكسر فالسكون واحده الأضغاف وهى من الجسد أعضاؤه أو عظامه أو عسى
العظام فوقها لحم ، ويرى المحقق أن العماد أراد بها معنا " المظهر " .

(٥) الضعف : بفتح الصاد وضمها ضد القوة . (٦) آثرت : فضلت . يقال آثر الحديد
ذكر عن غيره ومنه حديث مأثور أن ينقله خلف عن سلفه ، وأوثر : أختار .

أفكارهم قد عَسَيْتَ ، وَأَرَامَ شَوَارِدِمْ فِي خَمِيلَةِ الْخَمُولِ كَسَيْتَ (٢) وَعَوَائِرُ نَفَائِسِهِمْ عَسَدُ
الْأَكْهَاءِ مَا عَرَسَتْ (١)

وأورد له ياقوت دافماً ثالثاً هو رؤيته للدمية في دار الكتب التي كانت لتساج
الملك في أَصْفَهَانَ (٤) .

ولعلنا نلاحظ أن الدافع الأول لم يكن سوى الباعث على الابتداء فلما بدأ العماد
جمع مادته ورأى كساد سوق الشعر أوسع الهدى حتى شمل شعراء عصره جميعاً .

سبب التسمية :

وقد ذكر العماد كذلك في مقدمته للقسم العراقي سبب تسميته لكتابه بهذا الاسم
فقال : " وسميته " خريدة القصر وجريدة السفر " لأنها حسناء ذات جلى وجميل
غانية تفيطها على الحُسن أثمار الكلل ، فهذا الكتاب كالروض الأنف ، يجمع أنواع الزعفران
وكالبحر تنمّن على نواصع الدرر ، وكالدهر يأتي بمجائب اليبس ، يشتمل على فنون
وعيون وأبكار للمعاني عون ويتضمن من شريف الكلام وحرّة ودرة ودرية ولطيف
القول وديعه ، وغريبه وضيئه ، ما إذا اجتليت أنواره ، واجتنتت أثماره ، ونظرت
إلى استقامة سميته ، وسلامة نخته ، وجدته محمى الحريم بالصون (١١)

ولعلنا نلاحظ أن اختياره لهذا الاسم فيه تشابه كبير بأسماء الكتب السابقة
كاليتمية والذخيرة والدمية ، وقد التزم فيها الجناس والسجع بين كلماتها وعباراتها ، وعلى
عادته في تسميته لجميع كتبه ، وعويئني من تسميته هذه أن كتابه جديد كل الجدة في
معلوماته وبحوثه ، وأخباره وأن قارئه سيجد في قراءته لذة ومتمعة وفائدة لأنه يجمع فيه أخبار
عصر كامل وأشعار شعرائه جميعهم .

-
- (١) عنت الجارية : لسمع ونصر وعرب - إذا طال مكثها في منزل أهلها بعد ادراكها
دون زواج . (٢) كست : كسر الظبي واخل في كئاسه وعوموضعه في الشجر
يستكن فيه . (٣) الخريدة / القسم العراقي ج ١ ص ٤ / ٢ وعرس / استراحت .
 - (٤) معجم الأوباء ٣٣ / ١٤
 - (٥) خريدة : بكسر لم تمس أو الخفرة (النحية) الطويلة السكوت الخافية الصوت المسترة .
 - (٦) جريدة : صحيفة تكتب فيها الجواب أي الأخبار الطارئة .
 - (٧) أنف : لم يرعه أحد . (٨) عون : جمع عوان وهي النصف في سننها من كل شيء وهي هنا
على سبيل المجاز . (٩) درية : يريد بدرى الكلام فضيحه المتلألئ المشرق .
 - (١٠) الصنيع : الجيد النقي (١١) الخريدة - القسم العراقي مقدمة العماد ص ٦

ومن تأليف الكتاب :

لم يتعرض الباحثون السابغون والمحدثون للفترة التي قنناها العماد في جمع مادة كتابه ، وخاصة بداية تلك الفترة اللهم إلا الأستاذ الأثرى الذي ظن أنها كانت قبل سنة ٥٥١ فقال : وأظن أن ذلك كان قبل رجوعه إلى بغداد سنة ٥٥١ م أما نهايتها فقد اختلفوا فيها اختلافاً شديداً - كما سنبين بعد قليل - .

لقد رجعنا إلى الخريدة وإلى كتب التراجم الأخرى محاولين تحديد السنة التي بدأ فيها العماد تنفيذ مشروع الخريدة ، وهذا لنا في أول الأمر أن العماد بدأ عمله في العراق حتى وجدنا خبراً نقله صاحب معجم الأدباء عن الخريدة يروي فيه العماد أنه اطلع على دمية القصر للباخرزي في أصفهان فراقته وأعجبته ، ودفعه ذلك إلى تأليف كتاب شاكلته . (٢)

إن هذا القول يعطينا دليلاً قوياً على أن العماد بدأ عمله بعد سنة ٥٤٣ هجرية ونسب السنة التي قارن فيها بغداد عائداً إلى أصفهان - وظل فيها إلى سنة ٥٤٨ هجرية - غادرنا ليؤدي فريضة الحج ، ولهذا نستطيع القول بأنه بدأ جمعه لمادة كتابه ما بين عاتين السنتين ، فإن اعترض مستعرض بأن العماد رجع إلى أصفهان في أوائل سنة ٥٤٩ هجرية ، وأنه ربما اطلع على الدمية بعد عودته من الحج قلنا له : إن الروايات التي ذكرها العماد في الخريدة تدل دلالة قاطعة على قولنا السابق فقد أورد روايات سمعها في سنة ٥٤٦ هجرية و سنة ٥٤٧ هجرية وأخرى في ربيع الآخر سنة ٥٤٨ هجرية أي قبل سفره إلى الحج .

ونرجح أن العماد بدأ عمله بجديفة في سنة ٥٤٦ هجرية في مسقط رأسه أصفهان وأن مجد العرب المامري كان من أوائل رواة الذين سمع منهم ، وقد نقل عنه عدة روايات في مجلس اجتماع وإياه فيه وأورد رواياته بعد ذلك في مواضع من الخريدة .

ومن ذلك الخبر الذي أوردته العماد في ترجمته للمجفجف البديوي القشيري والذي يقول فيه : " وافق لي بأصفهان انخراط في سلك عصاية من الفضلاء ذوى إصابسة .

(١) معجم الأدباء (١٢٣ / ٣٣) أثناء ترجمته للباخرزي صاحب الدمية .

(٢) الخريدة - القسم العراقي ج ١ تقديم الأثرى ص ٩٦

(١)
 وذلك في سنة ست وأربعين وخمسمائة وفيهم مجد العرب العامري ٠٠ وقال في ترجمته
 لابن الخياط الدمشقي : " وذكره مجد العرب العامري بأصفهان في جمادى سنة ست
 وأربعين وخمسمائة ٠٠٠٠٠ " وقال في ترجمته لابن منير الشاعر الشامي : " وأنشدني
 مجد العرب العامري بأصفهان في سلخ شعبان سنة ست وأربعين قال : أنشدني ابن
 منير لنفسه ٠٠٠٠ " .

ان هذه الروايات تجعلنا نرجح أن العماد بدأ عمله في سنة ٥٤٦ ثم تابع
 ذلك فيما بعدها من السنوات ، وإن كنا قد لاحظنا أنه لم يورد سوى رواية واحدة فـسـى
 سنة ٥٤٧ مؤرخة بالنص ، أما في السنوات التالية فقد أورد في كل سنة منها روايات عديدة
 في مختلف أقسام الخريدة .

ويبدو أن العماد كان في البداية مهتماً بالبلاد التي زارها أو التي أقام فيها ،
 ولذا نلاحظ أن اهتمامه كان منصباً على الأقسام الثلاثة الأولى ونمى بها العراق والمغرب
 والشام ونسثنى من الأخير الحجاز واليمن . أما القسمان المصري والمغربي فلم يبيد
 بهما اهتماماً إلا بعد أن سار خطوات في عمله ، والقسم المصري بالذات - وإن أورد فيه
 روايات في السنوات ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٨ - جمع العماد معظم مادته في الفترة الأخيرة
 حين التقى بالقاضي الفاضل ، وتعرف على عدد كبير من الشعراء الذين كانوا يحيطون
 به ، واستفاد من كثير من الكتب والدواوين الموجودة في مصر . أما المغرب والأندلس
 فمعظم مصادرها كانت الكتب والقليل من الروايات المتأخرة والنادرة ، وإحدانا كانت
 في سنة ٥٥٤ والأخرى في سنة ٥٥٧ واثنان في سنة ٥٦٠ والرواية القديمة التي أوردنا
 العماد كانت في سنة ٥٤٨ أو قبلها بقليل - نقلها العماد على لسان شيخه عبد الرحيم
 بن الأخوة - المتوفى سنة ٥٤٨ - في ترجمته لعبد الودود الطبيب الأندلسي الذي هاجر
 إلى العراق وخراسان وذكر فيها العماد بيتين من الشعر في هجاء عبد الودود .

(١) الخريدة - القسم العراقي المخطوط الجزء الثالث الورقة ١٥
 (٢) الخريدة - القسم الشامي - بداية قسم بلاد الشام ص ١٤٢
 (٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٨٨ وله رواية في قسم شعراء المعجم المخطوط سنة ٥٤٦ الجزء الرابع
 الورقة ٢١ (٤) الخريدة / قسم المعجم المخطوط ج ٥ الورقة ٤٣
 (٥) الخريدة / القسم المغربي ج ١ / ١٠٥ (٦) المصدر السابق ج ٢ / ٢٥
 (٧) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٧ و ج ١ ص ١٨٩
 (٨) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٢

وقد لاحظنا أن السواد جمع معظم القسم العراقي في السنوات ٥٥٠ - ٥٦٢ ، أما السنوات التالية وحتى سنة ٥٧٢ فالأخبار والأشعار التي أضافها السواد كانت قليلة نسبياً ، وما أضافه كان نتيجة مراسلاته لأصدقائه في بغداد ، أو من أفواه الرواة الذين رحلوا إلى دمشق ، وحو قليل نسبياً إذا ما قيس بما جمعه السواد أثناء وجوده في بغداد . . . في ديوان الوزير ابن شيبرة ، أو أثناء وجوده في واسط ثم البصرة ، حيث صادف الكثير من الأدباء والشعراء وعاد قوه .

وقد لاحظنا أن جمعه للقسم الثامن امتد من بداية جمعه إلى سنة ٥٧٢ ، وذلك بسبب رحيله إليها سنة ٥٦٢ وبقائه فيها .

واختلف الباحثون في زمن انتهاء السواد من خريدته فجعلها ياقوت ^(١) "بمسد سنة سبعين وخمسة" وحددها ابن خلكان ^(٢) بسنة ٥٧٢ عجزية ، وتابعه في ذلك الدكتور أحمد أحمد بدوي ^(٣) والدكتور لطفى عبد البديع ^(٤) والاستاذ فؤاد سيد ^(٥) وجعلها حاجى خليفة صاحب كشف الظنون سنة ٥٩٢ ، ثم جاء الأستاذ بهجة الأثرى فجعلها سنة ٥٧٩ ، ثم عاد واعترف بأنه لا يستطيع الجزم بذلك فقال : " وقد يكون آخر من ترجم لهم من شعراء القرن السادس هو الأمير تاج الملوك الأيوبي - أخا السلطان صلاح الدين المتوفى في تاسع صفر سنة ٥٧٩ ، فقد نقل أبو شامة المقدسي الروستين كلاماً عن الخريدة في تحديد عمره يدل دلالة قاطعة على أن السواد بلغ بالخريدة سنة ٥٧٩ ، وقد يكون جاوز هذه السنة ، ولا سبيل إلى الجزم في ذلك بسنة بعينها ما لم أتق على ^(٨) . ثم جاء بعد ذلك الدكتور شوقي نيف ليحدد نهاية الجزء المصري بسنة ٥٧٣ . ^(٩)

ولعل الدكتور شوقياً على عواب ، ففى رأى أن هذه السنة وأغنى بها سنة ٥٧٣ على السنة التي أنهى فيها السواد خريدته ، وإن كان قد أنهى أجزاء منها في سنة ٥٧٢ ولملى أستطيع القول بأن السواد أنهى القسم الثامن والعراقي في سنة ٥٧٢ وأنهى

(١) معجم الادباء ١٩/١٩ (٢) وفيات الأعيان ٤/٢٢٥

(٣) الحياة الادبية - د . أحمد أحمد بدوي ص ٤٨ والحياة العقلية ص ٢٧٢

(٤) فهرس المخطوطات المصورة ج ٢ ص ١/١٢٢

(٥) فهرس المخطوطات المصورة ج ٢ ص ١/١٤١ وكذلك ج ٢ ص ٢ ص ٥٥

(٦) كشف الظنون ١/١ : ٧ (٧) الروستين ٢/٤٢ (النيل)

(٨) الخريدة - تقديم الأثرى للقسم العراقي ١/٩٨

(٩) الخريدة / السهم المصري - تقديم الدكتور شوقى نيف ص ١

بقية الأقسام في سنة ٥٧٣ هـ ودليلنا على ذلك أننا بحثنا في الجزء الشامي كله فلم نجد رواية واحدة أثبتتها العماد فيما بعد سنة ٥٧٢ هـ ، وما زاد اطمئناننا إلى ذلك ما كتبته العماد في نهاية هذا القسم وبعد انتهائه من شعراء اليمن حيث قال : " وهذا آخر ما وقع إلي من شعراء اليمن إلى آخر سنة اثنتين وسبعين والحمد لله رب العالمين وصلى (١) الله على سيدنا محمد النبي الأمين " .

وينطبق قولنا هذا على القسم العراقي .

أما قسم بلاد المعجم وفارس فقد انتهى العماد منه في سنة ٥٧٣ هـ ففي معصرني ترجمته لصديقه فخر الدين أبي المعالي محمد بن مسعود القسام (من أصفهان) يقول : " ووصل إلى بغداد وكتب إلي كتابين عدهما بمقطوعتين ووصلا إلي وأنا بمصر في آخر شهر المحرم من سنة ثلاث وسبعين هـ ثم أورد المقطوعتين . أما الجملة التي وردت في (٣) نهاية ترجمته للسلفي والتي تنهى علي أن وفاة السلفي كانت في سنة ٥٧٥ هـ في الاسكندرية فهي عبارة أقحمها الناسخ بلا شك في ذلك لأن وفاة السلفي كانت في سنة ٥٧٦ هـ ولا يمكن للعماد المؤرخ الثقة والذي يتحرى الدقة أن يقع في خطأ كهذا في ترجمته لعالم مشهور وشيخ جليل سمع العماد نفسه منه برقعة السلطان صلاح الدين .

أما القسم المصري فقد انتهى العماد منه في سنة ٥٧٣ هـ وأورد في هذه السنة روايات عديدة إحدانا في ترجمته للسيد أبي الحسن علي بن أحمد بن عرام الريمى يقول فيها : " وسألت عنه بمصر سنة ثلاث وسبعين فقيل : إنه حي في أسوان " وأخرى في ترجمته للنظام المصري جبرائيل بن ناصر السلفي يقول فيها : — نسب إليه والى قوص أنه وأطأ الخارجى بها في آخر سنة اثنتين وسبعين هـ فطلبه وعلمه هـ بعد ما سلبه وذلك في المحرم سنة ثلاث وسبعين بقوص . (٥)

وكذلك أنهى القسم المغربي سنة ٥٧٣ هـ ودليلنا على ذلك رواية كتبها العماد في ترجمته لابن شقوق السبتي قال فيها : ذكر لي سنة ثلاث وسبعين بمصر أنه يعيش (٦)

- (١) الخريدة / قسم الشام ج ٢ ع ٢٦٠ آخر صفحة في مادة غذا القسم .
- (٢) الخريدة / قسم بلاد المعجم المخطوط ج ٤ الورقة ٤٤
- (٣) الخريدة / قسم بلاد المعجم المخطوط ج ٤ الورقة ٣٤
- (٤) الخريدة / القسم المصري ج ٢ / ١٦٥
- (٥) الخريدة / قسم مصر ٢ / ١٤٠ (٤) الخريدة / قسم المغرب ١ / ٢٤٥

بعد كل ما ذكرناه نستطيع القول بأن الخريدة أخذت من عمر العماد قرابة ثمان وعشرين سنة قضاها العماد متنقلاً بين فارس والعراق والحجاز والشام ومصر وأنه بدأ عمله على الأرجح سنة ٥٤٦ هـ وأنهاء سنة ٥٧٣ هـ ، فإن اعترض معترض بأن هناك شعراء ترجم لهم العماد في الخريدة وعاشوا بعد هذه السنة قلنا له :

"إن ما أوردته العماد لهم من شعر هو نتاجهم قبل سنة ٥٧٣ هـ ."

لن ألقها ؟

بعض الأدباء يؤلفون كتبهم يناء على رغبة كبير ، أو يؤلفونها وهم يهدفون إلى تفديمتها لأمر ، أما العماد فقد ألقى خدمة للأدب والأدباء وقد ظهر هدفه هذا في حديثه عن دواعي تأليفه لهذا السفر الضخم . أما الرواية التي أوردتها الصفدي في الوافي ، والتي يدعى فيها أن العماد قدمها للقاضي بعد تجهيزها ، وربما تكون صحيحة ، ولكنه وضعها بصيغة المجهول فقال : " ويقال : إنه لما فرغ منها جهزها إلى القاضي الفاضل (١) . . . " فالحكاية ربما تكون صحيحة ، ولكننا سنعود لمناقشة بقيتها مرة ثانية ، فإن كان قدّمها له فلم يكن ذلك هدفه أساساً ولكنه جاء بعد لقائه وإعجابه بشخصه وطريقته في الكتابة ، ولأنه رأى فيه زعيم الكتاب من أبناء عصره .

الرقعة المكانية التي تترجم لها :

قسم العماد العالم الإسلامي في خريدته إلى أربعة أقسام كبرى وهي :

أولاً : القسم العراقي ، وجعله في فضل بغداد وما يجري معها من البلاد .

فما البلاد التي كانت تتبع بغداد في ذلك الوقت ؟ وما المقصود بهيها ؟

إن صواحي بغداد هي قرى الكرخ وأواني وكسبري والخظيرة ، والراذان والمدائن والمحول ويعقوبا ، والبندنجين ولقد تحدث العماد عن شعراء من أهل الحلة والكوفة وعبيد والأنبار والحديثة وواسط وما يتبعها من بلاد كالطيب وقرقوب وأعمالهما والقراف وغيرها مما هو قريب من واسط ، والبصرة وما حولها كالمشاة وذي وطا وضم إلى هذا القسم الأحساء والقطيف والبحرين وهي أجزاء من الجزيرة العربية ، وهذا هو الجزء الذي لم يستطع المحقق الحصول عليه والذي وجدناه - بمون الله - في مخطوطة نور عثمانية برقم (٤٣٧٦)

(١) الوافي بالوقيات ١٤٠/١

والتي توجد منها نسخة مصورة في معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية والتي قمنا بتصويره والاحتفاظ بصورة منه .

ثانياً : قسم بلاد العجم وفارس ، وقد تحدث فيه العماد عن الشعراء الذين عاشوا في أصفهان وخصّص الجزء الرابع منه لمسقط رأسه أصفهان وتحدث بعد ذلك عن شعراء بقية المدن الفارسية والخراسانية مثل كرمّان وقاشان وقمّ وسأوة والسرّ وزيجبار وأذربيجان وعمدان وقومس وأبهر وقزوين وجنزة ومرشد وسهرورد وأبيورد والكرّ وجيلان وطبرستان وبروجرد وغيرها .

ثالثاً : القسم المصري والمغربي والصفلي : وقد تحدث في القسم المصري عن شعراء عاشوا في القاهرة وآخرين من الإسكندرية والمحلة ومدن الصعيد مثل قوص وأسوان واسيوط . وتحدث في القسم المغربي والصفلي والأندلسي عن شعراء من جزيرة عقليّة وآخرين من مالطة كما ترجم لشعراء من تونس ومن مدينة القيروان عاصمتها آنذاك وآخرين من مدينتي قفصة القريبة من القيروان ومن سوسة والمنصورة وغيرها .

كما تحدث عن شعراء من مراكش وسماها المغرب الأقصى ، كما تحدث عن شعراء من المغرب الأوسط ، وآخرين من الأندلس محدداً مساقطهم وبعضهم من بلنسية وآخرون من أغصان وطليطلة وسبقة والجزيرة الخضراء وغيرها .

رابعاً : القسم الشامي ويشمل البلاد الشامية دمشق والقدر وجلب والمصرة وشبّر وحمص وحماه وحرّان والرقة ورحبة مالك ، وشمل كذلك جزيرة ريّمة وديار بكر وما يجاورها من بلاد ومنها الموصل وسنجار ونصيبين ونك وآمد وما يحيط بها من قرى وغيرها . ونضم إلى هذا القسم الحجاز وتهامة واليمن .

إن نظرة واحدة إلى هذه الأقسام بعدتها وبلادها تعطينا فكرة عن اتساع الرقعة الجغرافية التي شملتها أحاديث الخريدة ، ونستطيع بلفظة عصرنا هذا أن نقول : إن الخريدة امتدت على رقعة واسعة من البلاد الإسلامية شملت ما يسمى إيران في وقتنا هذا وطبرستان الواقعة في روسيا حالياً والسراق وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية سوى نجد وجزء من جنوبها وهو مسقط وعمان كما شملت مصر وتونس والجزائر والمغرب وعلية والأندلس العربية ، ولكن العماد لم يذكر شعراء بركة الليبية ولا ندرى لذلك سبباً ، وما ذكرناه من منطقة

واسعة تقوم عليها الآن عشرات الدول ، وسواءً إن دل على شيء فإنما يدل على الجهد الذي بذله العماد في جمعه لمادة كتابه ، والاعنية المظني والفائدة الكبرى التي أسداها للأدباء القدماء منهم والمحدثين بهذا العمل الكبير .

الفترة الزمنية التي ترصدتها :

حين رسم العماد الخطة التي سيسلكها في تأليفه لكتابه هذا وضع نصب عينيه أن يترجم لأهل عصره وعصر آباءه وأعمامه فقال : " وقد ذكرت أهل عصرى وأهل عصر آباءى وأعمامى ، فالكتاب مشتمل على العصرين السالف الماضى والحاضر الناصى ، وأكثر ما أوردته شعراً من أروى عن واحدٍ عنه إن لم أكن أدركته وسمعتُه منه (١) "

وقد حاول الباحثون والأدباء تحديد عمر الخريدة والفترة الزمنية التي ترصدتها ، فجعلها ياقوت وابن خلكان ابتداءً من بداية المائة الخامسة ، ووافقهما على ذلك حاجى خليفة صاحب كشف الظنون والدكتور أحمد بدوى والدكتور شوقي ضيف والدكتور لطفى عبد البديع وفؤاد سيد وغيرهم ، وجاء بروكلمان ، وجرجى زيدان والدكتور على جواد الطاهر فقالوا : إن الخريدة فى شعراء القرن السادس " وجاء بعد كل هؤلاء الاستاذ الأثرى وحاو أن يحدد بداية عصر الخريدة ونهايته ، ولكنه لم يدل برأى قاطع فى النهاية قال : " ولعل أقدم من ترجم لهم من شعراء القرن الخامس هو أبو الحسن البأخرزى مؤلف دمية القصر التى كلفته لتأليف الخريدة ، وقد نقل ياقوت فى معجم الأدباء عن الخريدة نفسها سنة مقتله وشى سنة ٤٦٧ هـ ، وفى هذا المجلد من قسم شعراء العراق نفر من أهل القرن الخامس كذلك ، تخفينا سهولة مراجعة الكتاب عن الإشارة إليهم كذلك سيرد فى أثناء هذا القسم باب مستقل ذكر فيه جماعة تقدم عصرهم على عصره ومنهم من توفى فى عنقوان عمره كابن العلاف وأبى الكرم بن الشميرى وأحمد بن عطية الضرير والموفق

- (١) الخريدة / القسم العراقى ٧/١ (مقدمة العماد) (٢) معجم الأدباء ١٩/١٩
- (٣) وفيات الأعيان ٢٢٥/٤ (٤) كشف الظنون ٧٠١/٣ وكذلك ٢٠٤٩/٢ أثناء
- ترجمته لليثيمة . (٥) الحياة الأدبية ص ٤٨ والحياة العقلية ص ٢٧٣
- (٦) تقديم الدكتور شوقي للقسم المصرى ج ١ ص ٧
- (٧) فهرس المخطوطات المصورة ج ٢ ص ١ (التاريخ) ص ١٢٢ (٨) المرجع نفسه ج ٢ ص ٥٥/٢
- (٩) بروكلمان ٣١٤/١ (١٠) تاريخ آداب اللغة العربية ٦٣/٣
- (١١) الشعراء العربى فى العراق وبلاد المعجم ١ ص ٢٦

النظامي وابن دمنار وابن ناقيها وعلى طاهر الخباز الكرخي وغيرهم من أهل بغداد ، كما
أورد عم السمعاني في ذيل تاريخ بغداد ، وقد عقد لهؤلاء باباً أيضاً بعد هذا الباب ^(١)

وحدد السابقون نهاية الخريدة - كما مر - بسنة ٥٧٢ سوى الدكتور شوقي ^(٢)
ضيف الذي حدد نهاية القسم المصري بسنة ٥٧٢ عد وحاجي خليفة الذي جعلها سنة ٥٩٢
وكذلك الأستاذ الأثري الذي رأى أن نهايتها وما تكون سنة ٥٧٩ هـ - كما مر أيضاً -
ولكنه ظل غير متأكد من ذلك ، وقال - مخلصاً رأيه في بداية زمن الخريدة ونهايته -
" وعلتان الترجمتان - ترجمة الباخريزي وترجمة تاج الملوك - تدلان على أن عصر الخريدة
يزيد على القرن وقد يصح أن تكونا طرفي هذا العصر ، إن لم تكن في الكتاب نصـوص
غيرهما تعين بدايته ونهايته " ^(٣)

وحين رجعنا إلى الخريدة محاولين تحديد بداية زمنها وجدنا أن العماد لم
يلتزم بما قطعه على نفسه من منهج وخاصة في القسم الشامي منه ، ففي الجزء الثاني من
هذا القسم وجدنا أن العماد قد ترجم لأسرة بنى سليمان من أهل المصرة " أهل المَعْرِي
الشاعر المشهور " فذكر جد عم الأول سليمان بن أحمد الذي كان قاضياً للمصرة سنة ٢٩٩
ثم ولده محمد ومن بعده ولده عبد الله والد أبي العلاء ، وأورد للأخيرين شعراً ثم أورد
لأخي أبي العلاء المسمى بأبي المجد محمد بن عبد الله شعراً وكذلك لأخوين له آخرين ،
ونحن - وإن عدنا هذه التراجم القصيرة مَقْدِّمةً لرجال ترجم لهم بعد ذلك من هذه
الأسرة - نجد في هذا القسم تراجم أخرى زامنت هؤلاء ، ومنهم المرصع أبو المكارم الفضل
ابن عبد القاهر الذي أطلق عليه العماد قوله : " جد أبي سلامة " وأبو سلامة هذا
عاش ما بين سنتي (٤٣٥ - ٥٠٥) ^(٥) ونحن نستشف من ذلك أن جدّه يكبره على الأقل
بأربعين أو خمسين سنة ، وترجم كذلك لشاعر آخر اسمه النباطر الذي ولد سنة ٣٨٣
وتوفي بدمشق سنة ٤٥٤ ، وترجم لشاعر ثالث هو البليغ أبو المجد أسعد بن علي أخو
^(٦)
^(٧)

(١) الخريدة - القسم العراقي - تقديم الأثري ٩٧/١

(٢) كشف الظنون ٧٠١/١ (٣) الخريدة / القسم العراقي ج ١/٩٨

(٤) القسم الشامي ج ٢ ص ٦/٢ (٥) القسم الشامي ج ٢ ص ١٠٢

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٤ (٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٥

الناظر ، وقال في معرض ترجمته : وكان من معاصري أبي العلاء بن سليمان ، وأبو العلاء عاش ما بين سنتي ٢٦٣ - ٤٤٩ هـ " وترجم العماد لشاعر آخر في القسم المصري أسمه ابن حيدرة الذي يقول الدكتور شوقي صيف : " إنه عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري " .

(٣)

وفي القسم العراقي ترجم للخليفة القائم بأمر الله الذي تولى الخلافة سنة ٤٢٢ هـ وترجم لابن الموصليا الذي تولى الكتابة سنة ٤١٢ هـ ، ولأبي طاهر الأنباري الذي توفى سنة ٤٢٦ هـ وله مائة عام برواية ابن الجوزي وثمانون عند ابن العماد الحنيلي فيميتلاده : سنة ٢٧٦ حسب الرواية الأولى و ٢٩٦ حسب الرواية الثانية .

وبعد كل ما سبق نستطيع القول بأن العماد ترجم لشعراء ولدوا في الربع الأخير من القرن الرابع ، وهذا تكون الخريدة قد ترجمت لشعراء عاشوا في نهاية القرن الرابع ، ولكنهم ظهوروا ونبشوا في أوائل القرن الخامس .

وانتهى العماد كما ذكرنا سابقاً بالخريدة إلى سنة ٥٧٣ هـ ونعني بذلك أنه أورد نتائجهم حتى هذه السنة ، وظل كثير من شعراء الخريدة أحياء يبرزون بعد هذه السنة سنوات طويلاً ، بل عاش بعضهم بعد وفاة العماد فترة تقرب من ربع قرن ، ولمل آخر من توفى من شعراء الخريدة هو الشاعر المصري النجيب عبد الله بن حسين بن الدباغ المولود سنة ٥٥٢ هـ والمتوفى سنة ٦٢٠ هـ . ومن هؤلاء الشعراء الذين ظلوا أحياء بعد وفاة العماد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ والأسعد بن مئان المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ومن الشاميين فتیان الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ هـ .

-
- (١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦ الجدول (٢) القسم المصري ٦٢/٢ والتقديم ١/١
 - (٢) الخريدة - القسم العراقي ٢٢/١ (٤) المصدر نفسه ١٢٣/١
 - (٥) المصدر نفسه - القسم العراقي ج ٤ ص ١ (٦) المنتظم ٩/٩
 - (٧) رواية ابن العماد في شذرات الذهب ٣٥٤/٢
 - (٨) الخريدة - القسم المصري ج ٢ ص ١٢٥
 - (٩) المصدر نفسه - القسم المصري ٦٤/١ وله ديوان مطبوع
 - (١٠) المصدر نفسه - القسم المصري ١٠٠/٢
 - (١١) القسم الشامي ٢٤٧/١ وله ديوان مطبوع

ومن الشعراء الذين عاشوا بعد سنة ٥٧٣ السنة التي أنهى فيها العماد خريدته ابن النحاس المتوفى سنة ٥٨٩ (١) ، وتوفي الدين عمر بن شاهنشاه المتوفى سنة ٥٨٧ (٢) وعلى ابن عرام الرضى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ (٤) ، وفخر الدين أبو شجاع الفرضى المتوفى سنة ٥٩٢ (٦) وابن جيا الكاتب المتوفى سنة ٥٧٩ هـ (٧) والرئيس أبو علي الأنباري المتوفى سنة ٦٠٤ هـ (٨) وأبو الفنائم بن المعلم المتوفى سنة ٥٩٢ هـ وغيرهم كثير ممن كان العماد ينصف في بعض الأحيان على حياته كان يقول : " وهو مقيم ببغداد يتولى بعض الأشغال للخليفة " وكان يقول : " هو الآن من مداح العادل " أو يقول : " وآخر العهد بكتابه إلى سنة ٥٧٢ " وغير ذلك .

ونرجح بعد ذلك أن عمر الخريدة امتد ما يقرب من خمسة وسبعين ومائة عام ، من أوائل القرن الخامس إلى سنة ٥٧٣ هـ ، أما عصر رجالها فامتد ما يقرب من قرنين ونصف ابتداءً من الربع الأخير من القرن الرابع إلى الربع الأول من القرن السابع .

أقسامها وأجزاؤها ومخطوطاتها وطباعتها :

(١) أقسامها وأجزاؤها :

قسم العماد خريدته - كما مر آنفاً - إلى أربعة أقسام كبرى هي :

١- القسم العراقي : وقد تحدث فيه عن شعراء العراقي في زمنه وعقد أبواباً بالدراسة لشعراء بغداد والحلة وواسط والبصرة وغيرها من المدن التابعة لها سياسياً في ذلك الوقت ، وضم إلى هذا القسم شعراء الأحساء والبحرين والقطيف وعلى أجزاء من شبه الجزيرة العربية تقع على الخليج العربي .

٢- قسم بلاد العجم وفارس وخراسان وما فيها من مدن .

(١) القسم المصري ١٢١/٢	(٢) القسم الشامي بداية قسم بلاد الشام حتى ٨٠
(٣) القسم المصري ١٦٥/٢	(٤) القسم العراقي ٣١٢/٢
(٥) القسم العراقي ج ٤ في ١٦٥	(٦) القسم العراقي ج ٤ في ٢٩٨/١
(٧) القسم العراقي ج ٤ في ٢٦٨/١	(٨) القسم العراقي ٣٤٦/٢
(٩) القسم المصري ١٦٢/٢	(١٠) القسم العراقي ج ٤ في ٥١٤/٢

- ٣- القسم الشامي وسُمِّ إليه فنسلاً عن الشام الموصل والجزيرة العربية والحجاز واليمن .
٤- قسم مصر وسقلية والأندلس والمغرب ومدن كل إقليم منها .

وقد ذكرناها سابقاً مفصلة ، وهذه الأقسام لا خلاف عليها فقد أوضحها العماد وذكر اسم كل قسم في بداية ترجمته لسعرائه ، ولكن الاختلاف البين وقع في تحديد عدد أجزائها ، ومن ثم أجزاء كل قسم من أقسامها .

فيبينا نجد أن بعض المترجمين ذكروا الخريدة دون أن يذكروا عدد أجزائها أمثال ابن الدبيش وأبي الفداء وإسماعيل وابن تفرى وبروي نجد جماعة أخرى لم تستطع الجزم بعددها ، كياقوت الذي يقول : " يدخل في عشر مجلدات لطيفة " وحاجي خليفة الذي يقول : " وغرف في نحو عشر مجلدات " مرة ثم بعدد ويجزم مرة ثانية فيقول " في عشر مجلدات " وجزم النعمي وابن خلكان وحدداها بعشر مجلدات ، أما الصفدي فقد ذكرها ، ولكنه لم يحدد عدد أجزائها وإنما أورد قصة بعيدة عن الصواب وصاغها بأسلوب غير علمي فقال : " ويقال إنه لما فرغ منها جهزنا إلى القاضي الفاضل في ثمانية أجزاء ، فلما وقف عليها لم تعجبه ، وقال : أين الآخرا ؟ لأنه سماها : خرى ده : يعني خرى عشرة لأن " ده " معناها بالفارسية عشرة ومن هنا أخذ ابن سناء الملك قوله فيه :

خريدة أفيدة من نتهها كأنها من بعض أنفاسه
فنصفها الأول في ذنقه ونصفها الآخر في رأسه (٧)

والقصة على خطئها وبعدها عن الحقيقة فيها اتهام للقاضي الفاضل بسوء الخلق وفاحش القول ، مع أنه كان رجلاً كريماً ذا خلق ، وكانت علاقته بالعماد تعلو فوق مثل هذه العبارات المتسفلة ، ولقد كان يشجعه ويحثه على استكمال كتبه - كما مر سابقاً - وكان بينهما مراسلات كثيرة ذكر الصفدي نفسه أنه رأى جزءاً منها . وواضح أن هذه قصة مخترعة

- (١) هذه الأقسام مشهورة وكان العماد يشير إلى عنوان كل قسم في بدايته كما هو واضح في ص ٨ من الجزء الأول السعرائي والورقة الثانية من الجزء الرابع لقسم بلاد المعجم .
(٢) معجم الأدباء ١٩/١٩ (٣) كشف الظنون ٢٠١/١
(٤) المرجع نفسه ٢٠٤٩/٢ (٥) اندارس ٤٠٩/١
(٦) وفيات الاعيان ٢٢٥/٤ تحقيق محيي الدين عبد الحميد
(٧) الوافي بالوفيات ١٤٠/١

من مجموعة القصص التي حاول السفدي بها أن يتهم العماد بسوء الخلق أحياناً ويضعف التأييد أحياناً أخرى - وكنا قد أشرنا إلى ذلك محللين في حديثنا عن أخلاق العماد ، وإن كنا نأسف لأن بعض المؤرخين القداماء والباحثين المحدثين قد نقلوا القصة دون التفكير فيما إذا كانت صحيحة أو مختلفة .

وربما أفادتنا هذه القصة أن الخريدة كانت في ثمانية أجزاء وعو رأى جديد

وقد وجدنا في قسم شعراء المغرب أن هذا الكتاب كان في اثني عشر جزءاً^(٣) ، ففي آخر صفحة ١٤٧ من الجزء الثاني أورد المحققون عبارة وجدنا في مخطوطة باريس تقول : " ثم الجزء الحادي عشر من كتاب الخريدة ، خريدة القصر وجريدة العصور ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد وآله وصحبه وسلامه عليهم آمين " يتلوه الجزء الثاني عشر شعر ابن خفاجة الأندلسي وعو آخر الكتاب " وهذه العبارة تفيد أن الخريدة كانت اثني عشر جزءاً .

وسواء كانت الخريدة في عشر مجلدات أم اثني عشر مجلداً ، فالراجع أن العماد لم يجعلها في أجزاء ، وأن هذه التجزئة جاءت بعد ذلك من قبل النساخ ، فقسّمها بعضهم إلى ثمانية - إن صح رأى السفدي - وجعلها بعضهم في عشرة ، وجعلها آخرون في اثني عشر ، ومن هنا نجد الاختلاف الواضح في عدد ورقات كل جزء وبدايته ونهايته كما سنبين في ذكرنا لمخطوطاتها .

ويبدو لنا أنّ معظم الناسخين قد جعلوها في عشر مجلدات ، إلا أن المتأخرين منهم قد جعلوها في اثني عشر مجلداً ، وخصصوا لكل قسم منها ثلاثة أجزاء الأول والثاني والثالث للسراق ، والرابع والخامس ومعظم السادس لبلاد المعجم وبقية السادس والسابع والثامن والتاسع للشام ، والعاشر والحادي عشر والثاني عشر لمصر والمغرب والأندلس وصقلية ، وليس مما يزيدنا اطمئناناً إلى ذلك أن مخطوطة التفى المملوكي وهي الجزء السادس من الخريدة حسب تقسيم ناسخها تشتت على قسم من شعراء المعجم وقسم آخر من شعراء الشام .

(١) شذرات الذئب لابن العماد ٢٢٢/٤ (٢) الادب في عصر صلاح الدين ص ٢٥٢

(٣) الخريدة - قسم شعراء المغرب ١٤٧/٢ (٤) المصدر السابق ١٤٧/٢

(٥) بداية قسم شعراء الشام ص ٢١ - ٢٧

(٢) مخطوطاتها :

للخريدة مخطوطات عديدة ومعظمها خارج الوطن العربي ، فهي في تركيا
وفرنسة وبريطانية ورومة والهند وطهران وغيرها من البلاد الأجنبية ، ولعل ذلك يسدل
على أن تراث أمتنا الإسلامية سرق ونهب أثناء فترة الجهل القاتل التي كانت تعم وطننا
الإسلامي عامة والعرب خاصة ، فجاء لصوم الغرب القدام بصلبييتهم والمحدثون باستعمارهم
ونهبوا ونقلوا ما استطاعوا نهبه ونقله حتى يقطعوا حاضرتنا عن ما لدينا فنظل في جهل
مطبق ، وتأخر كبير .

وقد حاولنا جاهدين حصر هذه المخطوطات ، فوجدنا أنها ثمان عشرة
مخطوطة وجميعها غير كاملة ، وكثير منها أجزاء صغيرة من الخريدة ، ولا ندعي أننا
حصرناها جميعاً ، وربما وجدت مخطوطات أخرى في مكتبات أخرى من العالم ، لأن هناك
ذخائر إسلامية كثيرة دئنة تنتظر من يكشف عنها ويظهرها إلى النور ، وسوف نتحدث عن
كل مخطوطة وأماكن وجودها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً :-

(١) نسخة المكتبة الوطنية بباريس :- وتعد من أتم النسخ وأكملها على الرغم من
نقصها والخلل الظاهر فيها ، وتشتمل على عدة أجزاء من الأقسام العراقية والشامية
والمصرية والمغربية والصقلية والأندلسية ، ويبدو أنها لا تشتمل على قسم بلاد العجم
لأن المحققين والباحثين عن المخطوطات لم يذكروها .

وقد وصف الأستاذ بهجة الأثرى قسم شعراء العراقي منها بأنه مختصر من الأصل
وليس هو الأصل ، ولم يذكر الأستاذ المحقق عدد أوراقه ولا سنة كتابته ولا ناسخه .

ووصف الدكتور شكري فيصل محقق القسم الشامي الجزء الخامس بالشام بأنه
أكمل الأصول التي حصل عليها وذكر أنه يبدأ بابن منير الطرابلسي ، وينتهي بالفقيه
أبي بكر المحيرفي من شعراء اليمن وفي آخره قال : " وهذا آخر ما وقع إلي من شعراء
اليمن إلى آخر سنة اثنتين وسبعين والحمد لله رب العالمين وعدد أوراق هذا
الجزء تسع وثمانون ومائتا ورقة في كل صفحة ثلاثة وعشرون سطراً ، وأغلبه مكتوب بخط نسخي

حسن إلا العنوانات ، فإنها مكتوبة بخط الثلث والإعجام يكاد يكون تاماً ، غير أن الشكل
(١)
نادر .

وقد وصف الدكتور شكوى الطريقة الكتابية التي اتبعتها الناسخ في تقديمه للقسم
الشامى ، وأعم ما جاء في وصفه أن الناسخ كان لا يثبت الهمزة على الأحرف في الأسماء
والأفعال وأنه كان يلجأ إلى تسهيل الهمزة في أغلب الأحيان فيحولها إلى ياء ، وغالباً
ما كان يثبت للألف المقصورة نقطتين ، كما يهمل فقط بعض الأحرف وخاصة التاء المربوطة
في نهاية الكلمة ، وكثيراً ما كان يبادل بين الشاد والظاء إلى غير ذلك من أخطاء
املائية .

(٣)
ومن غذا الجزء مصورة في المجمع الصلى العربى يحمل رقمى " ١٠٣ ، ١٠٤ "

وقد وصف الدكتور شوقى نجيف محقق القسم المصرى الجزء الخاص بمصر والمصور
عن نسخة باريس هذه ، وذكر أنها تبدأ ببغية ترجمة القاضى الجليس بن الحباب وتستمر
حتى نهاية القسم المصرى ، وقد كتب الناسخ في نهايتها " تم التأليف الحاوى لشعراء
مصر وأدباء مصر بمنّ الله تعالى بتاريخ العشرين من رجب سنة اثنتين وأربعين وستائة
والحمد لله ، وصلى الله على محمد وآله وأصحابه " .

كذلك ذكر الدكتور شوقى أن هذا القسم كتب بخط نسخ حسن ، كما كتبت
عنواناته بخط الثلث وإعجابه تام وشكله كامل ودقيق ، وبلغ عدد أوراقه مائتى ورقة وورقصة ،
واشتمل على تراجم شعراء عسقلان وهم يشغلون أربع عشرة ورقة ، فيكون عدد أوراق القسم
المصرى سبعمائة وثمانين ورقة وعدد سطور الصفحة في الأكثر سبعة عشر سطراً ، وطولها
واحد وعشرون سنتيمتراً وعرضها ثلاثة عشر سنتيمتراً .

وفي دار الكتب المصرية عدة مجلدات منها ، ورقصها هناك (٤٢٥٥ أدب) ،
وفي معهد المخطوطات برقم (٢٣٨ أدب) ، وفي المكتبة الوطنية بباريس برقم (٣٣٢٦ أدب)
وقد تحدث عنها الدكتور لطفى عبد البديع فقال :

(١) الخريدة - القسم الشامى ١/١٥٨ - (٢) الخريدة - القسم الشامى ١ عن ٩
(٢) المصدر السابق ١/١٠ وندوه لهجة عربية شائعة حتى الآن في بعض بلاد المغرب .
(٤) القسم المصرى ج ١ عن ١ (٥) الخريدة القسم المصرى ج ١ عن ١

المجلد الأول ويحتوى على محاسن شعراء العراق ببغداد وواسط والبصرة
وينتهي أثناء ترجمته للحريرى صاحب المقامات .

والمجلد الثانى ويحتوى على محاسن شعراء مصر وفلسطين ويبتدى قبيل الكلام
عن أبى الحسن العسكري المصرى ، وينتهى إلى ابن قايد المسقلانى .

ثم مجلدان متتابعان هما الثالث والرابع ، ويحتويان على تراجم شعراء الشام
وفلسطين والموصل والحجاز واليمن .
(١)

وذكر فؤاد السيد أن فى معهد المخطوطات العربية جزأين آخرين عمدا
الخامس والسادس ، ويحتويان على محاسن شعراء سغدية والمغرب ، وبغدادان المجلدان
عليهما تعريفان كتب سنة ١٢٢٢ و سنة ١٢١٢ م بقلم جوزيف أسكارى الفرنسى .

ولعلنا نلاحظ هنا اختلاف محتويات كل مجلد ، وأنها غير مرتبة وناقصة ،
فالقسم العراقى غير كامل ، وقسم بلاد العجم غير موجود ، وترجمة الطغرائى الفارسى
جاءت فى القسم الأندلسى ، والقسم المصرى يسبق القسم الشامى وهو يخالف ترتيب
العماد لهذه الأقسام .

-
- (١) فهرس المخطوطات المسورة د . لطفى عبد البديع ج ٢ ص ١ من ١٢٤
(٢) القسم المغربى ج ١ ص ١٤٤
(٣) فهرس المخطوطات المسورة د . فؤاد السيد ج ٢ ص ٢ من ٥٥
(٤) الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم د . على جواد الطاهر ١/٢٤١

ويبدو لنا من الأرقام التي ذكرها الباحثون أنها تحمل الأرقام الآتية في المكتبة
الوطنية في باريس هي (١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) .
• (٢٢٢٦) ، (١١٢٢) ، (١١٢٩) ، (٢٢٢١) ، (٢٢٢٢) ، (٢٢٢٣) .

(٢) نسخة ثانية في المكتبة الوطنية بباريس: ذكرنا الأستاذ آذرتاش آذرنوش في
تحقيقه للجزء الثاني من القسم المفري ، ولم يصفها ولكنه هو وزميله اعتمدوا على نسختي
باريس الأولى والثانية في تحقيق الجزء الثاني من القسم المفري .
(٧)

(٣) نسخة نور عثمانية :

ويبدو أنها غير كاملة ، فالموجود منها في معهد المخطوطات خمسة أجزاء
على : الثاني والثالث والرابع والخامس والتاسع ورقمها في المعهد (٢٣٨) .
(٨)

ويختص الجزء الثاني بشعراء العراق ويبتدئ بترجمة أبي المحاسن بن
البوشنجي وينتهي أثناء ترجمة أبي الفضل أحمد بن محمد الخازن الكاتب وذلك أثناء حرف
السين من شعره ، وهي نسخة كتبت في القرن التاسع بخط مشكول صغير ، ورقمها في
نور عثمانية (١ / ٢٧٧٤) ضمن مجموعة (٥٧ / ١) وغرف في (٥٧) ورقة مقياسها :
(١٧ × ٢٦ سم) ، وحين قمنا بتصوير هذا الجزء وجدنا أوراقاً كثيرة قد طمسها الحبر
فلا يظهر منها شيء ، وبعضها طمس جزء منه فاختفى الكثير من كلماتها .
(٩)

(١) في فهرس مكتبة المخطوطات الوطنية في باريس كتب ما يأتي :
Haridat al-qasy wagaridat al-ars / M. BM Imado, al-Din
al Katib al-Istahani / 303, Pol 247 Vo; 3326 a 3332
I2, 385 (4) ; 548 - (Adab an-natri)

(٢) ذكره الدكتور لطفي ج ٢ ن ١ ن ١٢٤ والدكتور علي جواد الطاهر (١٢ / ١)

والأثرى في تقديم النسم العراقي (١ / ١٠٦) .

(٣) ذكره الدكتور علي جواد الطاهر (١٢ / ١) (٤) في المرجع نفسه (١٢ / ١)

(٥) المرجع السابق (١٢ / ١) وذكره بروتويغ درنبرغ في تحقيقه لكتاب النكت العصرية فسمى

أخبار الوزراء البصرية (١ / ٢٩٥) (٧) تقديم الجزء الثاني المفري عن ١٠

(٨) فهرس المخطوطات المسورة (ج ٢ و ١) تاريخ ص ١٢٢

(٩) ذكر الدكتور لطفي عبد البديع أن الجزء الثاني في شعر العجم وليس صحيحاً لحسين

صورناه وجدنا أنه في شعراء السراق .

ويعدُّ الجزء الثالث بحرف الشين من شعر ابن الخازن الكاتب وينتهي بترجمة الحسين بن ثابت بن الحسين العبدى من عبد القيس وهو نهاية القسم العراقى ، وقد كتب بخط نسخ نفيس ، ويختلف عن سابقه بوضوح الكلمات وعدم طمس الحبر لأوراقه . وهذا الجزء ناقس من وسطه معظم ترجمة القاضى المدن بن الباسيسى والحريرى وولديه أبى القاسم وأبى العباس والصدر فخر الدين والقاضى نور الدين الرازى والأديب أبى الحسن العبدى البصرى ووالدته الفقيهة الرشيدة بنت أبى الفضل والأديب أبى على بن الأحمر ويحيى بن سعيد ومعظم ترجمة حسام الدولة إذ لم يستطع الأستاذ الأثرى اكمان تحقيق الخريدة وأعلن فى تقديمه للجزء الرابع من العراقى وهى نهايته أن هناك جزءاً مفقوداً لم يستطع العثور عليه ، وحين قمنا بتصوير هذا الجزء فوجدنا بأن هذا الجزء المفقود موجود ، وقد كتب فى نهايته :

(٣)
” تم الجزء الثالث وآخر القسم الأول من كتاب خريدة الفسر وجريدة العسر والحمد لله حمده وعلواته على نبيه خير خلقه سيدنا محمد وآله وجميع أصحابه وسلامه ، يتلوه فى الجزء الرابع وهو القسم الثانى ذكر فنلاً المعجم والفرسان شاء الله . “

وهذا الجزء فى (١٧٩) ورقة فى كل صفحة واحد وعشرون سطراً قياسها :
(٢٧ × ١٨ سم) ، ورقمه فى نور عثمانية (٤٢٧٦) ، وفى معهد المخطوطات (٢٤٨) ،

(١) فى النسخة المطبوعة يبدأ النقص من ٥٨٦ - ٧٠٢ من الجزء الرابع العراقى والنقص يعود اما لجهد الناسخ أو لأن الصورة الأصلية عن نور عثمانية حدث فيها خطأ أثناء التصوير ، أما الصفحات فى الصورة متتابعة لا يبدو فيها نقص .

(٢) قال المحقق : جهل مقدار الساقط ولا أدرى أهو صفحة أم صفحات ج ٤ ق ١ / ك وكذلك فى الصفحة الأخيرة من هذا الجزء . وقد وجدنا أن الساقط ثلاث عشرة صفحة ورثة

(٣) أخطأ الناسخ فكتب يتيمة الدهر بدلاً من خريدة الفسر ، ثم حاول أحد علم طمسها وتصحيحها فلم يستطع فكتب تحتها بخط صغير جداً : خريدة الفسر .

(٤) القسم العراقى المخطوط ج ٢ الورقة ١٧٦ .

أما الجزء الرابع فيبتدئ بالقسم الثاني وغرفى ذكر محاسن فضلاء المعجم والفرس وأوله ترجمة الصدر الشهيد عزيز الدين أحمد بن حامد وآخره ترجمة لأبى إسماعيل الخَطَّاط ، وقد كتب بخط نسخ نفيس صغير مشكول ، يشبه تماماً خط الجزء الثاني السابق وبه أوران كثيرة طمسها الحبر فاختلفت مسالمها تماماً أو جزء منها ، وعلى الرغم من وضوح الخط نجد أن صفوه البالغ يتعب النظر ويسبب بعض الكلمات ، بسبب التصوير المتكرر ، وقد قمنا بتصويره وغرفى (٥٣) ورقة فى كل صفحة سبعة وعشرون سطراً قياسها (١٧,٥ x ٢٦,٥ سنتيمتراً) .

والجزء الخامس يبتدئ بأجل فارس وأوله ترجمة القاضي أبى بكر الأرجاني وآخره أثناء ترجمة الأبيوردي من خراسان فى حرف الظاء من شعره ورقمه فى نور عثمانية (١٢ / ٢٧٧٤) فى اثنتين وستين ورقة وفى كل صفحة سبعة وعشرون سطراً ، قياسها ١٧,٥ x ٢٦,٥ سنتيمتراً . وقد قمنا بتصوير هذا الجزء أيضاً .

والجزء التاسع وهو جزء من القسمين الشامى والمصرى ، ويبتدئ بترجمة الأديب أبى الفصل يحيى بن سلامة الحصكى الخطيب بيئياً فارقين ، وينتهى بترجمة الصالح طلائع بن رُزَيْبِك ، ورقمه فى نور عثمانية (٤ / ٢٧٧٤) وغرفى تسع وخمسين ورقة ، وفى كل صفحة سبعة وعشرون سطراً قياسها ١٧,٥ x ٢٦,٥ سم ، وقد استفاد الدكتور شوقى سيف من هذا الجزء فأخذ منه خمساً وعشرين ورقة تبتدئ بأول القسم المصرى وتنتهى - كما مر - بالصالح طلائع ابن رُزَيْبِك ، ووصفها بأنها لا خرم فيها ولا نقص ولا خلل ، وعدد سطور كل صفحة سبعة وعشرون سطراً وقياسها ١٧,٥ x ٢٦,٥ سنتيمتراً . وقد كتبت فى القسرون التاسع الهجرى بخط نسخ نفيس صغير .

واستفاد كذلك منه الدكتور شكرى فيصل فى تحقيقه لقسم الشام ، ووصفها بالأوصاف السابقة ، وذكر أن منه صورة فى خزانة المجمع العلمى المصرى برقم (١١٤) .

(٤) نسخة الفاتية كان : ومنها صورة فى معهد المخطوطات العربية ، وقياسه النسخة تشتمل على شعراء القسم الثالث السرافى ، وذكر فيها فضائل جماعة من أعيان سواد

(١) القسم المصرى - التقديم ج ١ ص ط

(٢) القسم الشامى - التقديم ج ١ / ١٢

بفداد وأعمالها وشرفيها وغريبها ، وتبتدئ بترجمة السديد أبي نصر الفروخي وتنتهي
بترجمة الفضل بن أحمد سليمان ، وعلى في ١١٧ ورقة ، ورقمها في الفاتيكان (٩٩٠)
وفي المعهد (١٠٢٦) وعلى بداية الجزء الرابع والمطبوع بقسميه من القسم السراقي
وتنتهي كذلك بنهايته وعلو ناقص كما أشرنا سابقاً ، ونور عثمانية أتم وأكمل ، وقد وصفها
الأستاذ الأثرى بأنها جيدة في الجملة ، وأشار بروكلمان كذلك إليها في تاريخه .

(٥) مخطوطة المتحف البريطاني :

وقد وصفها الأستاذ الأثرى بأنها أصح من نسختي طهران وباريس ، وأنها
أقل خطأ وتصحيحاً ، ولكنها منيت بأسفاظ كبيرة في مواضع عدة ، ووصف فيها صفحات
كبيرة في غير مواضعها ، واتخذها الأستاذ أصلاً للنسخ ، ويبدو لنا أنها ناقصة وأنها
لا تشمل سوى جزء أو جزئين من القسم العراقي .

(٦) مخطوطة المكتبة الأحمدية بجامعة الزيتونة في تونس :

وتبتدئ بورقة قبل ترجمة سبعة الله بن الرشيد جعفر المعروف بابن سناء الملك
محمد وينتهي بقوله :

مِنْ وَاجِهِ الشَّمْسِ لَمْ يَحْدِلْ بِهَا قَبْرًا يَمْشُو إِلَى ضَوْئِهِ لَوْ كَانَ ذَا رَمْدٍ

في أثناء ترجمة الحاج أبي عامر بن أبي عيшон .

وقد كتبت بخط مغربي واضح ورقمها في المكتبة (٤٦٢٣) لكن تاريخ نسخها
غير معروف لنقص في أولها وآخرها وقياسها ١١٦ × ١١ سنتيمتراً ، ومعدل سطورها في
الصفحة ٢٣ سطراً ، وعدد أوراقها تسع ومائتا ورقة .

وقد وصفها محقق القسم المغربي بأنها تمتاز بصحة العبارة ، وقلة التحريف ،
ولذا اعتمد عليها في إصلاح كثير من النصوص ، وذكر أن من عيوبها اختصار الناسخ لكثير

(١) فهرس المخطوطات المصورة (ج ٢ في ٢) تاريخ / فؤاد السيد ص ١٤١

(٢) القسم السراقي من الخريدة ج ٤ في ١ ص ك

(٣) بروكلمان ٥٤٩/١

(٤) القسم السراقي من الخريدة ج ١ ص ١٠٧ (التقديم)

(٥) فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية بتونس / خزانة جامع الزيتونة ص ٤٢

(١) من المختارات بحيث يصل أحياناً إلى صفحات عديدة ، كما أنّ فيها عمالاً لبعض التراجم .
وقد لاحظنا أنها تبتدئ بجزء من ترجمة ابن سناء الملك وعلى الترجمة الثانية
من القسم المصري وتنتهي بابن عيشون - الترجمة رقم ١٤٢ من القسم المصري - .

(٧) مخطوطة حسين جلبي في مدينة بروسة في تركيا :

ومنها مصورة في معهد المخطوطات العربية ، وعلى تبتدئ بالأديب الفسزي
أبي إسحاق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي وتنتهي بابن رواحة الحموي أبي علي
الحسين بن عبد الله بن رواحة ، وذكر الدكتور شكرى فيصل أنّ عدد أوراقها (١٩٣)
وخالفه الدكتور لطفى عبد البديع فذكر أنّ أوراقها (٢٢٠) ورقة من القياس الكبير ،
وعلى مكتوبة بخط فارسي حسن ، ورقمها في مكتبة حسين جلبي (٢٥ أدبيات) وفي
المعهد (ف ٨٦٧) ، وفي المجمع العلمي المصري بدمشق (١٥٠) ، وذكر الدكتور
شكرى فيصل أن الناسخ كان يخفف الهمزة وكان يهمل بعض النقط ، ويحذف الألف
المتوسطة مع إثبات ألف الفصل الممتل بعد الواو ، ولا يفرق في رسم الألف ألفاً مسدودة
كانت أم مقصورة .

(٦) وقد ذكرها بروكلمان في تاريخه كذلك .

(٨) مخطوطتا ليدن في بريطانيا :

(٧) وقد ذكرهما بروكلمان في تاريخه واستفاد الدكتور على جواد الطاهر منهما في
تراجمة لشعراء العصر السلجوقي ، وذكر أنّ رقم الأولى في ليدن ٣٨٤ ، أما النسخة
الثانية فغير تامة ورقمها ٢١٢ ، واستفاد من كليتهما في ترجمته للأبيوردى الشاعر

- (١) الخريدة - القسم المصري ج ١ ص ٥٥ ك (التقديم)
(٢) فهرس المخطوطات العربية ، د . لطفى عبد البديع ج ٢ في تاريخ ص ١٣٨
(٣) الخريدة - القسم الثاني ج ١ ص ٨ ، ١١ ، التقديم
(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٦١ (٥) المصدر السابق ج ١/١٢٦
(٦) بروكلمان ٥٤٩/١ (٧) بروكلمان ج ١/٥٤٩ -
(٨) الشعر العربي في العراق وبلاد العجم - د . على جواد الطاهر (١/٧٤٤، ١/١٠٦،
(١٣/١)
(٩) المرجع السابق ١٠٦/١ - ١٠٧

والنظري والطرفائي وغيرهم • ويبدو أن المخطوطتين تختصان بشعراء المعجم وفارس
وخزاسان لأن أحداً غيره لم يستفد منهما في تحقيقه لبقيّة أقسام الخريدة •

(٩) مخطوطة طهران (سببها لار)

وقد أشار إليها الأستاذ الأثري في تحقيقه للقسم العراقي ووصفها بأنها تخلو
من التصحيف والخطأ ، ولذا استفاد منها أكبر استفادة ، وذكرها كذلك الدكتور عيسى
جواد الطاهر واستفاد منها في دراسته لشعراء كتابه ، ولم يشر الباحثان إلى رقمها •

(١٠) مخطوطة ميونخ :

ذكرها الدكتور على جواد الطاهر في تعداد له للبلاد التي تضم مكتباتها أجزاء
من الخريدة ولم يصفها ، أو يذكر عنها شيئاً •

(١١) مخطوطة أكسفورد :

وذكر الدكتور على جواد الطاهر أن رقمها في أكسفورد (١٢٥٩) وأنها
تبتدئ من بداية الجزء الثاني ، وربما عني بذلك القسم العراقي ، ولم يذكر شيئاً آخر •

(١٢) مخطوطة مكتبة الجمعية الآسيوية بـكلكتا :

ومنها مصورة في معهد المخطوطات السريية ، ورقمها في مكتبة الجمعية
الآسيوية (٣٥١ - ف ٣١٤٤) ، وقد وصفها فؤاد السيد بأنها أوراق غير مرتبة بها
شعراء من حلب واليمن والحجاز والشام وأول ما فيها ترجمة حماد الخراط ، وأنها بخط
الناسخ إبراهيم الحلبي كتبها سنة ١٠٠٣ هجرية ، ويحتمل أنها أوراق بخط المؤلف ،
وعلى مسودته ، ولكن في أثنائها أوراقاً أخرى بخطوط مختلفة وعنى في ٧٠٤ ورقة ، وقياسها
١٣ × ٩ سنتيمتراً ، ورقمها في المعهد ١٠٢٦ ، وقد استفاد منها الدكتور شكري فيصل

(١) الخريدة - القسم العراقي - تقديم الأثر ج ١٠٧/١

(٢) الشعر السري في العراق وبلاد المعجم ١٣/١

(٣) الشعر السري في العراق وبلاد المعجم ج ٢٦/١

(٤) المرجع السابق ١٢/١ و ١٠٦/١ - ١٠٧

(٥) فهرس المخطوطات السريية ج ٢ ن ٣ ص ١٤٢ فؤاد السيد •

(١)

في تحقيقه للقسم الشامي من الخريدة .

١٣ (مخطوطة ندوة العلماء بلنكو بالهند :

ومنها مصورة في معهد المخطوطات وقد وصفها فؤاد السيد بأنها نسخة من القسم الأندلسي تبدأ بأبيات للقاضي أبي القاسم ابن أبي ربيعهم . وتنتهي بشعر لابن المصبيبي الأندلسي ، وهو آخر النسخة المطبوعة وكتب هذا الجزء سنة ١٢٩١ هجرية في ثمانين ورقة . قياسها (٢٥ × ١٥) سنتيمترا ورقمها في المعهد (١٠٣٦) وفي ندوة العلماء (٣٤٥ - ٣٠٦٨) .

١٤ (مخطوطة المكتبة الناصرية بلنكو :

ومنها مصورة في معهد المخطوطات العربية ، وهي كسابقتها ، ويمتد فؤاد السيد أنها منسوخة عنها على الأرجح وهي في ٧٥ ورقة ، ورقمها في المكتبة الناصرية (١٦٥ رجال - ٣٠٧٨) .

١٥ (مخطوطة المكتبة الآصفية بحيدرآباد :

وهي كسابقتيها من القسم الأندلسي ولعلها كما يمتد فؤاد السيد أصل المخطوطتين السابقتين ، وقد كتبت سنة ١١٦٠ م بخط السيد محمد بن عبد الجليل في أربعين ورقة قياسها (١٨ × ١٠) ، ورقمها في الآصفية (٤٧٩ إنشاء - ٣١٧٤) .

١٦ (مخطوطة القرويين في المغرب :

وقد وجدها الدكتور شكرى فيصل محقق القسم الشامي أثناء تدرسه هناك في جامعة فاس ، فقد كان يمتد أن هناك جزءاً ناقصاً من بداية القسم الشامي ، ولم يستطع معرفة مكانه إلى أن قادته رجلاه يوماً إلى مكتبة القرويين ، فاطلع هناك على مخطوطة

(١) الخريدة - القسم الشامي (التقديم) ١٢/١

(٢) فهرس المخطوطات العربية ج ٢ في ٢ ص ١٤١ فؤاد السيد

(٣) المرجع السابق ج ٢ في ١٤٢/٣

(٤) المرجع السابق ج ٢ في ١٤٢/٣

للخريدة عرف بعد أن درسها أنها تضم الجزء المفقود من القسم الشامي وجزءاً من القسم المطبوع ، وعلى تبدأ بشعراء دمشق ثم تضي لتتحدث عن شعراء الساحل ، وتنقطع فسي تمام ترجمة ابن رواحة الحموي . ورقمها في مكتبة القرويين (٥٧٦) وقياسها ١٩٥ x ٢٩٥ ر٥ سنتيمترًا ، والمقدار المكتوب منه ١١٥ x ١٩٥ ر٥ وعدد الأسطر في كل صفحة واحد وعشرون سطرًا ، وعدد صفحاتها ٣١٧ صفحة .

وقد وصفها الدكتور شكري فيصل بأنها قديمة أكلت الأوكمة كثيراً من أطرافها وبعضاً من أوساطها ، وأبلى الزمن جوانبها .

(١٧) مخطوطة محمد التقى العلوي :

وقد وجدها الدكتور شكري فيصل في مكتبة الأستاذ محمد التقى العلوي مدرس التاريخ في كلية القرويين ، وعلى تحتوي على بقية القسم الثاني " قسم بلاد المعجم " وبداية القسم الثالث " قسم بلاد الشام " فهي تبدأ بشعر الأبيوردى بقافية العيين منه ثم تضي في ذكر من بعده من شعراء قسم المعجم ، فتتعد منهم نحواً من ثمانين شاعراً ، وعلى في ١٢٢ ورقة ، ويبدأ بعد ذلك القسم الثالث " القسم الشامي " وينتهي بترجمة ابن الخياط الشاعر ، وهو آخر الجزء الرابع - من قسم بلاد الشام - الذي سماه الدكتور شكري فيصل بداية قسم شعراء الشام .

وقد كُتِبَ لهذا الجزء سنة ٦٤٢ هجرية كما تشير آخر صفحة منه ، وخطها مشرقى

جميـل .

ووصفها الدكتور وصفاً دقيقاً ولا نرى ضرورة لذكر تلك التفاصيل في الشكل والأخطاء الإملائية وإعمال النقط وغير ذلك .

(٢) طبيعتها :

تختلف الخريدة عن غيرها من الموسوعات الأدبية في اتساعها وشمولها ، وكثرة

- (١) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام - لهذا الجزء وصف واسع من ١٣-١٩ من التقديهم .
- (٢) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام ، وله وصف واسع كذلك من ٢٠ - ٣٤ ، ولم نسجل الوصف كله لأنه خان عن مجال بحثنا وعندنا فقط الإشارة الى المخطوط ومكان وجوده وعدد أوراقه وبعض الصفات المهمة .

الشعراء الذين ترجم لهم فيها ، فجاءت كبيرة متشعبة ، ولذا اختلفت عن شبيهاتها كاليتيمة والدمية والذخيرة وغيرنا في أن محققاً واحداً أو مجموعة من المحققين لم يستطيعوا التصدي لها وإبرازها إلى الدنيا الجديدة في ثوب قشيب وطباعة جيدة . فبينما نجد اليتيمة والدمية والذخيرة تصدى لكل منها محقق واحد أو جماعة واحدة لم يستطع المحققون أن يخرجوا الخريدة جملة ، فظهر رأى يدعو إلى تقسيم العمل ، فيقوم أديب أو أكثـر بتحقيق كل قسم من أقسام الخريدة أو كل جزء من أجزائها .

ويبدو أن هذا التفكير ظهر أول ما ظهر في المجمع العلمي العراقي ، ويعترف الأستاذ الأثري أن رأى المجمع كان بادئ ذي بدء أن يقتصر العمل على إحياء القسم العراقي ، فسرى الرأى بين الأدباء ، فتصدى الدكتور شوقي ضيف وزميله للقسم المصري وتصدى الدكتور شكرى فيصل للقسم الشامي ، وتأخر ظهور القسم المغربي ، ولم يظهر حتى الآن قسم بلاد المعجم .

(١) القسم المصري :

أول الأقسام التي ظهرت إلى حيز الوجود بعد اختفاء دام عدة قرون ، وقد أخرجه محققوه في جزأين ، وقد تصدى لتحقيقه الدكتور شوقي ضيف وساعده في عمله الدكتور إحسان عباس ، وأشرف على مراجعته الدكتور أحمد أمين وكلهم من كبار الباحثين وأساتذة الأدب .

وقد ظهر الجزء الأول عام ١٩٥١ وطبع في مطبعة التأليف والترجمة والنشر في ٢٩٢ صفحة وقدّم له الدكتور أحمد أمين في صفحاتين ، أبدى فيها إعجابه بالخريدة وصاحبها لاستقصائه في الحديث عن شعراء مصر ، وعرضه نماذج من شعرهم ، وإن كان لم يرس تماماً عنها من حيث التعريف بالشعراء ، وتحليل فنهم والترازم السجع .

(٣)
وقدم الدكتور شوقي لهذا الجزء بمقدمة من خمس عشرة صفحة تحدث فيها عن

-
- (١) الخريدة - القسم العراقي التقديم ج ١ ص ٨ وقد رأى الدكتور أحمد أمين كما أعلن في تحقيقه للقسم المصري أنه رأى ثمانى ملازم من القسم العراقي .
(٢) الخريدة - القسم المصري ج ١ ص ٤ د (التقديم)
(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٤ د

خطوات العمل في تحقيق القيم المصرية ، وترجم للعماد الأصفهاني ترجمة قصيرة وتحدث عن أسلوبه ، ومصادره في هذا القسم ، وأنهى التقديم ببيان قيمة القسم المصري — الخريدة .

وقد ترجم العماد في هذا الجزء ثلاثة وثلاثين شاعراً .

وظهر الجزء الثاني سنة ١٩٥٢ في ٢٣٥ صفحة ، وأتبعه المحققون بفهارس للأعلام والأسم والقبائل والأماكن والقوافي الشعرية .

وترجم العماد في هذا الجزء ثمانية ومائة من الشعراء ، فيكون عدد شعراء مصر واحداً وأربعين ومائة شاعرٍ .

(٢) القسم العراقي :

وعرف في أربعة أجزاء كبيرة ، وقد ظهر الجزء الأول سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ضمن مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بتحقيق الأستاذين محمد بهجة الأثرى نائب رئيس المجمع العلمي العراقي ، والدكتور جميل سميد الأستاذ بكلية الآداب والعلوم بجامعة بغداد ، ومتن الكتاب في ٣٦٦ صفحة — وقد قدم الأثرى له بمقدمة طويلة ترجم فيها العماد وشيوخه ، وحلل فيها بعض صفاته وأخلاقه وثقافته وكتبه ، وتحدث كذلك عن عمله وعوزميلة في تحقيق الخريدة وأصولها ، ثم أتبعها بفهارس للأعلام والأماكن والشعر وغير ذلك .

أما الجزء الثاني فقد ظهر في عام ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م بتحقيق محمد بهجة الأثرى منفرداً ، ويقع متن الكتاب في ٣٥٧ صفحة ، وقد أتبعه الأثرى بفهارس عديدة كسابقه .

وأما الجزء الثالث فلم يظهر حتى وقتنا هذا ، والمقدم له — كما أفادني الأستاذ الأثرى في رسالة جوابية — أن يظهر في قسمين ، ومعلوماتي أن القسم الأول سيظهر في النصف الأول من سنة ١٩٧٦ ونحن في الانتظار .

(١) الخريدة — القسم العراقي ج ١ ع ٩ - ١١٠

(٩) ظهر القسم الأول من مؤلفات الأستاذ الدكتور الأثرى في شهر ربيع الثاني سنة ١٩٧٦ م.

وظهر الجزء الرابع العراقي في قسمين كبيرين يشملهما ٧٧٤ صفحة من القطع الكبير ، وقد طبع في بغداد كذلك سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م .

(٣) القسم الشامي :

وقد ظهر في أربعة أجزاء جميعها بتحقيق الدكتور شكري فيصل رئيس المجمع العلمي المصري بدمشق .

أما الجزء الأول فظهر (سنة ١٤٧٥ هـ / ١٩٥٥ م) في ٥٧٩ صفحة من الحجم المتوسط ، وقدم له الدكتور شكري بمقدمة تحدث فيها عن الخريدة ، وأعميتها ، وعن صلته بها ، ووصف الأصول المخطوطة التي اعتمد عليها في التحقيق ، ثم أتبع المتن بفهارس عن أبواب هذا الجزء وشعرائه ومختاراته الشعرية والنثرية والأماكن والأعلام ومراجع الكتاب إلى غير ذلك .

وظهر الجزء الثاني عام ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م ومتن الكتاب في ٥٤٨ صفحة من الحجم المتوسط . وقدم له الدكتور المحقق بمقدمة تحدث فيها عن عمله ثم أورد فيها سارس للأسرة الشامية التي كانت لها مكانة أدبية في ذلك العصر كأسرة المعري ، وبنى زريق وبنى أبي الحصين وغيرهم ، ثم أتبعه بفهارس عديدة كسابقه .

وظهر الجزء الثالث عام ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٤ م في (٢٩٠ صفحة وكله في مخاسن فنلاء الحجاز واليمن ، وقدم له المحقق بمقدمة تحدث فيها عن تقسيم العماد للخريدة ، وعن قيمة هذا الجزء الأدبية والتاريخية والذووية ، وعن عمله وجهده في تحقيق هذا الجزء ، وأتبع المتن بفهارس عديدة كسابقه .

أما الجزء الرابع - الذي لم يسمه بهذا الاسم وحق له ذلك - فهو الجزء الذي كان مفقوداً من بداية القسم الشامي ، ولذا سماه : بداية قسم شعراء الشام ويختص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيوب ، وقد ظهر عام ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م في (٢٣٧ صفحة) ، وقدم له بمقدمة تحدث فيها عن المجهود البالغ والتمب السذي عاناه في بحثه عن هذا الجزء النائع ، وفي تحقيقه له ، ثم أتبع المتن بفهارس كالأجزاء السابقة .

(٤) القسم المفرد :

ولغو الجزء الذي تناقش في إظهاره العديد من الأدباء والمحققين ، وقد ظهر في تونس في ثلاثة أجزاء ، وفي القاهرة في جزأين ولم يخرج الثالث إلى حيز الوجود .

أما الجزء الأول من طبعة تونس فقد ظهر سنة ١٩٦٦ ، وعدد صفحات المتن ٣٥١ صفحة من الحجم المتوسط ، وقد قدم له العلامة التونسي الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بمقدمة تحدث فيها عن الكوارث المفاجئة التي تحل بالأمم ، فتجبر بعض أفرادها وأعيانها على الهجرة من الوطن ناجين بأرواحهم وأغليهم ، كما أورد أشعاراً لشعراء تونسيين ، نظموها في الكوارث التي حلت بتونس ، وتحدث كذلك عن عرب صقلية ومسلمي جزيرة مالطة ، والمحن التي حلت بالمغرب الإسلامي ، وأعجب بالعماد الذي كان له الفضل الأكبر في الحفاظ على ما تناثر من أشعار أهل المغرب .

كما أعد محققو هذا الجزء الأساتذة محمد المرزوقي ومحمد العروسي والجيلاني ابن الحاج يحيى مقدمة ترجموا فيها للعماد ترجمة قصيرة ، كما تحدثوا عن عملهم والمخطوطات التي نقلوا هذا النص عنها ، وبعد الانتهاء من المتن أوردوا فهرس عديدة . وقد أعيد طبع هذا الجزء سنة ١٩٧٣ .

أما الجزء الثاني فقد حققه الأستاذ الإيراني آذرتاش آذرنوش وقدمه للدار التونسية للطباعة والنشر - التي قامت بالاتفاق مع الأساتذة المحققين السابقين على إعادة قراءته وزيادة وحذف ما يروونه ضرورياً ، فظهر الجزء الثاني سنة ١٩٧١ في ٣١٨ صفحة من الحجم المتوسط ، وقدم له المنقحون بمقدمة في صفتين ونصف تحدثوا فيها عن عملهم في هذا الجزء ، والتنسيق الذي تم بينهم وبين المحقق آذرتاش آذرنوش . وأتبعها المحقق بمقدمة عن العماد وخريدته وأهميتها ، وكل ذلك في أربع صفحات ونصف ، ولم يلحقوا به أية فهرس ، وتركوا ذلك للجزء الثالث .

ثم ظهر الجزء الثالث بتحقيق الأستاذ آذرتاش وتنقيح الأساتذة السابقين الثلاثة سنة ١٩٧٢ ولغو في ٢٣٧ صفحة من الحجم المتوسط ، ولم يقدموا له ، وأتبعوه بفهرس عديدة كالجزء الأول ، وأضافوا إلى ذلك فهرساً جديداً هاماً ذكروا فيه مصادر

ترجمة كل شاعر ذكر في هذا القسم بأجزائه الثلاثة ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولعل
هذا الفهرس يبين جهد العماد وأهمية الخريدة في حفظ أسماء الشعراء وشعرهم ،
إذ نجد من هؤلاء من لم يذكرهم أحد سوى العماد وكان المحققون يكتبون عن كثير من
هؤلاء " لا نعرف عنه أكثر مما ورد في الخريدة " .

ويبدو أن هذا القسم أثار اهتمام الكثيرين فبالإضافة إلى الأربعة السابقة ،
قام الدكتور عمر الدسوقي والأستاذ عبد العظيم محمد بإعادة تحقيق القسم المفري ، وظهر
منه حتى الآن جزآن كبيران ، ووعدا بإصدار الجزء الثالث .

أما الجزء الأول فقد ظهر سنة ١٩٦٩ في ٦٦٠ صفحة من الحجم المتوسط ،
وظهر الثاني كذلك في ٤٤٧ صفحة في العام نفسه ، وتأخر ظهور الثالث حتى وقتنا
هذا .

ذيل الخريدة وسيل الجريدة أو " السيل على الذيل "

وعمو كتاب في ثلاثة مجلدات جملة العماد ذيلاً لكتاب الخريدة السابق الذكر ،
وقد ظن ابن خلكان أنه ذيل على تاريخ ابن السمعاني ، ثم رآه واطلع عليه فوجده ذيلاً
على خريدة القصر ، وقد ذكره صاحب كشف الظنون ، واعتقد أنه ذيل على تاريخ ابن
السمعاني دون أن ينتبه إلى تصحيح ابن خلكان لوهمه ، وتابعه على ذلك صاحب
عدية العارفين .

(٥) (٤) هذا وقد رآه الصفدي بخط العماد ، ونقل منه صاحب كنز الدرر وجامع الضرر
ترجمة لأبي الحسن علي بن مقند بن نصر بن مقند الكتاني ، وذكره باسم السيل والذيل
وذكره النعمي وطاش كبرى زاده بهذا الاسم ونقل منه ابن الفرات في تاريخه في ترجمته
لملي بن الحسين الباهلي الدمشقي من أهل دمشق ، ولكننا نستغرب تسميته للخريدة
باسم الذخيرة حيث قال في نقله من الذيل : " قال العماد في ذيل الذخيرة " ومن

(١) وقفيات الأعيان (٢٢٥/٤) (٢) كشف الظنون (٢٨٨/١)

(٣) عدية العارفين (١٠٥/٢) (٤) انوافي بانوفيات (١٤٠/١)

(٥) كنز الدرر وجامع الضرر (٤٢١/٦) (٦) الدارس (٤١٠/١) ومفتاح السعادة ٢٦٥/١

(٧) تاريخ ابن الفرات ج ١ ق ٤/١٨٨ - ١٨٩

(٨) المصدر السابق ج ١ ق ٤/١٨٨ - ١٨٩

المؤكد أن ذلك يعود إلى تحريف وخطأ من الناسخ أو غلط من المحقق .

وذكره من المحدثين الزركلى فى الأعلام ، والأثرى فى مقدمته للجزء العراقى من الخريدة والبايز العرينى فى " مؤرخو الحروب الصليبية " (١) والدكتور عمر موسى باشا فى كتابه " الأدب فى بلاد الشام " ومن الفريبيين فرانز روستال ، كما ترجم له الدكتور رمضان شتى ، وأثار أمراً جديراً بالدراسة ، إذ يرى أن هذا الكتاب إنما هو كتابان أولهما باسم : " ذيل الخريدة وسبل الجريدة " وثانيهما " السيل على الذيل " وجعل الثانى ذيلاً على " ذيل الخريدة " (٢) ومع أننا نميل إلى رأيه هذا - لأن جمهرة المؤرخين ذكروه باسم " السيل على الذيل " ، ومعنى ذلك أنه ذيل على كتاب آخر - لا نستطيع أن نبرهن على صحة هذا الرأى لأن الكتاب مفقود فى وقتنا الحاضر ، ولأن جمهرة المؤرخين لم يذكروا للخريدة سوى ذيل واحد . وقد ذكره المنذرى فى كتابه التكملة لوفيات النقلة ، وجعله كتابين فقال : وصنف تصانيف مفيدة منها : الخريدة والسيل والذيل فإننا لا نستطيع الأخذ به لأن التعميم فى المدارس أورد عبارات طويلة نقلها من التكملة ، ولم ترد فى النسخة المطبوعة ، مما يجعلنا ننظر فى ترجمة المنذرى للعماد فى النسخة المطبوعة نظرة حذرة خوفاً من أن يكون أصابها الحذف والتحريف ، مع أن عبارة المنذرى السابقة توافق هيئتنا .

والكتاب كما ذكرنا مفقود ، ولكن الدكتور على جواد الطاهر ذكر أن نسخة من الكتاب موجودة فى كوينهاجن بالدانمارك ومسجلة باسم الذيل ، وتضم أكثر ما تضم تراجم مصرية ومغربية ، وقد قام المجمع العلمى العراقى بتصويرنا واطلع عليها الأستاذ الأثرى محقق القسم العراقى من الخريدة ، ولكنه لم يطمئن إلى أنها الذيل نفسه وقال : ولعلها مختصر لتراجم من القسم المصرى والمغربى .

مختصر الخريدة : للخريدة مختصران هما :

(١) مختصر الخريدة للحافظ : ذكره ابن خلكان فى وفيات الأعيان فى ترجمته لأبى منصور

(١) الأعلام (٢٥٤ / ٧) والخريدة - تقديم القسم العراقى (٧٢ / ١) ومؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٤١ والأدب فى بلاد الشام ص ٦٨٠

A History of Mouslim Histroiogo aphy P.532

(٢) تقديم سنا البرن الشامى ج ١٧ / ١ - ١٩ (٣) التكملة لوفيات النقلة ٢٨٩ / ٢

(٤) المدارس ٤١٠ / ١ (٥) الشعر العربى فى العراق وبلاد المعجم (٢٨ / ١)

(١) موعظ بن أحمد بن أحمد الجوالقي شيخ العماد ه وقد ذكره الأستاذ الأثرى في مقدمته للقسم العراقى وبحث طويلاً في الكتب المسروقة إلى أن وجد نسخة مصورة في (٨٩) لوحة من كتاب مصطب ذكر في أوله أنه " السيل " أى " ذيل الخريدة " وفي آخره أنه مختصر من مختصر له ويقول الأستاذ الأثرى : إن ناسخ الكتاب المجهول الاسم نصّ على أنه نقل نسخته من خط الحافظ أبى عبد الله محمد بن الحافظ أبى محمد زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المندرى " ويقول : " ولعله هو الحافظ الذى عنه ابن خلكان ولهذا المختصر مفقود .

(٢) مختصر عود الشباب المسمى " الشهاب لطرد الذباب " لعلى بن محمد المعروف برضائى الروى قاضى مصر المتوفى سنة ١٠٢٩ هـ (١٦٢٩ م) .

منه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية ومكتوبة في القرن الحادى عشر بخط نسخ جميل ه والنسخة مصورة عن مخطوطة نور عثمانية رقم (٤١٢٧) وعلى (٢٥١) ورقة في كل صفحة (١٩) سطراً ه ورقمها في المعهد (٢٤٤) .

وقد اطلعت على هذه الصورة في المعهد ه وخطها واضح جميل ه وجميع صفحاتها بيّنة للقارئ ه وقد كتبت عنواناتها بخط مخالف ه إلا أنّ معظمها غير واضح فى التصوير .

وقد حذف على برضائى كثيراً من التراجم النثرية للشعراء ه وكثيراً من الاختيارات الشعرية والنثرية ه كما حذف كثيراً من تراجم الشعراء ه ولذا رأينا هذا المختصر لا يعطى صورة صادقة عن الخريدة ه وإنما يفيد فى تحقيق النصوص الشعرية والنثرية التى حفظها على برضائى فيه .

وقد ترجم صاحب نفحة الريحانة لعلى برضائى وذكر هذا المختصر ه ويبيندو أنّ أحد أصدقائه قد استماو هذا المختصر منه وأبطأ فى إعادته إليه فنظم قائلاً :

-
- (١) وفيات الأعيان (ج٤/٤٢٦) بتحقيق محبى الدين عبد الحميد .
 - (٢) الخريدة - تقديم الأثرى للقسم العراقى (٩٥/١)
 - (٣) فهرس المخطوطات المصورة ج١ ق٢ تاريخ رقم ٢٤٤ (د . لطفى عبد البديع)

نَوَالِكُ دُونَهُ حُجُبُ الْجِجَابِ وَمِنْ نَادَاتِ مَفْقُودِ الْجَوَابِ (١)
إِذَا أَمَلْتُ يَوْمًا مِنْكَ يَوْمًا كَأَنِّي أَرْتَجِي عَوْدَ الشَّبَابِ

كتب نهجت نهج الخريدة :

تعد الخريدة حلقة الالتصاف في سلسلة من التأليف والمجموعات الشعرية ، وقد عرفنا بكثير من الكتب التي سبقت الخريدة أو جاءت بعدها ، ولكننا وجدنا أن ثلاثة من هذه الكتب نهجت طريقة الخريدة .

- وأول هذه الكتب : " سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر " .
- وثانيها : " ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا " .
- وثالثها : " نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانسة " .

١- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر : لصدر الدين المدني بن أحمد نظام الدين الحسيني الحسني بن موصوم أحد أعلام الأدب في القرن الحادي عشر ، وقد جعله لأدباء أهل زمانه ، وقسمه إلى خمسة أقسام :

القسم الأول : في محاسن أهل الحرمين الشريفين والمحليين المنيفين وترجم فيه لسبعم وأربعين شاعراً وأديباً .

القسم الثاني : جعله لمحاسن أهل الشام ومصر ونواحيها وقسمه إلى فصلين :

الفصل الأول وقد خصصه لمحاسن أهل الشام وترجم فيه لثلاثة وعشرين شاعراً .

الفصل الثاني خصصه لمحاسن أهل مصر والقاهرة وترجم فيه لاثني عشر شاعراً .

والقسم الثالث : خصصه لمحاسن أهل اليمن وترجم فيه لأربعة عشر شاعراً .

والقسم الرابع : جعله لمحاسن أهل العجم والبحرين والعراق وقسمه إلى فصلين :

الفصل الأول : في محاسن أهل العجم وترجم فيه لأربعة .

-
- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) نفحة الريحانة ج ٦٩/٤ | (٢) سلافة العصر ع ١٠ - ٢٨٩ |
| (٣) سلافة العصر ٢٨٩ - ٤٣٠ | (٤) المصدر السابق ٢٨٩ - ٤٠٧ |
| (٥) المصدر السابق ٤٠٧ - ٤٣٠ | (٦) المصدر السابق ٤٣٠ - ٤٨٥ |
| (٧) المصدر السابق ٤٨٥ - ٥٧٠ | (٨) المصدر السابق ٤٨٥ - ٥١٨ |

(١) والفصل الثاني : في محاسن أهل البحرين والعراق وترجم فيه لأحد عشر

شاعراً .

(٢) والقسم الخامس : خصصه لأهل المغرب وترجم فيه ثمانية من الشعراء .

ولعلنا نلاحظ أنّ ابن مضمون قهر كتابه على من عدّهم من خيرة أهل عصره
وأعلاهم أدباً وأرقاهم شعراً .

كما نلاحظ الانفصال الثقافي الذي حدث بين العرب والعجم فبينما كنا نجد
مئات الشعراء في اليتيمة والدمية والخريدة نرى أن عدد من قد قلّ قلّة واضحة في السلافة .

ونلاحظ كذلك أن المؤلف اهتم بالجزيرة العربية ، وأنه خصص قسمين من الأقسام
الخمسة لها أحدهما : للحجاز ، وثانيهما : لليمن .

ونرى بوضوح أنّ النهضة الأدبية كانت في الحجاز والشام ومصر وأن تراجم
الشعراء في هذه البلاد امتدت قرابة أربعمئة وثلاثين صفحة .

(٢) ريحانة الألبا وزعرة الحياة الدنيا . . لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر
الخفاجي (٩٧٧ - ١٠٦٩) سجربة .

وقد جعل هذا الكتاب ذليلاً على سلافة العصر وترجم لأدباء القرن الحادي
عشر وقسمه إلى أربعة أقسام ، وألحق به عدة فصول أخرى وقد طبع حديثاً في جزأين
كبيرين بتحقيق عبد الفتاح حلو .

(٣) أما القسم الأول : فخصصه لمحاسن أهل الشام ونواحيها وترجم فيه لثلاثة
وثلاثين شاعراً ، وكتب خلال التراجم عدة صفحات تشتمل على ما أسماه بفوائد وتكميلات
وتتيمات وهنوع . وخصص فصلاً لمن لقبهم بالشام حين رحل إليها من مصر ، وترجم لخمسة
منهم ، كما ترجم لخمسة آخرين لقبهم في حلب .

(١) سلافة العصر ٥١٨ - ٥٧٠ (٢) المصدر السابق ٥٧٠ - ٦٠٧
(٣) ریحانة الالباء ج ١ ص ٢٨٥/١٧ (٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٧/٢٢٢
(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٥/٢٦٩

(١) وأما القسم الثاني : فخصه نحاسن العصريين من أهل المغرب وما والاها ، وترجم فيه لأحد عشر شاعراً ، وكتب خلال التراجم عدة فصول وتمتات ، وألحق به مكية ، وكتب عنواناً " ذكر مكة ومن بحماها عانها الله وحماها " ثم ترجم لستة وعشرين من شعراء الدولة الحسينية .

وأما القسم الثالث : فخصه لمصر وأهلها وذكر أحوالها ، وترجم لواحد وسبعين شاعراً .

(٤) وأما القسم الرابع : فخصه لبلاد الروم يعنى تركية فقال : " القسم الرابع فى ذكر الروم وما اتقى لى فيها ، وذكر من أقيته من رؤسائها ، وترجم فيه لخمسة وتسو أقصر الأقسام .

(٥) وقد أتبع هذا القسم بباين أحدهما فى بيان أحوال الروم ، وانقراض علمائها وانتشار الظلم والعدوان بين أمرائها ، وذكر كذلك رحلاته إلى بلاد الروم .
(٦) وثانيهما ترجم فيه لنفسه وشيوخه وآثاره ، ورحلاته ، وألحق به كثيراً من الفصول فى أخبار الشعراء أمثال ابن خفاجة الأندلسى وابن المعتز وأبى نواس ، وعلى بن الجهم ، وأبى فراس ومهلهل بن ربيعة وبعض المباحث اللغوية والبلاغية .

إننا نرى بوضوح ضعف الحياة الأدبية والعملية فى هذا العصر ، ونلاحظ أن مصر كانت مركز العلم المتبقى فى العالم الإسلامى ، وأن وجود الأزهر فيها - على ما يبدو - حفظ بحس العلوم ، فأقبل عليه الناس طالبين للعلم ومقيمين .

ونرى كذلك أن عدم ذكر بلاد العجم ، وظهور بلاد الروم مع ضعفها الظاهر ، كان بسبب الحكام الذين لم تكن غالبيتهم يفقهون شيئاً من العربية .

-
- (١) ربحانة الألبا ج ١ ع ٢٨٩ - ٢٨١ (٢) المصدر السابق ج ١ ع ٢٨١ - ٤٨٤
(٣) المصدر السابق ج ٢ ع ٢٢٢ / ١ (٤) المصدر السابق ج ٢ ع ٢٤٩ - ٢٨٠
(٥) المصدر السابق ج ٢ ع ٣٢٤ / ٢٨١ (٦) المصدر السابق ج ٢ / ٣٢٥ - ٤٩٩

ونلاحظ كذلك أن المؤلف لم يخصص للحجاز فصلاً كابن معصوم ، وإنما أخصه ببلاد المغرب ، ولا ندري لذلك سبباً ، وترك اليمن والعراق وكثيراً من الأماكن الإسلامية .

(٣) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة لمحمد أمين بن فضل الله ابن محب الدين بن محمد الحلبي (١٠٦١ - ١١١١ هـ)

وقد طبع حديثاً في خمسة أجزاء كبيرة بتحقيق عبد الفتاح حلو ، وعلو ذيل على ريحانة الألباء وفي مقدمته لكتابه يستوفى ابن فضل الله أنه كان معجباً به منذ صغره .

وقد جعله في ثمانية أبواب :

(١) الأول : في محاسن شعراء الشام ونواحيها ، وجعله في فصول ، وحاول تقليد العماد فترجم لشعراء المدن فخصه فصولاً لشعراء القدس والرملة وصفد وصيدا وجبل عامل وغيرنا ، وترجم كذلك للبيوت الشامية المعروفة في زمنه ، ونظم قصيدة في مدح دمشق كما فمسل العماد في الخريدة وترجم في هذا الباب لعشرة ومائة من الشعراء .

(٢) وجعل الباب الثاني لأدباء حلب وترجم فيه لواحد وثلاثين .

أما الثالث فخصه لنوابغ بلقاء الروم وترجم فيه لأربعة وثلاثين .

(٤) والرابع جعله للمراق والبحرين وضم إليه بلاد المعجم وترجم فيه لأربعة من المراق وخمسة من البحرين ، وخمسة آخرين من بلاد المعجم .

(٥) وخصص الخامس للطفاء اليمن وجعلهم في بيوت وترجم لهم على هذا الأساس وعلو قسم كبير جداً ترجم فيه لتسعة وسبعين شاعراً .

(٦) وخصص الباب السادس لمجائب نيفاء الحجاز ، وترجم فيه لتسعة وأربعين وأنصاف إليهم ترجمة شيخين من شيوخه ، وثلاثة عشر شاعراً من أهل المدينة المنورة .

(٧) أما الباب السابع فجعله لفرائب نيفاء مصر ، وترجم فيه لثلاثة وأربعين منهم .

-
- (١) نفحة الريحانة (ج ١ ص ١٩ - ٦٠٠) والجزء الثاني من ٥ - ٤٢٨
- (٢) المصدر السابق (ج ٢ ص ٤٢٩ - ٦٦٦) نهاية الجزء الثاني المطبوع
- (٣) المصدر السابق (ج ٣ ص ٢ - ١١٨)
- (٤) المصدر السابق (ج ٣ ص ١٣٩ - ٢٢٨)
- (٥) المصدر السابق (ج ٣ ص ٢٢٩ - ٦٠٩) نهاية الجزء الثالث المطبوع
- (٦) المصدر السابق (ج ٤ ص ٢ - ٣٩٠)
- (٧) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩١ - ٦٧٧ نهاية الجزء الرابع المطبوع

أما الباب الثامن فخصه لأذكياء المغرب ، وترجم فيه لثنى عشر واحداً منهم .
وأنهى الكتاب بخاتمة ذكر فيها بعض مختاراته الشعرية .

ولعلنا نلاحظ أن الحِجِّيَّ قد استقصى معظم شعراء عصره ، وأنه ترجم لعدد كبير منهم يفوق ما جمعه ابن معصوم في السلافة ، والخفاجي في ربحانة الألبا ، وأنه كذلك شمل كل الولايات الإسلامية ، وإن كان للشام والحجاز وسمر الحصة الكبرى والنصيب الأوفى ، وليس ذلك من قبيل التحيز ، وإنما لأن من بقى من العلماء كانوا في هذه البلاد ، وأن الجهل قد عم غيرها وطغى على حياتها خاصة في المغرب ، أما بلاد المعجم فكانت قد انفصلت وعادت إلى لغتها الفارسية فأحيتها ، ونظمت شعراً بلغتها ، وما بقى بالعربية فيها اهتمام إلا عند قلة منهم .

وفي منهجه نلاحظ أنه خص لكل قطر باباً ، وأنه جمع العراق والبحرين والمعجم في باب واحد لقلّة نتائجهم الشعرى والأدبى ، وإن كنا نعتقد بوجود عدد أكبر من الشعراء في العراق .

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٤٨/٢ نهاية من الكتاب وما بقى من هذا الجزء فهارس للكتاب كله .

الفصل الثالث

أثر العماد في الخريدة

أولاً : الأثر التنظيمي :

من المؤكد أن العماد حين وضع خطة الخريدة قسمها إلى أربعة أقسام تسمى المشهورة التي ذكرناها في الفصل الثاني من هذا الباب ، ثم جاء الناسخون فقسموها إلى أجزاء ، واختلفوا في ذلك كما بينا سابقاً ، والجهم عندنا هو معرفة الطريقة التي صنف فيها العماد كل قسم ، والأبواب التي خصصها لكل منها .

وتسهيلاً للبحث سنسجل أبواب القسم العراقي من الخريدة لنلقى عليه نظرة عامة ، وليكون مدخلنا للحديث عن طريقته هذه ، . . . وتلك الأبواب هي :-

- ١ - باب في ذكر الخلفاء السياسيين " وقد ترجم لهم دون أن يسمى ذلك باباً "
 - ٢ - باب في ذكر محاسن الوزراء والكتاب والسياسيين ، وما نعى إلى المؤلف من أشعارهم .
 - ٣ - باب في محاسن الشعراء .
 - ٤ - باب في محاسن أهل العلم والأدب والفقه والشعر .
 - ٥ - باب في ذكر فضائل أهل العصر وجماعة من أمثال أهل العلم والقرآن .
 - ٦ - باب في ذكر مناقب بعض الأقران وخصائل الخلاء من الإخوان .
 - ٧ - باب في محاسن الحكماء .
 - ٨ - باب في محاسن جماعة تقدم عصرهم على عصرى .
 - ٩ - باب في ذكر محاسن جماعة من أهل بغداد أوردتهم السمعاني في المذيل .
 - ١٠ - باب في الواردين إلى مجالس العرب وأهل البدو والواردين إلى السراق .
 - ١١ - باب في ذكر فضائل جماعة من أعيان سواد بغداد وأعمالها .
 - ١٢ - باب في ذكر فضائل جماعة من أعيان الحلة والكوفة وبيت الأنبار
- أ - ملوك العرب وأمراءها بنو هاريد الأسيديون النازلون بالحلة السيفية على الفرات .

ب - غيرهم من الحلة والنيل والكوفة وأعمالها .

ج - بيت والأنبار والحديثة .

١٢ - باب في ذكر محاسن أهل واسط والبصرة وما يتخللها ويجاورهما من البلاد والنواحي .

أ - واسط

١- أعيان نواحي واسط وأعمالها أسفل دجلة وأعلامنا بالسواد

٢- سواد أعلى دجلة وواسط وما يليها .

٣- جماعة من أهل واسط وفضلهم أينما .

٤- الطيب وقرى وقرى وأعمالها .

٥- بنو أبي الجبر الليثيون ملوك البطائع وأعيانها بالفراء وما يجسرى

معها أسفل واسط .

ب - علماء البصرة وأفاضلها وأدباؤها وأماثلها .

١- جماعة من البصرة قصدتني بمدح

٢- حسا والقظيف والبحرين

إن قراءة سريعة لهذا الفهرس تدلنا على أن العماد لم يلتزم طريقة واحدة في تبويبه لهذا القسم ، فهو يقلد صاحب البيئمة حين بدأ بالخلفاء ، وثنى بالوزراء وأعيان الدولة ، وهو كذلك لم يلتزم نهجاً واحداً في بقية الأبواب فنراه مرة يجمع بين جماعة من الشعراء في باب واحد بسبب علمهم ، ومرة ثانية لورودهم في مصدر واحد كالذي يـلل للمعاني ومرة ثالثة لأن عـسـرهم سبق عـسـره ، ورابعة يجمع بين جماعة لأتصفاوا بالحكمة ، وآخرين لأنهم ووزروا لبغداد ومرة ثالثة لأنهم من مدينة واحدة ، أو لأنهم من قبيلة واحدة .

ونراه يجمع بين جماعة من الشعراء لأنهم مدحوه ، أو لأنهم راسلوا عالماً ما وكتبوا إليه ، وعلى كما نرى طريقة غير مرسومة ، ولا يعنى ذلك أننا نصيب على العماد طريقته لنقل من أهمية الخريدة ، . . . لكننا نود أن نبين أن عمل العماد جاء بهذه الطريقة لأنه كان رجلاً مجدداً ، لا قواع لديه ، ورجلاً متنقلاً ، رحالة ، مجاهداً ، مرافقاً للسلطين ، فلم يجد الوقت الكافي ليعيد قراءة الخريدة ، فأخرجها كما جمعها دون تنسيق أو ترتيب ولا إعادة نظر ، وعلى في غذا يختلف عن سابقه أصحاب البيئمة والدمية والذخيرة الذين رتبوا كتبهم أبواباً واضحة المسالم والتمزوا منهجاً يكاد يكون واحداً من بداية الكتاب إلى نهايته .

وفي القسم الشامي كذلك لم يلتزم نهجاً واحداً ولا طريقة معينة ، فقد بدأه بالترجمة لنفسه ، وذكر أسماره في وصف دمشق ومدائح لنور الدين وصلاح الدين ، ثم ترجم لشعراء بني أيوب ، ثم عقد باباً ذكر فيه محاسن الشعراء بدمشق وأعمالها ، وألحق بالباب نفسه عدة من شعراء الساحل . ثم عقد باباً في ذكر محاسن جماعة من الشعراء من أهل عصره الأقرب بدمشق . ثم باباً في ذكر محاسن جماعة من العلماء بدمشق ومن أهل القدس ، واستمر في ذكر الأبواب والترجمة كما فعل في القسم العراقي إلا أنه جعل لكل مجموعة من المدن باباً خاصاً .

ويكاد العماد يكون أكثر تنظيماً في هذا القسم عن سابقه فقد جمع شعراء كل مدينة تحت باب أو جزء من باب خاص بهم ، ولكنه مع هذا لم يلتزم بهذا المنهج التزاماً دقيقاً ، فنراه يجمع بين بعض شعراء دمشق والقدس تحت عنوان واحد لا يجمعهم رابط سوى أنهم علماء - حسب طريقته - وكان الأخرى به أن يجعل شعراء دمشق في جزء من باب أو في باب كامل ثم ينتقل إلى بقية المدن فيترجم لشعرائها ، ونراه في شعراء اليمن ينقل من مجموع عمارة اليمنى ، ثم يتركه ليرجم لأسرة بني أبي عقابة اليمنية حتى إذا انتهى عاد ليورد طائفة أخرى من الشعراء الذين ذكرهم عمارة ، ثم يتركهم ويترجم لأسرة الحكيميين آل أبي الحسين ، فإذا انتهى من هذه الأسرة ترجم لجماعة لم يورد لهم عمارة شعراً ثم يعود ليرجم لجماعة ذكر لهم عمارة شعراً .

وعرف في هذا الجزء من الباب لا ينهج طريقة منظمة ، فعلى الرغم من أنه جمع شعراء اليمن في هذا الجزء نراه يحترهم جماعات لا رابط بينها ولا صفة تجمعها وكان الأخرى به أن يجمعها دون هذه التجزئة والتقسيم العشوائي ، وكذلك على أنه حين كان يقرأ وينقل من مجموع عمارة لم يستطع النقل منه دفعة واحدة ، فكان الظريف يقتضيه أن يترك الكتاب إلى فرصة فراغ أخرى ، وحين يعود مرة ثانية للفراغ والنقل والاختيار يكتب في رأس الورقة الجديدة " جماعة أوردتهم عمارة في مجموعته " وهكذا ، فإذا قرأ عن أسرة يمنية جعلها تحت عنوان فرعي خاص بها ، مما يدفعنا إلى القول بأن العماد اتهم بالأسر سواء في القسم العراقي أو في القسم الشامي أو في بقية الأقسام كما سنذكر بعد قليل .

إن العماد في هذا القسم وسابقه لم يلتزم سنة الميلاد فيجعلها المحور الذي تدور حوله التراجم ، فيترجم للأقدم سناً ، وينتقل إلى من هو أصغر منه ، حتى يصل

إلى الأحياء المزامنين له ، وهو كذلك لم يجعل جودة الشعر في رأيه مقياساً يقدم فيه
تراجمه على غيرهم ممن هم أقل منزلة وأضعف شعراً .

ولمن تراجم القسم المصري جاءت عشوائية لا رابط يربطها ، فإنه لم يجعله
أبواباً وجعل عنواناته قليلة ، وقد قدم له العماد بمقدمة علل فيها سبب ابتدائه بمصره
وأورد شعره في رحلته اليها ، وبمصر مدائح للسلطان صالح الدين أثناء وجوده في مصر ،
وبدا بالترجمة للفاضل ، ولم يورد له شعراً ، ووعد بإصدار كتاب خاصة ، ثم ترجم
للفاضل المؤمن بن كاسيويه الكاتب ، ثم كتب عنواناً : " عدة في الديوان الفاضلي " .
فترجم لثلاثة منهم ثم انتقل لشعراء لم يعملوا في الديوان الفاضلي وجلبهم من العهد
الفاطمي دون أن يشير إلى هذا الانتقال ، ويظل كذلك إلى أن يصل إلى الترجمة رقم
(٢٦) فنجده يورد عنواناً جديداً هو " جماعة من شعراء مصر في عهد الأفضل ذكرهم
أبو الصلت الحكيم في رسالته .

وعند الترجمة (٦٦) نجده يورد عنواناً آخر هو " جماعة من شعراء مصر
أورد لهم ابن جبر الشاعر يحيى بن حسن في ذكر مدائح بني أبي أسامة في سنة ٥٢٥ هـ .

وعند الترجمة رقم (٨٢) يورد عنواناً آخر هو : " عدة من شعراء العصر بمصر
أورد لهم ابن بشر بن المهدي في كتابه الموسوم : " بالمختار في المنظم والنثر لأفاسل
أهل العصر " .

وعند الترجمة رقم (٩٢) يورد عنواناً آخر هو " جماعة التقطهم من الأقواه " .

وعند الترجمة رقم (١٠٩) يورد عنواناً آخر هو " عدة من شعراء الصعيد " .
ويترجم لشعراء من أسرة بني عرام .

وعند الترجمة رقم (١١٢) يورد عنواناً آخر هو : " جماعة كتب ما نقل إلى من
شعرهم بالعراق " .

إننا نلاحظ أن العماد هنا يورد شعراء مصر حسب المصدر الذي استقاها منه
وأخذهم عنه ، إلا أنه في شعراء الجزء الأول المصري الذين ذكرهم تحت عنوان " عدة
في الديوان الفاضلي " لم يلتزم هذا المبدأ ، فبعد أن ذكر ثلاثة ممن عملوا في ديوان الفاضل

أورد جماعة من الشعراء كانوا يعملون في دواوين الفاطميين ووزراء وكتاباً وقضاة ودعاة ، ولكنه لم يشأ - على ما يبدو - أن يبيح عنوانا يجمعهم لكرهه للفاطميين هذا الكره الذي بلغ حد التكفير .

وعو وإن كان قد جعل لأهل السعيد عنواناً خاصاً ، لم يلتزم ذلك فترجم للشاعرين الأخوين الرشيد بن الزبير والمهذب بن الزبير في تراجم الذين عملوا في ديوان الفاطميين مع أنهم من أسوان وهي أقصى السعيد .

وينطبق كلامنا عن القسمين السابقين كذلك على القسم المصري الذي لم يلتزم فيه قديم الزمن ولا يحد العهد . وإنما جاءت تراجمه حسب المصادر التي نقل عنها ، فلم يراع الترتيب الزمني ولا الترتيب الهجائي كذلك كما فصل صاحب معجم الأدباء أو الوافى بالوفيات أو غيرهما من كتاب التراجم .

أما القسم المغربي فسار في تجميعه إلى أبواب حسب المصادر التي استسقى منها تراجمه في معظم أبواب الكتاب ، لكنه لم يلتزم ذلك التزاماً مطلقاً ، وكان الخلل واضحاً في هذا المنهاج كذلك .

فقد خصص الباب الأول لشعراء صقلية وقسمهم إلى قسمين :

أولهما : في ذكر جماعة أخذهم من كتاب • الحديقة • لابن أبي الصلت .
وثانيهما : في ذكر جماعة نقلهم من كتاب • الدرّة الخطيرة والمختار من شعر شعراء الجزيرة • لابن القطاع .

وحين انتقل السواد إلى المغرب والأندلس لم يفصل بين شعراء القطرين ، فترجم لشعرائهما على اعتبار أنهما بلد واحد ، إلا في حالات نادرة أورد فيها شعراء مغاربية دون الأندلسيين ، والمكس كذلك صحيح ، وخلط أحياناً فأورد شعراء من صقلية مع الشعراء المغاربة .

وقد قسم العماد المغرب إلى أقسام ثلاثة هي : الأدنى والأوسط والأقصى فترجم لبعض الشعراء على أنهم من المغرب الأدنى ولآخرين على أنهم من المغرب الأوسط ، ولجماعة على أنهم من المغرب الأقصى ، ولم يذكر من أسماء المدن تخصيصاً سوى القيروان .

وفى قسم المغرب خصص أجزاء من أبواب الشعراء أورد عم السمعاني فى جملة أصحاب الحديث أو لجماعة أورد عم ابن الزبير فى " جنان الجنان " أو لجماعة أورد عم ابن خاقان فى " قلائد المقيان " .

وخصص بابين لشعراء وقد وا إلى مصر ، وكان عليه أن يجمعهم فى باب واحد كما خصص باباً للشعراء الذين نالوا أحياناً سنة ٥٥٠ هـ .

وظهر سوء الترتيب واضحاً فى هذا القسم ، فهو — وإن اهتم بإيراد الشعراء حسب المصادر التى نقل عنها — عقد عدة فصول بغير هدف واضح كأن يكتب عنواناً كبيراً " جماعة من أهل المغرب " ثم يورد شاعراً واحداً لا ثانى له . أو " جماعة مدحوا عميد الدولة ابن جهير فى الأيام المقترية والمستظمية من أهل المغرب " فلا يورد سوى شاعرين .

كان العماد — على ما يبدو — ينقل ما شاء أن ينقل ، فإن تهيأ عنده الوقت الكافى فى نظم ورتب ، وإن لم يستطع لكثرة أشغاله أبغى أوراقه وصحائفه كما كتبها أول مرة من مصدرنا ، ولذلك جاءت غير مترابطة ولا متناسقة .

ويبدو أن القسم العجى — الذى أخرناه لكونه مخطوطاً حتى الآن — جاء مرتباً على نسق خير من الأقسام السابقة الذكر ، فقد حاول العماد أن يجعل شعراء كل مدينة فى باب خاص أو جزء من باب ، وقد قصر الجزء الرابع وهو الأول من بلاد المعجم على شعراء أصفهان لأنها مسقط رأسه ومطلع تقييده ، وتحدث فيها عن فضلائها ، وقسمها إلى أبواب أو أجزاء من أبواب أحياناً مرة بهدف وأخرى بلا هدف ومثال ذلك قوله :
" جماعة من أصفهان " أو قوله : " باب آخر فى ذكر جماعة من علماء أصفهان وفضلائها وفقهاؤها " أو أحياناً لأنهم من أسرة واحدة كما جمع شعراء بنى الخجندى تحت عنوان باسمهم أو يجمعهم لأنهم من عصره .

أما الجزء الخامس وهو الثانى من بلاد المعجم فقد غلب عليه تقسيمه إلى مدن ، إلا أنه لم يلتزم ذلك فى بدايته ، فجعل باباً خاصاً بعنوان " فى ذكر جماعة من العلماء

(١) الجزء الرابع / قسم شعراء المعجم المخطوط الورقة ٤٢

(٢) المصدر نفسه الورقة ٢٨

(٣) المصدر السابق الورقة ٤٦

والأدياء^(١) وأكمل بقية هذا الجزء مقسماً الشعراء حسب مسقط رأسهم ، وجعل بين شعراء
السرى جزءاً خاصاً لشعراء وفصلاً جرت بينهم وبين أبي الممالى القومى معارضات فى
الآبيات المنظومة - كما يقول -^(٢)

واستكمالاً لهذا الأثر سندرس بعض الموضوعات المتصلة به كتكرار التراجم والترتيب
وأمثلة على ذلك ، فضلاً عن المصادر ، وطريقته فى جمع المادة وترتيبها وما شابه ذلك مما
يتصل بموضوعنا هذا .

(١) التكرار :

ضمت الخريدة مئات الشعراء ومن الصعوبة بمكان أن يحفظ العماد أسماءهم
جميعاً ، خاصة أنهم من أقطار السالم الإسلامى كله ، وبعضهم كان قد مات ، وآخرون
كانوا مازالوا أحياء يبرزون ، ولذا وقع السامد فى تكرار بعض التراجم وأكثر ما وقع ذلك فى
القسم الرابع الذى يشمل مصر والمغرب والأندلس وصقلية أما فى القسم المصرى فقد ترجم
للشاعر موسى بن على السخاوى مرتين الأولى فى الجزء الأول المطبوع باسم : الفقيه البليغ^(٣)
أبى عمران موسى بن على السخاوى وقال فى ترجمته عن بلده :

" من الأعمال القريبة بمصر وسكنه الإسكندرية " والثانية فى الجزء الثانى المطبوع
وقال فيه : " موسى بن على الشاعر الإسكندرى ، أظنه السخاوى " فشك ولكنه لم يجمع
بين الترجمتين . وقد أورد الترجمة الثانية ضمن الشعراء الذين مدحوا بنى أسامة
سنة ٥٢٥ هـ ولم يترجم له ، بل أورد له قصيدة واحدة ، وكرر كذلك ترجمة أبى النضر
الإسناوى ، فأوردنا فى الجزء الأول المطبوع وجاء اسمه مصحفاً بالصورة الآتية " أبو الفخر
الإسناوى " وشك الدكتور شوقى شيف أن يكون هو المترجم له فى الجزء الثانى ترجمة
تفصيلية ، وعرف به فى الهامش مرتين ، وذكر وفاته سنة ٥٤٤ هـ فى كلا الحالتين ، وأبقى
التصحيف كما هو .

(٦) وفى الترجمة الثانية أورد اسمه كاملاً " أبو النضر الإسناوى محمد بن على الهاشمى وترجم

(١) الجزء الخامس - قسم شعراء المعجم مخطوطة الورقة ٣٥

(٢) الجزء الخامس نفسه الورقة ٤٧ (٣) موسى السخاوى الترجمة الأولى قسم مصر ١٧٠/١

(٤) الترجمة الثانية - قسم مصر ١١٢/٢

(٥) الإسناوى / الترجمة الأولى قسم مصر ٢٨٥/١ والترجمة الثانية قسم مصر ١٥٨/٢

(٦) قسم مصر ١٥٨/٢

له واختار له عدة فسائد ومقطوعات شعرية وسوا أول من ترجم له من فضلا الصعيد .

وقد كثر التكرار في القسم المغربي ، فكرر ترجمة أحد الشعراء ثلاث مرات وكرر ترجمة عشرة شعراء مرتين لكل شاعر . وكان الصماد يمتدح أنه ترجم لبعضهم في السابق ، ويشير إلى ذلك بقوله على الأغلب " سبق ذكره " والسبب في هذا التكرار هو تعدد المصادر ، فحين كان ينقل عن مصدر يترجم لشاعر ما وحين ينقل عن مصدر آخر يجمع شعراً جديداً وأحياناً الشعر نفسه الذي نقله في المرة الأولى فيعيد الترجمة مرة ثانية ، وأحياناً يقع ذلك سهواً لجهله بالأسماء وعدم حفظه لما سبق ذكره .

ولعل في هذا العمل ما يؤكد قولنا : إن الصماد حاول أن يحصل بمسح الأبواب حسب المصادر المكتوبة على الأغلب ، وأنه كذلك لم يجد الوقت الكافي لمراجعة خريدته ، وإعادة تبويبها وترتيبها .

أما الشاعر الذي ترجم له ثلاث مرات فهو " الأسعد بن إبراهيم بن بليطة " ذكره في المرة الأولى باسم " أبي القاسم الأسعد بن إبراهيم " وفي الثانية باسم " الأسعد بن بليطة " وفي الثالثة باسم : " أبي القاسم الأسعد بن إبراهيم بن بليطة " واعترف الصماد في الترجمة الثالثة بترجمته له فيما سبق ناقلاً عن ابن بشر بن المهدي مرة وعن " جنان الجنان " مرة ثانية . وقد تكررت بعض المقطوعات في التراجم الثلاث ، مما جعلنا نكشف التصحيف الواضح في هذه المقطوعات التي لم يتم تحقيقها عند القسم من الخريدة بتصحيحه فأبقوه بصورة مشوهة سيئة .

أما الشعراء الذين كثر ترجمته لهم مرتين لكل واحد منهم :

١- أبو محمد بن حسن : الكاتب الفرطحي المعروف بابن الحبير ، وهذا الاسم أورد في الصماد في الترجمة الأولى ، وفي الثانية سماه " أبو محمد بن الحبير " وأورد في كل ترجمة مقطوعات شعرية تختلف عن الأخرى ، وهناك نقطة لا بد من التنبيه إليها على

(١) قسم المغرب	٩٠/٢	(٢) قسم المغرب	(٢٦٢ : ٢)
(٢) قسم المغرب	٥٨٥/٢	(٤) قسم المغرب	(٢٩٢ / ٢)
(٥) قسم المغرب	٤٢٧/٢		

أن المحققين هم الذين أضاثوا " ابن الحبير " في الترجمة الثانية نقلاً عن قلائد العقيان ^(١) ، وحين رجسنا إلى هذا الكتاب وجدنا أن كل المختارات في الترجمتين منقولة منه .

٢- ذو الوزارتين الكاتب أبو محمد عبد الله بن عبد البر أورده في المرة الأولى باسم " أبو محمد عبد الله بن عبد البر الكاتب " ، وفي المرة الثانية باسم " ذو الوزارتين أبو محمد بن عبد البر " دون أن يذكر اسمه " عبد الله " ونقل عن قلائد العقيان ^(٢) ^(٤) وبالرجوع إلى هذا الكتاب وجدنا أن المختارات جميعها من هذا الكتاب .

٣- أبو جعفر عبد الولي بن البني : ترجم له في المرة الأولى باسم " أبو جعفر عبد الولي البني الكاتب " وفي الثانية الأديب " أبو جعفر بن البني " ومعظم المختارات في كلا ^(٥) ^(٦) ^(٧) الترجمتين من قلائد العقيان .

٤- ابن خفاجي الأندلسي ، وترجم له ذاكراً اسمه الكامل في المترجمين صلناً أنه سبق ذكره ^(٨) وأنه أورده في المرة الثانية لعثوره على رسائل جديدة .

٥- محمد بن يوسف المعروف بابن الرِّفَا البُلُنْسِيِّ ، ترجم له في المرة الأولى نقلاً عن ^(٩) ^(١٠) ^(١١) الحديفة لأبي الصلت ، وترجم له مرة ثانية باسم " ابن الرفاء " وقال انه توفي في حدود سنة ٥٤٠ هـ ، ولكن المحققين يعتقدون أنه ابن الرزاق على ابن عطية البُلُنْسِيِّ ،

(١) قلائد العقيان ١٧٦	(٢) قسم المغرب ١٦٦/٢
(٣) قسم المغرب ٤٥٩/٣	(٤) قلائد العقيان ص ٢٠٦
(٥) قسم المغرب ج ١ / ٢٧٩	(٦) قسم المغرب ٥٣٦/٣
(٧) قلائد العقيان ٣٤٣	(٨) قسم المغرب في الأولى ١٤٧/٢
	وفي الثانية ٥٤٨/٣
(٩) قسم المغرب ١٨٦/٢	
(١٠) قسم المغرب ٥٧٨/٣	
(١١) قسم المغرب ٥٦٤/٣	

وَأَنَّ النَّاسِخَ قَدْ أَخْطَأَ فِي كِتَابَتِهِ لِأَنَّ الْقَسِيدَةَ الَّتِي أَوْلَاهَا :

يَا عِبَاءَ الصَّبْحِ تَحْتَ النَّبِيِّ أَطْرَازُ فَوْقَ خَدَيْكَ وَشَسَى

هذه القصيدة لابن الزقاق - كما يقولون - وقد وردت في المصرب وكذلك في المطرب وسواء أكان ذلك صحيحاً أو خطأ فإن العماد قد ترجم لابن الزقاق المتوفى سنة ٥٢٩ سنة أو سنة ٥٣٠ ، ويكون بذلك قد كرر ترجمته له .

(١) أبو بكر يحيى بن بقى القرطبي الأندلسي ترجم له في المرة الأولى وذكر سنة وفاته ومصدر ترجمته ، وأورد له مقطوعات شعرية عديدة وفصائد طويلة ، وترجم له في المرة الثانية ذاكراً سنة وفاته وبيتين من الشعر ، ولكن وجود العبارة الآتية " من شعراء الخريدة " جعلتنا نشك في إيراد العماد له في الترجمة الثانية ، إذ لم ترد مثل هذه العبارة في الخريدة كلها ، وإنما ترد في المادة في كتب نقلت من الخريدة ، ونعتقد أن هذه الترجمة أضيفت من الناسخ .

(٢) المخزومي الأهمي النرناطي : ترجم له مرتين ، وكرر بعض المقطوعات الشعرية فسي كليهما ، وقد أبقى المحققون على التصحيف في الشعر بصورته السيئة .

(٣) أبو بكر محمد المعروف بالأبيض : ترجم له في المرة الأولى نقلاً عن ابن بشر بن الصقلي وفي الثانية بالمشافهة ، وأورد له مقطوعة مكررة في كلا الترجمتين والتصحيف بين فيهما ، ولم يغيره المحققون ، فضلاً عن تقديم بعض الأبيات على غيرها .

(٤) أبو عبد الله محمد بن عائشة البلنسي : ذكره العماد مرتين ، وصرح في المرة الثانية بأنه سبق ذكره ، وكرر مقطوعة له في كلا الترجمتين وسها تصحيف واضح .

(٥) ابن المصيصي الأندلسي : سماه في الترجمة الأولى : الوليد حسان بن المصيصي

- | | |
|----------------------|-------------------------------|
| (١) قسم المغرب ٢٢٦/٢ | (٢) قسم المغرب ٥٢٩/٢ |
| (٢) قسم المغرب ٥٨٠/٣ | (٤) قسم المغرب ٥٢٥٥/٢ و ٥٢٩/٣ |
| (٥) قسم المغرب ٢٥٨/٢ | (٦) قسم المغرب ٢١٦/٢ و ٥٨١/٣ |
| (٧) قسم المغرب ١٩١/٢ | |

وأورد له مقطوعة من بيتين ، ثم عاد وترجم له مرة ثانية باسم : ^(١) ابن المصيصي الأندلسي ،
وأورد له قصيدة في الغزل تختلف عن سابقتها .

وقد كرر العماد ترجمته لثلاثة شعراء في القسم الشامي وعم البديع دمشقي
والناظر وأبو نصر أحمد بن يوسف المنازلي الكاتب .

أما البديع ^(٢) فقد ترجم له في القسم الشامي نقلاً عن الشريف حيدرة العلوي
المصري باسم : " أبي فراس طراد بن علي دمشقي " وكرر ترجمته في القسم المصري
باسم البديع لابن علي ، وقال وهو دمشقي وأورد له مقطوعات شعرية مختلفة في كل
ترجمة .

وكرر كذلك ترجمته للشاعر : " الناظر " ^(٣) وذكر في ترجمته الأولى أن اسمه
الناظر المعري ، ثم كرر ترجمته باسم : " الناظر أبي نصر المهنا بن علي بن عبد القاهر " ^(٤)
ضمن شعراء الصخرة . وقد نبه المحقق إلى أن المخطوطتين اللتين نقل عنهما لم تتوردا
اسمه في عنوان وإنما جاءت الأبيات متصلة بشعر من قبله ، وفي الثانية كتب الناسخ
العنوان على طرف الصفحة ، وربما جاء هذا التكرار لخطأ من الناسخ .

وكرر العماد كذلك ترجمته للشاعر أبي نصر أحمد بن يوسف المنازلي الكاتب ،
وترجم له في المرة الأولى باسم " المنازلي من مناوكره " ^(٥) وذكر أنه من وزراء المروانيين
بديار بكر ، ثم ترجم له في المرة الثانية باسمه السابق كاملاً تحت عنوان ، ديار بكر وأورد له
ثلاث مقطوعات جديدة .

أما في القسم العراقي والقسم المعجمي فلم يكرر العماد أيّاً من تراجمه ، وذلك
أنه كان يعرف معظمهم ، والتقى بالكثير منهم ، وكان يعرف أسماءهم ، ومن لم يلتق به
التقى بابنه أو أخيه أو بعض أصدقائه ، فكان جملهم معروفين لديه ، غير خافين على ذاكرته

(١) قسم المغرب ٥٨٨/٣ (٢) قسم الشام ٢٦٨/١ وقسم مصر ١٠٥/٢
(٣) قسم الشام ٥٥/٢ و ١٠٤/٢ (٤) قسم الشام ٣٤٨/٢
(٥) قسم الشام ٤٥٥/٢

وسمعه ، وبنات سبب ثان يعود إلى أن جمعه لهذين القسمين أخذ فترة أطول —
تتأخرهما ، استطاع العماد خلالها أن ينمق ويرتب ، ويجمع وينظم ، ويختصر وي زيد ، أما
القسم المصري فكانت فترته أقل ، وكثير من أدبائه تقل العماد ترجمته من مصادر مكتوبة ،
فوق فيه التكرار القليل الذي ذكرناه ، أما القسم المغربي فجميعه إلا القليل مصدره الكتب ،
وقد نقل منها في الفترة الأخيرة من جمعه للخريدة ، ونحن نعرف أن القاضي الفاضل
أعداه مجموعة من الكتب ، بعض هذه الكتب أخذه العماد من مكتبة الفاطميين سنة ٥٧٢ هـ
بعد بيعها بالجزاد ، ولذا لم يستطع العماد أن ينظم هذا القسم ، ويخرجه بالصورة
الأولى والأكمل ، خاصة إذا عرفنا أن العماد قد أنهى الخريدة سنة ٥٧٣ هـ ، وأنه
أمضى حياته بعد عودته من مصر سنة ٥٧٣ هـ ، وإلى يوم وفاة السلطان سنة ٥٨٩ هـ — رفيقاً
وصاحباً للسلطان يسايره أنى يذهب ، ويسير إلى جانبه أنى يريد .

أما القسم الشامي فلعل تكراره للبديع جاء سهواً والتبس عليه الاسم وكذلك
ترجمته للمنازي .

(٢) جمع المادة وترتيبها :

لقد نفى العماد عن نفسه أن يكون مجرد ناسخ لمادة كتابه ، وتحميد أن يشمرنا
بأنه كان يقرأ ويسمع ثم يختصر هذا وذلك ، ويصنعه في فوالب أدبية من صنع يديه بمسند
أن يفهم كلام الرواة ، كيلا تتولد عنه بثينة لأديب يكتب عنه ما لا يليق به ، أو ما
لا يتفق مع منزلته ، أو يذكره بصفات ونسب ليست فيه ، وهو في اعتقاده صادق ككل
الصدق ، فيما يقرر به هذا الشأن .

لقد كان العماد يكتب كل ما يسمعه ، ويختار ما يقرؤه ويسجله ، ثم يجلس في
أوقات فراغه ، فيدبره بهراعه ، ويكتبه بأسلوبه ، والقارئ يلمس ذلك في كثير من تراجمه التي
سجلت فيها كل ما سمعه ولو من سنوات بعيدة ، ولقد أورد أخباراً من مسموعاته سنة ٥٤٠ هـ
حين كان في بداية الشباب ومرحلة طلب العلم ، بل أورد أخباراً من ذكريات طفولته في
وعى كامل ونظام دقيق .

إن أخبار رومادة الأقسام الثلاثة الأولى تبدوا لنا مرتبة ومنسقة أكثر من القسم الرابع ، ذلك أنه كان يكتب عن أناس يعرفهم تماماً ، ولذلك تجد أن ما كتبه من أخبار وصفات كان واضحاً في ذهنه ، بل إن كثيراً من أشعارهم كانت محفوظة في ذاكرته أو سمعها مرات ومرات ، فلو أننا رجعنا إلى ترجمته للخلفاء العباسيين وأخذنا الإمام المسـتـنـجـد بالله ^(١) مثلاً لهم نجد أنه بدأ بذكر اسمه كاملاً ، وتاريخ مناصبته بالخلافة ، وتاريخ وفاته ، وثنائه على شعره ثم مقطوعات ^(٢) ، ولو رجعنا إلى الوزراء وأخذنا الوزير عون الدين بن عبيرة مثلاً لهم لوجدناه كذلك سلك المنهج السابق نفسه تعريفاً بنسبه وذكره لجسده ثم حدثنا عن علمه وعمله وولايته للوزارة ووفاته وكتبه والأشعار التي قيلت فيه ، ثم أورد مقطوعات من شعره على نهج وطريقة واضحة كل الوضوح ، ولكن هذه الطريقة لم يسلكها العماد مع كل تراجمه ، وقد ذكرنا أمثلة كرر فيها العماد الترجمة ، بسبب تنوع المصادر ، ولم يرتب هذه المادة الترتيب العلمي الصحيح ، وأكثر ذلك كان مع الشعراء الذين لم يعرفهم العماد أو لم يعرف أحداً من أئمتهم ، وعله كان في القسم المفروض الذي أساء ترتيب أكثر مادته سواء أكان ذلك في الترجمة النثرية أم في الاختيارات الشعرية التي كثر فيها التصحيف ، ولا نعتقد أن هذا التصحيف كان من النسخ فقط ، بل إن بعضه كان من العماد نفسه - فيما يبدو - وقد أشرنا في حديثنا عن تكرار التراجم إلى بعض مواضع التصحيف .

أما ترتيبه للاختيارات الشعرية ، فلم يسلك فيها منهجاً واحداً ، ويبدو أن العماد كان يتأثر بالمصدر كذلك ، فبينما نجد أنه يرتب هذه المختارات ترتيباً عجائياً عن بعض الشعراء نراه يورد على بلا ترتيب في كثير من تراجمه ، وأكثر ما يكون الترتيب الهجائي إذا نقل العماد من ديوان ، فإذا نقل من مصادر متعددة أورد ما دون ترتيب سواء أكانت هذه شفوية أم مكتوبة .

ومن الأمثلة على ذلك الشاعر الخيـيـس ^(٣) الذي قرأ عليه العماد ديوانه ثم ترجم له قريباً من مائة وستين صفحة ، وأورد له مختاراته الشعرية مرتبة ترتيباً عجائياً .

(١) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ١٨

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٩٦

(٣) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ٢٠٢ - ٣٦٢

وكذلك اطلع العماد على ديوان محمد بن عائق الأزدي الأندلسي الذي ترجم له في القسم المصري ، فأورد جميع مختاراته مرتبة ترتيباً عجائياً .

وقرأ العماد كذلك ديوان ابن الكيزاني المصري فرتب له مختاراته على أحرف الهجاء ولكنه قسمها إلى قسمين دون أن يبين لذلك سبباً ، ورتب كلا منهما عجائياً .

وعكذا سلك في اختيار مقطوعات الشريف أبي جعفر محمد بن محمد بن عبة الله الملوي الحسيني (٣) ، وأبي بكر العيدي اليمني (٤) ، وأبي الفضل أحمد بن محمد الخازن الكاتب ، وغيرهم كثير . لكنه لم يلتزم بهذا المنهج ، وإنما كان على الأغلب حين كان يقرأ الديوان ، ويجد مختاراته مرتبة ، وأما غير ذلك فكان يورده كيف جاء من مصدره ، وعرف في الغالب حسب أقدمية المصدر الذي صنع منه ، فإذا جدّ جديد أو سمع شيئاً جديداً أضافه بعد الأول ، وعكذا حتى تنتهي الترجمة .

أما ترجمته النثرية للشاعر فغالباً ما تكون بأسلوبه ، والعماد يحب أسلوبه ويمشقه ، ولذلك كان يسمح أو يقرأ ثم يعيد كتابة ذلك بأسلوبه وطريقته .

(٣) نماذج من سوء الترتيب :

لم يلتزم العماد منهجاً عاماً يترجم على أساسه للشعراء الذين يريد التحدث عنهم في الخريدة ، فقد ترجم لشعراء شاميين في القسم المصري ، وآخرين من صقلية أو الأندلس في ذلك القسم ، وترجم لمصريين في أقسام أخرى ولينيين في غير اليمن .

ولم يجعل العماد مسقط الرأس شرطاً للترجمة ، وكذلك لم يجعل طول الإقامة في بلد سبباً لترجم له فيه ، ولم يجعل مكان الوفاة سبباً آخر ، فجاءت بعض التراجم في غير مكانها ، وهي كثيرة نسبياً ، وكثيراً ما نجد مرة بالشرط الأول ، ومرة بالشرط الثاني أو الثالث ، لكنه لم يلتزم بأى منها ، ومن الأمثلة التي وردت في الخريدة في ذلك :

(١) المصدر السابق - القسم المصري ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٨١

(٢) المصدر السابق والقسم نفسه ج ٢ ص ١٨ - ٤٠

(٣) الخريدة - القسم المصري ج ١ / ١٢١ (٤) المصدر السابق - القسم الشامي ج ٢ / ١٤٤

(٥) المصدر السابق - القسم العزراقي المخطوط الورقة (٥٤)

- (١) أنه ترجم لسيد الرحيم بن الأخوة في القسم السراقي واعترف الصمد بأنه أقام فسي
أصفهان أربعين سنة حتى كاد يعد من أهلها .
- (٢) أنه ترجم في قسم بلاد المعجم للمؤيد بن أبي المهبجاء الأصفهاني الأصل مع أنه
تركها وأقام في بغداد وعمل في ديوان الحليفة .
- (٣) أنه ترجم لسيد العرب الطبري في القسم السراقي ، واعترف في ترجمته له أنه
شامى المنشأ ، وأنه أقام أحد عشر عاماً في أصفهان ، وكان في الموصل سنة ٥٧٠ هـ بمعد
عودته من أصفهان .
- (٤) أنه ترجم في قسم بلاد المعجم للحافظ أبي طاهر السلفي الأصفهاني الأصل الذي
أقام في الإسكندرية وتزوج منها وتوفي فيها .
- (٥) أن أبا المسك كافور بن عبد الله الليثي الحنظلي الخنسي المعروف بالصوري ، مصري
المنشأ ، سكن صور ، وظاف في البلاد ، وأقام في بغداد حتى أدركته منيته وترجم له فسي
القسم المصري .
- (٦) أن الشيخ الأديب أبا محمد عبد الله بن عتيق المعروف بابن الرفا ، مصري أقام
باليمن أربعين سنة ، ثم رحل إلى بغداد ، ولقبه الصمد فيها ، وترجم له في القسم
المصري .
- (٧) أن عمارة اليمنى أمضى معظم حياته في مصر وعلم فيها بأمر من صلاح الدين ولكن
الصمد ترجم له ضمن شعراء اليمن .

من هذه التراجم نرى أن الصمد يجعل المولد شرطاً لإيراد ترجمة المترجم له

-
- (١) الخريدة - القسم السراقي (٢) الخريدة - القسم بلاد المعجم المخطوط
(٣) الخريدة - القسم السراقي (٤) الخريدة - قسم بلاد المعجم المخطوط
الجزء الرابع .
(٥) الخريدة - القسم المصري ج ٢ / ٢١٦ (٦) المصدر السابق والقسم نفسه ٢٢٩ / ٢
(٧) الخريدة - قسم الشام ج ١ / ١٠١

في القسم الخاص ببلده ، ولكننا وجدناه لا يلتزم بهذا الببدأ ، فكان يترجم لكثير منافساً لهذا الشرط ، ومن أمثلة ذلك :

١ - أن الشريف أسعد بن علي الجواني النحوي موصل على الأصل ، مصري الدار وترجم له في القسم المصري .^(١)

٢ - أن الشريف بن عبة الله العلوي من ضرابي ، ويعترف العماد أنه من الواجب إيرادها في شعراء الشام لكنه لم يفعل ، ولم يورد لذلك سبباً وترجم له في القسم المصري .^(٢)

٣ - أن محمد بن عائق الأزدي الأندلسي موضعه باعتراؤه العماد مع شعراء الأندلس ولكنه لم يفعل ، وترجم له في القسم المصري .

٤ - أن البديع بن علي من دمشق وترجم له في القسم المصري وكان قد ترجم له في القسم الشامي .

٥ - أن حسنة الصورية ولدت باليمن ، وترت في الحجاز ، وتعلمت ببغداد ، وأقامت بمصر وترجم لها في القسم المصري .

٦ - أن الرشيد بن الزبير وابنه وأخاه المهدي شعراء من الصعيد ، وكان الواجب عليه أن يترجم لهم مع شعراء الصعيد ، لكنه ترجم لهم مع شعراء من القاهرة .

٧ - أنه ترجم لثلاثة من شعراء اليمن في نهاية قسم الحجاز وتهامة وغم ، محمد بن عيسى اليماني ، ومحمد بن المبارك اليماني ، والمهدي بن علي بن مهدي ، وآخرهم ملك يمني ، وكان عليه أن يترجم لهم مع شعراء اليمن ، وإن كنا نعتقد أن هذا التقديم كان خطأ من الناسخ .

-
- (٦) المصدر السابق - القسم المصري ١/ ١١٩ (٦) المصدر السابق - القسم المصري ١/ ١١٩
(٢) الخريدة - القسم المصري ج ١ ص ٢٤٨ (٦) الخريدة / القسم الشامي (٢٦٨/١)
(٥) الخريدة - القسم المصري ج ٢/ ٢٢١ والمصري (١٠٥/٢)
(٤) الخريدة - القسم المصري ج ١/ ٢٠٠ - ٢٠٤
(٢) الخريدة - القسم الشامي ج ٢/ ٦١ - ٧٠

٨ - جرجس الفيلسوف وضعه مع شمراه حلب وهو أنطاكي . (١)

هذه أمثلة قليلة لسوء الترتيب الذي وجدناه في الخريدة ، وفي بعض الحالات كان سوء الترتيب يظهر في عدم إكمال ترجمة شاعر ليعاود إتمامها بعد ذلك في الترجمة لشاعر آخر ، كما فعل حين عاد ليورد مختارات شعرية للشريف علي بن عيسى السليمانى في ترجمته للأموير وشمش بن وشمس ليسجل قراءة خمس صفحات بعد ذلك ، وإن كنا نعتقد أن ذلك من عمل الناسخ وأن المحقق كان عليه أن يعيد الأمر إلى صوابه .

ويظهر ذلك أحيانا أخرى في تكرار جملة ما . . . كأن يورد سنة وفاة شاعر كما ثم يكررها مرة ثانية كما فعل في ترجمته للشاعر النعمان بن وادع الذي ذكر أنه توفي سنة نيف وخمسين وخمسمائة ، ثم عاد في الصفحة التي تلتها وكرر هذا للمعنى ، وأحيانا بأن يترجم للولد قبل أبيه ، في حين أنه كان يلتزم للترتيب في القدم خاصة في ترجمته للأسر كالتنوخيين وغيرهم .

وقد نبه بعض المحققين ، وخاصة الدكتور شكرى فيصل محقق القسم الشامى ، إلى بعض أماكن الاضطراب في التأليف ، ولكنه في معظم الحالات لم يستطع الجزم ، إن كان ذلك من العماد أو من الناسخ .

(٤) المصادر :

نستطيع تقسيم مصادر الخريدة إلى قسمين كبيرين ، أولهما : المصادر الشفوية وثانيهما : المصادر المكتوبة .

أولاً : المصادر الشفوية :

وتقسم إلى قسمين وأصحين أولهما : ضاع العماد من الشاعر نفسه ، وثانيهما الرواية عن راوٍ أو أكثر سمع أو سمعوا من الشاعر .

(١) الخريدة - القسم الشامى ج٢ ص ١٨٥ (٢) المصدر السابق ج٣ ص ٥/٣ أو ٣٨

(٣) المصدر السابق ج٢ ص ٤٢ - ٤٣

(٤) المصدر السابق ج٢ ترجم لابی الحصين عبد الله ثم لابی القاسم المحسن ص ٦٧

(٥) نبه إلى ذلك في القسم الشامى ج٢ ص ٥٥٦ ٥٨٨ ١٨٢ وغيرها .

١- الشعراء الذين عرفهم العماد : وقد حاولنا إحصاء عدد الشعراء الذين أعلن العماد صراحة أنه التقى بهم وسمع أشعارهم بإنشادهم فوجدناهم على الصورة الآتية بمسند أن حذفنا المكرر منهم ، وإن كنا في الأجزاء المخطوطة لم نستطع التأكد من بعض التراجم في الصفحات التي طمسها الحبر وأخفاها ، فجاءت الإحصائية على الصورة الآتية :-

أ - لقد ترجم العماد لواحد وتسعين ومائتي شاعر في القسم العراقي ، والتقى بخمسة وثمانين شاعراً منهم فقط .

ب - وترجم لقراءة مائتي شاعر في قسم بلاد المعجم ، والتقى العماد بقراءة الخمسين منهم .

ج - وترجم لثمانية وأربعين ومائتي شاعر في القسم الشامي والتقى بستة وأربعين منهم .

د - وترجم لثمانية وثلاثين ومائة شاعر في القسم المصري ، والتقى بستة عشر منهم .

هـ - وترجم العماد لأثنين وثمانين ومائتي شاعر في القسم المغربي وإن كان لم يلتق بأحد منهم .

فيكون العماد على هذا قد التقى بعدد كبير من الشعراء المزمانيين له وعدد عم قراءة المائتين ، وهو عدد كبير يولف وحده خريدة جديدة . وكان لقاءه لهؤلاء على الأرض الإسلامية الواسعة الممتدة ، فالتقى ببعضهم ببلاد المعجم ومعظمهم في أصفهان ، والتقى بالكثير منهم في بغداد سواء في ديوان الوزير ابن ببيعة أو على باب الخطيب في الوراق أو في أماكن علمية أخرى ، كذلك فالتقى بالكثير في واسط والبصرة وتوابسهمما ، وعرف الكثير في بلاط نور الدين وفي ديوان صلاح الدين في الشام بمدن دمشق وحلب والرقعة وفي الجزيرة الفراتية والموصل وغيرها . ثم سافر إلى مصر والتقى بالأحياء المقيمين في القاهرة من شعرائها فسمع منهم وسمعوا منه . في رحلات طويلة امتدت قرابة أربعين عاماً ما بين أصفهان وغيرها وساحت للعماد أن يلتقى بالكثير من الشعراء ، فيعرفهم عن كثب ، ويسمع من أفواههم ، فلا يكون عنك مجال للشك أو الطعن أو الاتهام بالسرقات الشعرية ، بل إن بعضهم أعدها ديوانه ، وبعضهم قرأ عليه ديوانه كالوحيص بيص ، كل ذلك جعل عند العماد ذوقاً ينقد فيه أبناء عصره ، ومكثته بذلك من الحكم الصحيح ، وإن كان يجامل أحياناً ، كما سنتحدث في الفصل الأخير عن العماد الناقد .

٢ - القسم الثاني من المشافهة : هو نقله الشعر عن رواة سمعوا من الشعراء أنفسهم

وعلم عدد كبير ، وكان العماد يذكرهم بأسمائهم إلا ما ندر حين كانت تخونه الذاكسرة
فينسى الاسم ، وقد سلك العماد في روايته للأشعار منهج رواية الحديث الشريف ، الذين
كانوا يصلون بالسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زيادة في الاطمئنان والثقة ،
وهكذا سار العماد - وهو فعليه قبل أن يكون أديباً - فلا بد أن يسجل الرواية كاملة ،
وإن كانت جل رواياته عن راو واحد عن الشاعر نفسه ، وقل أن يروي العماد عن راويين .

ولعل من أعم رواة القسم للمراقي : شيخه محمد بن ناصر ، وشيخه عبد الرحيم
ابن الأخوة ، والحبيب بن الشاعر المصري الذي قرأ العماد عليه ديوانه ، وسمع منه روايته
لكثير من شعر الشعراء ، وعبد المنعم بن مقبل الواسطي ، وشيخه كثير بن سماليق ،
وابن الباسي ، والخطيرى الوراق ، وأبا المعالي الذعبي ، ومجد العرب العامري
وغيرهم كثير ، ولقد أورد العماد تراجمهم في الخريدة لأنهم كانوا شعراء قبل أن يكونوا
رواة للشعر وحفظاً له .

ولعل من أعم رواة قسم المعجم - كذلك - والده ، وعبد الرحيم بن الأخوة
ومجد العرب العامري ، وأبا الفضل يوسف بن محمد الغزنوي ، وجمال الدين الخجندی
والأكرم الوثابي وأبا المناقب عبد الله بن شاکر وغيرهم كثير .

ولعل من أعم رواة القسم الشامي - كذلك - عبد الرحيم بن الأخوة ومجد
العرب العامري ، والقاضي أبا اليسر ، وأبن أبي البيان ، وابن الزغلية الشاعر ، وتاج
الدين البلطي الشاعر ، والخطيرى الوراق ، وأسامة بن منقذ وابنه أبا المرغف ، وابن
فضلويه ، وزين الدين الواعظ الدمشقي ، وخالد ابن الشاعر القيسراني ، وصفوة الدين
البالسي وغيرهم كثير .

ومن أشهر رواة القسم المصري القاضي الفاضل ونجم الدين بن مصال ، والسلطان
صلاح الدين الأيوبي ، ومحمد بن عيسى اليماني ، وأحمد بن حيدرة الزيدى الحسيني
ونصر بن عبد الرحمن الفزاري ، وكثير من القضاة الذين كانوا يعملون في ديوان السلطان
صلاح الدين .

ومن أشهر رواة القسم المصري - وهم قلة - لأن جل اعتمادهم كان على
المصادر المكتوبة - أبو الحسن بن صالح الأندلسي الذي التقى به العماد في البصرة ،

وأنفقه أبو الحجاج يوسف بن محمد بن مقلد التنوخي ، وأنفقه اليسع ، والحكيم يحيى بن
إسماعيل بن يحيى ، وإدريس الإدريسي ونسراً بن عبد الرحمن الفزاري وغيرهم القليل .

وكان العماد في معظم رواياته دقيقاً في روايته ، فقد كان إلى جانب ذلك كثير
الراوى يذكر مكان الرواية وتاريخها ، ويكون أكثر دقة حين يذكر الشهر الذي سمع فيه
الرواية ، وفي كثير من الأحيان يذكر عمل الراوى وسبب رحلته إن كان غير مقوم . ولكن ذلك
لا يمتنع أن العماد كان لا يأتي برواية غير متصلة بساحيبها ، بل هناك روايات كثيرة لم
يذكر لها مصدراً ، بل كان يورد ما بصيغة المجهول كأن يقول : " أنشدت له ، أو قيل (١)
وعتاتان من الصيغ التي يرفضها البحث العلمي الدقيق .

وقد أورد العماد بعض التراجم بلا مصدر سواء أكان المصدر بالمشافهة أم مكتوباً ،
والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، ولكن الغالب الواضح أن معظم تراجمه منقولة عن مصادر
واقعية .

ثانياً : المصادر المكتوبة :

وقد تنوعت هذه المصادر ، ونستطيع تقسيمها إلى أربعة أقسام وعلى :

- (١) الكتب والمجموعات الشعرية
- ٢- الدواوين الشعرية
- (٣) المسودات والتعليق والمجاميع والأدراج والكراريس .
- (٤) الرسائل المتبادلة بين العماد وغيره .

(١) الكتب والمجموعات الشعرية

وعلى كتب ألفها أصحابها في تراجم الشعراء وغيرهم ، وجمع مختارات من أشعارهم
أو كتب تنقد هذه الأشعار بالإضافة إلى جمعها ، وعلى كثيرة ، وقد ذكرنا العماد في كل
مرة كان ينقل منها ، بل إنه أحياناً كان ينقل من المصدر ويجمع له عنواناً أو باباً خاصاً به
فيقول : جماعة أخذتهم من كتاب أو جماعة أوردتهم كتاب ويذكر اسم

(١) راجع ص ٢٩٨ من الجزء الثاني - قسم بلاد الشام وغيره .
(٢) راجع قسم بلاد الشام ج ١ ص ٢٦٠ ، ٢٦٥ وج ٢ ص ٥٢ ، ٥٤ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،
١٠٥ وغيره .

الكتاب واسم مؤلفه ، وقد حاولنا جمع الكتب التي نقل عنها العماد ، فوجدنا أن أهمها
في القسم العراقي : مذييل السمعاني ، ومذييل التاريخ لابن الهمداني ، وكتابتا الأنصار
وطح الملح لأبي المعالي الرقاق .

وأما الكتب التي نقل عنها في القسم الشامي فهي : مذييل السمعاني ، وطمح
الملح للخطيري و " الحديقة " لأبي الصلت .

ومصادر القسم المصري هي : كتاب " الزعر والباسم من أوصاف أبي القاسم " لابن
قلاقس و " منية الألسن وبلغت المدعي " للقاضي الرشيد ، وكذلك كتاب " جنان
الجنان " له . و " الحديقة " لأبي الصلت ، و " المختار في النظم " لابن بشر بن المهدي
وكتاب ابن جبر الشاعر يحيى بن حسن في ذكر مدائح بني أبي أسامة .

ومصادر القسم المغربي : الحديقة لأبي الصلت ، والدرة الخطيرة لابن
القطاع ، و " جنان الجنان للقاضي الرشيد بن الزبير ، ومذييل السمعاني ، ومذييل التاريخ
للهمداني ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان القيسي ، وتاريخ الأندلس لمحمد بن
أيوب بن غالب الأنصاري ، وأبكار الأفكار لابن شرف .

ونضيف إلى ما سبق تلك الكتب التي اشتراها للعماد من الخزائن الفاطمية
والتي لم يفصح عنها ، ولكنها بلا شك كانت من مصادر التي أخذ عنها ، كما نضيف إلى
ذلك تلك الكتب التي أعدها القاضي الفاضل إليه والتي كتب له العماد رسالة يشكره
على إرسالها له .

واعتمد العماد على القليل من هذه الكتب في القسم العجبي ومنها مذييل
السمعاني ، والروضة الزاهرة في الأمثال السائرة ، و " صواعق المشاق للقاضي عزيزي الجيلي
ويبدو أن اعتمادهم في هذا القسم كان على المشاهدة في الدرجة الأولى .

ثانياً : الدواوين الشعرية :

الدواوين الشعرية التي نقل العماد عنها ليست كثيرة ، وذلك أن كثيراً من
الشعراء كانوا مازالوا أحياء أو شباباً لم تجمع أشعارهم بعد ، أو كانوا من أصحاب الشعر
القليل الذين لم يهتموا بجمعه لقلته ، ولعل أعم الدواوين التي أخذ عنها هي :

داوود بن القيسراني ، وعرقلة الكلبي وابن قسيم الحموي والشيخ أبي محمد الحسن بن
إبراهيم التنوخي ، وثقة الله بن أبي جرادة الحلبي وكلهم ورودوا في القسم الشامي
وداود بن الحيسبي ومجد الصرب السامري ، وأبو الفنائم حبشي بن محمد ومحمود بن
محمد بن مسلم الشروطي وكلهم من القسم العراقي .

وداود بن محمد بن محمد بن عبة الله السلوي ، والملك الصالح طلائع بن
رزق ومحمد بن عاتق ، وابن الصيف ، وابن الكيزاني ، وأبو الحسن علي بن النضر
وعلي بن عرام ، وعبة الله بن عرام وكلهم من القسم المصري .

وداود بن الأبيوردي والأرجاني وغيرهما من قسم بلاد العجم .

ولم يأخذ العماد من ديوان أي من المغاربة أو الصقليين والأندلسيين ولعلنا
نلاحظ أن الداوودين الشعرية المصرية كانت أكثر من غيرها ، وذلك لأن اعتماد العماد كان
على المصادر المكتوبة ، لا المصادر الشفهية .

ثالثاً : المَسُودَاتُ الشعرية والمجاميع والأدراج والكراريس والمجلدات :

ولم يشرح العماد معنى كل واحد منها ، ومن خلال ذكره لها نستطيع القول
بأن المَسُودَةَ هي ديوان شعر لم يتم صاحبه ترتيبه ولا تنظيمه ، وأن المجموع هو كتاب
يضم بين دفتيه مختارات شعرية لشاعر أو لعدد من الشعراء ، وأن الدُرَجَ هو صحيفة
تحتوي على قصيدة أو أكثر للشاعر ، وأن الكَرَّاسَ هو ما يضم عدة أوراق فيها مجموعة مختارة
من شعر الشاعر ، وأن المجلدَ هو كتاباً يحتوي على جزء كبير من شعر الشاعر .

ولنذه كثرة إذا ما قيست بالداوودين الشعرية لأن كثيراً من المقلين كانوا
يجمعون أشعارهم في أوراق ربما كانت هي الخطوة الأولى لجعلها ديواناً كبيراً فيما بعد .

ولعل من أهم المجاميع في القسم العراقي مجموعتين للوزير ظهير الدين ومجموعاً
ثالثاً في مدائح عميد الدولة ابن جهم ومجموعاً رابعاً في شعر أبي محمد طلحة النعماني
وخامساً في شعر جمال الملك بن أفلح الشاعر وسادساً في مدائح المكين أبي علي في
المؤيد الألويسي ، وسابعاً لمقدار بن بختيار المطاميري يمدح جمال الدولة في الأبيات
المسترشدية ، وثامناً من أشعار الخطيري ورسائله ، وتاسعاً فيه شعر لأبي سعد بن

عبد المطلب ، وعاشراً للرئيس أبي غالب نصر بن عيسى الواسطي وحادي عشر في شعر
مهذب الدولة ملك البطيحة ، وثاني عشر في التقويم على مدى السنين لموفق الحكماء
الواسطي ، وفيه قصائد لشعراء عصره ، وثالث عشر في شعر ابن قزبي الشاعر .

ومن أهم المجلدات مجلدة من شعر ابن الهبائية ، وأخرى في أشعار الشريف
أبي عاشر إسماعيل بن المؤمل الواسطي .

ومن الأدراج دُرُجٌ بخط مقدار بن بختيار المطاميري .

ومن الكراسات كراسة من شعر أبي عبد الله محمد بن جارية القسار .

ومن القسم الشامي وجدنا من المجاميع مجموعاً للأمر عز الدولة شديد الملك
وأخر فيه شعر للشيخ أبي محمد الحسن بن إبراهيم التنوخي ، وثالثاً للشهرزوري ورابعاً
لمروان بن علي بن سلامة ، وخامساً بخط ابن الخازن ، وسادساً للسيد الإمام أبي الرضا
فضل الله الراوندی ، وسابعاً لعمارة اليمنى وعُني به كتابه " المفيد في شعراء زييد " .

ومن المسودات الشعرية مسودة من شعر ابن الهيثمي وأخرى من شعر فتية كان
الشافوري ، وكراسة بخط جد أبي اليسر المصري ، وجزء مكتوب بخط والد كمال الدين
الشهرزوري .

وفي القسم المصري وجدنا أن أهم المجاميع مجموع لأبي الحسن علي بن الحسن
المؤدب ومجموع آخر ألفه الجليس بن الحباب ، ومجموع في شعر ابن الكيزاني ورابع لملي
بن عباد الإسكندري ، وخامس للشيخ أبي الحسين بن مطير ، وسادس فيه كتاب للفقير
الرشيد بن قيسر فمي جواب علي صديقي .

ومن الأدراج دُرُجٌ بخط الملك السالح بن رزيك .

وفي القسم المغربي وجدنا من المجاميع مجموعاً لابن حمديس وآخر لابن السيرفي
وفي قسم بلاد المغرب اعتمد على مجموع لأبي المعالي الخظيري الوراق السابق
الذكر ، ومجموع آخر لأبي فضل بن الخازن ، وثالث لفخر الحازمي .

والمجانيع وأشباعها قليلة في هذا القسم ، وجل اعتماد المصادر الشفوية .

رابعاً : الرسائل المتبادلة بين العماد وغيره من الشعراء أو بين الشعراء وغيرهم :

وفي في القسم العراقي قليلة قلة واضحة ، ومنها تلك الرسائل التي كان العماد يتبادلها مع أصدقائه الشعراء في واسط والبصرة ومن ذلك الرسائل التي كتبها الرئيس أبو الفرج العلاء بن علي إلى العماد (١) والتي أجابه عليها شعراً (٢) . والرسائل المتبادلة بين العماد والكمال بن الحراز (٣) ، والحكيم بن العلاء محفوظ النيلي (٤) ، والقاضي العدل أبي القاسم بن الباسيسي ، وزين الإسلام الحريري (٥) .

وفي الشام جرت مراسلات بينه وبين ابن عساكر (٦) ، وقرأ رسائل متبادلة بين شعراء شاميين وأصدقائهم وكانت مصدراً له في هذا القسم .

وفي القسم المصري قرأ العماد مراسلات عديدة كانت تصل إلى القاضي الفاضل من الشعراء المصريين ومنهم ابن سناء الملك والأسعد بن ممتق (٧) .

ولم يذكر العماد أية رسائل في القسم المغربي .

ثانياً : الأثر الأسلوبى :

سنبحث تحت هذا العنوان طريقة العماد في الأخذ عن المصادر المكتوبة ، والإضافات والتعليقات التي كان يزيدنا من عنده ، سواء أكان ذلك في شرحه للمفردات أو الأبيات الشعرية ، أو في نقده لبعض الأبيات أو المقطوعات ، ومن ثم نبحت رصداً لبعض مظاهر الحياة في عصره من خلال ترجمته النثرية للشعراء .

١- طريقة العماد في الأخذ : وبهنا ما نقله العماد من الكتب الموجودة والمصادر الباقية حتى الآن سواء أكان ذلك من المجموعات الشعرية أو دواوين الشعراء ، وسوف نقدم لذلك مثالين رئيسيين .

(١) القسم العراقي ج٤ ن ١ ص ٢٦٩/٢٦٦

(٢) (٥٦٤، ٤٦٢، ٥٦٤) ترجم لهم في القسم العراقي - الجزء الرابع .

(٦) ترجم له في القسم الشامى .

(٨) (٨٥٧) ترجم لهما في قسم مصر .

أولهما : ديوان الحيص بيص الذي كانت ترجمته أطول ترجمة أوردتها العماد في الخريدة كلها .

وثانيهما : قلائد العقيان الذي كان مسدراً رئيساً من مصادر القسم المغربي ، ولم يكن نود أن تكون بعض مصادر باقية حتى الآن ، لندرس ونعرف طريقته في الأخذ من الكتب كجنان الجنان للرشيد بن الزبير ، والحقيقة لابن أبي الصلت ، والدرة الخطيرة لابن القطاع وغيرها .

أ - ديوان الحيص بيص :

لقد ترجم العماد للحيص بيص الأمير شهاب الدين أبي الفوارس سعد بن محمد بن الصفي التميمي الذي يرجع نسبه إلى أكرم بن صفي التميمي الحكيم العربي الجاهلي في كتابه الخريدة ، وتعد هذه الترجمة أطول التراجم على الإطلاق إذ امتدت من ٢٠٢ - ٣٧٣ في الجزء الأول العراقي ، ولا غرابة في ذلك ، فقد سبق أن أوضحنا أن العماد درس على هذا الشاعر ديوانه الكبير النسخم الذي طبع حديثاً في ثلاثة أجزاء كبار ، وقد رجمننا لموازنة القصائد والمقطوعات الواردة في الخريدة ، بتلك التي وردت في الديوان ، فلاحظنا أن العماد قد سلك في الأخذ ثلاثة طرق :

أما الطريق الأول فكان ينقل القصيدة كاملة وخاصة إذا كانت مقطوعة قصيرة ولكن ذلك لا يعني أنه لم ينقل قصائد طويلة .

وأما الطريق الثاني فقد كان العماد يقسم القصيدة إلى أجزاء لكل جزء منها غرض خاص ، وتكون أبيات كل جزء متصلة لا يحذف من بينها شيئاً .

وأما الطريق الثالث فقد كان العماد ينقل من القصيدة الأبيات التي تدخل مزاجه وتناول إعجابه ، وبذلك تكون القصيدة في الخريدة مفككة .

(١) اختصر العماد مقدمة الحيص بيص لديوانه ، واقصر على ذكر رأي الشاعر في الشسر وتفضيله إياه على النثر ، وحذف ما عدا ذلك . الخريدة - القسم العراقي ج ١ / ٢٠٢ - ٢٠٤ .
(٢) ظهر الجزء الثالث منه سنة ١٩٧٥ (٣) راجع القصيدة رقم (٢٦٦ ج ٢) حيث أورد الأبيات ١٠٥١ ١١٥١ ١٣٥١ ١٤٥١ ١٥٥١ ١٦٥١ ١٧٥١ ٢٨٥١ ٣١٥١ ٣٢٥١ ٣٣٥١ ٣٤٥١ ٣٥٥١
٣٨٥١ ٣٧٥١ ٣٦٥١ (٥٧) بيتاً .

(١) ويغلب على العماد إذا أراد أن يجزئ القصيدة أن يكتب كلمة * ومنها * ولكنه في بعض الأحيان يقفز عن بعض الأبيات دون هذه الإشارة .

ومختارات العماد ليست على نمط واحد أو طول واحد فهو أحياناً ينقل من القصيدة أبياتاً معدودة * وربما نزلت إلى البيت والبيتين * ولكنه أحياناً يطيل ما ينقله فيتمد حتى يصل إلى ما يزيد على أربعين بيتاً .

ومختارات العماد في الغالب إذا كانت مدحاً تكون ما قاله الشعراء فسي مدح المشهورين من السلاطين والوزراء والحكام * ويظهر ذلك من الأسماء التي أورد على في الخريدة كالوزير الزينبي * وأنوم شمران بن خالد * وأتابك غازي بن زنكي * والوزير جلال الدين أبي علي بن صدقة * والأمير دبب بن صدقة * والسلطان مسعود * محمد السلجوقي والسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وعنه المنيز * ولكنه لم ينقل قصيدة في مدح نجم الدين يزون ولا في مدح سليمان بن مهران مثلاً من لهم قصائد مدح في ديوان الحبيب بيبي .

ولم يسجل في ترجمة الحبيب بيبي أية قصيدة في مدائح صفار الحكام ووزراء الأقاليم وعلى طريقة الثمالي في اليتيمة والباخرزي في الدمية * اللذين نهجا هذا النهج .
ب - قلائد العقيان : لفتح بن خاقان القيسي الإشبيلي المتوفى سنة ٥٢٨ هـ (١٤)

لقد ترجم الفتح في هذا الكتاب لثلاثة وستين أدبياً * وقد خصص العماد لهذا الكتاب باباً خاصاً من القسم المنهوي * نقل فيه كل ما ورد في الكتاب من تراجم باستثناء أربعة من الأدباء هم : أبو الحسن بن الحاج وابنه أبو محمد * وأبو محمد عبد الله

-
- (١) وعلى كثرة تظهير في كل أجزاء الخريدة
 - (٢) لاحظ الجزء الثالث ص ١٤ والجزء الثاني ص ١٤٥
 - (٣) مواجع الديوان ١٠٧/١ طول القصيدة ٧٢ بيتاً والخريدة ٣٠٩/١ أورد منها (٤٠) بيتاً .
 - (٤) الوزير الزينبي ٢٧٤/١ ٢٧٩ وغيرهما .
 - (٥) أبو شروان ٢٦٦٣/١ ٢٨٨ من الخريدة (٦) أتابك غازي ٢٥٧/١
 - (٧) الوزير جلال الدين الخريدة ٢٤٢/١ ٢٦٢ (٨) دبب الخريدة ٢٤٣/١ ٢٩٢
 - (٩) مسعود ١٣٣/١ (١٠) السلطان محمود ٢٢٧/١ (١١) المنيز ٢٧٦/١ من الخريدة
 - (١٢) نجم الدين يزون في الديوان ٧٦/٢ (١٣) سليمان بن مهران (الديوان ٣٢٢/١)
 - (١٤) له ترجمه وافية في تقديم المحقق الاستاذ محمد العناني للكتاب في الصفحات الأولى ص ٦٥ و ٦٦ وما بعدها (١٥) قلائد العقيان ١٥٨ (١٦) المرجع نفسه ١٦٣

(١) وأبو بكر بن الصائغ ، وقد أورد علم جميعاً في هذا الباب باستثناء القليل الذين وردوا في مصادر سابقة وترجم لهم في الأبواب الأولى ، ولكنه أخذ من قلائد العقبيان ما وجدته ناقصاً عند أولئك من أخبار وأشعار ، ومنهم المعتمد بن عباد وابنه الراضى بالله ، وابن صمادح وابن عبدون وابن اللبانة وابن شرف وأبو محمد بن ساورة وأبو عبد الله بن الفخار .

ولقد زاد العماد في تراجمه المنقولة عن قلائد العقبيان بعض التراجم التي لم ترد في النسخة المطبوعة وعلى ترجمة أبي محمد عبد الرحيم بن عبد الرازق والوزير أبى القاسم بن عبد الغفور ، والوزير أبى مروان بن مثنى والوزير الفقيه أبى أيوب بن أبى أمية والوزير أبى الفضل جعفر بن الأعمى .

إن النسخة المطبوعة التي بين أيدينا لا تشتمل على هذه التراجم ، ولا ندرى أكان ذلك بسبب ضياع بعض أوراق مخطوطة القلائد أو أن العماد قد أضافها من مصادر أخرى ، والتبس عليه الأمر فجعلها من القلائد وعلى من كتاب آخر .

ونعود لنرى أكان العماد ناسخاً وناقلاً فحسب أم كان مقتبساً متذوقاً ينقل ما يحبه ، ويكتب النثر بأسلوبه الذي كان يحسبه ؟
 لنذكر بعض الأمثلة النثرية من قلائد العقبيان ، ولنورد كيف نقلها العماد فليس الخريد . وابن عبدون وابن اللبانة وابن شرف وأبو محمد بن ساورة وأبو عبد الله بن الفخار . قال الفتح عن الوزراء بنى القبطرنة : " عم للمجد كالأثافي ، وما منهم إلا موفور القوادم والخوافي ، إن ظهروا زعموا ، وإن تجمعوا تضرعوا ، وإن نطقوا صدقوا ، ما عزم صفوه وكل واحد منهم لما حبه كفوه ، أنارت بهم نجوم المصالي وشموشها ، ودانت لهم أرواحها ونفوسها ، ولهم النظم الصافي الزجاجة ، المسمحل للمجاجة ، وقد أثبت منه ما ينفج عطراً ويسفع قطراً " . قرأه العماد فاختصره وقال : " ذكر أنهم أركان المجد وأثافيه ، ولهم قوادم الحمد وخوافيه ، وأنهم للمصالي نجوم ، وللاطادى رجوم ، ولهم النظم الفائق الفائق ، والنثر الشائع اللطيف " .
 إننا نلاحظ أن العماد قد أضافها من مصادر

- (١) قلائد العقبيان ٢٢٥
- (٢) المرجع نفسه ص ٢٤٦
- (٣) المرجع نفسه ص ١٦٩
- (٤) الخريدة - القسم المغربي ٤٢٢/٣

ونعود لنرى أكان العماد ناسخاً وناقلاً فحسب أم كان مقتبساً متذوقاً ينقل ما يحبه ، ويكتب النثر بأسلوبه الذي كان يحسبه ؟
 لنذكر بعض الأمثلة النثرية من قلائد العقبيان ، ولنورد كيف نقلها العماد فليس الخريد . وابن عبدون وابن اللبانة وابن شرف وأبو محمد بن ساورة وأبو عبد الله بن الفخار . قال الفتح عن الوزراء بنى القبطرنة : " عم للمجد كالأثافي ، وما منهم إلا موفور القوادم والخوافي ، إن ظهروا زعموا ، وإن تجمعوا تضرعوا ، وإن نطقوا صدقوا ، ما عزم صفوه وكل واحد منهم لما حبه كفوه ، أنارت بهم نجوم المصالي وشموشها ، ودانت لهم أرواحها ونفوسها ، ولهم النظم الصافي الزجاجة ، المسمحل للمجاجة ، وقد أثبت منه ما ينفج عطراً ويسفع قطراً " . قرأه العماد فاختصره وقال : " ذكر أنهم أركان المجد وأثافيه ، ولهم قوادم الحمد وخوافيه ، وأنهم للمصالي نجوم ، وللاطادى رجوم ، ولهم النظم الفائق الفائق ، والنثر الشائع اللطيف " .
 إننا نلاحظ أن العماد قد أضافها من مصادر

فالعماد هنا يقرأ النص ويتبعه ويفهم زبدته ، ثم يكتبه بأسلوبه محافظاً على
بعض المفردات الأصلية في النص .

والمثال الثاني يعطى صورة أوضح قال الفتح في ترجمته للمتوكل على الله
أبي محمد عمر بن المظفر : " ملكٌ جفَدَ الكتائبَ والجنودَ ، وعقدَ الألويةَ والبنودَ ، وأمر
الأيامَ فانتصرت ، وطافتْ بكمعبته الآمانَ واعتصمتْ إلى لسنٍ وفصاحةٍ ، ورُحِبَ جنابُ اللوافدِ
وساحه ، ونظمَ يزرى بالدُرِّ النظيمِ ، ونثرَ تسرى رفته مسرى النسيمِ " .

قال العماد في ترجمته : " كان قبل سنة خمسمائة ، أورده في الملوك بعمد
المعتد وابنه الراضى ، وأثنى على عزه الماضى وحزمه القاضى ، ووصفه بسوقى الجنود ،
وحقق البنود ، وسبق الملوك في البأس والجدود ، واعتماد الآمان إلى كعبته ، واثتمار
الليالى والأيام لإمرته ، وحلاوة جنى جنابه ، ورحب ساحته وطلاوة لهجته ، وحلاوة بهجته ،
وعذب فصاحته وسياسته ، في نهيه وأمره وسلاسته في نظمه ونثره " .

ولمنا نلاحظ أن العماد قد أضاف الفترة التي عاش فيها وعلى ميزة امتازت
بها الخريدة ، فقد كان العماد ما استطاع ذلك - يذكر سنة الميلاد أو سنة الوفاة
أو كليهما أو سنة التقائه بالشاعر أو سنة انشاء القصيدة ، ولا شك أن ذكر أية سنة من هذه
جميعاً تحدد لنا الفترة التي عاش فيها الشاعر ، وتكون منطلقنا في البحث عنه في كتب
التراجم .

(٢) إضافاته وتعليقاته :

لم يكن العماد مجرد ناسخ بل كان ينسيف إلى كثير من التراجم أموراً كثيرة
ولصل من أعينها :

أولاً : شرحه لبعض المفردات وأن ذلك كان قليلاً ، كما فعل في شرح : " النفيسة
والنفيضة " ، وشرحه للكلمتى : التحين والمنحوس ، وللنفردات : شباب القمر وشبيهه ،

-
- (١) قلائد العقيان ٤١ (٢) الخريدة - القسم الصغير ٢٥٦/٢
(٣) النفيسة والنفيضة شرحها فقال " قوم يبعثون في الأرض ينظرون هل من عدو أو خوف
العراقى ٧٢/١
(٤) التحين : الكثير اللحم ، والمنحوس : الذى أخذ لحمه / العراقى ٧٣/١

وحدیثه والسمّیر ٥ وللکلمات : الحائم ٥ والجملة ٥ والجنب ٥ والحيص ٥ والراکب
والمنس ٥ والمنصت ٥ ويناضل الضیث ونشاله ٥ ونجد ذلك فی مواضع من الأقسام
العراقی والشامی والمصری والمفری ٥ ولم یکن العماد یهتم بشرح كل غامض ٥ لأن ثروته
اللغویة كانت غنیة ٥ ولهذا اقتصر على شرح ما رآه غامضاً أو محل التماس .

ثانياً : شرح بعض الأبیات الشعرية وسی شرح قليلة نسبياً ٥ ومن ذلك شرحه للبيت
الآتى :

يَأْسُدُّ أَحْبَبِيهِ الَّذِينَ تَحْمَلُوا سَعْدُ السُّعُودِ خِلَافَ سَعْدِ الذَّبِاحِ

قال : يشير إلى والده المستنجد ٥ ويقول : "إنّ زمان هذا السخی الرحيم السهل
الجانب خير من زمان أبيه الحازم ٥ الشديد السطوة ٥ الصعب الشكيمة .

وشرح البيت الحیص بیض الآتى :

عَوَّابُنُ الَّذِي جَازَى مَنَاوِلَ سَوَاطِحِ فَأَغْنَى وَأَقْنَى حِينَ أُعْطِيَ وَأَوْسَعَا

یعنی أن سيف الدولة سقط السوط من يده يوماً ٥ فناوله إنسان إياه فأعطاه وأغناه .
ومعناك أمثلة أخرى غير ما أوردناه .

ثالثاً : شرحه وتوضيحه لبعض الأماكن والأعلام ٥ وعلى قليلة أيضاً ٥ كتعليقه على مدينة
"آمد" التي وردت في بيتي شعر لمرقلة الكلبي فقال العماد : يقال لآمد : السَّوْدَاءُ
لأنها مبنية بحجارة سود ٥ ولَمِيَّافَارِقِينَ الْبَيْضَاءُ ٥ وَلِنَيْبِينَ : الْخَضْرَاءُ ٥ وَلِلْمَوْصِلِ : الْحُدَبَاءُ ٥
وَلِحَلْبِ : الشَّهْبَاءُ ٥ وَلِبَغْدَادَ : الزُّورَاءُ ٥ وَلِلْبُسْرَةِ : الْفَيْحَاءُ .

(١) السراقى (١٢٧٥١٢٦/١) (٢) السراقى ١٣٨/١ (٢) العراقى ١٣٩/١
و(٢) ٢٨٢/١ (٤) ن ١ ص ٢٣٠٦٢١٨٥٢٣ (٤٧٧٥٤٠٣٠٦٢١٨٥٢٣)
(٤) الشامى ٣٩٤/٢٥٢٦٢/١ (٥) المصرى ٢٣١/٢ (٦) المفرى ٥٥/١
(٧) العراقى ١٩٢/١ .

(٨) الخريدة - القسم العراقى ج ١ ص ٢٠٧

(٩) الخريدة - القسم العراقى ج ١ ص ٢٠٩ ٥ ٢٣٠٦٢١٧ ٥ ج ٢ ص ١٥٢ وقسم
المفرى ٢٦٩/١ وغير ذلك .

(١٠) الخريدة - قسم الشام ١٩٧/٦ ومثاله كذلك فى القسم المفرى ٨٢/٢

ومثال شرحه للأعلام التي كانت ترد في الشعر توسيحه لبيت شعر ابن عبدون الآتي :

حَكَتْ بِنْتُ بَسْطَامِ بْنِ قَيْسِ صَبِيحَةً ۖ وَرَاحَتْ كَجِسْمِ الشَّنْفَرِيِّ بَعْدَ نَائِبِ

قال العماد : أراد سببا بنت بسطام ٥ وأراد بقوله : كجسم الشنفرى بعد نائب قول الشنفرى :

فَأَسْتَبِيحُهَا يَا سَوَادَ بْنَ عَمْرٍو ۖ إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَخَلُّ

وأضاف أبياتا أخرى وردت فيها أسماء صبية بن أد وجذام ولخم ابني عمرو بن عبدو بن الحارث ٥ وأمثلة أخرى . (١)

رابعاً : تحديد مكان اللقاء وزمانه والمناسبة إن وجدت :

فالعماد في معظم مواطن الخريدة يذكر الجوازي أو المصدر ثم مكان التقائه بالراوي وزمانه محدد أو في كثير من الأحيان الشهر والسنة ٥ فإن لم يحدد الشهر اكتفى بالسنة كأن يقول : " وما أنشد فيه لنفسه ببغداد سنة خمسين وخمسمائة " وكقوله : " ودخلت يوماً إليه ببغداد قبل نكته بسنة في صفر سنة تسع وخمسين وخمسمائة " (٢)

خامساً : تحديد الغرض من المقطوعة أو القصيدة قبل إيرادها ٥ فالعماد كان يحرس في معظم أجزاء الخريدة على أن يورد الغرض من القصيدة ٥ وغو دليل على أنه كان يقرأ كل ما تصل إليه يده ٥ ومن ثم يختار أحسن ما عند المترجم له ٥ فضلاً عن إعجاب العماد به ٥ وعلى عفة عامة في الخريدة ٥ ويستطيع القارئ أن يرى ذلك بوضوح فيقول مثلاً : " قال في الذم " أو " قال في المدح " ٥ أو " في اللغز " ٥ أو " قال مفتخرًا " (٣) وما شابه ذلك .

سادساً : تعليقاته الدينية والخلقية : وهي أكثر من التعليقات السابقة ٥ فقد كان العماد يورد بعض الأبيات لشاعر من الشعراء ٥ فإذا رأى أنه خارج عن الخلق أو بعيد عن الشريعة ٥ علق عليها مستنكراً ٥ وأكثر ما ورد من ذلك في القسم المصري ٥ لكثرة الشعراء

(١) القسم المصري ج ٢ / ١٠٢ ٥ ١٠٤

(٢) الخريدة / قسم الشام ٩٦ / ٢ في ترجمة عبد الرحمن الواعظ .

(٣) القسم العراقي ١٠٦ / ١ في ترجمته لظفر بن عبيدة

(٤) راجع ترجمة ابن سناء الملك كمثال - قسم مصر (١ / ٦٤) وما بعدها .

المتشيمين للفاطميين ، وسوف نذكر أمثلة على ذلك في حديثنا عن العماد الناقد .
سابقاً : تعليقاته النقدية والبلاغية ، وليس كثيرة ، وسنخصّص لها فصلاً خاصاً عندما نتحدث
عن العماد الناقد .

ثامناً : الموازات الشعرية في المعاني المتشابهة ، فكان العماد يورد لكثير من الشعراء
أبياتاً شعرية ثم يذكر من الشعر القديم الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي أشعاراً فسي
المنى نفسه ، موازناً بين هذه وتلك ، وربما تعددت الأمثلة على المعنى الواحد ، وهذا
يدل على ثقافة واسعة للمطرد ، ومحفوظ عظيم من الشعر القديم ، وذوق أدبي عالٍ إذا ما
قيس بأبناء عصره ، والأمثلة كثيرة يراها متصفح الخريدة وقاؤها .

(٣) العماد يرصد في الخريدة بعض مظاهر الحياة في عصره :

الخريدة ليست كتاب تاريخ يؤرخ الأحداث السياسية ولا كتاباً يختص بالحياة
العلمية والثقافية ، ولا كتاب اجتماع يفصل حياة المجتمع ومشاكله الاقتصادية والصحية
وما شابه ذلك . ومع هذا وردت في الخريدة بعض عبارات متناثرة هنا وهناك تتحدث عن
مظاهر الحياة في عصر العماد ، أو على الأصح عصر الخريدة .

ففي مجال الحياة السياسية استطاع العماد أن يمدنا بسيل من المعلومات عن
الخلفاء السياسيين الذين زامنهم أو سبقوا زمنه بقليل فترجم للقائم بأمر الله ، والمقتدى
بأمر الله ، والمستظهر بالله ، والمسترشد بالله ، والراشد بالله ، والمقتفى لأمر الله ،
والمستنجد بالله ، وأورد لنا تاريخ ولاية كل منهم باليوم والشهر والسنة ، وتاريخ الوفاة ،
وأحيانا يورد سنة الميلاد أو تاريخها الدقيق ، وفي خلال هذه التراجم كان يذكر سبب
بعض الأحداث السياسية كقصة مقتل الراشد ووضع أيامه .

واستطاع العماد من خلال ترجمته لآل ديبس أن يظطينا فكرة عن الفوضى
السياسية التي كانت تحكم العراق ، فالخليفة نسيب والسلطين طامعون ، والولادة مع
الغالبين ، واستطاع بعد ذلك أن يفهمنا أن المستنجد بالله كان أممك بزمام الأمور
حين تولى الخلافة سنة ٥٦٦ ، وفي زمنه استخلصت مصر من الفاطميين ، وضمت اليمن إلى
الأيوبيين ، وأصبحت كلمته مسموعة على أرض فسيحة من العالم الإسلامي .

عرفنا

وفي القسم المرفق بكثير من الوزراء السياسيين الذين لم يكن لهم شيء من السلطة إلا ما يأمرهم به السلاطين السلاجقة وأشهر هؤلاء السلاطين سنجر وطفول ومحمد بن محمد ابن ملكشاه ومسعود بن محمد وغيرهم .

ومن خلال تراجمه عرفنا خطر البياتية الذين لم يسلم من شرهم أحد حتى الخلفاء والوزراء ، فالراشد ~~بطلوه~~ بالقرب من أصفهان .

ومن خلال تراجمه عرفنا الكثير من أعمال نور الدين العسكرية في الداخل والخارج ، فالعماد كان ينظم القواعد في كل معركة من معارك نور الدين ، وذكر أماكنها ونتائجها .

وكما تعرفنا على حياة نور الدين استطاع العماد أن يطلعنا على سير كثير من معارك صلاح الدين الداخلية الأولى التي حدثت قبل سنة ٥٧٢ هـ ، وإن كانت الخريدة لم تتحدث عن معاركه مع الصليبيين إلا في دمياط .

وقد استطاع العماد في مقدمته للجزء المصري وبعض الأخبار المتناثرة ، وفي القسم الشامي أن يعطينا فكرة عامة عن الخلفاء الفاطميين وكيفية انتقال سلطانهم إلى الأيوبيين ، وعرفنا كثيراً من وزراءهم وولاتهم وأشياهم من الكتاب والشعراء .

وفي القسم المجمع استطاع أن يوقفنا على الأحداث الداخلية فيها والصراعات التي كانت تقوم بين السلاطين السلاجقة ، والخلافات التي كانت تدور بين الوزراء وذلك من خلال حديثه عن مقتل عمه العزيز وشدوات متفرقة فيها .

أما القسم المغربي فالعماد لا يعرف الكثير من أحداثه لبعده عنه ، ولذا لم يتحدث إلا عما وجدته في المصادر التي أخذ منها ، ولذا نستطيع التعرف إلى أخبار المعتمد بن عباد ، ونهايته والمصيبة التي حلت به ، وقد كتب نبذة عن بدء تأسيس دولتهم إلى أن جاء يوسف بن تاشفين وقضى عليها سنة ٤٨٤ (١) وكذلك نتعرف على أسماء بعض الدول في الأندلس كدولة بني حماد وعلى بعض الأمراء والملوك كابن صمادح

(١) القسم المغربي ٢٥/٢

(٢) صفحات كثيرة في القسم المغربي ج ١/ ١٨٠/ ٢٣٧٤

صاحب المِيرة ، وبجاية والشماد حَبْر (١) ، وأبي ياديس صاحب المهديية (٢) .

وفي حديثه عن المتمد عرفنا بعض الحروب مع الفرنجة الإسبان ، ومنها تلك المعركة التي سُمِّها يوسف بن تاشفين عليهم سنة ٤٨٧ هـ .

وفي مجال الحياة الاجتماعية : استطاع أن ينتقل بنا خلال مشاكل المجتمع الإسلامي وأمراضه الاجتماعية الخطيرة المتفشية ومصائبه التي كانت تحل به بين الحين والحين فقد انتشر اللصوص في الشام ، وانتشر الفقر في العالم الإسلامي لكثرة الضرائب والمكوس التي كان يفرضها السلاطين المتغلبين إرضاءً لنزواتهم حتى جاء نور الدين فأغى أعمال دمشق من سرية الخشب وغيرها . وظلت بقية البلاد تترج وتئن تحت ظلم الحكام ، وحديثه عن زين الإسلام الحريري وبقيّة الشعراء في واسط والبصرة ، وتقربهم إليه ليعفهم من الضرائب : تدلنا على هذا الأمر دون كيدٍ أو تعب .

وحديثه عن نهب وسلب أموال والده وأعمامه في أصفهان وسجنهم بسبب خلاف الدركزني الوزير وهم العماد تعطينا صورة عن مدى الظلم الفادح الذي كان يحيق بالأفراد والجماعات .

وحديث العماد عن سجن كن أعوان الوزير ابن هبيرة بما فيهم أولاده وقتل بعضهم يدل دلالة قاطعة على حبّ أولئك الحكام لسفك الدماء دون وازع من ضمير ولا تمسك ولو عُثيل بالشريعة الفراء وأحكامها ، وشبيه بذلك خلافات الوزراء الفاطميين في مصر ، وقتل بعضهم بعضاً .

والأخبار المتفرقة عن الباطنية تعطينا فكرة عن مدى الخوف والرعب الذي كان يحيق بالأفراد والجماعات لعدم سيطرة الدولة أو الدول على أراضيها .

وحديثه عن الزلازل والقحط يصبو مصائب الأمة ويرسم ألوان الفقر والخوف والحرمان التي كانت ترسف فيها .

-
- (١) القسم المنقري ٨٣/٢ (٢) القسم المشري ١٤١/١
(٣) القسم المنقري ٢٦/٢ - وما بعده إلى ص ٤٣
(٤) القسم الشامي ٢٧٧/١ (٥) القسم العراقي ج ٤ ن ٢ ص ٦٧٦

واختياره لأغراض الشعر المختلفة كالمدح والنفول الفاحش يدلنا على مدى سمو الأخلاق التي كانت تنتشر بين أفراد المجتمع لكثرة الفلمان والجنواري وعدم تطبيق أحكام الشريعة .

وفي مجال الحياة العملية والعقلية والثقافية : تحدث العماد كثيراً من خلال تراجمه ، ولا غرابة في ذلك فالخريدة كتاب أدبي اشتمل أخبار العالم الإسلامي بأسره ، ومن خلال تراجمه لشخصياته تعرفنا إلى أعظم العلماء والأدباء والشعراء وسواهم ، ففي مجال العلوم الدينية عرفنا ابن الخشاب وعبد الرحيم بن الأخوة وابن عساكر والسلفسي ، والحسن البوركاني وابن عسرون وغيرهم .

وفي علوم اللغة ظهر الجواليقي والحريري صاحب المقامات وابنه زين الإسلام وغيرهم . كذلك تعرفنا إلى كبار الكتاب في ذلك العصر كالقاضي الفاضل والقاضي الجليلي والأسعد بن مهاتي في مصر وأعداد وافرة في المغرب العربي .

وقد استطاع أن يرينا من خلال تراجمه مبلغ اهتمام العلماء بطلب العلم ، وتشجيع بعض الحكام لهم ، وإغداق العطايا عليهم ، فالخليفة يستمع إلى بعض العلماء في مسجده من ينظره يجلس فيها ، وكثير من البرزاة كانت لهم مجالس علمية كابن عبيدسيرة ، وجمال الدين وزير الموصل الذي كان يفتدق الأعطيات على الشعراء والعلماء وصالح الدين كان يحتضن العديد منهم .

وعرفنا كذلك حب العلماء للعلم ورحلتهم في طلبه ، فالسلفي يرحل إلى بلاد كثيرة في فارس والعراق والشام والحجاز ومصر ، وابن عساكر وابن عسرون وغيرهما يرحلون في غربي البلاد وشرقيها في طلبه .

كما عرفنا أهم المدارس في زمنه كنظامية بغداد قبلية العلماء إلى جانب مدارس نظامية أخرى في أصفهان وغيرها ، وفي دمشق مدارس مشهورة كالممادية والنورية الكبيرة والصادرية .

وأصبحت القاهرة بفضل تشجيع الناطميين للعلماء مركزاً كبيراً للعلم ، وساعد على ذلك حب القاضي الفاضل للعلماء والأدباء وتشجيعه لهم ، بعد أن أعزى مركزه .

ومن خلال أحاديثه عرفنا أهمية المساجد ودورها العظيم في الحفاظ على الإسلام وحضارته ، فكثير ممن ترجم لهم كانوا أئمة مساجد وشيوخ علم .

إن كثرة الأدباء في الخريدة من شعراء وكتاب تعطينا فكرة عن انتشار التعليم وكثرة الأجناس التي ترجم لها — من عرب وفرس وترك وغيرهم — تدلنا على انتشار التعليم بين جميع هذه الجماعات دون تمييز .

وحدیثه عن المذاهب المختلفة — من خلال تراجمه للشعراء الفاطميين خاصة والشيعة عامة — يدلنا على الصراع القوى الذي كانت رجاه دائرة بين السنة والشيعة .

وكثرة مصادر العماد الأدبية والتاريخية المكتوبة تدلنا على حب الناس للتأليف في الأدب والتاريخ ونظم الشعر وجمعه في دواوين وكتب .

(٣) شخصيته وطابعه :

تظهر شخصية المؤلف في أسلوبه الذي يدل عليه وحده ، ويميزه عن غيره من الكتاب ، وقد كان للعماد أسلوب مشهور يعتمد على السجع والجناس والمحسنات اللفظية ، مع ميل إلى الغرابة في بعض الأحيان ، وقد كان يفخر به — كما أوضحنا كثيراً — ويمسده قمة الأساليب جمالاً وأرفعها أسلوباً ، ولذا سبيحت في هذا الموضوع عن مدى ظمهور أسلوبه هذا في الخريدة ، كما سبيحت عن غاية عدله وعدم تعصبه في ترجمته للألفاظ الإسلامية المختلفة ، وعن مجال استقصائه لجميع شعراء زمنه ، ثم عن شدة إهتمامه بترجمته للشعراء ، وعدم إهماله للبعض ، ونختم هذا الموضوع ببحثنا عن أمانة العماد العلمية وتجرده وعدم تحيزه في معلوماته الكثيرة .

أ — بروز أسلوبه الكتابي :

للعقاد أسلوبان واضحا في الخريدة ، والنوع الأول مضمها يمثل أسلوبه الحقيقي الذي يلتزمه دائماً في كل كتاباته التاريخية ورسائله النظرية ، والثاني مضمها يظهر حين ينقل من كتاب أثناء ترجمته للشعراء الذين لم يلتق بهم أو الذين سبوا عصره . أما النوع الأول فيظهر واضحاً في حديثه عن الشعراء الذين عرفهم وعرفوه ،

وأعجب بهم وبعلمهم وسلوكهم ، وعند ذلك نجد السواد يطيل الشناء عليهم ويكثر من مدحهم ويبدى إعجابهم الشديد بالكثير منهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه في ترجمته للقاضي الفاضل حيث قال في وصفه : " صاحب القرآن ، العديدم الأقوان ، وواحد الزممان العظيم الشأن رب القلم والبيان ، واللِّسَن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النفاذة والبدية المعجزة ، والبدية المطرزة " (١)

وما كتبه في ترجمته لعلم الدين الشاتاني وهو صديقه ، وأحد رواة الخريدة قوله : " أبو علي الحسن مقامه بالموصل ، ومقره أعله ، ومطار فضله ، ووكره فراخه ، وورد نقاخه ، ومناخ أشياخه ، ومزى مزايه ، ومرعى سواحه ، ومراد مراده ، ومزى جواده ، ومراج مزاجه ، ومندى فلاحه ، ومزج اغتباقه واصطباحه ، ومزج اغتباطه واصلاحه " (٢)

والأمثلة على هذا النوع من الأسلوب كثيرة يجدها القارئ في كثير من مقدمات تراجم السواد للشعراء .

والنوع الثاني من هذا الأسلوب حين ينقل من مصادر أخرى - وقد ذكرنا آنفاً أمثلة لذلك فيما أخذه من كتاب قلائد المعيان - وزيادة في التوضيح نذكر أمثلة أخرى من غير هذا الكتاب .

ومن ذلك ما كتبه في ترجمته لابن البشري - ناقلاً عن كتاب المختار في الشعر والنثر لابن بشر بن المهدي - قال : " معظم ما يذكره ابن بشر بن في المختار - شعره الأندلسيين : يرويه عنه ، ويذكر أنه لقيه في مدينة صقلية ، وقد صنف لملكها رجار الإفرنجي في مسالك الأرض وممالكها كتاباً كبيراً سماه نزعة المشتاق في مخترق الأفاق " ثم ألق بعده لولده غلبوم صاحب صقلية كتاباً في المعنى سماه : " روض الأنس ونزهة النفس " ووصفه ابن بشر بن " (بالقدرة على) توليد المعاني في الشعر وتجويد طبا ، وتوطيد المباني في السحر وتشبيدها لاسيما في توشية التوشيح وتوشيح قظه والملبيح ، فإنه حاذق زمانه وسابق ميدانه ، وهو قريب من عصرنا هذا " (٣)

(٢) قسم الشام ٢/٢٦٦

(١) قسم مصر ١/٣٥

(٣) القسم المصري ١/٢٦٠

إنَّ هذا المثال وغيره يبين لنا مدى تأثير العماد وتفيده بالمصدر ، فالعماد
مصطلح - للأمانة العلمية - أن ينقل ما قاله صاحب المصدر عن المترجم ، وألا يزيد عليه
شيئاً سواء أكان ذلك قدحاً أو مدحاً إلا إذا كان ذلك تعليقاً للعماد على قصيدة أعجبت به
أو لم تعجبه ، إذن فهو مقيد بمعلومات المصدر ، وإن كان يغير بعض ألفاظ النص
بالفاظه هو ، ويحافظ على معناها ، ويشير دائماً في بداية النص أنَّ هذا الكلام ليس
كلامه مستعملاً كلمة : " ذكر أو يذكر " أو ما شابه ذلك .

ولعلنا نلاحظ أنَّ الصناعة اللفظية هنا أقل من أمثلة النوع الأول ، إلا أن أسلوب
العماد له أثر واضح هو الآخر ، وإن كان - كما قلنا - أخف من أمثلة ذلك النوع .

ثانياً : عدم تخصصه لفقط دون آخر :

لقد قسم العماد الخريدة إلى أربعة أقسام يتناول في كل قسم منها الحديث عن
رجال منطقة إسلامية كبيرة ، متناثرة في هذا التقسيم أحياناً بالوضع السياسي وأحياناً
أخرى بالوضع الجغرافي ، وإن كان تقسيمه لا يحكمه غميط واحد ، وفي تراجمه لكل قسم
نرى بوضوح أنَّ العماد لم يتعصب لأي قطر منها في ذكر عدد الشعراء أو سواه ، بل
تكاد نقول : إن القسم الذي كان الأدباء والمؤلفون مهملونه في كثير من الأحيان ، ونعنى
به قسم مصر والمغرب الذي أطلق عليه العماد اسم القسم الرابع ، نستطيع القول بأنَّ العماد
أعطاه جهداً خاصاً وأنَّ مجموع تراجمه يفوق بقية الأجزاء كلها على حدة ، فقد ترجم العماد
في القسم المصري لتسعة وثلاثين ومائة ، وترجم في القسم المغربي لثلاثة وثمانين ومائتين

وبذا يكون مجموع تراجم القسم الرابع اثنين وعشرين وأربعمائة شاعر وكاتب فإذا
وازننا هذا العدد السخيم بعدد تراجم القسم العراقي التي بلغت إحدى وتسعين ومائتين
أو بعدد تراجم القسم الشامي التي بلغت ثمانياً وأربعين ومائتين ، أو بعدد تراجم القسم
العجمي التي بلغت قرابة ثمان ومائتين ، استطعنا القول بأنَّ العماد أعطى القسم الرابع
" مصر ومغربية والمغرب والأندلس " جهداً خاصاً كما سبق .

فإذا وازنا ذلك بالقيمة والدمية وجدنا أن العماد كان عدلاً واضحاً إذ خصص
الشعالي قسمين من أقسام اليتيمة الأربعة لشعراء بلاد المجمع ، وخصص للباخرزي ثلاثة
أقسام من أقسام الدمية السبعة لبلاد العجم فضلاً عن شعراء العجم الذين أوردتهم في القسم الرابع

والذي خصصه لأئمة الأدب الذين لم يرد لهم إلا الشعر النادر .

غير أننا نلاحظ نوعاً من التعصب الخفيف لمسقط رأسه "أصفهان" التي خصص لها الجزء الرابع من الخريدة أو الجزء الأول من القسم الثاني ، وترجم فيه لثلاثة وستين شاعراً ، وهو عدد لم يصل إليه شعراء أية مدينة سوى بغداد ، وبغداد فيها شعراء من كل البلاد الإسلامية ، جاء منها واستوطنوا فيها ، فضلاً عن أنه ترجم لشعرائها وشعراء توابعها .

وربما وجد نوع من التعصب لبعض الشعراء من شيوخه أو من أصدقائه أو ممن أعجب بهم ، وهذا أمر عادي لا غرابة فيه ، فالترجمة تكون طويلة حسب المصدر ، فإذا اتقى العماد بالترجم ، وعاش معه وعاشه كان ذلك مصداً عظيماً للعماد يجعله يطيل الترجمة .

ثالثاً : استقصاؤه لشعراء عصره :

لا شك عندنا أن العماد قد حاول أن يستقصى ويستكتمه العدد الأكبر من شعراء عصره ، ولكن هذا لا يعني أنه ترجم لهم جميعاً ، فابن خلكان يرى أنه "لم يترك أحداً إلا النادر الخامل" ^(١) والأستاذ الأثري يرى أنه مع محاولة استقصائه ترك شعراء كثيرين لم يهتد إلى معرفتهم بدليل تذييله على الكتاب فيما بعد بكتاب السيل .

لقد سبق أن أشرنا - في أخذنا عن أخذ العماد من فلاح المقيان - إلى أنه ترك أربعة من الشعراء ، ولا ندرى حتى الآن لماذا ترك الحديث عنهم .

ومن أشهر الشعراء الذين لم يترجم لهم الشاعر الدمشقي "أبو عنيب" الذي ولد سنة ٥٤٩ هـ في دمشق ، وشهد في شبابه وفرة نور الدين ، وأقدم أصحاب الدين . ولكنه كما يذكر محقق الديوان " لم يحاول التقرب من السلطان ولا من وجاه دولته أو المؤيدين إليه ، بل وقف موقفاً الناقد الساخر الذي يخمر الدولة والقائمين بها من وزراء وقضاة وقضاة ، كما يخمر علماء دمشق ورواسيها ، وأعيانها ، ولقد بلغت به الجرأة مبلغاً بعيداً

(١) وفيات الأعيان ٤ / ٢٤٥

(٢) الخريدة - تقديم الأثري للقسم البراهي ج ١ / ٨٢

حِينَ عَرَّضَ بِصَلاَحِ الدِّينِ وَسَخَّرَ مِنْهُ فَقَالَ :

سُلْطَانُنَا أَعْرَجٌ وَكَاتِبُهُ ذُو عَعْنٍ وَالْوَزِيرُ مِنْ حَيْدٍ (١)

فالسلطان معروف والوزير هو القاضي الفاضل ، والكاتب هو العماد الأصفهاني الذي وصفه الصفدي بأنه كان ذا ععن في عينيه - كما ذكرنا في صفاته - ومن هنا يتضح السبب في عدم الترجمة له في الخريدة ، وإن كنا نعجب من هذا الإغفال ، لأن ابن عنيين نظم الشعر سنة ٥٦٥ هـ ، والخريدة انتهى ^(٢) في سنة ٥٧٢ هـ ، والسلطان لم ينف الشاعر إلا قبيل سنة ٥٧٥ هـ ، ومعنى ذلك أن ابن عنيين اشتهر بالهجاء سبع سنوات قبيل خلافته مع صلاح الدين ونفيه . وقد كان أولى بالترجمة من تاج الملوك بوري أخى صلاح الدين المولود سنة ٥٥٦ هـ ، والذي ترجم له العماد وعمره ست عشرة سنة ، ومن المؤكد - لما سبق - أن شهرته اللاذعة بالهجاء كانت السبب في إهماله ، وربما ترجم له قبل ذلك ثم اسقط ترجمته لهجائه صلاح الدين .

ومن المظاهر الملاحظة أن العماد لم يترجم للشعراء الشباب في القسم المغربي ولعل سبب ذلك اعتماده على المصادر المكتوبة التي تنتهي عند زمن معين ، وكلها سبقت الخريدة بسنوات ، ولو اعتمد فيها على المشافهة لترجم للشعراء من شباب المغاربة كما فعل حين ترجم لابن سناء الملك وقتبان الشاغوري والكمال بن الحراز وغيرهم .

وعو مثلاً لم يترجم لمحمد بن عبد العزيز السوسي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ ، وترجم له صاحب شذرات الذئب فيما بعد ، ولم يورد محمود بن الحسن بن تبهان السدي أورد له أبو شامة شعراً في أخبار سنة ٥٧٥ هـ ، ولا ترجم لأبي غالب محمد بن سلطان ابن الخطاب الواسطي الذي أورد له أبو شامة نقداً عن العماد في البرق الشامي ، وهذا دليل على أنه لم يكن قد سمع به ، ولكنه بعد أن انتهى من الخريدة جاءه من أسمعته شعره أو جاء الشاعر نفسه إلى الشام لمدح السلطان .

-
- (١) ديوان ابن عنيين - تقديم المحقق الاستاذ خليل مردم ص ٦ والقصيدة في الهجاء طويلة ص ٢١٠ (٢) ديوان ابن عنيين - المقدمة ص ٧
(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها . (٤) بداية قسم بلاد الشام ١٣٤
(٥) شذرات الذئب - وفيات ٥٣٩ سنة (٦) الروضتين ١٢/٢
(٧) المصدر السابق ١٦/٢

عذره أمثلة ذكرناها لنثبت أنّ العماد نسي أو أهمل كثيراً من الشعراء غير الخاملين ، وإما لأنه لم يسمع بهم ، ولم يذكرهم له رواته من الأدباء والشعراء ، وإما لسبب آخر ومن هنا إعطى العماد إلى أن يذيل الخريدة فيترجم لمن فاتته ذكرهم فيها .

رابعاً : إسهابه في ترجمته لبعض الشعراء واختصاره للآخرين :

لقد اختلفت طريقة العماد في إسهابه أو اختصاره لتراجم الشعراء فبعضهم كالحييبي بيبي وابن سناء الطليح ، والأبيوردي وغيرهم أطلال في تراجمهم وأسهب فيها ، حتى بلغت عشرات الصفحات أي ربما زادت على المائة كما هو الحال في ترجمته للحييبي بيبي ، وفي الوقت نفسه نجده يترجم لشاعر آخر فلا يذكر سوى اسمه وبيتين من الشعر له ، وربما زادت على ذلك .

فهذا المنهج قد يدل على أنّ العماد ربما أشغل هؤلاء عن قصد ، وربما أسهب في أولئك لتفاية في نفسه ، وإن لنا لا نعتقد ذلك ، لأن الإسهاب ربما كان لتعده المصادر أو التعرف إلى المترجم أو لالتقاء الشاعر بالعماد وتعرفه عليه ، وبالتالي يصبح العماد على اطلاع كبير من جهة شعره وحياته فتطول ترجمته ، أو ربما كان له ديوان كبير فيجد العماد مادة طويلة يوردها في الخريدة . أما الشعراء الذين اختصر تراجمهم فيمورد ذلك إما لقلة شعرهم أصلاً ، أو لأن الرواة أو المصادر الحكومية لم تورد لهم إلا تلك الأبيات القليلة ، فلا يجد العماد ما يورده لهم في ترجمته .

ومع ذلك لا ننكر أنّ العماد قد أهمل في بعض التراجم لأكثر من سبب كاعتماد على الذاكرة والذاكرة كثيراً ما تخون صاحبها فينسى .

ومثال ذلك ما ذكره في ترجمته لتاج الدين أبي علي الحسن بن عبد الله بن المظفر ، الذي سمع منه العماد بعض أشعاره في اللغز الأحاجي ولكنه نسيها تماماً فقال حين خاتمه ذاكرته :

” وسأورد له ما أتذكره ^(١) وكذلك كان الأمر مع عز الدين محمد بن شبيبة حيث فقد شعره ^(٢) ”

(١) الخريدة - الجزء الأول العراقي ص ١٢٢

(٢) المصدر نفسه القسم العراقي ج ١ ص ١٠٠ وهذا ما حدث كذلك في ترجمة ابن داود القنا ج ٤ ص ١٦٢ (القسم العراقي)

ومن ذلك ترجمته لأبي البيان محمد بن أبي غانم بن أبي الحصين الذي ترجم له وذكر أنه سمع وقرأ شعره من مصدرين أحدهما القاضي أبو اليسر والثاني مذييل السمعاني ولكنه لم يذكر له شعرا ، اللهم إلا إذا كانت هذه الترجمة أو بعضها قد سقط ، لأن هذه الترجمة لم ترد في مخطوطة الجمعية الآسيوية في كلكتا ، ومنها كذلك ترجمته لصدر الدين بن عبد اللطيف بن محمد الخجندی الذي لم يورد له الكثير من شعره لأنه لم يثبت شيئاً منه ثقة بالزمان وأنه سيبقى في أصفهان - كما يقول - .

ومن النوع الثاني ما سقطت فيه بعض التراجم أو ضاعت أوراق منها وأشعار وذلك لرحيله عن أصفهان ، فما كان يجمع الكثير مما سمعه في أصفهان من فضلائها وأدبائها ولكنه كما يقول في مقدمته لقسم بلاد المعجم : " وقد ذكرت في محاسن أهلها وذوى فضلها ، ما علني بحفظي أو علقته عند مقاصي بها ، وإني أعرض الفوائد من غير قصد لجمع هذا الكتاب ، فشدّ عني بعض من به من أهل الفسّل والآداب " .

وعذان النوعان من الأمثلة لا يلام العماد عليهما كثيراً ، خاصة الثاني منهما . أما النوع الأول فهو إيمان لا قيمة له إذا ما قيس بالمجهود العظيم الذي بذله العماد دون سجر ولا شكوى خلال فترة تزيد على ربع قرن من الزمان ، وهو أمثلة ليست بالكثيرة .

خامساً : الأمانة العلمية والتجرد :

ترجم العماد في خريدته لأجناس عديدة من سكان العالم الإسلامي في عصره ، والعصر الذي سبقه ، ومنهم العربي والفارسي والكردي والتركي ، وتحدث عن شعراء لهم مذاعب دينية ، فمنهم السني والشيخي ومنهم الحنفي والحنيلي والشافعي والمالكي ، وتنقل العماد خلال العالم الإسلامي طويلاً وعرضاً ، فمن الأندلس غرباً إلى خراسان وأصفهان شرقاً ، فهل استطاع العماد أن يكون عادلاً منسقفاً بين كل هؤلاء الأجناس والمذاعب ، وهل جعل للأدب الحكم الأول على الشعراء ؟؟ .

أما أنه ترجم لهؤلاء جميعاً ، فهذه حقيقة واضحة ، وقارئ القميين السراقسي

(١) قسم الشام ج ٢ / ٦٧

(٢) الخريدة - قسم المعجم ج ١ الورقة ٤٧

(٣) قسم بلاد المعجم المخطوط ج ٤ الورقة ٢

والمعنى يلاحظ أنه كان ينبه إلى المذهب الدينى للشعراء ، فيقول مرة " كان شيخ الشافعية " أو مدرس الحنفية " ، أو " شيخ الحنابلة " ، وما شابه ذلك .

فالعماد وإن كان ينبه إلى المذهب الدينى للشاعر لا يجعله مقياساً فى الحكم عليه ، وإنما الحكم فى ذلك لجودة الشعر ، ومنزلة المترجم له بين الشعراء ، وقد ترجم العماد لشعراء من الشيعة ، ولكنه كان واضح التحيز ضدّهم وذلك يعود إلى أسباب :

أولهما : أنه شافعى ، وثانيها هو الرئيس - تلك الخلافات التى كانت مشتتة بين العباسيين والفاطميين ، والتى حمل لواءها نور الدين زنكى ، ثم صلاح الدين أثناء ولايته لمصر وحكمه لها ، والتى من خلالها تم القضاء على الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، ولهذا كان تحيزه ضدّ شعراء الشيعة وقد أعلن ذلك مرات فى الخريدة خاصة فى القسم المصرى ، مما حدا بالكتور شوقى صيف أن يقول : " على أنه ينبغى أن أشير إلى أن العماد فى هذه المنتخبات نحىّ عامداً كثيراً من الأشعار التى صاغها الشعراء فى مديح الخلفاء الفاطميين وخاصة تلك التى تبالغ فى مديحهم ، وتنفى عنهم صفات والهيئة " (١) وكان الدكتور صيف يأمل أن يحفظ العماد أشعار الشيعة حتى يعرف مدى تغلغل النحلة الفاطمية فى نفوس الشعراء وإلى أى حدّ استجاب لها المصريون . " (٢)

ولعلّ من شبهه ذلك ما فعله العماد حين حذف بعض أشعار الشاعر الثبيري لأنه مدح رجار ملك صقلية معللاً ذلك بأنها مدح فى الكفار .

ولعلّ من دلائل تجرد العماد وأمانته العلمية ، إيراد ذلك الشعر الفاحش فالأمانة العلمية تدعوه إلى إيرادها (٤) ، وإن كانت الأمانة الخلقية تأمره بحذفها والتخلّص من شعراً .

ولعلّ من دلائل أمانته كذلك تنبيهه إلى كثير من الأخبار التى كان يشك فيها ، فقرأه يقول : " أظن كذا " أو يقول : " سمعت أن هذا الشعر لفلان . . . " (٥) .

(١) الخريدة - القسم المصرى - تقديم المحقق ج ١ ص ن

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٣) الخريدة - القسم المغربى ج ١ / ٢٤ وربما حذف كذلك بعض أشعار عبد الرحمن بن رمضان المالطى لهذا السبب ج ١ ص ٢٠ (المغربى)

(٤) القسم العراقى وغيره راجع ج ٤ منه الصفحات ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠

(٥) قسم الشام ٢ / ٢٢٥ وغيره

ولعل من دلائل هذه الأمانة أيضاً تحققه من صحة رواياته ، ففي كثير من الأحيان كان ينقل القصيدة من مصدرها كتاباً أو رايماً ، ولكنه يعود ليتأكد من صحته من مصدر ثان ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، وهي متناثرة في الخريدة كلها .

إن أمانته تظهر حين يترجم لشاعر نسي اسمه ، فيسميه الشاعر البدوي ، أو شاعر كذا ، وقد وردت أكثر من ترجمة في هذا المجال ، ومنها ترجمته لرجل سماه "رجل سنبسى من يد و مصر" ، ثم ذكر قصة سماعه لشعره ونسيانه لإسمه .

لقد أظهر أمانته بوضوح حين لم يترجم لوالده وهو الرجل الأديب الراوية ود لالتنا على كونه أديباً ما كتبه العماد من أن والده كان يأمل في وضع كتاب يجمع فيه فضلاء أصفهان ٠٠ ، وعلى كونه رايماً تلك الروايات الكثيرة التي وردت في الجزئين الرابع والخامس (القسم العجوى) نقلاً عن والده ولو شاء العماد لترجم له ضمن شعراء أصفهان وكتب له عدة أبيات وخلد ذكره من حيث هو شاعر .

ولكننا أينما إلى جانب ما سبق ، نتساءل لماذا لم يذكر شعراً في مدح الأنساباذى الدر كزنى قاتل عمه ؟ وكل الوزراء في ذلك العصر كانوا يمدحون لينال الشراء أعطياتهم ومنحهم ؟؟ ونحن نميل إلى أن العماد تحيز ضده ، ولذا لا نجد في يورده أية مقطوعة نسي الخريدة في مدحه وفي الوقت نفسه وجدنا في ترجمة الحيس بعض قصائد عديدة في مدح الوزير أنوشروان بن خالد (٥) وسلم مزامن الأنساباذى وكان محبوباً في بيته حين تولى الوزارة " نمنى أنوشروان " .

(١) في التراجم المتكررة التي أشرنا إليها خاصة في القسم المغربي الذي كثرت فيه التراجم المتكررة . (٢) قسم مصر ١٤٦ / ٢

(٣) الخريدة - قسم بلاد النجم المخطوط ج ٤ الورقة ٢

(٤) الخريدة - القسم العراقي ج ١ ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٥) حين غضب السلطان السلجوقي على الأنساباذى حبر الأنساباذى واتخذ أنوشروان وزيراً وسلمه الأنساباذى وقد روى العماد أن أنوشروان قد عامل الأنساباذى معاملة لطيفة . تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٢٦ وما بعد بقليل من وزارة أنوشروان .

الفصل الرابع

العماد النقاد

لم يؤلف العماد كتاباً - الصافي في النقد - ولم يخصص من الخريدة أجزاء يتحدث فيها عن آرائه النقدية ، ولكن آراءه عن هذه جاءت مبثورة في جميع أجزاء الخريدة وفي ثنايا ترجمته للشعراء ، فإذا ذكرت به قصيدة أو بيت من الشعر أو عبارة من الشعر علق ونقد مَحْجَباً أو مَصْحَاحاً أو مَنبَهياً إلى الخطأ حين يجده ، وقبل أن ندرس آراءه عنده واستكمالاً لبحثنا لهذا ، وحتى نضع القارئ اللبيب في الجوارح العام للنقد في عصر العماد نقدم لموضوعنا بدراسة قصيرة نتحدث فيها عن أعم النقاد في عصره وأهم آرائهم النقدية فنقول :-

النقد في عصر العماد وأبرز أعلامه :

عاش العماد في عصر طفق فيه البديع والصناعة اللفظية على أسلوب الأدب وأصبح مقياس الجودة ، يقوم على مدى التزام الأديب بالبديع والصناعة اللفظية ، فإذا حاول الخروج عن هذا المذهب ولم يلتزمه عد ضعيفاً ، ولم ينل حظوه عند الحكام ، وقارئ مقامات الحريري يرى تمسكه بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية ، فيحس مدى التزامه بالجناس والطباق والتورية وما شابهها .

وقد عرف ابن رشيق البديع فقال : " البديع هو الجديد " وقد سبق أن تحدثنا في تقديمنا للعماد الكاتب عن أطوار الكتابة في العصر العباسي إلى زمن العماد .

لقد كان لابن المعتز - الذي عاش في القرن الثالث - فضل السبق في فصل علم البديع عن البلاغة ، وتابعه في عمله هذا بعض من جاء بعده أمثال أبي علال العسكري وابن رشيق الفيراني صاحب الممددة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ثم جاء ابن الأثير فألف المثل السائر ، وأسامة بن منقذ فألف كتابه " البديع في نقد الشعر " وابن أبي الأصبغ فألف كتابه " تحرير التحبير " . وقد درست هذه الكتب البديع وقسمته إلى أنواع ، واختلفت في عددها فبينما كانت عند ابن المعتز سبعة وعشرين نوعاً جعلها أسامة بن منقذ خمسة وتسعين نوعاً وجعلها ابن أبي الأصبغ تسعين باباً .

(١) الممددة ج ١ ص ٣٦

(٢) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد د . محمد زغلول سلام ص ٢٢٥

(٣) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ تحقيق الدكتور أحمد بدوي

(٤) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد د . محمد زغلول سلام ص ٢٢٥

وقد تداخلت بعض أنواعها ، وأصبح للجزئيات الصغيرة منها أسماء خاصة بها .
وامتاز لهذا المذهب : باهتمام أصحابه بالجمال واستفلال اللفظ ^(١) —
متعددة ، ومختمدين في ذلك على الخصائص الصوتية حيناً والمرمزية حيناً آخر . ويرى
الدكتور سلام أن أصحابه لم يتحلوا عن الذوق ، ويرى كذلك أن دراسات علماء الشام ومصر
تميزت بالرقّة والصفاء والسهولة ، وقال : فليست في كتاباتهم تلك الوعورة ولا ذلك التعقيد ،
ولا تختلط بأدابهم المذاهب الفلسفية والكلامية ، ولأمر ما لم تعش المذاهب العقلية —
متكلمين معتزلة وغير معتزلة ولم تفرخ ، بل تغلبت عليها مذاهب أغل السنة ^(٢) .

ولعل من أعمّ النقاد الذين زامنوا العماد ضياء الدين بن الأثير وزير الأفضل ،
وكانت المنافسة بينه وبين العماد على أشدها — كما ذكرنا في الباب الأول — ومنهم كذلك
أسامة بن منقذ صاحب كتاب " البديع في نقد الشعر " والذي التقى بالعماد وسمع منه
الكثير من أشعاره وترجم له في الخريدة ، ^(٤) أما ابن أبي الأصبغ فقد تأخر زمنه إذ توفى
سنة ٦٥٤ .

وأسامه بن منقذ كان شاعراً كبيراً وفارساً كنياً وهو من حصن شيزر وقد قضى فترة
طويلة من حياته في كفاح وجلاء وحرب سرور مع الفرنجة ، وانتقل إلى مصر وشارك في بعض
أحداثها الداخلية ، وكتابه " البديع " مطبوع في مصر بتحقيق الدكتور أحمد بدوي
وقد جمع فيه أنواع البديع ووصل بها إلى خمسة وتسعين نوعاً ، وقصره على البديع ، فلم
يتعرض لأبواب المعاني .

وأكثر من الشواهد القديمة الجاهلية منها والعباسية وما بينهما ، ومعظم
أبواب الكتابة منقولة عن سابقه ، وهو يحترف بذلك في مقدمته لكتابه ، وقد انتقده من قبله
بعده من النقاد أمثال ابن أبي الأصبغ في تحرير التحبير وابن حجة الحموي وغيرهم ،
وذلك لأنه ضم غير البديع إلى البديع ، وخلط بين الأبواب المختلفة وخلط بين الكفاية
والتورية وبين التذييل والتتميم والمبالغة وغير ذلك .

(١) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد د . محمد زغلول سلام ص ٢٢٤
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٧ (٣) راجع مفرج الكروب الجزء الثالث في صفحات كثيرة منه
(٤) الخريدة ج ١ ص ٤٩٨ قسم الشام (٥) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ (المقدمة)
(٦) راجع ما كتبه عنه الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه : ضياء الدين الأثير وجهوده في

أما الكتاب الثاني فهو " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " لضياء الدين ابن الأثير ، وسو عالم أديب عربي الأصل شيباني النجار ، ولد في جزيرة ابن عمر القريبة من الموصل ، وتنقل في البلاد طلباً للعلم ، وعمل مع الملك الأفضل وغيره وألّف عدة كتب أشهرها المثل السائر ، وتوفي في سنة ٦٤٧ ببغداد .

وقد طبع هذا الكتاب طبعات عدة آخرها بتحقيق الأستاذين الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة .

ويعد ضياء الدين في كتابه هذا صاحب مدرسة نقدية جديدة ، حاول فيها التخفيف من استعمال كتاب زمنه للبديع خاصة السجع والجناس ، ويبدو أن عداؤه التقليدي للعماد جعله يشور على طريقته ، فقد ذكر الدكتور عمر موسى باشا أن ابن الأثير حاول هدم أركان المدرسة الحصكفية التي مثلها كما يقول : " القاضي الفاضل والعماد الكاتب فمدرسة ابن الأثير تحاول بحد هذا الهدم أن توجد نظرية جديدة في جوهر السجع العربي ، وتعتز على طبع البيان العربي كله بطابع التصنع السجعي " .

ويرى الدكتور عمر موسى باشا كذلك أن هذه المدرسة أحدثت ضجة في حياة صاحبها ولكنها لم تستطع أن تكمل الطريق بعد وفاته بحكم محافظة الطبائع البشرية على ما ورثته وعدم تقبلها الجديد إلا بعد فترة طويلة .

وفي خطبة كتاب المثل السائر ذكر ابن الأثير أن مدار البيان على حكم الذوق السليم وأن الدرّة والمران والإدما أن جدى للأديب من التعلم وأنفع .

وقد تحدث في كتابه هذا عن آلات علم البيان وأدواته وجعلها في ثمانية أنواع على : معرفة علم العربية من النحو والصرف ، ومعرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، ومعرفة أيام العرب وأمثالهم والاطلاع على المنظوم والمنثور ، ومعرفة الأحكام السلطانية ، وحفظ

-
- (١) مفرج الكروب ج ٣ ص ٦ وما بعدها / وضياء الدين بن الأثير — للدكتور سلام ٥٠/٣١ وله ترجمة في تقديم المحققين للمثل السائر ج ١ ص ٣١
(٢) الحصكفي : سبقت ترجمته وسو يحيى بن سلامة الحصكفي الكاتب المشهور توفي سنة ٥٥١ حسب رواية العماد . وترجم له في الخريدة ٤٧٠/٢ (قسم الشام)
(٣) الأدب في بلاد الشام ص ٧٧٤ (٤) الأدب في بلاد الشام ص ٧٧٥

القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، ومعرفة علمي العروض والقافية . (١)

وتحدث في فصول أخرى عن المعاني والحقيقة والمجاز والفصاحة والبلاغة والطريق إلى تعلم الكتابة وجعلها في ثلاثة أمور هي : حل الأبيات الشعرية ، وحل آيات القرآن وحل الأخبار النبوية .

وتحدث كذلك في الصناعة اللفظية وقسمها إلى قسمين : الأول في اللفظة المفردة ، وقسم الألفاظ إلى جزله ورفيقة وأخرى مبتدلة ، كما تحدث عن عدد حروف الكلمة ، وخفة حركاتها وبعض صفاتها الأخرى .

والقسم الثاني جعله في الألفاظ المركبة ، وقد حصرها في ثمانية أنواع هي :

- (١) السجع ٢- التجنيس ٣- الترصيع ٤- لزوم ما لا يلزم ٥- الموازنة
- (٦) اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها ٧- المعاطلة اللفظية ٨- المنافرة بين الألفاظ في السبك والمنافرة في اللفظ المفرد ، والمنافرة في الألفاظ المتعددة .

كما تحدث عن الصناعة المعنوية وذكر أمثلة كثيرة ، وتحدث عن أنواعها وجعلها في ستة عشر نوعاً ، فشرح الاستعارة والتشبيه والتجريد والالتفات وتوكيد التسمين وعطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده ، وفي التفسير بعد الإبهام ، وفي استحصال المعام في النفي والخاص بعد الإثبات ، وفي التقديم والتأخير ، وفي الحروف المعاطفة والجار ، وفي الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية ، والفرق بينهما ، وفي قوة اللفظ لقوة المعنى وفي الاستدراج والإيجاز ومنه حذف الجمل وحذف المفردات ، وفي الإطناب . (٤)

كما تحدث بتوسع عن السرقات وموضوعات أخرى كالاشتقاق والتضمين والتوشيح وغيرها . (٥)

العماد بين النقد الذوي والنقد الموضوعي :

لم يضع العماد نظريات جديدة في النقد ، ولم يأت بمنهج متكامل ، كما فعل

(١) المثل السائر ج ١ ص ٤٠ = ٧٢ (٢) المثل السائر ج ١ ص ٧٤ / ١٩٠

(٣) المثل السائر ج ١ ص ٧٤ / ١٩٠ (٤) الجزء الثاني من المثل السائر كله .

(٥) الجزء الثالث من المثل السائر كله ، وصفحات قليلة من ١٢ / ٣ في الجزء الرابع وهو نهاية الكتاب .

ابن الأثير الناقد ، أو ابن أبي الأصعب وغيرهما من النقاد السابقين واللاحقين ، ولذا نستطيع القول بأن العماد ناقد تطبيقي عملي ، قام بالحكم على أشعار مترجميه بسذوق عصره ، وخاصة ذوق مدرسة البديع التي كان يمثل أحد دعائمها القوية ، ولكن كثيراً من أحكامه جاءت كذلك ذوقية . . . أي . . . مدحاً وإطراءً على الأغلب وندماً وهذماً على الأقل ، وهذه تأتي غالباً في مقدماته للشعراء .

ولذا ليس عيباً في العماد ، لأن الطبيعة البشرية تعجب بالأشياء فتثنى عليها ، وتتذوق الأشعار فتطرب لها . ولكن العماد لم يقف عند حد الثناء حين يطرب ولا حد الذم حين يجد غثاء وركاكة .

ومن الأمثلة على النقد الذووي ما كتبه تعليقاً على أبيات لأسامة بن منقذ أولها :

قالوا نهته الأرحون عن النبا وأخو المشيب يجور شمت يهتدي
قال العماد : " تعجب من مقاصد هذه الكلم ، وتعرض لموارد هذه الحكم ، وأقبح
المجرب كل المجرب ، من غزارة هذا الأدب ، ولولا أن الكداد أفضل ما ترقم به صحائف
الكتب ، لحررت هذه الأبيات بماء الذهب " .

ومنه كذلك قوله في الثناء على الفقيه أبي موسى عيسى بن عبد المنعم الصقلي :
" وقد أورد - يعني أبا الصلت - من كلامه ما يأسو سماعه الكلوم ويجلوسنا احسانه العلوم ،
ويحكي دُرر الأصداف ودراري النجوم ، فمن بديع قوله في الفزل ، وغواحلي من نُجُحِ
الأمـل " (٢)

وغواكثير في الخريدة ، ولكن النقد الموسوعي كذلك كثير ، وقد تعرض في العماد لمديد من الموضوعات التي سنوجز الحديث عنها فيما يلي :-

نقد العماد الموسوعي :

تعرض العماد في نقده التطبيقي لموضوعات عدة ، بعضها في شكل القصيدة

(١) خريدة القصر - قسم الشام ج ١/٥٠٠ - ٥٠١

(٢) قسم المغرب ٢٧/١

ومضائها ، وبعضها في مضمونها ، وأخرى في البديع ، ومشتقاته ، وتيسيراً للبحث سنقسم هذه الموضوعات إلى أربعة أقسام على :-

- (١) نقد الشكل الأدبي للقصيدة .
- (٢) نقد بناء القصيدة
- ٣- نقد المسمون
- ٤- نقد البديع ومشتقاته .

أولاً : نقد الشكل الأدبي للقصيدة :

تحدث العماد في مواضع مختلفة من الخريدة عن المصطلحات العلمية في الشعر واللمح والحقيقة والهجاز وصور البيان .

١- المصطلحات العلمية والمنطقية ، والعماد لا يمتحن على وجود المصطلحات العلمية مادام ذلك لا يؤثر على سلامة النظم ، وخاصة إذا كان في ذلك جناس ، فقد أورد للتيسير بيتاً من الشعر هو قوله :

إِذَا كَانَتْ الْأَحْدَاقُ ضَرْبًا مِنَ الطَّبِيِّ فَلَا شَكَّ أَنْ اللَّحْظَ ضَرْبٌ مِنَ الضَّرْبِ

وقال معلقاً عليه : " وقد استدلتُّ به على معرفته بالمنطق وكلام الأوائل ، وقد أعجز وأطرب وأبدع وأغرب ، ثم قال : " قوله : ضرب من الضرب ، ضرب من الضرب ، بل أحلى منه عند أهل الأدب " .

٢- اللحن : ذكره العماد في مواضع عديدة من الخريدة ، وكان يبيّنه ، وينقده إذا ورد في شعر الشاعر ، ففي ترجمته لظافر الحداد ، ذكر البيت الآتي :

فَأَجَبْتَهَا : مَا عَازَنِي نَيْلُ الْفَنَى لَكِنَّ مَطَالِبَةَ الْحَمِيدِ تَمْسُوزُ

ثم قال : في هذا البيت لحن ، قال : " عازنى " و " تمسوز " ، والصحيح أعوزنسى وعذا يدل على أنه لحن ، ثم ذكر له بيتاً آخر هو :

مَا خَابَ مَنْ عَضَّ التَّفَضَّلَ مَا لَهُ كَرَمًا ، وَوَأَفْرَعُ عَرَضَهُ مَحْرُورُ

(١) ضرب : نوع (٢) والضرب الثانية : المسلسل ، وعلى بسكون الراء وفتحها أشهر .

(٣) الخريدة - قسم شعراء الشام ٩٢/١

ثم قال : " وهذا أيضا صوابه محرز (١) "

(٢) ولقد علق على أخبار ابن الكبراني مثيبا ، ولكنه أخذ عليه ورود اللحن في شعره .

ونقد ديوان ابن قسم الحموي لورود اللحن الفاحش فيه . (٣)

وأخذ على أستاذه الحبيبي ورود اللحن في شعره ، فقد أورد له قوله :

فَقَالَ خَيْرُ الْقَوْمِ : عَامٌ بِغَيْبِطَةٍ نَدَى الثَّرَى ، وَالجَوْعُ غَسَّ الْمَرَاحِ
فَقُلْتُ : لَأَنْدَى مِنْهُ لَوْ تَعَلَّمُونَهُ أَنَامِلُ نُوشِرُوا ن تَهْمِي رَلْتَابِعِ

وقد علق العماد عليه قائلا : " قوله ندى الثرى " لحن يعنى به ندى مخفقا من الندى ولا أعلم أنه يجوز بالتشديد إلا بمعنى النادى " (٤) .

٣ - الحقيقة والمجاز :

والعماد يعجب بالاستعارة إذا كانت في موقعها ، فقد أورد أبياتا لابن الموصلايا ثم قال : " قد راقتني هذه الأبيات لبرقتها وحلاوة الاستعارة في معناها مع دقتها . (٥) "

وأبيات الموصلايا هي :-

يَا عِنْدُ رَقِي لِفَتَى مُدْنَفٍ يَحْسَنُ فِيهِ طَلَبُ الْأَجْرِ
يُرَى نَجْمَ اللَّيْلِ حَتَّى يَسْرِ حَلَّ عَرَاهَا بَيْدُ الْفَجْرِ
صَاقَ نِطَائِي السَّبْرَ عَنْ قَلْبِيهِ عِنْدَ اتِّسَاعِ الْخَرَى فِي الْهَجْرِ (٦)

وأورد أبيات ابن الأصبغ في اللفظ ومنها :

مَا حَائِمٌ فِي كَلِمِ الْعُجْمِ وَالْمَقَرِّ وَمَالَهُ فِي وُرُودِ الْمَاءِ مِنْ أَرْبِ
فَجَدُولٌ طَوَى الْحَشَا يَهْتَزُّ مِنْ هَيْبِ وَمِنْ نَحْوِ وَمِنْ شَرِبِ وَمِنْ طَرِبِ
يَبْكِي نَيْدَرِي دُمُوعًا مَاؤُهَا سَرِبٌ فِي السُّكْرِ لَا مِنْ جَوَى بَادٍ وَلَا حَرِبِ
إِذَا انْتَدَى وَابْتَدَا بِالشَّرْبِ بَادِرُهُ فِي آخِرِ الدُّورِ نَدْرَعُ الْقِيَّ وَالذَّرِبِ

(١) الخريدة - قسم مصبيرا . ١٤٨ (٢) الخريدة - قسم مصر ٤٠/٢

(٣) قسم الشام ٤٣٤/١ (٤) الخريدة - قسم العراق ٢٦٦/١

(٥) القسم العراقي ١٢٤/١ (القسم العراقي)

(٦) القسم العراقي ١٢٤/١ (القسم العراقي)

قال العماد : وقوله : بادره في آخر الدور ذرع القوس في نهاية حسن الاستعارة . (١)

٤ - المسور البيانية :

أعجب العماد بورود التشبيه في الشعر وقد هلق على كثير من الأبيات التي ورد فيها التشبيه ، كما ذم بعض التشبيهات لأن صاحبها أساء فيها .

فالعماد يعجب بالتشبيه إذا كان البيت يحوى ست تشبيهات أو تزيد ، فتصل عنده الى ثمانية ، ويعجب به إذا كان معجزاً مختصراً ، ويغرب له إذا كان مبالغاً فيه ، أو إذا كان التشبيه تمثيلاً ، أو إذا أوفاه صاحبُه حقه من اللفظ والمعنى .

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره في ترجمته للأديب أبي الثناء محمود بن نعممة الشيزري قال : " ومن مشهور شعره بيتٌ جمع فيه ست تشبيهات ، ولم يسبق إليه ، فإن أكثر ما جمع خمس تشبيهات بيت القائل :

فَأَمْطَرَتْ لَوْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْكَبَرِدِ

ثم أورد بيت الشيزري وهو :

تَنْسُو السَّحَابُ عَنْ بَدْرِ وَأَنْجُوهِ وَتَمْسَحُ الْبَطْلَ عَنْ وَرْدٍ بِعُنَابِ

فشبه النقايب بالسحاب والوجه بالبدر ، والحلى والشنوف بالنجوم ، والمرق بالطل ، والخد بالورد ، والأنامل المخضبة بالعناب . (٢)

وأعجب بييتي القاسي الجليس الآتي لجمعهما ثمانى تشبيهات وهما :

بَدَا وَأَرَانَا مَنظَرًا جَامِعًا لِمَا تَفَرَّقَ مِنْ حُسْنِ عَلَى الْخَلْقِ مَوْقَا (٣)
أَقَا حَا وَرَا حَا تَحْتَ وَرْدٍ وَنَرْجِسٍ وَبَدَا وَصَبْحًا فَبُوقِ غَمْسِنِ عَلَى نَقَا

وأحيانا يعجب السامد بالتشبيه لأنه معجز غير قائله عنه ، ومن ذلك ما ذكره في ترجمته لمحمد بن هانئ قال : " ولقد أحسن وأتى بتشبيه في تشبيه يعجز عن مثله كل ذي روية وبديه " ثم أورد بيتين له وهما :

(٢) قسم الشام ٥٧٥/١

(١) القسم العراقي ١٣٨/١

(٣) قسم مصر ١٩٨/١

وَمَعْدِرُ أَجْفَانِهِ وَعِيْذَارُهُ
يَتَمَاضِدَانِ عَلَى فَنَاءِ النَّبَاسِ (١)
سَفَكَ الدَّمَاءَ بِصَارِمٍ مِنْ نَرَجِسٍ
كَانَتْ خَمَائِلُ غَسَدِهِ مِنْ آسِ

وأحيانا يطلق على عذا التشبيه التشبيه المخترع ، ومن ذلك ما ذكره في ترجمة القائم بأمر الله الخليفة العباسي ، قال : وما أحسن التشبيه الذي اخترعه :-

قَالُوا : الرَّحِيلُ فَأَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا
وَإِخْضَرَتْ تَحْتَ بَنَانِهَا ، فَكَانَتْهَا
فِي خَدَّيْهَا وَقَدْ اعْتَلَقْنَ خَضَابَهَا (٢)
عَرَسَتْ بِأَرْضِ بِنَفْسِي عُنَابَهَا

وأحيانا يطرب للتشبيه إذا بالغ قائله فيه ، فقد أعجب بيت لأسامة بن منقذ لأنه بالغ في تشبيهه وهو :

وَكَأَنَّ قَلْبِي حِينَ يَخْطُرُ ذِكْرُكُمْ
لَهُبِ السَّرَامِ تَعَاوَرَتْهُ الرِّيحُ (٣)

وأحيانا يعجب بالتشبيه إذا جمع بين صورتين متقابلتين ، فقد طرب لبيتين من شعر أبي سعد عبد الغالب بن أبي الحسين لتشبيهه صورتين متقابلتين بأخرتيتين وذلك في بيتيه الآتيين :-

رَأَيْتُ مِرَاتَهَا تَقَابِلُهُ
فَقَلْتُ وَالْقَلْبُ فِي تَلْهِيبِهِ
كَأَنَّمَا الشَّمْسُ عِنْدَ مَشْرِقِهَا
قَابِلُهَا الْبَدْرُ عِنْدَ مَغْرِبِهِ

وقد طرب لهما فقال : لقد أبدع في تشبيهه المرأة والمرأة المتقابلين بالقصرين إذا تقابلا في المطلع والمغيب ، محاكيين للمحب والحبيب .

ويعجب بالتشبيه إذا وقاه صاحبه حقه من اللفظ والمعنى ، فقد علّق على بيت من الشعر لمجد العرب العامري ونحو :

تِلْكَ السُّيُوفُ الْبَيْضُ تَسْمَى أَعْيُنًا
لِلْبَيْضِ ، وَالْأَجْفَانُ كَالْأَجْفَانِ (٥)

فقال : لقد وفق التشبيه حقه لفظاً ومعنى .

(٢) قسم العراق ٢٤/١

(١) قسم مصر ٢٧٠/١

(٣) قسم الشام ٥١١/١

ثانياً : نقد بناء القصيدة :

تعرض العماد في نقده - لبناء القصيدة - إلى حسن المطلع وتبحة وحسن المخلص وسوئه ، ورد الأعجاز على السدور والوزن والقافية .

١- حسن المطلع : لم يوضح العماد ماذا قصد بحسن المطلع ، وإن كان على ما يبدو ويقصد ما يعرف بحسن الابتداء في القصيدة ، وهو عنده يكون مخترعاً حسناً ، وذكر على ذلك مثلاً للشاعر الحبيص بيص هو :

(١) جَعَلَتْ مِنَ الْحَدَثَانِ أَسْبَحَ أَدْرَجٍ فَلَقَدْ سُنِنَ عَلَى الْكَرِيمِ الْأَرْوَغِ

وأعجب العماد بمطلع قصيدة لمجد العرب العامري هو :

لَمَعَتْ وَأَسْرَارُ الدُّجَى كَمْ تَنْشَرُ نَارَ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ الْأَحْمَرِ

وقال معلقاً عليه . عدا مطلع كأنه للفجر مطلع .

(٢)

ويبدو أن العماد كان يورد مطالع القصائد التي أعجبه ، وترك ما عدا ذلك ولكنه لم يسجل إعجابه الصريح بها ، وعلى كثيرة :

ومن ذلك مطلع قصيدة الفزى الذي يقول فيه :

(٣) أَمَامَكَ الْمَسْمِيَاتُ السُّمَرُ وَالْحَدَى فَهَيْدِ الْقَلْبِ إِنْ الظَّمْنُ مِنْطَلِي

ومطلع قصيدة له أخرى :

(٤) أَنَا ظَالِمِي إِنْ عُنْتُ سَطْوَةَ ظَالِمِي بَلْ لَا تَمِي إِنْ خَفْتُ جَفْوَةَ لَا تَمِي

وكذلك مطلع قصيدة القيسراني :

(٥) يَشِيمُ نَوَاكِمُ مَقَلَّتِي فَتَسْوَبُ وَيَرَى نَوَاكِمَ مَهْجَنِي فَتَصَيَّبُ

ومطلع قصيدة أبي الحكم المصري :

(٦) بَيِّنَ مِنْ شَرِّهِ مَا كَلَّمْتُمْ فَلَا حِجَابَ بَأَعْلَى عِلْمِ

(٢) القسم العراقي ١٥٧/٢

(٤) القسم الشامي ٧١/١

(٦) القسم المصري ٣٠٠/١

(١) الخريدة - القسم العراقي ٢٠٥/١

(٣) القسم الشامي ٤٤/١

(٥) القسم الشامي ١٢١/١

٢ - سوه المخلص :

وسوه المخلص يكون إذا اضطرب لفظه ودخله الحشو الغريب ، فقد أورد قصيدة
للأديب أبي محمد طلحة النعماني في مدح الإمام المستظهر ، وحين ذكر البيت الآتسي
متخلصاً به من مقدمة قصيدته إلى المدح وهو :

المَادِلِ الْمُسْتَظْهِرِ الْبِرِّ السَّذِيِّ كَهْلِ الْوَرِيِّ طَرَا أَبِي الْمُبَارِسِ

قال : هذا البيت أورده في المخلص ، وهو منضطرب جدا ، فإن كل خروج لا مدخل له
في المعنى فهو خروج ، والألفاظ المستقيمت إذا لم تجد معاجاً على البلاغة فهنَّ عَجُوجٌ
والمخلص يجب أن يخلص من الحشو الحوشى ، ليتحلى كالوشى الموشى ، والبدر المنير
بعد المشى .

٣ - رد المجز على الصدر : وقد ذكر مثالا على رد المجز على الصدر معجباً به ،
وعول مجد العرب العامري ثم قال : زُ عذا من أحسن ما وقع للشعر في رد الأعجاز على
الصدر ثم ذكر الأبيات الآتية :

فَقُتِبَتْ مِنْ عَدَنَانَ إِنْ جَارِيَتِهِمْ
مُتَقَدِّمًا لَجِبًا يُحَلِّقُ فَوْقَهُ
إِلَّا يَحْزُرُ أَسِنَّةَ الْمُرَّانِ (٢)
مُسْتَبَشِرًا لِحَبِّ مِنَ الْمُقْبَانِ
حُذِّ بِالسَّهَامَةِ ، لَا التَّرَامَةَ أَهْلَهَا
تَرُدُّ عِذَاكَ بِهَا عَنِ الْمَدْوَانِ

٤ - الوزن والقافية :

يرى العماد ضرورة تقييد الشاعر بالوزن والقافية ، ولذلك أبدى إعجابه بكثير من
القاصد لأنه امتحسن نظمها وروىها ووزنها ، ومن ذلك قصيدة القيسراني في مدح نور
الدين محمود بن زنكي التي أولها :

أَبْدَى السُّلُوحِ حِدِيعةً لِلْأَيْمِ
وَحَنَا الضُّلُوعِ عَلَى فَوَادِ عَائِمْ (٢)

(١) الخريدة - القسم العراقي ٢٥/٢ (٢) المران : الرماح السليبة اللدنة ، والخزر :
جمع أخزر ، وهو الذي ينظر عن معارضة ، وجيسر لجب : ذو جلبية وصباح ، والمقبان :
جمع المقاب وهو طائر كاسر ، والأبيات من الخريدة - القسم العراقي ١٥٠/٢

(٣) الخريدة - قسم الشام ١١١/١ - ١١٢

وأحيانا يظهر إعجابه بالقافية ، ومن ذلك قافية قصيدة المعتمد بن عباد التي

منها :

سَخَطَكَ قَدْ زَادَنِي سَقَامًا فَأَبَعْتُ إِلَى الرَّسَا مَسِيحًا

وقد علق العماد عليه قائلا : " فقله : " مسيحا " من القوافي التي يتحدى بها . (١)

وعو لا يرفض القصيدة إذا كانت ذات قافيتين ووزنهن ولذا أورد في الخريدة

قصائد من هذا النوع ومنها : قصيدة للأجل عفى الدين أبي القاسم عبد الله التي

أولها :

جُودُ الْأَمَامِ الْمُسْتَنْفِي غَمَامَةٌ لِلْمُجْتَدِي تُرَوِّى بِهَا أَمَالُوهُ

مَنْحُ الْوَرَى مِنْهُ بِأَبْلَجٍ فِي الشَّدَائِدِ مُنْجِدٌ مَعْدُومَةٌ أَمْشَالُهُ (٢)

ومنها قصيدة لابن الهبارية جاء فيها :

وَإِخْلَعُ عِذَارَكَ فِي عِذَارِ مَهْفَهْفٍ مِثْلِي الْقَسِيبِ النَّارِ الْمَتَائِيلِ (٣)

أَطْعِ الْهَوَى وَاعْمَى النَّهَى وَاشْرَبْ عَلَى وَجْهِ الْحَبِيبِ وَرَوْحِهِ الْمَتَكَائِيلِ (٤)

وعو لا يرى بأسا أن ينظم الشاعر في الرباعيات والمسقطات والموشحات ولـ

ما لا يلزم في القافية وما شابه ذلك ، وقد أورد أمثلة على كل نوع منها .

وقد أعجب بعدة رباعيات للأجن سديد الدولة الأنباري وقال في تقديمه لها :

" فمن ذلك رباعياته الخالصة للخلب ، السالبة لللب ومنها :

يَارِيحُ تَحَلِّيَ مِنَ الْمَهْجُورِ شَكَاةً إِلَى الْمَسْكُورِ الْمَنْصُورِ (٥)

قَوْلِي لِمَعْدِي شَبِيهِ الْخُورِ مَا أَنْتَ عَنِ الْجَوَابِ بِالْمَعْدُورِ

(١) الخريدة - قسم المغرب ج ٢ / ٢٨

(٢) الخريدة - قسم العراق ج ١ ص ١٩٨ ومنجد : معين

(٣) المذار : عذار الفلام جانب لحيته . وخلق فلان عذاره : ترك الحياء وركب عواه .
والمهفهف : الصامر البطن ، الدقيق الخصر .

(٤) الخريدة - قسم العراق ١٣٧ / ٢

(٥) الخريدة - القسم العراقي ج ١ / ١٤٢

(١) ومن المسمطات التي أوردها مسمطة لأبي الممالي الشروطي ومنها :

ياريم كمْ تَجَنَّى ؟ لَمْ قَدْ صَدَدَتْ عَنَّا ؟
 (٢) السلسبيل ربي والشهد والرحيق
 بالوصل ماتهننا
 (٣) والورد والسفيق
 من وجنتيه يجنى

والموشحات التي أوردها كثيرة ومنها موشح لابن سناء الملك في مدح أبيه
 (٤) وآخر في رثاء أمه :

وأورد في لزوم ما لا يلزم مقطوعات عديدة منها بيتان للقاضي أبي غانم بن أبي
 الحسين فلما :

وعجبية أبصرتها فخبأتها
 ما يستقر بك الكن ناقص
 لنفزا لكل مساجل ومناجيل (٥)
 حتى يجز برجل أكن فاضل

والعماد لا يرى أن ينظم الشاعر بأساليب جديدة وطرق مستجدة ولذا لم يعلق
 على قصيدة لأبي سعيد يحيى بن سند التي تقرأ على سبعة أوزان ومنها :

جودي على الشتهتر الصب الجوي
 ذا المبتلى المتفكر القلب الشجي
 وتعطى بوصاله وترحبي (٦)
 ثم اكشفي عن حاله لا تظلمي

ثالثاً : نقد المضمون :

تعرض العماد في نقده - لمضمون بعض القصائد - لعدة موضوعات أهمها :

قضية المعنى واللفظ ، والمبالغة ، والمعاني العامة ، والسراقات الأدبية وغيرها .

١ - قضية المعنى واللفظ :

لم يلتفت العماد إلى خلافاً انقاد السابقين حول قضية المعنى واللفظ ،

- (١) المسمطة : من القصائد ما يوتى فيها بأشعار مقفاة بقافية ثم بعد ذلك بشرط مقفى بقافية مخالفة . (٢) تجنى : تتجنى حذف التاء تخفيفاً أي تدعى على ذنباً لم أفعله . ومعنى : من تكلم ما يشق عليه . وتهنأ : تهنأ حذف بمرته تخفيفاً . (٣) السلسبيل : الخمر والشهد : عسل النحل مادام لم يعصر من شمعته . والرفيق : الخمر : والخالصة الصافي منها . والأبيات في الخريدة - القسم العراقي ٣١٠/٢ (٤) الخريدة - قسم الشام (٦٥:٢) (٥) القسم المصري ٨٢/١ ٨٢٠ (٦) الخريدة - قسم الشام ١٠٨/٢

وتفصيل بعضهم للمعنى وآخرين للفظ ، وإنما ذكر ذلك في كلام عام ، كأن يقول في ثنائه
على قصيدة : " هي قصيدة مزجت الجزالة بالركة " .

وأحياناً ينقل رأى غيره مثلما فعل في نقله عن أبي الصلت في الحديقة بـ
أن أورد البيت الآتي :

وَلَنْ تَرَى أَعْجَبَ مِنْ أَنْبَسٍ مِنْ مِثْلِ مَا يُعْسِكُ بِرْتَاعٍ

قال العماد : " قال أبو الصلت في الحديقة : " غذا البيت أجود ، لجودة ترتيب
اللفظ ، مع جودة معناه ، وللمطابقة بين لفظي الأتس والارتياح وتشبيه لسان الخمر
بلسان البرق " (٢)

وعو غنا يوازن بين اللفظ والمعنى ، ويرى أنه لا فصل بين الأمرين ، فالألفاظ
يجب أن تكون جزلة والمعاني لا بد أن تكون واضحة ، وإن كان يُعجب بها إذا أورد فيها
صاحبها بديعاً أو تشبيهاً أو ما شابه ذلك لتزداد جمالاً وزينة .

وعو كذلك يُعجب بالمعاني الجديدة المبتكرة ، وينبه إليها حين يجد ذلك
في شعر الشاعر ، ومن ذلك قوله — حين سمع قول أسامة بن منقذ في قلع ضره — :

وَصَاحِبُ لَا أَمَلُ الدُّغْرِ صَحْبَتَهُ وَيَشْقَى لِنَفْسِي وَيَسْمَعُ سَمِيَّ مَجْتَهِدٍ
لَمْ أَلْقَهُ نَحْدَ تَصَاحِبَتِنَا فَجِئْنَا بِسَدِّهِ لِنُنَظِرَ أُمَّتَنَا فِرْقَةَ الْأَبْسَدِ

" إن الشعر إذا لم يكن هكذا فلفوه ، وإنه إذا لم يبلغ غذا الحد من الجِدِّ فهجر ولهو ،
ومن الذي أتى في وصف السن المقلوع بمثل غذا الفن المطبوع ، فهل سبقه أحد إلى
معناه ، وهل ساواه في غذا النمط سواه " ، وقد نبه إلى كثير من المعاني الجديدة
التي أعجب بها .

ولعن اهتمامه باللفظ والمعنى وضرورة المزاجية بينهما وعدم تمييز أحدهما على
الآخر ، يظهر في ثنائه على الفزى الشاعر حين قال : " الفزى حسنُ المفزى ، وما

(١) الخريدة — قسم الشام ١٠٨/١

(٢) الخريدة / قسم المغرب ج ٣١/٢

(٣) الخريدة — قسم الشام ج ٤٩٩/١ — ٥٠٠

(٤) الخريدة — قسم الشام ٩/١ ، ٥٠٦ ، ٥٠٣ ، ٥٥٥ وقسم مصر ٢٠١/٢

يَحْمِزُ مِنَ الْمَعْنَى الْفَرِّ مَعْنَى إِلَّا إِلَيْهِ يُفْرَى ، وَيَمْنَى بِالْمَعْنَى ، وَيَحْكُمُ وَنَهَ الْمَبْنَى وَيُودِعُهُ
الَلْفُظُّ أَيْدَاعُ الدَّرِّ السَّدْفِ ، وَالْبُدْرِ السَّدْفِ . (١)

وعذره التعليلات كثيرة في الخريدة ، وعلى تؤكد نظرتة عذره لألفاظ القسيمة
ومعانيها ، ولكن حبه للبديع جعل اللفظ أحيانا يطنى على المعنى فيخفيه .

وعو أحيانا يُعَجَّبُ بِالْمَعْنَى وَحْدَهُ ، فَقَدْ أُورِدَ آيَاتًا لِمُحَمَّدِ بْنِ الْبَيْهِنِ مِنْهَا :

وَأَتَوْا بِخَدْرَانِ الْمِيَاهِ جَوَامِدًا قَدْ فَصَلُونَا مَلْبَسًا وَسِيْلًا
(٢)

وقد أثنى السامد على معناه واجادته له .

وعو ينقد المعنى إذا لم يعجبه ذاكراً السبب معللاً ما أورده ، فقد علق على
قول المهذب بن الزبير :

وَاقِي فَأَرْدَى رَجَالًا بَعْدَ مَا نَعِمُوا دَعْرًا وَأَحْيَا رَجَالًا بَعْدَ مَا مَلَكَوا

فقال : " ليس في هذا البيت مدح ولا ذم ، ولا له في الثناء والإطراء سهم ، فإنه كما
أحسن بالإحياء ، وأسأء بالإرداء ، فكفر بهلاك أولئك حياة هؤلاء ، ولو قال : أردى لثامًا
بعد ما نعموا ، وأحيا كرامًا بعد ما مَلَكَوا لوفى الصنعة حق التحقير ، وأعدى ثمرة
المعنى على طبع التطبيق " وعو بهذا يغير من الألفاظ بما يَقْوَمُ الْمَعْنَى وَيُصَحِّحُهُ . (٣)

ولا يأنف السامد من الأخذ برأى صاحب المصدر ، الذي نقل عنه ، كما فعل في
نقله لرأى أبي الصلت في نقده بيت على بن جعفر بن البوين ، وعو قوله في وصف الأترج
المصْبَغُ :

كَأَنَّمَا أترجُهُ الْمَصْبَغُ وَأَيْدِي جُنَاةٍ مِنْ زُنُودٍ تُقَطِّعُ

قال أبو الصلت : " فخلط ولم يظن . وأسأء أدبه ولم يشعر ، لأنه قصد مدح الأترج فقزز
(٤)

(١) الخريدة - قسم الشام ٦/١ (٢) الخريدة - قسم المغرب ١٨٦/١

(٣) الخريدة - قسم مصر ٢١٣/١

(٤) في الخريدة المطبوعة (فقزز) وعو تحريف صححناه من الرسالة المصرية .

نفس المليك منه ، وصرفها عنه ، ولو قصد ذمه لما زاد على ما وصفه من الأيدى المقطوعة من زودنا ، والبليغ الحاذق من إذا وصف شيئاً أعطاه حقه ، ووفاه شرطه ، ووصفه بما يناسبه في حالتي مدحه ودمه ، ووتع كل شيء مكانه من نشره ونظمه .

وقد نقد قول مجد السرب العامري في مدح مسلم بن قريش :

أَسْرَفْتُ فِي الْإِحْسَانِ حَتَّى مَا أَرَى إِحْسَانَكَ السَّافِي مِنَ الْإِحْسَانِ

فالشاعر قصد المدح ويرى العماد أن هذه المبالغة في المدح أشبه بسلك طريق القدر ، وليس من الإنصاف نسبة المدح إلى الإسراف ، ولو ذم في الحقيقة ، قال الله تعالى في ذم فرعون : " إنه كان عالياً من المسرفين " وقد أعجب بالشرط الثاني ، ولكنه في المعنى يدل على الكفران بالنعم الذي لا يليق بالكرم .

أما نقده للألفاظ فقد علن على كثير من الأبيات الشعرية مقترحاً وضع كلمة أو كلمات مناسبة بدلاً من أخرى لم تعجبه .

فهو مثلاً يكره تكرار الكلمة الواحدة في البيت الواحد ، ومثال ذلك ورود كلمة " الخد " في أحد بيتي أبي الحسن الأخفش الآتين .

وَكَأَنَّ الْمَذَارِيَّ فِي حُمْرَةِ الْخَدِّ عَلَى حُسْنِ خَدِّكَ الْمَنْصُوتِ (٥)
سَوْلَجَانٍ مِنَ الزَّمْرِ مَعْطُوسٍ عَلَى أَكْرَةِ مِنَ الْبِاقُوتِ

قال العماد : " ما أحسن عذنين البيتين ، لولا أنه ذكر الخد في البيت مرتين .

ويعجب إذا وقعت الكلمة في موقعها المناسب ، لأنها تملط دلالتها الصحيحة ، فقد طرب لورود كلمة " الندى " في شطر البيت :

وَلَا أَجِبْتُ النَّدَى أَنْ يَهْلَ يَأْمُرُ

(١) الخريدة - قسم الشام ١٢٢/٢ (٢) الآية ٣١ من سورة الدخان

(٣) القسم السراقى ١٥٥/٢ - ١٥٦

(٤) نحو شاعر مفرى غير النحوى المشهور

(٥) قسم مصر (٢٤٠/١)

فقال : ما أحسن إيقاعه الندى ها هنا من المصطاه ، وموضع النداء من المناداة لأنه لا ينادى إلا للمصطاه .^(١)

وقد أخذ على عز الدين أبي سعد فروخ شاه أنه استبدل الحرف في " ي " مع " فجاءت كما يقول العماد ثقيلة يمجها الطبع السليم .^(٢)

وقد أعجب بيبتين لابن الطوبى لمعناها ، ولكنه أخذ عليه اضطراب لفظهما ولما :

قَالُوا بِفِيكَ حَرَارَةٌ فَعَجِبْتَ كَيْفَ يَكُونُ ذَاكَ
وَرَضَابُ رَيْفِكَ مُطْفِئٌ نَبْرَانِ أَقْوَامٍ سِوَاكَ^(٣)

ونقداته للألفاظ تقع من الخريدة في كثير من المواضع خاصة إذا وجد لفظاً نابيماً في بيت حيث ينقده ويصح لفظه إن استطاع سبيماً إذا كان شديد الإعجاب بمعناه . . كما رأينا في البيتين السابقين .

(٢) رأيه في المعاني الدينية والخلقية وما يتبعهما :

يرى العماد وجوب التزام الشاعر بالمبادئ الدينية فلا يخرج عليها ، كما يرى ألا يمدح الشاعر الكفار ، وألا يتهجم على خليفة ، وألا يخرج في كلامه عن حدود الأدب .

ولهذا يشور العماد إذا تجرأ الشاعر على الأمور الدينية ، ومثال ذلك ما نظمته نشوان بن سعيد الحميري ، وكان قد ملك اليمن ففخر على فرسخ فخراً قاده إلى الكفر وذلك في قوله :

قُلْتُمْ: لَكُمْ إِرْكُ النَّبِوةِ دُونَنَا أَرْعَمْتُمْ أَنَّ النَّبِوةَ سَرْمَدٌ
مِنْكُمْ نَبِيٌّ قَدْ مَسَى لِسَبِيلِهِ قَدْ مَا فَهَلْ مِنْكُمْ نَبِيٌّ يَتَّبِعُ دُونَ سَبْدِ؟

قال العماد : قاتله الله ولمنه وأخزاه ، ما أشد افتقاره على الله وأجراه ، وأية فضيلة فوق هذا ، ولولا النبي المصطفى الذي اختاره الله واجتباها . . . ما سعيدوا ولا فازوا .^(٤)

(١) قسم الشام - البداية (٩٧) (٢) المصدر السابق ١١٥
(٣) القسم المغربي (٥٦ / ١) (٤) الخريدة - قسم الشام ج ٣ (٢٧٠ - ٢٧١)

ولم يرضى ^{يرضى} العماد عن بيت شعر لأبي المواهب المصري لأنه أدعى أن العيسى عليه السلام أباً ، وقال في التعليق عليه : " هذا البيت يدل على قلة دين قائله بل على المروق منه ، فإن عيسى لم يكن له أب ، وهو يقول لم تشتهر أعمامه . " (١)

ولم يعجب العماد بأبيات لأبي تمام الدبّاسي البغدادي لأنه تجرأ على الله وخاطبه بأسلوب فيه نوع من الأمر ، فقال العماد معلقاً عليها بعد أن أوردنا : " عذره وإن كانت نادرة مُعْجِبة ، غير أن التجرؤ على مخاطبة الله تعالى بمثل هذا القول يدل على اختلال الدين والعقيدة . " (٢)

وغو لا يرضى عن كثير من الأفكار الشيعة التي وردت في أشعار الفاطميين والملويين ، ولذا أخذ علي ظافر الحداد - على الرغم من إعجابه به وثنائه عليه - أنه كان من مداح الفاطميين . (٣)

وقد ثار على المهذب بن الزبير لأنه أثنى على الفاطميين في قصيدته - التي مدح فيها الملك الصالح بن رزيك - ثناءً مبالفاً فيه . . . فقد قال :

حَتَّىٰ أَعَادَ بِحَدِّ السَّيْفِ مَلِكَ بَنِي الرَّهْرَاءِ وَأَسْتَرْجَعَ الْحَقَّ الَّذِي تَرَكْتُمَا
فَلَوْ يَكُونُ لَهُمْ أَمْثَالُهُ عَسَدًا نَيْمًا مَنَىٰ مَا غَدَّتْ مَفْصُومَةٌ فَدَكَّ (٤)

قال العماد : لقد أبطأ في عذاه القول المؤتلف ، وغفل عن سر الشريعة في فدك ، وفصل مدوحه على السلف في الشرف ، وأدبت به المبالغة في الضلال إلى السرف . (٥)

ولم يرضى عن شعر لأبي الحسن الأخفش لأنه كان في مدح الخلفاء الفاطميين وخرن فيه إلى الغلو الواضح ، حيث يقول فيه :-

بَشَّرَنِي الْمَسِينُ إِلَّا أَنْتَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ نَوْرٌ وَنُورُ
جَلَّ أَنْ تُدْرِكَهُ أَعْيُنُنَا وَتَمَالِي أَنْ تَرَاهُ جَمَادًا
فَهُوَ فِي التَّسْبِيحِ زُلْفَى رَاكِعٌ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ مِنْ حِمَادًا

(١) قسم الشام ج ١١٧/٢ (٢) القسم العراقي ج ٣٢١/٢-٣٢٢
(٣) القسم المصري ٣/٢ (٤) فدك : يشير الى ما كان من رأى أبي بكر وعمر في أن فاطمة لا ترك " فدك " التي تركها الرسول لقوله على الله عليه وسلم : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة " والشيمة يرون أن أبا بكر وعمر أخطأ وأنه كان يجب عليهما أن يتركاها لفاطمة (٥) الحريدة - قسم مصر (٢١٤/١)

قال العماد : " قد أفصى به الفلوى إلى الكفر السريع " . (١)

ولا يعنى ذلك أن العماد كان يكره علياً وأبناءه وأحفاده ولكن اعتقاده أن الخلفاء الفاطميين ليسوا من أبناء فاطمة وإنما هم أدياء لهذا النسب في عهد مؤسس الخلافة الفاطمية عبيد الله المهدي ولهذا سُموا بالعبيديين . (٢)

وقد أورد في الخريدة أشعاراً كثيرة في مدحهم للشيخ مرزقة وليحيى بن سلامة الحصكى وقال في قصيدة الثانية : " وله من قصيدة شاعمة راقعة رائعة " . (٣)
ثم أورد القصيدة ، وقد أورد لغير هذين الشاعرين كثيراً من الأشعار .

ولو يجب العباسيين ، ولذا رفض أن يُورد هجاء ابن الهبارية لهم ، ولو يصرح بذلك دون مواربة فيقول : " وفي هذه القصيدة ألغيت أبياتاً كثيرة لأنه يعرض للسدة الشريفة " .

وقد رفض إيراد أشعار البشرى والسقلى وعبد الرحمن المالى لأنها في مدح روجار الأفرنجي . (٤)

٣) المبالغة :

ولو يحب بالمبالغة إذا كانت مقبولة مستساغة ، فإذا خرجت إلى الفلوى الصريح ، والكفر الواضح رفضها ، ومن أمثلة المبالغة المستساغة عند قول سعد الدين الطيبي :

بَكَرَ الْغَمَامُ لَهَا يَدْمَعُ سَافِحٌ طَرِبَا إِلَى نَفَمِ الْحِمَامِ السَّادِحِ
وَتَنَبَّهَ النَّوَارُ فِي جَنَابَتِهَا سَحَرًا لِدَغْدَغَةِ النَّسِيمِ الْمَازِحِ

قال العماد : " بالغ في وصف النسيم باللطف بتشبيهه بالمازح وتشبيهه بمورره المنبسط بالدغدغة " . (٥)

-
- (١) الخريدة - قسم مصر (٢٤١/١) (٢) الروعيتين ٢٠١/١
(٣) قسم الشام ٢٠٢/٢ (٤) قسم الشام ٤٧٥/٢ (٥) المراقى ٨٤/٢
(٦) العراقى ١٩٠/١ (٧) الحريدة - المغربى ٢٠/١ - ٢١
(٨) الخريدة - المغربى ٢٤/١

ومن الأمثلة على المبالغة التي رقصها العماد ما ذكرناه في اشعار مدح الفاطميين السابقة ولأنها خرجت إلى الفلو ، وخالفت شريعة أهل السنة .

ومنها كذلك ما يمسُّ الأخلاق ، فحين سمع أبيات أبي نصر بن الدندان الأمدى في الهجاء وعلى :

قالوا : أتمدح أقواماً وأسهم
من قد عرفت فتطغيبهم بلا سبب ؟
فقلت : لا تحرقوني بالمالم فما
أشفقت من نجوعهم إلا على نسبي
لأن أسهم ما فاتها أحد
فخفت من أن يكونوا إخوتي لأبي

لم يبرهن العماد عن اتهام الشاعر والده بالزنا فقال : " قلت : لعمري قد بالغ وأحسن وما قصرت لكنه نسب والده إلى الخنا ، وقذفه بالزنا ، حيث اعتقد أن أباه أبووعم فلذلك لا يهجوعم " . (١)

والعماد لا يمانع أن يأخذ الشاعر المحدث معنى قديماً فيبالغ فيه فيخسسن ، ولذا أعجب بأبيات لأسامة بن منقذ ، قال فيها :

وَإِذَا عَدَدْتُ سِنِيَّ ثُمَّ نَقَصْتُهَا
زَمَنَ الْهَمِيمِ ، فَتِلْكَ سَاعَةٌ مَوْلِيدِي

ثم يورد أبياتاً لأبي فراس في المعنى نفسه ، ويعلم بعدنا قائلنا : " فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى وللمتأخر في المبالغة حيث ذكره في بيت واحد ، ولم يجعل له نصيباً من العمر إلا ساعة مولده ، فجميع الحياة على الحقيقة نسب وألم وتعب " . (٢)

(٤) السرقات الشعرية :-

ولو موضوع بحثه السابقون وأهل عصر العماد ، ومن جاء بعدهم ، ومن غـولاء ابن رشيقي في العمدة ، وصياء الدين بن الأثير في المثل السائر وغيرهما ، وقد قسمها ابن رشيقي إلى أنواع عديدة أعدها :-

(١) الخريدة - الشام ج ٢ / ٤٥٦

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٠١

الاصطراف : وقد عرّفه بقوله : الاصطراف : أن يُعجّب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه ، فإن صرفه إليه على جهة النشل فهو اختلاب واستلحاق ، وإن ادّعاه فهو انتحال
وجعل الانتحال على نوعين فقال : ولا يقال : " مُتَّحِلٌ " إلا لمن ادّعى شعراً لفسيره
وغو يقول الشعر ، وأما إن كان لا يقول الشعر فهو مُدَّعٍ غير متحل .

وعرف الإغارة قائلاً : أن يصنع الشاعر بيتاً ويخترع معنى مليحاً فيتناوله من هو
أعظم منه ذكراً ، وأبعد صوتاً فيروى له دون قائله .

ومنها كذلك العضب والمرافدة والاعتدाम والإلمام والاختلاس والموازنة ، والعكس
والمواردة ، وغير ذلك مما ذكره ابن رشيقي .

وقد بحثها نبياء الدين بن الأثير وجعلها في ستة عشر نوعاً بعضها ورد في
العمدة وزاد عليها أنواعاً كالنسخ والسلخ والمسح وغيرها .

وقد درس النقاد السابقون هذا الموضوع درساً وافياً ، أما العماد فجاء ذكره
له أثناء نقده التطبيقى ، ونبه إلى وقوع كثير من حالات انتحال الشعراء قصائد كاملة
ومقطوعات وأبيات تامة ، فضلاً عن أخذ الشعراء المحدثين لمعاني القدماء ، وتغيير بعض
ألفاظها أو جميعها ، ولكن العماد الناقد لم يفته كثير من هذه الأمور فنبه إليها .

ولعل من أعم الأمور التي لفت الأنظار إليها أن بعض الأمراء كانوا يكلفون
الشعراء بنظم الشعر على لسانهم ومن ثم ينتحلونه ويدّعونه .

فقد لاحظ الدكتور شكري فيصل في تقديمه لبداية قسم شعراء الشام أن العماد
أشار إشارة خفية إلى أن بعض الأمراء كانوا لا ينظمون الشعر وإنما ينظم لهم ، وينحلهم
إياهم بعض هؤلاء الشعراء الذين كانوا يعيشون في حا شيتهم ويفيدون من صلواتهم ، وقد
وجد هذه الإشارة في قول العماد أثناء ترجمته لصلاح الدين " مع أنه ليس في بني أيوب
من اشتغل بالأدب أو قرأ شيئاً من كلام العرب ، لكنهم لمجالسة الأدباء ومساجلة الألباء

(١) العمدة (٢٨٠/٢) (٢) المصدر السابق ٢٨٢/٢ (٣) المصدر السابق ٢٨٤/٢
(٤) المصدر السابق ٢٨٤/٢ وما بعدها (٥) المثل السائر ج ٣/٢٣٠ إلى نهايته
الجزء الثالث والجزء الرابع (٦) بداية قسم شعراء الشام ص ٣٨

ومذاكرة العلماء ومكاشرة الحكماء ، عِلِّمُوا فَعَمِلُوا . (١)

وقد نبّه العماد كذلك إلى انتقال الشعر من غير قائله أو من لا يحسنون نظمه ، ففي ترجمته لابن الخياط الدمشقي ذكر عدة قصص من هذا القبيل ، أولها :
رواية عن مجد العرب العامري . أن كاتباً يدعى ابن القدوري أملى وقفر فشد الرحال إلى العزيز عم العماد ، وانتحل قصيدة لابن الخياط يمدح فيها أبا النجم ، فحذف اسمه ووضع بدلاً منه اسم العزيز ، وأصاف أبياتاً ركيكة ، لكن العزيز عرف ذلك ، وسأله عن أمره ، فاعترف بانتحاله القصيدة وأنه من غير أرباب النظم .

ثم أورد قصة شاعر غرقت تجارتها فضاقت صدره عن قول الشعر ، فانتحل قصيدة لعبد المحسن الصوري في الوزير المغربي ، ومدح بها رجلاً كبيراً في ذلك الزمن ولكنّه أضاف من نظمه بيتاً واحداً جيداً ، وعرف المدوح ذلك فأثابه .

وأورد قصة ثالثة انتحل فيها الطبيب اليزدي الأصمغاني قصيدة لشاعر يدعى ابن أسد ومدح بها بعض أمراء العرب ، وأكمل العماد للقصة ، بما يدل على انتشار الانتحال في هذا العصر حتى إن بعض من لم ينظموا الشعر انتحلوه ، وكسبوا أموالاً بسبب ذلك .

وحين كان العماد يشك في رواية قصيدة ما كان ينيه إلى ذلك ، فقد أورد قصيدة للرئيس أبي الحسن علي بن مسهر الموصلي ثم قال : " على أني سمعت أن هذه القصيدة من غيره . "

وأحياناً كان ينيه إلى سرقة بيت ما ، فقد أورد قصيدة للشاعر السابق وعو ابن مسهر وحين أورد البيت الآتي :

وَلَهَا مِنْ ذَاتِهَا طَرْبٌ فَلِهَذَا يَرْفُسُ الْجَبِبُ

(١) المصدر السابق ص ٧٩

(٢) بداية قسم شعراء الشام ١٩٤ - ١٩٦ (٣) المصدر السابق ص ١٩٦

(٤) المصدر السابق ص ١٩٩

(٥) المصدر السابق - قسم شعراء الشام ٢٧٢ / ٢

قال : " هذا البيت الأخير كنت أعلم أنه لأبيوردى " (١)

أما سرقة المعاني أو تغيير بعض الألفاظ في الأبيات ، فقد ذكر العماد الكثير منها أثناء تراجمه ، ولغو يسميه في أغلب الحالات " أخذاً " .

والأخذ عنده نوطان : نوع مقبول مستماع ، وقد تناوله الشعراء ونظموا فيسه ولغو يورد أضعافاً شتى نظموا في المعنى الواحد ، ومثال ذلك قول مجد المررب العامري :

فَالْحَزْمُ أَنْ تَصْعَقَ الْعِقَابُ ، وَإِذَا فَشَا سِرُّ الْمَظَالِمِ ، مَوْضِعُ الْفُفْسِرَانِ

قال العماد : فاق الشعراء في إيراد هذا المعنى في هذا القرض ، مع أنه سبق إليه الأستاذ الشهيد مؤيد الدين أبو اسماعيل رحمه الله حيث يقول :

وَمَا الْجَهْلُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مَذْمُومٌ ، وَمَا الْجِلْمُ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ مَحْبُوبٌ

وقال : مع أن المتنبي سبق إليه بقوله :

وَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا ، مِصْرٌ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

(٢)

ولغو أيضاً أخذه من قول القائل :

وَمَعْنَى الْجِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ لِلذَّلَّةِ إِذْ عَمَّانُ (٣)
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَبِيبٌ لَا يَنْجِيكَ إِحْسَانُ

ولغو ممن يرى أمراً عادياً أن يتناول الشاعر المحدث المعنى القديم بشرط أن يحسن فيه ويبدع ، وقد أورد أمثلة كثيرة على ذلك ، ولعمري في هذا الأمر ما يدل على ثقافة العماد الأدبية إذ كان يهود أمثلة من مختلف العصور والمثال السابق يعطينا هذه الدلالة .

(١) الخريدة - قسم الشام ٢٧٥/٢ ويبدو أن هذا الشاعر كان كثير السرقة فقد روى العماد عن كمال الدين بن الشهرزوري أكثر من قصة عن انتحاله للشعر من الأبيوردى وأبـ السراج ، وله أبيات سرقتها غير فيها قائلتها .

(٢) نحو الفند الزماني الشاعر الجاهلي وكان من فرسان ربيعة المعدودين وبيتاه في حرب البسوس التي شارك فيها .

(٣) الخريدة - قسم العراق ١٥١/٢

كذلك أورد أمثلة على الأخذ بأسمائه التي وضعت له مثل : السليخ والإمام والملاحظة والعكس والإلماع والالتفات والإغارة ، ونبه إلى التسمين .

ومن الأمثلة التي أوردها على السليخ قوله بعد أن أورد البيت الآتي للفرزى :

حَذْرًا عَلَى بَيْضٍ وَسُمْرٍ رِدُّوْنَهَا بَيْضٌ وَسُمْرٌ

قال العماد :

(١) "غذا مأخوذ بل مسلوخ من قول ابن صرّ يعمر البغدادي .

(٢) بَيْضٌ وَسُمْرٌ فِي قِيَابِهِمْ مَمْنُوعَةٌ بِالْبَيْضِ وَالسُّمْرِ

ومما أوردته مثلاً على الإلماع - الذي عرفه ابن رشيق بقوله : ضرب من النظر

قول القيسراني :

وَأَعْوَى الَّذِي يَهْوِي لَهُ الْبَدْرُ سَاجِدًا أَلَسْتَ تَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ ؟

قال العماد : لَقَدْ أَلَمَّ بَيْتِ الْمَعْرَى الَّذِي شَبِهَ كَلْفَ الْبَدْرِ بِأَثَرِ اللَّطْمِ وَغَو :

..... أَلَسْتَ تَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ اللَّطْمِ ؟

(٤)

ويرى العماد أن القيسراني قد أحسن في المنعنة والمصنئ .

(٥) ومن الأمثلة على الملاحظة - وقد ذكرنا ابن رشيق دون تعريف وعرب عليها -

أمثلة - ما ذكره العماد بعد أن أورد البيت الآتي لابن ونبسون :

سَيَقِيدُ بِعَدْوِهَا الظُّلْمَاءَ لَمَّا أُبِيحَ لَهُ بِجَانِبِهَا اِكْتِسَامٌ

فالعماد يرى أنه في هذا القول يلحظ قول المتنبي :

وَكَمْ لِظُلْمِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تَخْبِرُ أَنَّ الْمَانِيَةَ تَكْتَسِبُ (٦)

(١) صريم : أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل الكاتب الشاعر المعروف بصردر وإنما قيل له صردر لأن أباها كان يلقب بصريم لشحه ، فلما نبغ ولده قيل له صردر توفي سنة ٤٦٥ (النجوم الزاهرة ٩٤/٥) (٢) الخريدة - قسم الشام ٤٨/١

(٣) العمدة ٢٨٢/٢ (٤) الخريدة - الشام (٩٧/١) وأصل البيت //

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها في وجهه أثر اللطم

(٥) العمدة ٢٨٢/٢ (٦) الخريدة - القسم المغربي ١٠٠/٢

وقد وجد أن بيت ابن سارة الآتي :

كَلُّوا تَرَانَا مِنْ حَوْلِهَا قُلْتُ سَرَبٌ يَتَعَاطُونَ الْوَسْمَ الصَّهْبِيَّةُ

عومقلوب (أو مكموم) بيت أبي نواس :

كَلُّوا تَرَى الشَّرْبَ حَوْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ قُلْتُ قَوْمٌ مِنْ فِرَّةٍ يَضْطَلُونَنَا (١)

ومن الأمثلة على الإلماح ما أورده الصمد في حديثه مع أنير الدين ابن رئيس الرؤساء حين أنشده لنفسه في السوط قائلا* :

أَنَا سَوِّطٌ كَالرَّعْدِ ، لَكِنْ بِلَا صَوٍّ تَأْسُونَ السَّحَابَ مِنْ حَيْثُ تَجْرِي
قَبَضْتَنِي يَدٌ كَبْحَرٍ ، فَمَنْ أَبَى صَرَ قَبْلِي بَحْرًا يَسِيرُ بِرَبِّهِ

قال له الصمد : ألمعتني غذا بيبي للشهاب بن الصفي اللذين أنشد فيهما لنفسه :

رَلَمْ لَا أَتِيَهُ عَلَى الرُّوَّاحِ إِذَا فَخَرْتُ ، وَتَحَسَّنِي الطَّبِيُّ الْبُسْتَرِي
وَأَلَى سَوِّطٍ الرِّيحِ حَامِلَةٌ طَوَّدَا أَشْمٌ وَقَابَضِي بَحْرًا

(٢) فإنه وصف الفرس والراكب وكفه والمفرقة في هذا البيت ، ولا يلحق شأوه أحد في معناه .

ومثال الالتفات ما ذكره في حديثه كذلك مع أنير الدين بن رئيس الرؤساء السابق الذكر حين أنشده :

أَمْسَيْتُ أَرْحَمَ أَرْجَا وَأَحْسَبُهُ لَصْفَرَةٍ فِيهِ - مِنْ بَعْضِ الْمَسَاكِينِ
عَجِبْتُ مِنْهُ ، فَمَا أَدْرَى أَصْفَرْتُهُ مِنْ فِرَّةِ الْقَمِينِ أَوْ خَوْفِ السَّكَاكِينِ؟

قال له الصمد : قد انتفت في هذا البيت إلى بيت الفزري .

كَالشَّمْعِ يَبْكِي وَلَا يَدْرِي أَعْبَرْتُهُ مِنْ صُحْبَةِ النَّارِ أَوْ مِنْ فِرَّةِ الْعَسَلِ؟ (٤)

ومن أمثلة الإغارة قول ابن مكنسة :

رَاحٌ وَفِعْلُ الرِّاحِ فِيهِ كَسَا يَفْعَلُ بِالضَّمِّ نَسِيمَ الرِّيحِ

(١) الخريدة - القسم المغربي ٢/٤١٨

(٢) الشهاب الصفي : أبو العوارس محمد بن صفي التميمي . ترجمنا له في شيخ الصمد .

(٣) الخريدة - القسم العراقي ١/١٥٢

(٤) الخريدة - القسم العراقي ١/١٥٣

قال العماد : أغار في هذا البيت على خالد الكاتب في قوله :

وَرَّاحٌ وَفِعْلُ الرَّاحِ فِي حُرْكَاتِهِ كَفِعْلِ نَيْمِ الرِّيحِ فِي الْفَصَنِ الْفَضِيِّ (١)

وأمثلة الأخذ عنده كثيرة ، ولم يطلق عليها أسماء ، وإنما كان ينهيه بعد إيراد البيت إلى أنه مأخوذ من بيت الشاعر فلان الذي سبقه أو كان في عصره ، ولا يكاد جزء من أجزاء الخريدة يخلو من عدة تشبيهات إلى هذا الأخذ ، وسوف نضرب عدة أمثلة همراعيين الإيجاز وعدم الإسهاب حتى لا نهتد عن الغرض المقصود .

فمن ذلك بيت عمارة اليمنى :

يَوْمَ مِنَ الْعَمْرِ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى أَمْلِي وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهِ رَغْبَةُ الْهِمَمِ

قال العماد : نحو مأخوذ من بيت أبي تمام ،

فَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهِ نِعْمَةُ الشُّبُوبِ (٢)

ومنه قول ابن خفاجة الأندلسي :

فَلَرَّيْمًا نَثَرَ الْجَمَانُ تَعَمُّدًا لِيَمَادٍ أَحْسَنَ فِي النَّظَامِ وَأَجْمَلًا

قال العماد : نحو من قول مهيار :

عَسَى اللَّهُ يَجْعَلُهَا فَرْقَسَةً مَمُودٍ بِأَكْرَمِ مَسْئَلَتِهِ تَجْمَعُ (٣)

التنميين :

وقد نبه العماد إلى حالات عديدة ضمن الشعراء قسما تدغم منها أبياتا أو أجزاء من أبيات لشعراء آخرين ، والعماد لا يرى في هذا عيبا ، ومن الأمثلة التي ذكرتها في تراجمه قول الشاعر ابن خليصة النحوي المفرسي :

رَحِبُ الْفِنَاءِ زَعِيمٌ بِالْفِنَاءِ إِذَا مَا افْتَرَّتْ الْحَرْبُ عَنْ أَنْبِيائها الْمَصِلِ

قال العماد : تنميين من شطر مسلم بن الوليد :

بَاتَ الْأَمِيرُ إِذَا يَفْتَرُّعُهُ إِذَا مَا افْتَرَّتْ الْحَرْبُ عَنْ أَنْبِيائها الْمَصِلِ (٤)

(١) الخريدة - قسم مصر ٢/٢٠٦ (٢) كذا في الخريدة - قسم الشام (٣/١١٤)

والبيت لأبي تمام من قصيدته في فتح عمورية ونصه :

بكر فما افترعتها كف حاوشه ولا ترقفت إليها نعمة النسيب

(٣) قسم الشام (٣/١١٤) (٤) الخريدة - قسم المغرب ج ٦/٩٢ وعنه أي عن

الذم المذكور في البيت السابق

ومن ذلك قول ابن عمادح :

لَهَا فِي غَدِيرِ الْمَاءِ لِأَلَاءِ جُمْرَةٍ حَكَتْ نَارَ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّوْنِ وَالسَّبْرِ

قال العمادح : هو مأخوذ من قول ابن المعتز :

وَمَشْمُولَةٌ قَدْ طَانَ بِالْقَفِيصِ حَبُّهَا حَكَتْ نَارَ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّوْنِ وَالسَّبْرِ (١)

ومن ذلك أخذ بيت كامل وتضمينه في قصيدة تشبيهه في الوزن والقافية ، ومثال ذلك ما فعله أبو العز عثمان بن أبي الفتح الذي نظم قصيدة في المديح ، والفخر بنسبه جاء فيها :

أَصْحَ أَدْنَا ، وَأَنْظُرْ بِحَيْنِكَ هَلْ تَرَى مِنْ النَّاسِ إِلَّا مِنْ عِقَامَةِ يَدِي

وقد أورد بعده بيت الفرزدق :

تَرَى النَّاسَ مَا سَرْنَا يَسِيرُونَ خَلَقْنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا (٢)

السُّرْقَةُ الْحَسَنَةُ :

ولا يعيب العماد السُّرْقَةَ إِنْ كَانَتْ خَفِيَّةً ، أَوْ زَادَ الشَّاعِرُ عَلَى الْمَعْنَى الْأُولَى فَأَحْسَنَ فِي ذَلِكَ .

وقد أعجب بسرقة ابن منير لمعنى أبيات ابن مكثمة التي أولها :

رَقَّتْ مَعَاقِدُ خَصِرِهِ فَكَأَنَّهَا مَشْتَقَةٌ مِنْ تَيْبِهِ وَتَجَلَّدِي

ومنها :

لَا تَخْدَعُكَ وَجَنَّةُ حَمْسَرَةٍ رَقَّتْ فِي الْيَأْقُوتِ طَبِيعُ الْجَلْمَدِ

يقول العماد : ومن هذا المعنى أخذ أبو الحسين بن منير حيث يقول :

خَدَعُ الْخَدْوَى تَلُوحٌ تَحْتَ صَفَائِهَا فَحَذَارُهَا إِنْ مَوَّهَتْ بِحَيَائِهَا

تِلْكَ الْحَبَائِلُ لِلنَّفُوسِ وَأَنْمَاءُ قَطْعِ السَّمَاوِمِ تَحْتَ رَوْقِ مَارِئِهَا

وعلى العماد نقلاً : " وَحَذَا أَخَذَ طَبِيعَ خَفِيٍّ " (٣)

وقد أورد في ترجمة ابن حمديس كثيراً من سرقاته التي ذكرها أبو الصلت فسي

الحديقة والتي زاد فيها على المسروق منه .

(١) قسم المغرب ٢ / ٨٥ - ٨٦ (٢) الخريدة - قسم الشام ٢٤٩ / ٣

(٣) الخريدة - القسم المصري ٢٠٤ / ٢

وقد فصل أحد أبيات ابن حمديس المسروقة على بيت المتنبي المسروق منه ،
أما بيت المتنبي فهو :

وَسَيْفِي ، لَأَنْتَ السَّيْفُ لَا مَا تَسْلُهُ ، لِنَصْرِي ، وَمِمَّا النَّصْلُ مِنْهُ لَكَ الْفِئْدُ
وبيت ابن حمديس هو :

وَكَأَنَّهِنَّ هِيَ السَّابِقَاتِ صَوَارِمٌ وَالسَّابِقَاتُ لَهُمْ مِنَ الْأَعْمَادِ
قال العماد أو أبو الصلت :

وبيت ابن حمديس أجود لأنه سهل وقريب لما فيه من التشبيه والترتيب . (١)

وقد جعل بيتي أبي العرب مصعب بن محمد القرشي يضاحيان بيتا للنايضة
في الجودة ، وبيت النايضة المشهور هو :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي عُوْمِدُ رَكِيصٍ وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ
أما بيتا أبي العرب فهما :

كَأَنَّ فِجَاجَ الْأَرْضِ يَمْنَاكَ إِنْ يَسِرَ بِهَا خَائِفٌ تَجْمَعُ عَلَيْهِ الْأَنْمِلُ
فَأَنْ يَفِرَّ الْمَرْءُ عَنْكَ بِجَرْمِهِ إِذَا كَانَ يَطْوِي فِي يَدَيْكَ الْمَرَا حِلَا ؟
وقال معلقاً : ليس يخرج هذا في الجودة عن قول النايضة الذبياني . (٢)

رابعاً : نقد البديع ومشتقاته :

يطرب العماد إذا ورد البديع أو أحد مشتقاته في بيت الشعر أو جملة الشعر
وتكاد معظم أركان نقده البديعي تجمعها هذه العبارة التي أوردنا في الثناء على أبي
سعد عبد الغالب بن أبي الحصين الذي ذكر له البيتين الآتيين :

قَلْبٌ وَقَلْبٌ فِي يَدَيْهِ _____ كِ مَعْدَبٌ وَمَعْدَبٌ
ظَمَانٌ يَطْلُبُ قَطْرَةَ _____ تَشْفِي صَدَاهُ وَمَقْمَرٌ

قال العماد : هذان البيتان كنت استلحتهما من بعض الكتب فاستلحتهما ، فإنهما جمعاً
التجنيس ، والتطبيق والموازنة ولزوم ما لا يلزم واللطافة والرقّة والمعنى واللفظ . (٣)

(١) الخريدة - القسم المصري ج ٢/١٩٨ وسرقات ابن حمديس من ع ١٩٦ - ٢٠٠
(٢) الخريدة - القسم المصري ج ٢/٢٢١
(٣) الخريدة - قسم الشام (٦٣/٢)

ويكاد الصمد يكرر هذه العناصر في ثنائيه على الشاعر الكاتب الحصفي ويزيد عليها ، وذلك في قوله " وبدا الحرير برق طبعه • وقوة سجمه • وجوده شمعه • وغزارة أدبه • وأنفاده بأسلوبه في الشعر ومذهبه • له التصريح البديع والتجنيس النفيس • والتطبيق والتحقيق • واللفظ الجزل الرقيق • والمعنى السهل العميق والتقسيم المستقيم والقافية الشافية والروي الروي (١) .

وكرر هذه العناصر وزاد عليها في مقدمة رسالته للقاضي الفاضل فقال :

" وهذه الرسالة قد وقيتها حقها من التجنيس والتطبيق والتصريح والمقابلة والموازنة والتوشيح • وقال في الثناء على الخطيرى الوراق " فشعره مطرغ مرصع " (٣)

ونستطيع بعد هذا أن نلخص أركان البديع عنده في عشرة أنواع رئيسة هي الجنس والطباق والموازنة والوزوم ما لا يانم • والتصريح والتقسيم والمقابلة والتوشيح والتصريح وما لا يستحيل بالانعكاس • وسوف نتحدث عن رأى الصمد ونظرته إلى كل واحد منها :

١- الجنس : أعجب الصمد بالجناس إعجاباً ملك عليه فؤاده • ولا عجب في ذلك فقد كان إحدى دعائم شعره ونثره الرئيسة - كما أسلفنا - ولذا كان يهوى للقصيدة الجنسة والبيت المفرد لورود الجنس فيه • وكان في بعض الأحيان إذا طرب للقصيدة الجنسة نظم على وزنهما ورويهما كقصيدة ابن الخياط الدمشقي في مدح آبق أحد أمراء دمشق المتوفى سنة ٥٠٢ • والتي قدّم لها بمقدمة طويلة تدل على مدى إعجابه العميق بهما • فقال : " وكلمته القافية في مدح آبق التي عبارتها من عبارة الصب وأيام الصبا أرق • ومعناها من سحر لحظ المحبوب أدق "

وقال : " ولشغفى بها نظمت على وزنهما ورويهما قصيدة في المولى الوزير عون الدين " وقال : " وما سبق إلى بيتي مدحه في آبق في إعطاء صناعة التجنيس حقها • ولما ملك رقبها - واختراع معناهما البكر " وأولها :

سَلُوا سَيْفَ الْحَاظِهِ الْمُتَشَقِّقِ أَعِنْدَ الْقَلْبِ بِمِمْ لِلْحَدَقِ ؟ (٤)

(١) الخريدة - قسم الشام (٤٧٢/٢) (٢) الخريدة - قسم مصر (٤٤/١)

(٣) الخريدة - القسم العراقي (ج٤٦١ ص ٣١)

(٤) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام ص ١٧٨ - ١٧٩

وأحيانا كان يعجب بالبيت إذا ورد فيه الجناس كبيت الخطيب أبي الحسن على
السنجاري :

يَأْسَدَتِي لَا سَلِمَتْ مِنْ السَّرْدَى يَمِينٌ مَنْ يَمِينٌ فِي الْيَمِينِ

وقال معلقا : " ثلاث كلمات متجانسة في اللفظ متباينة المعنى ، سمح بها خاطره من غير
تحصيف ، والبيت في غاية الرقة والسلاسة " (١) .

ومنه البيت الذي أوردناه للدلالة على عدم اعتراضه على إدخال المنطق في
الشعر إذا كان غير متكلف ، ونعني به بيت ابن القيسراني :

إِذَا كَانَتْ الْأَحْدَاقُ سُرْبًا مِنَ الطُّبَى فَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّحْظَ ضَرْبٌ مِنَ الضَّرْبِ

قال العماد : وما أحسن وقوع التجنيس في موقعه ، ووضع المعنى في موضعه " (٢) .

وأعجب بييتين لابن الموصلايا ورد فيهما الجناس بشكل ملحوظ وعمما :

يَا خَلِيلِي ، خَلِيَانِي وَوَجْدِي فَمَلَأَ الْعَذُولُ مَا لَيْسَ بِجَدِي
وَدَعَانِي ، فَقَدَّ دَعَانِي إِلَى الْحُدَى سَمِ خَمْرِي مِنَ الْفَرَامِ لِلدَّيْنِ عِنْدِي

وأتبعهما بييتين آخرين ثم قال : أنا استحل هذا النوع من التجنيس وأستعذبه ، وحببه
زلال قلبي في الرقة والصفاء فيشره ويتشربه " (٣) .

ولم يذكر العماد أنواع الجناس سوى جناس التصحيف حين وجدته في بيت لابن
الأصباغ الكاتب يقول فيه :

إِذَا انْتَدَى وَابْتَدَأَ بِالشَّرْبِ بِأَدْرَهُ فِي آخِرِ الدَّوْرِ ذَرْعُ القَوِّ وَالذَّرْبُ (٤)

قال العماد : " وقوله : انتدى وابتدا من التجنيس المصحف " (٥) .

فإذا اجتمع في القصيدة الجناس والطباق والتوصيف كانت عنده أنموذج الشعر
الرائع والنظم الرائع ، كقصيدة أبي عبد الله أحمد بن مزار الحسيني الكوفي التي أولها :

خَلِيلِي ، تَنْخِرُ لَيْلَةَ الْأَنْضَاءِ فَمَسَاهُ يَشْفِي جَوَاهُ الْخَسَاءِ

(١) الخريدة - قسم الشام ٣٩٩/٢ (٢) الخريدة - قسم الشام ٩٧/١ - ٩٨

(٣) الخريدة - القسم العراقي ١٢٦/١

(٤) ذرع القو فلانا ذرعا : سبق إلى فيه وغلبه والذرب عند الأطباء : استطلاق البطن
المتصل (٥) الخريدة - القسم العراقي ١٣٨/١

قال العماد بعد أن أوردنا كاملة : " هذه القصيدة من حقها أن تكتب
بسويداء القلوب على بياض الأحداق ، وقد أحذقت بها حدائق التجنيس والتطبيح
والترصيع (١) . "

٢- الطباق :

عرفه ابن رشيقي كما ذكرنا سابقاً ، وقد أعجب به العماد ، وذكر أمثلة من—
أعجبه واقتراح تصحيح أشعار حتى يجتمع فيها الطباق فتصبح جميلة في نظره .
ومن الأمثلة التي أعجبه قول ابن الموصلايا من قصيدة له :-

ضَائِي نَطَائِي السَّيْرِ عَنِ قَلْبِيهِ عِنْدَ اتِّسَاعِ الْخَزْنِي فِي الْهَجْرِ

قال العماد : " قد راقني هذه الأبيات لرقتها ، وحلاوة استمارتها في معناها مع
رقتها ، وقد ساعده التوفيق في هذا التطبيح وما كل شاعر يخلص من هذا المنهق (٢) . "

وكذلك قول أبي الحسن علي بن مقلد :

قِفْ وَأَسْتَعِزَّ إِذَا عَاتَبْتَهُ حَنِيقًا وَأَيْنَ ذُلُّ الْهَوَى مِنْ عِزَّةِ الْحَنِيقِ

قال العماد : " استمارة الحنق في هذا الموضع ، معنى مبتكر له حسن الموقع ، فما
أقوى هذا التحقيق ، وما أحسن هذا التطبيق " .

وطرب حين قرأ بيت مجد العرب العامري لورود كلمتي الذم والحمد فيه وعو :

تَرَكْتُ بِأَطْرَافِ اللَّقَائِنِ جُوسِمَهُمْ تَذَمُّنَ مِنَ الْأَرْجَاحِ مَا يَحْمَدُ النَّسْرَ (٤)

فقال : ما أحسن ذكر الذم والحمد في هذا البيت .

وقد اقتراح العماد استبدال بعض الألفاظ في بيت ابن بصيلة المرزوقي الآتي :

فَلَا دَامَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَلَا رُقِدَتْ لَكَ النَّوْبُ (٥)

فقال : لو قال : فلا انتهت له الدنيا ، كان أحسن في المطابقة . "

(١) الخريدة - القسم العراقي ٥٢٦ / ٤ (٢) الخريدة - القسم العراقي ١٢٤ / ١

(٣) الخريدة - قسم الشام ٥٥٥ / ١ - ٥٥٦

(٤) الخريدة - القسم العراقي ١٤٧ / ٢

(٥) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ ق ١١٢ / ١

ورأى العماد تشييراً كلمتين في بيت شعر للمهذب بن الزبير حتى يوفى التطبيق

حقه وسو :

وَإِنِّي فَأُرْدِي رَجَالًا بَعْدَمَا نَعَمُوا دَهْرًا وَأُخِيَا رَجَالًا بَعْدَمَا سَلَكُوا

قال العماد : " ولو قال : " أردى لثاماً بعدما نعموا ، وأخياً كراماً بعدما غلکوا " ^(١) لوفى الصنعة حتى التحقيق ، وأعدى ثمره المعنى على طبق التطبيق .

٢ - المقابلة :

وعرفها ابن رشيقي بقوله : " إذا جاوز الطباق السدين كان مقابلة كقول

الشاعر :-

فَمَا عَجِبًا كَيْفَ اتَّفَقْنَا ، فَنَاصِحٌ وَفِيٍّ وَمَطْوِيُّ عَلَى الْفَيْلِ غَاوِرٌ ؟

فقابل النصح والوفاء بالفضل والفدر ، وهكذا يجب أن تكون المقابلة الصحيحة . ^(٢) وبهذا المعنى أخذ العماد ، ولم ترد عنده إلا قليلاً .

ومن الأمثلة القليلة التي ذكرها ، والتي تبين تفضيله للطباق أبيات ابن خلدون

التي فيها تضمين من شعر مسلم بن الوليد ، ومنها :

لَيْتُ الشَّرَّابِ وَلَكِنْ مِنْ صَرَائِبِهِ دَفْعُ الْمُخُوفِ وَأَمْنُ الْخَائِفِ الْوَجِلِ

قال : أما قول مسلم فإنه في غاية الصنعة والإحكام والجدود والرفعة ، فإنه طابق بين الخوف والأمن في اللفظ والمعنى ، وقوله خوف المخيف في غاية الحسن وأما ابن خلدون فقابل الدفع بالأمن وما بينها مقابلة ، ودفع المخوف هو من الخائف . ^(٣)

٤ - الترصيع :

وعرفه ابن رشيقي فقال : " إذا كان تقطيع الأجزاء مسجوعاً أو شبيهاً بالمسجوع

فذلك الترصيع وضرب عليه أمثلة منها قول أبي تمام :-

تَدْبِيرٌ مَعْتَمِرٌ ، بِاللَّهِ مُنْتَهَمٌ لِلَّهِ مُرْتَقِبٌ ، فِي اللَّهِ مِرْتَفِعٌ ^(٤)

(١) قسم مصر ٢١٣/١ (٢) العمدة ١٥/٢

(٣) الخريدة - القسم المغربي ٩٣/٢

(٤) العمدة ٢٦/٢ - ٢٨

أما العماد فأورده في القصيدة التي ذكرناها في المطبأ حين أعجب بها
لكثرة ورود الجناس والترصيع فيها ، والعماد لم يذكره إلا نادراً .

٥ - الموازنة :

ذكرها ابن رشيق وعدها نوعاً من المقابلة ، فقال : ومن المقابلة ما ليس
مخالفاً ولا موافقاً إلا في الوزن والازدواج فقط فيسمى موازنة ، نحو قول النابغة الذبياني :
أَخْلَقُ مَجْدٌ تَجَلَّتْ مَالِهَا خَطَرٌ فِي الْبَائِسِ وَالْجَوْدِ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْخَيْرِ (٢)

ذكرها العماد في العناصر البديعية التي ذكرنا وأوردنا في بداية حديثنا عن البديع
عنده ، ولم تقع أعيننا على أمثلة أوردها في الخريدة غير بيتي ابن أبي الحصين
السابقين ولما :

قَلْبٌ وَقَلْبٌ فِي يَدَيْهِ _____ مَكَّ مَعَذَّبٌ وَمَعْمَرٌ
ظَمَانٌ يُطَلَّبُ قَطْرَةٌ فَشَفَى هَمْدَاهُ وَمَعْمَرٌ

فقد وازن بين كلمتي قَلْبٌ وَقَلْبٌ وبين مَعَذَّبٌ وَمَعْمَرٌ وليس بينهما من شروط المقابلة سوى
الوزن والازدواج . (٣)

٦ - لزوم ما لا يلزم :

ذكره ابن الأثير في المثل السائر وقال " ولو من أشق هذه الصناعة مذنباً
وعرفه قائلاً : " ولو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روى الأبيات الشعرية " . (٤)

وقد أورد العماد العديد من الأمثلة الشعرية التي لزم فيها أصحابها لزوم
ما لا يلزم ، ولكنه لم يعلّق عليهما إعجاباً ولا ذمّاً ، اللهم إلا في بيتي ابن أبي الحصين
السابقين المذكورين في الموازنة .

٧ - ما لا يستحيل بالانكاس :

وقد أعجب به العماد ، وقد أوردنا منه مثلاً في حديثنا عن مذنبه الفنى فسى

(١) الخريدة - القسم العراقي ج ٤ ص ٢٢٢ / ١ (٢) الصمدة ١٩ / ٢
(٣) الخريدة - قسم الشام ٦٣ / ٢ (٤) الخريدة - قسم الشام ٦٣ / ٢
(٥) قسم الشام ٤٤٥ / ٢ ، ٦٢ ، ٤٨٩ وقسم العراق ج ٤ ق ٦٠٢ / ٢
(٦) قسم الشام ٦٣ / ٢

في النشر ، وذكره في الخريدة معجياً في ترجمته للحريري .
 فقال : " وقد أوردت من أبياته التي لم يسبق إلى نظم مثلها ، وقد أفحم البلغاء بفضلها ،
 وأورد للحريري مثالين أحدهما في الشعر والآخر في النشر ، وكما جاء في القصيدة الشعرية
 قوله :

أَسَى أَرْمَلًا إِذَا عَاوَرَا وَأَزْعَ إِذَا الْتَمَرَا أَسَا
 أَسِنْدُ أَخَا يَجْهَاهُ أَيْنَ إِخْوَاهُ لُدَيْسَا (٢)

٨ - التفسير :

ذكره ابن رشيقي فقال : " اختلف الناس في التفسير : فبعضهم يرى أنه
 استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به " وذكر أمثلة كثيرة عليه منها : -
 فَقَالَ فَرِيضُ الْقَوْمِ لَا ، وَفَرِيضُهُمْ : نَعَمْ ، وَفَرِيضُ قَالَ : وَهَكَذَا تُدْرِي
 وذكر أنه أفضل بيت وقع فيه تقسيم . (٣)

وأورده العماد في ترجمته للحصفي الكاتب كما ذكرنا في بداية كلامنا عن
 البديع ولم ينسب عليه أمثلة .

٩ - التبريح :

عرفه ابن رشيقي فقال : " التصريح هو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لتبريسه
 تنقص بنقصه وتزيد بزيادته . ومثاله قول امرئ القيس
 رَقَانِيكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٌ وَعَرْفَانِ وَرَمِيمٌ عَفَّتْ آيَاتُهُ مِنْذُ أَرْمَانِ (٥)
 وجعله العماد أحد دعائم الجمال البديعي ، وأورده في ترجمته للخطيب
 الوراق ، فقال بحد أن أثنى عليه وأطال : " فشعره مصرع مرصع " ولم يورد عليه أمثلة .

(١) الخريدة - قسم العراق ج ٤ ص ٦٦٢/٢ (٢) المصدر نفسه ص ٦٦١
 (٣) الممددة ٢٠/٢ - ٣٠ (٤) الخريدة - قسم الشام ٤٧٢/٢
 (٥) الممددة ١٧٢/١
 (٦) الخريدة - قسم العراق ج ٤ ص ٣١/١

١٠ - التوشيح :

ولم أن يأتي الأديب باسم مثنى ثم يقوم بشرحه بلفظتين تاليتين . وقد ذكره
العماد حين وصف رسالته التي أرسلها للقاضي الفاضل ، ولم يذكره في الخريدة بمسند
ذلك ، ولكنه أورد قصيدة لأسامة بن منقذ الترم التوشيح في كل بيت من أبياتها ومنها :

لَا زِلْتُ يَا مَلِكَ الْإِسْلَامِ فِي نَحْمٍ قَرِينُهَا الْمُسْعِدَانِ : النَّصْرُ وَالظَّفَرُ
تُرْدِي الْأَعَادِي وَتُسْتَشْفِي مَمَالِكَهُمْ وَعَوْنُكَ الْمَاضِيَانِ : السَّيْفُ وَالْقَدَرُ (٢)

آراء نقدية أخرى :

(١) تأثير البيئة على النظم : يرى العماد أن للبيئة أثراً كبيراً على نتاج الشاعر ، فإذا
كانت البيئة جميلة راقية جاء شعره ملساً عذباً ، وإذا كانت جافة قلقة جاء شعره متكلفاً .
فقد علّق على شعر أبي طلحة النعماني الذي قضى شطراً من عمره باليمن ثم رجع إلى العراق ،
ف رأى العماد أن عناك فارقاً كبيراً بين شعره في اليمن وشعره في العراق فقال بعمد
أن أورد مطلع قصيدة له : " وعذو القصيدة جيدة بالإضافة إلى شعره ، وليست من
أسلوبه ، فما أدرى كيف خبره ، أتقولها أم انتحلها ، أم نقلها ، أم أثرت فيه تربة اليمن ،
فأتى بالنظم الحسن ؟ وأرى يمانياته كاليمنيات المطبوعة المصقولة عصباً وأناه اليمن
باليمن فنال شعره برفعته الرقعة وعرفه العراق فمحق بدو مخاطره المحاق ، وما أراه فارساً
ولا جالياً لعرائس . . . (٣)

(٢) تأثير الصحة على النظم : ويرى العماد أن للصحة الجيدة ، تساعد صاحبها على
القول الجيد والسبك المحكم والمكس عوالم صحيح ، فقد علّق على قصيدة ابن بهلول
السرقسطي قائلاً : " هذا شعر أضعفه مرض قائله ولا بأس به . . . (٤)

(٣) الشعر يشرف بالمدح أو القائل :

يبدو أن العماد كان يرى أن منزلة المدح لها تأثير على الشعر ، فكلما كانت

(١) الخريدة - القسم المصري ٤٤/١ (٢) الخريدة - القسم الشامي ٥٤٥/١
(٣) العراق ج ٢/٢٠ وكرر المعنى نفسه ص ٤٧
(٤) المفري ٣٠٦/١

عالية جاء الشعر جيداً ، فقد ذكر في ترجمته للخليفة المستنجد أنه يسجل بعض الأسماء التي قالها المستنجد لمنزله فقال : وهذه الأسماء أكتبها لشرف قائلها وقد قيل :

وَخَيْرُ الشُّعْرِ أَشْرَفُهُ رَجَالاً وَشَرُّ الشُّعْرِ مَا قَالَ الْعَبِيدُ (١)

أهمية الخريدة :

وبعد : فقد وصلنا إلى نهاية هذا الباب ، ولم نتحدث بعد عن أهمية الخريدة قديماً وحديثاً مع أنها حرة بكلمة تُرْفَعُ غامها ، وتُغْلَى مقامها ، وتجلُّ صفحاتها الذعبية في سما الحياة .

وإن الخريدة كتاب أدبي نقدي جامع ، فضلاً عن أنه بحث كثيراً من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، وقد سبق أن تحدثنا عن هذه المظاهر ، ولهذا سنقتصر القول على أهمية الخريدة من الناحية الأدبية والاجتماعية .

لقد ترجم الصمد لعدد كبير - ينيف على الألف - من الشعراء والكتّاب ، ولم يستطع أحد غيره من القراء كتباً شبيهة أن يجمعوا هذا العدد الضخم منهم ، وهذه ميزة امتازت بها الخريدة على الكتب التي سبقتها أو التي جاءت بعدها مترسمة خطاها . فهي لذلك تمثل عصرها التاريخي والأدبي خير تمثيل .

وتسهيلاً لبيان أهميتها سنقسم شعراء الخريدة إلى ثلاث مجموعات :

أولاً : الشعراء الكبار ذوي الشهرة الواسعة والداوين الباقية ، وثانيتها : الشعراء المعروفون الذين فقدت داوينهم ، وثالثتها : الشعراء المغمورون الذين لم تكن لهم سمعة ، ولم يُحظوا بشهرة .

إن الخريدة سجل هام للمجموعة الأولى حيث أصبحت المصدر الرئيس في تحقيق داوينهم والحفاظ على أشعارهم التي لم ترد في هذه الداوين ، ومنها ٠٠ وسنذكره

(١) المرآة ٢١/١ والبيت للفرزدق حين سمع نصيب الشاعر وطو عبد أسود ينشد عند الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (الجاشية)

ممثلين لا حصرين - : دواوين ابن الرزق البلسي (١) ، وابن رشيق القيرواني (٢) وابن خفاجة (٣) الأندلسي ، والشريف المقلبي (٤) ، وابن حمديس الصقلي (٥) ، وابن الدغان الموصلبي (٦) ، وعرقلة الكلبى (٧) ، وابن الخياط الدمشقي (٨) ، وقتيان الشاغوري (٩) ، وسبط ابن التعاويذي (١٠) ، وابن سناء الملك (١١) ، والملك الصالح بن رزيق (١٢) ، والحيس بيص (١٣) ، وابن الكيزاني وغيرهم .

ولننظر في بعض هذه الدواوين لنحصر أشعارنا ، ونتعرف ما نقل منها عن

الخريدة .

وأول هذه الدواوين ديوان ابن رشيق القيرواني :

- ١- المقطوعة رقم ٢٨ مؤلفة من بيتين نقلهما المحقق من الخريدة .
- ٢- القصيدة رقم ٢٢ والبيتان الأخيران فيها من الخريدة .
- ٣- المقطوعة رقم ٥٩ وعلى ثلاثة أبيات من الخريدة فقط .
- ٤- المقطوعة رقم ٨١ وعلى خمسة أبيات من الخريدة فقط .
- ٥- المقطوعة رقم ٨٨ وعلى ثلاثة أبيات من الخريدة فقط .
- ٦- القصيدة رقم ١٢٦ وهي اثنا عشر بيتاً جاء في الخريدة منها أرقصام
١٢٥١ ٥٢٤ ٥٤٥ ٥٥٦ ١٢٥١ .

- ٧- القصيدة رقم ١٥٨ جاء في الخريدة منها بيتان عما الأول والثاني .
- ٨- المقطوعة رقم ١٩٠ وعلى بيتان من الخريدة .
- ٩- المقطوعة رقم ١٩٨ وعلى بيتان وردا في الخريدة وفي غيرها .

-
- (١) تحقيق عفيفة محمود ايراني
 - (٢) تحقيق الدكتور عبد الرحمن ياغي
 - (٣) تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي
 - (٤) تحقيق الدكتور زكي المحاسني
 - (٥) تحقيق الدكتور احسان عباس
 - (٦) تحقيق عبد الله الجيسوري
 - (٧) تحقيق أحمد الجندي
 - (٨) تحقيق خليل مردم
 - (٩) تحقيق أحمد الجندي
 - (١٠) تحقيق هوجيليوث نقل عن الخريدة في المقدمة .
 - (١١) تحقيق محمد ابراهيم نصر
 - (١٢) ديوان الصالح بن رزيق بتحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي
 - (١٣) تحقيق شاكر هادي شكر وزميله
 - (١٤) تحقيق الدكتور علي صافي محمد

وثانيتها ديوان ابن خفاجة الأندلسي ، وقد رجع المحقق إلى الخريدة فسي
تحقيقه تصحيحاً وزيادة - للقوائد الآتية أرقام : ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ،
٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،
٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ . وبعض هذه القوائد مفقولة من الخريدة لحسب .

ومعظم دواوين الصالح بن رزيق مفقولة من الخريدة لأنه مفقود في الأصل ،
وقام الدكتور أحمد أحمد بدوي بجمع ما تبقى منه ، وكذلك ديوان ابن الكيزاني مفقولة
من الخريدة ، وحصر أشعار ابن حمديس التي نقلت أو حققت من الخريدة يحتاج إلى
صفحات عدة .

ومن يراجع ديوان الحيمس يرى مدى الفائدة القصوى التي قدمتها الخريدة للمحققين

أما المجموعة الثانية من الشعراء فقد حفظت الخريدة أسماءهم ، إذ أن أسماءهم
معروفة ، ولكن دواوينهم فقدت أو لم يكن لهم - على ما يبدو - دواوين ، وقد حفظت
الخريدة الكثير من أشعارهم أمثال كمال الدين بن الشهرزوري ، وابن عسرون ، ومحمد بن
ناصر ، والمزني - عم العماد - وبعض الخلفاء العباسيين كالمستنجد ، والمستنفي وغيرهما
وبعض الأمراء الأيوبيين كتنفي الدين عمر بن شاهنشاه وغيره ، وكثير ممن عملوا في دواوين
الفاطميين كتاباً وقضاة ودعاة .

وأما المجموعة الثالثة فهم شعراء مغمورون حفظ العماد عليهم أسماءهم وأشعارهم
وعلاوة كثرت في الخريدة ، ويستطيع من يتصفح فهرس القسم المفري للخريدة الذي وضعه
المحققون في نهاية الجزء الثالث أن يرى هذا الأمر بوضوح ، إذ لم يجدوا لكثير من
الشعراء من ترجم لهم أو ذكروهم سوى الخريدة ، وقد ترجم العماد في الجزء الأول لثلاثة
وعشرين ومائة شاعر منهم ستون شاعراً لم يعرف المحققون عنهم أكثر مما ورد في الخريدة ،
وترجم في الجزء الثاني المطبوع لسبعة وتسعين شاعراً ، لم يعرفوا عن أربعة وعشرين منهم
شيئاً سوى ما جاء في الخريدة .

إننا نرى بوضوح أهمية الخريدة في هذا الأمر ، فهي تعطى للدارس صورة
واضحة المعالم عن الحياة الأدبية في العصر الذي ترجمت له .

(١) الفهرس في نهاية الجزء الثالث من القسم المفري .

وتعظم هذه الأهمية لأن الخريدة تحدثت عن كل البلاد الإسلامية دون استثناء تقريباً .

وترجع أهمية هذا الكنز الأدبي الثمين فضلاً عن تحقيق الدواوين - إلى كونها مصدراً عظيماً لكتب التراجم والتاريخ ، فما من كتاب جاء بعدها إلا ونقل عنها ، واستفاد بمعلوماتها وتراجم أديبائها . ومن هذه الموسوعات الكبيرة الباقية التي ظلت مشعلاً لنا ينير لنا دروب الجهالة القاتلة وظلام القرون الماضية السود - وسنشير في الهامش إلى الصفحات التي نقل فيها عن الخريدة - : تاريخ ابن الوردي ، وفوات الوفيات ، والمغرب في حلى المغرب ، وحسن المحاضرة ، ومرآة الزمان ، وانباء الرواة ، وتاريخ الحكماء ، والفلاحة والمفلوكون ، ونكت الهميان وتوشيح التوشيح ، وطبقات الشافعية الكبرى ، والنجوم الزاهرة وشذرات الذهب ، وأنوار الربيع ، ونفع الطيب والحلل السندسية .

-
- (١) تاريخ ابن الوردي ٩٣/٢ (٢) فوات الوفيات لابن شاعر في ترجمته لمقرلة وشفه بيروز بن شعب (١٢) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ٢٢٦/١ - ٢٢٧ ، ٢٥٧/١ - ٢٥٧
 - (٤) حسن المحاضرة للسيوطي ٥٤٠/١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ .
 - (٥) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ج ١ ص ٨ ، ٥٥٨ ، ١١٥ ، ١١٦ - ١٢
 - (٦) انباء الرواة للقفطي ٢٠٩/٣ - ٢١٠ (٧) تاريخ الحكماء للقفطي ص ٣٦٠
 - (٨) الفلاحة والمفلوكون للدلجي ١٤٦ ، ١٢٨ ، ١٣٦
 - (٩) نكت الهميان للصفدي ٢٥٩ ، ١٥٠
 - (١٠) توشيح التوشيح للصفدي ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١١
 - (١١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج ٤ في ترجمته للقاضي الفاضل وصالح الدين ٣٣٣
 - (١٢) النجوم الزاهرة لابن تفرى بردي / ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢٢٣
 - (١٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤/ ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩٦
 - (١٤) أنوار الربيع لابن معصوم ١٥١/١ ، ١٨٨ ، ١٥١/٥ ، ١٦٨ ، ١٩٦/٤
 - (١٥) نفع الطيب للمغري التلمساني ٢/ ٢٩٤ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٩٢/٣
 - (١٦) الحلل السندسية للسراني التونسي ج ١ ص ٩٥ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٩٠

ولقد أصبحت الخريدة مرجعاً ضرورياً لأية دراسة أدبية عن ذلك العصر السذى تحدث عنه ، ووردت أخبار رجاله ، ولا اعتقد أن دارساً له ، يستطيع الاستغناء عن الخريدة إلا إذا اعتمد على كتب أخذت عن الخريدة كالروستين ومفرج الكروب ، وكذلك على مهمة لمن يحقق الكتب القديمة لا فى المتن نفسه ، وإنما فى شرحه للتراجم الواردة فيه ، فالخريدة ضرورة للتعريف بالأشخاص الذين يذكرون فى كتب ذلك العصر .

ومن الكتب الأدبية والدراسات الحديثة التى اعتمدت على الخريدة ، وأخذت

عنها :

" كتاب الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية " للدكتور أحمد أحمد بدوى ، و " أعلام النبلاء " لمحمد راتب الطباخ ، وكتاب " ضياء الدين بن الأثير " للدكتور محمد زغلول سلام ، و " الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيئ الحملة الفرنسية " للدكتور عبد اللطيف حمزة و " الحركة الفكرية فى مصر والشام فى العصرين الأيوبي والملوكى الأول " له أيضاً ، و " الفن ومذاهبه " فى الشعر العربى " للدكتور شوقى ضيف ، و " القاصى الفاضل " للدكتور أحمد أحمد بدوى ، و " أدب الطنق " لجواد شير .

ومن الكتب القديمة التى استفاد محققونا من الخريدة فى التعريف بأعلامها :

" ريجانة الألبا " للخفاجى ، و " تاريخ مدينة دمشق " لابن عساكر ، وكتاب " التكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية " لعمارة اليمنى وتحقيق " غوتويغ درنبرغ " الذى نقل من الخريدة فى الجزء الثانى فقط ستاً وأربعين صفحة متتالية من ع ٦٠٨/٥٦٢ وغيرها فى مواضع متفرقة .

والخريدة ضرورة للجغرافى فضلاً عن الأديب والمؤرخ ، فقد ذكر العماد فى كل قسم مدنه وقراه ، وفصل القول فى كثير من أخبارها ، ذاكراً لمواقعها ، وبعدها وقربها من العاصمة أو مركز الولاية ، ومن يقرأ أو يتصفح فهرس الأجزاء العراقية وقسم بلاد العجم المخطوط يرى كثرة المدن والنقرى التى ذكرها العماد ، وقارئ الجزء المصرى يجد العديد من أسماء المدن المصرية .

(١) اسم المكان الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه بالقرب من الكربلاء ، وقد جمع جواد بشير كتاباً فى الأشعار التى قيلت فى مقتل الحسين منذ ذلك اليوم الى العصر الحديث .

إنَّ أعمية الخريدة تظهر في تصويرها للمجتمع وواقعه ، ونفسية الناظر فيه ولم يبلغ العمد إلى إخفاء الحقائق ، - فمع أننا نأخذ عليه من الوجهة الدينية والخلقية - إيراد الأسماء النادرة والقصائد البديعة - نجد من الناحية الاجتماعية البحتة تصوير المجتمع بفساده وأخلاقه ، فضلاً عن ذكره لطوائفه وأجناسه بمشاكله وعمومه ، ينعميمه وسمادته ، بعدله وظلمه ، بشجاعة أبنائه وجبنهم بجهادهم وعزائمهم .

ونعود لنخلص إلى القول بأن الخريدة سَنَدٌ كبير ومرجع عام للأديب والمؤرخ والجغرافي والعالم الاجتماعي ولعالم الأنساب - وقد لفت نظرنا أن العمد كان يهتم بنسب العرب فيورد منه ما يعرفه إلى أعلى الجدود - وللطبيب ليصرف منها أخبار الأطباء الشعراء ، وللشعبي يدرس ألقابها المختارة وللبلاغي يستخرج من بين صحائفهم شواهد .

ولقد عدت الخريدة كتاباً جامعاً ترجم فيه العمد للرجل والمرأة دون تمييز ، - بين المسلم والمسيحي واليهودي - للعرب والفارسي والتركي والأرمني والكردي .

ويعد : فهذا هو نهاية الباب الرابع الذي قصرناه على الخريدة آملين أن نكون قد أصبنا الهدف ، وبالله كل توفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خاتمة البحث ونتائج البحث

وبعد ، فقد وصلنا إلى نهاية المطاف ، وانتهينا من البحث إلى آخره ، وسوف نسجل في الصفحات التالية ملخصاً وافياً للبحث وموجزاً مركزاً للحديث عنه ذاكرياً — خلال ذلك أهم النتائج التي وصلنا إليها ورجعنا بها من رحلتنا بين الذخائر والكتوز .

ومحنتنا هذا يتكون من تمهيد وتقديم وأربعة أبواب ، ولقد تحدثنا في التمهيد عن أسباب اختيارنا لهذا الموضوع وعن أهم مصادره ومراجعته والدراسات التي سبقت في مجاله .

وجعلنا التقديم لتصوير الحالة السياسية في القرن السادس ، كما أوجزنا الكلام عن الحالتين العملية والاجتماعية ليكون ذلك مدخلاً للبحث ، يطلع القارئ فيه على بعض مظاهر الحياة ، وأنهينا التقديم بالتعريف المركز بأصهبان مسقط رأس العماد ، ومدى ما أثمرت فيه من ألوان ورسوم .

وقد خصصنا الباب الأول للتعريف بجوانب حياة العماد المختلفة ، وقسمناه إلى ثلاثة فصول .

أما الفصل الأول فكان للحديث عن حياة العماد وعمله ، ورحيله إلى الأقطار الإسلامية وقد عرفنا بنسبه ولقبه والمشهورين من أسرته خاصة والده وجدده وعمه العزيز الذي كانت له شهرة ذائعة وصيت عال ، وفضل شائع ، ووصل في الدولة السلجوقية إلى مركز مرموق .

وقد تابعنا في هذا الفصل فترة طفولته في أصفهان ، ورحيله مع والده إلى بغداد ، حيث التحق بالمدرسة النظامية ، التي كانت تمثل الجامعة الإسلامية الأولى ، والصرح العلمي العالي ، وقد قضى فيها العماد قرابة عشر سنوات ، تنقل أثناءها بين أروقتها ، يأخذ عن كل عالم نصيباً ، وعن كل أدب فسطاً وانفرا من ثروته الأدبية الطائلة .

وفي سنة ٥٤٢ هـ زار الموصل ولكن إقامته فيها لم تطل فكرر راجعاً إلى بغداد ومنها إلى مسقط رأسه وذلك في مطلع سنة ٥٤٣ هـ وكان قد وثق بنفسه وعلمه ، واجتهد

بأديه وشعره ، وظل في أصفهان قرابة خمس سنوات سمع فيها من بعض شيوخها ، ودُرِّسَ على أكبر علمائها ، وفي هذه الفترة بدأ جمعه لمادة الخريدة ، وزار خلالها عمَّدانًا ، فمسم رحل بعد ذلك حاجاً إلى بيت الله الحرام ، وعاد إلى أصفهان ، ولكن إقامته لم تطل إذ وجدناه يعود سريعاً إلى بغداد .

وفيها التحق بديوان ابن هبيرة فعمل نائباً عنه في واسط والبصرة ، وظل فسى عمله هذا إلى سنة ٥٦٠ هـ حيث توفي الوزير ، وسجن أصحابه وشركوا ، وكان السجن من نصيب العماد - أيضاً - فلجأ لاستدرا راعطيف الخليفة الذي لم يلب له عطفه ، فلجأ إلى عماد الدين أبي نصر على بن محمد الدين وزير الخليفة ، فأخرجه من السجن وغفا عنه .

وفي سنة ٥٦٢ هـ وجدناه في الشام ، وسرعان ما التحق بنور الدين كاتباً للإنشاء ، وخلال السنوات الباقية من حياة نور الدين ارتقى في المناصب فأصبح رئيساً لديوان الإنشاء ، ومشرفاً على الدولة وأمورها ، ومستوفياً لأموالها . . فضلاً عن إشرافه الكامل على المدرسة التي سميت - فيما بعد - باسمه " الصادية " .

وقد تباينا حياته بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ، فرأينا أحواله قد تضررت إلى أسوأ وتبدلت بالخير شراً ، وأن وظائفه ومناصبه قد سلبت منه ، ولم يبق له سوى كتابة الإنشاء . فرحل عن الشام كاسفاً آسفاً متجهاً إلى بغداد ، ولكن المرض أقمده عن متابعة العرف ، وبعد شهور قليلة سمع بمقدم صلاح الدين إلى دمشق ، فرجع إليها ، واتصل به ولكنه لم ينجح على الرغم من معرفته الوثيقة السابقة له ، وعلاقته الوطيدة به وبوالده نجم الدين وعمه شيركوه ، وعرف العماد أنه لا سبيل إليه إلا بالتوصل إلى القاضي الفاضل ، فدحه ، ودخل به القاضي الفاضل على صلاح الدين ، وألحقه بديوانه نائباً عنه حين يكون في مصر .

ومنذ تلك الفترة أصبح العماد الظل الملائم لصلاح الدين والخيال الذي ينزل بنزوله ويرحل برحيله ويقوم حيث يقوم ، لم يشك ، ولم يتوجع ، وعاش عاملاً له ، مخلصاً إليه في حركة ونشاط ورغبة وحب شديد .

كان العماد أميناً ، عادفاً ، وفيماً ، فأحبَّه السلطان ووثقَ فيه ، وأبقاه إلى جانبه في جهاده وحروبه الداخلية ، وسفرائه إلى مصر ، ودمشق وحلب ، وطبرية والقدس

وعكا ويافا وغيرهما .

ولقد تابعنا أعمال العماد في تلك الفترة ، والحروب التي شهدنا ، والأيام التي قضاها في دمشق إلى يوم وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ .

ثم تحدثنا عن حياته بعد وفاة السلطان ، وتناول مركزه ، ومحاولاته الإصلاح بين الإخوة المتصارعين من أبناء السلطان .

وقد ألقينا الأضواء على السنوات الأخيرة من حياته التي قضاها في التدريس والتأليف إلى أن قضى نحبه في يوم الإثنين الأول من شهر رمضان من سنة ٥٩٧ هـ .

كذلك ألحقنا بهذا الفصل حديثاً شافياً عن أولاده وأحفاده ، فقد ترك العماد ولداً يُلقَّب بعزيز الدين أو عز الدين خلفه في العمادية ، وخلف هذا الولد ولدين هما الحسن والحسين وكانت لهما شهرة في زمنهما ، وذلك ليكون لهذا الحديث مدخلًا للدفاع عنه ضد اتهامات الصفدي له ، وذلك الحاصد لجدنا والذي كان يعيش زمنهما .

ولقد خصصنا الفصل الثاني للحديث عن ثقافته العماد ومعارفه وثقافته وشيوخه وتلامذته وفصلنا القول في العوامل والأسباب التي أتت بثقافته وعمقتها ، وكان لدراسته المنظمة في النظامية خاصة ، وشرائه للكتب ومراسلاته المتعددة ، ودواوين الشعراء التي كان يجمعها أثناء جمعه لمادة الخريدة ، ولتنقلاته ورحلاته ومشاهداته أثر مباشر في عمق هذه الثقافة وتمددنا .

وقد تحدثنا في هذا الفصل عن المدارس التي تعلم فيها ، وأوسعنا القول في الحديث عن شيوخه وأساتذته ، ولا شك عندنا أن للأساتذة أو الأساتذة أبلغ الآثار في التلميذ وطالب العلم ، هذه الآثار التي تنطبع في الصغر ، لتظهر واضحة بارزة في الكبر خيراً كانت أو شراً .

ولهذا ترجمنا لعدد كبير من شيوخه يفوق الخمسة والثلاثين عالماً ، وكلهم كانوا من كبار العلماء المتخصصين وجلهم كانوا من الأفاضل الذين شهد لهم المؤرخون بالفضل الكبير ، والعلم الفزير .

إننا لا ندعي استقصاء عدد شيوخه جميعهم ، ولكننا ركزنا في تراجعتنا لهم على علومهم ومنازعتهم ، وأبرز صفاتهم . . . خاصة الخلقية منها ، لإيماننا الوثيق بأن هذه

الأمر كان لها الفضل الأكبر في تكوين شخصية العماد وأخلاقه فضلاً عن تنوع ثقافته .

كما تحدثنا في هذا الفصل عن تلاميذه ، فعلى الرغم من أن العماد لم يجد الوقت الكافي لتحمل أعباء المدرس قهراً كإدائه كان خلال الأوقات القصيرة التي قضاه في دمشق يعمل في التدريس في مدرسته العمادية ، وقد اكتفينا بالترجمة لسبعة من تلاميذه الذين ذكرهم المؤرخون .

وقد ألقينا بهذا الفصل حديثاً عن أخلاقه وصفاته ، وفصلنا القول عن هذه الأخلاق ، وتلك الصفات ، وقد ظهر التباين في آراء النقاد وجولها ، فبعضهم رفعه إلى مصاف كبار الرجال الثقات المخلصين الفضلاء ، وآخرون نزلوا به إلى أدنى الصفات وأحطها ولهذا حاولنا جاعدين أن نبحث كل ما قيل حوله ناقضين أو موافقين ، مدققين حين يتطلب الأمر دقاً ، ساكنين في غير ذلك ، وقد التزمنا أن يكون للبحث العلمي القبول الفصل في هذا السبيل .

وجعلنا الفصل الثالث للحديث عن نتاجه الأدبي ، فجمعنا كل كتبه ، وقسمناها حسب موضوعها إلى خمسة أقسام هي :

- ١- تعليقاته
- ٢- كتبه المترجمة
- ٣- كتبه التاريخية الأدبية
- ٤- كتب التراجم الأدبية
- ٥- كتبه النثرية والشعرية .

وقد عرفنا بكل كتاب منها ، وذكرنا أن من أشهر كتبه وأعمها كتاب الحريرة وعرفنا في الأدب والتراجم الأدبية وكتاب "نصرة الفترة" ، وكتابه "الفتح القدسي" و "البرق الشامي" ، ويعدّها المؤرخون مصادر رئيسة لكل من يرغب في دراسة الحياة الأدبية والتاريخية في القرن السادس الهجري .

وقد تحدثنا عن مختصرى كتابيه "البرق" و "نصرة الفترة" وذكرنا طبعت كتبه الباقية ومخطوطاتها وأماكن وجودها ، وحققنا القول في كتاب نسب إياه هو كتاب البستان الجامع ، ونفينا أن يكون له مبيّن الأسباب ذاكرين الملل .

أما الباب الثاني فقد خصصناه لأدب العماد المنشور وقسمناه إلى ثلاثة فصول وقدّمنا للفصل الأول بكلمة موجزة عن النشر قبل عصره وفي زمنه شارحين أهم فنونه وموضوعاته ،

ولأن القاضي الفاضل يعد شيخ كتاب ذلك الزمن ترجمنا له في هذا الفصل وفصلنا القول في مدى تأثير العماد به ، وذكرنا الآراء المختلفة ، لنجد أن العماد لم يقرأ للفاضل إلا في السنوات الأخيرة من حياة نور الدين وبعد أن أصبح الفاضل اليد اليمنى لصلاح الدين بعد توليه وزارة الفاطميين . وقد رأينا أن هذا التأثير لم يكن يتمدى الأمور الشكلية ، إذ كان العماد حين التقى بالفاضل قد مارس الكتابة في الدواوين وبلغ من العمر ما يزيد على خمسين عاماً ، وكانت شخصيته بعد نضجت ، وبلغ من سمو المكانة فون ما يريد ويأمل .

ثم فصلنا القول في فنون العماد النثرية ووجدنا أنها تنقسم إلى أربعة فنون واضحة هي : النثر الديواني والرسائل الأخوية والنثر الأدبي الخالص والكتابة التاريخية .

وقد كان نثره الديواني نتاج عمله الرئيسي في الدواوين التي عمل فيها ، وقد قسمناها حسب موضوعها إلى ستة عشر نوعاً أهمها كتب البشائر وكتب المنجذبات اليومية ، وكتب الشكر على مساعدة أرسلت وكتب الأخبار بوصول جيشهم الفرنجي وغير ذلك مما كان المهمل الحكومي يتطلبه . وأوردنا من كل نوع النماذج التي توضحه وتميزه عن غيره .

وعتقنا بالرسائل الأخوية ، وأوردنا نماذج منها ، والباقي منها قليل قلة واضحة ، وإن كانت الإشارات إليها كثيرة .

وقد لخصنا القول في نثره الأدبي ويشمل ما كتبه في الخريدة وسيلها أثناء تعريفه بالأدباء ، وتركنا الحديث التفصيلي للباب الرابع الذي خصصناه للخريدة والحديث عنها .

وكذلك لخصنا القول في نثره التاريخي وتركنا الحديث التفصيلي إلى الفصل الثاني - من هذا الباب - الذي خصصناه للحديث عن العماد المؤرخ وأسلوبه في كتبه التاريخية .

وجعنا الفصل الثاني للعماد المؤرخ ، فتحدثنا عن الفترة التي أرخ لها والأسباب التي دعت إلى ذلك ، وقد وجدنا أن العماد اهتم بتاريخ الأيام التي عاشها والأحداث التي زامنها وشهدها على الأغلب أو سمعها من ثقات ، يشذ عن ذلك مقدمته لسنة الفترة . . التي أرخ فيها من سنة ٤٤٧ هـ . . يوم دخول طغرليک السلجوقي إلى بغداد وسار في سرد الأحداث إلى سنة ٥٧٥ هـ .

أما كتابه " البرق الشامي " فقد أُرخ فيه للفترة الواقعة بين سنتي ٥٦٢ - ٥٨٩ م وقصر كتابه (الفتح القدسي) على سبع سنوات منذ دخول صلاح الدين القدس سنة ٥٨٣ إلى سنة وفاته سنة ٥٨٩ م .

أما رسائله الثلاث المصنفة والمصنفة " و " نحلة الرحلة " و " خطفة البارق " فقد قصرنا على تاريخ خلفاء صلاح الدين إلى يوم وفاة العماد سنة ٥٩٢ م .

ولقد تحدثنا في هذا الفصل عن منهجه في كتابه " التاريخ وعلومه " سلفه من المؤرخين المسلمين ، من النوع الذي يقوم على نظام الحوليات ، الذي لم يلتزمه فـسـ " نصرة الفترة " التزاماً دقيقاً ، فقد كان يسبق الأحداث أو يؤخرها في كثير من الأحيان .

وفي منهجه هذا كان يكتب التاريخ ويضيف إليه الشعر والرسائل النثرية والقصص الضرورية ، وإن كان في " الفتح القدسي " قد أكثر من الرسائل ولم يورد أية قصيدة .

كذلك وازنا بين العماد وزميليه اللذين زامناه ونعنى بهما ابن شداد القاضي الثقة ، وعز الدين بن الأثير المؤرخ المسلم المشهور ، ثم عرفنا بهما وبأهم سماتهما .

أما ابن شداد فقد اشتهر بكتابه " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " وأما عز الدين بن الأثير فقد عرف قديماً وحديثاً بكتابه " الكامل في التاريخ " وقد حاولنا جانحين تقضى علاقات العماد بهذين العالمين الكبارين .

لقد امتدح المؤرخون ابن شداد على أمانته ، وعدم تحيزه ، وعدوا كتابه المذكور من الكتب التاريخية الهامة لدراسة ذلك العصر ، خاصة تلك الحوادث التي أوردنا بعد التحاقه بديوان صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ .

أما ابن الأثير - الذي كان مؤرخاً عظيماً - فقد وجدنا بعض الباحثين فـسـ التاريخ أمثال جب والدكتور نظير سعداوى وروزيماان والدكتور البارى المرنى وغيرهم - يرون أنه تحيز للزنكيين وأظهر عداوة للأيوبيين ، واتهموه بالنقل من " البرق الشامي " دون إشارة ، وأخذوا عليه بعض المآخذ التي ذكرناها في مواضعها .

ولقد ألقنا بهذا الفصل بحثاً عن صفات العماد المؤرخ وأوردنا آراء المؤرخين - المسلمين منهم والشرعيين - فيه ، وتبين من آراء الذين أطلعنا على كتاباتهم - اتفاقهم

جميعها على أمانته وصدقه ، ودقته في تسجيله للحوادث التاريخية ، وواضح أن العماد بشر يخطئ كما يخطئ غيره من الناس ، وإن كان خطؤه يرجع إلى الوهم الذي أوردنا في التمثيل له عدة صور ورسوم .

ثم أنهينا هذا الفصل بالحديث عن كتب العماد التاريخية وكونها مصادر أصيلة للمؤرخين العرب القداماء منهم والمحدثين فضلا عن المستشرقين ، وذكرنا العدد الوافر من الكتب التي استقت من نبع كتبه واستنادات منها ، ونقلت عنها .

أما الفصل الثالث فقد جعلناه لدراسة نثره الفني وأشرنا إلى أن دعائم أسلوبه الفنية قسمان : دعائم لفظية ، عرفنا بأهلها من صور بيانية كالتشبيه والاستعارة والتورية ، وصور بدعية مثل الجناس ورد الأعجاز على السدور والطباق والترصيح والموازنة والمحسنات اللفظية كالإقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف .

وقد فصلنا القول في بنية النثر الفني عنده ودرسنا الألفاظ والتراكيب في هذا اللون ، ووجدنا أنها تختلف من رسالة إلى رسالة ، ففي بعضها ما إلى كل أسلوب غريب اللفظ غامض المعنى ، وفي بعضها الآخر ما إلى السهولة ، وقد استعمل ألفاظا غير عربية خاصة من الفارسية والمسيحية .

ودرسنا كذلك مقادير الرسائل عنده ورأينا أنها اختلفت حسب غرضها وموضوعاتها ففي الرسائل المرسلة إلى الخليفة كانت تطول وتتسع حتى تبلغ عدة صفحات ، في حين أنها تقصر وتضيق في المنشورات العامة ، ولكنها لا تقل عن صفحة واحدة من الحجم المتوسط .

كما درسنا بنية الرسائل من حيث إنهم اختلفت في مقدمتها وموضوعها وخاتمها ، ففي بعضها خاصة رسائل البشري - كان بيدوها بآية قرآنية توافق المناسبة . وإن كانت رسالة تحذير بدأها بالألفاظ المنتقاة الرنانة التي توضح الخطر وتحذر من مغبة التهاون والكسل . ثم ينتقل إلى الفرض الأساسي وينهى الرسالة بالدعاء للخليفة أو غيره ثم بحمد الله على الأرجح .

وناقشنا كذلك إيراد المعاني الإسلامية ، التي تظهر واضحة في رسائله الجهادية ، وتخف في رسائله الأخوية ، وغيرها مما يبعد عن الجهاد والأمور الإدارية .

ولقد خصصنا الباب الثالث للحديث عن العماد وأدبه المنظوم — ونعني به —
العماد الشاعر ، وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول ، تحدثنا في الفصل الأول عن
الشعر في ذلك العصر وعن شعر العماد بين ناقديه .

وقد لاحظنا بعد رجوعنا إلى آراء كثير من الباحثين — أن معظم الذين
درسوا شعر تلك الفترة يهجمون ذلك الشعر ، فإذا كانت دراستهم تدور حول شاعر معين
كالوليد المديح وأشادوا بجودة شعره ، وصفاء قريحته ، وحرروا الأمثلة التي يعتقدون أنها
ثبتت وجهة نظرهم .

كما لاحظنا أن البديع كان سمة بارزة صبغت شعر هذه الفترة وغطت أدبها
وقد قسمنا الشعر عامة إلى قسمين هما : الشعر التقليدي ، وشعر الجهاد ضد الفرس
الصلبي .

وقد ظهر طابع التقليد واضحاً في القسم الأول ، وبدأ فيه الضعف ، وإن كان
معظمه لم يبلغ درجة الانحطاط والتدني التي زعمها بعض الباحثين . كما أظهرت في
قصائد الترم قائلوها التلاعب اللفظي .

أما شعر الجهاد ، فلم يستطع البديع أن يخفف من صدقه وقوة عاطفته وحرارتها
فظهرت أصالته واضحة جلية ، وقد تبع من قلوب قائليه .

وفي القسم الثاني من هذا الفصل تحدثنا عن آراء النقاد في العماد الشاعر
ولاحظنا أنهم يختلفون فيه اختلافاً بيناً ، فمنهم من يمتدحه ويرتفع به كالمنذرى ومحمد سيد
كهلاني والأثرى وغيرهم ، ومنهم من ينزل بشعره إلى الحضيض كمظفر سلطان ، ومنهم من
يرى أنه متوسط الجودة كالدكتور محمد زغلول سلام . غير أننا وقعنا على قصائد للعماد
بلغت حد الروعة خاصة في شعره الجهادي ، وبعض قصائده الغزلية ، كما عرفنا له قصائد
تدنت كثيراً عن سابقاتها ، وقصائد أخرى فلد فيها سبقه من الشعراء ، وثالثة ظهر فيها
التلاعب اللفظي ، وسيطر الغريب على لحن رابع منها ، حتى إن القارئ ليشعر بمعيوبها
أثناء قراءتها .

وفي الفصل الثاني تحدثنا عن أغراض شعره الذي قسمناه إلى ثلاثة أقسام هي :
أ — الأغراض التقليدية ، وتشمل ما نظمه في المدح والسياسة والتهاني والاستعطاف

والغزل والشوق والحنين والوصف والرثاء والهجاء والحكمة وغيرها .

وقد كانت أشعار المدح تتأثر قوة وضعفاً بمنزلة المدح وبصفة عامة كانت أشعاره

المدحجية تميل إلى التوسط .

أما شعره السياسي فنحنى به الشعر الذي نظمته في الدفاع عن الدولة العباسية

أو عن نور الدين ثم صلاح الدين بعده .

أما أشعار التهاني ، فهي أشعار مدح نظمها العماد في حوادث ومناسبات

خاصة كان يبدؤها بالتهنئة بذلك النصر أو الحدث السعيد .

وأما شعر الاستعطاف فمعظم ما نظمته في هذا الصدد كان أثناء سجنه في

بغداد ويظهر فيه صدق العاطفة ، وقوة الرجاء .

وأما غزله فكان ثلاثة أقسام أولها : ما نظمته في مقدمات القصائد ، وثانيها :

قصائد غزلية محضنة ، وثالثها الغزل بالمذكر .

وقد كان يبدأ قصائده الأولى بالغزل ، وكان يطيل المقدمة الغزلية إذا أراد

الهروب من الغرض الأصلي .

أما شعره الغزلي المحض فلم يصلنا منه الا قليل . . غير أنه من جيد الشعر .

وأما غزله بالمذكر فلم نعلم منه الا على مقطوعتين ، اعترف بأنه نظمها تقليداً

لغيره وإن استغلها الصفي وسواه في اتهامه بسوء الخلق .

وأما قصائده في الشوق والحنين فله عدة قصائد نظمها في الشوق إلى دمشق

وأعلم فيها حين كان يفاد رعا إلى مصر كما أن له قصائد أخرى في الحنين إلى مصر

وأصدقائه فيها . ويبدو صدق العاطفة واضحاً قوياً في هذا الشعر .

وله - كذلك - عدة قصائد ومقطوعات في الوصف ، وصف فيها الرياحين والشيب

والقطائف والمشمش وغيرها وهو شعر عادي لا جديد فيه ولا إبداع ، وقد كان ينظمه ليثبت

قدرته على ارتجال الشعر وسرعة البديهة في بعض المواقف .

وقد رثى بعض أصدقائه في مقطوعات قليلة ، لم يكن للحزن أثر واضح فيها .
وليس له في الهجاء سوى ثلاثة أبيات كانت أقرب إلى الفخر منها إلى الهجاء
وقد نجح فيها أحد أمراء نور الدين بعد وفاته .

وله عدة أبيات نظمها في الحكمة ، وهي جيدة .
وقد نظم في أغراض أخرى غير ذات أهمية كالأنفاز والأخويات والفخر وغيرها .

ب - أما القسم الثاني من شعره ، فيدور حول شعر الجهاد وأغراضه ، وقد دخل لهذا
القسم بتمهيد موجز عن شعر الجهاد منذ عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى عهد
العماد .

ووجدنا أن أبرز أغراض العماد - في هذا اللون - خمسة هي :
مدح المجاهدين أمثال نور الدين وصلاح الدين وشيركوه وتقي الدين عمر ابن أخي السلطان
والملك الأفضل بن صلاح الدين وغيرهم .

وقد أضحى العماد على هؤلاء الصفات الإسلامية والأخلاق السامية ، ولا غرو فقد
كان يمدح ملوكاً وأمراء وقادة جاهدوا في سبيل الله ، ودافعوا عن دينه وأرضه ولسان
يستطيع شاعر أن يمدح واحداً منهم دون أن يلبسهم تلك الصفات الحميدة ، وشعره فسي
المدح ينبع من إحساس عميق ببطولة الممدوحين خاصة نور الدين وصلاح الدين ، وقصد
كان العماد يمدح هذين البطلين العظيمين عن مشاهدة لأعمالهما الخارقة ، ورؤيته
لحروبهما الموفقة ، وفرحة بانتصاراتهما المؤثرة المحققة ، فارتقت معظم أشعاره فيهما حتى
بلغت حد الجودة ، أما مدحه لغيرهما فكان أقل درجة ، وأضغ حرارة .

٢ - والرثاء هو الغرض الثاني الذي برز فيه بعد المدح ، فقد بكى العماد نور الدين
حين توفي - تاركاً قرائناً كبيراً - ونظم فيه عدة قصائد ومقطوعات ما في بعضها من
الحكمة والتمزى ، غير أنه حين اكتشف أن الخطب جلل ، والمصيبة فوق التحمل ، وأن الأمة
قد فقدت قائداً رائداً - يصر أن يعوضه أحد حتى نظم فيه قصيدته الرائجة التي نعدنا
من أروع درره ، وأبدع غرره ، وأعمق قصائده إحساساً وأدقها شعوراً وأكثرها حزناً .
وقد شهد في شيخوخته وفاة صلاح الدين ، فبكاه أحر بكاءً وأشده ، وقصيدته الثائبة
في رثائه من أقوى الشعر في هذا المجال .

٣ - عجايب المتخاضين وقد ظهر متناثرا في أبيات عدة ، نعى عليهم فيها تخاذلهم ،
وتعزيرهم بجبنهم وضعفهم .

٤ - الحث على الجهاد وكان يأتي في البيت الواحد والبيتين والثلاثة خلال مدحه للملوك
والأمراء ، يحثهم على استعادة الوطن السليب ، وتحرير الأرض المحتلة ، وقد كان
للقدس المنزلة الأسمى والمكانة الأسمى ، فما تكاد قصيدة تخلو من دعوة إلى تحريرها
وطرد الصليبيين منها وأبياته هذه صادقة تمام الصدق . . تصور عاطفته وحساسيته أتم
تصوير .

٥ - الوصف ، وهو الفرص الخامس ، وقد وصف في شعره الجهادي المعارك والقتلى
وغزارة الدماء ، وفرار الأعداء وكثرة أسراهم ، وغير ذلك مما يدور في ساحات الحروب .

وأما القسم الثالث من شعره فهو شعر الدوبيت ، وقد شرحنا معنى هذه الكلمة ،
وأصلها وأثبتنا منه أمثلة عديدة حفظها لنا المؤرخون ، وبعض هذا النوع نظمه العماد على
لسان نور الدين ، وصورة جميلة رائعة ، في معناها وأسلوبها وصوغها وموسيقاها . كما
نظم منه سورا أخرى في النزل وغيره ، وقد كان للعماد ديوان شعر قصره على الدوبيت
أشرنا إليه في الحديث عن كتبه وان كان قد فقد ضمن كتبه المفقودة .

والفصل الثالث خصصناه لدراسة دعائم أسلوبه الشعري لفظية ومعنوية وقسمنا
قسمنا هذه الدعائم إلى قسمين : أولهما : التصنيع البلاغي . وثانيهما : بنية القصيدة .

١ - ويشمل التصنيع البلاغي الصور البيانية والزخارف البديعية ، من أظهر الصور البيانية
التي ظهرت من هذا القسم : التشبيه والاستعارة ، وقد اعتمد العماد على تتابع الاستعارات
الجزئية ، وكذلك الكناية والتورية .

وكان من أبرز الزخارف البديعية التي وسعت شعره : الطباق والمقابلة وحسن
التعليق .

كذلك كان من أبرز تلك الزخارف اللفظية : الجناس الذي يعد الدعامة الأولى
في شعر العماد ، وكذلك التصريح والافتقار من القرآن الكريم وتضمين الشعر والمصطلحات
التحقيقية .

٢ - وفي القسم الثاني ونعنى به بنية القصيدة درسنا مقدمة القصيدة عند العماد ، الذى التزم فى نظمه خلال الفترة الأولى من حياته البدء بالفزل ، ولكنه سرعان ما تركه بعمد رحيله إلى دمشق والتحاقه بنور الدين وصالح الدين ، وصار ينظم فى الغرض الأصلى مباشرة خاصة فى شعر الجهاد .

وقد بينا أن العماد حاول كثيرا تجويد مطالع قصائده فنجح فى بعضها ، وفشل فى البعض الآخر ، وكذلك حاول أن يحسن التخلص من غرض إلى غرض ، فأجاد أحيانا وأساء أحيانا أخرى ، وحاول كذلك أن ينهى قصائده نهاية طبيعية غير متكلفة ، فنجح مرات وأساء مرات أخرى .

كذلك درسنا القافية فى شعره وأوزانه الشعرية ، وكذلك ألفاظه وتراكيبه ومعانيه الجديد توالقليدية ، وقد وجدنا أنه - فى بعض الحالات - كان يميل إلى الغرابة اللفظية ، كما كان يكرر بعض معانيه فى بعض قصائده .

كذلك كان يكثر من الإشارات التاريخية ويستعمل المصطلحات الفقهية بقله فى بعض أشعاره .

وقد أشرنا إلى استعماله المبالغة فى شعره خاصة فى المدح ، وعلى عادة شعراء ذلك العصر .

xxxxxxxxxxxx

وفى الباب الرابع تولينا دراسة الخريدة . . تلك الموسوعة التى أمضى العماد فى تأليفها ما يزيد على ربع قرن من الزمن ، وقد جعلنا هذا الباب فى أربعة فصول .

أما الفصل الأول فقد درسنا فيه العديد من المجموعات الشعرية التى انتمت بالأدب وأصحابه ، وقسمناها حسب منهجها إلى قسمين :

القسم الأول منها أخذ صفة خاصة ، وصيغة معينة سواء من تلك التى سبقت الخريدة أو التى تلتها ، ثم عرفنا بها ومنهج كل كتاب منها ، وأهم مميزات ، وحددنا الفترة التى ترجمت لها .

وذكرنا من هذه الكتب كتاب " طبقات الشعراء " لابن المعتز ، الذى خصه

لشعراء الدولة العباسية في زمنه و "الدرة الخطيرة" ، والمختار في شعراء الجزيرة " لابن القطاع السقلى " ، و "جنان الجنان" ورياض الأذهان " للرشيد بن الزهير ، و "المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل مصر" لابن بشر بن عثمان بن عبد الرحيم ، و "قلائد المقيان في محاسن الأعيان" للفتح بن خاقان . وكتاب "أشعار يزيد بن" للقطبي و "المحمدون من الشعراء" له أيضا . و "الحلة السيرة" لابن الأبار ، و "الفصون الياضعة في محاسن شعراء المائة السابعة" لابن سعيد الأندلسي ، و "الكتيبة الكامنة على شعراء المائة الثامنة" لابن الخطيب .

أما القسم الثاني فترجمنا فيه لما أسميناه المجموعات الكبرى وأولها : "الباع في أخبار الشعراء المولدين" لابن المنجم للبغدادي . (و يتيمة الدهر في محاسن أهل مصر " لأبي منصور الثعالبي ، و "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام ، و "وديمة القصر" للباخرزي و "الرقاع روضة القصر" لأبي الحسن البيهقي ، و "وزينة الدهر وعصرة أهل مصر" لأبي الممالي سعد بن علي الوراق الكظيري .

وقد عرّفنا بكل كتاب منها ، وأوضحنا منهجه والفترة التي ترجم لها وأعم ميزاته وأبهر سماته .

وفي الفصل الثاني تحدثنا عن خريدة القصر " معرفين بها ، فذكرنا الدواعي الخاصة والعامة - التي دفعت العباد إلى تأليفها وأوضحنا سبب التسمية وزمن تصنيفها ، ولمن ألّفها ؟ والرقمة المكانية التي ترجمت لمشهوريتها ، وكذلك الفترة الزمنية التي رصدت أخبارها ، وخرجنا بنتائج محددة أهمها أن العباد على الرغم من إعلانهم أن سبب تأليفها كان لهدف خاص - توسع في بحثه ، ومد أهدافه حتى شمل العالم الإسلامي الذي زامنه ، ولهذا ترجم لمعظم بلاد العجم وفارس والسراق وبلاد الشام والحجاز واليمن ومصر وشمال إفريقية ، وبلاد الأندلس فضلا عن جزيرة صقلية . وقد لاحظنا أنه أعمل بلاد نجد وطرابلس الغرب .

وقد عرّفنا في هذا الفصل بأقسامها الأربعة وأجزائها المتممة وأماكن مخطوطاتها ، ذاكرين أجزاء كل مخطوطة ، وأعم صفاتها ، وكذلك طبعتها والقائمين على تحقيقها وإخراجها إلى خير الطباعة الحديثة .

ثم اتبعنا بهذا الفصل ترجمة كتابه " ذيل الخريدة وسيل الجريدة " أو " السيل على الذيل " وهو كتاب يفتقد على الأرجح - حتى وقتنا هذا - كما عرفنا بمختصرى الخريدة وأولهما مختصر الحافظ ، وثانيهما مختصر على رضائى المسمى بـ " عمود الشباب " .

ثم ألحقنا بذلك تعريفات لكتب سارت على نهج الخريدة وألحقها " سلافة المصر فى محاسن الشعراء " بكل مصر " لابن معصوم ونحو من أدبوا القرن الحادى عشر وكذلك كتاب " ريحانة الألبا " وزهرة الحياة الدنيا " لشهاب الدين أحمد بن محمد ابن عمر الخفاجى ، وهو ذيل على الكتاب السابق فى شعراء القرن الحادى عشر أيضاً ، وكتاب " نَفْحَةُ الرِّيحَانَةِ وَرَشْحَةُ طِلَافِ الحَانَةِ " لمحمد أمين بن فضل الله الحلبي ، . . . وهو ذيل على الكتابين السابقين .

أما الفصل الثالث ، فخصصناه لأثر العماد فى الخريدة وقسمناه إلى عدة أقسام أولها : الأثر التظيى . . . وقد درسنا طريقته فى تقسيمه لأجزاء الخريدة لنجد بمسند ذلك أنه لم يكن دقيقاً فى هذا التقسيم ، ويعود ذلك إلى طول تنقله الذى لم يترك له فراغاً كافياً لمراجعة الخريدة وتبويبها تبويباً جيداً دقيقاً .

وقد درسنا طريقته فى جمع مادة كتابه وترتيبها ، ووجدنا أنه لم يسلك منهجاً ثابتاً فى الترتيب ، وأنه لم يتخذ مكان الولادة أساساً للترجمة ولا طول الإقامة سبباً لها ، وإنما خلط بينهما ، إذ كان يترجم لمصريين فى أقسام أخرى ولشعراء من الشام فى القسم المصرى وغير ذلك .

كذلك درسنا مصادر العماد فى الخريدة ووجدنا أنها تنحصر فى المصادر الشفوية وذكرنا أهم رواته فى الأقسام المختلفة ، والمصادر المكتوبة وأوردنا أهم الكتب والدواوين والمسودات الشعرية التى نقل عنها .

وثانيهما الأثر الأسلوبى ، حيث درسنا طريقة العماد فى الأخذ من هذه المصادر ووازننا بين بعض مصادره الباقية حتى الآن ، والخريدة لنجد أنه كان يتصرف فى النص الأسمى ويغير كثيراً من ألفاظ الكتب - التى نقل عنها - بألفاظه ويصوغها بأسلوبه محافظاً على روح النص وبعض الكلمات فيه .

كذلك حصرتنا الإضافات والتعليقات التي زادها لتثبت أن العماد لم يكن مجرد جامع للمعلومات والأشعار ، ولا ناسخ لها ، وإنما كان له إضافات قيمة ، فهو يشرح بعض الأشعار وينقدنا ، ويوضح بعض الألفاظ الغامضة ويترجم لبعض الأعلام أحياناً .

وكذلك كان يحدد مكان لقائه بالشاعر وزمانه والمناسبة إن وجدت ، ويذكر الفرس من المقطوعة أو القصيدة قبل إيراده لها ، وهذا العمل يدل على أن العماد كان يقرأ كل قصيدة ، ثم يحللها إلى أغراضها المختلفة . . . على النمط التحليلي المعروف .

وكان يوازن في كثير من الأحيان — بين المعاني المتشابهة في الأشعار ذاكراً بيت الشاعر أو قصيدته ، مورداً ما يشبهه من أشعار الأوائيل والسابقين . مفضلاً ما يعجبه ذاكراً عيباً ما لم يعجبه أحياناً .

كذلك تحدثنا عن بعض المظاهر العلمية والاجتماعية والسياسية التي رصدتها الخريدة .

ودرنا في هذا الفصل بؤروز شخصية العماد وطابعه في هذه الموسوعة لنجد أن شخصيته وأسلوبه ظاهراً بارزاً لكل قارئ بأحلى الصور وأوضح الرسوم ولم ننس أن نلقى الضوء على سماحة العماد وعدم تعصبه لقطر دون الأقطار الأخر ، فقد ترجم لرجالها جميعاً دون تمييز أو تفریق .

كذلك لم ننس أن نلقيه مرة ثانية على بعض الظواهر الأخرى ومنها وأسبابه فسي تراجع بعض الشعراء ، واختصاره لتراجم غيرهم ، وأوضحنا أن ذلك يعود إلى كثرة المادة أو سآلتها ، وربما كان للإعجاب بالمتراجم أو عدمه دخل في هذا الاتجاه أو ذاك .

ثم أنهينا هذا الفصل بالحديث عن أماتته وتجرده ، لنجد رجلاً أميناً فسي الأمور العلمية لا يحرفها ولا يبدلها ، ولكن يحفظ جوهرها ويرعى حقيقتها ، وإن كان يخبر ألقاظها أو معظمها في بعض الحالات .

وقد أشرنا إلى أن الدكتور شوقي سيف يرى أنه تحيز ضد شعراء الفاطميين فحذف معظم الأشعار التي قيلت في خلفائهم .

كما أشرنا أموراً صغيرة أخرى ذكرناها في موسمها من هذا الفصل .

أما الفصل الرابع فقد خصصناه للحديث عن العماد الناقد ، وسهدنا لهذا الحديث بموجز عن النقد في عصره وأبرز أعلامه ورجاله .

ثم جعلنا حديثنا عن نقد العماد قسماً أولهما : نقده الذووي ، وثانيهما : نقده الموضوعي ، لنجد أن له من التوحيين الشيء الكثير .

ثم فصلنا القول في نقده الموضوعي وفسمنا آراءه إلى أربعة ألوان :

١- أولهما : في نقده للشكل الأدبي للقصيدة ، وقد أوردنا آراءه في استعمال المصطلحات العلمية والمنطقية في الشعر ، وكذلك اللحن والحقيقة والمجاز ، والصور البيانية لنجد في النهاية أنه لا يمانع في استعمالها جميعاً باستثناء اللحن الذي يجده عيباً كبيراً .

٢- وثانيهما : في نقده لبناء القصيدة وقد درسنا فيه رأيه في حسن المطلع وحسن المخلص وسوئه ورد العجز على الصدر .

٣- وثالثها : في نقده للمضمون ، وقد بينا آراءه في قضية اللفظ والمعنى . . . لنجد أنه اهتم بهما كليهما ، وأنه كان يمتنى بانتقاء ألفاظه عناية بالغة ، وكانت له آراء في المعاني عامة . . . وبينه وخلقية ، وكذلك في الألفاظ ، وقد فصلنا القول عنها في مواضعها من هذا الفصل .

ثم تحدثنا عن رؤية في المبالغة والسرقات الشعرية ، وقد ذكر بعض أنواعها ، وكان يرى أن الأخذ " نوعان " . . . مستساغ مقبول ، ومستثقل مردود ، ولم يكن يجهل بأن يُصنَّ الشعراء ، أشعارهم آيات من القرآن الكريم أو أبيات من نظم الشعراء .

٤- ورابعها : في نقده للبيدح ومشتقاته ، وقد أثبتنا أن العماد كان يطرب أشد الطرب بكثير من صور البيدح وفنونه ، ولعل أهمها كان الجناس والطباق والموازنة ولـ لزوم ما لا يلزم ، والتعريض والتقسيم والمقابلة والتوسيع والتصريح ، وما لا يستحيل بالانعكاس وقد عرفنا بها وذكرنا رأيه في كل واحد منها .

وقد ختمنا هذا الباب بالحديث عن أهمية " الخريدة " وذكرنا جوانب هذه الأهمية التي تلخص فيما يلي :-

- ١ - أنها مرجع هام لدواوين الشعر المحفوظة ، والكتب التاريخية والأدبية التي كتبت عن ذلك العصر .
- ٢ - أنها تنفرد في كثير من الأحيان بتقديم ألوان وصور من شعر الشعراء الذين ليس لهم دواوين . أو فقدت دواوينهم .
- ٣ - أنها تحفظ أسماء الشعراء المضمورين الذين لولاها لأسدل عليهم الزمان ستائر النسيان .
- ٤ - أنها الكتاب الوحيد الذي يبقى ليكون المصدر السادق في الكتابة عن ذلك العصر .
- ٥ - أنها مصدر جغرافي دقيق ينفع علماء الجغرافية في التعرف إلى أسماء البلاد والقرى والمواضع في مختلف الولايات الإسلامية . وخاصة أثناء الحروب المتوالية .
- ٦ - أنها مصباح تاريخي لعلماء الأنساب ، نظرا لاهتمامها بذكر نسب كل من ترجمت لهم من الشعراء وسواهم ومن هنا نؤمن إيماننا وثيقا بأهميتها العظمى في كل جانب تعرضت له من هنا وهناك .

ولئن وسعنا فضل الله فحيانا بالتحمل وجمالنا بالتصبر ، وأعاننا على السير في تلك الرحلة الشاقة التي قميناها بين مختلف المكتبات ، والتي أنفذناها في الدراسة العميقة والكتابة الدقيقة عن هذا الأديب الكبير ، وولفه الخطير . . . إنا لنشكر لله أنعمه ، ونذكر ما أتته ، ونسأله أن يوفقنا لطلعه واته بعد له ، كي نؤدى فروض الشكران . . . على قيثار العرفان . . . ولن نستطيع بأي إمكان .

ولا يفوتنا أن نعترف مشنى وثلاث ورباع لأصحاب الفيض الجميل ، والفنل الجزيل من أساتذنا الجهابذة الذين شاركوا في إقامة هذا البناء ، وإشادة ذلك المرح ، أو تحمل آلام الاطلاع عليه ، والوقوف لديه ، والسير مع توجحاته المارمة ، في لوجه الهائمة . . . أعواما أو شهورا متواليا ، والله أسأل أن يشيب عيولنا ، وأولئك بقدر ما قدموا من خير ، أو بذلوا من جهد ، ويتولى عنى جزاءهم في الدارين . . . إنه أكرم من سئل ، وخير ممن أجاب ،

الباحث

فؤاد حسن أبو الهيجاء

الانثسين ٥ من صفر ١٣٩٧ هـ

٢٤ من يناير ١٩٧٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

في الصفحات الآتية ثبت بالصادر والمراجع توخيت فيه أن يكون مفصلاً ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، فسَجَّلْتُ الطبقات المختلفة التي رجعت إليها ، وسنة طباعتها ، وتحقيقتها والدار التي طبعت فيها . وإن كنت لم أجد في بعضها تاريخ طباعتها .

لقد أوردت في هذا الثبت جميع المصادر والمراجع الهامة التي عدت إليها مرات عديدة ، وتركت بعض المراجع التي رجعت إليها مرة أو مرتين .

ولم أسجل كذلك بعض المصادر الهامة خاصة معاجم اللغة ، وإن كنت رجعت إلى لسان العرب والقاموس في معظم الشروح اللغوية .

المراجعة

العماد الأعفهانى الأديب - وخريدته

مصادر البحث ومراجعته

١- المصادر والمراجع العربية والمترجمة

القرآن الكريم .

- ١- ابن سناء الملك - حياته وشعره - تحقيق ودراسة محمد إبراهيم نصير - دار الكاتب العربى - بالقاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٢- ابن الكيزانى الشاعر الصوفى المصرى - حياته وديوانه . د / على صافى حسين دار المعارف بمصر .
- ٣- أدب النّظف أو شعراء الحسين عليه السلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر - جواد شجر - مطابع قدموس الجديدة لبنان ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م .
- ٤- الأدب فى بلاد الشام . د / عمر موسى باشا . المكتبة العباسية بدمشق ط ٢ - ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .
- ٥- الأدب فى عصر صلاح الدين الأيوبي . د / محمد زغلول سالم . مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية ١٩٥٩ م .
- ٦- الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيئ الحملة الفرنسية . د / عبد اللطيف حمزة . مكتبة النهضة المصرية .
- ٧- أزهار الرياض فى أخبار عياض . شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمسانى تحقيق مصطفى السقا وزملائه . لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٩ م .
- ٨- الأعللق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة . تاريخ مدينة دمشق لابن شداد عز الدين أبى عبد الله محمد بن على بن إبراهيم المتوفى سنة ٦٨٤ هـ تحقيق د / سامى الدهان . المطبعة الكاثوليكية - بيروت .
- ٩- الأعلام . خير الدين الزركلى - مطبعة سناتسوس ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .

- ١٠ - أعلام النبلاء بتاريخ حلب المشهية . . محمد راغب بن محمود بن عاشم الطباخ الحلبي . . المطبعة العلمية في حلب ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م .
- ١١ - إنهاء الرواة على أنباء النخاعة . . الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي . . مطبعة دار الكتب ١١٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
- ١٢ - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لقاضي القضاة أبي اليمين مجير الدين الخنبلي . . مكتبة الوحيات - عمان - الأردن ١٩٧٣ م .
- ١٣ - أنوار الربيع - للسيد علي صدر الدين بن مصعب المدني ١٠٥٢ - ١١١٢ هـ تحقيق شاكرو هادي شكر . ط ١/ ١٣٨٨ و ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٨ و ١٩٦٩ م .
- ١٤ - بدائع البدائ . . لعلي بن ظافر الأزدي . . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . . دار نهضة مصر ١٩٧٠ م .
- ١٥ - البداية والنهاية لابن كثير المتوفى ٧٧٤ هـ - مطبعة السعادة بمصر .
- ١٦ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . . للحافظ جلال الدين السيوطي . . تحقيق الاستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم . . جزآن . . دار إحياء الكتب العربية . . عيسى البابي الحلبي - القاهرة .
- ١٧ - التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول / للسيد أبي الطيب صديق ابن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني النجاري القنوجي ١٢٤٨ - ١٣٠٧ هـ / ١٨٢٢ - ١٨٩٥ م . تعليق وتصحيح عبد الحكيم شرف الدين . . المطبعة الهندية العربية ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .
- ١٨ - تاريخ ابن خلدون . . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . . دار الكتاب اللبناني . . ط ١٩٦٧/٣ و ١٩٦٨ م .
- ١٩ - تاريخ ابن الفرات لناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن الفرات . . تحقيق وتصحيح الدكتور حسن محمد الشماع . . مطبعة حداد - البصرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .

- ٢٠ - تاريخ آداب اللغة العربية •• جورجى زيدان •• دار مكتب الحياة •• بيروت
١٩٦٢ م •
- ٢١ - التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية •• د / أحمد شلبى •• مكتبة النهضة
المصرية ط ١٩٦٢/١ م •
- ٢٢ - التاريخ الباهرى الدولة الأتابكية ببلبوس •• لعز الدين بن الأثير
٥٥٥ - ٦٣٠ هـ تحقيق عبد القادر أحمد طليعات •• دار الكتب الحديثة
بالقاهرة •• مكتبة المثنى ببغداد - رسالة ماجستير - ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م •
- ٢٣ - التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى •• د / نظير حسّان
سعداوى - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٢ م •
- ٢٤ - تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رونسيان •• ترجمة الدكتور / الباز العرينى
دار الثقافة - بيروت ط ١٩٦٨/١ م •
- ٢٥ - تاريخ الحكماء وهو مختصر الزوزنى المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب
أخبار العلماء بأخبار الحكماء •• لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف
القفطى •• مكتبة المثنى - بغداد •• ومؤسسة الخانجى بمصر •
- ٢٦ - تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى
المتوفى ٩١١ هـ / تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد / المكتبة التجارية
الكبرى بمصر ط ١٣٨٢/٣ هـ / ١٩٦٤ م •
- ٢٧ - تاريخ دولة آل سلجوق من إنشاء الإمام عماد الدين محمد بن حامد الأصفهانى •
اختصار الشيخ الإمام الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى - مطبعة
الموسوعات بمصر ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م •
- ٢٨ - تاريخ الشعر العربى •• د •• محمد عبد العزيز الكفراوى - ج ٣ / ط ١٩٦٢/١ م -
دار نهضة مصر •
- ٢٩ - تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان - ترجمة نبيه أمين فارس ومفهر البعلبكي /
دار العلم للملايين بيروت - ط ١٩٦٥/٤ م •

- ٣٠ - تاريخ معرة النعمان لمحمد سليم الجندى - مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق - ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- ٣١ - التاريخ المنصوري : تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان . لأبي الفتح محمد بن علي الحموي . عن نشره بطرس عزيزا نرنهويج - موسكو ١٩٦٣ م - دار النشر للآداب الشرقية .
- ٣٢ - تمة المختصر ، وهو مختصر تاريخ أبي الفداء لزين الدين عمر بن السوردي م ٧٤٩ هـ - تحقيق أحمد رفعت البدرأوى - دار المعرفة - بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٣٣ - تذكرة الحفاظ للحافظ شمس الدين أبي عبد الله الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ - مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية - الهند - حيدرآباد - ط ١٣٣٤ / ٢ هـ .
- ٣٤ - تذكرة النوادر من المخطوطات العربية - مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد - جمعها السيد عاشم الندوي .
- ٣٥ - ترويح القلوب في ذكر الملوك بنى أيوب - للمرتضى الزبيدي - تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م - مطبوعات في مجمع اللغة العربية بدمشق .
- ٣٦ - تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ألفه كمال الدين أبو الفضل عبد السرازق بن تاج الدين أحمد المعروف بابن القوطى الشيبانى الحنبلى ٦٤٢ - ٧٢٢ هـ دمشق - مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم .
- ٣٧ - التكملة لوفيات النقلة . . لزكى الدين عبد العظيم المنذرى ٥٨٨ - ٦٥٨ هـ - تحقيق بشار عواد معروف - مطبعة عيسى البابى الحلبي ١٣٧٥ هـ / ١٩٧٥ م - القاهرة .
- ٣٨ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لخليل بن أبيك الصفدى . تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم . . دار الفكر العربى - القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٣٩ - تهذيب ابن عساكر - عبد القادر بدران . . دمشق ١٣٢٩ هـ - طبع بعناية أحمد عبيد - مكتبة عبيد .

- ٤٠ - توشيح التوشيح - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - تحقيق ألبير مطلق - دار الثقافة - لبنان ط ١٩٦٩/١ م .
- ٤١ - ثمرات الأوراق .٠٠ لتقى الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحوي - ٨٣٧/٧٦٧ هـ - صححه وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم . ط ١ / مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧١ م .
- ٤٢ - الجاه المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير - ابن الساعي أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين المتوفى ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م - المطبعة السريانية الكاثوليكية بغداد ١٩٣٤ / ١٣٥٣ م - تعليق مصطفى جواد ج ٩ / .
- ٤٣ - الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية .٠٠ للإمام محيي الدين بن محمد عبيد القادر بن أبي الرفاء ٧٦٦ / ٧٧٥ هـ - ط ١ / طبع مجلس دائرة المعارف في الهند - حيدرآباد .
- ٤٤ - الحركة الفكرية في مصر والشام في العصرين الأيوبي والملوكي الأول . د / عبد اللطيف حمزة - ط ١ / دار الفكر العربي بالقاهرة - ربيع الأول ١٣٦٦ هـ / فبراير ١٩٤٧ م .
- ٤٥ - الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام - محمد سيد كيلاني - مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٤٩ م .
- ٤٦ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة .٠٠ للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى ٩١١ هـ - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي - ط ١ - ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٤٧ - الحلل السندسية في الأخبار التونسية .٠٠ لمحمد بن محمد الأندلسي الوزيري السراج المتوفى ١١٤٩ هـ - تحقيق محمد الحبيب الهيلة - دار التونسية للطباعة والنشر ١٩٧٠ م .
- ٤٨ - الحلل السندسية .٠٠ للأميز شكيب أرسلان - دار مكتبة الحياة - بيروت .

- ٤٩ - الحلة السِّبْرَاءُ .. لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي -
٦٥٨/٥٩٥ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠ م - تحقيق د / حسين مؤنس - ط ١/١٩٦٣ م
الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة .
- ٥٠ - حول الأدب في العصر السلجوقي .. الدكتور / محمد التونجي - مكتبة قورنيسا
بنغازي ط ١/١٩٧٤ م .
- ٥١ - الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .. د / أحمد أحمد بدوي
مكتبة نهضة مصر .
- ٥٢ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام - د / أحمد أحمد بدوي
مكتبة نهضة مصر .
- ٥٣ - خريدة القصر وجريدة العصر للمعاد الأصفهاني .
- أ - القسم العراقي : ١ - الجزء الأول تحقيق الاستاذ محمد بهجة الأنسري
والدكتور جميل سميد - مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .
- ٢ - الجزء الثاني تحقيق الأستاذ محمد بهجة الأنسري
مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- ٣ - الجزء الرابع : قسمان تحقيق الأستاذ الأنسري
مطبعة الحكومة - بغداد ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- ب - القسم الشامي : تحقيق الأستاذ الدكتور شكري فيصل وهو أربعة أجزاء
١ - الجزء الأول - المطبعة الهاشمية - دمشق ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .
٢ - " الثاني - " " " " ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م .
٣ - " الثالث - " " " " ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
٤ - " " " " " " " " ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ج - القسم المصري :
- ١ - الجزء الأول : تحقيق د . أحمد أمين و د . شوقي سيف - د .
احسان عباس - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .

٢- الجزء الثاني : المحققون أنفسهم - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

د - القسم المغربي :

١- الجزء الأول : تحقيق محمد المرزوق ومحمد العروس والجيلاني بسن

الحاج يحيى - دار التونسية للنشر ١٩٧٣ م النشرة الثانية .

٢- الجزء الثاني : تحقيق أذرتاش أذرنوش وتنقيح محقق الجزء الأول

الدار التونسية للنشر ١٩٧١ م النشرة الأولى .

٣- الجزء الثالث : تحقيق أذرتاش أذرنوش وتنقيح محقق الجزء الأول

الدار التونسية للنشر ١٩٧٢ م النشرة الأولى .

٤- الجزء الأول : تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد المظالم

دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة / ١٩٦٤ م .

٥- الجزء الثاني : تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد المظالم

دار نهضة مصر .

٥٤ - المدارس في تاريخ المدارس . عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي المتوفى

٩٢٧ م تحقيق جعفر الحسني - مطبعة الترقى بدمشق ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

٥٥ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تأليف شهاب الدين أحمد بن حجر

المسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ حققه محمد سيد جاد الحق من علماء الأزهر

الشريف ج ٢ دار الكتب الحديثة - مصر .

٥٦ - دمية القصر وعمرة أهل مصر - لأبي الحسن الباخريزي المتوفى ٤٦٧ هـ تحقيق

الدكتور سامي مكى العاني - مطبعة المعارف - بغداد ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

٥٧ - ديوان ابن خفاجة الأندلسي تحقيق الدكتور / السيد مصطفى غازي . دار المعارف

بلا مكتدرية ١٩٦٠ م .

٥٨ - ديوان ابن الخياط - أبي عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي - (٤٥٠ /

٥١٧ هـ) تحقيق خليل مردم بك - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

- ٥٩ - ديوان ابن رشيح القرواني .. تحقيق الدكتور / عبد الرحمن ياغي - دار الثقافة بيروت .
- ٦٠ - ديوان ابن الزقاي البلنسي .. تحقيق عيكة محمود إيراني - دار الثقافة بيروت رسالة ماجستير ١٩٦٤ م .
- ٦١ - ديوان ابن الساعاتي - بهاء الدين أبي الحسن علي بن رستم بن - مردوز الخراساني - تحقيق أنيس المقدسي - المطبعة الأميركية - بيروت آب / ١٩٣٩ م .
- ٦٢ - ديوان ابن عنين .. تحقيق خليل مردم - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق / ١٩٤٩ م .
- ٦٣ - ديوان الحبيبي - تحقيق مكي السيد حاسم ، وشاكر عادي شكر .. دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٤ و ١٩٧٥ م ثلاثة أجزاء .
- ٦٤ - ديوان الدوييت في الشعر العربي في عشرة قرون . د / كامل مصطفى الشبيبي منشورات الجامعة الليبية - كلية التربية . ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- ٦٥ - ديوان سبط ابن التماوندي أبي النجيب بن عبيد الله بن عبد الله - نسخة وصححه : مرجعيات .. طبع في مطبعة المنقطف بدمشق ١٩٠٣ م وطبعته مقولاً عنها دار صادر بيروت حديثاً .
- ٦٦ - ديوان الشريف العقيلي .. تحقيق د / زكي المحاسني .. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- ٦٧ - ديوان عرقلة الكلبي .. تحقيق أحمد الجندی .. مطبعة دار الحياة - دمشق ١٩٧٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٦٨ - ديوان فتیان الشاغوري - أبي محمد فتیان بن علی الأسدي - ٦١٥ / ٥٣٠ هـ - تحقيق أحمد الجندی .. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
- ٦٩ - الذخيرة في محاسن أعمال الجزيرة تأليف أبي الحسن علي بن إسحاق الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢ هـ - تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادي وزملائهما القاهرة ١٣٥٨ - ١٣٦٤ هـ / ١٩٣٩ / ١٩٤٥ م .

- ٧٠- الذريعة إلى تصانيف الشيعة .. تأليف الشيخ آقا بزرگ الطهراني قسم ٣ / ج ٩ -
ط ١ - خانجانه - دانشگاه طهران ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
- ٧١- ذكر أخبار أصفهان لأبي نعمان أحمد بن عبد الله الأصبهاني .. طبع في مدينة
ليدن ، مطبعة بريسل سنة ١٩٣٦ م .
- ٧٢- ذيل تذكرة الحفاظ للحافظ أبي المحاسن الحسيني الدمشقي تحقيق حماد
الدين المقدسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٧٣- الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب .. الشيخ زين الدين أبي الفرج عبيد
الرحمن ابن شهاب الدين أحمد البغدادي .. ثم الدمشقي الحنبلي .. تصحيح
محمد حامد الفقي .. مطبعة السنة النوحية ١٤٧٤ هـ / ١٩٥٢ م .
- ٧٤- الذيل على الروضتين ، أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع لشهاب الدين
أبي محمد بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي تحقيق محمد زاهد بسطن
الحسن الكوثري والسيد عزت المطار الحسيني ط ٢ - ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م -
دار الجيل - بيروت .
- ٧٥- ذيل مرآة الزمان - قطب الدين موسى بن محمد اليوسفي المتوفى ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م
مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيد و آهاد - الهند - ط ١ - ١٣٧٥ هـ /
١٩٥٥ م .
- ٧٦- رحلة ابن جبير ابن الحسين محمد بن أحمد بن جبير المتوفى ٦١٤ هـ - طبع
المكتبة العربية - بغداد ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .
- ٧٧- أ (الروضتين في أخبار الدولتين التورية والصلاحية . لشهاب الدين أبي محمد عبيد
الرحمن ابن اسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي المعروف بأبي شامة - مطبعة
النهل سنة ١٢٨٨ هـ وأعاد تصويره عن النسخة نفسها دار الجيل - بيروت -
حديثاً .
- ب (الروضتين الطبعة الجديدة للجزء الأول تحقيق الدكتور / محمد حلمي
محمد أحمد ج ١ / ق ١ - المؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة
والنشر سنة ١٩٥٦ م ج ١ / ق ١ - المطبعة نفسها سنة ١٩٦٢ م القاهرة .

٧٨- ربحانة الألبا وزعيرة الحياة الدنيا لشهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الخفاجي ٩٧٧ - ١٠٦٩ م تحقيق عبد الفتاح حلو - ط ١ - مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .

٧٩- سلافة المصرف في محاسن الشمره بكل مصر . . . لصدر الدين بن أحمد نظام الدين بن معصوم - ط ١ - ١٣٢٤ هـ - مطبعة الخاتمي بمصر .

٨٠- السلوك لمعرفة دول الملوك - لثقي الدين أحمد بن علي المقرئ ٧٦٦ / ٨٤٥ هـ تحقيق محمد مصطفى زيادة - دار الكتب المصرية بالقاهرة - ١٩٣٤ م .

٨١- سمط النجوم الصوالي في أنباء الأوائل والتوالي - عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العمادي المكي - ١٠٤٩ - ١١١١ هـ - المطبعة السلفية .

٨٢- سنا البرق الشامي - ج ١ - لقوام الدين الفتح بن علي البنداري وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني . . . تحقيق الدكتور / رمضان ششن - دار الكتاب الجديد - بيروت ط ١ / ١٩٧١ م .

٨٣- سنان وصالح الدين - رواية تاريخية - لعارف تامر - دار بيروت ١٩٥٦ م .

٨٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩ هـ - مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ .

٨٥- الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي من أواسط المائة - لصدر الدين بن أحمد بن علي الجواد الطاهري - مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٨ م وج ٢ - مطبعة الماني بغداد ١٩٦١ م .

٨٥- السلوك لمعرفة دول الملوك - لثقي الدين أحمد بن علي المقرئ ٧٦٦ / ٨٤٥ هـ تحقيق محمد مصطفى زيادة - دار الكتب المصرية بالقاهرة - ١٩٣٤ م .

٨٦- صنم التاريخ الإسلامي - د. فيليب جتي - مترجمة الدكتور / أنيس فريجة - دار الثقافة بيروت ط ١ - سبتمبر ١٩٦٩ م .

٨١- سمط النجوم الصوالي في أنباء الأوائل والتوالي - عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العمادي المكي - ١٠٤٩ - ١١١١ هـ - المطبعة السلفية .

٨٧- صلاح الدين الأيوبي - دراسات في التاريخ - سير بناملتون جب - مترجمة يوسف إبيس - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٣ م .

٨٢- سنا البرق الشامي - ج ١ - لقوام الدين الفتح بن علي البنداري وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني . . . تحقيق الدكتور / رمضان ششن - دار الكتاب الجديد - بيروت ط ١ / ١٩٧١ م .

٨٨- صنع الأعشى في صناعة الإنشا - لأبي البسام أحمد بن علي القلقشندي المتوفى ١٠٨٧ هـ - مطبعة الخاتمي بمصر .

٨٢- سنان وصالح الدين - رواية تاريخية - لعارف تامر - دار بيروت ١٩٥٦ م .

٨٣- سنان وصالح الدين - رواية تاريخية - لعارف تامر - دار بيروت ١٩٥٦ م .

٨٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩ هـ - مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ .

٨٥- الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي من أواسط المائة - لصدر الدين بن أحمد بن علي الجواد الطاهري - مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٨ م وج ٢ - مطبعة الماني بغداد ١٩٦١ م .

- ٨٩ - صدى الفزوة الصليبي في شعر ابن القيسراني ٥٥ د / محمود إبراهيم - نشر
المكتب الإسلامي - دمشق - ومكتبة الأنثى عمان - ط ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- ٩٠ - ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد د / محمد زفلول سالم - مكتبة نهضة
مصر .
- ٩١ - الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد د / للشيخ أبي الفضل كمال الدين
جعفر ابن ثعلب الأدفوي المتوفى ٧٤٨ هـ تحقيق سعد محمد حسن - السدار
المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة - ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٩٢ - طبقات الشافعية الكبرى - الشيخ الإسلام تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب
ابن تقي الدين السبكي - ط ١ - المطبعة الحسينية .
- ٩٣ - طبقات الشافعية ٥٥ لجمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي المتوفى
٧٧٢ هـ - جزآن تحقيق عبد الله الجبوري - مطبعة الإرشاد - بغداد - ط ١
١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- ٩٤ - طبقات الشافعية لأبي بكر بن عداية الله الحسيني المتوفى ١٠١٤ هـ - طبع على
نفقة نعمان الأعظمي الكبي - صاحب المكتبة العربية ببغداد - سنة ١٣٥٦ هـ .
- ٩٥ - طبقات الشعراء ٥٥ لعبد الله بن المعتز المتوفى ٢٩٦ هـ - تحقيق عبد الستار
أحمد فراج - دار المعارف بمصر - سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .
- ٩٦ - العبر في خبر من غير - للحافظ الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م - تحقيق
د / صلاح الدين المنجد - وزارة الإرشاد الكويتية سنة ١٩٦٣ م .
- ٩٧ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار - لعبد الرحمن الجبرتي - تحقيق حسن محمد
جوزر وعمر الدسوقي والسيد إبراهيم سالم - ط ١ - لجنة البيان العربي
١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٩٨ - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي - د / محمود رزق سليم - مكتبة
الأدب ومطبعتها بالقاهرة - ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
- ٩٩ - العماد الأصفهانى - حياته وأعماله - طبعته وزارة المعارف السورية - المطبعة
الرسمية ١٩٥١ / ١٩٥٢ م .

- ١٠٠ - العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده - لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني
٤٥٦/٣٩٠ - تحقيق محمد يحيى والدين محمد الحميد - دار الجيل ببيروت
ط ١٩٧٢/٤ م .
- ١٠١ - عيون الأنبياء في طبقات الأطباء - لمؤلف الدين أبي المباس أحمد بن القاسم
المعروف بابن أبي أصيبعة - شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا - منشورات دار مكتبة
الحياة - بيروت ١٩٦٥ م .
- ١٠٢ - الفصون الياضعة في محاسن شعراء المائة السابعة - لأبي سعيد أبي الحسن
علي بن موسى الأندلسي - ٦٨٥/٦١٠ - تحقيق إبراهيم الإبياري - دار
المعارف - مصر ١٩٤٥ م .
- ١٠٣ - الفيتك المسجم في شرح لامية المعجم - تأليف الشيخ صلاح الدين خليل بن أبيك
الصفدي المتوفى ٧٦٤ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- ١٠٤ - الفتح القسي في الفتح القدسي - للمصنف الكاتب الأصفهاني المتوفى ٥٩٧ هـ -
تحقيق وشرح محمد محمود صبح - المدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .
- ١٠٥ - فتوح البلدان - لأحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلادي - تحقيق صلاح
الدين المنجد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٦ م . دار الجيل ببيروت .
- ١٠٦ - الفلاحة والمفلوكون - لشهاب الدين أحمد بن علي الدلجي - مكتبة الأندلس
بغداد / ١٣٨٥ هـ .
- ١٠٧ - الفن ومداعبه في الشعر العربي - د / شوقي ضيف - ط ٢ - مكتبة الأندلس
بيروت ١٩٦٥ - و ط ٨ - دار المعارف بمصر ١٩٧٤ م .
- ١٠٨ - الفن ومداعبه في النثر العربي - د / شوقي ضيف - ط ٧ - دار المعارف بمصر
١٩٧٥ م .
- ١٠٩ - فهرس المخطوطات المصورة - فؤاد سيد - مطبعة السنة المحمدية - أو - دار
الرياض للطباعة والنشر ١٩٥٤ م - قسم الأدب وغيره .
- ١١٠ - فهرس المخطوطات المصورة - دكتور لطفى عبد المديح - قسم التاريخ - معهد
المخطوطات العربية .
- ١١١ - الفلاحة والمفلوكون - لشهاب الدين أحمد بن علي الدلجي - مكتبة الأندلس
بغداد / ١٣٨٥ هـ .

- ١١١- فهرس المخطوطات المكتبة الأحمدية بتونس - خزانة جامع الزيتونة - جمع ٠٠ عبد الحفيظ منصور - دار الفتح للطباعة والنشر - بيروت - ط ١ - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- ١١٢- فهرس المكتبة الأزهرية حتى ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م - مطبعة الأزهر ١٩٤٩ .
- ١١٣- القاضي الفاضل - دراسة وتماذج - د / أحمد أحمد بدوي - مكتبة نهضة مصر ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م .
- ١١٤- قلائد العقيان في محاسن الأعيان - للفتح بن خاقان - تحقيق محمد المنانسي المكتبة المتينة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ١١٥- الكامل في التاريخ - عز الدين بن الأثير الجزري المتوفى ٦٣٠ هـ - تحقيق نخبة من العلماء - المكتبة التجارية الكبرى - مصر .
وله طبعة ثانية في دار صادر ، ودار بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٧٦ م .
- ١١٦- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة - لسان الدير - ابن الخطيب المتوفى ٧٧٦ هـ - تحقيق د / إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت .
- ١١٧- كشف الظنون - حاجي خليفة ١٠١٧ / ١٠٦٧ هـ - المكتبة الإسلامية والمكتبة الجعفرية بطهران - ١٣٧٨ هـ / ١٩٤٧ م .
- ١١٨- الكنى والألقاب - للشيخ عباس القمي - المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م .
- ١١٩- كنز الدرر وجامع الفرر - ج ١ - أو الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية - تأليف أبي بكر عبد الله بن أيوب الدواداري - تحقيق د / صلاح الدين المنجد ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .
- ١٢٠- كنوز الأجداد - دكتور / محمد كرو على - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق أو مطبعة الترقى - ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م .
- ١٢١- اللباب في تهذيب الأنساب لعز الدين بن الأثير - ٥٥٥ / ٦٣٠ هـ - تحقيق حسام الدين القدسي - مكتبة القدس بالقاهرة .

- ١٢٢- لسان الميزان - للحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
المتوفى ٨٥٢ هـ - الطبعة الأولى - مطبعة مجلس دائرة المعارف بالهند - حيدر
آباد ١٣٢٩ هـ والثانية بمؤسسة الأعلى للطبوعات - بيروت ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م .
- ١٢٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - لسياف الدين بن الأثير - قدم له وعلق
عليه د / أحمد الحوفي والدكتور / يدوي طبانة - دار نهضة مصر - ط ٢ - ١٩٦٣ م .
- ١٢٤- المحمدون من الشعراء وأشعارهم - علي بن يوسف القفطي المتوفى ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م
تحقيق حسن محمري - دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة - الرياض - ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م
- ١٢٥- المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيشي - انتقاء محمد بن أحمد بن عثمان
الذعبي - تحقيق د / مصطفى جواد - بغداد ١٩٥١ م .
- ١٢٦- المختصر في أخبار البشر - لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل صاحب حياة المتوفى
٧٣٢ هـ - المطبعة الحسينية المصرية - ط ١ / ١٣٢٥ هـ .
- ١٢٧- مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي المتوفى ٦٥٤ هـ - مطبعة مجلس دائرة المعارف
العثمانية - بحيدرآباد - بالهند - ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .
- ١٢٨- مرصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبلد - لسيد المؤمن بن عبد الحق البغدادي
المتوفى ٧٣٩ هـ - وهو مختصر معجم البلدان - لياقوت - تحقيق / علي محمد
البهجاوي - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- ١٢٩- المرتجل لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن الخشاب - ٤٩٢ /
٥٦٧ هـ - تحقيق علي حيدر - أمين مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق
١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- ١٣٠- مضمار الحقائق وسر الخلائق - محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي
٦١٧ / ٥٦٧ هـ - تحقيق الدكتور / حسن حبشي - بيروت .
- ١٣١- معجم الأدباء - ياقوت الحموي - تحقيق - دكتور أحمد الرفاعي - مكتبة عيسى
البابي الحلبي .
- ١٣٢- معجم البلدان - ياقوت الحموي - دار صادر ودار بيروت ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م وما
بعد .

- ١٣٣- معجم ما استمعجم من أسماء البلاد والمواضع للوزير أبي عبيد عبد الله بن عبيد
العزيز البكري الأندلسي المتوفى ٤٨٧ هـ - تحقيق مصطفى السقا - مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .
- ١٣٤- معجم المطبوعات العربية والمصرية - سركيس - مصر ١٩٢٨ م .
- ١٣٥- معجم المؤلفين - تراجم مصنفى الكتب العربية - عمر رضا كحالة - مطبعة الترقى
بدمشق - ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
- ١٣٦- المصرب من الكلام الأعجمى على حروف العجم - لأبي منصور الجواليقي - تحقيق
أحمد محمد شاكر - مطبعة دار الكتب ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م مصر .
- ١٣٧- المصرب في حلى المصرب - الذى صنفه بالموارثة - فى خمس عشرة ومائة سنة -
سنه من أهل الأندلس - تحقيق د / شوقى صيف - دار المعارف بمصر ١٩٥٣ م .
- ١٣٨- مفتاح السعادة ومصباح السيادة - فى موضوعات العلوم - لأحمد بن مصطفى
الشهير بطاش كبرى زاده - ٩٦٨ / ٩٠١ هـ ١٤٩٥ / ١٥٦١ م - مراجعة
وتحقيق كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبى النور - دار الكتب الحديثة - مصر .
- ١٣٩- فنون الثروب فى أخبار بنى أيوب - جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المتوفى
٦٩٢ هـ - ج ١ - تحقيق د . جمال الدين الشيال المطبعة الأميرية بالقاهرة
١٩٥٢ م - ج ١ - دار القلم بالقاهرة .
- ١٤٠- ضادمة الأطلال وصامرة الخيال - للعلامة الشيخ عبد القادر بدران المتوفى
بدمشق ١٣٤٦ هـ - المكتب الإسلامى للطباعة والنشر بدمشق - ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .
- ١٤١- المنتظم لابن الجوزى - طبع دائرة المعارف بجيدرآباد بالهند ١٣٥٢ هـ .
- ١٤٢- مؤرخو الحروب الصليبية - الدكتور / السيد الباز العزفى - دار النهضة
العربية بمصر ١٩٦٢ م .
- ١٤٣- المؤرخون المعاصرون لصالح الدين - دكتور / نظير حسان سعداوى - مكتبة
النهضة المصرية ١٩٦٣ م .
- ١٤٤- موسيقى الشعر - د / إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - ط ٤ / ١٩٧٢ م .

- ١٤٥- مهزان الاعتدال في نقد الرجال - للحافظ الذهبي - المتوفى ٧٤٨ هـ - دار
إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - تحقيق علي محمد البجاوي
- ط ٢ - ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .
- ١٤٦- الناصر صلاح الدين د / عبد المنعم ماجد - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨ م .
- ١٤٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن
تغرى بردى - القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م .
- ١٤٨- نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة - لمحمد أمين بن فضل الله بن محب الدين
بن محمد الحلبي ١١١ / ١٠٦١ هـ - تحقيق د / عبد الفتاح حلو - مطبعة عيسى
البابي الحلبي وشركاه - ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٧ - ١٩٦٩ م .
- ١٤٩- فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تأليف أحمد بن محمد الممرى التلمساني
المتوفى ١٠٤١ هـ - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الكتاب العربي .
- ١٥٠- النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية - لعمارة اليمنى - تحقيق مورتون
درنبرغ - طبع في مدينة شالون بمطبعة مرسو ١٨٩٧ م .
- ١٥١- نهاية الأرب في فنون الأدب - تأليف شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب
النويرى ٦٧٧ / ٧٣٣ هـ - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - وزارة الثقافة -
ظهر منه حتى الآن عشرون جزءاً .
- ١٥٢- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين - لبهاء الدين بن
شداد تحقيق الدكتور / جمال الدين الشيال ط ١ / ١٩٦٤ م - الدار المصرية
للتأليف والترجمة .
- ١٥٣- هدية المعارف - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - تأليف إسماعيل باشا البغدادي
- طبع وكالة المعارف الجليلية - استانبول ١٩٥٥ م .
- ١٥٤- الوافي بالوفيات - صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي - ج ١ - ط ٢ - طبع
باعتناء هلموت ريتز - دار النشر فرائز شتايز بئيسبادن - ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

- ١٥٥- وفيات الأعيان - لأبي الفباس شمس الدين أحمد بن خَلْكَانَ - ٦٨١/٦٠٨ هـ
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - ط ١ - مطبعة نهضة مصر
١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
وله طبعة ثانية بتحقيق الدكتور / إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت ١٩٦٨ م
وما بعدها .
- ١٥٦- الوفيات لأبي الفباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني
المتوفى ٧٤٠ هـ - تحقيق عادل نويهض - الكتاب التجاري للطباعة والنشر
بيروت .
- ١٥٧- يتيمة الدر - لأبي منصور المالبي النيسابوري المتوفى ٤٢٩ هـ - تحقيق
محمد إسماعيل الصاوي - مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ م - وكذلك
نسخة ثانية بتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٦ م .
-